ستيفن غراي

صحافي حائز على جائزة منظمة العفو الدولية، ومؤلف «الطائرة الشبح»

أسياد الجاسوسية الجدد

The New Spy Masters

داخل عالم التجسّس العصري من الحرب الباردة إلى الإرهاب العالمي



أسياد الجاسوسية الجدد

The New Spy Masters

أسياد الجاسوسية الجدد

The New Spy Masters

تأليف

ستيفن غراي

ترجمة

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-01-1755-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (961-1+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (961-1+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

معجم

مصطلحات التجسّس العصرية

استخبارات الإشارات (SIGINT): اختصار signals intelligence، ومعناها اعتراض سبيل الإشارات الإلكترونية، بما في ذلك الإشارات الصادرة عن أنظمة الاتصالات والرادارات وأنظمة الأسلحة. إنها المنافس الكبير للاستخبارات البشرية.

الاستخبارات البشرية (HUMINT) الاستخبارات من مصادر بشرية: أي الجواسيس. وهذه قد تتضمن أيضاً المعلومات من جلسات الاستنطاق والاستجواب والتعذيب أحياناً.

الاستنطاق (debriefing): استجواب مصدرٍ أو عميلٍ أو أسيرٍ؛ يمكن استخدامه أيضاً بقصد الاستجواب القاسي.

البريد الميت (dead drop): مكان تبادل يترك فيه العميل المعلومات السرية التي سرقها.

البوليس السري (secret police): جهاز استخبارات يكشف أعداء الدولة المزعومين ويراقبهم، وقد يعتقلهم ويستجوبهم سراً (إن جهازاً أمنياً مثل MI5 - الذي لا يملك صلاحية الاعتقال- ليس بوليساً سرياً بهذا المعنى).

الجاسوس (spy) أو العميل السري (secret agent): شخص يسرق معلومات استخباراتية سرية، ثم يمرِّرها إلى وكالة حكومية في بلده أو في الخارج.

جهاز الاستخبارات السرية (secret intelligence service): وكالة حكومية وظيفتها تجميع الاستخبارات وتنفيذ مهام سرية، سواء أكان ذلك تجنيد الجواسيس، أو تجميع استخبارات الإشارات (راجع أعلاه)، أو تحليل المعلومات الاستخباراتية السرية، أو تنفيذ نشاطات سرية و/أو خفية.

الخيانة (betrayal): من أجل تجميع استخبارات بشرية، لا مفرّ من أن يخون الجاسوس أحد الأشخاص عاجلاً أم آجلاً.

ضابط استخبارات (intelligence officer): موظف في جهاز استخبارات. وقد يكون ضابط فريق أو محلّلاً، بالإضافة إلى عدة أدوار أخرى.

ضابط فريق (case officer): موظف في جهاز استخبارات يجنّد العملاء السريين ويديرهم. يعترض هؤلاء الأشخاص عادة على نعتهم بالجواسيس، لأن هذا المصطلح قد يلمّح إلى الخيانة.

العلم الكاذب (false flag): خدعة يستخدمها جهاز استخباراتٍ لجعل العميل السري يظن أنه تم تجنيده من قِبل استخبارات بلد آخر.

العميل الثلاثي (triple agent): عميل مزدوج أُعيد تجنيده ليخون جهته الجديدة ويعمل لصالح جهته الأصلية.

العميل الفرعي (sub-agent) أو المصدر الفرعي (sub-source): عميل يعمل لدى عميل آخر، فيزوّده بالإشاعات المتداولة بين الناس.

العميل المزدوج (double agent): عميل سري يعمل لإحدى الجهات وتم إقناعه بالعمل لجهة أخرى أيضاً.

الغطاء (cover) أو الخرافة (legend): الهوية، السيرة، و/أو الغاية الخرافية لضابط الاستخبارات أو العميل السري، والمنشأة للسماح له بالوصول إلى بعض الأفراد المحدّدين أو الأماكن المحدّدة.

الغطاء الديبلوماسي (diplomatic cover): يسافر معظم ضباط الاستخبارات إلى الخارج بصفتهم ديبلوماسيين. وهذا يوفّر لهم حصانة من المحاكمة بتهمة التجسّس.

غير قانوني (illegal): الاستثناء: ضابط استخبارات يعمل من دون غطاء ديبلوماسي ويقوم بنشاطات تجسّسية. في الولايات المتحدة، يُعرَف غير القانونيين بـــ NOCs (وهو اختصار Non-Official Covers، أغطية غير رسمية).

الفُجائي (walk-in): متطوِّع لدى وكالة تجسّس قد يدخل حرفياً سيراً على الأقدام إلى سفارة، أو يتصل بأجهزة الاستخبارات عبر البريد الإلكتروني أو الهاتف أو الرسائل أو أي وسيلة أخرى.

القوانين (laws): قوانين يجب احترامها داخل بلد الجاسوس ومخالفتها خارجه. فالتجسّس مسألة غير قانونية في كل بلدان العالم، حتى للديبلوماسيين.

المتدلي (dangle): الفُجائي (راجع أعلاه)، يرسله العدو إلى جهاز استخبارات لزرعه كعميل مزدوج من أجل التزويد بمعلومات خاطئة أو التسبّب بأضرار.

المحلّل (analyst): شخص يدقّق في الاستخبارات السرية والعلنية، ويستخلص استنتاجات منها.

المُخبِر (informer): شخص يزوِّد أجهزة الاستخبارات أو وكالة تطبيق القانون بمعلومات سرية، ولكنه قد لا يكون تحت سيطرتها المباشرة.

المستهدِف (targeter): محلّل يحدّد أهدافاً للاغتيال أو الاعتقال.

المشغِّل (handler): يُستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى ضابط الفريق الذي يدير أو "يشغِّل" عميلاً سرياً. من الصعب إبقاء العميل حياً ومتّزناً.

المطلب (يسمّى أيضاً "المهمة"، tasking): وهو التعليمات من سياسيي جهاز الاستخبارات لتجميع معلومات محدَّدة عن هدف أو موضوع.

المعلومات الاستخباراتية السرية (secret intelligence): معلومات حيوية تبقى سرية، أي محمية بطريقة من الطرائق. وتكون المعلومات الحكومية المحمية مصنفة عادة على الشكل التالي: سريّ للغاية، أو NOFORN (اختصار no foreign national، غير مسموح للأجانب)، أو رسميّ.

النشاط الخفي (covert action): نشاط سياسي أو عسكري يقوم به جهاز استخبارات، حيث يبقى البلد الراعي لهذا النشاط مخفياً ومجهولاً.

النشاط السري (clandestine action): نشاط سياسي أو عسكري مستتر في الخارج.

الوكالات السرية ودورها

الولايات المتحدة

CIA (Central Intelligence Agency، وكالة الاستخبارات المركزية): تتضمن قسم نشاطات سرية (National Clandestine Service، الجهاز الوطني للنشاطات السرية) يتولى عمليات التجسّس، وقسم استخبارات أكبر يحلّل المعلومات من عدة مصادر استخبارات، بما في ذلك العلنية منها. الزبون الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية هو الرئيس الأميركي، والذي يجب أن يرخّص نشاطاتها السرية أيضاً.

DIA (Defense Intelligence Agency، وكالة الاستخبارات الدفاعية): جزءٌ من وزارة الدفاع، وتشبه وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) في البنية، مع قسم للنشاطات السرية، ومديريات للتحليل والعلوم والتكنولوجيا، وكلها تزوّد باستخبارات عسكرية.

FBI (Federal Bureau of Investigation، مكتب التحقيقات الفدرالي): وكالة تعمل عادة كشرطة فدرالية، لكنها تتضمن أقساماً لمكافحة التجسّس

والإرهاب، وأقساماً لحماية الأمن القومي تقوم بنشاطات استخباراتية محلية: مثلاً، إرسال جواسيس إلى داخل مجموعات المتطرّفين العنيفين. كما أنها مسؤولة عن التحقيق في أي جرائم ضد الأميركيين أو مصالح الولايات المتحدة في الخارج.

NSA (National Security Agency، **وكالة الأمن القومي**): وكالة ضخمة تجمّع استخبارات الإشارات عالمياً.

المملكة المتحدة

DI (Defense Intelligence، **الاستخبارات الدفاعية**): تشبه وكالة الاستخبارات الدفاعية (DIA) الأميركية، وتزوّد باستخبارات من كل المصادر، وبتحليل ذي طبيعة دفاعية واستراتيجية في المقام الأول.

GCHQ (Government Communications Headquarters، **مكاتب الاتصالات الحكومية**): المرادف البريطاني لوكالة الأمن القومي (NSA) الأميركية؛ إنها وكالة أحادية المصدر تركّز على استخبارات الإشارات.

JIC (Joint Intelligence Committee، **لجنة الاستخبارات المشتركة**): الزبون والمنسّق الرئيس للاستخبارات البريطانية. إنها تزوّد بتقييمات للمعلومات الاستخباراتية، مغطية كل المصادر، وتحدّد متطلبات للـ SIS وGCHQ.

SIS (Secret Intelligence Service، **جهاز الاستخبارات السرية**): وهو معروف أيضاً بـ MI6 (اسم سري تم استخدامه في الثلاثينيات والحرب العالمية الثانية). إنه جهاز استخبارات خارجية، والمرادف التقريبي لقسم الاستخبارات البشرية (HUMINT) أحادية المصدر والسرية في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). يتم التحليل بشكل رئيس في الإدارات الأخرى للحكومة البريطانية، بما في ذلك لجنة الاستخبارات المشتركة (JIC) والاستخبارات الدفاعية (DI). تتطلب كل العمليات الهامة موافقةً وزاريةً.

MI5: جهاز الاستخبارات المحلية. لا يزال يُشار إليه باسمه في الحرب العالمية الأولى، MI5، وتسمّيه الوكالات الأميركية BSS (الجهاز الأمني البريطاني). يقوم بنشاطات أمنية سرية لمكافحة تهديدات المتطرّفين العنيفة (الإرهاب بشكل رئيس) ضد المملكة المتحدة. كما يشغِّل العملاء ويستجوب المصادر، ولكنه خلافاً للشرطة، لا يملك الحق بالاعتقال. MI5 ذاتيّ المهام.

فرنسا

DGSE (Direction Générale de la Sécurité Extérieure، المديرية العامة للأمن الخارجي): جهاز الاستخبارات الخارجية.

DGSI (Direction Générale de la Sécurité Intérieure، المديرية العامة للأمن الداخلي): جهاز الاستخبارات الداخلية، وتم إنشاؤه في مايو 2014 ليحل محل المديرية المركزية للاستخبارات الداخلية (DCRI، أو Direction Centrale du Renseignement Intérieur)، والتي كانت بدورها نتيجة عملية دمج- في يوليو 2008- لمديرية مراقبة البلاد (DST، أو Direction de la Surveillance du Territoire)، وهي جهاز الاستخبارات المحلية السابقة، مع الاستخبارات العامة (RG، أو Renseignements Généraux)، وهي جهاز استخبارات الشرطة السابق.

ألمانيا

BfV (Bundesamt für Verfassungsschutz): جهاز الاستخبارات المحلية، والذي يعمل داخل البلد فقط وبطاقات محظورة؛ نتيجة الذكريات المرتبطة بجهاز الغيستابو من الفترة النازيّة.

BND (Bundesnachrichtendienst): جهاز الاستخبارات الخارجية لألمانيا العصرية الفدرالية.

Stasi (**شتازي**): لقب وزارة أمن الدولة (Ministerium für Staatssicherheit أو MfS)، وهي جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية الشيوعية السابقة (GDR). كان قسم التجسّس الخارجي يدعى إدارة الاستطلاع الرئيسة (HVA، أو Hauptverwaltung Aufklärung).

الاتحاد السوفياتي/روسيا

KGB (**Committee of State Security**، **لجنة أمن الدولة**): جهاز استخبارات الاتحاد السوفياتي، والذي كان يدعى في البداية Cheka (تشيكا، 1917-1929) ثم MVD، ثم NKVD (1934-1946)، ثم MGB (1946-1953)، وأخيراً KGB (1954-1991). وكان قسمٌ مخبويٌّ صغيرٌ فقط من KGB، وهو المديرية العامة الأولى (First Chief Directorate)، يتولّى عمليات التجسّس في الخارج.

FSB (**Federal Security Service of the Russian Federation**، **جهاز الأمن الفدرالي للاتحاد الروسي**): جهاز الاستخبارات المحلية لروسيا ما بعد الاتحاد السوفياتي.

SVR (**Foreign Intelligence Service**، **جهاز الاستخبارات الخارجية**): حلّ محل المديرية العامة الأولى (First Chief Directorate) كجهاز للاستخبارات الخارجية لروسيا.

GRU (**Main Intelligence Administration**، **مديرية الاستخبارات الرئيسة**): وكالة الاستخبارات العسكرية الخارجية للاتحاد السوفياتي ثم لروسيا.

الشرق الأوسط

لبلدان الشرق الأوسط عادة إما جهاز استخبارات واحد (المخابرات) يتولّى الاستخبارات الخارجية والمحلية في آن معاً ويرسل تقاريره إلى رئيس الدولة، أو جهاز مخابرات وبوليس سري محلي منفصل، تحت إدارة وزارة الداخلية عادة. مثلاً:

مصر

"مباحث أمن الدولة"، وترسل تقاريرها إلى وزير الداخلية. فيما ترسل "المخابرات"، وهي جهاز الاستخبارات الخارجية، تقاريرها إلى الرئيس.

الأردن

"دائرة المخابرات العامة"، وتتولى الاستخبارات المحلية والخارجية، وترسل تقاريرها إلى الملك.

المملكة العربية السعودية

"المديرية العامة للتحقيقات" هي الهيئة الشاملة التي تُشرِف على "المباحث"، وهي جهاز الاستخبارات المحلية والبوليس السري. و"رئاسة الاستخبارات العامة"- والمعروفة أيضاً بالمخابرات العامة أو الاستخبارات العامة- هي وكالة الاستخبارات الخارجية الرئيسة، ولكنها تنسّق أيضاً انتشار كل الاستخبارات السعودية، وترسل تقاريرها إلى الملك مباشرة.

التسلسل الزمني للأحداث الرئيسة

1909: تأسيس جهاز الاستخبارات البريطاني. وتمّ تقسيمه بعد سنتين إلى ما أصبح الجهاز الأمني المحلي (MI5)، وجهاز الاستخبارات السرية (SIS) الخارجية.

1914–1918: الحرب العالمية الأولى.

1917: استيلاء الحزب البلشفي، وهو حزب شيوعي، على السلطة في موسكو وسانت بطرسبرغ وتأسيس الاتحاد السوفياتي. كان جهاز استخباراته الذي أنشأه فيليكس دزيرجينسكي يدعى Cheka (تشيكا) في البداية، ولاحقاً NKVD وKGB، بالإضافة إلى عدة أسماء أخرى. منذ 1920 ومركزه الرئيس في ساحة لوبيانكا، موسكو.

1939–1945: الحرب العالمية الثانية. تأسيس المملكة المتحدة "لتنفيذية العمليات الخاصة" (Special Operations Executive أو SOE) للقيام بعمليات سرية خلف خطوط العدو في العام 1940، وتأسيس الولايات المتحدة في العام 1942 لمكتب الخدمات الاستراتيجية (Office of Strategic Services أو OSS).

1947: تأسيس وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، لتحل محل مجموعة الاستخبارات المركزية (Central Intelligence Group أو CIG) التي تأسست قبل سنة.

1955: انسحاب الجيش السوفياتي من النمسا.

1961: بناء جدار برلين.

1962: أزمة الصواريخ الكوبية.

1979: الغزو السوفياتي لأفغانستان.

1982: الغزو الاسرائيلي للبنان.

1987: بداية الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد الاحتلال الإسرائيلي.

1988: بدء انسحاب الجنود السوفيات من أفغانستان.

1989: سقوط جدار برلين. انهيار "الستارة الحديدية". مجزرة في ساحة تيانأنمين، بكين.

1990: الغزو العراقي للكويت، وبدء حرب الخليج الأولى. خروج نيلسون مانديلا من السجن في أفريقيا الجنوبية.

1991: تفكّك الاتحاد السوفياتي. هزيمة العراق في حرب الخليج على أيدي الولايات المتحدة الأميركية والحلفاء. إسقاط الحكومة الصومالية، ممّا أدى إلى حرب أهلية دموية وعقود من الفوضى.

1992: حرب البوسنة (حتى العام 1995). دخول الجنود الأميركيين إلى الصومال (بقوا هناك حتى العام 1994). انقلاب عسكري في الجزائر منع الإسلاميين من الوصول إلى السلطة؛ بداية الحرب الأهلية الجزائرية (حتى العام 2002).

1993: اتفاقيات أوسلو تُنهي الانتفاضة الأولى وتنشئ الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة الغربية وغزة.

1994: الإبادة الجماعية في رواندا. حرب الشيشان الأولى (حتى العام 1996). اكتشاف أن ضابط وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ألدريتش آيمز جاسوسٌ للـ KGB. "ظهور" جهاز الاستخبارات السرية البريطاني (SIS)

وإقراره في قانون جديد. إيقاف الجيش الجمهوري الإيرلندي (IRA) لإطلاق النار في إيرلندا الشمالية.

1995: شنّ المقاتلين الجزائريين هجمات بالقنابل على المترو في باريس، فرنسا.

1996: استئناف الجيش الجمهوري الإيرلندي (IRA) للعنف في إيرلندا الشمالية.

1998: إعلان تنظيم القاعدة التابع لأسامة بن لادن الحرب على الولايات المتحدة، وتنظيمه هجمات بالقنابل على السفارتين الأميركيتين في كينيا وتنزانيا. اتفاقية الجمعة تُنهي الحرب في إيرلندا الشمالية. حرب كوسوفو (حتى العام 1999).

1999: حرب الشيشان الثانية (حتى العام 2009).

2000: بدء الانتفاضة الثانية (حتى العام 2005).

2001: هجمات 11 سبتمبر في الولايات المتحدة. بدء الحرب الأفغانية (لا تزال جارية حتى الآن).

2003: حرب الخليج الثانية: غزو العراق، تلته حرب أهلية بدءاً من العام 2004 (لا تزال جارية حتى الآن).

2004: تفجيرات القطارات في مدريد. الثورة البرتقالية في أوكرانيا.

2005: هجمات 7 يوليو على المترو وشبكة الحافلات في لندن.

2006: مؤامرة لندن لاستخدام "القنابل السائلة" على متن الطائرات عبر الأطلسي.

2008: دخول الجنود الإسرائيليين غزة (بقوا هناك حتى العام 2009). الحرب بين روسيا وجورجيا.

2009: قتل عميل سري أردني لسبعة موظفين لدى وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) في أفغانستان.

2010: بدء الربيع العربي باحتجاجات سياسية في تونس، وانتقاله إلى ليبيا ومصر والبحرين واليمن وسوريا (لا يزال مستمراً حتى الآن).

2011: قتل أسامة بن لادن.

2013: نشر إدوارد سنودن- وهو متعاقد خاص- لمستندات سرية تابعة لوكالة الأمن القومي (NSA).

2014: ضمّ روسيا لمنطقة شبه جزيرة القرم الأوكرانية. استيلاء "دولة إسلامية" جديدة على مساحات من سوريا والعراق.

ملاحظات المؤلف

تستند الروايات في هذا الكتاب، جزئياً، إلى مقابلات عديدة أجريتها على مرّ خمس سنوات أثناء تحضيري له، وكذلك خلال عقدَين من الزمن أثناء تغطيتي الأحداث الأمنية كصحافيّ. كما تستند اقتباسات الأشخاص الواردة في النص إلى تلك المحادثات أو المراسلات التي تمّت معي أو مع معاوني. وبما أن العديد من أولئك الأشخاص كانوا أو لا يزالون نشطين في عالم الاستخبارات السري، فإنني سأتحفّظ عن ذكر أسمائهم في الاقتباسات، ولن أقدّم أي معلومات إضافية عن المقابلة. وإذا كان الاقتباس من مصدر آخر، فسأشير إلى ذلك في النص أو في ملاحظة، مع التزويد بتفاصيل عن ذلك المصدر في نهاية الكتاب. وإذا كان هناك أي نقص أو خطأ في الكلام المنسوب إلى أحدهم، أو كانت لديك أي تعليقات أخرى، الرجاء التواصل معي عبر موقعي على الويب (www.stephengrey.com) لكي أتمكن من إجراء أي تعديلات ضرورية في الطبعات المستقبلية للكتاب.

الرجاء الانتباه أيضاً إلى أنني أشير أحياناً إلى بعض الأفراد بأسمائهم الأولى؛ ولا يجب أن يلمّح هذا إلى أي تحيّز أو محاباة، بل القصد منه الوضوح فقط. ولتسهيل القراءة أيضاً، سأشير إلى الجواسيس كذكور دائماً، لكن الجواسيس بالطبع من الرجال والنساء على حد سواء.

مقدمة: الجاسوس المفجِّر

"عندما يتكلّم القلب، يجد العقل أنه من غير اللائق الاعتراض"
- ميلان كونديرا، كائن لا تحتمل خفته[1]

في 31 ديسمبر 2009، فتح طبيبٌ أردنيٌ باب شاحنة صغيرة، واستعدّ لإلقاء التحية على ضباط وكالة الاستخبارات المركزية لأول مرة. كان هناك ثمانية أشخاص بانتظاره؛ حتى إنهم أعدّوا قالب حلوى بمناسبة ذكرى مولده. كان البيت الأبيض ووكالة الاستخبارات المركزية يعقدان آمالاً كبيرةً على ذلك اليوم؛ فالطبيب جاسوس قاد سيارته إلى هذه القاعدة الأميركية في خوست، أفغانستان من المنطقة القَبَلية المُقفرة المجاورة لباكستان. لذا، كانوا يأملون أن يكون قادراً على إرشادهم إلى زعيم تنظيم القاعدة، أسامة بن لادن.

هذا خطأ. فالطبيب كان يعمل للجهة الأخرى؛ أي تنظيم القاعدة نفسه. وقد مدّ يده إلى جيبه، وضغط على زرٍّ ففجَّر نفسه. قُتل سبعة أشخاص من وكالة الاستخبارات المركزية: قائدة المركز جنيفر ماثيوز، وأربعة ضباط آخرون، وحارسان. أما الضحية الثامنة فكانت ضابط استخبارات أردنياً، وكانت التاسعة سائقاً أفغانيّاً. كانت ماثيوز قد أعدّت قالب الحلوى بنفسها، فقد كانت تبحث عن بن لادن منذ سنوات، وربما كان يأسها ما جَعَلها تثق بالطبيب. لكنها أساءت قراءة الإشارات؛ رغم أنها كانت من أبرز الخبراء في العالم بموضوع تنظيم القاعدة. وقد صرَّح أحد المعلّقين أن موتها "أشبه بغرق حاملة طائرات في حرب بحرية".[2]

كان الطبيب عميلاً مزدوجاً، وربما عميلاً ثلاثياً أيضاً. وقد شكّل أول أمل حقيقي بالحصول على جاسوس قريب من بن لادن. فقد بدا أنه "الجاسوس الجديد"

المثالي؛ جاسوسٌ داخل أكبر خصم لأميركا منذ روسيا السوفياتية. ثم ذهب كل شيء فجأة في مهبّ الريح.

كان اسمه همّام البلوي. وهو أردني من أصل فلسطيني، أي من الأشخاص الذين كانوا في صراع مع أقرب حلفاء أميركا، إسرائيل. وبسبب عمله في مخيَّمات اللاجئين، فقد رأى ضحايا العدوان الإسرائيلي، وكانت لديه كل الأسباب ليشعر بالغضب من الولايات المتحدة التي تموِّل إسرائيل. وقد برهن عن كرهه في مدوَّنة له على الانترنت تؤيِّد الحرب على الأميركيين. كان رجلاً واضحاً بمهاجمته وكالة الاستخبارات المركزية، مثلما كان أيضاً رجلاً مثالياً للتجسّس لصالح الوكالة.

شكّل البلوي طريقةً رائعةً للتضليل. فإذا كان يعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية حقاً، فسيكون أحد أهم جواسيسها على الإطلاق. كما كان جاسوساً غير متوقَّع أبداً؛ وبالتالي كان مناسباً جداً لهذه المهمة.

غير أن ذلك لم يكن ليتحقّق. ولو أنهم دقّقوا بالمسألة فقط، لما كانوا قد التقوه مطلقاً. ومع ذلك، عندما أتى إلى المركز لم يفتّشوه حتى. فجنيفر لم ترغب في أن تُشعره بالإهانة، بل أرادت إبداء "الاحترام" له. لكنْ مثلما اتّضح من آخر وصية سجَّلها البلوي بالفيديو، كان يتلاعب بوكالة التجسّس الأميركية وكذلك الأردنية لأسابيع.

على جدار من الرخام في المركز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، فيرجينيا، تمّ نحت سبع نجوم إضافية. فقد قُتل سبعة آخرون من الرفاق في مجال العمل هذا. ومنذ هجمات 11 سبتمبر 2001 المرعبة، تمت إضافة خمس وعشرين نجمةً.[3]

مرحباً بك في عالم التجسّس المميت.

"العمل في الاستخبارات يعني العيش مع فشلٍ دائمٍ"، بحسب شخصية بارزة سابقاً في جهاز الاستخبارات البريطاني.[4]

بكل المقاييس، كانت مهمة البلوي في خوست مغامرةً مأساويةً بائسةً ومتهورةً. لكن العملية كانت تصرفاً جريئاً أيضاً، فالخوض في المجهول دليلٌ صارخٌ على أن لعبة التجسّس لم تنته؛ رغم الأخطاء المتهورة في تلك الأيام.

هذا الكتاب تحقيقٌ في حياة العميل السري العصري، وفي حياة المسؤول عنه؛ قائد شبكة التجسّس. موضوعنا هو ما يسمّيه الروائي وضابط الاستخبارات أحياناً غراهام غرين "العامل البشري"، أي المهنة التي يسعى فيها شخصٌ حقيقيٌ يسير ويتكلم مثل البلوي إلى تجميع "معلومات استخباراتية"، وأعني بها بعض المعلومات السرية أو المحمية.

في هذا العالم، الاستعانة بإنسان- الجاسوس- لتجميع معلومات استخباراتية تُسمّى تجميع **الاستخبارات البشرية** (human intelligence أو HUMINT). من الواضح أن هناك جانباً مُظلماً لموضوعنا هذا. فالتجسّس هو فن الخيانة. والأمر المحتَّم تقريباً هو أنه لكي يتمكن الجاسوس من الحصول على أسرار، عليه أن يخون بلده، أو على الأقل عليه أن يخون الثقة التي وضعها فيه أولئك الذين أعطوه وصولاً إلى تلك الأسرار.

وفي حين أن الفشل في خوست بيَّن أن لعبة التجسّس مستمرة، فهل بيَّن أن قادة شبكات التجسّس أصبحوا غير كفوئين الآن؟ فقد تم التعامل مع العميل السري المحتمل لوكالة الاستخبارات المركزية "بشكل سيئ، وعلى نحو بشع"؛ حسبما قال المؤرِّخ العسكري إدوارد لوتْواك، وغيره من النقّاد.[5] أم سبب ذلك هو الصعوبة الكبيرة في استخدام جواسيس بشريين ضد قادة تنظيم القاعدة؟

سأعالج حالة الاستخبارات البشرية في هذه الصفحات، وذلك من خلال السعي إلى الإجابة على ثلاثة أسئلة. أولاً، كيف تغيَّر التجسّس في القرن الحادي والعشرين؟ ثانياً، متى يمكن أن يظلّ التجسّس فعّالاً؟ وثالثاً- وهو السؤال الأساسي الذي فرضه حادث خوست- ما هو نوع التجسّس المطلوب والذي سيساعد في التعامل مع تهديدات اليوم والمستقبل؟

نظراً للأشياء غير المعقولة التي يمكن توقّعها في القرن الحادي والعشرين من جرّاء سرقة نسخة عن البريد الإلكتروني لأحد الأشخاص أو التنصّت على هاتفه مثلاً، فإن فكرة تصديق مصدرٍ بشريٍ قديم الطراز قد يبدو مشكوكاً فيها. فرغم أن التجسّس قد تم وصفه كثاني أقدم مهنة في العالم، إلا أنه يمكن أن يبدو كمفارقةٍ تاريخيةٍ أيضاً.

ومثلما بيَّنت مهمة خوست، هناك أخطار هائلة ترافق التجسّس. فالجواسيس محكوم عليهم بأن يخونوا أسرار البلد أو الفريق الذي يستهدفونه. لكنْ يمكن أن يصبح المرء مدمناً على الخيانة. وهذا ما قد يجعل الجواسيس يخونون أيضاً الجهة التي جنَّدتهم. وبما أن الجواسيس بحاجة إلى الكذب لكي ينجوا بأنفسهم، فقد تصعب معرفة متى يقولون الحقيقة.

إن اكتشاف جاسوس يمكن أن يسبِّب نزاعاً ديبلوماسياً، أو فتنةً، أو في أسوأ الأحوال، ذريعةً لشنّ حربٍ. وبالمقابل، يمكن لاستخدام أقمار التجسّس أو التنصّت على المحادثات– وهما طريقتان تقنيتان للحصول على معلومات استخباراتية– أن يبدو وسيلةً أكثر أمناً بكثير لتجميع المعلومات. وقد شرح عامل سابق لدى وكالة الاستخبارات المركزية أن أحد زملائه المحلّلين قال له: "رجاءً، زوّدني بعميل جيد. فالصور الفوتوغرافية للقمر الاصطناعي لا تبلّغني إلى أين يتّجه الصاروخ، أو مَن يستطيع إطلاقه". لكنّ الأميرال ستانسفيلد تيرنر، مدير وكالة الاستخبارات المركزية في عهد الرئيس جيمي كارتر، صرَّح أن التجسّس التقني "على وشك أن يطغى على الطرائق البشرية التقليدية في تجميع المعلومات الاستخباراتية".[6] وبعد حرب الخليج في العام 1990، لخَّص مرة أخرى ما أصبح عليه الرأي المهيمن؛ وإن يكن غير مُعلَن في أغلب الأحيان، وهو أن الولايات المتحدة لا يجب أن تعتمد على جواسيس من النمط القديم:

> الشكوى المتكرّرة مألوفة: يجب أن نستعين بالمزيد والمزيد من العملاء البشريين أمام مشاكل كهذه؛ لأن الطريقة الوحيدة لدخول عقول الخصوم وفهم نواياهم هي من

حلال عملاء بشريين. وكاقتراح عام ليس حقيقياً فحسب... العملاء منحازون ومعرّضون لارتكاب الأخطاء أيضاً، كما أن هناك خطراً دائماً في أن يكون العميل يعمل لجهة أخرى.[7]

لكنْ رغم الأخطار التي شرحها تيرنر، بالكاد يمرّ شهر من دون الكشف عن جاسوس جديد. وفي وقت كتابة هذا الكلام، كانت ألمانيا تتّهم الولايات المتحدة بتجنيد جاسوس داخل وزارة دفاعها، وجاسوس آخر في أجهزة استخباراتها. ورداً على ذلك، تم طرد مدير وكالة الاستخبارات المركزية في برلين، وصرَّحت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل أن لدى الأميركيين "مفاهيم مختلفة في الجوهر في ما يتعلق بعمل أجهزة الاستخبارات".[8] ومع ذلك، إن الحكومات التي تستخدم أجهزةُ استخباراتها جواسيس مماثلين تعتبر أن الفائدة المحتملة لوجود "جاسوس في مخيَّم العدو" غالباً ما تكون مغرية جداً؛ حتى لو كان "العدو" في الواقع حليفاً وثيقاً.

لذا، إن الجواسيس ميزةٌ دائمةٌ في الدول العصرية. ولكنْ هل يشكّلون فرقاً كبيراً؛ ولا سيما في ما يتعلق بالتهديدات الكبرى التي تواجهها الدول هذه الأيام؟

لا تزال الاستخبارات البشرية المحدَّدة والجيدة مسألةً في غاية الأهمية. وهناك جدال حول أنه كان بإمكانها إحباط هجمات 11 سبتمبر 2001 التي قُتل فيها 2,753 شخصاً،[9] أو المجازر القَبَلية في رواندا، شرق أفريقيا، التي مات فيها 800,000 شخص في 100 يوم فقط في العام 1994. لكنّ الاستخبارات السيئة التي ألمحت إلى أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل ساعدت أيضاً في غزو ذلك البلد وقتل ما يصل إلى 500,000 شخص.

التجسّس فنٌ بشريٌ قديمٌ معرّضٌ إلى مقدار لا نهائي من التعديل. ولهذا السبب، من الصعب دائماً التعميم في موضوع التجسّس، لكن دوافع الخيانة- الأيديولوجيا، الدين، المال، الابتزاز، إلخ- تميل إلى أن تبقى كما هي. وقد سمعتُ في إحدى

المرات رئيساً سابقاً للاستخبارات البريطانية يقول: "لم تظهر دوافع جديدة منذ عصر بلاد ما بين النهرين".

هذا الكتاب ليس استطلاعاً شاملاً، بل يعكس خبرات الأشخاص الذين التقيتهم أثناء عملي في نصف الكرة الغربية في المقام الأول، وتعاملي بشكل رئيس مع الأجهزة الأمنية للولايات المتحدة وبريطانيا، ومع بعض المعارف الإضافيين في ألمانيا وفرنسا والشرق الأوسط وجنوب آسيا. وسيتجاهل التطوّرات الهائلة في آسيا الشرقية وأميركا الجنوبية وأفريقيا.

عند نهاية الحرب الباردة، بدأتُ أعمل كصحافيٍ وكاتب. وفي السنوات التي تلت ذلك، كنتُ أعمل في الخارج بشكل رئيس، وبالأخص في مواضيع الأمن القومي. وقد تسنّت لي فرصة الالتقاء ببعض الجواسيس، وقادة شبكات التجسّس الذين يجنّدونهم ويشغّلونهم في كل مكان؛ بدءاً من غرف التدخين في واشنطن، وغرف الشاي في لندن، والاحتفالات في ألمانيا، والمقاهي في القاهرة وبيروت، ووصولاً إلى القواعد العسكرية في العراق وأفغانستان، والمجمّعات المسوّرة في باكستان. بعضهم عَمِل لصالح أجهزة استخبارات، وبعضهم الآخر عمل لصالح وكالات أخرى في الجيش والشرطة مارست أعمال التجسّس أيضاً.

وهكذا، نضجتُ مع جيل جديد من الجواسيس، وشاهدتُ كيف أعادوا تعريف أعدائهم ومبرّر وجودهم، وغيّروا شخصياتهم أيضاً. وقد كنتُ محظوظاً لأن ذلك حصل في وقت انفتاح كبير، حيث كان شخص مثلي- لديه اتصالات متواضعة فقط- قادراً على إيجاد نافذة لنفسه إلى هذا العالم.

وإلى جانب مشاركتي رؤى الجواسيس وقادة شبكات التجسّس الذين التقيتهم وتجارهم، فقد حاولتُ أيضاً المحافظة على المسافة التي تفتقر لها معظم المنشورات الرسمية أو الكتب التي ألّفها جواسيس متقاعدون، والذين- وإن لم يقرّوا بذلك- عليهم أن يسلّموا نصوص كتبهم لتوافق عليها أجهزة الاستخبارات.

بالإضافة إلى ذلك، ضمّنت كتابي أيضاً خبرات الأشخاص الذين تم التجسّس عليهم؛ أي المقاتلين الخطيرين أو الناشطين الراديكاليين (المتطرّفين) الذين يتوصّلون إلى استراتيجيات جديدة يومياً للهروب من لفت الأنظار. وفي مؤتمر في أكسفورد، قدّمني رئيس سابق (معروف كـ C) لجهاز الاستخبارات البريطانية بنبرة حذرة أمام اللجنة بأنني شخصٌ التقى تنظيم القاعدة فعلياً".

التجسّس عادةٌ قديمةٌ. فهناك جواسيس مذكورون في الكتاب المقدس، وفي سجلات الصين ومصر القديمتين. وكان هناك جواسيس في بلاد ما بين النهرين (أو بلاد الرافدين) القديمة، وحتى مستندات مصنَّفة "سرية للغاية". وبدءاً من القرن العشرين، ازداد الحديث عن الجواسيس كثيراً في الكتب والأفلام، لدرجة جعلتنا نظن أننا نعرف هذا الموضوع عن ظهر قلب. لكن معظم ما قيل مشوَّش أو خطأ أو يستند إلى خرافات.

أحد الأسباب التي يمكن أن تجعل التجسّس يبدو قديماً هو أن الكثير من التصوّرات الشعبية عنه مأخوذة من الأدوار التي لعبها الجواسيس في المواجهة بين الاتحاد السوفياتي السابق والغرب. فلعبة التجسّس كانت مركزيةً للحرب الباردة: الـ KGB وحلفاؤه من جهة، ووكالة الاستخبارات المركزية CIA وشركاؤها من جهة أخرى. وبينما وَقَف الجيش مستعداً للتدخّل ولكن من دون أن يحرّك ساكناً، كانت حروب التجسّس حقيقيةً.

بالنسبة إلى الأشخاص مثلي الذين نشأوا في وقت المواجهة ذاك، مَن يستطيع أن ينسى قصص الجاسوسية في الأخبار والروايات والأفلام؟ فحين كنا أطفالاً كنا نلعب لعبة التجسّس، فنضع شوارب مزيّفة، ونلاحق أعداءنا في الملعب، ونتعلّم كتابة الرموز بحبر غير مرئي وتمرير الرسائل. وكانت المشكلة أنه في خضمّ ذلك التأثر بالجاسوسية- مكائدها، وأخطارها، وأدواتها- نادراً ما كانت الأسئلة عن نجاحها أو فشلها تخطر على بالنا.

يُعيدنا القسم الأول من الكتاب إلى الحرب الباردة، وأصول أجهزة الاستخبارات العصرية. ولا أريد أن أشرح النواحي الأساسية للتجسّس فحسب، بل أيضاً سبب كون الافتراضات الكثيرة الراسخة في أذهان الأشخاص عن التجسّس- بناءً على فهمنا لتلك الفترة- مريبة في أغلب الأحيان. فعندما ينتقد القدامى عمليات مثل عملية خوست، يجب الانتباه مثلاً إلى أنه لم يكن هناك قط عصرٌ ذهبيٌ حقاً للتجسّس.

يستطيع التاريخ إعطاءنا دروساً مباشرةً وإيجابيةً للحاضر. مثلاً، في حين أن الحرب على الإرهاب ستهيمن على عمل الاستخبارات، لم يكن هذا همّاً جديداً بالنسبة إلى أجهزة الاستخبارات. فالقصة الحقيقية لمعركة التجسّس السري البريطاني ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي في إيرلندا الشمالية مثلاً بدأت بالظهور للتو. وهي تشكّل نموذجاً لكيفية عمل التجسّس ضد الإرهابيين؛ حتى لو كان الإرهابيون العصريون مختلفين بطرائق مهمة.

وسننتقل في القسم الثاني من الكتاب إلى الفترة المجهولة لما بعد الحرب الباردة؛ عندما واجَه قادة شبكات التجسّس خصوماً ملتبسين أو غير مألوفين، واضطروا إلى إيجاد أهداف جديدة لجواسيسهم. حتى إنه كان هناك في البداية بعض التلميح إلى عدم الحاجة إليهم بعد اليوم أو إلى جواسيسهم. يتذكّر السير كولن ماك كول، رئيس جهاز الاستخبارات البريطانية في نهاية الحرب الباردة، كيف عامله "أشخاصٌ أذكياءٌ حسنو الاطلاع" كشخص مُسنّ ومنسي منذ زمن بعيد، وكانوا يسألونه: "هل ما زلت هنا؟".[10] وبعد عدة سنوات، وبعد شنّ حروب جديدة وقيام الإرهابيين بهجمات ضخمة، شكّك البعض بالحاجة إلى الاستخبارات. لكن النقاش عما إذا كان الجواسيس البشريون لا يزالون قيّمين بعد كل تلك التحسينات التي طرأت في عالم التكنولوجيا ظلّ مستمراً. وفي مناقشة غير مألوفة، جادل البعض قائلين إن الجواسيس كانوا مفيدين للتجسّس على الحكومات، ولكنهم عديمو الجدوى ضد الأهداف العصرية كالإسلاميين المتشدّدين. وجادل بعض قادة شبكات التجسّس الخبراء جداً قائلين إن الاستخبارات البشرية أصبحت "فناً

مُحتضَراً"، وستلعب في أفضل الأحوال دوراً ثانوياً، إن لم يكن متواضعاً؛ بالمقارنة مع الطرائق التقنية.

وجب عليّ التأكد ممّا إذا كان هذا حقيقياً قبل أن أتمكن من التفكير في نوع الجواسيس الذي نحتاج إليه حقاً. وهل يستطيع أي جاسوسٍ التقرّب من أعداء فوضويين عديمي الرحمة، ومن أن يفعل ذلك من دون إثارة أي شُبهة حوله لكي لا يصبح أولئك الأعداء أكثر خطراً؟

الطريق إلى الفشل في تجميع الاستخبارات البشرية في خوست بدأ مع سقوط جدار برلين في العام 1989. ومع تفكّك الاتحاد السوفياتي بعد سنتين من ذلك، بدأ النقاش حول ما إذا كانت نهاية التنافس بين القوى العظمى ستؤدي إلى "جني أرباح السلام"، وبالتالي إلى تخفيض ميزانية الدفاع والاستخبارات. ووفقاً لمقال في صحيفة نيويورك تايمز في 9 مارس 1990، كانت هناك "ثروة كبيرة للحصد" من جرّاء تخفيضات كتلك في الميزانية. فقد توقّع المقال أنه في غضون عقد من الزمن، يمكن توفير ما يصل إلى 150 مليار دولار في السنة. وجادل آخرون قائلين إنه يجب تقليص عدد أجهزة الاستخبارات أيضاً.

تم سنّ قوانين في الكونغرس الأميركي لإضعاف وكالة الاستخبارات المركزية وإلغائها. وأبلَغَ عضو الكونغرس دايف ماك كوردي مجلسَ النواب في العام 1992: "مع زوال الاتحاد السوفياتي، انخفض ذلك التهديد بنسبة كبيرة... ويجب إعادة تقييم دور... المؤسسات الحكومية التي كانت اهتماماتها الأولى التركيز على الاتحاد السوفياتي. بدأت هذه العملية مع القوى المسلّحة، ويجب أن تستمر مع وكالاتنا الاستخباراتية أيضاً".[11]

وعبَّر ويليام بفافّ، وهو كاتب مؤثّر، عما كان الآخرون يفكّرون به. ففي مقال عنوانه "نحتاج إلى الاستخبارات وليس إلى الجواسيس"، سأل: "ما فائدة الجواسيس؟ صحيح أنهم يجنّدون بعضهم بعضاً ليخونوا مصادر ثقتهم، لكنْ ما هي

الأشياء الإيجابية التي يُنجِزونها؟". ومُشيراً إلى عدة عمليات لوكالة الاستخبارات المركزية شوَّهت سُمعة الحكومة الأميركية، تابع قائلاً: "وكالة الاستخبارات المركزية، في الوضع الذي كانت عليه في آخر 47 سنة، وصلت إلى نهاية حياتها المفيدة".[12]

وفي حين أن فكرة إمكانية السماح لمهنة التجسّس القديمة بالاضمحلال بالكامل لم تكن مجرد وهم بسيط، احتاجت أجهزة الاستخبارات إلى سنوات من الضغط لتحافظ على مكانتها وميزانياتها. ورغم أنها تمكّنت من الصمود، إلا أن ذلك كان على حساب استخباراتها البشرية في أغلب الأحيان.

أحد الأسباب التي دفعت إلى الشك بالحاجة إلى نشاطات سرية كالتجسّس مثلاً كان شعوراً جديداً بالشفافية والعلانية. فحتى لو بقيت روسيا النووية تشكّل تهديداً، فإن نهاية الستارة الحديدية تعني أن كمية أقل بكثير من المعلومات ستكون مخفية. فقد تم فتح الأراضي المُغلقة، وأصبح الأشخاص أكثر حرية للتكلم، وأصبح من الأصعب بكثير شرح سبب الحاجة إلى جواسيس لتجميع المعلومات. وبدأت الأسرار تتكشّف شيئاً فشيئاً في البلدان التي كانت شيوعية في السابق. حتى إن جهاز الـ KGB السابق، الذي تم عزل رؤسائه الشيوعيين، فتح أرشيفه لفترة قصيرة أمام الصحافة وعامة الناس (لقاء مبالغ مالية في أغلب الأحيان). وبدأ بالكشف عن هويات العملاء السابقين.

وشهدت وكالات التجسّس في الغرب حالة بيريسترويكا خاصة بها أيضاً؛ ولكن ليس بسبب أي تغيير في العقيدة. فقد كشف الجواسيس عن وجوههم لأنهم كانوا يبحثون عن أدوار جديدة، واحتاجوا إلى دعم الشعب لحماية ميزانياتهم، والأهم من كل ذلك أنهم احتاجوا إلى شيء أو شخص ليحل محل "العدو الرئيس" القديم، مثلما كان الاتحاد السوفياتي يسمّى في أروقة وكالة الاستخبارات المركزية. وجادل قادة شبكات التجسّس بالقول إن عليهم أن يستخدموا مهاراتهم ليحاربوا

العصابات الرئيسة (أو "الجريمة المنظَّمة")، وتجارة المخدرات، وحتى الهجرة غير الشرعية.

في الأنظمة الديموقراطية، على أجهزة الاستخبارات تلقي الأوامر من السياسيين المنتخَبين، وليس الضغط للحصول على أوامر جديدة أو مختلفة. لكن المستندات الداخلية من جهاز الأمن الوطني البريطاني (MI5) تعطي فكرةً خاطفةً عن مناورات تلك الوكالات في التسعينيات لتحافظ على أدوارها. وفي أحد الأمثلة، أبدى مديرو MI5 قلقهم من أنه إذا صمد وقف إطلاق النار مع الجيش الجمهوري الإيرلندي (IRA) في إيرلندا الشمالية وتراجعت نشاطاتهم في مكافحة الإرهاب، فسيواجهون الخيارين التاليين:

1. لن يفعلوا شيئاً وسيقبلون التخفيض الكبير في حجمهم.
2. سينتقلون إلى تبوؤ مناصب جديدة، في الجريمة المنظَّمة مثلاً، من خلال إحدى وسيلتين:
   - الانفجار الكبير (مزايدة مباشرة وعلنية لشغل دور موسَّع)
   - أسلوب تزايدي لم يُكشَف عنه.[13]

اختار MI5 الخيار الأخير؛ أي حملة سرية. حتى إنه لم يتم إبلاغ معظم الموظفين، ناهيك عن البرلمان أو الشعب. واختتمت مذكرات ستيفن لاندر– المدير العام وقتها– بالقول إن "استراتيجية الجهاز ستتجلّى جزئياً من خلال السير على الحافة– لكنها **ستفشل إذا تم كشف النوايا الكاملة** قبل الأوان المناسب– لذا، من الأساسي ألا يُفشي فريق الإدارة العليا (Senior Management Group أو SMG) جدول الأعمال هذا لأي موظف آخر في هذه المرحلة" (التشديد من عندي).[14]

رغم أن الحجج التي أبدتها أجهزة الاستخبارات كانت لخدمة مصالحها الذاتية، إلا أن لها بعض الفضائل. فمع زوال جدار برلين، أصبح العالم أكثر فوضويةً. ومع تدنّي احتمال غزو الجيش الأحمر إلى حدود الصفر الآن، وانخفاض احتمال نشوب حرب نووية، ازداد احتمال وقوع أعمال وحشية أو نزاعات صغيرة. فرغم كل

مخاطرها العالية، ساهمت الحرب الباردة في تجميد العديد من التراعات الوطنية والإقليمية الخطيرة. وعلى سبيل الذكر لا الحصر، أدّت المواجهة العالمية بين القوى العظمى في العالم الثالث إلى تعليق عملية إنهاء الاستعمار. وساهمت الإعانات من القوى العظمى في مساندة الديكتاتوريين في الدول التي شَطَرت حدودها المناطق القَبَلية، وحيث النخبة غير الممثّلة للفئات الاجتماعية تحكم سيطرها في كثير من الأحيان. ومن دون الإعانات، يمكن أن يُستأنف الصراع على السلطة في تلك البلدان. لذا، أصبح العالم- حسب رأي وكالات الاستخبارات- أكثر خطورة فجأة.

لخّص مايكل سميث، وهو ضابط استخبارات عسكري سابق، في العام 1996 نظرة مجتمع الجواسيس:

> أدّى زوال حلف وارسو، الذي رآه العديد من الناس كمؤشّر لنهاية الجاسوسية- وكذلك كتّاب روايات التجسّس في الواقع- إلى ازدياد الحاجة إلى الاستخبارات؛ لأن الديموقراطيات الحديثة الهشّة مهدّدة بالغرق مرة أخرى في الشمولية، وستُباع المواد النووية المخصصة لصناعة الأسلحة في السوق السوداء، وستتحوَّل بلدان العالم الثالث التي كانت القوى العظمى التي ترعاها وتُبقيها تحت السيطرة إلى بلدان مستقلة وخطيرة.[15]

ستؤدي هذه الحجج، إلى جانب عدد من الأحداث الدموية، والتفكير المتحرِّر إلى المحافظة على أجهزة الاستخبارات في نهاية المطاف. وقد بدأت الأحداث حتى قبل تفكّك الاتحاد السوفياتي، مع غزو العراق- حليف الغرب السابق- للكويت الغنية بالنفط في العام 1990. ثم حدثت إراقة الدماء المأساوية في الصومال في العام 1991، ومجازر حرب البوسنة- التي بدأت في العام 1992- والإبادة الجماعية العرقية في رواندا الصغيرة جداً في صيف 1994.

"عدم الاستقرار الجديد" هذا أعطى القادة السياسيين الغربيين سبباً لكي يحبّوا أجهزة استخباراتهم مجدداً. فالليبراليون أنفسهم الذين نظروا إلى الجيش وأجهزة

الاستخبارات كأدوات للقمع، وكذلك المتوعدون باستخدام القوة خلال حقبة الحرب الباردة، والإمبرياليون الجدد طلبوا منهم الآن المساعدة في إيقاف انتهاكات حقوق الإنسان والمجازر.

وقد أيّد الرئيس الأميركي بيل كلينتون، الذي انتُخب في العام 1993، مبدأ التدخّل الجديد هذا، ثم جاراه لاحقاً رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير عندما وصل إلى السلطة بعد أربع سنوات. كان كلينتون يعتمد سياسة التحوّل البطيء. فقد ترشّح لمنصب الرئاسة انطلاقاً من مبدأ "جني أرباح السلام"، واعداً في حال انتخابه كرئيس بعدم التركيز على الأحداث الأجنبية بل على النمو الداخلي. وقد أصبح شعار حملته الانتخابية: "إنه الاقتصاد، أيها الغبي". ولكنْ بعد انتخابه، استجاب لشعور شعبي متزايد؛ وهو أنه من دون خطر ردة الفعل السوفياتية، أصبحت الولايات المتحدة حرة أكثر وحتى ملزمة بالتدخّل، خاصة بعد الأحداث المأساوية كالإبادة الجماعية في رواندا مثلاً. وبالنسبة إلى بلير، أصبح هذا الواجب بالرد على الشرور الأجنبية قناعةً راسخةً. وقد قال في خطاب بالغ الأهمية في شيكاغو في العام 1999: "لا يمكننا أن ندير ظهورنا للنزاعات وانتهاكات حقوق الإنسان في البلدان الأخرى إذا أردنا أن نبقى آمنين".[16] واحتاجت "عقيدة بلير" الاستباقية هذه إلى أن ترتكز على استخبارات جيدة. فالتدخّل المُبكر، من دون انتظار التعرّض للهجوم، يتطلّب تحذيراً مُسبقاً ودقيقاً.

لذا، نتيجة كل التهديدات الجديدة والضغوط للتدخّل العالمي، أمّنت أجهزة الاستخبارات مساحة تنفّس لنفسها. لكنْ رغم إدراك السياسيين استمرار حاجتهم إلى المعلومات الاستخباراتية، كانوا في حالة من الفوضى بشأن كيفية تجميعها، كما كانوا حذِرين من استخدام جواسيس حقيقيين.

في التسعينيات، قدّم البريد الإلكتروني والهواتف الجوّالة للمستهلكين أسلوبَين جديدَين للاتصال، وقد كان من السهل جداً سرقتهما والتنصّت عليهما. وكانت طرائق التجسّس التقنية هذه جذابةً جداً، وبالأخص في هذه الفترة الجديدة من

العلاقات الدولية الودودة ما بعد الحرب الباردة. وقد عرف السياسيون من خبراتهم السابقة والموجعة أن تجنيد عملاء سريين حتى بين الأعداء المُعلنين يرافقه دائماً خطر التسبّب بفضيحة، لكن المسألة كانت أسوأ بكثير في زمن السلم. فاكتشاف جاسوسٍ أو محاولة تجنيد واحدٍ لم تُعتبر تصرّفاً ودوداً قطّ، بل يمكنها أن تعرّض السلام للخطر. بالمقابل، كان التنصّت على الاتصالات يُعتبر خالياً من المخاطر؛ فطالما أن أحداً لا يعرف، يمكنك التجسّس على أصدقائك وأعدائك بكل سهولة. لهذا السبب، تلقّت استخبارات الإشارات- وهذا كان الاسم المتداول لهذا النوع من التنصّت- أعلى درجة من التصنيف الأمني دائماً؛ أعلى بكثير من "سري للغاية".

تجادَل السياسيون الأميركيون الذين تحكّموا بالإنفاق مراراً وتكراراً بشأن المزج الصحيح بين الوسائل البشرية والتقنية لتجميع الأسرار، وبالأخص بعد أحدث وأكبر "خطأ استخباراتيّ". فالمسألة لم تكن مسألة اختيار بين الاثنين مطلقاً، بل كانت دائماً بشأن التوازن الملائم بين الأسلوبَين. لكنْ في العصور الحذِرة، يبدو أن مؤيدي طرائق الاستخبارات البشرية يخسرون الرهان في أغلب الأحيان. وقدّم برنت سكوكروفت، وهو مستشار سابق في الأمن القومي الأميركي، موقفاً مناقضاً في العام 1994، مقترحاً أننا نحتاج في حقبة ما بعد الحرب الباردة "إلى نوع جديد ومختلف من الاستخبارات، أقل اعتماداً على الطابع التقني الذي نبرع فيه، وعلينا العودة إلى الاستخبارات البشرية، حيث لا نبرع كثيراً".[17] لكن الذين عارضوا رأيه كان لهم ثقل أكبر في نهاية المطاف، لأن الطرائق التقنية قدّمت نتائج أسرع بمخاطر أقل. فتم تخفيض ميزانيات التجسّس- ربما بشكل حاسم أكثر- ولم يتم الترخيص للعمليات المحفوفة بالمخاطر أو التي يمكن أن تكون مُحرِجة.

ثم أتت هجمات 11 سبتمبر 2001. كان هناك عددٌ كبيرٌ من التحذيرات بشأن خطط الإرهابيين للضرب داخل الولايات المتحدة، لكن ما حدث كان على مقياس أكبر بكثير مما تخيَّل معظمنا. ووسط تبادل الاتهامات الذي تلى ذلك، حصل نقاش كبير حول ما إذا كانت أجهزة الاستخبارات قد ضلّت طريقها. وقُدِّمت وعودٌ

بأن يُعاد رفع الميزانية وإحياء التجسّس. لكنْ كانت هناك أيضاً بعض الأسئلة الصارمة أكثر.

هل كان من الصعب حقاً التسلّل إلى داخل تنظيم القاعدة؟ وقد طرحت مجلة الإيكونومست سؤالاً استفزازياً في العام 2002:

> حاوَل قادة شبكات التجسّس الأميركية ادعاء أن التغلغل داخل تنظيم القاعدة كان أمراً في غاية الصعوبة، نظراً إلى كونه كان مفتوحاً للأقارب فقط. لكن هذه الفكرة نُسفَت من جذورها عند ظهور جون ووكر ليند- وهو شاب من ولاية كاليفورنيا- في صفوف أسامة بن لادن. ومثلما عبَّر أحد المديرين السابقين لوكالة الاستخبارات المركزية: "كان تنظيم القاعدة منظمةً عقائديةً: أرادوا أعضاء، لكننا لم نرشّح لهم أي شخص قط".[18]

ومثلما عَرَض أحد القادة القدامى لشبكات تجسّس وكالة الاستخبارات المركزية بعد وقت قصير من هجمات 11 سبتمبر، كانت المشكلة في عالم التجسّس دائماً مشكلة تركيز. فتجنيد الجواسيس يتطلّب جهداً متواصلاً وموجَّهاً لعدة سنوات، ولم يكن من الممكن حشد هذا الجهد قبل هجمات 11 سبتمبر. وقد قال لي: "ليته كان لدينا رجل قريب من أسامة بن لادن، ليتعلّم أفكاره ويطّلع على خططه". فالجاسوس الذي كنا بحاجة إليه حقاً كان ينبغي أن يكون شخصاً من الدائرة الداخلية، أي قريباً من بن لادن بما فيه الكفاية للاطلاع على الأسرار الحقيقية. وهذا لا يعني أن عليه أن يكون شخصية بارزة في التنظيم، بل أن يكون جاسوساً محل ثقة؛ ليكون قريباً جسدياً من بن لادن. ومن دون جاسوس كهذا، جمَّعت وكالة الاستخبارات المركزية إشاعات كثيرة عن هجوم وشيك على الأراضي الأميركية، لكن لم يكن لديها قطّ أي نوع من المعلومات الدقيقة والمفيدة التي يمكنها إيقاف هجمات 11 سبتمبر. وقد أضاف: "لم يكن لدينا مطلقاً أي شخص قريب بما فيه الكفاية".

هذه هي المحادثة التي حفّزتني على تأليف هذا الكتاب، ومحاولة الإجابة عن الأسئلة الثلاثة التي طرحتُها. فنظراً إلى المصاعب المرافقة للمسألة، هل يستطيع "رجل قريب" أن يكون المثال الجيد لجواسيس القرن الحادي والعشرين؟ وهل سيكون جاسوسٌ كهذا بفعالية المعلومات المستقاة من عمليات التنصّت والمراقبة، وفائدتها؟ وهل هذا هو نوع الجواسيس الذي كنا بحاجة إليه حقاً لنحمي أنفسنا من أكبر التهديدات لأمننا؟ ومع انطلاق "حرب جديدة على الإرهاب" للتو، بدأتُ في السنوات اللاحقة بمتابعة محاولات تجنيد رجل بتلك المواصفات.

وقد شرح قائد شبكة التجسّس أنه في الطابق السابع- وهو الطابق التنفيذي في المبنى القديم للمركز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي- كانوا يعقدون اجتماعات دورية لمناقشة التهديدات الرئيسة للدولة الأميركية. وكان تنظيم القاعدة على اللائحة في أواخر التسعينيات. لكنّ المشكلة هي أنه لم يكن قطّ في أعلى اللائحة؛ إلى أن أصبح الوقت متأخراً جداً. ممّا يعني أنه إذا لم يأتِ جاسوسٌ متطوِّعٌ- "فُجائيٌّ"- ليقرع على الباب، لم تكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية أي فرصة تقريباً لإيصال عميلٍ إلى المراتب العليا في التنظيم. إذ لم يكن هناك أي استهدافٍ جديٍّ.

ولكنْ بعد الهجمات، كان من المفترض أن يصبح كل شيء مختلفاً. فقد عادت الأضواء لتُسلَّط على لعبة الاستخبارات، مع تركيزٍ صارمٍ على إيجاد الإرهابيين ومكافحتهم. ويستعرض لنا القسم الثالث من الكتاب والخاتمة الحقبة الممتدة من العام 2001 إلى وقت قريب من يومنا هذا؛ وهي فترةٌ أصبح فيها اتجاه النشاط الاستخباراتيّ واضحاً مرة أخرى. وأصبح تنظيم القاعدة- وأسامة بن لادن نفسه- "العدو الرئيس" الجديد للسلطات الغربية، وحلّ محلّ الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة. كان الأمر أشبه بدعوة إلى التسلّح. ففي الأسابيع التي تلت هجمات 11 سبتمبر، تلقّت وكالة الاستخبارات المركزية 150,000 سيرة ذاتية من متطوِّعين متلهّفين.[19] والعدد القليل من الأشخاص الذين تم اختيارهم منهم وُضعوا في

المواجهة ضد تنظيم القاعدة. وبحلول العام 2011، كانت التقديرات تشير إلى أن 70 بالمئة من موارد الاستخبارات الغربية كانت تُكرَّس لمحاربة الإرهاب.[20]

يتذكّر ت. ج. ووترز- الذي تم تجنيده في أول دُفعة ضباط فِرق في وكالة الاستخبارات المركزية بعد هجمات 11 سبتمبر- ما قاله له مدرّسوه: "إذا لم تتعلّم أي شيء آخر في 11 سبتمبر، فاعلم هذا على الأقل: الأقمار الاصطناعية والتنصّت على الهاتف والميكروفونات المخفية كلها أمور جيدة جيداً، لكنها ليست بديلاً عن معرفة ما يفكّر فيه الشخص وما يخطّط له في ذهنه. فرغم كل المليارات التي أنفقناها على التكنولوجيا المتقدمة، لم يعرف أحدٌ بهجمات 11 سبتمبر".[21] لكنْ رغم كل تلك الأحاديث، لم يصبح عمل الجاسوس البشري التقليدي نقطة تركيز الهجوم على تنظيم القاعدة، بل كثيراً ما كانت الطرائق المنافسة تصرف أنظار أجهزة الاستخبارات عن الاستخبارات البشرية.

قد لا يكون الضباط الذين عملوا لأجهزة الاستخبارات ضالعين في أعمال التجسّس أو تجنيد الجواسيس فحسب، بل أيضاً في محاولة التأثير بواسطة نشاطات خفية؛ كتحريض أحد الرعاة الذي يبقى محجوباً على حدث ما، وبالتالي لا يمكن تحميله المسؤولية (وفق مصطلحات التجسّس، "النشاط السّري" مختلفٌ قليلاً: فالنشاط نفسه سريٌّ). ويتضمن النشاط الخفي عملاً شبه عسكريٍّ، كتنظيم انقلابات أو دعم حروب العصابات؛ كالمجاهدين في أفغانستان. وقد يعني أيضاً القيام بأعمال تخريبية، كإفراغ الحسابات المصرفية للخصم. وقد يأتي أيضاً على هيئة دعم لوكالات أخرى، كمساعدة الشرطة في المراقبة، أو زراعة أجهزة تنصّت لوكالة الأمن القومي (NSA)؛ وهي وكالة استخبارات الإشارات الأميركية.

في السنوات الأولى بعد 11 سبتمبر، كان تركيز أجهزة الاستخبارات ينصبّ على محاربة الإرهاب، وكان السلاح الرئيس في ذلك هو النشاطات الخفية وليس تجنيد الجواسيس. وتألّفت تلك النشاطات الخفية بادئ ذي بدء من أعمال التنسيق والاتصال مع أجهزة استخبارات البلدان الأخرى (مثل مصر والأردن واليمن

وباكستان، حيث كان تنظيم القاعدة متواجداً)، وثانياً التعامل مع السجناء. وفي الحرب على الإرهاب، عملت وكالة الاستخبارات المركزية مع الجيش الأميركي والوكالات الأجنبية للقبض على مئات المقاتلين الإسلاميين وأعضاء قيادة تنظيم القاعدة. ومثلما شرحت في كتابي عن التسليم (rendition)، *Ghost Plane*، أصبحت مهمة وكالة الاستخبارات المركزية القبض على المتّهمين بالإرهاب، ونقلهم واستجوابهم.[22] في الواقع، لم يكن كل هذا النشاط تجسّساً، بل كان عمل البوليس السري الدولي. وكانت للتجسّس أولوية أدنى بكثير من نقل الأشخاص من بلد إلى آخر وسجنهم في سجون سرية.

وما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تعرِّفه كاستخبارات بشرية أصبح الآن يشمل حصيلة استجوابات السجناء. وقريباً، ستصبح "الاستنطاقات" مصدر معظم الاستخبارات البشرية؛ مثلما أعلن جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية. ففي معرض دفاعه عن أساليب التعذيب مثل الإيهام بالغرق قال: "أعرف أن فائدة هذا البرنامج وحده تفوق ما استطاع مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي مجتمعة كشفه لنا".[23] وقد ادّعى نائب الرئيس السابق ديك تشيني أن استجواب مشبوه واحد فقط- المخطِّط المزعوم لهجمات 11 سبتمبر خالد شيخ محمد- تفوَّق على بقية الاستجوابات كلها: "في فترة من الزمن، منذ ثلاث سنوات أو أربع، كان نصف ما نعرفه عن تنظيم القاعدة تقريباً قد جاء من ذلك المصدر الواحد. لذا، كان ذلك جهداً ناجحاً بشكل كبير. أعتقد أن النتائج تتكلّم عن نفسها".[24]

ومع ذلك، مثلما حذَّر بعض المتمرِّسين في هذا المجال، جاءت كل تلك الطرائق شبه العسكرية والبوليسية على حساب عمل الجاسوس التقليدي. ممّا يعني أن فرص التجنيد قد ضاعت. وقد تذمَّر تايلر درامهيلر، رئيس القسم الأوروبي في وكالة الاستخبارات المركزية في فترة ما بعد 11 سبتمبر، من أن التركيز على السجناء قد استنزف الموارد والانتباه والقدرات العقلية، بعيداً عن المهمة الشاقة المتمثلة بتجنيد

الجواسيس وتشغيلهم، وقد قال: "نحن جهاز استخبارات، جهاز تجسّس، ولسنا سجّانين أو رجال شرطة أو مستجوبِين. نحن نستنطق الأشخاص ولا نستجوبهم".[25]

ووفقاً لقادة شبكات تجسّس متمرِّسين آخرين، لم تكن المشكلة فقط أنه تم نقل المال، وكذلك أفضل المواهب إلى النشاطات المباشرة لمكافحة الإرهاب؛ بل المشكلة هي أن السياسيين قد فقدوا حماستهم للعملية طويلة الأمد، أي تقديم رعاية دقيقة للمصادر. فبسبب شعورهم باليأس وحرصهم على منع الهجوم الإرهابي الدموي التالي (ولتجنّب تحميلهم المسؤولية عن الفشل في اتخاذ كل التدابير الممكنة لمنع ذلك)، لم يتحلَّ أولئك القادة بالصبر أو الرغبة لقبول الأخطار التي تتطلّبها عملية تشغيل الجواسيس.

وشكّلت الحروب الطويلة التي خاضها الجيش الأميركي وحلفاؤه- بما في ذلك بريطانيا- في أفغانستان بدءًا من العام 2001، وفي العراق بدءاً من العام 2003 انحرافاً آخر عن المسار. فمع تورّط آلاف الجنود في الحروب الأهلية الدموية، أسَّست وكالة الاستخبارات المركزية قواعد ضخمة جداً ومحمية بشدة في هذين البلدَين، كما تم نشر جهاز الاستخبارات السرية البريطاني بأعداد أصغر. وكانت الوكالات ترزح تحت ضغط هائل للتزويد بأي نوع من الاستخبارات، أو القيام بأي نشاط يمكنه إنقاذ الأرواح. "كل شيء لم يرغب الجيش في فعله أو لم يشعر بالراحة في فعله انتهى به المطاف في حضن وكالة الاستخبارات المركزية"، حسب درامهيلر.

وبسبب انتشار جنوده في أرض المعركة، أراد الجيش تحقيق نتائج سريعة. ومرة أخرى، كان هناك القليل من الصبر، وأصبح الرد السريع على المطالب بالمزيد من الاستخبارات البشرية هو استجوابَ المزيد من السجناء، أو الحصول على تقريرٍ من شريك محلي. وكان الارتباط (liaison) والسجناء الحلَّ الافتراضي مرة أخرى؛ إذ لم تكن البيئة جيدةً لتجنيد جواسيس خاصين.

لاحقاً، في العقد الأول بعد العام 2000، في ختام رئاسة بوش وحتى بعد انتخاب باراك أوباما في العام 2008، أسَّس برنامج النشاطات الأميركية الخفية دعامةً ثالثةً، بالذهاب أبعد من مجرد الارتباط مع أجهزة الاستخبارات الأخرى والتعامل مع السجناء، حيث أصبح برنامج الاغتيالات أهم وسيلة للتخلص من المقاتلين الإسلاميين، وذلك باستخدام القنابل وإلقاء القذائف من طائرات بدون طيّار. واعتبر بعض مَن في هذا المجال أن هذا الأمر كان مجرد إلهاء آخر. ومرة أخرى، لم يتمّ تجنيد ضباط الاستخبارات لتشغيل الجواسيس بل للمساعدة في النشاطات الخفية، وهذه المرة للمساعدة في تحديد أهداف للاغتيال.

إذاً، هل كانت الطرائق القديمة في طريقها إلى الاندثار؟ وهل كان الجواسيس مجرد ديكور؟ وفي أفضل الأحوال، هل كانوا بيادق في آلة قتل لمكافحة الإرهاب؛ أي سعاة مفيدين ولكن يمكن الاستغناء عنهم وإرسالهم ليركضوا هنا وهناك، في الأراضي الوعرة في باكستان مثلاً، لزرع أجهزة تنصّت أو تعقّب؛ مثلما فعل البعض، أو لإعطاء الطائرات بدون طيّار أهدافاً أفضل؟

لم يتم إلهاء أجهزة الاستخبارات فحسب، بل كانت الاستخبارات البشرية تعاني من أزمة وجودية بمواجهة الأعداء الجدد. ففي مجتمع الاستخبارات، ونظراً إلى الفعالية النسبية للطرائق الأخرى، كانت قيمة الجواسيس ضد أقوى أعداء الأمة العصريين لا تزال موضوع نقاش. وقد يظلّ الغرب يجد أن أساليب التجسّس التقليدية فعّالة ضد الأعداء التقليديين كالحزب الشيوعي الصيني أو الكرملين الروسي، ولكنه سيجدها عقيمةً وغير قادرة على اختراق ما يعتبره السياسيون التهديد الرئيس؛ وأعني مجموعة الإرهابيين العصريين.

وقد قدَّم السير ريتشارد ديرلوف، الذي خدم كرئيس لجهاز الاستخبارات السرية البريطانية من العام 1999 وحتى العام 2004 حجةً كهذه. فحسبما قال في محاضرة عامة في لندن في العام 2008، كان التغلغل في صفوف الجيش الجمهوري الإيرلندي صعباً كفاية، لكن مجموعات تنظيم القاعدة كانت مختلفة. وقد تحدّى

الرأي المتفائل والقائل إنه يمكن تشغيل جاسوسٍ في الداخل، بالحصول على "رجل قريب". فتنظيم القاعدة أصبح متباين التوجهات الآن، "مثل سرب من العصافير"، وفق ديرلوف. وحتى لو تمكّنتَ من إيصال عميلٍ إلى الداخل، فقد تكون المعلومات التي يكتشفها قيّمةً لبضعة أيام أو حتى ساعات فقط. ومع توفير قادة تنظيم القاعدة إرشاداتٍ واضحةٍ وعلنيةٍ من قبل بشأن الأهداف والطرائق المسموحة، لم تكن هناك حاجةٌ كبيرةٌ في أغلب الأحيان لتبادل تفاصيل أي هجوم بين أعضاء التنظيم مسبقاً. لم يكن نمط تنظيم القاعدة هو التهديد الوحيد- تابَعَ قائلاً- ويمكن أن تستمر الجهود التقليدية أكثر في تجنيد عملاء سريين لمواجهة تلك التهديدات الأخرى، لكن هزيمة الإرهابيين تتطلّب مراقبةً جماعيةً هائلةً.

أبدى السير دايفد أوماند- وهو رئيسٌ سابقٌ لمكاتب الاتصالات الحكومية؛ وهي وكالة استخبارات الإشارات البريطانية، ومنسّق الاستخبارات في 10 داونينغ ستريت (مقرّ رئيس الحكومة)- رأياً مشابهاً. فبرأيه، ما يهمّ للتعامل مع التهديدات الحالية هو مقدار أقل من أنواع الأسرار التي تحتفظ بها الحكومات، ومقدار أكبر من "الوصول إلى البيانات الجارية". بتعبير آخر، ما يهم هو الوصول إلى مراسلات الأشخاص، وإلى المعلومات السرية التي تحتفظ بها البنوك، وإلى التحرّكات؛ وذلك من خلال تدقيق قواعد بيانات شركات الطيران. وتابَعَ قائلاً إن هذا النوع من الاستخبارات أكثر قيمة الآن لمواجهة مؤسسةٍ كتنظيم القاعدة؛ لأنه يتيح تعقّب الإرهابيين وكشف شبكاتهم.[26]

لذا، هل توقف السعي للحصول على "رجل قريب"؟ يبدو أن الهجوم في خوست- خدعة البلوي في العملية الوحيدة للتقرّب من كبار قادة تنظيم القاعدة- لم يؤدِّ إلى هذا القرار. فقد تم تقليص الاستخبارات البشرية، ولم يتم سحقها. وعندما تسنّت لها الفرصة، كانت وكالة الاستخبارات المركزية متحمسة أكثر من أي وقت مضى لزرع جاسوس داخلي. لكنْ مثلما تبيَّن من عملية خوست، إن مثل هذه الفرص كانت نادرة. وقد أظهرت نتيجة العملية سبب عدم اعتماد أحد على الجواسيس: لم تعد الاستخبارات البشرية في مركز الصدارة. كانت العملية

أفضل فرصة لوكالة الاستخبارات المركزية في لعبة التجسّس، وكان البيت الأبيض يراقب ما يجري، وقد جاء الفشل بمستوى مذهل.

عادت وكالة الاستخبارات المركزية إلى طرائقها التقنية العالية وتابَعت المعركة. وكان السلاح الرئيس هو الطائرات بدون طيّار القاتلة، وهي طائرات ذات قيادة آلية، يتم التحكم بها من الولايات المتحدة، وتُطلق صواريخها نحو الحدود الشمالية الغربية لباكستان. أصبحت وكالة الاستخبارات المركزية دقيقةً أكثر في تصويبها، وبدأت الطائرات بدون طيّار بإصابة عدد أقل من المدنيين، وأظهرت شبكة المراقبة التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية مرونة في تأقلمها مع التقلّبات. وبعد سنتين ونصف السنة من فشل مهمة خوست، حصلت الاستخبارات الأميركية على أهم أهدافها؛ حيث وجّهت قواتها الخاصة في باكستان لقتل أسامة بن لادن. عندها، تجمهرت حشودٌ مبتهجةٌ بالنصر في شوارع العاصمة واشنطن، وراحت تهتف بحياة وكالة الاستخبارات المركزية. لم يكن متمرِّسو الوكالة يتوقعون مشاهدة شيء كهذا؛ لقد انتصرت الولايات المتحدة ووكالة الاستخبارات المركزية.

لم يتضمن التقرير الرسمي لعملية القتل أي دلالات أولية تشير إلى أن بن لادن قد تعرّض للخيانة من قِبل جاسوسٍ، بل وضّحت المطاردة بشكل جيداً جداً أساليب العمل الخفي عالمياً. كانت هذه العملية نتيجة "الاستخبارات الجديدة"؛ أي نتيجة الكثير من التحاليل الاستخباراتيّة، والرسوم البيانية العنكبوتية، و"استنطاق" السجناء، ومراقبة شاملة لا نهائية.

من هذا العالم الجديد عالي التقنية، برز كاشفُ فسادٍ في يونيو 2013. وهو متعاقدٌ مع وكالة الأمن القومي، ولديه وصولٌ ذو مستوى إداري إلى أنظمة الكمبيوتر فيها، ويدعى إدوارد سنودن. لقد كشف سنودن آلاف المستندات المصنَّفة سرية للغاية للصحافيين، والتي تُظهر قوة أدوات المراقبة المتوفرة في بريطانيا والولايات المتحدة. كما كشَف أن مكاتب الاتصالات الحكومية أرادت "استغلال أي هاتف، في أي مكان، وفي أي زمان".[27]

لا عجب أن قيمة الجواسيس البشريين وجهودهم تبدو هزيلةً أحياناً. لكنْ مع ذلك، لم يمت العميل السري بعد، ولا يزال بعيداً جداً عن هذا المصير. فرغم كل عيوبه، يمكن اعتبار محاولات التخلص من العميل قراراً مضلّلاً وخاطئاً. ومثلما سيتّضح، لقد أسيء فهم طبيعة الجواسيس وقيمة الاستخبارات البشرية منذ البداية.

القاعدة الأولى للاستخبارات: انسَ كل شيء تعرفه.

القسم الأول

عالم الاستخبارات

(1909-1989)

الفصل 1
العميل السري

"يؤدّي الجواسيس في الخدمة البريطانية واجبهم الخطير عادة بدافع
حب المغامرة البَحت"
- النقيب جورج هيل، ضابط جهاز الاستخبارات البريطاني في موسكو[1]

فتح النقيب فرانسيس كرومي- وهو شاب طويل، ذو بنية قوية، عمره 36 سنة، قائد في البحرية الملكية، وحائز على وسام الخدمة المتميزة- دُرج القنصل وسحب مسدَّساً.[2] حصل هذا في 31 أغسطس 1918، وهو اليوم الذي وقفت فيه روسيا على مفترق طريق في تاريخها، كما كان آخر يوم في حياة كرومي. كان حينها في السفارة البريطانية في بتروغراد (سان بطرسبرغ) في زمن الحرب، وبدا أن "الثورة الحمراء" للعمال والفلاّحين الشيوعيين في خطر.

وكان مويسيه أوريتسكي- الرئيس المحلي للبوليس السري الجديد، تشيكا- قد قُتل بدم بارد في اليوم السابق، ثم وصل خبر مفاده أنه على بُعد 650 كيلومتراً، تعرّض قائد الحُمر، فلاديمير إيليتش لينين، لإطلاق النار أيضاً. فقد كان نائماً على سريره في الكرملين، وقد أُطلقت عليه رصاصتان؛ واحدة في صدره والأخرى في عنقه، وكان الجرّاحون غير واثقين من نجاته.

وشمالاً، كان البريطانيون وغيرهم من الحلفاء قد نزلوا يوم 4 أغسطس في بلدة أرخانغلسك للانضمام إلى الجيش الأبيض؛ وهو تكتّل القوى المناهضة للثورة. ورغم أن هذه القوى المتحالفة كانت تضم 5,000 رجل فقط، إلاّ أنها كانت تتوقع قدوم المزيد، وخشي البلاشفة من أن يتقدّموا نحو الجنوب. وكانت هناك أخبار

أيضاً عن أن الأجانب داخل المدينة يتآمرون مع ثوار أقصى اليسار وأنصار القيصر السابق للقيام بانقلاب مضاد ضد الحكومة الثورية الجديدة.

كانت تلك الإشاعات حقيقية، وكان النقيب كرومي- وهو رجل نشيط وضابط استخبارات- أحد أولئك المتآمرين. وقد شارك بالتعاون مع موظفي استخبارات بريطانيين آخرين متواجدين في روسيا في أول تصادم قوة بين الغرب والسلطة الشيوعية الجديدة. وستساهم أحداث تلك الأيام الملحمية، والأخطاء التي ارتُكبت حينها في تعريف التجسّس العصري.

بعد الساعة الرابعة عصراً بقليل، سمع شهودٌ في السفارة صيحات، وأصوات أبواب سيارات أُغلقت بعنف في الفناء الخارجي. لقد وصل رجال التشيكا. كان كرومي مشغولاً في عقد مجلس حربيّ في دار المستشارية مع ديبلوماسيين زملاء له وعدة جواسيس وطفيليين، ولكنه تعرّض للخيانة. فاثنان من معارفه الموثوقين في الغرفة، وهما الملازم سابير والعقيد ستيكلمان- اللذان ادّعيا أنهما من قوات الروس البيض المناصرين للقيصر- كانا في الواقع عميلين للتشيكا.

وفي مكان آخر في بتروغراد، كان ضابط استخبارات بريطاني- الرجل الذي أصبح الشعب يلقّبه لاحقاً "آص الجواسيس"، سيدني رايلي- ينتظر لقاء كرومي. كان يأمل أن يكون الانقلاب الذي حرَّض عليه ضد الحُمر على وشك أن يبدأ.

وفقاً لشاهد عيان، ومثلما تم تدوينه في الأرشيف الوطني البريطاني، اقترب عضوٌ في الحرس الأحمر- وهم متطوِّعون مسلّحون للثورة البلشفية- من باب دار المستشارية حاملاً مسدَّساً. التفتَ كرومي إلى رفاقه وقال: "ابقوا هنا، واحرسوا الباب خلفي". ثم فتح الباب، وصوَّب مسدسه وصرَخ: "انصرف أيها الحقير"، قبل أن يتوجَّه صوب الممر، دافعاً عضو الحرس الأحمر الذي أمامه. لم يرَ أحدٌ ما حصل بعد ذلك، ولكن خلال تبادل لإطلاق النار في الرواق، أُصيب اثنان من الغزاة.[3]

انطلق كرومي مهرولاً في الرواق، وخرج إلى السُلّم الكبير. وبينما كان يهبط مُسرعاً على درجاته المغطاة بالسجاد، طارده عملاء تشيكا الذين كانوا في الطابق

العلوي من قبل، وأطلقوا عليه النار من الشرفة. اخترقت رصاصتان مؤخر جمجمته، وسقط عند أسفل الدرجات، وتأوّه بهدوء وهو ينزف على السجادة.[4]

لقد شارك النقيب كرومي مع جواسيس بريطانيين زملاء له في محاولة للإطاحة بالبلاشفة، لكنهم فاقوهم دهاءً واخترقوا صفوفهم. وربما كان أول رجل يموت بسبب خطأ فادح ارتكبه ضباط جهاز استخبارات جلالته.

تلك كانت الأيام الأولى لما أصبح لاحقاً جهاز الاستخبارات البريطاني. ففي العام 1909، تم تأسيس مكتب جهاز الاستخبارات (المسمّى ببساطة SS) كأول وكالة استخبارات في العالم، رداً على حملة أثارت الذعر قادتها وسائل الإعلام حول نشاطات التجسّس المزعومة لألمانيا الإمبراطورية (لم تحذُ وكالة الاستخبارات المركزية حذوها إلاّ بعد مرور 38 سنة أخرى). وتم تأسيس القسم الأجنبي في المكتب بعد سنتين، مع ميزانية سنوية قدرها £7,000 فقط (أي ما يعادل أقل من £300,000 بقليل حسب أسعار العام 2014).[5] ثم تمّ دمج مكتب جهاز الاستخبارات بالمكتب الحربي (War Office) خلال الحرب العالمية الأولى، وأصبح يُعرَف بالقسم MI1c، لكن اسمه الرسمي في معظم الأحيان كان جهاز الاستخبارات السرية (Secret Intelligence Service أو SIS)، أو فقط "الجهاز" بالنسبة إلى العاملين فيه. وسيصبح معروفاً شعبياً في أواخر الثلاثينيات بأحد أسمائه التمويهية، MI6.

منذ بداياته وحتى العام 1923، كان جهاز الاستخبارات السرية بقيادة النقيب غريب الأطوار سميث مانسفيلد-كومينغ، الذي كان يُنادى كومينغ أو "C". فقد أصرَّ على توقيع رسائله بالحرف C الكبير وباستعمال حبر أخضر- وهو الحبر الأولي والأخضر الذي لا يزال الرئيس الحالي يستخدمه هذه الأيام- وكان رجاله عبارة عن مجموعة من مستقلّي التفكير عديمي الرحمة من الطبقة العليا في الأغلب.

كان ذلك عصر الهواة والجرأة. فبعد مقابلة تمهيدية في عليّة في شارع وايتهول كان كومينغ قد حوَّلها إلى عرين له، كان يوزِّع متطوّعيه الجدد إلى خارج البلاد بقليل من التدريب أو بلا تدريب على الإطلاق، وببضع تعليمات فقط.

كانت وكالة كومينغ كسراً للتقاليد. فأكبر جواسيس بريطانيا لم يكونوا لعدة قرون جزءاً من بيروقراطية منفصلة. بالطبع، لم تكن شبكات الاستخبارات مجهولة؛ سواء أكانت خاصة بمُخبِري السير فرانسيس والسينغهام في تيودور إنكلترا، أو جهاز الاستخبارات الأحدث عهداً والشامل لرئيس الوزراء ويليام بيت الذي تم تأسيسه في تسعينيات القرن الثامن عشر لمحاربة الثوريين في أوروبا المتأثرين بالثورة الفرنسية، أو جهاز أمن الهند البريطانية اليافع أكثر.[6] لكنْ اعتقد السياسيون أن الشعب البريطاني بدأ يمقت هذه الأشياء، ما عدا في الحالات الطارئة. "لا شيء مقزز للنفس بالنسبة إلى الإنكليز أكثر من التجسّس الذي يشكّل جزءاً من النظام الإداري للأنظمة الديكتاتورية القارية"، هذا ما كَتَبه أرسكين ماي في المجلّد الثاني من كتابه "تاريخ دستور إنكلترا" الذي وضعه في العام 1863.[7] والجواسيس الذين كانوا موضع احترام كانوا مستكشفي الأمة ومُغامِريها الذين أتقنوا لغات أجنبية، بالإضافة إلى "المحليين" والمستمتعين بكل أشكال الخطر (والغنيمة في أغلب الأحيان). وحتى عندما كان ككومينغ يحبك نظاماً جديداً، كان هناك رجال أمثال ت. إ. لورنس (لورنس العرب) في الأردن والمملكة العربية السعودية المستقبلية، وكذلك غيرترود بَلْ الجَسور في العراق، الذين تابَعوا ذلك التقليد. وقبلهم، كان هناك ديبلوماسيون جواسيس مثل النقيب آرثر كونولي من شركة الهند الشرقية (قُطع رأسه في بخارى، في أوزبكستان حالياً، بتهمة التجسّس في العام 1842)، والنقيب السير ألكسندر بيرنز (قُتل في كابول في العام 1841). كلاهما ارتحلا عبر الممرات الجبلية للهندوكوش، ولعبا دوريهما في ما يسمى "اللعبة الكبرى" التي شهرها الكاتب روديارد كبلينغ. كان معظم أولئك الجواسيس متطوّعين، وبالكاد يمكن اعتبارهم "عملاء سريين". وفي حين أن الكثيرين منهم عملوا تحت قناع

رديء- بصفتهم مسّاحي أراضٍ مثلاً- لم تكن نشاطاتهم سرية، ولا متحفّظة. ومثلما قال لي أحد أحدث أولئك الأشخاص: "تم تجنيدي قبل أن أولد حتى". لكنهم كانوا رغم ذلك لا يزالون يُعتبرون جواسيس. ووفق قواعد اللعبة الكبرى، كانوا يجمّعون معلومات عن مدى الزحف الروسي، محاولين استنباط تفاصيل المكائد السرية بين المبعوثين الروسيين والقبائل المحلية.

كان التجسّس من بداية القرن العشرين معرَّفاً بعناية أكثر. والبند 29 من معاهدة لاهاي للعام 1907 واضحٌ، ويشير إلى أن التجسّس يشمل النصب والاحتيال:

> يمكن اعتبار الشخص جاسوساً فقط عندما يتصرّف بشكل سريّ أو بناءً على ادعاء كاذب ليحصل على أو يسعى للحصول على معلومات في منطقة عمليات طرف محارب، وتكون نيّته إيصالها إلى الطرف المعادي. لذا، فالجنود الذين لا يرتدون زيّاً تنكرياً والذين اخترقوا منطقة عمليات الجيش المُعادي بهدف الحصول على معلومات، لا يمكن اعتبارهم جواسيس.

في هذا العصر الجديد، الأرستقراطي في معظمه، ظلّ تراث التجسّس الهاوي والمُغامر بشكل رئيس باقياً في وكالة كومينغ الجديدة. لكن تجارب المكتب الأولى أظهرت الحاجة إلى تجديد طرائق العمل.

في الحرب العالمية الأولى، لم يُثبت جهاز الاستخبارات نفسه كعنصرٍ ناجحٍ. ففي حين أن البحرية تمكّنت من كسر الشيفرة الألمانية، لم يكن كومينغ قادراً على تجنيد أي عملاء داخل ألمانيا؛ باستثناء الحالة البارزة للرحّالة المتمركز في هولندا المهندس البحري الدكتور كارل كروغر. وبدلاً من ذلك، كان النجاح الرئيس للجهاز في هولندا وبلجيكا، مع شبكة من العملاء في القطارات الذين تعقّبوا تحرّكات الجنود والمؤن، وساعدوا في وضع تصوّر لترتيب القتال الألماني. إن تاريخ الاستخبارات لما بعد الحرب على الجبهة الغربية يسجِّل أن "الجزء الأكبر من عمل جهاز الاستخبارات في المناطق المحتلّة كان مكرّساً لمراقبة التدريب".[8] وبعد الحرب،

ارتكبت بريطانيا خطأ منح ميداليات أو غيرها من أوسمة الشرف لما يزيد عن 700 عميل بلجيكي، مما عرّضهم كلهم للخطر عندما غزا الألمان مرة أخرى في العام 1940.[9]

بعد سقوط القيصر في العام 1917، لم تجد الاستخبارات البريطانية في روسيا الثورية عدواً سيستحوذ على كل تفكيرها لعقود فحسب، بل واتّخذ شكلاً جديداً أيضاً. وقد قُصَّت رواياتٌ عن الجرأة البطولية للرِّجال الضالعين في تلك العمليات- أشخاص مثل كرومي، وبالأخص ثلاثة من رفاقه في الاستخبارات الذين عملوا في روسيا وقتها، سيدني رايلي وبول ديوكس وجورج هيل- قبل ذلك بعدة أساليب حيوية. لكنّ ما كانت الروايات تتجاهله عادة هو مدى الفشل الذي شكّلته تلك العمليات، وكيف أن ذلك الفشل أظهر بوضوح حاجة التحسّس إلى التكيّف. فبمواجهة دولة عصرية صاعدة كالاتحاد السوفياتي في أيامه الأولى، أوضحت تلك المهام ما كان ينفع، والأكثر أهميةً ما كان غير نافع.

رغم فشلهم، ساعد كرومي وأبناء جيله أيضاً في ترسيخ أسطورة التحسّس. فقد أدّت بطولاتهم الهاوية إلى توليد انطباع قوي وثابت وخاطئ إلى حد كبير عن ضبّاط الاستخبارات بوصفهم "أسياد الجاسوسية". كانت تلك أسطورةً استمرت على مرّ الأجيال، ولا تزال كذلك. وأحد أسباب ذلك أنها كانت مفيدةً، وقد تم استغلالها منذ ذلك الحين لتجنيد الجواسيس وتضخيم الميزانيات.

وشكّل حزب لينين البلشفي المتماسك بشكل محكم، أي الحزب الشيوعي الذي استولى على السلطة في ثورة أكتوبر 1917، عدواً جديراً بالاهتمام، إلى جانب جهاز استخباراته تشيكا.[10] فبعد سنوات من التنظيم السري ضد نظام الحكم القمعي للقياصرة، أصبح البلاشفة أسياد التآمر. فهم لم يراقبوا كل الأجانب ويُخضعوا الجواسيس المشبوهين لمراقبة دقيقة فحسب، بل وأدخلوا أيضاً عملاء مزدوجين ومحرِّضين، واستخدموا حيلاً متقنةً. في ذلك العالم عالي الضغط للمواجهة

المباشرة بين الجواسيس، كان على الاستخبارات الغربية إعادة التفكير بأساليبها، وأن تصبح محترفة وأن- خلافاً للأسطورة- تلزِّم عملية التجسّس الفعلي للآخرين.

كل مكيدة جاسوسية يُفتضح أمرها للعامة تسمّيها الاستخبارات الأميركية "إخفاقاً" (flap). وفي أول إخفاق بريطاني، في بتروغراد 1918، كان بطلا الرواية، النقيب فرانسيس كرومي والملازم سيدني رايلي، شخصيتين مختلفتين إلى حد ما.

وُلد كرومي في إيرلندا عام 1882، وهو ابن ضابط في الجيش البريطاني وديبلوماسي، وكان ذا شخصية آمرة ولكنها متحفّظة قليلاً. انضم إلى فرقة الغواصات في البحرية الملكية حين كان في الحادية والعشرين من عمره، وتمكّن من إغراق الطرّاد الألماني أندين في العام 1915، وقد نال وسام الخدمة المتميزة في السنة التالية. أُرسِل إلى روسيا في العام 1915، تاركاً خلفه زوجةً وابناً يافعَين. كانت مهمته قيادة أسطولٍ صغيرٍ من الغواصات البريطانية التي تجوب البلطيق وتحارب فيه، وقد قلّده القيصرُ نيكولاس الثاني عدة أوسمة. بعد الثورة، انتهى دوره الأولي، وتم تسريحه عندما انسحبت البحرية الروسية الإمبراطورية من الحرب، ولكن أُعيد تعيينه في يناير 1918 كملحق بحري في السفارة في بتروغراد. ربما كان هو مَن دبّر ذلك لنفسه، على حد قول أحد الأميرالات لاحقاً، بسبب "مصلحة عاطفية": فقد أصبحت شابة أرستقراطية تدعى صوفي غاغارين عشيقته.

كان الدور الرئيس الجديد لكرومي ضمن الاستخبارات. وكان مديره الأميرالَ السير ويليام "بلينكر" هول، القائد الأسطوري لاستخبارات البحرية الملكية (ثم أقوى رجل في أجهزة الاستخبارات المتكاثرة في الإمبراطورية). وكانت إحدى مهام هول إدارةَ قسم فك تشفير الرسائل في البحرية، والذي سُمِّي الغرفة 40 بعد قاعدته الأصلية في ديوان البحرية. عندما بدأ كرومي عمله في يناير، كانت لا تزال لديه أصول بحرية ليحميها، ولكن مع اقتراب الجيش الألماني، رتَّب إغراق الغواصات الست التابعة للبحرية الملكية، وفجَّر الذخائر والمؤن. وفي بداية الصيف

في تلك السنة، انخرط- مع آخرين في الاستخبارات البريطانية- في خطة مُبالغ بها كثيراً: تخريب السلطة البلشفية.

في أغسطس 1918، دخل رجلان، هما يان بويكيس ويان سبروجيس، السفارة في بتروغراد. كان هذا بعد فترة قصيرة من نزول الجنود البريطانيين في شمال أرخانغلسك. وقد ادّعيا أنهما ضابطان من فوجٍ لاتفيٍّ نخبويٍّ شكّل الحرس البريتوري للقيادة السوفياتية. أبلَغ بويكيس وسبروجيس كرومي أن رفاقهما لا يريدون محاربة البريطانيين، بل يريدون مساعدةً في تغيير ولائهم والذهاب إلى الخطوط البريطانية.

أرسَل كرومي المنشقَّين اللاتفيَين إلى موسكو حيث التقيا بروس لوكهارت، وهو أول مبعوث رسمي لبريطانيا إلى الحكومة البلشفية، وعرَّفهما إلى رجل الاستخبارات البريطاني الذي يعمل تحت اسم العميل ST1: سيدني رايلي. وقد ناداه اللاتفيان "السيد قسطنطين". مع رايلي، انتقل اللاتفيان من الحديث عن الانشقاق إلى إعداد انقلاب مسلّح. وفي غضون ذلك، في بتروغراد، كان كرومي ضالعاً في المؤامرات بمقدار مماثل، وكان العديد من أهدافه عسكرياً بكل معنى الكلمة: ضد الألمان الذين كانوا يبعدون حينها 160 كيلومتراً فقط. وضع خطةً مع أنصار القيصر لإيجاد طريقة لتفجير الأسطول الروسي في البلطيق، والذي كان وقتها تحت سيطرة البلاشفة ومقرّه في كرونشتادت القريبة؛ وذلك من أجل تجنّب وقوعه في أيدي الألمان، ولتدمير الجسور قبل وصول الأرتال الألمانية.[11] لكنه كان يأمل مع رايلي أيضاً بحصول المزيد. فمثلما قال في تلغراف أرسله إلى لندن في يونيو 1918: "التدخّل على مقياس شامل هو الشيء الوحيد الذي سيحفظ الموقف وروسيا".[12] وقد لاحظ ديبلوماسيٌّ زميلٌ له في روسيا أن "كرومي رغب في توحيد العدد الكبير للمنظمات الروسية لكي تعمل مع بعضها بعضاً تحت الإمرة البريطانية".[13]

في هذا الوقت، كانت بريطانيا لا تزال متورّطة في الحرب الكبرى، مع مقتل الآلاف يومياً على الجبهة الغربية. وفي أغسطس 1918، تكبّد البريطانيون 80,000 قتيل، وفي يوم واحد فقط- 8 أغسطس- قُتل 6,500 جندي للحلفاء.[14] في غضون ذلك، كان البلاشفة قد وقّعوا معاهدة سلام مع ألمانيا في بريست-ليتوفسك يوم 3 مارس 1918. ممّا جعل مصلحة الحلفاء الغربيين تكمن في مواجهة البلاشفة ودعم قوات الروس البيض المناصِرين للقيصر الذين رفضوا معاهدة السلام.

ومع قُرب اندلاع الحرب بين بريطانيا والبلاشفة، عرَف كرومي أنه كان تحت مراقبة مشدّدة. فقد لاحقه جهاز التشيكا أينما ذهب، وبعد تفتيش شقته بشكل دقيق، انتقل إلى "مترل آمن". كان عليه التوقف عن هذا- الهروب فوق أسطح البيوت مرتدياً ملابس النوم- بعد إحدى غارات تشيكا في إحدى الليالي،[15] فانتقل إلى مجمَّع السفارة، إلى جانب صوفي غاغارين.

ظل كرومي يعتقد أن هناك فرصة للتأثير في مجرى التاريخ. وبقي على تواصل وثيق مع الرجلَين اللذين عرَفهما "كضابطَي القيصر"، ستيكلمان وسابير، واللذين وعداه بالمساعدة. وقد ادّعيا أهما من الحرس الأبيض الروسي، ومقرّهما في فنلندا القريبة. في صباح مقتل كرومي، أرسل ستيكلمان رسالةً إلى السفارة قبل أن يذهب شخصياً، قال فيها إنه "حان وقت العمل ولا يمكن التأخر أكثر".[16] في الواقع، ومثلما اكتشف البريطانيون لاحقاً، كان وسابير عميلين سريين للتشيكا.

كان جهاز التشيكا مقتنعاً- وعن حق- أن كرومي يعدّ مؤامرة ضده، وقد يكون هذا سبب قَتْله. ومثلما ذكر مراسل التايمز جورج دوبسون الذي كان متواجداً في السفارة، بعد ذلك بوقت قصير: "من الواضح أن المُغيرين كانوا يعتبرون كرومي زعيم كل المتآمرين عبر التاريخ... وكان يقول في أغلب الأحيان إن البلاشفة لن يأسروه حياً أبداً، وإن توجيههم مسدَّساهم نحوه كان استفزازاً استاء منه بالطبع".[17]

في ذلك اليوم، ذهب سيدني رايلي إلى بتروغراد، غير مُدرك أن لينين قد تعرَّض لإطلاق النار، وأن الخطر على وضعه الشخصي يتزايد. وبينما كانت كل الأحداث تجري في السفارة، كان رايلي ينتظر كرومي في شقة رئيس المحطة MI1c، القائد إرنست بويس. وبعد سماعه إطلاق النار، انسحب رايلي إلى موسكو بهدوء على متن قطار.

رغم نسيان قصة كرومي وموته في بتروغراد بسرعة، بدأ يُنظَر إلى نشاطات سيدني رايلي على أنها أشهر رواية تجسّس بريطانية على الأرجح. وقد تم نشرها لأول مرة في العام 1931 في "سيرة ذاتية"- خرافية إلى حد كبير- من تأليف زوجته. فقد نُشرَت بعد وفاته في كتاب، وفي طبعة محدودة من صحيفة لندن إيفنينغ ستاندرد.[18] كما تم نشر المزيد من الروايات عن حياته، وبعضها على لسان ضباط استخبارات سابقين. وقد أدّى كل ذلك إلى ترسيخ صورة أسطورية لدى الشعب في ما يتعلق بجهاز الاستخبارات السرية بقيت مستمرة. والغريب أنه كان لديه القليل من القواسم المشتركة حقاً مع ما أصبحت عليه الوكالة اليوم.

مثّل رايلي بعض صفات سيد الجاسوسية. فقد كان رجلاً مخادعاً بامتياز، ولغوياً موهوباً قادراً على التأقلم في كل مكان تقريباً، ولديه القدرة على إقناع العقول المتعنّتة وكسب الأصدقاء وسرقة الأسرار. كما كان إلى جانب صديقه وخلفه في روسيا، السير بول ديوكس، أحد آخر ضباط الاستخبارات الذين أُرسلوا إلى روسيا من أجل التجسّس بأنفسهم. ففي جهاز الاستخبارات السرية، كان الأشخاص أمثاله الذين يعملون وحدهم يشكّلون ظاهرةً قصيرة الأمد، وربما حقيقة أن قصته كانت انحرافاً عن المألوف تشرح سبب استحقاقه مع ما سمّي مؤامرة لوكهارت بضعة أسطر فقط في التاريخ الرسمي للوكالة.[19]

وُلد رايلي في العام 1873 في عائلة يهودية بالقرب من أوديسا، أوكرانيا، وكان اسمه شلومو روزنبلوم. وبعد انتقاله إلى لندن في تسعينيات القرن التاسع عشر، تزوج امرأة إيرلندية وحمل اسم عائلتها. ومنذ ذلك الحين، تحوَّل إلى رجل أعمال

ومحتال محترف، مدّعياً أنه إيرلندي. سافر إلى روسيا كثيراً في السنوات اللاحقة، ويبدو أنه عمل كعميل مستقل بشكل رئيس، سارقاً أو مجمِّعاً معلومات يمكنه بيعها لأي جهة. أعطى البريطانيين معلومات عن إمكانية التنقيب عن النفط في القوقاز، وسرق خطط الدفاع الروسية وباعها لليابانيين خلال الحرب الروسية اليابانية. وكان ضالعاً أيضاً في بيع مواد حربية؛ بدءاً من شراء كميات كبيرة من البارود في اليابان، إلى تنظيم شراء ذخائر في نيويورك لصالح الروس. ظهوره الأخير ما قبل الثورة كان في روسيا في صيف العام 1915.[20]

بعد فترة قصيرة من بدء ثورة أكتوبر في العام 1917، طلَب رايلي الانضمام إلى الجيش البريطاني. كان في نيويورك يعمل على عقود حربية، وبعد تطوّعه في تورونتو في فيلق الطيران الملكي، وَصَل إلى لندن يوم 1 يناير 1918.

ووفقاً لأحدث كاتب لسيرته والأكثر شمولية، أندرو كوك، كان رايلي يسعى إلى العودة إلى روسيا لدوافع شخصية على الأرجح: "كان يأمل باسترجاع ثروة تركها وراءه في سان بطرسبرغ". فقد ترك رايلي لوحات فنية ونفائس في البلد، وكان يبحث عن فرصة ليعيدها إلى وطنه.[21]

تشير الملفات الأصلية عن رايلي الموجودة لدى جهاز الاستخبارات السرية إلى أنه حتى قبل تجنيده وإرساله إلى روسيا في 18 مارس 1918، لم تكن لدى كومينغ أي أوهام بشأن شخصيته. وقد أشارت تحرّيات MI5 عنه إلى أنه كان مخادعاً ومعتدّاً بنفسه، وقد ذكرت برقيةٌ من محطة جهاز الاستخبارات السرية في نيويورك "أنهم يعتبرونه غير جدير بالثقة، وغير ملائم للعمل المقترح". كما نقل ضابطٌ في جهاز الاستخبارات السرية يدعى نورمان ثوايتس عن لسان مصرفيٍّ أن رايلي رجل أعمال داهية يملك قدرات مميزة بلا شك، ولكن ليس لديه حبٌّ للوطن أو مبادئ، وبالتالي لا يوصى به لأي منصب يتطلب وفاءً".[22]

لكن كومينغ، الذي زاره رايلي يوم 14 مارس، رأى فيه الرجل المناسب للوظيفة، وقد دوَّن في دفتر يومياته: "لقد عرّفني سكايل إلى السيد رايلي الذي

أبدى استعداده للذهاب إلى روسيا لصالحنا. إنه رجل ذكي جداً- ومريب جداً- وذهب إلى كل الأماكن، وفعل كل الأشياء. سيتقاضى 500£ نقداً و750£ بالألماس. يجب أن أقرّ بأنها مراهنة كبيرة، نظراً إلى كونه سيزور كل رجالنا في فولوغدا وكييف وموسكو، إلخ...".[23]

فقط بعد بدء رايلي بالعمل، اكتشف MI5 أنه خلافاً لما يدّعيه ضابطهم الجديد، ليست هناك سجلات تشير إلى ولادته في كلونميل، إيرلندا، وأبلغ جهاز الاستخبارات السرية بذلك.[24]

لم يصف أحدٌ رايلي بالوسيم. وقد وصفته برقيةٌ من كومينغ إلى رجال الاستخبارات في روسيا "كيهودي-ياباني الطابع، ذي عينين بنيتين ناتئتين جداً، ووجه شاحب بقوة، وقد يكون ملتحياً، وطوله 175 سم".[25] لكنْ تبيَّن أن النساء يجدنه جذاباً، وقد اتّخذ لنفسه عدة حبيبات، اثنتان منهنّ في موسكو؛ وهما الممثلة إليزافيتا اميلييفنا أوتن، وأولغا ستارزسكايا. ووفقاً لشهادتيهما لاحقاً، لم تعرفا قطّ أنه لم يكن روسياً.

رغم تقدير أصدقائه له، بالكاد يمكن وصف رايلي بـ "سيد الجاسوسية"، مع أنه كان موهوباً في العيش متخفياً، وفي ارتداء أزياء مختلفة. وبما أنه متعدد اللغات ويتكلّم الروسية بالفطرة، أصبح يُعرَف في بتروغراد بالتاجر التركي قسطنطين ماركوفتش ماسّينو. أما في موسكو، فكان السيد قسطنطين، رجل الأعمال اليوناني. وفي الأماكن الأخرى، كان جريئاً، وسمّى نفسه سيغموند ريلّينسكي، وقال إنه عضوٌ في قسم تحقيقات الجرائم في تشيكا. لكنْ رغم إجادة رايلي لعملية التنكّر، فقد افتقَر إلى السرية التي يجب أن يتمتع بها مراقِب موثوق، أي الشخص الذي يستطيع الاندماج مع الظلال بهدوء. كانت غريزته تحثّه دائماً على أن يتصرّف، ويستفزّ الآخرين، ويتدخّل، وقد كان متهوراً في هذا. لقد افتقَر إلى القرار السليم.

ورغم أنه لم يُولَد إنكليزياً، إلاّ أنه كان يتمتّع بالحسنات والسيئات النمطية للبريطانيين من الطبقة الراقية. فقد كان شجاعاً، ومُقنعاً جداً أكثر مما يفيد مصلحته، وناجحاً مع النساء، ولكنه بليد أيضاً إلى درجة عدم الكفاءة.

عند وصوله إلى مُورمانسك أولاً في أبريل 1918، ذهب رايلي إلى بتروغراد لمدة شهر. لم يضيِّع الوقت لاتخاذ قرار، بل أرسل تلغرافاً إلى كومينغ يقول فيه: "وصلنا إلى لحظة حرِجة حيث علينا إما أن نتصرف أو نتخلّى كلياً وفوراً عن الحالة".[26] ثم وصل إلى موسكو في 7 مايو. كان في البداية وقحاً مع البلاشفة، فقد دخل الكرملين وطالَب برؤية قائدهم، فلاديمير لينين. لكن أقصى ما توصّل إليه هو لقاء معاون هو الجنرال فلاديمير بونش-بروفتش الذي اشتكاه فوراً عند لوكهارت، ثم عند رجل الارتباط البريطاني الرسمي لدى السوفيات.[27]

بعد ذلك، انتقل رايلي إلى العمل السري، وبدأ يكيد المؤامرات لإحباط السلطة البلشفية. وكان من بين معارضي لينين الجنرال بوريس سافينكوف، وهو وزير سابق في الحكومة الثورية الأولى التي كانت برئاسة ألكسندر كيرينسكي. لقد حل نظام الحكم ذاك محل القيصر، لكن البلاشفة أطاحوا به أيضاً، وكان شعارهم "كل السلطة للسوفيات"؛ لجان العمال والفلاّحين. التقى لوكهارت ورايلي بمجموعة سافينكوف السرية، وقد أعطى الفرنسيون سافينكوف المال. ووفقاً لتقرير سوفياتي رسمي لاحقاً، اعترف سافينكوف، الذي عاد إلى موسكو في العام 1924 واستسلم، أنه أعطى دورا كابلان سلاحاً، وهي المرأة التي أطلقت النار على لينين. وبناءً على تلفيقاتهم الأخرى، من المرجح أن ذلك الادعاء كان كذبةً، ولكن حتى الدعم البريطاني البسيط لسافينكوف أثبتَ لتشيكا أن القوى الغربية كانت عدوّهم المميت.

يُقال إن التاريخ يكتبه المنتصرون، وقد تعرَّض لتشويه كبير في حالة السوفيات. لكنْ رغم المبالغة المقصودة في دور بريطانيا التآمريّ، لم يكن هناك شك في أن جهاز الاستخبارات البريطاني كان يتآمر لتدمير البلاشفة.

بعد مقابلة كرومي في بتروغراد، حوالي 15-16 أغسطس، ذهب الضابطان اللاتفيان، بويكيس وسبروجيس، لرؤية لوكهارت الذي قال لبويكيس- وفقاً لتقرير سوفياتيٍّ- "أهم مهامك هي اعتقال لينين وقتله. نعم، نعم، قتله لأنه إذا هرب فسيكون ذلك نهاية القضية". أنكر لوكهارت تحريضه على عنف كهذا. وقد أشارت تقاريره الرسمية إلى أنه وافَق على خطة رايلي ليجعل الأفواج اللاتفية تغيِّر ولاءها، ولكن "عندما أشار مرة أخرى إلى ضرورة القيام بعمل ما في موسكو [أي، محاوَلة انقلاب]، اعترضنا كلنا وأشرنا إلى أننا لن نكسب أي شيء من ذلك".[28]

أعطى لوكهارت اللاتفيين فعلاً جوازات سفر ليعبروا الحدود البريطانية. ولكنه قال إن المؤامرة لم تتبلور إلى أن بدأ رايلي بالتدخّل. وقد ادّعى أنه حذّر رايلي في إحدى المراحل من عدم التدخّل في "حركةٍ خطيرةٍ ومريبةٍ" مثل محاولة انقلاب.[29]

لكنْ سواء أكان قد فعل ذلك بمساندة رسمية أم لا، فقد أخذ رايلي- بصفته موظفاً لدى جهاز الاستخبارات السرية- زمام الأمور بنفسه، وبدأ يطوِّر مؤامرةً متقنةً أكثر بكثير، على أمل استخدام الأفواج اللاتفية للاستيلاء على السلطة السوفياتية في بتروغراد وموسكو. وقد أخبر رايلي المحقّقين السوفياتيين لاحقاً "أنه مثل بقية أعضاء المهمة البريطانية، انتقل تدريجياً من عمل استخباراتيّ هامد إلى قتال نشط تقريباً ضد السلطة السوفياتية".[30] وقد دوَّن لوكهارت في تقريره الرسمي:

> بعد إطلاق سراحي، اكتشَفتُ من النقيب في الفيلق الجوي الملكي جورج هيل، الذي كان مساعداً لرايلي في موسكو، أن الاتهامات البلشفية كانت حقيقية، وأنه بالرغم من نصيحة [الجنرال الفرنسي] لافيرن ونصيحتي ونصيحة بقية ممثلي الحلفاء، كان يجري الإعداد لانقلاب... كما أن الاتهامات بتدمير الجسور والسكك الحديدية كانت حقيقية أيضاً.[31]

حتى إن رايلي بدأ بتحضير لائحة بالوزراء الجدد الذين أرادهم أن يستلموا السلطة، والعديدون منهم كانوا من أصدقائه القدامى. وقد انضم الآن الملازم-

العقيد إ. ب. برزين، قائد الفوج اللاتفي الذي يحمي الكرملين، إلى الضابطَين اللاتفيَّين، بويكيس وسبروجيس، لإعطاء مصداقية إلى روايتهم. وقد دوَّن نائب رايلي في موسكو، النقيب جورج هيل، أن برزين اقترح "أنه يجب اغتيال الرجال أمثال تروتسكي ولينين"، لكن رايلي عارَض الفكرة لأنه لم يكن يريد "تحويل القادة إلى شهداء".[32]

في 17 أغسطس، اجتمع رايلي مع برزين بمفرده، وأعطاه 1.4 مليون روبل لتنفيذ المؤامرة. وكَتَب لوكهارت في برقية أنهم وافَقوا على تقديم دعم مادي لبرزين وترك المال مع رايلي، "وهو رجلٌ مؤهلٌ جداً، وبرأيي من أذكى عملائنا في روسيا إلى حد بعيد".[33] كانت الخطة تقضي بإجلاء كل الديبلوماسيين البريطانيين، ولكن يجب أن يبقى ضابطا جهاز الاستخبارات في موسكو؛ أي رايلي وهيل. فيمكنهما تحمّل اللوم على أي شيء قد يحصل. "ففي حال الفشل وإلقاء القبض علينا، سأكون ورايلي فردين نعمل من تلقاء نفسينا، ولا أحد غيرنا سيتحمّل المسؤولية... ستقع الوطأة الكبرى على رأسينا فقط".[34] تلك الرسالة عزّزها في بتروغراد القائد بويس، وهو رئيس مركز الاستخبارات، الذي قال لرايلي إن خطة الانقلاب اللاتفي كانت "محفوفة بالمخاطر الكبيرة لكنها... تستحق المحاولة، وإن فشل الخطة سيقع عبئه بأكمله على كاهل الملازم رايلي".[35]

في 3 سبتمبر، بعد ثلاثة أيام من الغارة على السفارة البريطانية، أعلن البلاشفة عن التفاصيل المروعة لما أسموه مؤامرة لوكهارت، مدّعين أن البريطاني قد تآمر لإطاحة لينين. ووصفت الصحف والمنشورات السوفياتية اكتشاف "مؤامرة مثيرة" للإطاحة بحكومتهم: "تم إثبات تواطؤ الحلفاء في مؤامرة ضد الثورة"، حسبما ورد في إحدى النشرات.[36]

كانت معظم التفاصيل- والتي كرَّرها بتلهّف الكتّاب المؤيّدون للسوفيات في السنوات اللاحقة- ملفّقة. فمع انحدار الثورة البلشفية في نفق الرعب، أصبحت المؤامرة أشبه "بالدليل رقم واحد". في الحقيقة، لم يخطّط اللاتفيون للتمرّد مطلقاً.

والدليل على وجود صلة بين ما كان رايلي ولوكهارت وكرومي يخطّطون له وإطلاق النار على لينين وأوريتسكي كان ضعيفاً. وسبب ذلك أن جهاز الاستخبارات البريطاني قد تعرّض للخداع بالكامل؛ فقد تبيَّن أن كل معارف البريطانيين تقريباً كانوا محرِّضين، أي عملاء للتشيكا. ومثلما اكتشف كلوكهارت عند مواجهته في زنزانته بالقائد البلشفي للثورة المضادة، ياكوف بيترز، عندما جاء إليه الضباط اللاتفيون في البداية، كانوا يتصرفون بناءً على أوامر بيترز.[37]

شكَّل هذا الأمر كارثةً بالنسبة إلى التجسّس البريطاني. فقد حاوَلوا أن يتآمروا، ولسوء حظ رايلي، كان هناك الكثير من الشهود. لقد أراد إلقاء القبض على لينين وإفشال الثورة، لكن كل الرجال الذين تمّ تجنيدهم لتلك المهمة كانوا يقبضون من "فيليكس الحديدي" دزيرجينسكي، مؤسِّس ورئيس التشيكا. وفي مهزلةٍ من الطراز الأول، تمّ إحباط مؤامرة خرافية- حاكها عملاء بريطانيون ومحرِّضون من التشيكا- من خلال مؤامرة حقيقية، لذا كان إطلاق النار على أوريتسكي ولينين مفاجأةً فعلاً.

كانت عواقب المؤامرتين المزيَّفة والحقيقية فظيعةً. فإطلاق النار على لينين تبعته مباشرةً أحداث "الرعب الأحمر"، حيث قُتل عشرات الآلاف. وفي 1 سبتمبر، صرَّحت مجلة الجيش الأحمر كراسنايا غازيتا: "من دون رحمة، ومن دون شفقة، سنقتل أعداءنا بالمئات. وليكونوا بالآلاف، سندعهم يغرقون في دمائهم. لأجل دم لينين وأوريتسكي... لتجري أنهارٌ من دماء البورجوازيين؛ المزيد من الدماء، قدر الإمكان". وفي اليوم نفسه، أصدر المفوَّضان البلشفيان لوزارتَي العدل والداخلية مرسوماً يقول: "من الضروري جداً حماية ظهرنا عبر استخدام الرعب". ونشرت إزفستيا، وهي صحيفة الحزب البلشفي، رسالةً من جوزيف ستالين تطالب بممارسة "الرعب كنظام مفتوح على نطاق واسع". وقد نُفّذت أوامره، وتم إعدام ما بين 50,000 و200,000 شخص.[38]

رغم أن مكائد جهاز الاستخبارات البريطاني غير المتقنة عزَّزت جنون العظمة لدى الحزب البلشفي وزوَّدته بدعاية مفيدة، إلاّ أنه من الصعب تخيّل أنه أحدث فرقاً كبيراً حقاً في مقياس هذا الانتقام الفظيع. وبالطبع، إن التآمر الفعلي ضد البلاشفة أعطى تشيكا عذراً للإغارة على السفارة وتحديد مصير كرومي. ولو نجح رايلي وكرومي وأصدقاؤهما في خططهم الجريئة وتمكّنوا، مثلاً، من قتل أحد القادة السوفيات، لكان بإمكان ذلك أن يؤدي إلى المزيد من العواقب المريعة. لكنّ وجود جنود عدائيين في منطقتهم أعطى الروس أسباباً كثيرةً للارتياب بالبريطانيين. ومثلما كَتَب ونستون تشرشل لاحقاً، هذا كان وقت المواجهة: "هل كانوا [الحلفاء] في حرب مع روسيا؟ بالطبع لا، لكنهم أطلقوا النار على الروس السوفيات عند رؤيتهم. لقد وَقَفوا كغزاة على التراب الروسي".[39] لكنْ رغم اهتماماتهم المتعارضة، كانت السياسة الخارجية للبلاشفة واقعيةً في جوهرها. واكتشافهم أن ديبلوماسيي بريطانيا كانوا مستعدين لتمويل اغتيال البلاشفة- وهذا دليلٌ على وجود نوايا خبيثة- ربما ساعد في تأرجح حساباتهم، وشجَّع الرأي القائل إنه لا فائدة من المفاوضات، وأقنعهم أن بريطانيا كانت عدائيةً.

لم تقبل لندن مؤامرات رايلي، ولم تعطِ موافقتها المسبقة عليها. ولا تتضمن ملفات جهاز الاستخبارات السرية أي دلالة على أن كومينغ عرف أن عملاءه كانوا يحيكون مثل تلك الخطط. فقد تم إرسال رايلي والآخرين لتنفيذ أعمال تجسّس، وليس لتنظيم انقلابات. لكنّ ذلك لم يكن عصر الإدارة الجزئية، وكان يُتوقَع من عملاء جلالته- تماماً كما من سفرائه- أن يفكّروا من تلقاء أنفسهم. وعندما عاد رايلي، لم يعطه كومينغ أي إشارة مفادها أنه يرفض نشاطاته، بل نال رايلي وساماً عسكرياً، وأُرسِل في غضون شهر ليتجسّس على السوفيات مرة أخرى (ليعمل هذه المرة مع قوات الروس البيض في أوكرانيا).

لم يُصرَف رايلي من الخدمة في جهاز الاستخبارات حتى العام 1921. وفي غضون اثني عشر شهراً، كان كومينغ ينصح محطة فيينا بأن "سيد الجاسوسية" أصبح مهمَلاً الآن: "يجب بالطبع ألا تظهروا أنكم تخفون أي شيء عنه أو تُبدون

رغبةً بالصراحة، ولكنْ انتبهوا في الوقت نفسه من عدم إبلاغه أي شيء ذي أهمية حقيقية".[40]

في السنوات القليلة التالية، تابَع رايلي التخطيط لمكائده، وقد فعل ذلك على الأغلب بقصد تحقيق بعض الأرباح. ثم استدرجه عملاء سوفيات في العام 1925 ليعود إلى روسيا؛ فقط ليلقي جهاز التشيكا القبض عليه ويُعدَم في 5 نوفمبر. اعترفَ رايلي أنه رجل استخبارات، ولكنه- حسبما كشف الأرشيف الروسي لاحقاً- لم يذكر اسم أي من رفاقه.[41]

إذاً، ما كان تأثير كل تلك المغامرات على طبيعة التجسّس؟

سرعان ما اتّضح أن التجسّس الفعلي في روسيا سيصبح شبه مستحيل على الأجانب أمثال رايلي؛ حتى لو كانوا مولودين هناك. والجاسوس المُغامِر الذي مثّله رايلي، كان يصبح بسرعة عبارة عن مفارقة تاريخية؛ أو على الأقل تحت نوع نظام الحكم المُغلق الذي مارسه الشيوعيون. وآخر عميل من هذا النوع كان على الأرجح بول ديوكس، صديق رايلي الذي دخل روسيا، وتابَع عمله السري حتى العام 1920، وتمكّن من المغادرة سليماً معافى، ونال لقب فارسٍ. لقد كان من أنجح جواسيس جهاز الاستخبارات السرية الأوائل. فقد كان يتكلّم الروسية بطلاقة، ودراسته الموسيقى أعطته سبباً وجيهاً ليتواجد في بتروغراد، وقد تغلغَل في المجموعات البلشفية المحلية، وعمل في مَصانع الذخائر، حتى إنه انضم إلى الجيش الأحمر كجندي (حيث فجَّر الجسور الخطأ عن قصد). لكن جورج هيل أوضَح- في تقريره إلى الاستخبارات البريطانية عن نشاطاته في روسيا- بكلمات بسيطة وواقعية مصاعب تنفيذ أعمال سرية في دولة أمنية نامية. فمنذ البداية، تواجه المرء مشاكل عملانية بسيطة، حيث يتعطّل نظام الهاتف، أو تتم مراقبته، لذا "كان من المستحيل إعطاء تحذيرات أو الاتصال لمعرفة إن كان الطريق سالكاً". وإيجاد مأوى كان مستحيلاً بشكل مماثل؛ لأنه تم تأسيس "لجان منزلية" تتحقّق من هوية أي شخص يستأجر غرفةً، وكان "اتحاد الخدم" الجديد يقدِّم مكافآت للخدم الذين

يساعدون في "إثبات أن مستخدميهم أعداءٌ للشعب". وكان منزل أي شخص عرضة للتفتيش "من دون أمر قضائي"، وكان من الصعب اختراع عذر وهمي بما أن العديد من المِهن كانت على اللائحة السوداء. اشترى هيل متجراً لبيع التحف والأدوية كغطاء لنفسه، لكن بيع الأدوية أصبح لاحقاً غير قانوني من دون رخصة، وصارت التحف محمية بصفتها "كنزاً وطنياً". كما كان من الصعب إدارة الحسابات المتعلقة بالمبالغ التي تدفع للعملاء. ففي حين أنه يجب دفع مبالغ كبيرة جداً لهم لمنعهم من كسب أموال أكثر عن طريق الخيانة، أو اللجوء إلى الابتزاز، لم يكن أحد منهم يقبل أن يوقّع على إيصال قبض.

ومثلما شرح هيل: "يجب إدراك أنه لا يوجد عميلٌ واحدٌ في روسيا اليوم سيضع اسمه على أي قطعة ورق أو إيصال، لذا إذا أردنا استخدام عملاء لنا في المستقبل في روسيا، يجب التخلي عن أي محاولة للسيطرة على الأمور وفق نظام الإيصالات القديم". ومجرد الحصول على بعض المال- حيث إن البنوك كانت في أيدي الثوريين- كان من "أكبر المصاعب بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات في روسيا".[42]

ملخصاً طبيعة المهنة في مذكراته، يشرح هيل كيف أن الجواسيس البريطانيين "كانوا يؤدّون واجبهم الخطير بدافع حبهم البَحت للمغامرة". لكنه لَمح إلى الابتعاد عن ذلك، والجنوح نحو نشاط تعرّفه عملية توظيف الآخرين؛ نحو استئجار عينين إضافيتين في أسوأ الأحوال:

> تسلّل الجواسيس البريطانيون عبر ممر خيبر متنكّرين كأفغان، أو تسكّعوا في الأسواق الشعبية مرتدين أزياء تجار محليين. ولكنْ من الصعب على الرجل- مهما طالت فترة تواجده بينهم- أن يقلّد لهجتهم أو عاداتهم أو طرائق تفكيرهم بدقة متناهية لا عيب فيها. ولهذا السبب، يجد الجاسوس نفسه مراراً وتكراراً مضطراً إلى توظيف المواطنين. إن هذا الجزء من عمله، وبسبب الضرورة التي تفرض عليه التصادق مع الخونة، هو الذي أدّى إلى إلصاق بعض الكراهية بأسماء الجواسيس.[43]

مهما يكن مقدار تلك الكراهية، وعلى ضوء التجربة في الفترة الأولى من روسيا السوفياتية، أصبح التجسّس العصري يعتمد على توظيف الخونة. فقد وظّفت الحكومة ضابط استخبارات يعمل لدى وكالة استخبارات، ثم وظّف ذلك الضابط والوكالة شخصاً محلياً، هاوياً عادة، ليقوم بالتجسّس الفعلي ويخون أسرار بلده.

لا أقصد أن الضباط البريطانيين أو الأميركيين لم يقوموا بأي أعمال تجسّس حقيقية بأنفسهم مطلقاً، ولكن سرقة الأسرار لم تعتبر عملهم الرئيس، بل تم توظيف آخرين- سواء أكانوا أشخاصاً ثانويين، أو مجنَّدين على دراية كاملة بما يفعلونه- أو التملّق لهم لانتزاع الأسرار منهم بالنيابة عن المحترفين.

في عالم التجسّس بعد رايلي وديوكس، أصبح ضباط الاستخبارات يشغِّلون أولئك المجنَّدين المحليين عادة؛ من منطلق تحكّم أفضل وأكثر أمناً. وخلال معظم السنوات ما بين الحربَين، انسحَب ضباط جهاز الاستخبارات السرية إلى كنف السفارات البريطانية. وبدءاً من العام 1919، أصبح الغطاء الرئيس المتعارف عليه لضابط جهاز الاستخبارات السرية هو أن يكون "ضابط مراقبة جوازات السفر" في القسم القنصلي. صحيح أن هذا لم يكن ليحمي كرومي، إلاّ أنه كان حلاً وسطياً أعطى مبعوثي كومينغ عادة درجةً من الأمان، كما أعطاهم عذراً للتواجد في البلد (رغم عدم تمتّعهم بحصانة ديبلوماسية رسمية)، كما أبقى التجسّس على مسافة من الديبلوماسية الاعتيادية (بالإضافة إلى أن الأرباح من إصدار جوازات السفر وتأشيرات الدخول إلى بريطانيا زوَّدت أيضاً بإعانة إضافية سرية لجهاز الاستخبارات السرية دعمَت "تصويت الاستخبارات"، الذي كان يُقرّ سنوياً في جلسة علنية في البرلمان).[44]

استمر إرسال الجنود-المُغامِرين البريطانيين في زمن الحرب للتجسّس خلف خطوط العدو. وخلال الحرب العالمية الثانية، هبط رجال جَسورون أمثال فيتزروي ماكلين بالمظلة في يوغوسلافيا التي تحتلها ألمانيا ليتواصل مع المناصرين، وذهب زميله الجندي غير النظامي نيل "بيلي" ماكلين إلى ألبانيا المحتلّة.

لكنْ بعد الحرب العالمية الثانية، عاد الضباط من كل الأجهزة الخارجية تقريباً، بما في ذلك جهاز الاستخبارات السرية (SIS) ووكالة الاستخبارات المركزية (CIA) المُنشأة حديثاً، إلى العمل في السفارة. وقد عملوا بشكل سري هذه المرة، مع اعتمادهم كدبلوماسيين بالكامل؛ مما منحهم حصانةً من المحاكمة على نشاطاتهم وفق اتفاقيات فيينا. وكان العائق الوحيد أن هذا الأمر تطلّب منهم أن يُرهقوا أنفسهم في إنجاز وظيفتين: أن يعملوا لجهاز التجسّس، وأن ينفّذوا "مهام عملهم الذي يتغطّون خلفه"؛ كإنجاز الأعمال القنصلية مثلاً.

لقد دار عالم الاستخبارات دورةً كاملةً، لدرجة أن إطلاق صفة جاسوس على ضابط الاستخبارات في نهاية القرن العشرين كان يُعتبر أمراً كريهاً، وبالتأكيد غير دقيقٍ. حتى إنهم لم يعودوا يُعتبرون عملاء سريين وفق التعابير الرسمية للتجسّس.

في العام 1978، قدَّم كبير المستشارين القانونيين للجنة تقصّي حقائق الاغتيالات في مجلس النواب الأميركي الشاهد التالي، السيد جون كليمنت هارت، "كعميل مهنيّ لوكالة الاستخبارات المركزية، خدم حوالي أربع وعشرين سنة". كان سيقدِّم دليلاً على استجواب منشقٍّ من الـــ KGB يدعى يوري يوسينكو. وبعد أن أقسم هارت اليمين، أراد توضيح نقطة واحدة فقط:

> شكراً، سيدي الرئيس، حضرات السادة. قبل أن أبدأ بذكر إفادتي، أود أن أبدي ملاحظة تمهيدية من ناحية تقنية عما قيل عني... لستُ ولم أكن يوماً من يسمّى عميلاً مهنياً لوكالة الاستخبارات المركزية. إنني أوضّح هذا فقط لأن لهذا المصطلح معنىً تقنياً في الوكالة. يمكنكم القول إنني كنتُ موظفاً أو ضابطاً في الوكالة. وأودّ أن يُدوَّن هذا في محضر الجلسة.[45]

وفق قاموس مصطلحات وكالات التجسّس العصرية، الأشخاص الذين يتم توظيفهم مباشرةً ضمن طاقم عاملي "الوكالة" يكونون "ضباط عمليات" و"ضباط فِرق" و"رجال استخبارات" و"مشغِّلين" و"قادة شبكات تجسّس"؛ أي تسميات عديدة، ولكنهم ليسوا عملاء. وفي وكالة الاستخبارات المركزية بالتحديد، يحبّون

أن يكون هذا واضحاً جداً. في اجتماع مصغّر تمّ في العام 2004، وضّح عاملٌ خبيرٌ سابقٌ لدى وكالة الاستخبارات المركزية يدعى هاورد هارت (لا علاقة)، هذه النقطة بشكل قاطع: "لسنا جواسيس، بل نحن نشغّل الجواسيس ونجنّدهم".[46] وقد أسهبَت وكالة الاستخبارات المركزية في الشرح في موقعها على الويب: "الجاسوس شخص يزوّد بمعلومات سرية عن بلده إلى بلدٍ آخر".[47]

يمكن سماع وجهة النظر نفسها في بريطانيا. فقد كان ضابطٌ قياديٌّ سابقٌ لدى الاستخبارات البريطانية- عند إجراء مقابلة معه في مكان هادئ من إنكلترا- دقيقاً جداً: "أشعر بالسوء عندما يصفونني بالجاسوس. وأفضّل أنْ يشيروا إليّ كقائد لشبكة تجسّس". وهذا ما أصبح عليه جهاز الاستخبارات.

لقد عرف أولئك الرجال أن هناك فعل خيانة وضيعاً في أعماق أي عمل تجسّسي. ومثلما ألَمح هيل، ساهم الانتقال من التجسّس مباشرة إلى توظيف آخرين في جعل عملية التجسّس مرادفة للخيانة، وأقل بهاء بكثير. بإمكان المرء أن يُعجَب بالجواسيس، لكن لا يمكنه الوثوق بهم بالكامل أبداً. فالجواسيس في النهاية ليسوا "شعبنا"، بل هم- مثلما وصف كومينغ رايلي- أشخاص "مريبون جداً".

رغم أن "الجاسوس المتكامل" في العالم الحقيقي يمكن أن يكون قد أصبح عملةً نادرةً، إلا أنه لا يزال يعيش في الخيال الشعبي؛ مثل جايمس بوند وبقية الأبطال في الروايات الشعبية الخرافية. فبالنسبة إلى مؤلف الروايات، لا شك في أن دمج الأدوار المتميزة لضابط الاستخبارات والعميل السري مشوّقاً أكثر بكثير. كما كان من الملائم مزج دور العميل السري في زمن السلم مع عمل الاستخبارات العسكرية في زمن الحرب.

كان إيان فليمينغ، الذي كَتَب روايات بوند، قد اختبر التجسّس عندما عمِل في الحرب العالمية الثانية كمساعد لمدير الاستخبارات البحرية. وقد سنحت له وقتها فرصٌ عديدةٌ لاختبار الظروف المختلفة لدولة بريطانيا السرية في زمن الحرب.

بالإضافة إلى ذلك، تعرَّف إلى العقيد "وايلد بيل" دونوفان من مكتب الخدمات الاستراتيجية (OSS) الأميركي، الذي أسَّس وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً. في العام 1942، شارك فليمينغ في إعداد وحدة مغاوير مهمتها الخاصة القيام بغارات مفاجئة لتجميع معلومات استخباراتية. لا عجب إذاً في أن يقول فليمينغ إن شخصية بوند التي اخترَعها كانت "تركيبةً من كل العملاء السريين والمغاوير الذين التقيتهم خلال الحرب".[48]

في حالة بوند، هناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن فليمينغ تأثّر أيضاً بأسطورة رايلي؛ بالأخص من خلال صديقٍ مشتركٍ هو بروس لوكهارت نفسه الذي كان وقتها رأس السلطة التنفيذية للحرب السياسية "الدعائية السوداء"، والذي كان شريك رايلي في التآمر في روسيا. وقد ادّعى أحد زملاء فليمينغ السابقين في صنداي تايمز أن فليمينغ "أخبرني في أحد الأيام أنه اختَرَع شخصية جايمس بوند بعد أن قرأ عن مآثر سيدني جورج رايلي في أرشيف جهاز الاستخبارات البريطانية".[49] قد يكون هذا أمراً خيالياً، لكن على حد تعبير أندرو كوك:

> مثل الشخصية الخرافية التي اخترعها فليمينغ، كان رايلي متعدد اللغات، ولديه افتتانٌ كبيرٌ بالشرق الأقصى، كما كان مولَعاً بالحياة المُترفة، ومدمناً على القمار. كما أبدى افتتاناً بالنساء على طراز بوند، وعلاقاته الغرامية المتعددة تشبه مغامرات 007 الغرامية. لكنْ خلافاً لجايمس بوند، لم يكن سيدني رايلي رجلاً وسيماً، بل كانت جاذبيته تكمن أكثر في المميزات المراوغة للإغراء والسلوك. غير أنه كان قادراً على أن يكون بارداً وخطيراً بالمقدار نفسه أيضاً.[50]

سواء أكان التأثير مباشراً أم لا، كان بوند على شاكلة رايلي. وفي حين أن العالم الحقيقي للتجسّس ربما يكون قد اختلف عمّا كان عليه في الماضي، إلا أن تلك الروايات حافظت جيداً على أسطورة التجسّس بشكل خَدَم الوكالات؛ مثل جهاز الاستخبارات السرية ووكالة الاستخبارات المركزية. وقد شكّلت المآثر البطولية لضباط استخباراتهم ومناعتهم الوهمية التي لا تُقهر إغراءً كبيراً للمجنَّدين

ومصادر الاستخبارات. صحيح أن حقيقة الاستخبارات كانت الأسرار التي يُحظّر إطلاع الجمهور عليها، إلاّ أن الأسطورة كانت بمثابة الضوء الساطع الجذاب إلى هذا العالم.

أحد الأسباب الكامنة وراء الأهمية الكبيرة للأسطورة هو أن معظم الجواسيس الجيدين بدأوا كمتطوّعين قرعوا بأنفسهم أبواب الوكالات، مثل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) والـــ KGB. وكانت دوافعهم متأثرة بالأسطورة، وقد تم استغلال الصورة الخاطئة بلا هوادة. وفي خطاب ألقاه جايمس بافيت- الذي كان نائب مدير العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية- في العام 2004 بعد تقاعده، استحضر صورة الجاسوس العصري كخلف يستحق أن يرث أسلافه، وقال: "أودّ أن أستعير كلمات رجلٍ إنكليزيٍ من زمنٍ آخر استطاع- أفضل من أي رواية جاسوسية- الاستحواذ على روح الخدمة السرية وشعبيتها". ثم ألقى الكلمات التالية:

> من وقت إلى آخر، يولد رجالٌ لديهم شغف بالسفر إلى الخارج، معرّضين حياتهم للخطر بهدف اكتشاف الأخبار التي قد تكون اليوم عن أشياء بعيدة جداً، وغداً عن أحد الجبال المخفية، وفي اليوم التالي عن أحد الرجال القريبين الذين ارتكبوا حماقةً ضد الدولة. أولئك الأشخاص قليلون جداً، وأقل من عشرة منهم من بين الأفضل.[51]

كان بافيت يقتبس من الرواية الجاسوسية "كيم" من تأليف روديارد كبلينغ، وهي قصة "طفل العالم" خلال اللعبة الكبرى للإمبراطورية البريطانية. كانت حكاية رجل يافع من عصر آخر، يُتقن كل لغات منطقة هندوكوش وعاداتها، ويستطيع المرور وتجميع المعلومات من دون أن يلاحظه أحد. كان الجاسوس الذي طالما حلم به البريطانيون. وهو نسخة عن رايلي، ولكن أكثر براءة. لكن ضابط الاستخبارات المعاصِر، مثلما عرف بافيت، لم يكن نسخةً محدَّثةً عن كيم أو رايلي.

بالطبع، كانت هناك بعض الاستثناءات. فهناك دائماً خطر أن يكون المرء جازماً جداً في أي وصف لهذه المهنة المتنوّعة جداً. "أود أن أعتقد أنني قمت ببعض أعمال التجسّس"، حسبما قال ضابطٌ سابقٌ في جهاز الاستخبارات السرية كان مشهوراً بمآثره أحادية الجانب، والخطيرة جداً في بعض الأوقات.

في قاعدة التدريب التابعة لجهاز الاستخبارات السرية في فورت مونكتون المبنية على طراز القرن الثامن عشر بالقرب من غوسبورت، يتم منذ عقود تدريب المجنَّدين الجدد- على يد رقباء أولين متقاعدين من الجيش- على كيفية التعامل مع المسدس. لكن الوكالة في الحقيقة أصبحت مكاناً حذراً جداً، وأقل حماسةً بكثير من تلك الأميركية، وتركّز بشكل كليّ تقريباً على المهنة البسيطة المتمحورة حول تشغيل الجواسيس؛ أي حماية هوياهم وإبقائهم أحياء. ورغم هلاك بعض أولئك العملاء، لم يستطع أحد في وقت كتابة هذا الكلام أن يتذكّر اسم ضابط واحد في جهاز الاستخبارات السرية قُتِل أثناء تأديته الخدمة منذ الحرب العالمية الثانية.

لكن الأساطير التي نسجها كبلينغ ورايلي وبوند ترسَّخت في وجدان الناس، وأصبحت الأمور تدور في حلقة مفرغة. ووفقاً لضابطٍ سابقٍ في جهاز الاستخبارات السرية، أنشأت بريطانيا "عالم استخبارات" سيخدِمها جيداً، ويضمن تلقيها "دعوات إلى رأس مائدة" قضايا العالم؛ حتى بعد خسارها إمبراطوريتها وخروجها من لائحة القوى العظمة. "لقد ولّدنا انطباعاً بأن الاستخبارات شيءٌ نبرع به بشكل جيد جداً".

وهل كان ذلك الانطباع مبرَّراً؟

"نعم، كنا نبرع به". فمجرد امتلاك عامة الشعب فكرة خاطئة عن كيفية عمل الاستخبارات البشرية لا يعني أنها لم تكن تعمل. وتابَع قائلاً إن بريطانيا أصبحت ماهرةً في تشغيل الجواسيس، وفي كونها من أسياد الجاسوسية.

وستشهد حرب الجواسيس التي بدأت بعد الثورة البلشفية في العام 1917 سلسلةً مذهِلةً من الانقلابات الاستخباراتية: جواسيس استخدَمهم الاتحاد السوفياتي

لسنواتٍ مثلاً عملوا في أكثر المناصب حساسيةً في الغرب، وكذلك جواسيس استخدمتهم الولايات المتحدة وبريطانيا ولديهم وصول إلى أكثر الأسرار السوفياتية حساسيةً.

لكن السؤال الذي علق في الأذهان- حسبما تابَع الضابط السابق نفسه- هو عمّا إذا كان للتجسّس أي تأثيرٍ حقاً، وإن كان قد جَعَل كل تلك التضحيات ذات شأن.

الفصل 2
أفضل الكذّابين على الإطلاق

"تخيَّل غرفة تبديل ملابس مليئة بالشباب، وكل واحد منهم يحاول إخبار الآخرين عن عدد الفتيات اللواتي عرفهن في حياته؛ هذه إحدى مسائل التجنيد"

– ميلتون بيردن، ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية[1]

في أغسطس 1940، بعد سنة من بدء الحرب العالمية الثانية، حصل حدثٌ مهمٌ بعض الشيء في تاريخ التجسّس. فقد أُخذ صحافيٌّ في التايمز متخرّجٌ من جامعة كامبريدج إلى الطابق الرابع في فندق سانت إرمين، في شارع كاكستون، فيكتوريا، لندن. ووَقَف حارسٌ في الخارج ليراقب الرواق.

"ألقِ نظرةً جيدةً على فيلبي لأنه سيصبح واحداً منا الآن". هذا ما قاله ضابط جهاز الاستخبارات السرية البريطانية.[2]

فقد قام للتو بتقديم عميل اختراق سوفياتي تم تجنيده حديثاً للقسم D (التخريب والدعاية السوداء) في جهاز الاستخبارات السرية، وكان العميل بانتظارهم.

كان كيم فيلبي يعمل للاستخبارات السوفياتية طوال السنوات الست الماضية تحت الاسمَين الرمزيَين ستانلي أو سونشن (ومعناهما الابن الصغير).[3] لم يكن التدقيق في تاريخ الضباط الجدد صارماً، لدرجة أن أحداً لم يكتشف ماضيه اليساري، أو على الأقل زواجه السابق من شيوعية ألمانية تدعى ليتزي فريدمان. وبعد ثلاث سنوات من اجتماعه في سانت إرمين، كانت موسكو مسرورة من تقدمّه المتزايد. فقد ضَمِن منصباً في المركز الرئيس لجهاز الاستخبارات السرية في 54 برودواي، في

آخر شارع سانت إرمين، ووظيفةً في القسم IX؛ وهو قسم مكافحة التجسّس السوفياتي. وكانت موسكو قد أبلغت فيلبي أن "يفعل كل ما بوسعه" ليصبح رئيس القسم؛ وقد نجح في ذلك.[4]

كانت "ضربة معلم"، مثلما وصفها مؤرِّخ الجاسوسية الأستاذ كريستوفر أندرو. وكان فيلبي وبقية من سُمّوا "خماسيّ كامبريدج" "أقدَر مجموعة عملاء بريطانيين جنَّدتهم قوةٌ أجنبيةٌ في التاريخ".[5] ويعتبر أندرو أن فيلبي أحد أكبر الكذّابين في التاريخ. وربما كان كذلك. لكن نجاحه أيضاً كان دلالةً على غطرسة الطبقة الحاكمة البريطانية في ذلك الوقت؛ فقد وقعت في فخ افتراضها أن لا أحد بمثل تلك الخلفية يمكنه أن يخون بلده أبداً.

قصة فيلبي واحدةٌ من القصص التي تفضّل الاستخبارات البريطانية نسيانها؛ فهي قصةٌ شوَّهت مصداقيتها على مدى عقود. ومع ذلك، ستبقى حالةً أساسيةً يجب دراستها حول طبيعة التجسّس، وما يستطيع التجسّس إنجازه.

تطرح حالته السؤال التالي: إذا كان فيلبي حقاً أحد أكبر الجواسيس في التاريخ، فلماذا كان تأثيره طفيفاً جداً في نهاية المطاف؟

إن فهم سبب محدودية إنجازاته، وسبب كون نشاطات عدد قليل من "كبار الجواسيس" في الحرب الباردة ذات نتائج حقيقية، لا يكشف فقط عن أن معظم الجهد والمال المُنفَق على التجسّس ذهب هدراً، بل يكشف أيضاً عن نقاط الضعف الجوهرية للعبة التجسّس. يمكن تخفيف نقاط الضعف تلك أحياناً. في الواقع، إنّ إلقاء نظرة على المبالغات السابقة للنجاح والفشل يزوِّد أيضاً بدلالات عن الأسلوب الذي يمكن به نشر الجواسيس بشكل مفيد.

عندما بدأ فيلبي بالتجسّس لصالح الاتحاد السوفياتي في العام 1934، كانت تسع سنوات فقط قد مرّت منذ غزوة رايلي الأخيرة في روسيا. وقتها، كانت الأفضلية في لعبة التجسّس لصالح الجهة السوفياتية قطعاً. وبالنسبة إلى الغرب، أصبح الاتحاد السوفياتي عبارة عن صندوق أسود، غامضٍ وغير نافذٍ في أغلب الأحيان. لكن

NKVD- خَلَف التشيكا وسَلَف الـ KGB- كان بالمقابل قادراً على العمل بسهولة نسبية في الغرب الأكثر حريةً. ومن خلال إخفاء مساوئ النظام الشيوعي السوفياتي ونقاط فشله، واستغلال القلق بشأن صعود الفاشية، بالإضافة إلى طرائق أخرى، استطاع تجنيد العديد من الجواسيس في كل بلدان الغرب.

لكنْ كانت هناك صعوبة صغيرة: معظم ما أرسله أفضل الجواسيس السوفيات تم التشكيك به في موسكو بشكل واسع، ولم يُصدَّق. وفي حالة فيلبي، ما كان يرسله في تقاريره بدا جيداً جداً، حيث إنه لا يمكن أن يكون حقيقياً.

وفي "المركز"- وكان هذا هو الاسم المستخدَم للمركز الرئيس للاستخبارات السوفياتية في مبنى لوبيانكا، موسكو- كان موجِّهوه مُدركين للمهارات البريطانية في الخداع.[6] ففي الفترة التي حصل فيها على عمله في جهاز الاستخبارات السرية، كانت الحرب مندلعة، وكان الجواسيس الزملاء لفيلبي قد أبلغوا موسكو من قبل عن المنظومة البريطانية "للخيانة"؛ حيث كان يتم إرسال خطط زائفة إلى الألمان كي يلقوا القبض على العملاء المُرسَلين إلى بريطانيا ويُجبروهم على إرسال معلومات خاطئة إلى قيادتهم.

وبدأ موجِّهو فيلبي يتساءلون عما إذا كانت حلقة كامبريدج ترسل لهم أنواع الأكاذيب المزروعة ضد الاتحاد السوفياتي نفسها.

وعندما تم الكشف عن ملف فيلبي في أرشيف الاستخبارات السوفياتية بعد انتهاء الحرب الباردة، تبيَّن أن السوفيات أوقفوا كل اتصالاتهم به في فبراير 1940، معتقدين أنه لن يتوصّل إلى أي شيء، ولم يعاودوا الاتصال به إلاّ بعد أن علموا أنه التحق بجهاز الاستخبارات السرية. ولكنهم كانوا مشكّكين بأمره، فأخضعه المحلِّلون السوفيات للاختبار في العام 1942 بأن طلَبوا منه تسمية عملاء جهاز الاستخبارات السرية في الاتحاد السوفياتي. وعندما أجاب بأن جهاز الاستخبارات السرية ليس لديه أي جواسيس، اعتُبر ذلك دليلاً على أنه دجّالٌ. وعندما أكّد زميله في الجاسوسية أنطوني بلانت تقريره، اعتُبر هذا الأخير عميلاً مزدوجاً أيضاً.

تم تسليم ملف فيلبي، ذي الرقم 5581، لأحد محلّلي NKVD، وكانت امرأة تدعى إيلينا مودرجنسكايا.[7] وقد كُلّفت بتحليل كل المعلومات التي يزوّدهم بها فيلبي من أجل تحديد ما إذا يكذب أم لا. وقد دوَّنت: "لم يتم كشف أي عميل بريطاني قيّم واحد في الاتحاد السوفياتي أو في السفارة السوفياتية في بريطانيا بفضل هذه المجموعة، بالرغم من حقيقة أنهم لو كانوا صادقين في تعاونهم معنا، لكان باستطاعتهم فعل ذلك بسهولة". [8] واستنتَجت، "إنه يكذب علينا بوقاحة مطلقة".[9]

كانت مودرجنسكايا مقتنعة بأنه لا بدّ أن جهاز الاستخبارات السرية يديره أغبياء إذا كان فيلبي وشركاؤه نزيهين ولم يُدرِك مسؤولوهم أنهم يسرّبون كمّاً كبيراً من المعلومات النفيسة إلى موسكو.[10] كما تذمَّرت من أن أنطوني بلانت- الذي اخترق MI5- كان يخاطر "بشكل لا يمكن فهمه"، حاملاً موادّ سريةً أصليةً إلى لقاءاته مع الضابط المسؤول عنه. ووفقاً للأرشيف السوفياتي، سلَّم من العام 1941 إلى العام 1945 ما يزيد عن 1,771 مستنداً.[11]

استنتَج فيليب نايتلي- الصحافي السابق في صنداي تايمز الذي كان أول مَن كشف مكانة فيلبي في جهاز الاستخبارات السرية- أن تقرير مودرجنسكايا كان "تأكيداً لنظرية كانت في ذهني منذ مدة طويلة؛ وهي أن معظم أعمال التجسّس عديمة الجدوى، لأنه كلما قدَّم الجاسوس معلومات أفضل، سيزداد احتمال عدم تصديقه".[12] وهذه كانت مشكلة رئيسة بالنسبة إلى أي جهاز استخبارات عند تجنيده أجانب كعملاء له؛ فقد كان من الصعب الوثوق بهم.

في العام 1943، أرسَل NKVD إلى "مندوبه" (رئيس محطته) في لندن لإبلاغه أن كل جواسيس كامبريدج الخمسة متعاونون مع البريطانيين: "فلا وجود لأي تفسير آخر لكيفية تمكّن 'الفندق' [الاسم الرمزي لجهاز الاستخبارات السرية] و'الكوخ' [تنفيذية العمليات الخاصة، أو SOE] من تفويض عمل دقيق كهذا في مجالات ذات مسؤولية لأفرادٍ كانوا منخرطين في نشاطات شيوعية ويسارية في الماضي".[13]

وتابَع نايتلي بالقول إن موسكو لم تستطع قط أن تكون أكيدة من أنهم خُدعوا. إذ لم يرغب أحدٌ بأن يخاطر بمهنته، وبأن يقطع الاتصال بمن قد يتبيَّن أنهم أفضل جواسيسهم على الإطلاق. وحتى لو كان جواسيس كامبريدج عملاء بريطانيين، فسيكون من الحماقة التلميح لبريطانيا بأن NKVD اكتشف أمرهم. لذا، تابَعوا تشغيل أولئك العملاء على مضض، ولم يكتشفوا أنهم كانوا صادقين إلاّ بعد سنوات. وقد عَنَى هذا أنهم لم يعيروا اهتماماً كبيراً للمعلومات النفيسة جداً. فعلى سبيل المثال، صَرَفت موسكو النظر عن تقرير تلقّته في العام 1943 من عملائها البريطانيين يزوِّدها بتفاصيل تقنية حسّاسة؛ سماكة الدرع على الدبابات الألمانية الجديدة. وقد أبلغت موسكو مساكن NKVD في لندن (وهذا كان الاسم الذي يطلقه الروس على محطات استخباراتهم الأجنبية) أن المعلومات مريبة، لأن التقرير لم يؤذِ المصالح البريطانية.[14]

ومع ذلك، لم يتم تجاهل كل ما قاله فيلبي. ففي إحدى المرات، استجاب السوفيات بسرعة وبلا رحمة. وحصل ذلك عندما حذّرهم فيلبي، في سبتمبر 1945 ، من أن أحد ضباط استخباراتهم في اسطنبول، قسطنطين فولكوف، يخطط للانشقاق إلى الغرب، واعداً إياهم بإعطائهم معلومات عن خُلدٍ "يشغل منصب رئيس قسم مكافحة التجسّس البريطاني في لندن" (بتعبير آخر، فيلبي نفسه). فأرسلت موسكو قاتلَين مأجورَين لقتله، وقد فعلا ذلك.[15]

كانت هناك أخطاء سوفياتية فادحة في ما يتعلق بحالة فيلبي في التعامل مع ريتشارد سورج (أو ريخارد زورغه)؛ وهو عضو مندفع في الحزب النازيّ، وصحافي، وفي العام 1941 كان ضابطاً بدوام جزئي في السفارة الألمانية في طوكيو. كما كان عميلاً للاستخبارات العسكرية السوفياتية، GRU.

سرت شائعات طوال أشهر مفادها أن أدولف هتلر كان سيتراجع عن حِلفه مع الاتحاد السوفياتي ويغزوه. وستالين نفسه قال إن الحرب مع ألمانيا كانت محتومة، لكنه رفَض قبول التحذيرات بأن المسألة كانت وشيكة. ثم في 1 يونيو 1941،

كَتَب سورج: "البداية المتوقعة للحرب الألمانية-السوفياتية حوالي 15 يونيو تستند بشكل حصري إلى المعلومات التي أحضرها معه الملازم-العقيد شول من برلين... [للسفير أوت (Ott)]".[16]

وُصِف تقريره (الذي يؤكّد ثمانين تحذيراً آخر من المصادر[17]) في موسكو بأنه: "مشكوك فيه. يجب وضعه مع البرقيات المقصود بها الاستفزاز". رَفَض ستالين تحذيراً سابقاً، نظراً إلى كون مصدره "إنساناً دنيئاً يقيم في بعض المصانع الصغيرة وبيوت الدعارة في اليابان".[18]

كان سورج مُخطئاً بمقدار أسبوع واحد فقط. فقد بدأت الدبابات الألمانية وأربعة ملايين جندي بعبور الحدود السوفياتية في 22 يونيو، مُعلنين بدء عملية باربروسا.

ومثلما كَتَب جون لوكاريه في العام 1966:

> في العام 1941، أعطى سورج رؤساءه الروس التاريخ الدقيق الذي ستغزو فيه الجيوش الألمانية الاتحاد السوفياتي. وفي ساعة الانتصار، كان ذلك التقرير لا يزال يتعفّن في ملفٍ موسومٍ بعبارة "استخبارات مريبة". والضابطان السوفياتيان اللذان أدارا نشاطات سورج يقبعانِ في قبريهما، منبوذين وكأنهما من أعداء الشعب.[19]

إن رفْض المعلومات الاستخباراتية المُرسَلة إلى موسكو من قِبَل من كانا وقتها من أفضل جواسيس الاتحاد السوفياتي، فيلبي وسورج، لم يكن مصادفةً. بل، مثلما أشار نايتلي، يمسّ طبيعة التجسّس.

قد يكون من المغري، مثلما يفعل البعض، إلقاء اللوم على ستالين والنظام السوفياتي في حينه. ففي النهاية، كان الشيوعيون مشهورين بارتيابهم وطبيعتهم التآمرية، وكذلك بحذرهم الشديد الذي كان ناتجاً عن عمليات التطهير والمحاكمات الصورية في الثلاثينيات (بحلول العام 1941، تعرَّض ثلاثة من موجِّهي فيلبي السابقين للقتل في عمليات التطهير[20]). ستالين نفسه ربما كان ارتيابياً إلى حد

الجنون. لكنْ كانت هناك أمثلة من الأعمال الجاسوسية لدول أخرى توحي بأن أكبر انتصارات العملاء السريين كان قَدَرها، بشكل عام، عدم التصديق.

وقد صوَّر مديرٌ سابقٌ لإحدى محطات وكالة الاستخبارات المركزية واقعةً مماثلةً لم يتم الكشف عنها من قبل قطّ. فقبل حرب يوم الغفران في العام 1973، حصل عميلٌ على كل خطط مصر وسوريا العسكرية التي تذكر بالتفصيل ترتيب القتال، وموضع كل وحدة، فأرسلها إلى المركز الرئيس في واشنطن. ولكنهم لم يصدّقوه ولم يصدّقوا مصدره. أخبرني الضابط المعني بالموضوع أن محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية لم يستطيعوا تقبّل أن لديهم عميلاً بهذه الجودة يستطيع تزويدهم بأمور كهذه. وبعد الحدث، أصبح مدير المحطة بطلاً، مما عزَّز مصداقيته المستقبلية. لكن الفرص المماثلة كانت نادرة وتتبدّد بسهولة كبيرة، مثلما حصل هنا، بسبب عدم رغبة المحلّلين بتصديق المصدر البشري. تعتبر وكالة الاستخبارات المركزية هذه الواقعةَ مثالاً عن نجاح العميل بالتبليغ، وفشل التحليل. قال الضابط السابق: "منذ بيرل هاربر، لم أعد أثق مطلقاً بتقييم المحلّلين الذين يقبعون على بُعد آلاف الكيلومترات من أرض الواقع ويقرأون التقارير فقط لا غير. التبليغ الدقيق من قِبل العميل مسألة حقيقية، أما التحليل الاستخباراتيّ والتقديرات فلها علاقة بالتوقع؛ صحيح أنه توقع مبني على معلومات، ولكنه لا يزال توقعاً".[21]

وفي العام 1909، كان هناك عميل يدعى لوفنجور، وهو عضوٌ في الأركان العامة الألمانية، أرسَل إلى الاستخبارات الفرنسية نسخةً عن خطة شليفن التي حدَّدت بالتفصيل كيف سيغزو القيصر فرنسا في الحرب العالمية الأولى. تم تجاهل معلوماته، حتى عندما نُشرَت الخطة بغباء في مجلة دويتشيه ريفيو.

يصبح من الواضح من حالات عديدة أن قصص الجاسوسية من واقع الحياة تميل إلى الانتهاء بخيبة أمل. إذ يكتشف الجاسوس انقلاباً كبيراً أو مؤامرة رهيبة، ولكنه عندما يعود إلى بلده ليُخبر قصته، يكون كل ذلك من أجل لا شيء. لماذا تُجهَض

جهود الجواسيس في أغلب الأحيان؟ لا بدّ أن هذا يعكس عدة نقاط ضعف هامة في هذه المهنة.

أولاً، يكافح الجواسيس لإثبات مصداقيتهم؛ لأن الاستخبارات البشرية تجني ثمارها بوسائل هشّة. فللحصول على أسرار، يجب أن يكون الجواسيس غدّارين، ويجب أن يخونوا بلدهم ويكذبوا على محيطهم. وتأتي الحقائق من الجاسوس مغلّفةً بالأكاذيب. لذا، من الصعب التأكد من أن أشخاصاً كهؤلاء معتادين على الكذب وبارعين فيه لا يخادِعون بشأن المعلومات التي يسلّمونها. وهذا الشكّ تبرزه طريقة اعتماد وكالات التجسّس العصرية على عملائها الأجانب، بدلاً من استخدامها ضباطاً من عندها. تنقل الوكالات عادة معلوماتٍ متداولة، عبارة عن شائعات مبدئياً. للعبة طبقاتٌ كثيرةٌ جداً.

ثانياً، هناك مشكلة ما يمكننا تسميته صدمة الحقيقة. فإفشاء سر مهم شيءٌ يتحدى المعتقدات الموجودة. وكلما كانت القصة أفضل، كان تصديقها أصعب. الحكمة المملة والتقليدية والتحذيرات غير المفاجئة كلها أمور تمرّ بأمان وبسرعة في التقارير إلى رؤساء الجمهورية ورؤساء الوزراء. لكن وكالة الاستخبارات التي تُصدِر تحذيراً مفاجئاً تخاطر بتعرّضها للسخرية والاستفسارات إذا تبيَّن أنها كانت مخطئة، ولذا تميل إلى التردد لدى تلقيها تحذيرات كهذه؛ ربما حتى وقت متأخر جداً يكون الأوان فيه قد فات.

ثالثاً، هناك مشكلة الحوافز. لاستخدام لغة الاقتصاد، يمكن اعتبار التجسّس، مثل الصحافة والذيبلوماسية، كجزءٍ من سوق البحث عن المعلومات؛ أي سوق معيوبة على نحو معروف. فمن الصعب المتاجرة بالمعلومات بفعالية؛ فلكي تصف المنتَج الذي تبيعه بالكامل (مثلاً، لكي تقول إن الرئيس الروسي سيزور مينسك يوم الاثنين) ستكون قد سلّمتَ المنتَج مسبقاً وانخفضت قيمته. والمتاجرة بالمعلومات الاستخباراتية السرية أصعب؛ لأنها عبارة عن معلومات لا يمكن التحقّق من صحتها في أغلب الأحيان. فالمعلومات التي تتحدث عن خطة لتوجيه ضربة نووية قد يكون

بالإمكان التحقّق من صحتها فقط بعد حصولها. تؤدي الأسواق المعيوبة المماثلة لهذه السوق إلى ما يسمّيه الخبراء الاقتصاديون "حوافز فاسدة"؛ أي الميل إلى القيام بالأشياء من دون المستوى الأمثل. قد يكون لدى الجاسوس العقلاني حافزٌ ليخترع أسراراً أو يبالغ بأسرارٍ لا يمكن التحقّق من صحتها. وقد يكون لدى وكالة التجسّس العقلانية حافزٌ فاسد لرفض المعلومات التي لا يمكنها التحقق من صحتها فوراً، وللمبالغة في تثمين الأنباء السارة التي يمكن إثباتها.

تتضافر نقاط الضعف هذه- النقص في المصداقية، والكسل الضمني ضد المعلومات الصادمة، والحوافز السيئة- لإعاقة الجواسيس عن إحداث فرق. وقد حاولت وكالات الاستخبارات مواجهة هذه المشاكل باعتمادها عقليةً مشكّكةً على سبيل المثال لاختبار مصداقية عملائها. لكن مثلما اكتشفت وكالة الاستخبارات المركزية والـ KGB وبكلفة عالية خلال الحرب الباردة، بإمكان الشكوك الصحية أن تتحوَّل بسرعة إلى شكٍّ مرضيّ مُشِلّ يُفسِد الثقة بالأصدقاء المخلصين. بإمكان مرض كهذا أن يخفِّض من قيمة كل الثمار الثمينة للاستخبارات.

ما الذي يجب أن تُخبرنا به نقاط الضعف الضمنية تلك في ما يتعلق بما إذا كان باستطاعة الجواسيس أن يكونوا فعّالين أم لا؟ التعميم استناداً إلى حالات محدَّدة مسألة خطيرة دائماً. وفي ما يتعلق بفيلبي وسورج، إن حقيقة أنه تم تجاهل معلوماتهما الاستخباراتية في بعض الفترات بالكاد يتيح لنا تلخيص القيمة الإجمالية لخيانتهما التي لا تزال أقل من تجسّسٍ بالإجمال. لكن الحجم الكبير للتجسّس الذي تمّ خلال الحرب الباردة، ومقدار التفاصيل التي تم إفشاؤها عنها للعموم، يوفّران لنا منصةً لنُبدي منها عدة ملاحظات.

الملاحظة الأولى هي أن النشاطات في عالم التجسّس ليست مماثلة للإنجازات. ولست مضطراً إلى الأخذ بوجهة نظر نايتلي المتطرفة التي تقول إن كل شيء عن التجسّس عديم الجدوى لكي تلاحظ أن معظمه كان هكذا.

نادراً ما يكون جهاز الاستخبارات صادقاً بشأن أعماله بالنسبة إلى العامة. ففي الحرب الباردة، لتبرير السباق للإنفاق على الاستخبارات كان من مصلحة الطرفَين أن يعظّما إنجازات العدو. لكنْ على عكس معظم ما قيل في الإعلام ووجد طريقه إلى عالم الأدب، لم يكن ذلك عصراً ذهبياً للتجسّس. ففي معظم الأحيان، بُذلت جهود الضخمة لتجنيد جواسيس كانت وظيفتهم الرئيسة تزويد أجهزة الاستخبارات بمعلومات عن بعضهم بعضاً، في ما أصبح أشبه بحرب داخلية شخصية. لذا، في حين أن عالماً من السرية أبقى الشعب في جهل تام بما يجري- مثلاً، كان من غير القانوني في الولايات المتحدة وبريطانيا نشر أسماء ضباط الاستخبارات- كانت الاستخبارات السوفياتية في أغلب الأحيان تعقد اجتماعات تتناول فيها بواطن جهاز الاستخبارات السرية البريطاينة ووكالة الاستخبارات المركزية بالدراسة. في الثلاثينيات والأربعينيات، كان لدى السوفيات كيم فيلبي في جهاز الاستخبارات السرية، وأنطوني بلانت في الـ MI5. وبحلول الثمانينيات، كان لديهم ألدريتش آيمز في المركز الرئيس لوكالة الاستخبارات المركزية، وروبرت هانسن في مكتب التحقيقات الفدرالي. وفي الجهة الأخرى، كان الغرب مطلعاً بالكامل على الاستخبارات السوفياتية. فكان لديهم على سبيل الذكر، اوليغ بنكوفسكي، ولاحقاً اوليغ غوردييفسكي في الـ GRU والـ KGB على التوالي.

ربما مكّنت الاستخبارات القيّمة حقاً من إبلاغ القادة السياسيين بما كان أعداؤهم الفعليون أو المحتملون يخططون له أو يفكّرون فيه. لكنْ في كل سنوات المواجهة بين القوى العظمى، كان الطرفان يفتقران بشكل كبير إلى عملاء سياسيين. فالـ KGB لم يملك قط جاسوساً في البيت الأبيض. يقول اوليغ كالوجين، الجنرال السوفياتي والمدير السابق لقسم مكافحة التجسّس الأجنبي في الـ KGB: "عندما يقول الأشخاص إن الاستخبارات السوفياتية اخترقت المراتب العليا للحكومة الغربية، أعرف أن هذا ليس صحيحاً".[22] كما أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تملك مطلقاً جاسوساً في الكرملين؛ مثلما يعترف كويليام كولبي، مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق.[23]

بدافع التحذير، سلّم نجم العملاء البريطانيين في أواخر الحرب الباردة، اوليغ غورديفسكي، معلومات استخباراتية سياسية قيّمة عندما كان مدير محطة الـ KGB في لندن، بينما كان يعمل أيضاً لصالح جهاز الاستخبارات السرية. وقد لعب- إلى جانب المعلومات الاستخباراتية التي قدّمها- دوراً محورياً في جعل مارغريت تاتشر تصدِّق وتدعم حملة الغلاسنوست التي قام بها الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشوف، والتي أدّت إلى انهيار الصَرح الشيوعي في نهاية المطاف. كان إنجازه الرئيس تسليم فهمٍ وليس أسراراً. "لا شك في أنه عرض الكثير من الحقائق لتترافق مع هذا الفهم"، حسبما قال أحد المطلعين الذي راقَب تلك الأحداث عن قُرب، "لكنْ يبدو أنه حقّق أقوى تأثيراته في تغيير تصوّر الغرب لنظام الحكم".

الملاحظة الثانية هي أن التجسّس أثبت نجاحه عندما كان مركَّزاً بنسب عالية، وموجَّهاً إلى عالم السياسة.

العالم معقّدٌ، والمستقبل صعب التوقّع؛ لدرجة أن وكالات التجسّس التي حاوَلت القيام بكل شيء بامتلاكها جواسيس في كل مكان، نادراً ما أنجزت الكثير، حتى بوجود ميزانية كبيرة. وقد اعتمد ستالين، مهما كانت عيوبه، أسلوباً معاكساً للاستخبارات. فقد كان موهوباً في إرشاد كل الموارد المتوفرة بين يديه نحو هدف واحد يحدِّده بنفسه. وقد ساعدت هذه العزيمة في تمكين السوفيات من تنفيذ أفضل ضربة تجسّس في القرن العشرين: امتلاك قنبلة ذريّة.

فبوجود أكثر من 200 عميل أميركي للسوفيات خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها، وسلسلة من العملاء الضالعين في مستويات مختلفة ضمن مشروع مانهاتن الذي أنتج أولى القنابل النووية، كانت القنبلة السوفياتية الأولى التي تم اختبارها في العام 1949 "نسخةً عن القنبلة الأميركية الأصلية التي تم اختبارها... منذ أكثر من أربع سنوات"؛ حسب قول كريستوفر أندرو.[24] وأحد الذين اتُهموا بشأن هذا التسريب التكنولوجيّ كان العالِم الألماني المهاجر إلى بريطانيا، كلاوس فوكس،

الذي اعترفَ خلال استجواب MI5 له بأنه أعطى الروس "كل المعلومات التي بين يديه عن الأبحاث البريطانية والأميركية المتعلقة بالقنبلة الذريّة".[25]

وكما هو الحال في أدب الجاسوسية، غالباً ما يكون النقاش حول التجسّس الذريّ ضحلاً، ويتجاهل الخطوات المستقلة التي قام بها السوفيات في برنامج تسلّحهم. وتشير بعض الدراسات إلى أن المعلومات الاستخباراتية المسروقة تم استخدامها بشكل رئيس لمقارنة النتائج. لكنْ ومع ذلك، إن هذه المسألة حرِجةٌ. فقد كان التجسّس حاسماً في هذا التحوّل الاستراتيجي.

يشير هانس بيتْه، وهو فيزيائي نووي، إلى أن فوكس بتجسّسه كان "الفيزيائي الوحيد الذي أعرفه وغيَّر التاريخ حقاً".[26] كان عليه أن يضيف أيضاً مبتكرَي القنبلة النووية، ألبرت آينشتاين وج. روبرت أوبنهايمر.

الملاحظة الثالثة هي أن التأثير الأكبر للاستخبارات البشرية يحصل عندما تكون معزَّزة أو من الممكن إثباتها. هذه مصطلحات تقنية من مصطلحات التجسّس. فالتعزيز يعني الحصول على المعلومات نفسها من مصادر أخرى مستقلة. ومن دون دعم احتياطي كهذا، لن يتبقّى لديك سوى "استخبارات من مصدر واحد". والاستخبارات الممكن إثباتها تعني المعلومات التي يمكن التحقّق من صحّتها. مثلاً، التقرير الذي يرسله عميلٌ سريٌّ ويقول فيه إنه تم زرع قنبلة في فندق في روما يمكن تعزيزه بتقرير عميلٍ آخر أو مصدرٍ آخر من الاستخبارات، كهاتفٍ يتم التنصّت عليه مثلاً. ومن الممكن إثباته إذا أعطى العميلُ معلوماتٍ محدَّدةً أخرى تسمح بالعثور على القنبلة الفعلية.

التعزيز والإثبات عاملا تدقيق مزدوج للمعلومات الاستخباراتية. وفي حين أن التدقيق المزدوج سيؤدي- مثلما ذكرنا- إلى تشويه ما يزوِّد به الجواسيس (على حساب حقائق لا يمكن تدقيقها لكنها مفيدة)، فقد برهن هذا التدقيق المزدوج أنه الوسيلة العملانية الوحيدة عادة لجعل الاستخبارات البشرية مفيدةً. وقلّة من

جواسيس فقط كانوا رائعين، أو مُقنعين، لدرجة أن معلوماتهم الاستخباراتية كانت موثوقة من دون حتى أن يتم تعزيزها بهذه الطريقة.

قصة فيلبي مفيدة مرة أخرى. ففي محاولتهم لإظهار سبب القيمة الكبيرة لمعلومات فيلبي الاستخباراتية- رغم شكوك موسكو- يشير بعض كتّاب السيَر إلى التحذيرات التي زوَّد بها بعد الحرب العالمية الثانية عن خطة وكالة الاستخبارات المركزية وجهاز الاستخبارات السرية بإدخال عملاء إلى أوروبا الشرقية وبالتحديد إلى ألبانيا. ففي مهمة عُرِفَت بـــ "عملية قيّمة"، بيٍن العامين 1949 و1954، قام الغرب بعدة محاولاتٍ متتالية للإطاحة بقائد شيوعي ألباني مُعيَّن حديثاً، أنور خوجة، وإعادة الملك زوغو المبجَّل إلى العرش. لكنْ نتيجة بعض البلاغات السرية، أُلقي القبض على معظم العملاء الغربيين فور نزولهم إلى الساحل أو هبطوهم بالمظلات، وأُعدموا.

غالباً ما يُشار إلى دور فيلبي هنا من دون تمحيص، ويعود ذلك جزئياً إلى أنه كان يتباهى به. وأصبح فيلبي مشهوراً- على حد تعبير أحد الصحفيين- بأنه الخائن الذي "أرسل العملاء إلى حتفهم خلف الستارة الحديدية".[27] وكَتَب فيلبي نفسه قائلاً: "إن العملاء الذين أرسَلناهم إلى ألبانيا كانوا رجالاً مسلّحين، مهمتهم القتل والتخريب والاغتيال... إلى حدّ أنني ساعَدتُ في هزيمتهم، حتى لو أدّى ذلك إلى وفاتهم، ولستُ نادماً على ذلك". وادّعى يوري مودين أيضاً، وهو صلة وصل فيلبي مع NKVD في لندن، أن فيلبي "أعطانا معلومات حيوية عن عدد الرجال المشاركين في العملية، وتاريخ الإنزال ووقته، والأسلحة التي كانت معهم، وخطة عملهم الدقيقة".[28]

لكنْ ومثلما يعترف معظم المؤرِّخين، كانت "عملية قيّمة" ومخترَقةً على أي حال من قِبل الجواسيس السوفيات من أولها إلى آخرها. وكل معلومة سلّمها فيلبي كانت ذات مصداقية بسبب تعزيز أولئك الجواسيس الآخرين لها، وبسبب إلقاء القبض على العملاء فور نزولهم على اليابسة. وكان من الممكن الوثوق به في

موضوع ألبانيا لأنه لم يكن مصدراً منعزلاً. فبمفرده، حتى هذا الجاسوس الرئيس ما كان ليؤخذ على محمل الجدّ كثيراً.

هناك بحثٌ يشكّك في ما إذا كان فيلبي قد زوَّد بتفاصيل عمليات إنزال العملاء أصلاً؛ وهو الادعاء المركزي الذي أبداه كل الذين صنعوا أهميته. صاحب ذلك البحث هو ألبرت لولوشي- وهو مؤلفٌ ألبانيٌ-أميركيٌ- وهو يرتكز على دراسةٍ لملفات وكالة الاستخبارات المركزية التي رُفعت عنها السرية. يستنتج نيكولاس بانو، أستاذ التاريخ، في مراجعةٍ لعمل لولوشي، أنه يقارن فيلبي مع الآخرين:

> هذا يُثبت أنه رغم اطلاعه على الخطط ضد ألبانيا، فهو لم يكن يملك وصولاً إلى الخطط التشغيلية في ألبانيا. ورغم أنه لعب دوراً في إفشال هذه المغامرة في ألبانيا، إلا أن العوامل الرئيسة كانت التنافس والانقسام بين المهاجرين الألبان، وتسريبهم للتفاصيل التشغيلية، والأسلوب البيروقراطي الذي اعتمدته وكالة الاستخبارات المركزية والمخطِّطون البريطانيون لعمليات كهذه في أغلب الأحيان، والتنافس بين مختلف وكالات الاستخبارات التي كانت مهتمّة بألبانيا في ذلك الوقت.[29]

كان هذا الدليل حديثاً جداً في وقت كتابة هذا الكلام، حيث لا يمكنه أن يكون قاطعاً. ولكنه يسلّط الضوء على الحاجة إلى الحذر في قبول أي إدعاء بشأن القيمة الهائلة لأي جاسوسٍ، وكذلك على المصلحة الكبيرة للجميع تقريباً في المبالغة في أهميته.

على المقلب الآخر للتجسّس خلال الحرب البارد، كان هناك مثالٌ واضحٌ عن الاستخبارات التي أحدَثت فرقاً. فبينما كانت الاستخبارات السياسية الأميركية في موسكو ضعيفة في أغلب الأحيان، نجحت وكالة الاستخبارات المركزية في سرقة عدة أسرار تقنية روسية. وكان هذا مؤثراً؛ لأنه يمكن اختبار التصاميم والعلوم المسروقة واستنساخها.

تمكّن أدولف تولكاتشيف- وهو عالِم طيران روسي وخبير تجسَّس لوكالة الاستخبارات المركزية بين العامين 1977 و1985- من الوصول إلى مخططات رادارات المقاتلات السوفياتية (وكان له دور في تصميمها أيضاً)، وبالتالي ساعد الولايات المتحدة في هزيمتها. ووفقاً لجايمس بافيت، نائب مدير العمليات السابق في وكالة الاستخبارات المركزية، وفّر تجسّس تولكاتشيف المليارات على الولايات المتحدة، و"ضَمن لنا تفوّقاً جوياً في منعطف حرِج في الحرب الباردة".[30] وشكّل ديمتري بولياكوف، وهو لواء في الاستخبارات العسكرية السوفياتية، صيداً كبيراً آخر. فقد تجسَّس لصالحنا قرابة عشرين سنة بدءاً من العام 1961، وقد وصفته ساندي غرايمز، وهي ضابطة مكافحة تجسّس في وكالة الاستخبارات المركزية ساعدت في القبض على ألدريتش آيمز، بعبارة "جوهرة تاجنا"، وربما "أفضل مصدر حصل عليه أي جهاز استخبارات في التاريخ". فقد مرَّر تفاصيل الصواريخ السوفياتية وأسلحة أخرى.[31] (لسوء الحظ، فشلت وكالة الاستخبارات المركزية في حماية عميليها من خلال مبدأ التجزئة، وتم تجاهل مبدأ الحاجة إلى المعرفة، وأصبح عددٌ كبيرٌ من الأشخاص يعرفون هويتيهما. تعرَّض كلاهما للخيانة على يد عميلين سوفياتيين- تولكاتشيف من قِبل آيمز، وبولياكوف من قِبل هانسن - وأُعدما في لوبيانكا).

يشدِّد بافيت على المال الذي وفَّرته الاستخبارات التقنية، لكنّ هناك سبباً آخر جَعَل تلك الاستخبارات قيّمةً، وهو أنه كان من الممكن اختبارها. فالأسرار المسروقة حفَّزت على قيام برنامج أبحاث مهمته ليست فقط تعلّم طرائق مجابهة الأسلحة السوفياتية، بل التحقّق أيضاً من أن المعلومات الاستخباراتية دقيقة. وكانت كلفة التحقّق أحد الأسباب التي جعلت النشاطات السرية التي تهدف إلى سرقة الأسلحة الفعلية تُعتبر أكثر أهمية. وقد أنجز ذلك ضباط جهاز الاستخبارات السرية في أفغانستان، وضباط وكالة الاستخبارات المركزية في مصر.[32]

الملاحظة الأخيرة هنا هي أن التجسّس يجب أن يكون السلاح الأخير الذي يتم اللجوء إليه.

إن تكاليف مهام التجسّس الفاشلة قد تفوق فوائد مهام التجسّس الناجحة. فمقابل سرقة كل الأسرار التقنية التي ساعدت الأطراف المختلفة في سباق تسلّحها، كان هناك عدد كبير من الإخفاقات؛ ليس فقط في ما يتعلق بإعدام عدد كبير من العملاء- سواء أكان فولكوف أو بنكوفسكي أو بولياكوف أو تولكاتشيف- بل أيضاً في ما يتعلق بالجو المتواصل من التوتّر والشك اللذين يمكن أن تولّدهما ألعاب التجسّس.

ربما كانت أكثر حالة منوّرة لنا عمليةً تمّت في ألمانيا الشرقية، وأظهرت كلفة تجنيد عميلٍ من دون التفكير بالعواقب. فقد أدّت إلى استقالة مستشار ألمانيا الغربية ويلي برانت، وأظهَرت كلفة التجسّس لأجل التجسّس فقط.

كان غونتر غيّوم ذو الاسم الرمزي هانسن، وزوجته الأولى كريستل ضابطَين في جهاز الاستخبارات الأجنبية لألمانيا الشرقية، HVA، وتم إرسالهما في العام 1956 للتغلغل في قيادة ألمانيا الغربية. ادّعيا أنهما هربا من ألمانيا الشرقية، وافتتحا مقهى في فرانكفورت؛ باستخدام المال الذي حصلا عليه من HVA. انضم الاثنان إلى الحزب الديموقراطي الاجتماعي (SPD) الذي كان برانت عضواً فيه، وأصبحت كريستل سكرتيرةً في مركزه الرئيس المحلي. وفي غضون عدة سنوات، شقّ غونتر طريقه في صفوف الحزب، وأصبح في نهاية المطاف رئيس فرع فرانكفورت وعضواً في مجلس المدينة.[33]

في العام 1969، بعد نجاح غيّوم في إدارة الحملة الانتخابية لوزيرٍ محلي، وبعد انتخاب ويلي برانت كأول مستشار للحزب الديموقراطي الاجتماعي في ألمانيا الغربية، سأل غيّوم هذا الأخير عمّا إذا كان هناك منصبٌ له في دار المستشارية. وبعد وقت قصير أمضاه في منصب ثانوي هناك، ترقّى ليصبح أكثر معاون يثق به برانت، وواحداً من القلّة الذين يرافقون هذا الأخير وعائلته في الإجازات. وهكذا، أصبح للسوفيات الآن، من خلال الشتازي، وصولاً مباشراً إلى تفكير برانت ومراسلاته وحلقته السياسية الضيقة.

بحلول مايو 1973، بدأ قسم مكافحة التجسّس في ألمانيا الغربية يشكّ في أن آل غيّوم جواسيس للـ HVA. ورغم هذا، لم ينبّهوا برانت إلى شكوكهم، بل جُلّ ما فعلوه كان وضع كريستل تحت المراقبة.[34] ولم يبدأوا بمراقبة غونتر أيضاً حتى مارس 1974، ثم اعتُقل الزوجان بعد شهر للاشتباه بهما بتهمة التجسّس.

الفضيحة السياسية التي نتجَت عن هذا الاكتشاف هدَّدت بسقوط الحكومة الائتلافية للحزب الديموقراطي الاجتماعي. فالمستشار لم يثق بجاسوسٍ ليكون المعاون له وكاتم أسراره فحسب، بل راجت شائعات مفادها أن غيّوم كان يجمع معلومات تهديدية، وربما صوراً فوتوغرافيةً، للمستشار المتزوج برفقة عدة نساء، وكذلك معلومات عن إفراطه في احتساء الشراب. وباستقالته، أنقذ برانت الحكومة، ولكن ليس نفسه.

كان برانت مهندس سياسة التقارب بين الشرق والغرب التي كانت لمصلحة ألمانيا الشرقية. ومثلما أقرّ ماركوس وولف، رئيس الـ HVA، لاحقاً، إن العملية "ساعدت عن غير قصد بتدمير مستقبل أكثر رجل دولة ثاقب النظر في ألمانيا حالياً".[35] وبعد سقوط جدار برلين، راسَل وولف برانت ليعتذر منه لأن HVA "ساهمت في الأحداث السياسية السلبية جداً التي أدّت إلى استقالتك في العام 1974".[36]

كانت مشكلة وولف أنه أصبح طيب القلب أكثر ممّا ينبغي. فالتجسّس كان يُستخدَم من دون التفكير بما فيه الكفاية، بدلاً من حصره بحماية أنواع الأسرار المهمة حقاً.

إذا كان يتم تصوير طبيعة مهنة التجسّس بشكل خاطئ في أحيان كثيرة، فإن ذلك يحصل أيضاً في ما يتعلق بشخصيات المُحاربين الحقيقيين في الحرب الباردة، أي ضباط الاستخبارات المتواجدين في قلب المهنة. وفي حين أنه يتم تعظيم إنجازات المهنة في أغلب الأحيان، إلا أن العديد من كبار شخصياتها- أي كبار قادة

شبكات التجسّس- صريحون بشكل ملحوظ بشأن محدودية قدراتهم. والأفضل بينهم يعتبرون التفكير غير البديهي موهبةً من الله.

لأخذ فكرة من الخطوط الأمامية عن قيمة التجسّس، وكذلك لتعلّم المزيد عن الطرائق الفعلية لتجنيد جواسيس الحرب الباردة، كانت المسألة تستحق قضاء بعض الوقت مع بعض عظماء مكافحة التجسّس السوفياتي. وأحد الأشخاص الأعمق تفكيراً كان الرئيس السابق للقسم السوفياتي في وكالة الاستخبارات المركزية ميلتون بيردن. واقتضى الاجتماع به الذهاب إلى مكان مفضّل يتردّد إليه الجواسيس السابقون، وهو فندق ريتز كارلتون في تايسونز كورنر في ماكلين، فيرجينيا.

كان بيردن أسطورةً، وسمعتُ اسمه لأول مرة في ألمانيا في التسعينيات. وقد نُسب إليه الفضل وقتها بعملية روزهولز (روزوود)، وهي العملية التي أدّت إلى استيلاء وكالة الاستخبارات المركزية- مع تدهور جدار برلين- على لائحة بكل عملاء الشتازي في الخارج تقريباً، مما جعله ينال وسام الاستحقاق الفدرالي من الدولة الألمانية.[37]

علمتُ لاحقاً أن بيردن، وكان وقتها مدير المحطة في إسلام أباد، باكستان، وكان أيضاً إحدى الشخصيات الرئيسة في إدارة الحرب الخفية لوكالة الاستخبارات المركزية في أفغانستان. وعندما عاد إلى المركز الرئيس، أدار أوسع حرب للوكالة كمديرٍ للقسم السوفياتي فيها. تقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية في العام 1994، مُحبطاً من اكتشافه أن أحد ضباطه، ألدريتش آيمز، قد خانهم كلهم.

في نهاية خدمة بيردن، كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد تضخّمت كثيراً، فأصبحت توظّف حوالي 25,000 شخص، من بينهم محلّلون ومتخصصون تقنيون؛ وهذان المنصبان لا يقعان في المملكة المتحدة مثلاً تحت رعاية جهاز الاستخبارات السرية. كان الضباط أمثال بيردن جزءاً من النخبة، من الخدمة السرية التي شغّلت الجواسيس وأدارت العمليات الخفية فعلياً. سُمّي ذلك القسم بأسماء مختلفة في

أوقات مختلفة، ومن بينها: مديرية الخطط، ومديرية العمليات، ومنذ العام 2005 صار اسمه الخدمة السرية الوطنية (أو NCS)، ولطالما كان قلب "وكالة الاستخبارات المركزية الحقيقية"، ولا يضم أكثر من 6,000 شخص، بمن في ذلك موظفو الدعم.[38]

(للمقارنة بين الوكالات البريطانية والأميركية، من المهم إدراك أن قسم الخدمة السرية في وكالة الاستخبارات المركزية هو المماثل لجهاز الاستخبارات السرية، وليس وكالة الاستخبارات المركزية بأكملها. ويركّز جهاز الاستخبارات السرية- الذي يقول العالمون ببواطن أموره إنه يوظّف ما بين 2,000 و3,000 شخص- بأكمله على تشغيل العملاء والعمليات الميدانية، بينما يتم تحليل نتائجه في مكان آخر في وايتهول. لكن مديرية العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية كانت أيضاً أكثر تركيزاً بكثير على النشاطات من جهاز الاستخبارات السرية، مع عدد أكبر من الجنود السابقين في الجيش، وصلاحيات أوسع بكثير للانخراط في نشاطات خفية).

يقول بيردن: "وكالة الاستخبارات المركزية هي مديرية العمليات. أما بقية الوكالة، وقسم التحليل، إلخ... فهي مجرد شركة راند (للأبحاث والتطوير) أو مؤسسة بروكينغز مع أسلاك شائكة حولها".

مثل العديد من ضباط الفرق السابقين في وكالة الاستخبارات المركزية الذين تعرّفتُ إليهم، كان بيردن رجلاً ضخماً ومتميزاً، وليس شخصاً يذوب في الظلال. وقد قال ضابطٌ سابقٌ في جهاز الاستخبارات الأجنبية في ألمانيا BND، متذكراً جهات الاتصال بينه وبين الاستخبارات الأميركية: "كانوا يطلبون شطائر برغر تستطيع فقط التماسيح أكلها". وبكلمات جاك ديفاين، وهو زميلٌ قديمٌ لبيردن وعملاقٌ آخر: "لا فائدة من الاختباء. فالأشخاص بحاجة إلى أن يعرفوا أين يمكنهم إيجادك".

كان هذا درساً رئيساً لي. ومثلما شرح بيردن خلال الحرب الباردة: "على العموم، من مسؤولية ضابط الاستخبارات التأكد من أن الجميع يعرفون صندوقه البريدي".

الأشخاص الذين ألّفوا كتباً عن الجواسيس تكلّموا عن كل تدريبهم لتجنيد الجواسيس، وكيف علّموهم اكتشاف دوافع الأشخاص واستغلالها. لكنْ نادراً ما كانت لهذا التدريب قيمة؛ على الأقل في الحرب الباردة. فكل الجواسيس تقريباً، ومهما اختلفت أهميتهم كانوا "فُجائيين"، أي متطوِّعين اختاروا بإرادتهم خيانة بلدهم من دون أي تحريض أو تجنيد.

وباستثناء قلّة قليلة جداً في الجهة السوفياتية، كانت لعبة التجسّس بين الغرب والشرق خلال الحرب الباردة "تتمحور حول الإدارة البارعة للمتطوِّعين"، وفقاً لبيردن. "لديك أشخاص ينشقّون- ينشقّون في مكانهم الحالي- ويفعلون ذلك للأسباب نفسها التي تحرّك الرجال؛ أي الخوف، والانتقام، والشهوة، والجنس، والطمع أو بسبب الضجر من وقت إلى آخر. فيتخذون قرارهم- إنهم ذكور تقريباً دائماً- بأن يصبحوا أهم شأناً مما هم عليه، فيصبحون جواسيس. لذا، إذا كنت روسياً، فلمَن ستتجسّس؟ للصين أم ألبانيا؟ ستتجسّس لصالح الخصم الرئيس؛ أي العدو الرئيس".

الجدير بالذكر هنا هو أنه في حين أن بقية قادة شبكات التجسّس المحترفين الذين قابلهم المؤلف وافَقوا على تقييم بيردن بشأن نُدرة المجنَّدين الحقيقيين عند العمل ضد السوفيات داخل المعسكر الشرقي (ميدان عمليات بيردن)، يجادل العديدون منهم بالقول إنه كان من الممكن الحصول على مجنَّدين مستهدَفين لأهداف أسهل في البيئات اللطيفة أكثر، والمزيد منها لاحقاً.

ومثلما شرح بيردن بشكل صحيح، بعض أفضل جواسيس الغرب اضطروا حرفياً إلى رمي أنفسهم على عدوهم السابق لكي يتم توظيفهم. فقد احتاج تولكاتشيف إلى ثلاثة عشر شهراً وست محاولات في موسكو- بما في ذلك الضرب

على سيارة رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية- قبل أن يسمح المركز بعقد اجتماع معه. ثم أصبح أحد أكثر عملاء وكالة الاستخبارات المركزية قيمةً بفضل عزمه وإصراره فقط لا غير.[39]

سألتُ بيردن عن كل قصص التجنيد تلك، فأجاب أنها كانت كلها "كلاماً فارغاً إلى حد كبير. تخيَّل غرفة تبديل ملابس مليئة بالشباب، وكل واحد منهم يحاول إخبار الآخرين عن عدد الفتيات اللواتي عرفهن في حياته؛ هذه إحدى مسائل التجنيد".

ثم أضاف: "كانت المسألة أشبه بفترة المراهقة التي يحرّكها التستوستيرون لكي تتمكن من فعل كل شيء بنفسك. هل جعلتُ فلاناً الذي كان شيوعياً يغيِّر عقيدته؟ لا. كل ما كان يهمّ حينها هو أنه يزوِّد بكميات ضخمة من الاستخبارات".

هل تم تجنيد أي جاسوس في ساحة القتال هذه بالذات عن قصد؟ لقد قضيتُ بعض الوقت وأنا أستعرضُ لائحة طويلة من حالات التجسّس وقتها. والجاسوس الوحيد الذي يمكنني القول إنه جُنِّد عمداً كان ديبلوماسياً سوفياتياً يدعى ألكسندر أوغورودنك، ذا الاسم الرمزي ترايغون.

أجاب بيردن عن هذا السؤال: "نعم، سأكشف ذلك. نُفِّذت عمليةٌ من أجل تجنيده؛ فهو لم يترك لنا ملاحظةً في السيارة. ولم يكن هناك كثيرون غيره، ربما تواجد اثنان فقط".

وصلت وكالة الاستخبارات المركزية إلى ترايغون بينما كان في كولومبيا، وذلك بعد اكتشاف أن لديه عشيقة. تم تجنيد العشيقة التي كانت تحبه، معتقدةً أن التجسّس سيمكّنها من العيش معه. وبعد عودته إلى موسكو وانضمامه إلى وزارة الخارجية السوفياتية، أرسَل ترايغون بعض المعلومات الاستخباراتية التي يُفترض أنها لا تُقدّر بثمن.

"لكنْ لم يتم تصديق معلوماته الاستخباراتية أو لم يُعمل على أساسها". بحسب قول بيردن.

تجنيد الجواسيس- وفقاً للأشخاص الضالعين فيه- يتطلّب دائماً عمليةً طويلةً جداً يمكن فيها الحفاظ على تواصل مع الهدف. وبسبب كون كل العملاء السوفيات فُجائيين تقريباً، مثلما يشرح شخصٌ آخر ضالعٌ في المسألة، هو "استحالة تطوير تواصل شخصي مع الموظفين المستهدَفين بسبب التدابير الأمنية الدفاعية الصارمة للدولة السوفياتية". لكنْ إذا كان كل تدريب التجنيد الذي يخضع له ضباط وكالة الاستخبارات المركزية بلا فائدة، فهل كانت حملة الوكالة ضد السوفيات عاجزةً في الأساس؟

على الإطلاق، وفقاً لبيردن. فجوهر القضية لم يكن تجنيد الجواسيس بل "تشغيلهم". وقد بقي فخوراً جداً بهذه النقطة، لكن الغريب في الأمر أن فخره كان مماثلاً لفخر أقرانه في الـــ KGB.

"ما أقصده هو تكلم الجميع عن التجنيد وكأنه أكبر صفقة. أتعرف؟ معظمهم متطوِّعون. وأكبر صفقة هي القدرة على تشغيل الأشخاص في موسكو بأمان تحت عيون المديرية الرئيسة الثانية بأكملها [قسم الأمن الداخلي ومكافحة التجسّس في الـــ KGB]؛ مثلما فعلنا إلى أن تعرّضوا للخيانة.

لا أعتقد أن هناك استثناءات عصرية عديدة للقاعدة التي تقول إن المرة الوحيدة التي ألقى فيها السوفيات القبض على جاسوسٍ كانت عندما تعرَّض ذلك الجاسوس للخيانة من طرفنا، أو طرفك [البريطانيون]، أو من الألمان. هذه حقيقة إلى حد كبير. وهي حقيقية لنا [الأميركيون] أيضاً. فمكتب التحقيقات الفدرالي لم يلقِ القبض على أي جاسوس مطلقاً إلا إذا خانه أحد الأشخاص".

في موسكو، تم تكريس موارد ضخمة لتعقّب الديبلوماسيين الأميركيين، ولم يكن المواطنون السوفيات يتمتّعون بحرية كبيرة. ومع ذلك، فقد شغَّلت وكالة

الاستخبارات المركزية جواسيسَ تحت عيون الــ KGB، وكان هذا "إنجازاً مذهلاً"، حسب بيردن.

ما أحدثَ توتّراً في لعبة التجسّس هو أن جهوداً كبيرة بُذلت، وتحضيرات كثيرة أُجريَت لإقامة تواصل حيوي قد يدوم لثوان معدودة وقد يكون مميتاً للعميل إذا ساءت الأمور. وبالنسبة إلى ضباط وكالة الاستخبارات المركزية العاملين "كديبلوماسيين" في السفارة في موسكو، كان إنجاح ذلك يتطلّب تخطيطاً متقناً.

يشرح بيردن أن "هناك تواصلاً عابراً مجدوَلاً- [تمرير رسالة خطية سرية من خلال ملامسة شخص في شارع عام "عن غير قصد"]- أو لقاء قصيراً مع عميلٍ- مع أدولف تولكاتشيف مثلاً- عند التاسعة مساءً من يوم الجمعة. اليوم هو الاثنين. سنحاول اليوم وغداً معرفة مَن منا نحن الأربعة هنا يبدو متفرغاً... ثم تبدأ بالتخطيط بدقة لكي تجعل شخصاً ما متفرّغاً بالقوة، وقد لا أعرف مَن سيكون متفرغاً حتى يوم الخميس. ثم ستذهب وتتوقف تمويهياً في كل الأماكن، وتخطّط ليومك بأكمله، حيث لا يعرفون [KGB] أين اختفيت عند السادسة. يمكنك أن تختفي في الظلام [تتملّص من المراقبة] في موسكو مساء الجمعة، ولن يقبضوا عليك أبداً".

ثم يأتي اللقاء: "قد تقول له: *كيف حالك؟ وحال ابنك؟ إليك الدواء له. هذا هو الشيء الذي قلتَ إنك ستُحضره، الميكروفيلم ... سنهتمّ بهذا يوم الاثنين...* لأنني صلة الوصل الوحيدة لديه مع ما يعتقد أنه الجنس البشري في هذه النقطة. إنه سوبرمان في هذه اللحظة، فوق العالم، هذا كل شيء. قد تكون هذه أهم ثلاث أو أربع أو خمس دقائق في حياته... وقد تكون آخر دقائق في حياته أيضاً".

يبدأ بيردن بالتكلم ببطء. فقد بدأ يفكّر في الأشخاص الذين نجوا من كل هذه الملحمة فقط لكي يُقتلوا بسبب خيانة آيمز. وصل عددهم إلى ستة وثلاثين شخصاً، بمن في ذلك عشرة تم إعدامهم.[40] في المحكمة، اعترفَ آيمز بتعريضه حياة "كل

العملاء السوفيات تقريباً لدى وكالة الاستخبارات المركزية والأجهزة الأميركية والأجنبية الأخرى التي أعرفها" للخطر.[41]

ثم انتقلنا إلى الهدف من اجتماعنا. هل كان يستحق كل هذا العناء؟ بعد قراءتي "العدو الرئيس"، وهو الكتاب الذي كَتَبه بيردن مع الصحافي جايمس ريزن، تولّد لديّ انطباع بأنه قضى على رؤوس كثيرة في مهنته بمحاربة الـ KGB، لكنْ لم تكن المنفعة الفعلية التي نتَجت عن ذلك واضحة.

وأكبر ما يلوح في بال بيردن كان حرب وكالة الاستخبارات المركزية الخفية ضد السوفيات في أفغانستان، والتي لعب دوراً بارزاً فيها عندما كان المدير في إسلام أباد، وقد قال إنها "سرَّعت في تفكّك الاتحاد السوفياتي بشكل كبير".

وأجبتُه بأن ذلك لا يدخل في الحسبان؛ رغم صحّته أو عدم صحّته. فقد كنت أحاول تقييم قيمة التجسّس- أي مهنة التجسّس والخيانة- وليس النشاطات الخفية.

منذ نشوئها، وعمل وكالة الاستخبارات المركزية كان دائماً مزيجاً من تجميع المعلومات الاستخباراتية والقيام بنشاطات. وما يغفل عنه النقّاد في أغلب الأحيان هو أنها كانت دائماً- ولا تزال حتى اليوم- الأداة التي يضرب بها الرئيس الأميركي. فالوكالة تنفّذ ما يريده. وعلى العموم، شَعَر كل رئيس بالرغبة في استخدامها ليشنّ بعض الحروب السرية. فبعد الحرب العالمية الثانية، كان التهديد النووي يعني أن السوفيات لا يمكنهم الانخراط في حرب تقليدية. لكنْ يمكن مواجهتهم حول العالم عبر الجهود السرية التي تقوم بها وكالة سرية. لذا، إن النشاطات الخفية أعطت الرئيس رافعةً يمكنه سحبها متى شاء؛ وهذا خيارٌ لا توفّره النشاطات العسكرية العلنية التي يمكنها أن تتصاعد لتصل إلى حرب نووية. لكنْ حتى رغم عملها بشكل خفي، لا تستطيع وكالة الاستخبارات المركزية تحقيق الكثير خلف الستارة الحديدية. بل تكمن الفرص في المناطق المتردّدة، أي بلدان العالم غير المحتلّة التي قد يميل ولاؤها إلى أحد الطرفَين. لهذا السبب، يمزح العالمون

بواطن الأمور أحياناً بتسميتهم قسم العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية "بقسم العالم الثالث".

لذا، لم تكن الحياة في وكالة الاستخبارات المركزية أو KGB تتمحور في أغلبها حول التجسّس فقط، بل كانت سوقاً للنفوذ. ويشرح بيردن قائلاً إن المهمة في أي بلد من البلدان كانت "أشبه بجعله حليفنا وليس حليفهم. فذلك يحرمهم من حجر الشطرنج ذاك، وفي النهاية يفوز مَن يملك أكبر عدد من الأحجار. كانت المسألة *إدارة للبلد* لكي لا أتلقى أي مفاجآت منه".

أما بالنسبة إلى ما إذا كان كل هذا التأثير الخفي خلال الحرب الباردة قد نَفَع بأي شيء، فقد قيل الكثير من قبل، وليس آخره ما ورد في دراسة تيم واينر الملحمية، "إرث من الرماد". وقد أثار هذا الكتاب- الذي يصف عقوداً من العثرات، والإخفاقات الدموية، والنشاطات ذات النتائج العكسية- حنقاً في وكالة الاستخبارات المركزية التي أعلنت في بيان نادر، إن لم نقل لم يسبق له مثيل، بشأن الكتاب عن الوكالة أن واينر قد شوَّه التاريخ بشكل متكرر: "مدعوماً باقتباسات انتقائية، وتأكيدات شاملة، وافتتان بالسلبيات، تغاضى واينر عن إنجازات الوكالة أو قلّل من شأنها أو شوَّهها".[42]

لن أعلّق هنا على الطرف المُحقّ، بل سأضيف انتقاداً صغيراً فقط: لقد ترك واينر انطباعاً لدى القارئ بأن التدخّلات الدموية، والتخطيط للانقلابات إلخ... كانت كل ما فعلته وكالة الاستخبارات المركزية، ونسي مهنة التجسّس؛ أي وظيفة وكالة الاستخبارات بتجنيد العملاء وتجميع المعلومات السرية.

بالنسبة إلى قيمة التجسّس خلال الحرب البارد، يعتقد بيردن أن الحُكم النهائي لم يصدر بعد. ففي المعركة بين وكالة الاستخبارات المركزية والــ KGB، "إذا قرّر أحدهما أو كلاهما عدم لعب اللعبة، فهل كان ذلك سيؤثر على النتيجة؟ على الأرجح لا".

ويقول إن الشيء الأكيد هو أنه كان هناك الكثير من الهواجس المتبادلة. "وقد أصبح تجنيد الـ KGB ووكالة الاستخبارات المركزية لضباط الاستخبارات سهلاً... فكلنا نعرف أرقام هواتف بعضنا بعضاً. لكنّ ما فعلناه هو تحويل ذلك ليكون النشاط الرئيس؛ معتقدين أننا إذا جنّدنا ضابطاً في الـ KGB فسيكشف لنا أسماء الجواسيس".

والسؤال الذي طرحه على نفسه، بأسلوبه المتشكّك، كان عما إذا كانت الاستخبارات البشرية في تاريخ الغرب قد شكّلت حقاً الأساس لتطوير سياسة رئيسة من قِبَل أي رئيس جمهورية أو رئيس وزراء؛ خاصةً وأنهم لم يصدّقوها في أغلب الأحيان. وكان جوابه- ولم يكن الوحيد الذي توصّل إلى ذلك- أنه في ما أسماه منطق "النقيض-الفاسد"، عندما يصل الموضوع إلى أكبر إنجازات التجسّس خلال الحرب الباردة، كان التجسّس ضد أميركا هو الذي أحدثَ أكبر فرق إيجابي.

برأي بيردن، كان الجواسيس النوويون مفيدين بعض الشيء. "فقد كان ستالين سيشعر بالهستيريا بسبب التطوير النووي الأميركي المزدهِر لو لم يخترق مشروع مانهاتن بأكمله بفريق متكامل من الأشخاص". وقد منع يوليوس وإيثل روزنبرغ ستالين من ارتكاب "حماقة. لذا، حمتنا تلك الخيانة للولايات المتحدة من حرب ضخمة على الأرجح".

وقد ذكر أيضاً عميلَ الشتازي توباز، واسمه الحقيقي راينر رابّ، وقد كان رجل ماركوس وولف داخل الناتو. عندما حشد حلف الناتو قواته في العام 1983 لإجراء مناورة تدريبية لعموم الدول الأوروبية مدتها عشرة أيام، واسمها الرمزي Able Archer (آيبل أرتشر)، تتخلّلها محاكاة لإنذار نووي من أعلى المستويات، كان أشخاصٌ أمثال توباز مَن أقنعوا قيادة الكرملين الثمانينية بأن كل تلك المناورات العسكرية لم تكن استعداداً لتوجيه أول ضربة نووية.[43]

ومن جهة ثانية، لم يقل إنه لم يتم تحقيق نجاحات. "ما زلتُ أعتقد أن مجمل الأمور التي أعطانا إياها تولكاتشيف وفّرت لنا أفضليةً تجاريةً في الدينامية العامة، حيث إن أداء الجيلَين القادمَين من طائراتنا المقاتلة كان أفضل؛ لأننا اعتمدنا على جهود التصاميم السوفياتية". لكن الكثير من الأعمال الاستخباراتية الأخرى كان "غير فعّال إلى حد كبير"؛ أي إن جهوداً ضخمة بذلت للحصول على نتائج متواضعة.

بالإجمال، هل كان الأمر يستحق كل ذلك العناء؟ هذا هو السؤال الذي قال بيردن إنه طرحه على نفسه باستمرار، وبالأخص بشأن أولئك الذين ماتوا. في حالة تولكاتشيف مثلاً، "هل كان إنجازه يستحق موته؟". إنه سؤال لم يرغب بيردن في أن يُجيب عنه.

بدءاً من فيلبي ووصولاً إلى تولكاتشيف، أظهَر كبار جواسيس الحرب الباردة بعض المهارات الهائلة التي طوّرتها وكالات الاستخبارات لتشغيل الخونة خفيةً داخل مخيّم العدو. وقد افتخَر أولئك الجواسيس بتجسّسهم، حتى وهم يشعرون بالخجل من خيانات بعض الزملاء، وحتى إن راوَدت العديدين منهم- أمثال بيردن- شكوكٌ في ما تم إنجازه.

خلاصة القول، برزت الاستخبارات البشرية كمهنة مُحبطة؛ كمسعى متعطش للموارد، ومستهلك للوقت، وعقيم عادة، وذي خطر ثابت بتحقيق نتائج عكسية. وقد عاشت بعض البلدان بسعادة من دون حتى الانخراط في هذا العالم. لكنْ في حين أن تأثير الاستخبارات البشرية كان بسيطاً عادة، إلاّ أن بإمكانها من وقت إلى آخر، وفي لحظة حاسمة جداً، التزويد بالسهم الذهبي، أي بمعلومة يمكنها أن تكون حاسمةً إذا كان من الممكن تعزيزها واستخدامها بشكل صحيح؛ كما هو حال ستالين مع تصاميم القنبلة الذريّة التي سرَقها.

مثلما رأينا، كانت بعض دروس التجسّس في فترة الحرب الباردة عالميةً؛ بدءاً من الطبيعة الهشّة جوهرياً للاستخبارات التي تستند إلى الخيانة البشرية، ووصولاً إلى الحاجة إلى التعزيز أو التحقق من صحة المعلومات للموازنة مع نقطة الضعف هذه.

وكانت هناك أيضاً جوانب خاصة لهذه الفترة، ليس أقلها الطبيعة الشمولية للمجتمع السوفياتي، وبالتالي الحدود الصارمة للتواصل المفيد بين المواطنين السوفيات والغربيين. ولم توفّر تلك القيود فرصةً كبيرةً لحصول تواصل مطوّل قد يؤدي إلى تجنيد ناجح. لذا، عندما كان يتم تجنيد العملاء، كانت صعوبة التحكّم والتواصل تعني حتمية تسلّل الشكوك حول ما إذا كانت هويات العملاء قد انكشفت أم لا. لكنْ رغم أن العمل في المعسكر السوفياتي كان فريداً، كانت هناك أوجه شبه مع التجسّس المستقبلي. ففي القرن الحادي والعشرين، وبينما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تحاول تجنيد جواسيس في مخيّمات تدريب الإرهابيين في المناطق الجبلية البعيدة مثلاً، واجَه ضباطها المشكلة الأساسية نفسها المتمثلة بكيفية الوثوق بالجواسيس الذين بالكاد رأوهم وبالكاد يعرفونهم، وبكيفية توجيههم.

وحتى لو كانت الاتصالات جيدة، فإن المسافات الجغرافية والحواجز الثقافية ووفرة الوسطاء بين الجاسوس وصاحب القرار- أي الشخص الذي يستخدم المعلومات الاستخباراتية- تشكّل دائماً دافعاً للشك وعدم اليقين. كانت مشكلة كيم فيلبي أن موجّهيه في موسكو، والكرملين من بعدهم، عملوا في عالم آخر، ذهنياً وجسدياً. ولو عرفوه بشكل أفضل، لأدركوا أن خيانته كانت حقيقية، ولأصبحوا قادرين على الحكم بشكل أفضل على المعلومات التي زوّدهم بها.

لكنْ حتى خلال الحرب الباردة، كانت هناك مسارح أخرى للتجسّس، وكان التواصل البشري فيها أعمق بكثير؛ حيث يمكن تجنيد الجواسيس بحيوية، وقد لا تأتي مصداقيتهم عبر التحقق من صحة معلوماتهم، بل عبر فهم عميق لدوافعهم.

إن ساحات القتال المماثلة تزوِّد بدليل عن كيفية تشغيل الجواسيس وصمودهم حتى بين ألدّ الأعداء.

الفصل 3
الصداقة

"الواقع هو أن الماضي مكانٌ مظلمٌ جداً جداً للجميع"

- مارتن ماكغينيس، القائد السابق للجيش الجمهوري الإيرلندي[1]

لا يزوِّد كل الجواسيس بمعلومات لا يتم تصديقها. وليست لكل عمليات تجميع المعلومات الاستخباراتية عواقب غير متوقعة. فحتى خلال السنوات المدمِّرة لسباق التسلّح في الحرب الباردة، كانت هناك أوقات أثبتت فيها وكالة التجسّس جدارتها؛ وذلك عندما تبيَّن أنه لا غنى عن استخباراتها البشرية. وتُعتبر الحملة العسكرية البريطانية في إيرلندا الشمالية، التي بدأت في العام 1968 وانتهت بعد ثلاثين سنة، أحد هذه الأمثلة. يذكُر العالمون ببواطن الأمور قصة أحد أفضل جواسيس بريطانيا، وهو عميلٌ داخل إحدى أنجح المنظمات الإرهابية- الجيش الجمهوري الإيرلندي- التي كانت توجّه ضربات مميتة الواحدة تلو الأخرى ضد الدولة البريطانية في حملتها لتوحيد إيرلندا.

وقد وجَّهني ضابطٌ في وكالة الاستخبارات المركزية في هذا الاتجاه. "يجب أن تنظر إلى إيرلندا. فقد كانت مسألة صمود بالنسبة إلى البريطانيين، وقد تعلّمنا منها". توصّلت الاستخبارات البريطانية إلى قناعة بأن استخباراتها البشرية كانت جيدة جداً، لدرجة أن دورها كان فعّالاً في هزيمة الجيش الجمهوري الإيرلندي في نهاية المطاف. وقد حثّني ضابطان خبيران سابقان من جهاز الاستخبارات السرية على متابعة تحقيقاتي. وقد قال لي أحدهما إن "الجيش الجمهوري الإيرلندي قد هُزم من خلال اختراق صفوفه". وقد عارضه الآخر بشدّة، مصرّاً على أن "الجيش

الجمهوري الإيرلندي لم يُهزَم قطّ". ولكنه تكلّم أيضاً عن نجاح منقطع النظير في تجنيد مصادر داخل تلك المجموعة.

وقد ذكرا أحد الجواسيس البريطانيين بالذات- واسمه الرمزي ستيكنايف (steak knife)، ومعناه سكين شرائح اللحم- على أنه قيِّم أكثر من أي جاسوس آخر، فقد أنقذ عشرات الأرواح على الأرجح. وتُعتبر قصته، وقصة وحدة الجيش التي شغَّلته- رغم أنها مثيرة للجدل- مثالاً واقعياً عن كيفية تنفيذ التجسّس حقاً. وبالإضافة إلى ذلك، إن التاريخ الأوسع لكيفية تحقيق النجاح في حرب بريطانيا السرية "على الإرهاب" يعود إلى البال اليوم بسبب الأساليب المطلوبة لإبقاء جاسوسٍ ما حياً بين مجموعة من المتمرّدين هدفهم القتل.

رغم أن الإرهاب قد تغيَّر في القرن الحادي والعشرين، إلا أن حرب استخبارات إيرلندا قد حدِّدت القالب. ومن المهم هنا أن نعرف كلنا الحقيقة؛ لأننا إذا اخترنا في مجتمع ديموقراطي إرسال جواسيس ضد أعداء قتلة، يجب أن نُدرك التهديدات المرافقة لذلك، وحاجة المجتمع إلى وضع قيود على تلك العمليات.

تُظهِر قصة ستيكنايف أيضاً شيئاً مما يمكن تسميته الفن المفقود للتجنيد. فخلافاً لنمط التجسّس المُعتمَد ضد الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة والذي شرحه بيردن في الفصل السابق، كان قلّة من الجواسيس البريطانيين في إيرلندا متطوّعين. والذين قاموا بالتجنيد كانوا ضباط الاستخبارات في الجيش والشرطة وأجهزة الاستخبارات، والذين فهموا شيئاً من جوهر مهنة الإقناع؛ أي كيفية التأثير بضمير شخصٍ ما وإعادة تشكيله لتحقيق هدف مختلف جذرياً. ومثلما سيتّضح، إن تجنيد أفضل الجواسيس- أي أولئك الذين يسرقون أسراراً من الدوائر الداخلية لمخيَّم العدو، ويبقون في أماكنهم لفترات زمنية طويلة- يعتمد عادة على أواصر الصداقة الخاصة التي تترسَّخ مع مرور الوقت وبكثير من الصبر. وفي اندفاعنا للرد على التهديد الكبير التالي، سواء أكان من الروس أو الجماعات الإرهابية أو قراصنة

الانترنت، علينا أن نسأل أنفسنا عمّا إذا كان بإمكاننا تحمّل مرور الوقت للسماح بتجنيد الجواسيس الذين نحتاج إليهم.

لقد تم تسريبُ معلومات عن تواجد ستيكنايف، والمزاعم بشأن هويته الحقيقية ونشرُها من قبل. لذا، يوجد الكثير من التفاصيل غير الدقيقة عنه. لكنْ نظراً إلى القدرة على الوصول إلى العديد من المصادر الجديدة للمعلومات، أعتقد أنه يمكننا محاولة فهم ما حصل حقاً. وبسبب مناصبهم السابقة الحسّاسة، يمكنني تحديد هوية قلّة من الأشخاص الذين أستشهد بهم هنا؛ حتى بعد مرور كل تلك السنوات.

من المنطقي أن تبدأ القصة مع فريدي سكابّاتيتشي الذي وُلد في بلفاست في العام 1946، وهو ابن لمهاجرٍ إيطالي يدعى دانيال سكابّاتيتشي كان قد وصل إلى المقاطعة في العشرينيات. بسبب عشقه لكرة القدم، خضع فريدي اليافع للتجربة مع نادي نوتنغهام فورست لكرة القدم، لكنه عندما لم ينجح في ذلك أصبح بنّاءً لاحقاً. وعند بداية المتاعب في إيرلندا الشمالية، انضم إلى الجناح المؤقّت المناضل أكثر في الجيش الجمهوري الإيرلندي- والمعروف أيضاً بـ Provos (بروفوس) أو PIRA (بيرا)- والذي انشقّ عن الجيش الجمهوري الإيرلندي الرسمي في العام 1969 (يُستخدَم المصطلحان الجيش الجمهوري الإيرلندي وبيرا بشكل متبادل في أغلب الأحيان)، وتولّى قيادة الحملة ضد البريطانيين. في العام 1971، اعتقله البريطانيون ووضعوه في الإقامة الجبرية من دون محاكمة تحت مزاعم عضويته في بيرا.

في مايو 2003، ادّعت تقارير صحفية أن سكابّاتيتشي كان في الواقع عميلاً بريطانياً اسمه الرمزي ستيكنايف (وقد كشفت الصنداي تايمز عن وجوده قبل أربع سنوات). بعد نشر اسمه بقليل، ظهر سكابّاتيتشي في مؤتمر صحفي، وأصدر بياناً قرأه محاميه، أنكر فيه أنه كان ستيكنايف، كما أنكر أنه عمِل لصالح استخبارات الجيش أو شارك في أي أعمال إرهابية (رغم أنه أكّد لاحقاً عضويته في الجيش الجمهوري الإيرلندي)، وهاجَم وسائل الإعلام بسبب مقالاتها "المستهترة والمؤذية

جداً"، ولأنها لم تُظهر "أي اعتبار على الإطلاق لوضعه، أو للأذى الذي يمكن أن يسبّبه نشر معلومات كهذه" له ولأفراد عائلته.[2]

في ضوء ذلك النفي، من الأفضل مجرد متابعة قصة رجلٍ ذي عمر ووصف مشابهين لفَتَ انتباه الجيش البريطاني، وسُمّي لاحقاً ستيكنايف. في لحظة ما في السبعينيات، ووفقاً للاستخبارات البريطانية، قتل هذا الرجل جندياً بريطانياً، أو بالتأكيد جرح واحداً. ثم أصبح بسرعة الضابط القيادي للواء بلفاست، وكان صديقاً لعدد من نجوم الجيش الجمهوري الإيرلندي الصاعدين؛ أمثال جيري أدامز الذي أصبح قائد شين فين، الجناح السياسي للجيش الجمهوري الإيرلندي. لسبب من الأسباب، أصبح ستيكنايف بعدها مكروهاً من قادته، فأُعفي من القيادة ولكنه حافَظ على اتصالاته. وشكّل هذا الأمر نقطة ضعف لديه جَعَلته هدفاً للتجنيد.

بالكاد يمكن اعتبار استخدام أجهزة الاستخبارات أو الجيش أو الشرطة للجواسيس لمحاربة الإرهاب مسألةً جديدةً. وربما لا يوجد أي بلد- باستثناء فرنسا على الأرجح- لديه خبرة أكبر من بريطانيا في هذا المجال. ففي المملكة المتحدة، تم تأسيس وحدات لتجميع معلومات استخباراتية لمكافحة الإرهاب قبل سنواتٍ من أي وكالة استخبارات أخرى. وما كان جناح الاستخبارات في سكوتلاند يارد، ويدعى Special Branch (الفرع الخاص)، تم إنشاؤه في مارس 1883 لمحاربة الخطط الإرهابية للجمهوريين الإيرلنديين- كانوا يسمّونهم Fenians (الفينيان)- ولاحقاً الفوضويين أيضاً. كان هذا قبل أكثر من عشرين سنة من تأسيس مكتب جهاز الاستخبارات (سَلَف MI5 وجهاز الاستخبارات السرية SIS) لمحاربة التهديد الألماني.

بعد الحرب العالمية الثانية، ومع بدء تفتّت إمبراطوريتها، عملت أجهزة استخبارات بريطانيا بشكل وثيق مع الشرطة لمحاربة عصيان المجموعات المتمرِّدة التي لجأ بعضها إلى الاغتيالات وتنفيذ هجمات على المدنيين. وقد تضمَّنت تلك

المجموعات إرغون وعصابة شتيرن المؤيِّدتين للصهيونية في فلسطين، وإيوكا (EOKA) في قبرص، والشيوعيين الملايويين وماو ماو في كينيا.

مع عدم إظهار بريطانيا أي نية في التخلي عن إيرلندا الشمالية (التي تشكّلت من ست من المقاطعات التسع للمحافظة الإيرلندية القديمة أولستر)، بقي تهديد الإرهاب الإيرلندي مرتفعاً. وفي العام 1968، بدأت المتاعب مع الاحتجاجات حول التمييز ضد السكان الكاثوليك. وعندما تم إرسال الجنود البريطانيين إلى أولستر بعد سنة، وبدأ النزاع مع الجيش الجمهوري الإيرلندي، كان تجميع البريطانيين للمعلومات الاستخباراتية ترتيباً مؤقتاً. لكن المهمة كانت أسهل في الأيام الأولى بسبب الطبيعة المفتوحة للجيش الجمهوري الإيرلندي. فقد كان أعضاؤه مشهورين في الطبقات العاملة الكاثوليكية حيث كانوا يقومون بالتجنيد.

لجأ الجيش البريطاني إلى وسائله التي استخدمها لسحق التمرّد في المستعمرات، وأكثَرَ من طرائق التعذيب الاعتيادية كالحرمان من النوم، وضرب السجناء، ووضعهم في أوضاع مُجهدة؛ وهي تدابير اعتبرتها المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان لاحقاً من أصناف التعذيب. ومثلما أخبرني موظف سابق في الاستخبارات البريطانية، كانوا يأخذون سجناء الجيش الجمهوري الإيرلندي في المروحيات، ويهدِّدونهم بدفعهم إلى الخارج (كانوا يفعلون ذلك أحياناً، لكن الخدعة كانت في أن يحلّقوا على مسافة قريبة من الأرض). كانت تلك وسيلة فعّالة لجعل الأشخاص يتكلمون.

لكنْ في أواخر السبعينيات، أصبح الجيش البريطاني والجيش الجمهوري الإيرلندي أكثر تطوّراً. وكانت نقطة التحوّل هي قرار القيادة المؤقّتة في أولستر في العام 1977 بالابتعاد عن سيطرة دبلن وتأسيس قيادة شمالية. وتم في الوقت نفسه فرض تدابير أمنية مشدّدة أكثر، بما في ذلك إنشاء خلايا وحدات الخدمة النشطة (أو ASUs). لقد انتقل الجيش الجمهوري الإيرلندي ليعمل تحت الأرض.

اصطفت عدة وحدات من الاستخبارات البريطانية ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي. أولاً، كانت هناك شرطة المقاطعة، شرطة أولستر الملكية (RUC) التي تولّى "فرعها الخاص" تجنيد المُخبرين. وكان هناك الجيش النظامي أيضاً الذي كان لكل فوج من أفواجه ضباط استخبارات خاصون به، بالإضافة إلى فيلق استخبارات متخصص تابع للمركز الرئيس ويتولّى مصادر عديدة. أخيراً، كانت هناك أجهزة الاستخبارات MI5، وجهاز الاستخبارات السرية (SIS). وبما أن إيرلندا الشمالية كانت مصنَّفة على أنها من أراضي الوطن- أي أنها جزءٌ من المملكة المتحدة- كانت للـــ MI5 مسؤولية أولية هناك. لكنْ بسبب الخبرة المكثّفة أكثر لجهاز الاستخبارات السرية، وبالأخص في ما يتعلق بتجنيد العملاء، فقد تم اختياره في مرحلة مُبكرة لتولّي المصادر الحسّاسة، وخاصة في الجمهورية الإيرلندية إلى الجنوب، ولكن في الشمال أيضاً. وتصادمت كل تلك الوحدات البريطانية باستمرار؛ حتى بعد الاتفاق على "صدارة الشرطة"- أي تسليم شرطة أولستر الملكية زمام القيادة- لاستعادة بعض النظام.

كان حقل التجسّس مزدحماً من قبل، لكن البريطانيين قرّروا الرد على التدابير الأمنية المشدّدة للجيش الجمهوري الإيرلندي، على سبيل الذكر لا الحصر، بإنشاء فرقة نخبة جديدة لتجنيد الجواسيس: وحدة أبحاث القوة أو FRU (تُلفَظ فْرُو). ورغم أن نشاطاتها أصبحت مثيرة للجدل لاحقاً، إلا أنها كانت أيضاً إحدى أنجح المنظمات الاستخباراتية في التاريخ، فقد جنَّدت بعض أصحاب المراكز العليا في إيرلندا الشمالية.

ركّزت فْرُو على التفاصيل، فوضعَت مخططاً لهيكل القيادة في الجيش الجمهوري الإيرلندي، ثم عملت على تجنيد عميلٍ لاختراقه. "كان معدل النجاح ضئيلاً جداً، ولكنْ عندما تتمكن من إدخال شخصٍ ما فإن المسألة تستحق العناء"؛ على حدّ قول عضو سابق في فْرُو. وكان أحد استنتاجاتهم الأولى أن العميل المثالي شخص قريب جداً من إحدى وحدات الخدمة النشطة، ولكنه ليس عضواً فيها. وأي عميل يُفسح له المجال لدخول وحدة خدمة نشطة يجب إخراجه أو مساعدته على تغيير

دوره بسرعة. فمثل أولئك الرجال كانوا خطيرين؛ لأن العملية تسبّب الكثير من المشاكل قانونياً وأخلاقياً. "لم تكن العملية لتدوم كثيراً. إذ إن عميلاً مماثلاً سيكون قريباً جداً من النهاية المادية، وقد يُقتَل أو يتسبّب في قتل شخص آخر بطريقة أو بأخرى".

حوالي 40 بالمئة من مصادر فْرُو الذين يتقاضون أموالاً لم تكن لديهم أي علاقة بالإرهابيين على الإطلاق. بل كانوا من نسمّيهم في أغلب الأحيان عملاء وصول (على عكس عملاء الاختراق)، أي بمثابة "عيون وآذان"، ويتم اكتسابهم بسهولة، فيلتقطون الجو العام للشارع، ويشيرون إلى الشخصيات المثيرة للاهتمام. ويتذكّر العضو السابق في فْرُو أن "الجيش الجمهوري الإيرلندي كان ذا شأن عظيم في بعض أنحاء المقاطعة، لدرجة أنك قد تلتقط أخباراً كثيرة بمجرد الجلوس في مقهى". ويضيف عضو آخر في فْرُو: "عندما بدأنا، سخِر العديدون في شرطة أولستر الملكية من عدد المصادر التي لدينا وليست لها أي علاقة تقريباً ببيرا. لكنّ هذا تغيَّر عندما أثبتوا قيمتهم". وتابع قائلاً إن السعي للحصول على عميلٍ في المستوى الأعلى يمكن تسريعه بوجود عدة عملاء في مستويات أدنى.

كان المصدر المثالي للمعلومات هو كاتمي الأسرار؛ وهم أشخاص كانوا يخبرون العملاء بكل شيء ولكنهم لا يفعلون سوى القليل جداً. وربما كانوا الزوجات أو العشيقات في الأيام الأولى. لكنْ مع تشديد الجيش الجمهوري الإيرلندي الذي يهيمن عليه الذكور في تدابيره الأمنية، بدأ أيضاً باستبعاد النساء. وأحد أفضل أوائل العملاء كان سائقاً لدى قائد إحدى وحدات الخدمة النشطة. رسمياً، لم يكن لديه أي وصول إلى أي معلومة، إلاّ أن القائد كان يعاني مما يسمّيه الإيرلنديون "التفاخر"، فلم يكن يتوقف عن التكلّم مطلقاً، لدرجة أن العميل في الواقع سمع كل شيء تقريباً.

ليس من المستغرب إذاً أنه عند تحديدها أهداف التجنيد، كانت فْرُو تبحث عن شخص لديه نقطة ضعف. ومثلما يشير بيار لوثيير، وهو ضابط سابق في

الاستخبارات الخارجية الفرنسية: "نحن نعيش على نقاط الضعف؛ وإلى أن نكتشف نقطة ضعفٍ ما، نبقى جالسين ونحن ندخّن السجائر ونقرأ الفاينشل تايمز".[3]

بشكل عام، بحثت فْرُو عن نقاط ضعف مألوفة- الطمع، الغيرة، الغضب، الشهوة، الحسد- كعوامل تحريضية للمرشّحين للتجنيد. ومن أجل تجنّب تعرّضهم للخداع، كانوا يفضّلون الطباع أو نقاط الضعف التي يمكن تعزيزها. على سبيل المثال، هل كان أحد أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي يعاشر زوجة رجل آخر؟ يمكن التأكد من أمر كهذا. ولا شك في أن الهدف سيشعر بالغيرة والغضب، وعندها سيكون مُهيّأً لمحاولة تجنيده. كان هذا أحد الأسباب، حسبما قال أحد المجنِّدين، الذي لم يوفّر لهم وقتاً طويلاً للبحث عن المعتقدات السياسية لتكون الدافع. "فالدوافع الأيديولوجية هي الأسوأ؛ لأنه لا يمكنك إثباتها. إذ لا يمكنك إثبات عقيدة الشخص الفعلية، وبإمكان الوضع السياسي أن يتغيَّر، وبالتالي قد يزول سبب عمله معك".

كما رفضت فْرُو أيضاً أي شكل من أشكال التطوع أو "الفُجائيين"، وهذه رفاهية لا تستطيع معظم أجهزة الاستخبارات تحمّلها. "الفُجائيون هم أسوأ أنواعِ العملاء على الإطلاق. فليس لديك أي سبب على الإطلاق لمعرفة مَن هم حقاً. وكانوا في أغلب الأحيان اختباراً [من العدو] لاكتشاف ما نعرِفه عنهم، أو ليروا طريقتنا في العمل، أو لكي يزوِّدونا بمعلومات خاطئة".

وقد توضَّحت منهجيتهم عند تجميع معلومات استخباراتية عن جيري أدامز، الذي انتهى به المطاف في المجلس العسكري المؤلف من أربعة رجال للجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقّت، وكذلك قائد شين فين لاحقاً. فقد اكتُشف أن لعائلته نقطة ضعف رئيسة؛ إذ كان أبوه جيري أدامز، رجل الدين الموقَّر، غير سويّ جنسياً.[4] وتبيَّن لاحقاً أن أخ قائد الجيش الجمهوري الإيرلندي كان كذلك أيضاً.[5] وقد تتكشّف للعموم تفاصيل العملية الخفية المكثّفة لاستغلال نقطة الضعف

تلك في عائلة أدامز في مرحلة من المراحل، ولكن ليس هنا. يكفي القول إن مدى تعاون بعض الأعضاء المباشرين من عائلة أدامز مع البريطانيين لا يزال سراً دفيناً.

أما نقطة ضعف ستيكنايف "فكانت رغبته بالانتقام"؛ وفقاً لشخص ضالع في قضيته. فقد شَعَر بالضعف وخيبة الأمل والمرارة بعد فقدانه منصبه كقائد للواء بلفاست؛ رغم محافظته على علاقاته الاجتماعية الودّية مع أدامز والعديد من كبار قادة الجيش الجمهوري الإيرلندي إكراماً للمودة القديمة.

كانت عملية تجنيد ستيكنايف مقصودةً، وبدأت بعد فترة قصيرة من إنشاء فْرُو. فقد اعتُقل في العام 1978 بذريعة ما وأُخِذ إلى المخفر. يتذكّره أعضاء فْرُو كرجل قصير القامة ومفتول العضلات، و"ذي بنية تشبه بنية عمال المناجم". بقوا يلعبون على مشاعره لعدة ساعات قائلين له: "أنت أفضل مما يظنّون". وكانوا قد تلقوا إشارة أيضاً بأنه قد أصبح ساخطاً. "فقد فَقَد ولاءه للقضية، ولم يعد مكترثاً لها". تحدّثوا إليه لعدة ساعات من دون التوصّل إلى أي اتفاق، ثم أخلوا سبيله.

كان التواصل الأول مهماً؛ فقد كان بالإمكان زرع بذرة الخيانة. "بقي من رجال بيرا، ولكن بدأ شيء ما بداخله يُشعره بأن ما كان يفعله خطأ"؛ على حدّ قول شخص آخر ضالع في قضيته. وقد نَفَع ذلك في هذه الحالة، فبدأت الشكوك تراوده. لكنْ هل يمكن تشغيله كعميلٍ نشط؟

خلال الأشهر القادمة، وجد مجنِّدو فْرُو أعذاراً شتّى لالتقاء ستيكنايف صدفةً. كان لا يزال قيد الاختبار، ولكنه اجتاز الخط لكي يصبح عميلاً ناضجاً بالكامل عندما وافَق على لقائهم؛ عادة بمجرد شرب فنجان من القهوة في المقاهي العادية. لكنها كان عملية طويلة الأمد.

كانت أفضلية إيرلندا الشمالية كمكان للتجسّس بالمقارنة مع موسكو أو براغ مثلاً، هي سهولة الوصول دائماً. وقد ردّ ضباط سابقون في وكالة الاستخبارات المركزية أو جهاز الاستخبارات السرية صعوبة تجنيد السوفيات إلى أنه كان من المستحيل تقريباً لقاؤهم. وقد أخبرني ميلتون بيردن من وكالة الاستخبارات

المركزية أنه كان من المثير للإعجاب أنهم كانوا قادرين أصلاً على تشغيل عملاء في موسكو؛ إذا أخذنا بعين الاعتبار "كل الموارد الضخمة التي يضعها [KGB] على أشخاصنا هناك". بالمقابل، يمتلك البريطانيون في إيرلندا الشمالية وسائل عديدة للاجتماع مع عدوهم. إذ يمكن مثلاً اعتقال المرشّحين للتجنيد بأي ذريعة، واستجوابهم في مخفر أو ثكنة للجيش، ويمكن ترتيب اللقاءات معهم في المقاهي والمطاعم أيضاً. وإذا لزم الأمر، يمكنهم لقاؤهم في منازل آمنة في المناطق الريفية مثلاً.

ويقول أحد المشغِّلين إنه "كانت هناك دائماً أماكن كثيرة للالتقاء". في شمالي المحافظة، "ما عليك سوى الخروج من غرب بلفاست [معقل الجيش الجمهوري الإيرلندي]. وحتى هناك يمكنك أن تسير وتتكلم؛ إذ كانت حركة المرور هناك كثيفة". كان وسط بلفاست محايداً، وشرقها آمناً. وكان الريف جيداً عادة، ما عدا جنوب أرما الذي كان يُعرَف ببلد "قطّاع الطرق". فهناك كان يوجد "محليون وغرباء فقط"، وكان الجميع يلفتون الأنظار، و"كانت اليد على الزناد دائماً". في تلك الحالة، كانت الوسيلة الآمنة الوحيدة للتكلم مع أي شخص هي اعتقاله.

ومجرد الاجتماع بفْرُو كان كافياً لتهديد حياة شخصٍ مثل ستيكنايف. لذا يقول المشغِّلون إنه لا داعي إلى فرضك نفسك بالقوة عند محاولتك تجنيد أي مصدر. ومثلما يقول المَثل الاستعماري: "بهدوء، بهدوء، أيها القرد".

يقول أحد المجنِّدين: "مبدئياً، يجب أن تكون مستمعاً جيداً. وعليك طرح الفكرة التي تريدها بشكل غير مباشر؛ بأن تتكلم بشكل عادي، ثم تقحم شيئاً في الحديث. عليك أن تقودهم بنفسك في الطريق الصحيح". لكنْ سيكون من المفيد دراسة نقاط الضعف لكي تحدِّد مصدراً وتطوِّر استراتيجيةً، ولن يتم بالضرورة استغلالها علناً؛ فأحياناً لم تتم مناقشتها مطلقاً. عليك أن تكون حذقاً. "حتى إنك لا تريد منهم أن يقولوا لك: *أريد أن أعمل لصالحك*، بل تريد منهم أن يروا بأنفسهم أن ذلك مسارٌ طبيعيٌّ. وبعدما يوافقون على لقائك بعيداً عن روتينهم،

تكون قد قطعت منتصف الطريق. فهم يفهمون العواقب، وأنت لا تريد تذكيرهم بما يفعلونه".

كان الابتزاز الضمني أو الرشوة الصريحة آخر المطاف في عملية تجنيد الجواسيس. وقد حاولت فرُو أن تتفاخر بنفسها لإنفاقها مبالغ منخفضة إلى حد يدفع إلى السخرية: "إذا كان أحد الأشخاص يعاني من نقطة ضعف، فأنت تريد أن تبدو المنقذ بالنسبة إليه؛ فأنت الآن أفضل أصدقائه الذي يستطيع مساعدته في التغلّب عليها. ولا ينبغي أن نقول له: "يجب أن تفعل هذا بسبب هذا أو ذاك". فهناك الكثير من الكلام الضمني، وهناك الكثير من "هو يعرف أنك تعرف أنه يعرف... لكننا لا نناقش ذلك أبداً".

في نهاية المطاف، سارت الأمور على ما يرام على الأرجح، لأنه تولّدت صداقة سريعة بين ستيكنايف ومشغّليه. ومثلما قال شخصٌ حسن الاطلاع، "يجب أن يحبّوك. كان ستيكنايف يحبّ كرة القدم والموسيقى واحتساء الشراب. وكان مشغّلوه يحبّون كرة القدم والموسيقى واحتساء الشراب أيضاً".

ما الذي يشكّل تجنيداً جيداً؟ لا توجد حالتان متشابهتان؛ مع المجنّدين أو العملاء على حدٍّ سواء. لكنْ في سياق المقابلات التي أجريتُها خلال أكثر من عقدَين من الزمن، تمكّنتُ من رؤية أن الفكرة الشائعة بشأن طريقة تحوّل الأشخاص إلى جواسيس خاطئة كثيراً. فالانطباع السائد هو أن قائد شبكة التجسّس شخصٌ باردٌ وعديم الرحمة، لكنّ مجنّدي أجهزة الاستخبارات الذين التقيتهم- والذين كانوا الأنجح برأي نظرائهم- كانوا عكس ذلك تماماً. وقد أصَرَّ العديدون منهم على أن أفضل الجواسيس قبلوا التعاون من أجل شيء بسيط: الصداقة.

أحد أول الدروس المماثلة التي تعلّمتها كان في منطقة مفاجئة؛ في وزارة أمن الدولة في ألمانيا الشرقية، الشتازي. فرغم جهودها القمعية والفظّة في مراقبتها

المحلية، كان للشتازي جهازٌ خارجيٌّ ماهرٌ وفعّالٌ، وهو HVA، ويقوده رجلٌ ذو سُمعة مبرَّرة كسيد الجاسوسية، ماركوس وولف.

بدأت تجربتي مع جهاز وولف في العام 2000 عندما كنت المراسل الأجنبي للصنداي تآيمز في برلين، وأعمل مع زميل وصديق لي، وهو كاتب أميركي يدعى جون غوتز. كنا نحاول معرفة الأشخاص الذين يقفون وراء لائحة من 100 اسم رمزي حصلنا عليها من أولئك الذين تجسَّسوا للشتازي في بريطانيا.[6] عملنا جاهدين على فكّ هذه الأحجية البوليسية، مستعينين بتقارير الاستخبارات المصنَّفة *Streng Geheim* (سري للغاية)، ومحاولين وضع جدول بأسماء الأفراد الذين يستطيعون تجميع معلومات كتلك. وخلال محادثات أجريناها مع بعض النجوم السابقين لاستخبارات ألمانيا الشرقية في المقاهي في الهواء الطلق، تلقّينا دورةً سريعةً في فنون الخيانة.

كان صحيحاً أنه تم تجنيد بعض الجواسيس بالإكراه. فقد كان وولف مشهوراً حقاً بجواسيسه الجنسيين الذين يغرون خصومهم ويجعلونهم في أوضاع مخلّة. وكان حقيقياً أيضاً أن هناك حالات محزنة، أمثال المُحاضِرين في بعض الجامعات البريطانية الذين صدّقوا الأيديولوجية. لكنْ على العموم، وحسبما قال المجنِّدون السابقون، كانت عملية إغواء الجاسوس طويلة، وجوهرها أمرٌ بسيطٌ؛ وهو التصادق مع أحدهم.

وقد قال أحد ضباط الشتازي الذين التقيناهم: "لا أستطيع أن أتذكّر أي جاسوس مفيد لم يجنّد نتيجة صداقة حقيقية".

لقد عرَّف جوهر مسألة التجنيد الذي يهمّنا. فبإمكان أي بلد محاولة الحصول على جواسيس بتقديمه مكافآت مالية ضخمة، وهذا ينجح أحياناً، لكن هذا النوع من الجواسيس أقل موثوقية في الصميم. لكنْ إذا كان ضابط الشتازي هذا محقاً وكانت الصداقة هي المفتاح، فإن نشوء هذا المستوى من الثقة يتطلب وقتاً. وسيحتاج المجنِّد إلى قضاء وقت كافٍ مع الشخص الذي سيصبح جاسوساً، منشئاً

صداقة معه بناءً على تجارب مشتركة- الجلوس في المقاهي، أو زيارة المعارض، أو قضاء العطل معاً- وهذا سيجعله جزءاً من حياة الشخص الآخر في نهاية المطاف. ثم بغض النظر عن الآراء السياسية، إن الطبيعة البشرية تُذكي التعاطف المطلوب لإقناع ذلك الشخص بمساعدة صديقه في عبور الخط وخيانة بلده.

"أفضل وسيلة لتجنيد أحدهم كانت من خلال الصداقة، من خلال فهمٍ مشترك". هذا ما قاله عجوز آخر من رجال الشتازي كان يعمل في لندن وكان اسمه الرمزي إيكهارت. "التجنيد عمليةٌ تستغرق وقتاً طويلاً. وسيُدرك بعض الأشخاص تدريجياً أنني من الاستخبارات. وإذا تابَعوا التواصل معي، فسأعرف عندها أنه يمكنني بدء العمل".

سمعتُ المزيد من أصداء هذه النظرية- ومضامينها بالنسبة إلى الجواسيس الذين يحتاج إليهم المجتمع الديموقراطي- عندما أجريتُ مقابلة مع أحد مجنِّدي وكالة الاستخبارات المركزية المشهورين، وهو رجل معروف في المهنة بأنه شخص نجح في إقناع ديبلوماسي سوفياتي بأن يصبح عميلاً أميركياً؛ وهذا نادراً ما يحصل. كان رجل وكالة الاستخبارات المركزية شديد الكتمان في البداية. وقد استفززته بقولي إن التجسّس كان فاشلاً في أغلب الأحيان، وإن وكالة الاستخبارات المركزية ليست سوى برنامج مُكلف للتعامل مع الفُجائيين. عندها، انطلق لسانه في الكلام، واستمر بالإصرار على عدم وجوب استخدامي اسمه. فلندعُه فرانك.

"كانت لدينا طرائقنا في العمل، وكانت العملية تتطلب سلوك مسار طويل؛ إذ لا يمكنك أن تقترب من الشاب فقط وتقدّم له عرضاً". وتابع فرانك قائلاً إن الصبر في هذه اللعبة الطويلة يبدو في طور الاحتضار، وهنا أصبحت كلماته ثقيلة. فوكالات التجسّس تتصرف بناءً على أوامر السلطة السياسية، وعندما يفتقر السياسيون للحنكة، ولا يعرفون متى يتصرفون ومتى لا يتصرفون، بإمكانهم تكبيل أيدي الوكالات. وإذا خضعت الحكومة لضغط على مدار الساعة من وسائل الإعلام للقيام بعمل فوري، فستفتقر إلى الصبر الاستراتيجي، وسيفقد جهاز

استخباراتها الصبر التكتيكي؛ وهو نوع الصبر المطلوب لتحقيق تجنيد جيد. برأي فرانك، أصبح السياسيون الأميركيون في القرن الحادي والعشرين؛ خاصةً بعد هجمات 11 سبتمبر، غير قادرين على منح فن الاستخبارات فرصةً. وقد تشبّثوا بفكرة القيام برد مباشر (كاجتياح أفغانستان) لأنهم كانوا في فورة غضب؛ حتى لو استلزم الخروج من الوضع مجدداً عقداً من الزمن، مثلما حصل في أفغانستان.

وبحسب قول فرانك، في اللعبة الطويلة التي نفعَت، كان هو المجنِّد؛ أي الرجل في الواجهة الذي يتولّى العلاقة المباشرة بين الرجلين. لكنْ خلافاً للصورة الشعبية، كانت هذه اللعبة جماعيةً؛ بوجود أبحاثٍ ودعمٍ هائل من محطته (الفريق المحلي لوكالة الاستخبارات المركزية) ومن المركز الرئيس في فيرجينيا. "فقد ينتبهون إلى الفوارق الطفيفة التي لم ترها بنفسك". وحتى إن الخطوات التي قد تبدو اعتيادية جداً كانت معدّة سلفاً. "ناقشتها مع مديري: هل يرشدني؟ لقد أجروا تحقيقاتٍ مفصّلة".

كانوا يسمّون الجواسيس المحتملين "إنمائيين". فقد كانوا يعتبرونهم "مشاريع"، ويبذلون جهوداً كبيرةً للتفكير بأنسب طريقة لإقناعهم وتجنيدهم. وفقط عدد قليل جداً في وكالة الاستخبارات المركزية يستطيعون التجنيد بالاعتماد على "قوة الإرادة"؛ بأن يجلسوا مع شخصٍ ما ويُقنعوه بحججٍ مسالمة أن الخيانة هي الخيار الصحيح.

فكل شخص بحاجة إلى سببٍ مُقنعٍ لكي يتجسّس. وكما يقول فرانك: "يجب أن تكون هناك مصيدة". فالمال ينفع، ولكنْ "لتسهيل الأمور بشكل رئيس". وهناك أشخاص يتم إقناعهم بقضية نبيلة، حيث يُصوَّر لهم التجسّس كعمل مثاليّ، وحتى إن المجنِّد يستطيع إقناع المجنَّد بأنّ هذا "كله في خدمة الديموقراطية". ولكن يقول فرانك إن كل هذا "كلام فارغ" إلى حد كبير. ومثلما يشرح متمرِّسٌ آخر في وكالة الاستخبارات المركزية: "زالت الأيديولوجيات مبدئياً في الثلاثينيات". وما كان ينفع حقاً كان أبسط بكثير، أي وجود تلك "العلاقة الشخصية الوثيقة بشكل

كبير مع الشخص". ومن دون وجود مهارة في إنشاء تلك الصداقات، "لم تكن قادراً على النجاح".

ويتابع فرانك بالقول إنه عليك بعد ذلك تحريف الصداقة، وهذا ربما أصعب شيء عليك أن تتعايش معه. إذ نادراً ما يكون سبب اهتمامك بالصداقة نقياً. وتحتاج في تلك المرحلة إلى "طرح السؤال" بطريقة أو بأخرى، لكي يُدرك الشخص أنك أردت مصادقته طوال ذلك الوقت بهدف القيام بدورٍ محدَّد: أن يكون جاسوسك. كما تحتاج إلى مكان هادئ داخلك لكي تنسحب إليه. ويجب أن تبقى مستقلاً. فبنظر وكالة الاستخبارات المركزية، ستكون قد ارتكبتَ جريمةً إذا "أحببت" مصدرك، وإذا خسرت موضوعيتك، وإذا أصبحت الطرف الذي يتم التلاعب به. "عليك في مرحلة من المراحل أن تكون مستعداً للتلاعب بالصداقة. ولا يستطيع كل شاب فعل ذلك. لن يجعلك ذلك شخصاً رائعاً، ولن يجعلك بالضرورة أسعد إنسان في العالم".

إن التجسّس خطير، ومن المحتمل أن يكون المجنِّد يقود صديقه الجديد إلى حتفه. يقول فرانك: "أنت تخاطر بحياة الأشخاص، ولديك مسؤولية أخلاقية تجاههم، ثم عليك تسليمهم إلى ضابط فريق جديد في وقت من الأوقات. أنا أقلق دائماً من تجنيد شخصٍ ثم تسليمه إلى آخر؛ فهذا أشبه بالاستغناء عن طفلٍ". لكنه فعل ذلك على أي حالٍ، فهذه وظيفته. وقد تأكّد من أن عملاءه يعرفون تماماً ما انخرطوا فيه.

يوافق مشغِّلو ستيكنايف على أن التجنيد كان صداقةً مع ذلك التحريف. "إنهم أصدقاؤك أو يصبحون كذلك، ولكنها أيضاً صداقة من طرف واحد. فأنت لن تدعوهم أبداً إلى عشاء القوات الخاصة، أو تُخبرهم عن زوجتك أو عن حياتك الحقيقية". يستطيع المشغِّل إنشاء علاقة شخصية وقوية مع عميله، لكن هناك مقداراً من التمثيل. فالمشغِّل والعميل بحاجة إلى المحافظة على بعض الانفصال بينهما.

الجزء البارع في عملية التجسّس لمكافحة الإرهاب في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات لم يكن مجرد تجنيد أشخاص، بل أيضاً توجيه حياتهم الإرهابية إلى موضع مفيد ضمن المؤسسة. وفي حالة ستيكنايف، تمّت مساعدته وإقناعه باسترداد ثقته بنفسه، وباعتلاء مراتب في الجيش الجمهوري الإيرلندي مجدداً. وانتهى به المطاف بأن أصبح الرجل الثاني في سلّم قيادة جناح مكافحة التجسّس في الجيش الجمهوري الإيرلندي، ومهمته اصطياد ذلك النوع بالذات من "الخونة" الذي أصبح هو نفسه عليه. وكانت الوحدة المعروفة أيضاً بـ nutting squad (فرقة جمع الجوز) مشهورة بإطلاق النار على الركب، وتنفيذ عقوبات أخرى بحق الخونة.

كان المنصب واعداً. فقربه من قيادة الجيش الجمهوري الإيرلندي يتيح له أن ينقل مخاوفهم وشكوكهم. وحتى إن كان ضالعاً في المعاملة الوحشية للخونة، فلن يكون ضالعاً مباشرةً في أي هجوم إرهابي. كما كان دوره يوفّر له حماية ذاتية: فسيكون من بين الأوائل الذين سيسمعون عن المخاوف بوجود خُلد في صفوفهم.

وفقاً لشخص مطّلع، أتت هذه الفرصة في العام 1984. فقد أُلقي القبض على مايكل بيتاني، الضابط في الـ MI5، وهو يحاول بيع أسرار للسفارة السوفياتية في لندن. حُكم عليه بالسجن لمخالفته قانون الأسرار الرسمية، حيث حصل إهمال أثناء احتجازه على ذمة التحقيق في سجن واندسوورث، ووُضع في الزنزانة نفسها مع سجين من الجيش الجمهوري الإيرلندي ويدعى بات ماغي، متّهم بزرع قنبلة برايتون. كان بيتاني قد خدم بشكل مكثّف في إيرلندا الشمالية، ورغم أنه ندم على ذلك لاحقاً وأخبَر MI5 بما فعله، فقد تقرّب من ماغي في السجن، ولم يستطع مقاومة إعطائه تفاصيل عن العملاء البريطانيين الذي عرف عنهم في الجيش الجمهوري الإيرلندي. وماغي بدوره مرّر تلك التفاصيل إلى أحد زوّاره في السجن.

وكانت من ضمن التسريبات تفاصيل عن ستيكنايف نفسه، والذي من حسن حظه كان أول من تسلَّم تلك المعلومات، وكان قادراً على إخفائها. ولكن انكشفت مصادر أخرى نتيجة خيانة بيتاني، ومن بينها ويلي كارلن العميل لدى MI5، ولاحقاً فْرُو. كان ضابط صف سابقاً في الجيش البريطاني من لندنديري. وعندما تقاعد من الجيش، تطوَّع في الاستخبارات، وأُعيد إرساله ليتقرّب من مارتن ماكغينيس الذي كان وقتها قائد الجيش الجمهوري الإيرلندي في المدينة، وعضواً في القيادة الشمالية التي تضم أربعة رجال. كان اختراق كارلن- تحت الاسم الرمزي 3007 ثم فوكس- ناجحاً، لدرجة أنه تمّ ترشيحه لقيادة شين فين في انتخابات المجلس. وقد أبلَغ فْرُو أنه أصبح ضالعاً، لدرجة أنه ساعد شين فين في عملية تزوير الانتخابات. لكنْ كان يجب نقل كارلن بعد خيانة بيتاني.[7]

كان دور ستيكنايف سراً دفيناً، ولكن قواعد صدارة الشرطة فرضَت على فْرُو إبلاغ شرطة أولستر الملكية عنه، وحتى السماح لكبار ضباط شرطة أولستر الملكية بمعرفة هويته. "كان من المفترض أن يبقى السر مع رئيس الفرع الخاص لشرطة أولستر الملكية فقط، ولكنه بالطبع تسرّب إلى الرُتب الأدنى"؛ حسب قول أحد مشغِّلي فْرُو. ومهما تكن درجة السرية التي كان يُفترض أن يبقى أمر ستيكنايف عليها، لم تعطه مكانته بطاقة "خروج من السجن".

وفي إحدى المرات، اعتقل ستيكنايف و"فريقه الأمني" خائناً مشبوهاً. ورغم أنهم عصبوا عينيه، إلا أن السجين تعرَّف على صوت ستيكنايف، وتمكَّن من الهرب بالقفز من نافذة، وهرع إلى المخفر، واتّهم ستيكنايف بعملية الاختطاف. ففرّ ستيكنايف إلى الجمهورية عبر الحدود بعد أن أصبح رجلاً مطلوباً للعدالة.

خلال فترة فراره، لم يستطع ستيكنايف أن يفهم سبب عدم قدرة فْرُو على جعل شرطة أولستر الملكية تُسقط التُهم عنه. "لقد اعتقدَ أننا خارقون، وأن لا أحد يستطيع أن يمسّنا"، قال أحد العالمين ببواطن الأمور. لكن الحقيقة كانت أنهم لم يريدوا أن يتدخَّلوا، حتى إن كانوا يستطيعون ذلك. وقد كانت لمسألة الفرار نتائج

مُذهلة في ما يتعلق بمصداقية ستيكنايف ضمن الجيش الجمهوري الإيرلندي. وقد حصل على معلومات استخباراتية رائعة من الجنوب أيضاً (وكان ذلك يعني بالنسبة إلى فْرُو اجتماعات مرعبة مع عميلهم في "بلد قطّاع الطرق" بالقرب من الحدود، نظراً إلى كونه لم يكن مسموحاً لضباط فْرُو بالعمل في الجمهورية).

توضِّح التُهم التي وجِّهت ضد ستيكنايف، والتي أُسقطت في نهاية المطاف، أصعب جزء من عملية تشغيل العملاء أمثاله، وأعني كيفية منعه من أن يكون متواطئاً في الجرائم.

عندما انكشفت هوية ستيكنايف المزعومة بأنه سكابّاتيتشي، نشر مصدران تفاصيل تجسّسه في الإعلام. أحدهما كان الجندي المتقاعد وعميل فْرُو السابق بيتر كيلي الذي استخدَم الاسم "كيفن فولتون"، والآخر كان عضو فْرُو السابق الساخط إيان هورست الذي استخدَم الاسم "مارتن إنغرام". لم يكن كلاهما ضابطَي فريقٍ أو حتى على علاقة ولو بعيدة مع ستيكنايف، ولكن عملهما مع فْرُو أتاح لهما تجميع بعض التفاصيل عن الحالة. وقد زعما أنه تم السماح لستيكنايف بالمشاركة في الجرائم الخطيرة.

وقد كتَب هورست في تقريره عن الحالة:

> من حقائق الحياة أن أي مُخبِر داخل أي منظمة شبه عسكرية لا يستطيع أن يصل إلى قلبها من دون أن يرتكب جرائم جنائية، وهنا تواجه الوكالات التي تستخدم مثل أولئك المُخبرين معضلةً. وعليها أن تسأل نفسها عن الحد الأقصى الذي يمكنها السماح لأمثال أولئك العملاء بالذهاب إليه، ومتى تصبح الكلفة عالية جداً.[8]

وفقاً لكيلي، وهو كاثوليكي من نيوري، كان البريطانيون مضطرين إلى السماح لستيكنايف بالمشاركة؛ ليس فقط في إطلاق النار على الركبة وتعذيب خونة الجيش الجمهوري الإيرلندي المزعومين فحسب، بل في قتل العديدين منهم أيضاً. وقال كيلي إن ستيكنايف كانت لديه أيضاً معرفة مسبقة بوجود خطة لنصب كمينٍ

لضابطَين كبيرين في شرطة أولستر الملكية وقتلهما على الحدود ولم يفعل شيئاً لإحباط ذلك.

بعدما كان جندياً في الحرس الإيرلندي الملكي، عاد كيلي إلى الحياة المدنية وتغلغَل في صفوف الجيش الجمهوري الإيرلندي، عاملاً على مر السنوات لصالح فْرُو وشرطة أولستر الملكية والجمارك البريطانية وMI5. وقد زَعَم أن البريطانيين أصدروا تعليمات لعملائهم بالمشاركة في الهجمات ليحافظوا على غطائهم: "أبلغني مشغِّلوي بأن أفعل أي شيء لأكسب ثقتهم. وقد فعلتُ ذلك. كانت الأوامر تقضي بأنني إذا وجدتُ نفسي في حالة لا أستطيع فيها الوصول إلى مشغِّليَّ وكنت مضطراً إلى مخالفة القانون، فيجب أن أحاول عدم قتل أحد".[9]

كانت استراتيجية أجهزة الاستخبارات تقضي بمحاولة تخفيف الأخطار، لكن فولتون قال إن ذلك لم ينجح دائماً:

> كان عليّ التصويب فوق الهدف أو تفجير القنبلة قبل أوانها. لكنّ ذلك غير ممكن دائماً. فلو أخفقتُ في كل مرة، فسيقتلني أفراد الجيش الجمهوري الإيرلندي بأنفسهم. لا تنسَ أنني أخاطر أيضاً بتلقي رصاصة من الجيش والشرطة. لقد حضّرتُ متفجرات، وساعَدتُ في تطوير أنواع جديدة من القنابل، ونقَلتُ أسلحةً. وإذا سألتني عمّا إذا كنت قد قتلتُ أحداً، فسأجيبك: "لا". لكنْ إذا سألتني عمّا إذا كانت المواد التي تعاملتُ معها قد قتلت أحداً، فسيتوجب عليّ أن أقول إن بعض الأشياء التي ساعَدتُ في تطويرها قد قتلت أشخاصاً. أكرِّر، كان مشغِّلوي يعرفون كل شيء أقوم به، ولم يطلبوا مني لي مطلقاً ألا أفعل أحد الأشياء التي ناقشتها معهم. فكيف يمكنك ادعاء أنك إرهابي فيما أنت لا تتصرف كواحد؟ لا يمكنك ذلك. عليك فعل ما يفعلونه. والأشخاص الذين كنتُ معهم كانوا عنيفين جداً، وقد ارتكبوا جرائم قتل كثيرة. وإذا لم أكن مفيداً لهم، فسأكون بلا فائدة للجيش أيضاً. كان عليّ أن أفعل ما يفعله الرجل الواقف بجانبي.[10]

كان لدى كيلي بعض الضغائن، ولا تزال هناك بعض الأسئلة عن أجزاء في تقريره بلا إجابة. وفي العام 2013، اعتبره القاضي الإيرلندي بيتر سميثويك، الذي

قاد تحقيقاً في جريمة قتل ضابطَين في شرطة أولستر الملكية، وادعاءات التواطؤ المحيطة بالقضية، أنه "شاهدٌ مؤثّرٌ جداً وجديرٌ بالثقة، ودليله صادقٌ".[11] لكنّ آخرين وجدوا أن كيلي قد غيَّر رواياته مرات عديدة.

ومما علمتُه من عدة مقابلات مع أشخاص ضالعين في التجسّس في إيرلندا الشمالية، إن الزَعم بأن الأجهزة الأمنية قد سمحت للجيش الجمهوري الإيرلندي بقتل شخصٍ ما بقصد حماية مُخبرها كانت فكرةً لا يصدّقها عقل. فهل سُمِح للعملاء بارتكاب جرائم أخرى أقل من القتل؟ بالطبع. حتى إن رجال الشرطة والاستخبارات في أولستر كانوا يستخدمون مصطلحاً للجرائم التي سَمَحوا بها: freebies (مجانيات). وهل جنحت الأمور بشكل مأساوي أحياناً؟ هذا ممكن، وحتى إنه محتمل كثيراً.

كانت القضايا ذات الصلة قانونيةً وعملانيةً وأخلاقيةً. ففي السبعينيات والثمانينيات، لم يكن القانون الإنكليزي ينصّ على السماح للعميل بارتكاب أي جريمة. فقد يُغَضّ الطرف عنها، ولكن لا يمكن الموافقة عليها. أما من الناحية العملية، فقد كان ذلك خطيراً أيضاً. فإذا تورَّط العميل في الإعداد لجريمة قتل فقد يُقتَل هو نفسه أو يُعتقَل، مما يجعله بلا فائدة. ثم كانت هناك المسألة الأخلاقية، وهي على الأرجح أقوى عامل هنا. لم يكن أحد في الجيش البريطاني أو شرطة أولستر الملكية يرغب في أن يكون ضالعاً في أي شيء يمكن أن يؤدي إلى قتل جنديٍّ أو شرطيٍ زميلٍ، أو حتى في قتل أحد المارة الأبرياء. كانت هذه حرباً تُخاض على أرض الوطن، وسيكون من غير المعقول الضلوع في قتل رفيقٍ أو جارٍ. وقد قال أحد الأشخاص الضالعين بالمسألة عن كثب: "سيكون ذلك أبشع شيء يخطر على بالك. لا يمكنك أن تتخيَّل كم سيبدو ذلك مقيتاً".

لتجنّب قتل كهذا، وضعت المملكة المتحدة استراتيجيةً متطوّرةً كان يُستهان بها كثيراً في أغلب الأحيان بسبب الحساسية في زمن الوسائل والتكنولوجيا المستخدمة،

وهي تقضي بتعقّب القنابل والأسلحة النارية المحظورة وتعطيل فعاليتها، وكذلك بإجراء اتصالات خفية مع العملاء للتعامل مع الحالات الطارئة.

كانت الوسيلة القياسية الأولى هي جعل القنبلة غير عاملة وغير مؤذية. وكانت فِرقٌ خاصةٌ من أخصائيي تفكيك القنابل الخفيين، بقيادة MI5، تقتحم منزلاً أو مخبأ أسلحة وتعبث بالأجهزة. وإذا لم تنفجر القنبلة لاحقاً، فلن يُثير ذلك شكوكاً كبيرة؛ ففي النهاية، معظم أجهزة الجيش الجمهوري الإيرلندي كانت محلية الصنع وكانت الأخطاء أمراً متوقعاً.

حتى إن العملاء أنفسهم أحياناً لم يعرفوا ما حصل، وربما ظنّوا أن البريطانيين فطِّين؛ لأنهم لم يعرفوا عن النشاطات السرية التي تمّ تنفيذها لتخفيف الخطر. ويقول تقني قنابل سابق تابع لـــ MI5 إنه "كان هناك عملاء يعتقدون أننا كنا نسمح لهم بزرع قنبلة، ولا يدركون أننا جعَلناها غير فعّالة في السر".

ورغم أنه لم يعد عضواً في وحدة خدمة نشطة، وبالتالي لا يحتاج منه الجيش الجمهوري الإيرلندي إلى أن يتعامل مع البنادق أو القنابل، غالباً ما بلّغ ستيكنايف عن مخابئ الأسلحة أو الخطط لشنّ الهجمات. وبعد تلقي مثل تلك التقارير، كانت البنادق تُزال سراً في أغلب الأحيان، وتُطلَق منها النار في أحد حقول رماية الجيش من أجل الحصول على البصمة البالستيّة للسلاح (سيُستعان بهذا لاحقاً لمعرفة ما إن كانت قد استُخدمت في أي هجوم).

كما تم تركيب أجهزة تعقّب في بعض البنادق أيضاً، في عملية يسمّيها العالمون ببواطن الأمور "jarking". كانت هذه طريقة فعّالة ومتطوّرة جداً في ذلك الوقت لحماية ستيكنايف وبقية العملاء. فإذا صادَرَ البريطانيون البنادق، فإنهم يخاطرون بكشف المُخبِر. ولكنْ إذا تم تعقّب تبادل البنادق من شخص إلى آخر، فيمكن عندها مصادرتها لمنع استخدامها، ولن يكون أحدٌ متأكداً من هوية مَن أخبَرَ الجيش.

وإذا طُلب من ستيكنايف في يوم من الأيام ارتكاب جريمة قتل أو جريمة خطيرة أخرى، فقد تم تزويده بأداة تجسّس أخرى صغيرة وذكية أيضاً لكي يستخدمها في حالات الطوارئ. كانوا يسمّونها "حبة المرض"، وهي تشبه حبة الأسبرين العادية ويمكن إخفاؤها بسهولة. وعند ابتلاعها، ستجعلك تهرع إلى المرحاض لتتقيأ بشكل خارج عن السيطرة، ولن يريدك أي إرهابي عاقل أن تكون معه في المهمة التي سينفذها وأنت في تلك الحالة.

وكملاذ أخير، كان ستيكنايف يحمل أيضاً زر ذعر؛ وهو مفتاح سري داخل جهاز راديو عادي الشكل في مطبخه سيستدعي بواسطته مساعدةً من الجيش.

رغم كل تلك التدابير، هل تجنّبت فِرْو التورّط في القتل في حالة ستيكنايف والآخرين؟ لن تنكشف الحقيقة الكاملة على الأرجح أبداً. وفي حين أن الجيش بذل ما بوسعه لإنقاذ الأرواح، إلا أن العملاء أيضاً كانوا يضعون حياتهم على المحك. وبهدف الصمود، بينما كانوا يترنّحون بين الظروف المختلفة للعالَمين اللذين عاشوا فيهما، كان هناك على الأرجح الكثير من الجرائم التي لم يُخبر العملاء مشغّليهم عنها قطّ. ومثلما قال ضابطٌ سابقٌ في شرطة أولستر الملكية: "هل تعتقد أن العميل ليس ذكياً بما فيه الكفاية ليُدرك أن هناك أشياء لا يجب أن يُطلع مشغّله عليها؟ كانت هناك أوقات من مصلحتهما معاً أن يلتزم فيها بالصمت".

كان مارتن ماكغارتلاند مُخبِراً جنّده الفرع الخاص لشرطة أولستر الملكية ليتطوّع في الجيش الجمهوري الإيرلندي. وروى لاحقاً الطرائق العديدة التي ساعده فيها مشغّلوه ليُحبط الهجمات؛ بما في ذلك نقع قنابل السيمتكس بمواد كيميائية خاصة لمنعها من الانفجار.[12] لكنه عميلٌ صرّح علانيةً أنه أُجبر على التواطؤ في جريمة قتل الجندي طوني هاريسون من فوج المظلّيين البريطانيين في شرق بلفاست. إذ لم يكن من الممكن إيقاف جرائم القتل دائماً.

> عرفتُ عندها أنني كنت أقود إلى مترل جندي يريدون قتله بدم بارد. تساءلتُ عمّا يجدر بي فعله، وتساءلتُ إن كان هناك أي شيء أستطيع فعله الآن لأنقذ حياة الرجل. وبينما كنت أقود، دعوت لكي يكون فيليكس [اسم الغطاء لمشغّله في شرطة أولستر الملكية] قد تمكّن من تتبّع الرجل ونقله إلى خارج المترل، ولكنّه لم يُخبرني بشيء عن الجندي منذ أن فحصنا المنطقة لأول مرة منذ شهر. فكّرت في ما إذا كان عليّ أن ألجأ إلى أي حيلة؛ كالمماطلة في القيادة مثلاً، أو الاصطدام بمركبة أخرى وكأن ما حصل حادثٌ... أنزلتُ زجاج نافذة السيارة لكي أسمع أي طلقات نارية إذا حصلت، وتضرّعت إلى الله كي لا أسمع شيئاً. انتظَرتُ ما بدا لي دهراً من الزمن، لكن المدة كانت على الأرجح أقل من 60 ثانية، ثم سمِعتُ الطلقات النارية- واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس- عددهًا، وعرفت في صميم قلبي أن إنساناً سيئ الحظ قد قُتل بدم بارد.[13]

كان وفاء ماكغارتلاند واضحاً. فقد بذل وفْرُو كل ما بوسعهم لإحباط خطط الجيش الجمهوري الإيرلندي. لكنْ في مكان آخر، كان هناك دليل على ازدواجية كبيرة جداً في تعامل قوات الأمن مع المجموعات البروتستانتية شبه العسكرية؛ تلك التي أعلنت الوفاء للتاج، حتى عندما كانت جاهزة لتأييد جرائم القتل الطائفية للكاثوليك بشكل سافر. ومثلما كشفت التحقيقات الرسمية لاحقاً، تواطأت أقلية من مشغّلي العملاء في شرطة أولستر الملكية وفْرُو على حد سواء لقتل الشخصيات الجمهورية البارزة.

إن خطر استنتاجات كهذه- سواء أكانت صحيحة أو خاطئة- هو أنها تحجب نجاح بقية عمليات فْرُو وكل الأرواح التي أنقذوها؛ الكاثوليكية والبروتستانتية معاً. ووفقاً للأشخاص الضالعين عن كثب أكثر من غيرهم، ساعد ستيكنايف في إحباط عشرات الهجمات، ورتّب مصادرة العديد من الأسلحة؛ مما أنقذ عشرات الأرواح.

لسنوات عديدة، كان ستيكنايف نجم الجواسيس الإيرلنديين الشماليين. وعندما تم الكشف عن وجوده أخيراً، تساءل مشغّلوه السابقون عن سبب استغراق ذلك

كل ذاك الوقت. ففي النهاية، كانت هويته قد أصبحت مشهورة جداً في دوائر فرض القانون لأجل سلامته الشخصية.

في الثمانينيات، كانت لفْرُو "مفرزة" خاصة في مقر الجيش في ليسبورن تستجيب مباشرة لمدير الاستخبارات- ويسمّى السكرتير السياسي المساعد (ASP)، ويكون من MI5 عادة- وتعمل معه عن كثب. وكانت فْرُو تتواجد في مبنى نقّال معروف "بحفرة الجرذان"، وكان مُجمل هدفها تقريباً تشغيل ستيكنايف.

مع مرور الوقت، وسَّع ستيكنايف دائرته، فتصادَق مع معظم قيادة الجيش الجمهوري الإيرلندي، وبالطبع مع أولئك المقيمين في بلفاست. وكانوا يتجوّلون في أرجاء البلدة ويتبادلون الأحاديث، غير مُدركين أن هناك جهاز تنصّت متطوّراً يسجِّل كل كلمة يقولونها مخبّأً خلف جهاز الراديو في سيارته. وهكذا، ستصبح تسجيلات ستيكنايف لكبار قادة الجيش الجمهوري الإيرلندي وهم يتكلمون في سيارته تُحفةً أساسيةً في أي جولة سرية قد يقوم بها رئيس الوزراء أو مسؤولو وايتهول رفيعو المستوى إلى مقر الجيش. ويختتم أحد المشغِّلين كلامه بالقول إنه "تم تجنيد ستيكنايف للتجسّس التكتيكي، لكن قيمته أصبحت استراتيجية مع مرور الوقت".

في إحدى المرات، عندما أراد ستيكنايف شراء سيارة جديدة، حاوَل تقنيون من MI5- معروفون لدى فْرُو لسببٍ منسيٍ منذ زمن طويل بـــ "المبذّرين"- إزالة جهاز التنصّت الموجود، ولكنه سقط داخل الهيكل لسوء الحظ. ولكي يتجنّبوا اكتشافه، فجّروا السيارة بأكملها في حقل رماية للجيش. حضر ستيكنايف ليشاهد العملية، حتى إنهم سمحوا له بالضغط على زر التفجير.

وبعد فترة، أصبح واضحاً ما كان يحصل. فمن بين الدوافع الرئيسة للتجسّس، أصبح "حب اللعبة" هو الدافع الأساسي. "لقد أحبّ التضليل والخداع، والمكائد، وفكرة أنه يعرف شيئاً لا أحد غيره يعرفه".

قيل لاحقاً إن دافع ستيكنايف كان المال، ولكنّ هذا يبدو أمراً غير مرجَّح. فقد كان يتقاضى حوالي £300 لكل اجتماع، على ذمة أحد العالمين بخبايا الأمور. "كنا نراه مرة كل عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، لذا كان يقبض حوالي £10,000 في السنة. وهذا مبلغ بالكاد يُعتبر ثروةً. لم يفعل ذلك للمال، بل أحبّ الإثارة وحسب".

خلافاً للشرف والمبادئ، غالباً ما حاولَت وكالات الاستخبارات البريطانية المتنافسة إغراء ستيكنايف ليبتعد عن فْرُو بتقديم مبالغ مالية أكبر له. وقد روى أن شرطة أولستر الملكية، التي كانت تعتقله كثيراً، قد عرضت عليه أكثر من £250,000 في إحدى المرات. لكنه كان- كالعديد من الجمهوريين- يعتبر الجيش، الممثَّل بفْرُو، موثوقاً أكثر من شرطة أولستر الملكية. قال إنه لن يعمل للشرطة- أو "المقشِّرين" (peelers)، مثلما كان وغيره من الجمهوريين يسمّونهم- أو حتى لجهاز الاستخبارات السرية.

ورغم أنه وجد المسألة مثيرةً، إلا أن ضغط العيش في خطر دائم كان يؤثر عليه أحياناً. ولهذا السبب، أرسَل الجيش في إحدى المرات قائده الأعلى في إيرلندا الشمالية، اللواء جون ويلسي، ليجتمع به سراً لثلاثين دقيقة في موقف للسيارات من أجل شكره وطمأنته. لكنْ أن تعيش كذبة خطيرة على مدى سنوات كان أمراً مرهقاً، لدرجة أن الذين عرفوه سيقولون إنه عندما انتهى الصراع رسمياً، كان قد أصبح رجلاً محطَّماً تقريباً.

في ما كان على الأرجح ذروة عمليات فْرُو في منتصف الثمانينيات، تقاطعت دروب بعض لاعبيها الرئيسين.

كان ستيكنايف-كجزءٍ من تواجده الجمهوري- وكالعديد من أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي الآخرين، يمثّله محامٍ مشاكس في بلفاست يدعى باتريك فينوكين. وبينما كان فارّاً، كان يتصل بفينوكين بشكل دوري، ويأمل بفارغ

الصبر أن يسمع أن التُهم ضدّه قد أُسقطت عنه، وأنه أصبح بإمكانه العودة إلى المترل. ومثلما كشفت سجلات التنصت على المكالمات الهاتفية، كان الهمّ الرئيس لفينوكين عند تكلمه مع ستيكنايف- الذي كان يتصل به من هواتف عمومية في الجمهورية- هو معرفة الوقت الذي سيمرّ قبل أن يستطيع ستيكنايف العودة وإصلاح بلاط حمامه (فكجزء من وظيفته العادية كبنّاء، كان قد زخرف مترل فينوكين).

في ذلك الوقت، كانت فْرُو تشغِّل عميلاً آخر أيضاً، وهو براين نيلسون الذي كان قد ناور ليصبح رئيس الاستخبارات لكبرى الجماعات الإرهابية الموالية؛ رابطة أولستر للدفاع (UDA). وقد مكّنه منصبه هذا من إنقاذ الأرواح بمساعدة الجيش، وذلك بتحذير الأشخاص- كاثوليك في أغلبهم- الذين كانت رابطة أولستر للدفاع تخطط لاغتيالهم. لكنْ تبيَّن لاحقاً أن نيلسون قد لعب دوراً شريراً أيضاً، مستخدماً اتصالاته بفْرُو؛ ليس لتمرير معلومات استخباراتية فحسب، بل لتجميعها أيضاً لصالح رابطة أولستر للدفاع وهجماتها.

في العام 1989، قُتل فينوكين- وكان يبلغ من العمر وقتها تسعة وثلاثين عاماً- في مترله، أمام زوجته وأولاده الثلاثة الذين اختبأوا تحت المائدة في غرفة الطعام. ولم يمرّ وقت طويل حتى ازداد الشك بأن نيلسون كان يعرف عن مخطط قتله، وأنه ساعد في تنفيذه أيضاً. فقد تبيَّن أن عميلاً للفرع الخاص بشرطة أولستر الملكية قد زوَّد أيضاً بمعلومات عن تهديد حياة فينوكين. كان هذا أسوأ بكثير من تقرير ماكغارتلاند، فبتعاونه في تنفيذ الجرائم التي لا يمكنه منعها، كان نيلسون يزعم أنه تم تحريضه على القتل.

أدّى موت فينوكين إلى انطلاق سلسلة من التحقيقات الرسمية، ومن بينها ثلاثة أجراها أمين الشرطة السير (ولاحقاً اللورد) جون ستيفنز- وقد أصبح مؤخراً مفوَّض شرطة العاصمة- الذي كشف تدريجياً، وعلى مدى أكثر من عقدَين من

الزمن، عن تعاون بين عصابات القتل البروتستانتية وعناصر قوات الأمن البريطانية. وكشفت التحقيقات أيضاً عن الوجود السري حتى تلك اللحظة للفْرُو.

تعطي قضية فينوكين مثالاً عن الأخطار الشديدة التي ترافق تشغيل العملاء داخل العصابات الإرهابية. ومثلما استنتَج التحقيق الثالث لستيفنز في العام 2003: "كان يُسمَح للمُخبِرين والعملاء بأن يعملوا من دون مراقبة فعّالة، وبالمشاركة في جرائم إرهابية".[14] وقال القاضي الكندي بيتر كوري، الذي راجَع قضية فينوكين من بين عدة قضايا أخرى، إنها كانت "دلالةً على أن الجهاز الأمني [MI5] والفرع الخاص لشرطة أولستر الملكية اعتبرا أن أمن العميل أهم من الحاجة إلى تحذير شخص مستهدَف كانت حياته في خطر".[15] وأخيراً، في العام 2011، ألقى تحقيقٌ أجراه المحامي الجنائي الرائد في المحاكم العليا البريطانية السير ديزموند دي سيلفا في قضية فينوكين اللوم على "عملاء الدولة"، لكنه لم يصل إلى حد اتهام الحكومة البريطانية بالتخطيط لموت فينوكين. وقد وجَد أنه "كان هناك فشل متعمَّد وخسيس من قِبل الحكومات المتعاقبة في التزويد بسياسة واضحة وهيكل قانوني ضروري لكي تجري عمليات تشغيل العملاء بفعالية وضمن القانون". وقد أدرك رئيس الوزراء دايفد كاميرون خطورة القضية، واعتذر من أجل "المستويات المروعة لتواطؤ الدولة" التي فصّلها دي سيلفا.[16]

كان ميلوديوس الاسم الرمزي لمصدر آخر من أفضل مصادر فْرُو في الثمانينيات. اسمه الحقيقي فرانك هيغارتي، وقد عاش في بوغسايد؛ وهي مقاطعة كاثوليكية في لندنديري لا منفذ لها إلى البحر. مثل ستيكنايف، جنَّدته فْرُو بعد أن علمت أنه رجل يشعر بالضعف. فقد طرده مارتن ماكغينيس من منصبه كأمين المخازن المحلي للجيش الجمهوري الإيرلندي، وهو في الأساس منصبٌ يتيح له العناية بإمدادات الأسلحة والقنابل. وقد اعترض ماكغينيس– الذي كان أخلاقياً جداً في ما يتعلق بالمسائل الجنسية– عندما هجر هيغارتي زوجته من أجل عشيقته.

بعد إخضاعه لدورة تدريب من فرُو، بدأ هيغارتي يستعيد ثقة الجيش الجمهوري الإيرلندي، واستأنف دوره السابق بعد فترة. ومن هذا المنصب بالذات، نبَّه البريطانيين في يناير 1986 إلى وصول شحنة كبيرة من الأسلحة من العقيد معمّر القذافي، وأخبرهم أنه تم تخزينها في ثلاثة مخابئ منفصلة في الجمهورية الإيرلندية.

كانت الشحنة كبيرة جداً، لدرجة أنه كان من المستحيل استخدام أساليب الجيش الاعتيادية بتعقّب البنادق من شخص إلى آخر قبل مصادرتها. فكمية البنادق كانت كبيرة جداً حيث لا يمكن تعقّبها، وكان خطر فقدان أثر بعضها عالياً. وبدلاً من ذلك، تم إخراج هيغارتي من إيرلندا الشمالية للحفاظ على سلامته، وأُرسِل إلى سيتينغبورن، كنتْ. لسوء الحظ، ترَك معظم أفراد عائلته وراءه، ولم يتمكن من مقاومة رغبته في مكالمتهم بشكل متكرر.

ووفقاً لأحد العاملين في فرُو، سجَّل تنصتٌ لـــ MI5 على المكالمات الهاتفية محادثةً بينه وبين مارتن ماكغينيس، الذي كان وقتها من كبار قادة الجيش الجمهوري الإيرلندي، يحثّه فيها على العودة. "لقد أصبح شريطاً شهيراً. وقد قال له: *عُد وستكون بأمان*". كرَّر هذا التطمين القائد البروتستانتي المُثير للفتن الموقَّر إيان بايزلي، الذي قال إن ماكغينيس قد زار والدة هيغارتي. "لقد أكّد للوالدة روز أنه إذا عاد فرانك إلى المنزل، فبإمكانه تسوية المسألة، وسيكون كل شيء على ما يرام"؛ حسبما قال بايزلي لمجلس العموم. كان ما قاله للأم "تأكيداً صارماً بالنسبة إلى أمٍ قلبها ممزَّق لفراقها ابنها، فأقنَعته بالعودة إلى المنزل. وقد رتّب السيد ماكغينيس لقاءً معه".[17]

في 25 مايو، وبعد بضعة أيام من عودة هيغارتي متسللاً إلى إيرلندا الشمالية، عُثر على جثته مرميةً بجانب الطريق. كان معصوب العينين، ومُصاباً بعدة طلقات نارية. وبعد يومين، نشرت آيريش نيوز أن "معظم الأشخاص الذين علموا باختفائه كانوا قد استغربوا قراره بالعودة إلى منزله في ديري منذ ثلاثة أسابيع، رغم معرفته أن

الجيش الجمهوري الإيرلندي يشتبه في تورّطه بمصادرة الأسلحة في سليغو وروسكومون".[18]

أصرّ ماكغينيس على إنكار أي دور له في عمليه قتله. وفي الواقع، قال وقتها إنه كان قد ترك الجيش الجمهوري الإيرلندي. وصرَّح في إحدى المرات لآيريش تايمز أنه ليس صحيحاً أنه أخبر أي شخص أن عودة هيغارتي كانت آمنة:

"هذا غير صحيح، وعائلة هيغارتي تعرف ذلك. يمكنني توضيح... ما حصل بالضبط، لكنّني إذا فعلتُ ذلك فسيكون الأمر مؤذياً جداً لعائلة هيغارتي". وقد زَعَم أن أحد أفراد العائلة يعرف ما حصل، "ولن أضع ذلك الشخص في مأزق". وبتكلّمه عن ماضيه بشكل عام، قال السيد ماكغينيس إن الناس في إيرلندا الشمالية لم يكونوا "مهووسين بأي شيء من هذا". وأضاف: "الواقع هو أن الماضي مكانٌ مظلمٌ جداً جداً للجميع".[19]

في العام 1993، حقّق البرنامج التلفزيوني Cook Report (تقرير كُوك) على القناة ITV في جريمة قتل هيغارتي كجزءٍ من نظرة أشمل على ماضي ماكغينيس. وبعد انتهاء حلقة البرنامج، تلقت القناة مكالمة هاتفية من فريدي سكابّاتيتشي، الرجل الذي تبيَّن لاحقاً أنه ستيكنايف. وفي محادثة مسجَّلة مع الصحافيين، و لم يتم نشرها إلا بعد عدة سنوات، قال سكابّاتيتشي إن ماكغينيس قد خدع هيغارتي لكي يعود، وكان "الحجة لاقتياده وإطلاق النار عليه". وتابع قائلاً: "إنه عديم الرحمة. يمكنني قول هذا بشكل لا لبس فيه. فالقرار النهائي كان له بشأن مصير أي مُخبِر؛ إن كان سيُقتل أم لا... وكان ما فعله هيغارتي بمثابة إهانة له. لقد اعتبر [ماكغينيس] المسألة شخصيةً جداً... هناك عيب كبير في رجاحة عقله... فتارةً يتضرّع، وبعد دقيقة واحدة، يخرج ويأمر بقتل أحدهم من دون أن يرفّ له جفن".

سأله المراسِل الصحفي عن كيفية معرفته كل هذه الأمور.

"في الواقع، لقد كنتُ في قلب الأحداث لفترة طويلة، أليس كذلك؟".

قال سكابّاتيتشي إنه خدم في القيادة الشمالية مثل ماكغينيس.[20] وقال أيضاً إنه كان يُفترَض "بأحد أصدقائه" أن يستجوب هيغارتي، لكن ماكغينيس وشخصين آخرين استجوبوه بدلاً منه، ثم أمر ماكغينيس بأن يُقتل.

إذا كان سكابّاتيتشي هو ستيكنايف حقاً وكان عميلاً لفرْو حقاً، فإن "الصديق" الذي أوشك على استجواب هيغارتي- عميل فرْو زميله- كان ربما سكابّاتيتشي نفسه. من السهل رؤية السبب الذي ربّما جعل الحادث يؤثر فيه كثيراً.

بعد تسميته ستيكنايف في الصحافة، سُئل سكابّاتيتشي عن أشرطة تقرير كُوك، فقال إنه لم يُدرك أنهم كانوا يسجّلون له حديثه. "بالنسبة إلى المحتويات، يجب أن تفهم أنني عندما تكلّمتُ مع الصحافيين، كنتُ قد خرجت من الحركة منذ حوالي ثلاث سنوات. شعَرتُ حينها بخيبة أمل، ومن الإنصاف القول إنني غادرتُ وأنا على علاقة سيئة معهم. والكثير مما قلتُه لم يكن صحيحاً...".[21]

بحلول التسعينيات، تولّى MI5 مهمة تشغيل ستيكنايف بدلاً من فرْو. وكان واضحاً أن مشغِّليه لم يوافقوا على اتصاله بالقناة ITV. وبناءً على طلب MI5، الذي أخبر البرنامج "تقرير كُوك" أن سكابّاتيتشي مُخبِرٌ قيّمٌ، لم يتم بث الشريط مطلقاً، وبقي مدفوناً لعشر سنوات؛ إلى أن ظهرت قصة ستيكنايف في مكان آخر.

صحيح أن العمليات البريطانية في إيرلندا الشمالية قد تُثبت قيمة الاستخبارات البشرية وتزوِّد بنموذج لكيفية تجنيد الجواسيس ضد الإرهابيين، إلا أن الذين يودّون تطبيق الدروس في مكان آخر يجب أن يُدرِكوا أولاً أن التجسّس يعمل دائماً تقريباً إلى جانب أحد أشكال الاستخبارات التقنية. وثانياً، أن التجسّس سيفٌ يصبح نصله كليلاً مع مرور الوقت.

لقد ذكرت من قبل بعض الطرائق التقنية المستخدَمة لدعم التجسّس. وبالاعتماد على تلك الطرائق بالإضافة إلى تلميحات العملاء، حُذِّر البريطانيون

بشأن العديد من الكمائن والقنابل، ومكّنهم امتلاك معرفة متطوّرة من تعطيل القنابل واعتقال الفاعلين. لكن الطرائق التقنية لعبت دوراً رئيساً أيضاً في منع الهجمات التي لم يحذّر منها الجواسيس. فعلى سبيل المثال، لعب اختراع أجهزة التشويش الإلكتروني دوراً هاماً في التقليل من شأن القنابل التي يتم التحكّم بها عن بُعد.

أصبح تأثير التجسّس ضعيفاً لأنه كان ضحية نجاحه. ويقول عضو سابق في فْرُو إن "الوضع كان أشبه بحساءٍ من الجواسيس. فهناك عدد كبير من الوكالات، وعدد كبير من العملاء. وكانوا يتعثّرون ببعضهم بعضاً باستمرار".

عند تقديمه الأدلة في البرلمان، شرح اللورد ستيفنز كيف خرجت الأمور عن السيطرة: "عندما تتكلم عن الاستخبارات، فإن ثلاثة أشخاص فقط من أصل الأشخاص البالغ عددهم 210 أشخاص الذين اعتقلناهم [فريق التحقيق] لم يكونوا عملاء. بعضهم كانوا عملاء لكل تلك... المؤسسات بالذات [شرطة أولستر الملكية، وMI5، والجيش]، ويتحاربون ضد بعضهم بعضاً، ويُنجزون أشياء لقاء مبالغ مالية كبيرة؛ وكل ذلك ضد المصلحة العامة، ويسبّب الفوضى والأذى في إيرلندا الشمالية".[22]

استغلّ العديد من الأشخاص اتصالاتهم بالأجهزة الأمنية البريطانية لمصلحتهم الشخصية. وفي حالة رجال أمثال نيلسون، كانت الغاية هي التواطؤ على ارتكاب جرائم. لكنْ كانت هناك أهداف إيجابية أيضاً. فالاتصال السري بين قيادة الجيش الجمهوري الإيرلندي وجهاز الاستخبارات السرية وفّر قناةً تمّ استخدامها في نهاية المطاف لتسريع عملية السلام. لكن هذا لم يكن تجسّساً. كان أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي المتورّطون- والوسيط، رجل أعمال- جهات اتصال استخباراتية، لكنهم لم يكونوا "عملاء"؛ أي أولئك الذين يخونون أي أسرار.

هناك الكثير من العلاقات الضبابية. ويشرح الصحافي المتمرّس في إيرلندا الشمالية ليام كلارك كيف أن المصطلح "عميل" بدأ يعني عدة أشياء مختلفة:

كان مارتن ماكغارتلاند، الذي تغلغَل في صفوف الجيش الجمهوري الإيرلندي في غرب بلفاست، عميلاً بالمعنى الخالص للكلمة. فقد انضم إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي بناءً على طلب مشغِّليه، ونفّذ ما قيل له بالضبط، و لم يبدّل وفاءه.

كان العديد من أعضاء فريق الأمن الداخلي للجيش الجمهوري الإيرلندي- أمثال ستيكنايف- عملاء مزدوجين. وقد وثق بهم الجيش الجمهوري الإيرلندي لإحباط عزيمة قوات التاج، ولكنهم "ازدوجوا" على يد أجهزة الاستخبارات ليتجسّسوا على الجيش الجمهوري الإيرلندي.

بعد ذلك، تصبح الأمور معقّدة أكثر. ومن الواضح الآن أن العديد من أولئك الذين مرّروا معلومات إلى السلطات ظنّوا أنهم في موقع القرار ضمن العلاقة، و لم يبلّغوا السلطات بكل ما يعرفونه. والعديدون منهم تعاونوا مع الشرطة لقاء خدمات؛ لإزالة الضغائن أو لإنقاذ أرواحهم. وربما لم يعتبروا أنفسهم عملاء قطّ، خاصة الموالين للسلطة.[23]

أي نزاع- بالأخص إذا كان حرباً أهلية طويلة جداً- يشبه النظام البيئي. فلا شيء يمكن النظر إليه بمعزل عن محيطه، ولا شيء حاسم بحدّ ذاته. يستطيع التجسّس المساعدة في قَمع إحدى المجموعات. ولكن مع مرور الوقت، تطوِّر المجموعة التي تستهدفها الاستخبارات، سواء أكان ذلك عن إدراك أو عن غير إدراك، وسائل دفاعية (مثلاً، تماشياً مع المثل القائل "البقاء للأقوى"، سيكون أعضاء بيرا الأكثر ضعفاً والمستهدَفون عُرضةً إلى الموت أو الاعتقال، بينما سيكون الأعضاء الأكثر وعياً أمنياً والمتحفّظون أكثر صموداً وارتقاءً في سلم قيادة المنظمة). إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فإن ستيكنايف وبراين نيلسون أيضاً قد أنقذا على الأرجح عشرات الأرواح البريئة؛ حتى لو جادل البعض بالقول إنهما أزهقا أرواحاً أيضاً. أنا أُدرك أنه كان هناك عملاء آخرون مهمون في إيرلندا الشمالية؛ أي أشخاصٌ ذوو أهمية موازية لستيكنايف قد لا يتم الكشف عن وجودهم أبداً. وهم أيضاً أنقذوا أرواحاً. لكنّ نجاحهم أيضاً عدَّل سلوك العدو تدريجياً. فحتى مع الاختراق الاستخباراتيّ الرائع في أعلى المستويات، فإن البنية المُحكمة المرتكزة على الخلايا التي استطاع الجيش الجمهوري الإيرلندي تطويرها كانت تعني أنه لم تتم

معرفة تفاصيل معظم الهجمات مسبقاً. ومثلما يقول كلارك، سواء أكان الجاسوس مصدراً من الشارع يحرّكه المال أو قائداً متمرّساً يسعى إلى تحقيق خيارات سياسية، فإن قلّة من الجواسيس كانوا عملاء بشكل صرف؛ أي يسلّمون سيلاً بسيطاً من الاستخبارات في اتجاه واحد.

كنتُ أناقش حملة مارغريت تاتشر لنَصب كمائن للجيش الجمهوري الإيرلندي مع ضابط سابق في فْرُو. كانت تسمّى باسم مضلّل، وهو سياسة "إطلاق النار بقصد القتل"؛ وهو مضلّلٌ لأن الجنود يُطلقون النار عادة لكي يقتلوا. كان هذا تعبيراً ملطّفاً لما كان يُزعَم أنه برنامج اغتيالات.

أشرتُ إلى أنه بالنظر إلى تلك الحملة بعد مرور ثلاثين سنة، في عالمٍ يُقتل فيه القادة الإرهابيون روتينياً بواسطة طائرات بدون طيّار، ستجد أن الشيء المذهل هو أنه لم تجرِ حقاً أي عملية "إطلاق نار بقصد القتل". فقلّة من كبار قادة الجيش الجمهوري الإيرلندي تم استهدافهم أصلاً.

وسألني: "لكنْ هل تعرف السبب؟".

فأجبت: "سلطة القانون. فذلك سيكون غير قانوني".

"نعم. هذا هو. لكنّ هناك شيئاً آخر أيضاً، وأنت تعرفه من قبل".

"أتعني اختراقنا للقيادة؟".

"لا يمكنك أن تتخيَّل إلى أي مدى وصل ذلك". وبعد تلميحه إلى أن مستوى الاختراق وفَّر حماية للقيادة، أضاف: "لكن السؤال كان دائماً: مَن كان يعمل لصالح مَن؟ وفي أي اتجاه كانت الأمور تسير؟".

تكلّمنا عن الأسماء، وبعضها فاجأني.

وسألتُ: "إذا كنّا ناجحين إلى هذا الحد، فلماذا استمرت الحرب كل تلك المدة الطويلة؟".

ردّ مشغّل العملاء القديم بحسم، وربما كان سبب ذلك أن مزاجه سيئ فقط لا غير: "مثلما قلتُ لك، لا يمكنني أن أكون متأكداً تماماً. فالسؤال المطروح دائماً كان: مَن كان يعمل لصالح مَن؟".

إذاً، التجسّس- حتى بالنسبة إلى أولئك المطّلعين على أسراره- لا يصلح لتقديم صورة واضحة وغير ملتبسة. فهناك متغيّرات كثيرة، وأولئك الضالعون تراودهم شكوك كثيرة. لكنْ نظراً إلى كل هذا، ليس كل شيء رمادياً وغامضاً. وبالنظر عبر ضباب التجسّس، من الممكن رؤية شيء يشبه شكل الشيء.

ورغم أننا رأينا في مكان آخر أن ضباط الاستخبارات المتمرّسين تراودهم شكوك حقيقية عن الأشياء الإيجابية التي يحقّقها التجسّس، أظهَر أولستر أن التجسّس- في مواجهة تهديدات الإرهاب- ليس ممكناً فقط، بل حيوياً أيضاً. فقد كانت هناك تسويات وأخطار، واحتاجوا إلى تفكير متأنٍ؛ فبعض الأشياء تمت معالجتها بشكل غير صحيح- حتى جنائياً- لكنْ كان للجهد الإجمالي بعض التأثير في نهاية المطاف.

لولا الاستخبارات البريطانية والخونة بين الجمهوريين الإيرلنديين، لوصلت السيطرة البريطانية في أولستر إلى نهاية مُبكرة؛ تحت ضغط الضراوة البَحتة والاحترافية التي وصل إليها الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقّت. كانت المشاكل الكامنة سياسيةً، و لم يحل التجسّس أي شيء، ولكنه قَمَع الثورة.

لقد علّمتنا الحرب في إيرلندا دروساً عن التجسّس لم يتم تعلّمها في معظم فترات لعبة الجاسوسية خلال الحرب الباردة. وشكّلت فرصة رئيسة لتعلّم وسائل التجنيد والخيانة المدبَّرة. وكان النجاح هنا أحد الأسباب التي جعلت الاستخبارات البريطانية- بعد كارثة خيانة فيلبي- تعاود اكتساب سُمعتها في عالم الاستخبارات البشرية عالية النوعية.

وتعلّمنا من إيرلندا أيضاً أن المال يستطيع شراء الجواسيس. والبعض في أولستر كانوا لا يفهمون غير لغة المال. في الواقع، هناك مجنّدون يصرّون على أن كل

شخص له ثمن. "إنّ ما قد يفعله الناس لقاء المال أمر مدهش"؛ حسبما قال شرطي سابق في شرطة أولستر الملكية. لكنْ يجب أن نتذكّر أيضاً أن تشغيل أفضل الجواسيس، واستخدامهم بطريقة مفيدة، يستلزمان دائماً سلوكيات مُرهَفة أكثر بكثير، من بينها فن الصداقة الذي يجب استغلاله بصبر وأناة. طوال مدة تشغيل ستيكنايف، كانت معلوماته الاستخباراتية تُرسَل إلى السياسيين في أعلى مراتب الحكومة البريطانية. والدرس الرئيس للسياسيين كان عدم التدخّل. فأي محاولة لتسريع صعوده في مراتب الجيش الجمهوري الإيرلندي، أو لجعله يتجسَّس بعدوانية أكثر كان من الممكن أن تكون مميتةً.

***

مع سقوط جدار برلين الذي أنهى الحرب الباردة، وحلول السلام في ربوع أولستر، كان يجب تطبيق الدروس التي تم تعلّمها من التجسّس ضد السوفيات والمجموعات غير الحكومية مثل الجيش الجمهوري الإيرلندي على مجموعة جديدة بالكامل من التهديدات والأعداء، وتكييفها وفقاً لطبيعتها المختلفة.

مثلما حذّر جايمس وولسي في جلسة تأكيد تعيينه في منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية في العام 1993: "لقد ذبحنا تنيناً ضخماً، لكننا نعيش الآن في غابة مليئة بأصناف مذهلة من الأفاعي السامة. وكان تعقّب التنين أسهل في نواحٍ كثيرة".[24]

في هذه الغابة الجديدة، كان يجب تجنيد جواسيس جدد، وتعديل الوسائل القديمة. لكن دروس الماضي بقيت ذات صلة أكثر من أي وقت مضى؛ حتى لو كان يتم تجاهلها أحياناً.

القسم الثاني

الجواسيس الجدد
(1989-2008)

الفصل 4
ثاندربولت

"الحرب الباردة انتهت، وأخطر تهديد لأمن الدولة يأتي من الجريمة المنظّمة. ما يهمّ هو استخدام الاستخبارات للقضاء على المجرمين من الجذور"

– ريموند كيندال، الأمين العام للانتربول، يونيو 1996 [1]

في 4 أكتوبر 1955، في سلسلة جبال ترودوس في قبرص، جَثَم شابٌ تؤلمه أطرافه على غصن سميك في أعلى شجرة صنوبر تركي. كان قد وصل إلى هناك منذ ساعتين واضعاً قناعاً على وجهه. وكان يراقب مساراً يؤدي إلى بيت مؤلف من طابق واحد ومختبئ وسط التلال. وقبل السادسة مساءً بلحظات، سَمِع صوت سيارة لاند روفر قديمة تمرّ عبر الطريق المتعرِّجة المؤدية إلى قمة التلة، فتناول الشاب بندقيته بينما كانت السيارة تسحق الحصى تحت عجلاتها.

كان السائق هو ستانلي هولوداي. وهو رجل يبلغ من العمر 52 سنة، ويعمل ككبير المهندسين في منجم أسبستوس على مصاطب التلة المقابلة، وبجانبه زوجته زانينا. كانا قد تزوجا منذ سبع وعشرين سنة في القرية المحلية أميانتوس.

كان هولوداي قد نسي شراء صحيفة ذلك اليوم، وقد ذهب الثنائي لإحضار واحدة. تتذكّر زانينا أنه عند خروجهما من السيارة، "اقتربنا من حافة حديقتنا لنتأملَ الغروب الجميل لبضع دقائق، فبدت أمامنا السماء ملتهبة، وانعكاسها الذهبي تحتنا على الوديان والتلال. كان المنظر جميلاً ويشعر بالهدوء جداً!".[2]

ثم سمعَت "الدوي البغيض الناجم عن طلقة نارية، وصداه يحيط بنا من كل الجهات". كان من المستحيل تحديد المصدر الذي جاءت منه. كان كلبهما الألزاسي راني جاثماً قرب قدمَيها، فقالت: "هيّا، فلندخل يا ستان، يبدو أن هناك متاعب في القرية مجدداً".

لكن ستان لم يرد. نادته زانينا مرة أخرى، ومدَّت ذراعها نحوه. كانت هناك أجمة تفصل بينهما، وتفاجأت من عدم رؤيتها رأسه وكتفيه، ثم سمِعتهُ يهمس: "لا أستطيع يا يانا. لقد أُصبت".

رأته على الأرض، على بُعد نصف متر عنها. لم تكن هناك دماء. وقال: "الهاتف، اتصلي بالإسعاف والشرطة، أرخي لي ياقتي وربطة عنقي".[3]

كان الشاب الجالس على الشجرة والذي ضغط على الزناد شاباً قبرصياً يونانياً يدعى أندرو (أو أندرياس) أنطونيادس. كانت تلك هي الأيام الأولى للحرب الأهلية بين الحكام البريطانيين لقبرص ومجموعة المتمرّدين التي تدعى إيوكا. اعتقد المتمرّدون حينها أن هولوداي كان "رئيس استخبارات" سرياً يساعد في إلقاء القبض على أعضائهم.[4] ووفقاً لصحيفة سايبروس مايل، كان أول ضحية بريطانية مدنية على يد إيوكا.

كان أنطونيادس اليافع مجرماً ثانوياً في أوقات مختلفة، وإرهابياً، ورجلاً أطلق النار على الجنود البريطانيين وزرع القنابل. كما أصبح مضيفاً في ناد، ومدمناً على المراهنات، ومرتِّباً لنتائج المباريات الرياضية، ورجل عصابات. أُصيب بالرصاص عدة مرات، بما في ذلك رأسه، ونجا. كما أصبح جاسوساً أيضاً. وسينتقل القاتل المأجور لمرة واحدة الذي أطلق النار على ستانلي هولوداي إلى العمل السري لعقود من الزمن كعميلٍ سريٍّ لجلالتها.

يشكّل أنطونيادس مثالاً للجاسوس الجديد، وهو نوع الأشخاص الذي أصبح أولويةً قصوى بعدما حوَّلت أجهزة الاستخبارات انتباهها بعيداً عن خصومها

القدامى من أيام الحرب الباردة، واستفاقت الحكومات لأخطار عالمٍ مفتوحٍ أكثر، حيث يستطيع المال والأشخاص وبالتالي الجريمة التحرّك بحرية أكبر.

رغم أن أنطونيادس عمل لوكالة الاستخبارات المركزية لفترة قصيرة، إلا أنه كان جاسوساً مختلفاً جداً عن الجواسيس الذين استخدمتهم الوكالة لتجميع المعلومات العسكرية والسياسية. فقد كان يتجسَّس على الجريمة المنظَّمة، وتكشف حالته ما يمكن إنجازه باستخدام رجل عصابات للقبض على رجل عصابات آخر، وكذلك المآزق التي تبرز عندما يتواجه عالَم التجسّس مع العقل الإجرامي الفوضوي والعنيف وغير المألوف. وأخيراً، تزوِّد حالته أيضاً ببعض الدلالات في ما يتعلق بالدور الأكبر الذي يمكن أن يلعبه الجواسيس في العالم الإجرامي في التبليغ عن الأشخاص الذين بدأوا يُعتبرون أكبر تهديد عصري؛ أي الجماعات الإرهابية.

بالنسبة إلى البعض في الدولة البريطانية، كان أنطونيادس أحد أفضل الجواسيس على الإطلاق في العالم الإجرامي. وبالنسبة إلى الآخرين، كان شريراً بسيطاً خدعهم جميعاً وأصبح أحد أكبر مستوردي المخدرات في البلد.

منذ بدايته في قبرص كان لديه لقب يدل على الغضب: كيرافنوس، والذي يعني البرق الأسود أو الصاعقة (ثاندربولت). عندما التقيتُه، كان في الثالثة والثمانين من عمره، ولا يزال غاضباً أكثر من أي وقت مضى. وقد قال متحدثاً عن أعدائه:"سأقتلهم كلهم".

***

واشٍ، خَطْم، مستطلِع، مُخبِر، عشب، متسلِّل، حمامة مُغوية، خائن، كَناريّ، عين، جرذ، نبّاح، مرتدّ، ابن عرس... يستخدم المجرمون كلمات كثيرة لوصف كل شخص يخونهم. وبدأت الشرطة البريطانية بتفضيل مصطلحات الخدمة المدنية. فالجاسوس في عالمها كان يسمّى مصدر استخبارات بشرية خفيّاً (covert human intelligence source أو CHIS).

لطالما كان لدى أجهزة فرض القانون- سواء أكانت الشرطة، أو الوكالات الوطنية مثل الجمارك، أو وكالة الجريمة الوطنية- أنواع من الجواسيس الخاصين بها. ومثلما يقول المثل، ليس هناك شرف بين اللصوص. وبينما تتصارع المنظمات الإجرامية للسيطرة على حصة أكبر من المنطقة والإيرادات غير المشروعة، لطالما كان إخبار الشرطة بمعلومات سرية جزءاً من اللعبة. لكن أولئك الذين تسمّيهم الشرطة مُخبِرين كانوا عادة سلالةً مختلفةً- من الأشخاص- عن أولئك الذين تعرِّفهم أجهزة الاستخبارات كعملاء سريين أو جواسيس.

بعض الفرق كان في اللغة. فرجال الشرطة، وقادة شبكات التجسّس يستخدمون مصطلحات مختلفة. في لغة التجسّس، المُخبِر مجرد بائع معلومات سرية في أغلب الأحيان، أي إنه شخص يبيع الأخبار، على عكس العميل الذي تكون نشاطاته موجَّهة عن كثب أكثر. ويصف ضابطٌ فرنسيٌ سابقٌ في قسم مكافحة التجسّس المسألة كالتالي: "في عملنا، يقف العميل في مرتبة أعلى بكثير من المُخبِر. فالمُخبِر يعطيك معلومات محلية ويشير إلى الأهداف، ثم يمكنك إرسال العميل ليُجري الاتصال ويشقّ طريقه". لكن المصطلحات لم تكن معرَّفة بهذا النحو الضيق في أجهزة الاستخبارات الأخرى. ويقول رئيسٌ سابقٌ لقسم العمليات الخفية في وكالة الاستخبارات المركزية إنه يتم استخدام "مصدر" و"مُخبِر" و"عميل" بشكل متبادل. وبعضهم موثوق أكثر وتحت السيطرة أكثر من الآخرين.

كان هناك فرق أكبر أيضاً، وهو أنه في حين أن الشرطة في معظم البلدان تحتاج إلى أن تدفع للمجرمين النشطين ليكونوا مصادر لها ولديها السلطة القانونية لتفعل ذلك، تم منع معظم أجهزة الاستخبارات من الاتصال بالمجرمين، أو هي تجنَّبت فعل ذلك بكل بساطة على سبيل الممارسة الجيدة. فالعمل مع المجرمين كان يُعتبر مخاطرةً كبيرةً؛ لأنهم غير موثوقين، وسيكشفون الأسرار على الأرجح. وبإمكان مسألة كهذه إفقاد الوكالات سُمعتها الجيدة، أو أن تُجبرها- عندما يواجه عملاؤها بعض المتاعب- على الكشف عن يدها في قاعة المحكمة. وكجزء من محاولاتها الخفية للإطاحة بالرئيس الكوبي فيدال كاسترو، اتصلت وكالة الاستخبارات المركزية

بعدة أعضاء من المافيا الأميركية. وانكشاف هذه المسألة ضايق الوكالة لسنوات؛ مما يوضِّح كلفة علاقات كهذه. بالإجمال، كان مُخبِرو الشرطة عادة سلالةً مختلفةً من الأشخاص تجنِّدهم أجهزة الاستخبارات كعملاء.

لكنْ مع اقتراب القرن الحادي والعشرين، بدأ بعض تلك الفوارق يخفّ بعد أن بدأت الحدود الفاصلة بين الشرطي وضابط الاستخبارات تصبح ضبابيةً. وكانت السلطة السياسية المتزايدة لرجال العصابات أحد الحوافز لحصول ذلك. فقد وصل العديد من قادة الجريمة المنظّمة إلى مناصب فعّالة ومؤثّرة في بلدانهم، لدرجة أن التغلغل في دوائرهم أصبح مفيداً استراتيجياً. وروسيا أحد الأمثلة عن ذلك، حيث أصبح أعضاء العصابات الإجرامية في التسعينيات مليارديرات علناً، وبدأوا يمارسون تأثيراً هائلاً على الكرملين.

لكنّ أكبر حافز لضبابية الحدود الفاصلة حصل في السياسة المحلية، مع دفعٍ لاستخدام وسائل الاستخبارات لتقليل الجريمة في شوارع أميركا وأوروبا. كان الهجوم من شقّين: فقد تم تغيير وجهة أجهزة الاستخبارات نحو محاربة الجريمة، وحاوَلت أجهزة فرض القانون مضاهاتها.

انهيار الستارة الحديدية، والاتفاقيات الدولية لتحرير التجارة ساعدت في تحرير حركة الأشخاص والبضائع عبر الحدود، وكنتيجة إضافية لذلك، سمحت أيضاً للمجرمين المنظّمين جيداً أمثال مهرِّبي المخدرات بالتحوّل بحرية وإنشاء أحلاف أو فروع لعصاباتهم في بلدان أخرى. وكان شائعاً أن الإدمان على المخدرات- الذي غذّته تجارة المخدرات الدولية غير القانونية هذه- كان السبب الكامن خلف معظم السرقات في الولايات المتحدة وبريطانيا. وقد دفعت تلك الأنماط الأشخاص المؤثّرين في أجهزة فرض القانون إلى التجادل حول ما إذا كانت المبادرة الفعّالة ضد الجريمة في المجتمعات المحلية تعني نقل المعركة إلى أرض زعماء التجارة. وقد ألحّ ريموند كيندال، الأمين العام لوكالة الشرطة الدولية، الانتربول، على ضرورة "استخدام الاستخبارات للقضاء على المجرمين من الجذور".

وجادل كيندال وآخرون بالقول إن الطرائق المجرَّبة لحل الجرائم كانت تفشل في القبض على أخطر الجناة؛ وبالأخص أولئك الذين يعملون عبر الحدود، وكذلك رجال العصابات المتواجدين في أعلى الإمبراطوريات الإجرامية الكبيرة، والذين يجعلون أتباعهم الأمينين يقومون بأعمالهم القذرة. وكان الحل هو استخدامَ طرائق عدوانية أكثر: أي استهداف المجرمين بشكل استباقيّ عن طريق التنصّت على هواتفهم، وتعقّب سياراتهم، ووضعهم تحت المراقبة، وتجنيد جواسيس ضمن عصاباتهم وشبكاتهم، وتقديم رجال استخبارات سريين لتجميع الأدلة وتمثيل دور الضحية في عملياتهم.

تسمّي أجهزة فرض القانون هذه الوسائل "حفظ النظام بقيادة الاستخبارات". وقد أنشأت وحدات الشرطة والجمارك أقساماً جديدةً مكرَّسةً لتجميع المعلومات الاستخباراتية وتنفيذ عمليات خفية. لكن هذه النظريات أعجبت أيضاً الوكالات مثل جهاز الاستخبارات السرية، وMI5، ووكالة الاستخبارات المركزية: مساعدة الشرطة أو الجمارك في مكافحة الجريمة كانت وسيلةً للبقاء في الساحة في ظل غياب التهديد السوفياتي. وعند التكلم مع الصحافة والضغط على السياسيين، نشر ضباط الاستخبارات نظرية أن التجسّس على العصابات قد يكون جوهر نموذجٍ جديدٍ للجاسوسية.

وكان الضلوع في محاربة الجريمة يعني مثلاً مشاركة MI5 الآخرين في بعض التكنولوجيا التي طوَّروها ضد الروس؛ كالمساعدة في تركيب أجهزة تنصّت خفية للاستماع إلى محادثات تاجر المخدرات، ومراقبة إلكترونية لكل تحرّكاته، أو تحليل كمبيوتره لرسم شبكة معارفه. كما كان يعني أيضاً تقديم جهاز الاستخبارات السرية (الذي أسَّس "مجموعة عمليات الجريمة المنظّمة") أساليب "عرقلة"، ونشاطات خفية كتفريغ الحساب المصرفي الأجنبي للمجرم، أو التنسيق مع الوكالات الأجنبية للإغارة على مصانع المخدرات.

تطلّب الدور الجديد لجهاز الاستخبارات السرية تغييراً في القانون، وحصل ذلك في العام 1994. ولم يعد دوره حماية الأمن القومي والاقتصاد فحسب، بل أيضاً تقديم "الدعم لمنع الجرائم الخطيرة أو اكتشافها".[5] وتم تعديل قوانين أخرى في غضون سنتين لإعطاء MI5 المهام نفسها.

كانت هناك بعض الصدامات الثقافية الأساسية التي استلزم حلها عدة سنوات. فعلى سبيل المثال، لم يكن لدى ضباط الاستخبارات خبرة كبيرة في تقديم أهدافهم للعدالة في قاعة محكمة. وقد قال ضابط سابق في الجمارك: "لم تدخل الفكرة رؤوسَهم حقاً، وكان عليّ أن أشرح لهم عالمنا، وكيفية العمل من أجل جمع الأدلة وتحضير القضية للمحكمة". أما بالنسبة إلى MI5، "فكانوا يرتعبون من المحاكم. ولم يفهموا مطلقاً سبب اضطرارك إلى المثول أمام قاضٍ".

في السنوات اللاحقة، أصبح ضباط المراقبة في MI5 معتادين على الظهور في المحاكم لتقديم الأدلة. لكنْ كانت هناك مشكلة دقيقة أكثر بالنسبة إلى محاربي الجريمة الجدد، وهي كيفية أو ما إذا كان يجب نشر عملاء سريين في العالم الإجرامي. فرغم وضوح القيمة الكبيرة لوجود جاسوسٍ داخل مجموعة جريمة منظّمة، إلا أن تجنيد أو نشر مثل أولئك العملاء كان يعني مواجهة أسئلة شائكة، نادراً ما كانت أجهزة الاستخبارات مضطرة إلى التفكير بشأنها؛ كردّة فعل المحكمة لدى معرفتها بوجود عميل للحكومة داخل عصابةٍ. هل عليهم كشف وجود ذلك العميل للمحامين الذين يدافعون عن مجرمٍ؟ أو هل سيُعتبر العميل محرِّضاً على ارتكاب الجريمة؟ كانت الأسئلة الشبيهة بهذين السؤالين صعبة على رجال الشرطة والجمارك على حد سواء؛ نظراً إلى كونهم كانوا قد بدأوا أيضاً باستخدام المزيد من الاستخبارات البشرية. وقد حصل الاستخدام المتزايد لوسائل الاستخبارات من قِبل أجهزة فرض القانون في الوقت الذي كان فيه قضاة الدعاوى الجنائية في الأنظمة القانونية الغربية يفرضون على النيابة العامة إعطاء محامي الدفاع عن المجرم تفاصيل أكثر حول أي عمل سري تم استخدامه خلال التحقيق. لذا، كان هذا الأمر يتطلب معالجة حذرة.

في الماضي، كانت أجهزة الاستخبارات- مثل جهاز الاستخبارات السرية، ووكالة الاستخبارات المركزية- قد أحجَمت عن تجنيد المجرمين. فقد كانوا خطيرين، وغير موثوقين، وعقلياتهم مختلفة جداً. وعندما بدأوا بالضلوع في محاربة الجريمة، حاوَل ضباط الاستخبارات التفكير أفقياً، فاقترَحوا توظيف أشخاص على حافة العصابات قد يكونون موثوقين أكثر، ويمكنهم تجنّب المشاركة في الجرائم؛ كعشيقات رجال العصابات مثلاً، أو محاسبيهم، أو أصحاب المتاجر الذين يبيعونهم الهواتف الجوّالة. وكان هناك خيار آخر لدى رجال الشرطة وأجهزة فرض القانون، وهو توسيع جيش رجال استخباراتهم السريين المحترفين؛ وهم رجال شرطة أو ضباط جمارك يعيشون تحت هويات مفترضة، ويمثلون دور الضحية في العمليات، ويمكنهم عندها الإدلاء بشهاداتهم ضد المجرمين في المحكمة. عندها، تمت تجربة عملاء خارجيين ورجال استخبارات سريين. لكنْ عند مواجهة أي خصم خطير، سيكون أحياناً الشخص العالم ببواطن الأمور الحقيقي فقط- مثل عضو موثوق في العصابة كان على عِلم بأسرارها- عميلاً حقاً. ومع سعي وكالات الاستخبارات وأجهزة فرض القانون إلى توسيع وسائل تجميعها للاستخبارات البشرية، احتاجت إلى الاستفسار عما إذا كان من الممكن تشغيل جواسيس بين المجرمين عندما يكون هناك احتمال بأن تأتي العملية بنتائج عكسية؛ بالأخص في قاعة المحكمة. لكنْ في حين أن العمل مع المجرمين قد لا يكون أمراً مستساغاً بالنسبة إلى معظم ضباط الاستخبارات، كان عليهم العمل مع أهداف الاستخبارات التي أعطتهم الحكومات إياها. وبينما بدأ يتم تحديد المجموعات غير الحكومية- سواء أكانت عصابات إجرامية أو إرهابيين- على أنها التهديد الجديد والهدف الرئيس الجديد، هل سيتبيَّن أن رجالاً أمثال كيرافنوس سيكونون الجواسيس الذين يحتاجون إليهم؟

كان الاتكال على مثل أولئك الرجال أشبه بدخول عالمٍ من العنف والفوضى.

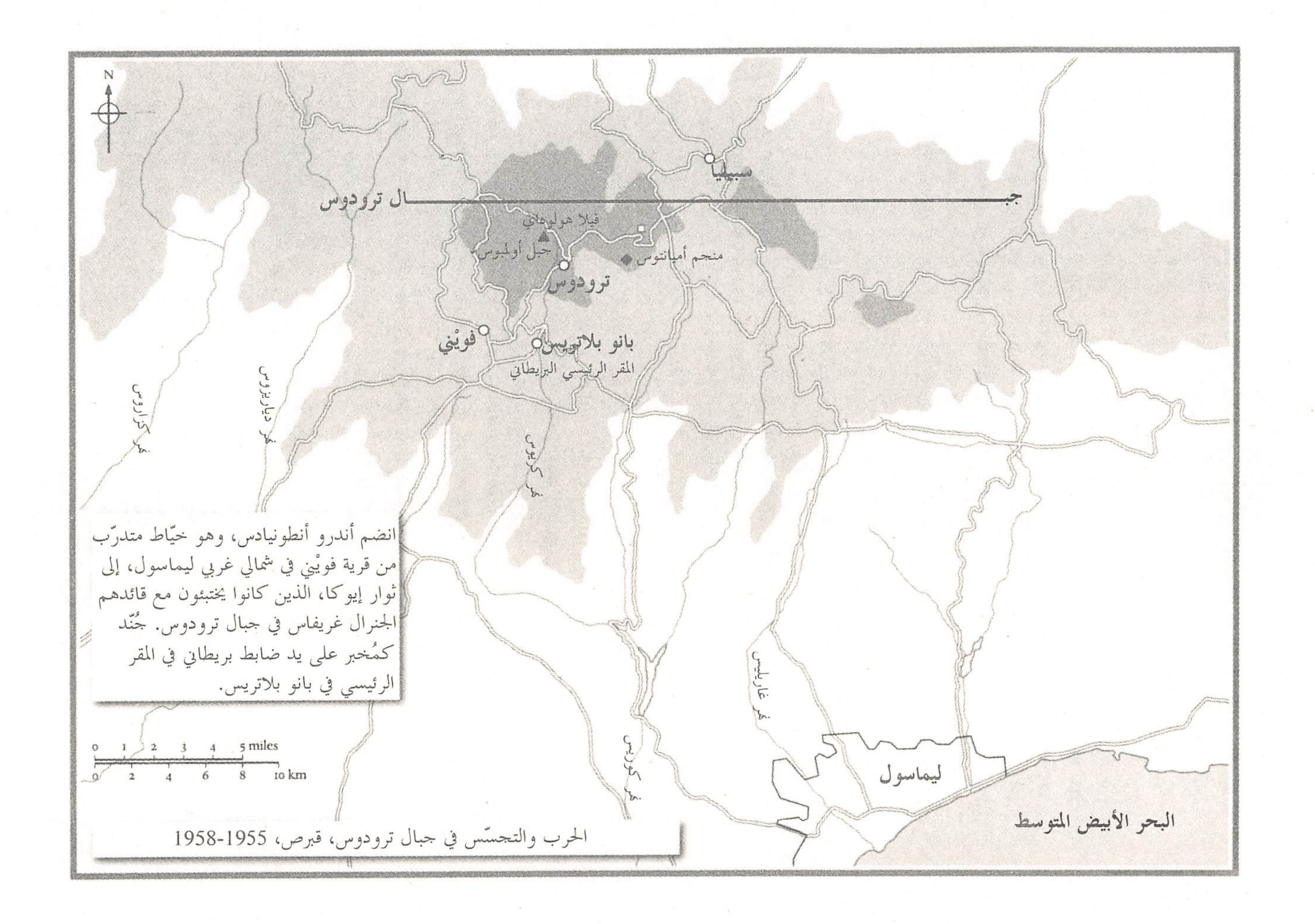
قد يكون أندرو أنطونيادس مجهولاً في العالم الأوسع، ولكنه بلقبه كيرافنوس في وطنه الأم قبرص كان أسطورياً وغير مغفور له بالنسبة إلى الكثيرين. والشيء الوحيد

الذي يبدو أنه يفرّق بين بعض الرفاق القدامى هو ما إذا كان قد خطّط لخيانتهم دائماً أم لا. وحتى إن البعض يتساءل- في حال عودته- إن كان قد تأخر الوقت لقتله انتقاماً.

وُلد أنطونيادس في العام 1932 في فويْني (وتسمّى أيضاً فيني)، وهي قرية تبعد حوالي أربعة وعشرين كيلومتراً شمالي غرب ليماسول، في عائلة ضمّت ستة أبناء. توفّي والده عندما كان في الخامسة من عمره، وترَك المدرسة باكراً ليتعلّم مهنة الخياطة. كان شاباً شرساً ومستهتراً بكل المقاييس، ولديه مشاكل مع الشرطة في أغلب الأحيان، ويعشق الدراجات النارية. اعتقلته الشرطة في أحد الأيام بعد تسلّقه مدخنةً لكي يسرق منزلاً، وطلب منه أحد ضباط الشرطة أن يُصلح له دراجته، لكنه حلّق بها هارباً بعد انتهائه من إصلاحها؛ محطماً البوابة أثناء هروبه. وقال الشرطي إنه أسرَعَ بها مثل "البرق الأسود"؛ ومن هنا اكتسب لقبه كيرافنوس.

كان في الثانية والعشرين من عمره عندما اندلعت الحرب في العام 1955 بين الجيش البريطاني وEthnikí Orgánosis Kipriakoú Agónos (أو EOKA، إيوكا)- المنظمة الوطنية للكفاح القبرصي- التي كانت تسعى إلى طرد قوات الاستعمار البريطاني وتوحيد البلاد مع اليونان. قُتل ما مجموعه 371 جندياً بريطانياً، لكن إيوكا في غضون أربع سنوات- بقيادة الجنرال جورجيوس غريفاس- برهنت أنها عديمة الرحمة بشكل مماثل في قتل القبارصة أيضاً. وبينما أشارت إيوكا إلى وفاة 108 من أعضائها، زعمت أيضاً أنها أعدمت حوالي تسعين "خائناً" من بين ما يزيد عن 200 قبرصي يوناني توفوا في المعارك.

كان من المفترض أن يستلزم الانضمام إلى جمعية سرية مثل إيوكا طقوساً طويلةً، لكن أنطونيادس أدخل نفسه إليها بالقوة. فقد توجّه مع صديقه ألكسندروس ميكيليدس ذي الاسم الرمزي كونغاس إلى التلال، وبدأ بغرس الأعلام اليونانية في أعالي الأشجار بالقرب من منجم أميانتوس. كان ذلك استفزازاً واضحاً للفت انتباه الجنود البريطانيين. وكان مقاتلو إيوكا المختبئون في مكان قريب قلقين من أن يؤدي ذلك إلى كشَف مكانهم، وبالتالي اعتقالهم.



الحرب والتجسّس في جبال ترودوس، قبرص، 1955-1958

ويقول رينوس كيرياكيدس الذي كان قائد إيوكا في المنطقة وقتها: "كنت حينها أمام خيارين: إما ضمّهما إلى الجمعية أو قتلهما". وقد اختار ضمّهما إلى الجمعية، وأقسما قَسَم الولاء للمتمرّدين أمام رجل دين.

يتذكّر أنطونيادس أن أول أمر تلقاه بعد انضمامه إلى إيوكا كان زرع قنبلة في بلدة أكروتيري التي تضم قاعدة بريطانية كبيرة. "ثم أرسَلوني لأقتل رجلاً يونانياً كان يُزعَم أنه مُخبِر، وقد قتلته". كما شارك في غارة على مخزن المتفجرات في منجم أميانتو،. ثم تطوَّع لمهمة قتل هولوداي.

قال أنطونيادس إنه تلقّى الأوامر من الجنرال غريفاس مباشرة. وكان عليه أن يذهب مع صديقه كونغاس. يتذكّر بيت هولوداي الأبيض المُحاط بسور، مع كلب وبط والكثير من الضجة في الداخل. كانت الخطة تقضي بأن يصلا إلى هناك باكراً وينتظراه. وكانا يأملان قتله عندما يعود في الغسق، لكي يتمكنا من الهرب في الظلام.

اللافت للنظر هو أن زانينا هولوداي كانت تعرف مسبقاً الكثير عن أنطونيادس اليافع الذي كان في طريقه لمحاولة قتل زوجها. وقد دوَّنت في دفتر يومياتها خلال فترة إقامتها في قبرص أنه تم تحذيرها في ذلك اليوم بالذات من أنه كان في الأرجاء:

> أخبرني بستاني بيتنا الطيب في ذلك الصباح أن رجل حرب العصابات الملقّب "البرق الأسود" [كيرافنوس] موجود مرة أخرى في أميانتوس. كان يعمل من تلقاء نفسه، ويستخدم أسلحةً، ويُرعب القرويين، ويسرق، ويحرق المنازل، ويتباهى بمآثره الشريرة... لم يتجرأ أحد على التجسّس عليه. ويُقال إنه هو مَن قتل شرطينا. وقد أُطلق سراحه من السجن مؤخراً... إنه بالكاد في الثانية والعشرين، وهو نحيل وصغير البنية ورشيق جداً. لم يرق لنا أنه موجود إلى جوارنا.[6]

تسلّل ثنائي إيوكا خلف المجمَّع حوالي الساعة الرابعة مساءً. ويتذكّر أنطونيادس أنه كان يحمل رشاشاً سويدياً. "أوقف هولوداي السيارة ونزل منها. كان رجلاً

ضخماً، وكان بإمكاني رؤيته من هناك. ثم أطلقتُ عليه النار؛ ربما ست طلقات". سقط هولوداي أرضاً، فترل أنطونيادس عن الشجرة ولاذ بالفرار.

بالكاد مرّت ثلاثة أشهر على الحادثة حين بدأ البريطانيون يشغّلون أنطونيادس. حصَل ذلك بالطريقة الكلاسيكية التي يتم بها تجنيد الجواسيس في مجموعات المتمرّدين؛ أي بينما كان قيد الاعتقال. فبعد سلسلة مما يسمّيه البريطانيون "عمليات واسعة" في جبال ترودوس، اختبأ العديد من مقاتلي إيوكا مع قائدهم، الجنرال غريفاس، في مخبأ فوق قرية سبيليا. وعندما هاجَم البريطانيون سبيليا في 12 ديسمبر، بقي بعضهم هناك وحاربوا، بينما تفرَّق معظم أفراد المجموعة. واختبأ العديدون منهم بالقرب من قُراهم. عندها، عاد أنطونيادس إلى فويْني، ولكن أُلقي القبض عليه مجدداً بعد إعداده هجوماً فردياً على دورية بريطانية.

وأصبح حينها في أيدي ما يتذكّر أنه كان فوجاً اسكتلندياً في الجيش البريطاني، والذي كانت طرائق استجوابه البدائية مستمدّة حديثاً من محاربة متمرّدي ماو ماو في كينيا. "حطّموا أسناني. أنت تعرف أولئك الاسكتلنديين. وظلّوا يضربونني ليومين كاملين". قال إن الضرب لم يكن السبب الذي دفعه إلى تغييره ولائه، بل الصداقة التي نشأت بينه وبين شاب إنكليزي في الزنزانة. كان ليونيل سايفري نقيباً في الجيش، عمره سبعة وعشرون عاماً، وهو متمرِّس مسبقاً في تمرُّد آخر في مالايا. كان قد عُيِّن ضابط استخبارات في بانو بلاتريس التي تبعُد حوالي ثلاثة كيلومترات عن فويْني. نشأت صداقة فورية ولمدى العمر بين الاثنين.

سُمِح لأنطونيادس بالهرب، وذلك عن طريق القفز إلى داخل شاحنة أتت لتجميع صناديق قمامة السجن- "دبّروا لي المسألة"، حسبما قال- ثم شرع يعمل كمُخبِر لهم فور عودته إلى إيوكا. بعد سنوات، عندما أجريتُ المقابلة معه، كان أنطونيادس لا يزال خجلاً من مدى مساعدته البريطانيين. ومخافة أن يوصف بالخائن، ألمح إلى أنه كان يعمل للطرفَين، مُبقياً مشغِّليه البريطانيين سعداء ولكن من

دون التسبّب بأي أذى لإيوكا. وقال: "كنتُ عالقاً في الوسط" (بالنسبة إلى بعض القبارصة، هذا سيجعله خائناً مزدوجاً بكل بساطة).

تعمَّقت الصداقة بينه وبين سايفري خلال تلك الفترة، وجاءت اللحظة الحاسمة في العام 1957، عندما خرجا في دورية لاصطياد إيوكا ووقعا في كمين. قُتل أحد الإنكليز وتلقى سايفري- الذي كان على قائمة الاغتيالات التي وضعها غريفاس- عدة رصاصات في رِجله. سحبه أنطونيادس بمساعدة رجل آخر إلى مكان آمن، وكان ذلك من أفضل القرارات التي اتخذها في حياته. "أصبحنا بعد ذلك من أعزّ الأصدقاء. فقد أنقذتُ حياته، ولهذا السبب أنقذ حياتي". تلقى سايفري نفسه وساماً عسكرياً بسبب هذه الواقعة.[7]

وهكذا، أصبح أنطونيادس- الذي كان حينها يعمل مع البريطانيين علانيةً- أحد أهداف إيوكا الرئيسة. حاوَلوا قتله ثلاث مرات، ومن بينها نصب كمينَين له على الطريق. وفي إحدى المرات، صادفه شخصٌ كان يود أن يصبح قاتلاً مأجوراً في مقهى في ساحة القرية. "شعرتُ بشخص يلمسني من ظهري... ثم أطلق رصاصة على رأسي، ورمى المسدس أرضاً، ورأيتُه يركض. لقد تعرَّفتُ عليه؛ كان ابن عمي الثاني". أراني أنطونيادس لاحقاً الندبات على مؤخر عنقه. فالرصاصة لم تُصب أي شريان وخرجت من فمه. "كان حظي بالنجاة واحداً على مليون".

كان من الواضح أنه يجب إخراج أنطونيادس، لذا رتّب له سايفري أمر الحصول على جواز سفر بريطاني وتذكرة طائرة إلى لندن. كان يودِّع حياته كمُخبرٍ ضد الإرهابيين ويبدأ حياةً جديدةً كمجرمٍ مشهورٍ. لكن ذلك لم يكن نهاية تجسّسه.

وصل أنطونيادس إلى إنكلترا في 29 نوفمبر 1958. وقد استأجر له الجيش منزلاً في ويمبلي. ولكنْ حتى قبل وصوله إلى هناك، دخل في عراك في وست أند (منطقة في وسط لندن)، واستمرت الأمور على هذا المنوال. وفي غضون سنة، كان في المحكمة في أولد بايلي، متَّهماً ثم مُداناً باستخدام رشاش لإطلاق وابل من الرصاص

من سيارة عابرة تسبّب بجرح مالك مقهى يوناني في كامدن، شمالي لندن. خلال محاكمته، قدَّم النقيب سايفري أدلة للدفاع عن شخصية عميله السابق، وشرح العمل الخطير الذي فعله في السابق. وقد نشرت التايمز أن سايفري "أقرّ بأن القبارصة الذين كانوا رعايا بريطانيين أوفياء قد يوصفون بالخونة من قبل القبارصة الآخرين الموجودين في بريطانيا".[8]

كانت هذه مجرد بداية له لأكثر من عقدَين من الزمن كرجل عصابات، تخلّلتها فترات في السجن، وجهود من سايفري الذي بقي على تواصل معه، لإبقائه خارجه. ففي أوقات مختلفة، أدار أنطونيادس ناديين في لندن، وشارك في عدة عمليات إطلاق نار وطعن بالسكاكين، وخاض معارك شوارع مع كثيرين، ومنهم على سبيل الذكر رجُلا العصابات المنافسَان سيئا السمعة تشارلي وريغي كراي. حاوَل ترتيب نتائج سباقات الأحصنة، ونظّم عملية سطو للألماس في أنتويرب، وعملية سطو أخرى في اليونان (حيث أحبط محاولة اغتيال أيضاً)، وهرَّب سجائر إلى إيطاليا وإسبانيا، حيث اعتُقل وسُجن مجدداً.

سُمعة أنطونيادس ككيرافنوس أعاقت تقدّمه ورفعت من شأنه في آن واحد دائماً. وتداول القبارصة في لندن في البداية خبر أنه مُخبِر. وكان يلجأ إلى العنف عند مواجهته بهذه المعلومة. "عندما تعرف أن حقيرَين أو ثلاثة يجوبون سوهو ويقولون 'أندرو مُخبرٌ، أندرو هذا وذاك'، عندها- اللعنة عليهم- عليّ أن أوقفهم عند حدّهم. عليّ أن أحاربهم". كان يتكلّم بسهولة عن رمي منفضة على أحدهم، وطعن آخر بسكين فينكسر نصلها في ذراعه، وضرب شخص "ضرباً مبرحاً جداً". كان يكسب المال دائماً، ويخسره دائماً.

كان هناك الكثير والكثير من المغامرات الإجرامية. وبلغت الأمور أوجها في أوائل الثمانينيات في إسبانيا، حيث سُجن أنطونيادس مرة أخرى، وذهب صديقه القديم سايفري إلى المحكمة مجدداً لتقديم أدلة عن حُسن خلقه. يتذكّر أنطونيادس قائلاً: "كنا صديقين عزيزين. فهو يعرف أنني أحبه، وهو يحبني أيضاً". عندما كان

سايفري في إسبانيا، وبينما كانا يدردشان، خطرت فكرة جديدة على ذهنيهما. فقد حدث أنه بين مغامراته الإجرامية المختلفة، لم يتاجر أنطونيادس بالمخدرات قطّ؛ فهو يزعم أن رؤيته مدمني الهيروين في المستشفى قد نفّره من ذلك. فوضع سايفري خطةً باستخدام سُمعة أنطونيادس الإجرامية كواجهة للقيام بدور سري في محاربة تجارة المخدرات؛ وبالأخص العصابات التركية-الكردية التي كانت مسيطرة على تهريب الهيروين إلى بريطانيا.

كانت هذه بداية مهنة أنطونيادس الثانية في عالم الجاسوسية. "قلتُ له إنني إذا ذهبت إلى لندن، فبإمكاني قتل أولئك الأتراك الحقيرين. فأنا أعرفهم وهم يُصغون إليّ". لكنْ كانت هناك مشكلة واحدة، وهي أن لديه عدداً كبيراً من الأعداء في إنكلترا. لكنه قال إن سايفري طمأنه بقوله إنه يمكنهم حمايته. "إذا ساعدتنا، فسيساعدك أحدهم". فأحضَر ضابط جمارك خبيراً إلى إسبانيا وقام بالترتيبات اللازمة.

بدأت اللعبة يوم عاد إلى لندن. إذ كان يجلس في مطعم في سترَتم، جنوبي لندن، مع ضابط جمارك. وحسبما يتذكّر، تعرَّف عليه أحدهم.

"مرحباً، كيرافنوس. كيف حالك؟".

"بخير".

"عندي بعض الأشخاص من ليفربول يريدون عقد صفقة تجارية".

وكان الأشخاص الذين تحدث عنهم تاجرَي مخدرات، وقد أخبراهما عن باكستاني يريد بيع خمسين كيلوغراماً من الهيروين.

يتذكّر أنطونيادس أنه أجاب: "نقبل إذا كانت النوعية جيدة".

تمّ اصطحابه إلى منزل الباكستاني في اليوم التالي ووجد المخدرات، فصادرتها الجمارك كلها.

منذ ذلك الحين، وفي السنوات العشرين المقبلة، تم تسجيله كمُخبِر رسمي؛ تحت الاسم الرمزي ماريو في البداية. "نفّذتُ مئتَي عملية للجمارك. وقد فعلتُ ذلك لأنني أكره الهيروين". كما أنه تقاضى الكثير من المال.

كانت طريقة عمله أن يجعل الأشخاص يصدِّقون أنه جاهز لشراء مخدراتهم. وكان يعتمد على سُمعته كشخص محظٌر لمسه، وعلى السنوات التي قضاها في عالم الإجرام. فمَن سيصدِّق أنه كان يعمل للجهة الأخرى؟

تقرّب منه في إحدى المرات محامٍ باكستاني في المحاكم العليا من خلال صديق وقال له: "لديّ بعض الهيروين القادم. هل يمكنك بيعه؟".

فأجاب أنطونيادس: "لا مشكلة. هذا عملي".

كان الهيروين سيصل إلى مطار هيثرو بعد يومين، فذهب أنطونيادس مع المحامي إلى المطار في اليوم المحدّد، وانتظرا في فندق قريب. أبلغه المحامي أن صديقه- وهو مضيفٌ على رحلة قادمة للخطوط الجوية الباكستانية- سيتصل بهما عندما يعبر قسم مراقبة الهجرة والجمارك ومعه المخدرات "وسنستلمها منه".

في غضون ذلك، مرَّر أنطونيادس رقم الرحلة واسم المضيف إلى ضابط الجمارك نيك بايكر الذي كان قد أصبح مشغِّله. يتذكّر أنطونيادس أن بايكر اصطحب معه ثلاثين أو أربعين ضابط جمارك، وحاصروا الطائرة وفتّشوها، ولم يجدوا الهيروين أو أي شيء غير قانوني. كما استجوبوا المضيف نفسه وفتّشوه أيضاً، لكن كان عليهم إطلاق سراحه. وبعد بضع ساعات من البحث العقيم، اتصل به بايكر هاتفياً وقال: "أندرو، إننا نبدو كالأغبياء". لكن أنطونيادس أجاب: "هذا غير ممكن. الرجل معي".

وبعد ذلك، تكلّم مع المحامي، وطلب منه أن يتصل بصديقه المضيف ليعرف سبب التأخير. "فاتصل به وأجاب الرجل: *أنا في الفندق بالفعل، في الغرفة رقم 346*".

لم يشرح أحدٌ كيف تمكّن الهيرويين من عبور شبكة الجمارك؛ وأحد الاحتمالات أنه تم تهريبه في عربات الطعام. لكنه وصل إلى الفندق الآن، وطلب منهما المضيف القدوم لاستلامه. ذهب أنطونيادس إلى غرفة المرحاض في الفندق، ومن هناك اتصل ببايكر على هاتفه الجوّال لإبلاغه أنه موجود في الغرفة 346.

أسرَعَ ضباط الجمارك وأغاروا على الغرفة، ووجدوا الباكستاني والهيروين. في غضون ذلك، كان المحامي قد قال لأنطونيادس: "هيا، فلنذهب ونُحضره". لكنهما عندما وصلا إلى باب الغرفة نظرا إلى الداخل، وشاهدا شاباً باكستانياً مكبَّل اليدين. ويتابع أنطونيادس: "قلنا: *يا للهول، هيا نهرب من هنا*. وغادرنا المكان مسرعين. لم يشك بي لأنني جيدٌ في التمثيل".

حصلت عدة حالات أخرى سردها أنطونيادس، رغم أن ذاكرته خانته ببعض التفاصيل: كمصادرة طنَّين من الحشيشة في كندا بفضل معلومة سرية إلى وكالة مكافحة المخدرات الأميركية، والعثور على خمسين كيلوغراماً من الهيروين في سترَتم، والمزيد في بريكستون، وغنيمة كبيرة في مايدا فايل، وعشرين كيلوغراماً في سيارة BMW في دوفر، وتلك المرة التي أرسلته فيها الجمارك ليتظاهر بأنه يريد شراء مخدرات في ألمانيا، وعملية في ليفربول عندما تمت تخبئة عدة كيلوغرامات من الهيروين داخل أنابيب فولاذية. كانت تلك لائحة مؤثّرة، وقد أكّدها بعض مشغِّليه السابقين في الجمارك؛ رغم أن واجبهم الدائم الذي يلزمهم بحماية المصدر جعلهم يرفضون مناقشة الحالات الدقيقة التي شارك فيها.

لكنْ كان هناك رأي آخر في ما يتعلق بهذا العمل؛ وهو أنه كان يخادع ويتاجر بالمخدرات بنفسه، بالإضافة إلى عدة أشياء أخرى. فتماماً مثلما قد يميل الجاسوس بين الإرهابيين إلى المشاركة في العمليات لكي يحافظ على مصداقيته ويصمد في صفوفهم، قد يريد الجاسوس بين المجرمين إبقاء يده في الجريمة. لكنْ سواء أكان الجاسوس يعمل بين إرهابيين أو مجرمين عاديين، لا يحق لأي مشغِّلٍ أن يغضّ الطرف عن سلوك كهذا.

لقد سمعتُ الاسمين أنطونيادس وكيرافنوس لأول مرة من الشرطة. ففي أواخر التسعينيات، عندما كنتُ أكتب عن الجريمة للصنداي تايمز، أبلغني بعض رجال الشرطة أنهم مقتنعون أنه وبعض أكبر تجار المخدرات في بريطانيا يحصلون على حماية مذهلة من دائرة الجمارك والضرائب في حكومة جلالتها.[9] وشعَروا أن المُخبِرين أمثال أنطونيادس كانوا يستغلون علاقاتهم مع أجهزة فرض القانون ليحموا ظهورهم أو يكسبوا بعض النقود أو يقضوا على المعارضة، حتى وهم يتابعون حياتهم الإجرامية. كما أنه كان معروفاً أن تجار المخدرات يبلّغون عن منافسيهم في أغلب الأحيان. وقد أخبرني أحد أكبر ضباط الجمارك في البلد قبل عدة سنوات أن "كل تجار المخدرات الرئيسين مُخبِرون". لكنّه زَعم أن أولئك المُخبِرين يحصلون على حماية في المقابل، وهي مسألة أخرى وأخطر بكثير.

لم تكن الفكرة غريبة بالضرورة. ففي الولايات المتحدة، أصبح واضحاً في نهاية المطاف أن جايمس "وايتي" بولغر- وهو رجل عصابات كان مُخبِراً لمكتب التحقيقات الفدرالي لعقود، بدءاً من العام 1975- استغل وضعه المحمي كمُخبِر يمرِّر معلومات عن العصابات المنافسة للإفلات من عواقب إحدى عشرة جريمة قتل على الأقل. وقد حَكَم قاضٍ فدراليٍ على أكثر من اثني عشر ضابطاً في مكتب التحقيقات الفدرالي بأنهم خالفوا القوانين في عملية تشغيله.[10]

كان مفتّش المباحث جون كوليتز، وهو شرطي محنَّك فطن منذ ثلاثين سنة، أحد النقّاد. فقد أصبح مُقتنعاً بأن بعض المُخبِرين لم يكونوا يتلقون الحماية فحسب، بل يُسمَح لهم بارتكاب جرائم أيضاً، ومن بينها جرائم القتل. لقد قاد فرقةً لمكافحة المخدرات تضم اثني عشر رجلاً في شمالي لندن في التسعينيات، وصادروا أكثر من 100 كيلوغرام من الهيروين في سنة واحدة. وبمساعدة تنصّت مرخَّص على المكالمات الهاتفية، استمَع إلى المحادثات الشخصية لبعض أكبر رجال العصابات في العاصمة. لكنه شعَر بمقاوَمة خفية عندما حاولَت وحدته الصغيرة التحرّك ضد اللاعبين الكبار.

كان كوليتر خبيراً في استخدام الاستخبارات البشرية ضد عالم الإجرام. وكانت مهارته تكمن في قراءة عقول الأشخاص بشكل عام، والعقول الإجرامية بشكل خاص. وقد اعتدتُ أن أشير بفخر إلى امتلاكه ما يشبه نظارات الأشعة السينية التي كانت تُصوَّر في الكتب الهزلية. ما عليك سوى السير معه في الشارع، وسيشير لك بشكل غير رسمي إلى فريق من المجرمين بين الحشود يبيعون المخدرات أو ينشلون محافظ النقود. لقد كان يرى ما لا يراه الأشخاص العاديون.

ربما كانت خلفيته هي السبب. فقبل أن يصبح شرطياً، كان سائق سيارة أجرة في جنوبي لندن، وأصبح يعرف العصابات المحلية. في تلك الأيام، كان جزءٌ من عمل سائق سيارة الأجرة تسليمَ أكياس من النقود لرجال الشرطة في المقاهي. وبعدما أصبح شرطياً، لم يعمل كوليتر في شوارع جنوبي النهر في لندن قطّ؛ فقد كان مشهوراً جداً هناك.

في العام 1999، أي بعد ست وعشرين سنة في الشوارع، بدأ كوليتر بالعمل في وكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام (NCIS) التي تأسَّست في العام 1992 لربط مختلف وكالات محاربة الجريمة. كان مقرها مقابل مسار السكك الحديدية من المركز الرئيس لجهاز الاستخبارات السرية (SIS) في فوكسهول بريدج. كان كوليتر فرداً ضمن وحدة خاصة تجمِّع معلومات استخباراتية عن الاتجار بالهيروين.

ومع ازدياد تنظيم الحرب ضد أكبر المجرمين في التسعينيات، أنشأت الشرطة والجمارك نظام كمبيوتر مشتركاً موضوعاً لدى وكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام. وعندما يصبح أحد الأشخاص هدفاً للتحقيق لدى إحدى الوحدات، توضَع "علامة" على اسمه في ذلك النظام لمنع بقية الوحدات من مطاردة الهدف نفسه وإفساد التحقيق. على سبيل المثال، إذا كان شخصٌ ما تحت مراقبة الجمارك لمدة طويلة بهدف تعقّب مورّديه، فمن الممكن أن تذهب سنوات من الجهد أدراج الرياح إذا هاجمته وحدةٌ من الشرطة بشكل أخرق واعتقلته لجنحةٍ أقل أهميةٍ.

وبامتلاكه وصولاً إلى تدفّق معلومات محدود أكثر، لاحظ كوليتر أن رجال العصابات أمثال أنطونيادس تمّت الإشارة إليهم على الكمبيوتر بأنهم قيد التحقيق من قبل الجمارك لسنوات، ولكن لم يتم توجيه أي اتهامات جنائية إليهم. رَفَض كوليتر ذكر أي ملفات استخباراتية محدَّدة، ولكنه يتذكّر بشكل عام أنه كان من الواضح أن بعض الأشخاص الموسومين بأنهم من كبار التجار "لم يُعمَل على ملفاتهم" من قبل أي فريق تحقيقات. وقال إنه "يمكنك سحب الملف، وسترى بسرعة أن الرجل مُخبرٌ. فإذا كانت الاستخبارات الحالية تشير إلى أن الرجل تاجر مخدرات في شمالي لندن ولم يبيِّن لي [الملف] أنهم كانوا يعملون عليه، يصبح من الواضح أن العلامة وُضعت على اسمه عن طريق الخطأ".

بالتأكيد، إن مثل هذه العلامات الخاطئة كانت وسيلةً شرعيةً لحماية المُخبِر، أليس كذلك؟

يوافق على ذلك قائلاً: "لن تحصل على مُخبِرين إلا إذا حميتهم". لكن أنطونيادس والآخرَين كانوا أكبر "ثلاثة مجرمين يديرون تجارة المخدرات ويمتلكون 80 بالمئة منها في المملكة المتحدة في ذلك الوقت. وإذا حميتَ أولئك الأشخاص للحصول على معلومات عن الشباب الذين يتعاملون بالكيلوغرام الواحد، فإن ذلك لن يجعل النظام مفيداً حقاً".

طلبتُ من كوليتر أن يعلّق بعد أن رأيتُ تقارير لوكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام تصنِّف أنطونيادس كتاجرٍ كبير. وقال أحدها إنه كان "مشتبهاً فيه بالضلوع في تنظيم استيراد شحنات كبيرةٍ من الهيروين إلى المملكة المتحدة بطرائق مختلفة". وقال تقريرٌ آخر إن "هذا الهدف يرتِّب عمليات استيراد الهيروين وتسليمه في كل مناطق شمالي شرقي لندن".

عند إجرائي مقابلة معه بعد تقاعده، قال نيك بايكر، المشغِّل السابق لأنطونيادس، إن التقارير كانت خاطئة. فقد وُضعتَ في الكمبيوتر- بمعرفة مدير كوليتر في وكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام- كتمويه لحماية المُخبِر.

ومثلما قال أنطونيادس نفسه: "أحياناً يضعون في الكمبيوتر أنني تاجر مخدرات خطير لأنهم يعرفون أن بعض الأشخاص سيتحققون مني". وقال بايكر إن كوليتر حسن النية، ولكنه لم يكن يملك وصولاً إلى الصورة الكاملة لأسباب أمنية. لكنْ وفقاً لبايكر، كان رؤساء كوليتر في وكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام على دراية كاملة بأن أنطونيادس لم يكن تاجر مخدرات في الواقع بل كان عميلاً خفياً.

يُصرّ كوليتر، الذي كان لا يزال يُنصت إلى أخبار الشارع في شمالي لندن، على أن التقارير كانت حقيقية، وأن أنطونيادس كان مجرماً خطيراً. "وتشير الاستخبارات إلى أنه كان يتاجر بكميات كبيرة من المخدرات. وكانت خدعته المفضّلة هي أن يبيع الهيروين لأحد الأشخاص ثم يرتّب المسائل حيث تأتي جماعته وتسرق الهيروين من الشاب الذي باعه إياها للتو. انتقل إلى الساحل الجنوبي، وكانت المعلومات تشير إلى أنه يستخدم زوارق لإحضار المخدرات. وضعنا لائحة بأكبر عشرة مجرمين في المملكة المتحدة يتاجرون بالمخدرات ولم يحاول أحدٌ اعتقالهم، وقد ظهر اسم أنطونيادس في تلك اللائحة. كان واضحاً جداً أنه لاعبٌ كبيرٌ".[11]

رأى كوليتر في كل ذلك دلالة على وجود فساد في النظام. فقد كان هناك تشديد كبير على الأهداف، نظراً إلى كمية الأطنان من المخدرات التي تمت مصادرتها كل سنة. وكان يتم استخدام المُخبرين لتنظيم عمليات مصادرة كبيرة، لكن النظام كان يسمح للأوغاد المسؤولين بالهروب من وجه العدالة.

في العام 2001، سافر أنطونيادس إلى أفريقيا الجنوبية، حيث اعتُقل بناءً على مذكرة يونانية قديمة بتهمة الاتجار بالمخدرات. تمكّن من إخراج نفسه من هذه الورطة، ولكن أُعيد اعتقاله في ألمانيا في يونيو بناءً على مذكرة الانتربول نفسها. لذا، اضطر ضباط الجمارك البريطانيون إلى التدخّل الآن لحماية عميلهم؛ فأرسَلت وزارة الخارجية برقيةً إلى السفارة البريطانية في برلين في 31 يوليو تطلب فيها من

الموظفين التواصل مع وزيرَي الخارجية والعدل "للعمل على إطلاق سراح السيد أنطونيادس فوراً". الرجل الذي لا يزال موسوماً في كمبيوترات الشرطة الوطنية "كمشتبه فيه بالضلوع في تنظيم شحنات كبيرة من الهيروين" كانت الحكومة البريطانية تحميه.

لقد سُرِّب إليّ المستند التالي:

سري
عاجل من وزارة الخارجية إلى برلين
برقية رقم 156 من 311619Z في 01 يوليو
وعاجل إلى فرانكفورت، أثينا
معلومات عاجلة من دائرة الجمارك والضرائب
معلومات روتينية إلى وزارة الداخلية، نيقوسيا، وكالة الاستخبارات الوطنية لمكافحة الإجرام

برقيتكم رقم 334

الموضوع: أنطونيادس

الخلاصة

الموافقة على مسألة الضغط المقترحة في برقيتكم رقم 334.
دائرة الجمارك والضرائب جاهزة للسفر لتقديم المساعدة.
الحجة الرئيسة - الحاجة إلى حماية المخبرين.

التفاصيل

نوافق على أنه يجب على القنصل أن يلتقي وزير الخارجية ليسرِّع في إطلاق سراح السيد أنطونيادس فوراً.

البرقية- المُرسَلة بناءً على توصية الجمارك- تُبلِّغ الديبلوماسيين في ألمانيا بتقديم القضية على الشكل التالي:

إن محاكمةً علنيةً في اليونان ستكشف عمل السيد أنطونيادس منذ زمن طويل كمُخبر لدائرة الجمارك والضرائب (1987 حتى تاريخه)، وستعرِّض حياته للخطر من قِبَل العناصر الإجرامية... وأهم شيء هو أن السيد أنطونيادس لا يزال مُخبراً حيوياً. وعدم استرداده سيمنع مواصلة عملية حالية لمكافحة المخدرات. [...] إذا أُرسِل السيد

أنطونيادس للمحاكمة في اليونان، فإن ذلك سيجعل عملية تجنيد المُخبرين صعبةً جداً، وسيؤذي جهودنا الجماعية في نهاية المطاف بمكافحة تجارة المخدرات.

ذكرَت البرقية مستنداً أعدّه سايفري- المشغِّل القديم لأنطونيادس- عن "مهنته السابقة"، لكنها قالت إنه يجب أن يبقى طي الكتمان. يمكن تسليم المستند إذا لزم الأمر، مع تحذير "بأن محاكمةً علنيةً قد تكشف هذه الخلفية التاريخية، وبالتالي ستُفسح المجال أمام محاولة اغتياله. لذا، نفضِّل إبقاء مستند سايفري طي الكتمان".

تم توقيع الرسالة بأحرف كبيرة- ككل برقيات وزارة الخارجية- لكنية وزير الخارجية: STRAW.

وتلتها إفادةٌ إلى المحكمة من نيك بايكر بأن أنطونيادس- بالأخص بين العامين 1989 و1992- أعطى "استخبارات قيّمة جداً بالنسبة إلى الاتجار بالهيروين، وكان مسؤولاً عن عدد من المصادرات بالغة الأهمية؛ بما فيها أكبر مصادرة في التاريخ حتى ذلك الوقت". وكان يقصد معلومةً أرسلها أنطونيادس في العام 1991 وأدّت إلى اعتقال ضابط استخبارات تايلاندي في مطار هيثرو يحمل تسعة وأربعين كيلوغراماً من الهيروين.[12]

عندما سمِع كوليتز عن الضغط المُمارَس لتحرير أنطونيادس شعر بغضب شديد. وقال: "وصلتني معلومات مفادها أن كبار ضباط الجمارك سافروا إلى ألمانيا لضمان إطلاق سراحه. شعرتُ بالصدمة. لا يمكنني تصديق ما يجري. لقد كان أحد أكبر عشرة تجار مخدرات في المملكة المتحدة... وكان مشتبهاً فيه بالكثير من جرائم القتل". عُقد اجتماعٌ مع الجمارك، ويتذكّر كوليتز أن الشرطة قد أبلغته خلاله أن أنطونيادس كان "أفضل مُخبِر حصلت عليه الجمارك في التاريخ، وما أعطاه للمملكة المتحدة يفوق بكثير الضرر الذي فعله". اعتبر كوليتز أن كل هذا "هراء مُطلق".

نجح الضغط في ألمانيا، وأطلقت المحكمة سراح أنطونيادس. لكنْ بدا أن التدخّل سابق لأوانه. فالقوانين البريطانية تنصّ على أنه إذا أراد المُخبِرون تجنّب المحاكمة، فعليهم الحصول على موافقة حاسمة قبل ارتكابهم الجريمة التي عليهم ارتكابها ليحافظوا على تغطيتهم. ومن دون موافقة كهذه، لن تتوفّر لهم أي حماية من المحاكمة. فلا وجود لترخيصٍ عامٍ بارتكاب الجرائم. وإذا اعتُقل مُخبرٌ ووُجِّهت إليه تهمة مخالفة القانون، ولم يكن قد حصل على موافقة مسبقة لنشاطاته، فإن المساعدة التي قدَّمها المُخبِر للسلطات يمكن أخذها بعين الاعتبار لتخفيف الحُكم بعد إدانته فقط: يستطيع القاضي عندها استخدام هذه الخلفية سراً لإصدار حُكم مخفّف.[13] في الولايات المتحدة، يستخدم مكتب التحقيقات الفدرالي نظاماً مشابهاً ولكنه أكثر شفافية، يعطي المُخبِرين أساساً لارتكاب جرائم طفيفة بعد موافقة وزارة العدل. لكن النقطة الرئيسة في البلدَين كانت أن الموافقة تسبق ارتكاب الجرائم. فتشغيل الجواسيس أشبه بدخول منطقة ضبابية، وبالأخص عند التعاطي مع العالم الإجرامي. لذا، يجب القيام ببعض التسويات، والتفكير ملياً بالمصالح. لكن القرار بالموافقة على جريمة ما لمنع أخرى لا يجب أن يصدر عن الضباط أو حتى عن المسؤولين في الوكالة الذين يشغِّلون العميل، بل يجب على موظف رسمي منتخَب أو سياسي أن يتقدَّم بطلب كهذا، وأن يوقّعه شخصٌ مستقلٌ، والأفضل أن يكون قاضياً، ويجب أن يتأكد أولاً من أن لديه كل الأدلة، ويتحدَّث مع الوكالات الأخرى عند الضرورة ليتحقّق من نظافة العميل.

في أوائل القرن الحادي والعشرين، كانت جمارك جلالتها- وهي مؤسسة وطنية بريطانية أسَّسها الملك جون في العام 1203، وتسبق تاريخ تأسيس البرلمان- في حالة اضطراب. ولطالما كانت تعاني من حوادث غريبة. في المركز الرئيس القديم على نهر التمز، كان فرع الاستقصاء، المعروف بصداقاته الحميمة وهرجه ومرجه، يتواجد في قاعة كبيرة تسمّى الغرفة الطويلة. ووفقاً لعدة ضباط سابقين، كانت زجاجات الشراب تُخبأ في الأدراج أحياناً، وكانوا من وقت إلى آخر يلعبون لعبة

تدعى "مطاردة في أعالي الغرفة الطويلة"، حيث يبدأ ضباطٌ مدرَّبون جيداً بالوثب من مكتب إلى آخر من دون لمس الأرض.

لكن المشكلة الحقيقية لم تكن تلك التصرّفات الغريبة أو ألعاب التسالي، بل طريقة تشغيل الجمارك لمُخبريها في عالم الإجرام. فمثلاً، تم إسقاط سلسلة من الإدانات بتُهم التهريب وعدم تسديد الرسوم الجمركية لأن الجمارك أو محاميها أخفوا حقيقة أن بعض شهودهم الرئيسين في المحكمة كانوا يُستخدَمون كعملاء أيضاً. وحصلت أيضاً سلسلة من الأخطاء الفادحة أكثر في تشغيل العملاء. فلسنوات عديدة، سمحت الجمارك للمُخبِرين بإحضار بعض شحنات المخدرات من باكستان إلى بريطانيا. كانت تلك الشحنات تسمّى "توصيلات مراقَبة"، وتُستخدَم للقبض على المشترين بالجرم المشهود خلال تسديدهم ثمن المخدرات. لكنْ في إحدى الحالات الكارثية، اختفت المخدرات في الشوارع؛ مما جعل الجمارك تصبح مورِّد هيروين للمجرمين.

لم تكن المسألة أن الجمارك تعاني من مشكلة محدَّدة، بل أنه كان هناك نوعٌ من العواصف العاتية التي تتحضَّر في الخفاء. فتماماً مثلما كانت نشاطات الاستخبارات محط مراقبة دقيقة وتفحّص أكثر من قِبَل المحاكم وعامة الناس، كان هناك ضغطٌ لنشر عملاء خفيين أكثر في العالم الإجرامي المحفوف بالمخاطر. فكجزءٍ من جهودها لإنشاء دور جديد لنفسها بعد الحرب الباردة، وضعت وكالات الاستخبارات نفسها في الميدان العام. لكن هذه العلانية في أوروبا وأميركا أدَّت أيضاً إلى تحفيز تفحّصٍ ومراقبة لم يسبق لهما مثيل لنشاطات الاستخبارات. ولم تكن العمليات التجريبية أكثر بوضع جواسيس داخل منظمات الجريمة المنظَّمة تستطيع دائماً تحمّل مثل هذه المراقبة والتدقيق. وكانت آخر إهانة تعرَّضت لها الجمارك البريطانية هي إخضاعها للتحقيق بتهمة الفساد، في عملية أطلقتها شرطة تمز فالي، وسُمِّيت لسخرية القدر "عملية الفضيلة"، وقد شملت أنطونيادس والرجال الذين أداروا قضيته.

في أوائل القرن الحادي والعشرين، كانت قيمة أنطونيادس كمُخبِرٍ قد تناقصت. وبدأ مسرح الجريمة في لندن يشتبه في الجهة التي كان أنطونيادس يعمل لصالحها؛ فعندما يُعتقَل تجار مخدرات، يطالب محامو الدفاع عنهم بأن توضِّح النيابة العامة إن كان ضالعاً في القضية أم لا. وحتى إن أُلقي القبض عليهم بالجرم المشهود ومعهم المخدرات، كانوا يدّعون أن أنطونيادس حرَّضهم على ذلك.

في يوليو 2002، حصل حادثٌ خطيرٌ أكثر. فقد أقسَمَ كريس ياكوفيديس، وهو رجل أعمال اعتُقل بتهمة التهرّب من تسديد الضرائب بقيمة £1.4 مليون، في إفادته أنه سدَّد مبلغاً يفوق £250,000 لأنطونيادس لقاء إسقاط التُهم عنه. وقال إن أنطونيادس وعده بذلك بفضل علاقاته في الجمارك. وعندما لم تُسقَط التُهم، قرَّر أن يشير إلى أنطونيادس.

اشتبهَ رجال الشرطة بوجود أكثر من مجرد عملية احتيال قام بها أنطونيادس؛ فقد كانوا قلقين من وجود فساد خطير ضمن الجمارك. في ذلك الصيف، قام ضباط عملية الفضيلة بغارات عند الفجر، واعتقلوا نيك بايكر وليونيل سايفري؛ مشغِّلَي أنطونيادس منذ فترة طويلة. أوقِف بايكر الذي كان قد ترقّى ليصبح رئيس قسم العمليات الخفية في الجمارك عن العمل لعدة أشهر؛ رغم تبرئته لاحقاً من كل الشكوك، مثلما حصل مع سايفري وبقية ضباط الجمارك. لكن أنطونيادس كان خارج البلد في ذلك الوقت، وصدرت مذكرة توقيف من الشرطة لاعتقاله. وصرَّح أن لا نية لديه للعودة قبل إلغاء مذكرة التوقيف.

رغم تبرئة ضباط الجمارك، كانت مؤسستهم تُحتضَر. فقد انتهى فرع الاستقصاء الرئيس للجمارك، وحُوِّل إلى هيكلية جديدة؛ وهي وكالة الجريمة الخطيرة والمنظَّمة (SOCA)، وتبوَّأ فيها ضباط الاستخبارات السابقون أو المستقلون عدة أدوار قيادية. فالاعتقاد السائد كان أن الأشخاص الذين يُفترَض أنه تم تدريبهم على تشغيل العملاء يستطيعون التجسّس على المجرمين بشكل أفضل مما حقّقه رجال الشرطة أو الجمارك حتى الآن.

من الواضح أن تحقيق الشرطة قد آذى بايكر الذي تقاعد بعد ذلك بقليل، ولكنه لم يفقد الأمل. وقال: "في هذه المهنة، نوجِّه اتهامات قاسية ضد الأشخاص. لذا، عليك أن تتوقّع أن يرمي الأشخاص اتهاماتٍ بوجهك، مهما كانت بلا أساس".

خلال كل تلك الأمور، بقي بايكر وفياً لعميله أنطونيادس. وسألتُه عمّا إذا كانت الجمارك متأكدة حقاً من أن أنطونيادس لم يكن يراوغ النظام ويعمل كمجرمٍ ومُخبِرٍ في آن واحد، فأجاب أن كل أنواع الفحوص كانت حاضرة لمنع ذلك.

وتابَعَ قائلاً: "لقد استخدمناه للحصول على معلومات وتحديد الأهداف"، لكن بعد الحصول على معلومات عن تاجر مخدرات مثلاً، يتم استخدام عدة طرائق أخرى للتحقّق من المعلومة. وقالت مصادر أخرى إن التنصّت على المكالمات الهاتفية كان يُستخدَم بشكل كبير. فالجمارك كانت تملك "خطوطاً"- مثلما كانت تسمّى عمليات التنصّت على الهاتف- أكثر من أي وكالة أخرى. وأصَرَّ بايكر على أن لا شيء تلقّوه من أنطونيادس كان يُعتمَد من دون التحقق منه، بل كانت معلوماته عبارة عن مواد خام يتم التحقّق منها مراراً وتكراراً. وبالنسبة إليه، أدّى أنطونيادس دوراً حيوياً للجمارك البريطانية؛ مُنجزاً مهام أكثر من أي عميل آخر تقريباً.

أما بالنسبة إلى أنطونيادس، فقد أنكَرَ دائماً اتهامات الشرطة بأنه بقي نشطاً جنائياً. ولكنه كشَفَ عن أنه راوغ النظام، وقال إن الجمارك ارتابت به في بادئ الأمر وتتبّعت كل تحرّكاته، موزّعة أشخاصاً لتعقّبه والتنصّت على مكالماته. "هل تعتقد أنهم ترَكوني وشأني؟". لكن الأمور تغيَّرت لاحقاً. "في النهاية، أصبحوا يثقون بي كلياً، وتركوني أفعل ما أشاء".

كانت لديه شبكة من الأشخاص الذين يزوِّدونه بالمعلومات ("مصادره الفرعية" حسب قاموس الاستخبارات). وقال إن رجال الجمارك كانوا يعلمون أنه "يجعَل

الناس يصدِّقون" أنهم إذا أعطوه معلومات فلن يدفع لهم فحسب، بل سيساعدهم إذا طَلَبوا منه المساعدة. وقد حذَّر بعض مهرِّبي المخدرات ليتجنّبوا الاعتقال. وبالمقابل، قال إنه لجأ إلى التهديد أيضاً، قائلاً للتجار: "أنا أعرف ما تفعله. أعطني بعض المعلومات وإلا فستبدأ المشاكل بالوقوع على رأسك".

وأقرَّ أن ثلاثة أشخاص عملوا لصالحه على مر السنوات قد قُتلوا على يد مجرمين آخرين: "ليس لأنهم كانوا مُخبِرين، بل لأنهم كانوا أغبياء". سُمعته أيضاً أبقَت العديد من مُخبِريه الآخرين على قيد الحياة: "كانوا يذكرون اسمي، ويقولون لك مثلاً إنك إذا أزعجتهم فسيتصلون بصديقهم كيرافنوس. كان الأشخاص يصمتون عند ذكر اسمي، أتفهم قصدي؟".

لذا، سألتُه إن كان يدير شكلاً من أشكال نظام الحماية؟

فقال: "اسمع يا صديقي، الناس يعرفونني. وهم يعرفون أنني أُصبت بالرصاص عشر مرات، ودخلتُ السجن ثلاث مرات، ولا أزال هنا. إنهم يعرفون أن هذا الرجل ذو شأن".

يوم الجمعة 11 فبراير 2011، تلقيتُ رسالة بريد إلكتروني فجأة. كنتُ جالساً في فندق في أفغانستان، وكانت الرسالة من فهيم، ابن زوجة أنطونيادس.

> عزيزي ستيفن
>
> لقد كتَبتَ عن أبي، أندرياس أنطونيادس، منذ بضع سنوات. إنه الآن في الثمانين من عمره، وهو مستعدّ ليتكلم عن نشاطاته في الماضي. الرجاء الاتصال بي إذا كان الموضوع يهمّك.
>
> مع جزيل الشكر، فهيم أنطونيادس

أشارت الرسالة إلى مقال كتبته عن أنطونيادس للصنداي تايمز. وخلال الغداء في أحد المطاعم في مايفير، أملى عليّ فهيم ووالدته حفيظة- زوجة أنطونيادس-

قصتهم. أخبراني أن أنطونيادس في تونس، حيث ذهب ليحاول إنشاء نادٍ آخر. ولا يمكنه العودة إلى لندن لأنه لا تزال هناك مذكرة توقيف من شرطة تمز فالي بحقّه، أي من الفريق الذي كان يحقّق في ادعاءات الفساد في الجمارك. هل بإمكاني السفر ولقاؤه هناك؟

عندما وصلتُ إلى تونس، وكان الرئيس زين العابدين بن علي قد أُسقط من الحُكم للتو، كان واضحاً أن أنطونيادس وجد نفسه محاصراً. إذ بدت أشياء كثيرة وكأنها تضيّق الخناق عليه. وكان غاضباً لأنه بعد كل تلك السنوات، لا يملك مالاً ولا معاش تقاعد، ولا يمكنه العودة إلى بريطانيا، ولا أحد هناك سيحاول إبرام صفقة مع الشرطة للمفاوضة على عودته. كل ذلك جعَله غاضباً.

بدأتُ أبحث في تاريخ أنطونيادس كمُخبِرٍ، وعدتُ إلى فترة عمله مع إيوكا. التقيتُ بعض رفاقه القدامى في قبرص؛ أولئك الذين يكرهونه لأنه خائن، وأيضاً أولئك الذين يدافعون عنه. واكتشفتُ أيضاً مصير هولوداي، الذي لم يمت في الهجوم خلافاً لما ظنّ أنطونيادس طيلة تلك السنوات، بل أصبح مشلولاً بسبب الرصاصة التي ثقبت نخاعه الشوكي. قضى بقية أيامه على كرسي نقّال، وعاد إلى منزله في لينكولنشاير ثم توفّي في البرتغال في العام 1967.[14] تركت زوجته التي ماتت بعد بضع سنوات وراءها تقريراً جميلاً عن حياتهما بين أشجار الصنوبر واللوز في قبرص، وقد سمحت لي كِنّتهما بالاطلاع عليه. لم ألتق ليونيل سايفري مطلقاً. ترَكتُ له رسالتين على المجيب الصوتي على المكالمات الهاتفية لديه، ولكنني سمِعتُ بعدها في أبريل 2012 أنه متوفٍ. وقد أثنت الدايلي تلغراف "على حياته الخطيرة كضابط استخبارات في مالايا وقبرص". بعد تقاعده من الجيش، أصبح "مستشاراً في علاقات العمل" في قطاع المجلات. أعتقد أن هذا مجرد غطاء لمهنة الجاسوسية. ووفقاً لبعض الأصدقاء، كانت لزوجته ماريسا اتصالات بالاستخبارات البريطانية أيضاً.

أطلعني أنطونيادس على المزيد من مغامراته. فبعد إطلاق سراحه في ألمانيا، بدأ بمغامرة سرية أخرى: هذه المرة لصالح وكالة الاستخبارات المركزية. كانت حفيظة أفغانية الجنسية، وبعد سقوط حركة طالبان، استخدم أنطونيادس معارفها ليعمل على مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية في إعادة شراء الأسلحة من أمراء حرب المجاهدين السابقين المعادين للسوفيات والتي زوّدوهم بها في يوم من الأيام. سارت العملية على ما يرام إلى أن قتل حارسه البريطاني- وهو جندي سابق- رجلَين أفغانيَين في عراك غير مفهوم الأسباب في فندق بينما كان غائباً في دبي. كانت تلك الحادثة نهاية مخطط آخر، وضربة موجعة لآمال حفيظة بالعودة للعيش في بلدها.

غالباً ما تساءلتُ كم عليّ أن أصدِّق أنطونيادس، رغم أنني أُعجبتُ به كثيراً. يمكنني التحقق من عمله كمُخبِر، فقد رأيتُ المستندات وتكلّمتُ مع مشغِّليه. لكنْ هل يجب أن أصدِّق احتجاجاته، رغم ما قاله رجال الشرطة أمثال كوليتر، أي أنه لم يبقَ مجرماً كبيراً في السر؟ بصفتي كاتباً، أردتُ دائماً التوصّل إلى استنتاج؛ أن أصل إلى بعض اليقين بشأن الحقيقة. لكنْ كان الحال معه أنني في اللحظة التي أعتقد فيها أنني حصلتُ على القصة من دون أي لبس، يتغيَّر تفصيلٌ صغيرٌ فيُثير شكوكاً جديدةً في نفسي بطريقة أو بأخرى. لكنّ قدرته على إبقائك مُخمِّناً توضِّح أيضاً سبب كونه بارعاً جداً، وسبب كونه ناجياً إلى تلك الدرجة. عندما سألتُه مرةً عمّا يلزم ليكون المرء مُخبراً، أشار إلى أن السر يكمن في خداع الأشخاص، وقال: "يجب أن تكون ذكياً". فالمُخبر يبقى حياً فقط باستخدامه دهاءه، ليواصل تمثيله دوره باتقان. "بقيتُ مُخبِراً لعشرين سنة، والجميع يظنّون أنني كنتُ تاجر مخدرات. حتى الشرطة الآن تظنّ أنني لعبتُ لعبةً مزدوجةً". لقد نجا لفترة طويلة كمُخبِرٍ بخداعه الأشخاص، وكان يملك القدرة على إخراج نفسه من أي ورطة. لكنّ معرفتي أنه يمتلك المهارة ليخون الآخرين بشكل جيد جداً كانت تُشعرني دائماً بأنه يخدعني أنا أيضاً.

بعد عودته إلى إنكلترا، بقي نيك بايكر يتلقى مكالمات هاتفية من أنطونيادس، وكان متواجداً ليساعد عميله السابق، أو على الأقل ليفعل ما بوسعه وهو متقاعد.

لقد ظلّ يثق به دائماً؛ لكن ذلك كان واجبه المهني، تماماً مثلما كان سايفري يشعر. ويقول بايكر إن "الأمر يشبه الزواج. فعندما تجنّد شخصاً ما هكذا، فأنت تبقى معه طوال حياتك؛ في السرّاء والضرّاء".

أما بالنسبة إلى معظم أجهزة الاستخبارات، فقد ابتعدت عن مثل هذه الأعمال. فقد أبقتهم أولوية محاربة الجريمة مشغولين لبضع سنوات، ولكن فقط إلى أن ظهر شيء آخر. ففي أواخر التسعينيات، كان من الواضح للبعض أن هناك مشكلة ضاغطة أكثر من المخدرات في الأفق؛ إذ سيتم استدعاؤهم لمحاربة تهديد جديد مروِّع، شكلٍ وحشيٍ جداً من الإرهابيين يعتبر الغربيين العاديين أهدافاً مبرَّرة، ويهدف إلى التحريض على الهجوم أينما يكون من الممكن قَتْل مئات المدنيين. لكنْ حتى مع تحويل أجهزة الاستخبارات انتباهها إلى هذا التهديد، لم ينتهِ نشر الجواسيس في العالم الإجرامي، كما لم ينتهِ تجنيد المجرمين أو المجرمين السابقين كجواسيس.

رغم بعض الأخطاء في طريقة معالجة حالته، برهن أنطونيادس أنه يمكن استخدام العملاء لإجراء عمليات ناجحة ضد كبار المجرمين وعصابات المخدرات. لكنْ بالنسبة إلى أجهزة الاستخبارات المنخرطة في أعمال التجسّس الحسّاسة أكثر كمحاربة الإرهاب، كانت لديه بعض السمات الشخصية التي تُعتبر أقل من مثالية، أو حتى خطيرة إيجابياً. لطالما كان أنطونيادس شخصاً لامعاً وشغوفاً بالحياة، ولديه إحساس قوي بأهميته كشخصية معروفة في مجتمعه. لذا، كان هذا يعني أنه لم يكن بمقدوره مطلقاً البقاء في الظل أو تجاهل الإهانة، و لم يكن ليقبل مطلقاً أن يكون جاسوساً عادياً. بالإضافة إلى ذلك، كان كريماً بشكل لا يُصدَّق ومُدمناً على القمار، وهذا يعني أن كل قرش يكسبه إما سيتبرّع به أو سيخسره. لن يتقاعد بلباقة أبداً، وبالإجمال، كان خطراً أمنياً.

من جهة أخرى، شكّلت مواهب أنطونيادس المتعددة وسعة حيلته ورغبته في العمل ضد أي عدو مميزاتٍ قيّمةً بشكل لا يُصدَّق. ومثلما سنرى، إن العملاء

الذين يملكون هذا النوع من الشجاعة الصافية، إلى جانب خلفية صلبة، برهنوا أنهم من صنف الرجال الذين يمكنهم أن يكونوا "الرجل القريب"، أي يمكنهم أن يكونوا عملاء في قلب جماعة إرهابية متطرّفة.

تماماً مثلما كان أعضاء حركة طالبان- في سعيهم لكسب المال- مستعدين للتعامل مع أنطونيادس، فإن أي جماعة إرهابية تقريباً من الإسلاميين المتطرّفين- مهما تكن دوافعها نقية روحياً أو سياسياً- وجدت أن الأشخاص الذين يملكون علاقات إجرامية مفيدين للغاية. فأي حملة عنف جدية تتطلّب أسلحة ومتفجرات، ومساعدة في تزوير الأوراق الثبوتية، ونقوداً، وتذاكر سفر. كما أن الجماعة كثيراً ما تبحث أيضاً عن مصدر جاهز للدخل غير المشروع. كل هذه الأمور قد تقرِّب الإرهابيين من شخص مثل أنطونيادس يعرف هذا العالم؛ حتى لو لم تكن هناك دوافع مشتركة بينهم. وبالنسبة إلى جهاز الاستخبارات، قد يكون أنطونيادس فوضوياً، لكن التعامل مع دوافعه الرئيسة- المال والإثارة والوفاء لمشغِّليه- كان أسهل بكثير من التعامل مع دوافع أي متطرِّف دينياً.

قد يشكِّل المجرمون السابقون جواسيس محفوفين بالمخاطر، وبالكاد يمكن اعتبارهم عملاء مفضَّلين، ولكنهم سيبرهنون عن قيمتهم كجواسيس جدد.

مصير العملاء السريين متشابه في أغلب الأحيان؛ فبعد فترة طويلة من إنجازهم كل الأعمال المفيدة، لا يقبلون التقاعد أبداً كما لا يتقبّلون أنه تم التعويض عليهم بشكل جيد أيضاً. وأسوأ أولئك العملاء هم الذين كانت وكالات لم تعد موجودة تحميهم، وعدد المدافعين عن إرثها قليل جداً.

رغم كل شيء، يبقى أنطونيادس فخوراً، ولكنه غاضب أيضاً. "صدِّق شيئاً واحداً. عمري ثمانون سنة، وقد نجوت من مصاعب كثيرة. والأشخاص الوحيدون الذين هزموني كانوا البريطانيين عندما اعتقلوني. لم يأتِ رجل عصابات ويلكمني

أو يجعل عيني تتورَّم، بل أتى أشخاص أقوياء لرؤيتي، وتركوني بأنف مكسور أو عينين داميتين. كان عليّ أن أحارب كل يوم في لندن، ولكن لم يتصل بي أحد".

كم فعل لبريطانيا؟ وكم فعلت بريطانيا له؟

"عملتُ معهم لثلاثين سنة، والآن يرمونني في الشارع؛ بلا معاش تقاعد وبلا نقود. أنا أشبه بالكلب بالضبط. لقد ساعَدتُ الأميركيين أيضاً في أفغانستان. والآن ها أنا مثل الكلب. يأكلونك لحماً ثم يرمونك عظماً".

الفصل 5

الجهاد

"سبب عدم منعنا هجمات 11 سبتمبر بسيط: لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية ولا أجهزة استخبارات حلفائها، الغربيين أو المسلمين، جاسوس أو مُخبِر داخل هيكلية قيادة تنظيم القاعدة"

– مايكل شوْير، الرئيس السابق لوحدة أسامة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية[1]

قبل بداية شهر رمضان المبارك، كانت شوارع الجزائر مزدحمة بالناس الذين يتسوقون للمرة الأخيرة تقريباً قبل بدء الصيام، ويخزِّنون الأطعمة استعداداً لهذا الشهر. وقرابة الساعة 3:20 مساءً في 30 يناير 1995، ضرب الإرهاب ضربته، محوِّلاً الشارع المزدحم إلى ساحة من الأشلاء الدموية. فقد انفجرت سيارة ملغَّمة بأكثر من 110 كيلوغرامات من المتفجرات، وكان يقودها من تسمّيه قوات الأمن "متطوِّعِ موت"، أمام مصرفٍ بالقرب من مركز الشرطة، وقُتِل اثنان وأربعون شخصاً.

سبَّبت الوحشية المروِّعة للهجوم حالةً من الرعب. ووُجهَّت أصابع الاتهام إلى جماعة تدعى الجماعة الإسلامية المسلَّحة (Armed Islamic Group أو GIA)، أي الجناح العسكري المنشَق عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر، وهي حركة تم حظرها بعد فوزها في الدورة الأولى للانتخابات البرلمانية.

كرَّر حاكم الجزائر، الرئيس اليمين زروال، نيَّته في إجراء الانتخابات الرئاسية في تلك السنة؛ رغم العنف ومعارضة كل الأحزاب السياسية الرئيسة؛ بما في ذلك الحركة الأصولية المحظورة الآن. وتعهَّد "بمحاربة الإرهاب حتى استئصاله". وفي

واشنطن، أصدَر البيت الأبيض بياناً من الرئيس كلينتون يدين فيه "الإرهاب الأخرق" الذي "لا يمكن تبريره".

على الجانب الآخر للحدود في المغرب المجاور، كان رجل واحد يعرف سراً يمكن أن يؤدي كشفه إلى جَعل كل تلك البيانات تبدو جوفاء. فبينما كان عميلاً لجهاز الاستخبارات الفرنسي، Direction Générale de la Sécurité Extérieure (أو DGSE، المديرية العامة للأمن الخارجي)، قاد منذ بضعة أيام سيارة محمَّلة بالمتفجرات والأسلحة من بلجيكا، وعبر فرنسا وإسبانيا، إلى أفريقيا الشمالية. كان عضواً في خلية للجماعة الإسلامية المسلَّحة في بروكسل، وكانت الأسلحة مرسلة إلى الجماعة الإسلامية المسلَّحة في الجزائر. لم يعرف هدف الشحنة، ولكن بدا له أنه زوِّد بالمتفجرات نفسها التي استُخدمَت في قنبلة الجزائر. "كان واضحاً لي أنها كانت متفجراتي"، حسبما قال لاحقاً عن الانفجار. لقد قام بالتهريب "لإقناعهم أنني واحد منهم، ولكي أتجسّس أكثر عليهم. إنني أخاطر بحياتي هنا".[2]

سأشير إلى هذا المغربي بالاسم عمر ناصري، وهو اسم مستعار اختاره لنفسه لاحقاً. كان مشغّله- وهو المديرية العامة للأمن الخارجي- قد زرع قنبلةً في السابق وفجَّرها في سفينة غرينبيس "راينبو واريور" في مرفأ في نيوزيلندا، فقُتل مصوّر فوتوغرافي. كانت سُمعة الوكالة هي أنها عديمة الرحمة، ولهذا السبب اختار ناصري العمل معها.

اتصَل ناصري- الذي كانت مهمته في الجماعة الإسلامية المسلَّحة شراء الأسلحة من المجرمين وتهريبها- بالفرنسيين منذ عدة أشهر قبل ذلك. وكالعديد من العملاء المحتملين، صدَّق أسطورة التجسّس وبالغ في تقدير أهمية ما يعرفه. كان يأمل في أن يكشف أسراره لقاء مكافأة ضخمة، والحصول على الحماية وهوية جديدة. لكنّ الفرنسيين قدَّروا منصبه أكثر من معرفته، وطلَبوا منه أن يبقى في الجماعة ويكتشف المزيد.

عندما بدأ بالتجسّس، واجَه المُعضلة الكلاسيكية التي تواجه كل الجواسيس داخل عصابات القتلة. فقد كانت مثل هذه المسائل حاضرة دائماً في العالَمين القديم والجديد للتجسّس، ولكنها ستصبح أكثر أهمية الآن. فالجماعة الإسلامية المسلّحة لم تكن جماعة سياسية أو وكالة حكومية تدبّر مؤامرات شريرة دمثة فقط؛ بل كان أولئك الرجال مبتدعي مجازر حقاً. ولم يكن الخطر الذي يواجه أي عميل هو كيفية الدخول إلى جماعة كهذه بقدر ما كان كيفية البقاء فيها. هل يمكن أو يجب إزهاق أرواح بريئة من أجل إنقاذ أرواح أخرى؟ كان الجواب الرسمي بين أجهزة الاستخبارات الغربية لا صارمة دائماً. لكنْ هل كانت الأمور تسير على هذا المنوال حقاً؟ هل تملّصوا من المُعضلة بإبعادهم عملاءهم عنهم قدر المستطاع؟ كان هذا السؤال هو نفسه الذي واجَه البريطانيين في إيرلندا الشمالية، لكن المشكلة كانت حادة أكثر؛ نظراً إلى فظاظة الإسلاميين في ما يتعلق بزهق الأرواح البريئة.

توصّلت وكالات الاستخبارات إلى وسائل كثيرة للتجسّس على الأشخاص الذين يتآمرون للقتل من دون أن يضطر عملاؤها إلى ارتكاب جرائم قتل. وكانوا يحاولون مثلاً تجنيد عشيقة الإرهابي أو سائقه، وليس إرهابياً زميلاً له. لكن شخصاً مثل ناصري- قريباً من الدائرة الداخلية لخلية إرهابية- كان دائماً أملاً مثيراً للحشرية.

قصة ناصري ليست نموذجية. فأجهزة الاستخبارات تبتعد عادة قدر الإمكان عن شخص عنيد مثله ولا يمكن توقّع تصرّفاته. "إذا كان عليك التعامل مع عميل صعب، فافعل ذلك باستخدام الخوف والذعر ومسدس في جيبك"؛ على حدّ قول ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية. لقد اكتشَفتُ أن ناصري كان حالةً من حالات الوفاء المتعارض. فنظراً إلى الشوط الكبير الذي قطعه في عالم الجهاد، وإخلاصه لعقليته، شكّل مثالاً واضحاً عن التحديات الخاصة التي تواجهك عند محاولة اختراق الجماعات الإسلامية الإرهابية العصرية؛ أي أن تجد شخصاً قادراً على الغوص عميقاً داخل التنظيم، وربما يختفي لأشهر، ولكن يمكنك أن تكون

واثقاً من أنه سيعود ولن يقتلك. أحياناً، "الرجل القريب" كان الرجل الذي لا تريده.

بإمكان العملاء السريين أنفسهم أن يعيشوا في حالة إنكار أحياناً. وهو مفهوم نفسي يعني أنهم يرفضون مواجهة شيء صعب أو مؤلم أو حتى الإقرار به. فالصعوبة بالنسبة إلى العملاء هي دورهم المتعارض ضمن الجماعة التي اخترقوها. فمن جهة، يحاولون دعم الجماعة من أجل تجنّب كشف أمرهم والبقاء على قيد الحياة. ومن جهة أخرى، يحاولون سراً التغلّب على الجماعة. كانت طريقة ناصري في التعامل مع هذه المُعضلة في وقت قنبلة الجزائر هي بإبعادها عن ذهنه. فقد كان بليد الإحساس، ولديه أولويات أخرى. وقد قال بعد سنوات من هذا الحدث: "كان همّي الأساسي عدم القبض عليّ، والحصول على بعض الحشيشة".[3] أما بالنسبة إلى القصف، فقد قال إنه لم يشعر بأي ذنب. لقد احتاج إلى اختراع تغطية لوضعه. وقد قال من قبل أيضاً: "ليس لديّ أي تصوّر عن الأضرار. ليس لديّ أي تصوّر عن القتل. ليس لديّ أي تصوّر عن المسؤولية".[4] لكنّ هذا الموضوع كان حسّاساً لتذكّره. ومع مرور السنوات، سيعطي أجوبة مختلفة عن تلك القنبلة، وبعضها متناقض كلياً.

في ليلة 24 ديسمبر 1994، وبينما كان ناصري لا يزال في بلجيكا، وقبل تفجير قنبلة الجزائر ببضعة أسابيع، تم اختطاف طائرة في مطار مرسيليا. فقد اقتحمت قوات خاصة الطائرة، وخاضت معركةً باستخدام الأسلحة النارية. مرة أخرى، تساءل ناصري عمّا إذا كانت الأسلحة المستخدمة قد جاءت منه. وقال: "رأيتُ الرصاصات تنطلق من الكلاشينكوف، وقلتُ لنفسي إن هذه رصاصاتي التي اشتريتها".[5]

يزعم أن هذا الحادث أثّر فيه بقوة. وقد جلس أعضاء عصابة بروكسل مبتهجين وهم يستمعون إلى شريط المعركة داخل الطائرة. أراد الخاطفون تفجيرها فوق

باريس في كرة نار عملاقة؛ باستخدام المواد التي خشي ناصري أن يكون قد زوَّدهم بها. وقد كتَب:

> كل شيء على الشريط كان رهيباً. كانت تلك أول مرة شَعَرتُ فيها بمدى قُربي حقاً من كل هذا الرعب. أعرف أنه كان بإمكاني التفكير في ذلك من قبل، لكنني كنتُ قد اخترتُ عكس ذلك. اشتريتُ البنادق لياسين [صديقٌ وعضوٌ في خلية الجماعة الإسلامية المسلَّحة] لأن المسألة كانت مثيرة؛ ولأنني كنتُ بحاجة إلى المال... كل شيء مختلفٌ الآن. كان الأشخاص على الطائرة حقيقيين بالنسبة إلي... وقد حاوَلت الجماعة الإسلامية المسلَّحة قتلهم جميعاً. كانت المسألة مروِّعةً بالنسبة إلي. وعندما سمعتُ الشريط، عرفتُ أنني كنتُ على علاقة بذلك. لم أضغط على الزناد، لكنني ربما زوَّدتُ تلك المجموعة بالبنادق والرصاصات. كنتُ قاتلاً؛ مثلهم تماماً.[6]

لكنه شرَح لاحقاً أنه كان من المهم أن يُدرك أنه لم يكن ضد القتل. إذ لم تزعجه على الإطلاق الهجمات على الحكومة الجزائرية القمعية أو القوى الغربية أمثال الفرنسيين الذين كانوا يتدخّلون بالأمور. ولكنه اعترض على وسائل الجماعة الإسلامية المسلَّحة في قتل مسلمين آخرين: "كانوا يقتلون مسلمين آخرين داخل الجزائر، وكان هذا أكبر سبب جعلني أذهب إلى القنصلية الفرنسية. كنتُ مستعداً للموت لكي أمنعهم؛ لأنني شعَرتُ أنني شريك في جرائم القتل".[7]

في يوم بارد من مايو 2013، كنت جالساً على مقعد خارج كاتدرائية كولونيا على ضفة نهر الراين، بانتظار قدوم ناصري. وكان ذلك اليوم يوم احتفال وطني. وكانت حشود الناس في الساحة تنتظر مشاهدة الموكب الطويل للاستعراض. شعَرتُ وكأن ما أراه مشهد من فيلم العرّاب، قبل وقوع المجزرة.

ثم رأيتُه يسير متجهاً نحوي. كانت قد مرّت حوالي عشرين سنة تقريباً منذ أن أصبح ناصري جاسوساً، وعمره الآن حوالي خمسين سنة، وصوته حاد قليلاً. من المفترض أنه تقاعد من عمله الاستخباراتي منذ زمن طويل. ومثلما قال: "ما زلتُ

بلا عمل". لقد حصل على بعض الوظائف، ولكن من الواضح أنه لم يتمكن من التوقف عن التفكير في عالم التطرّف الذي كان مدار حياته. كان متحمساً ليشرح لي عقلية المقاتلين. كان لا يزال يتابع كل ذلك؛ لا يزال مشدوداً نحو عقلية الإسلاميين.

تكلّم عن الحرب الأهلية الجارية في سوريا وجبهة النصرة؛ وهي فصيل إسلامي يبايع تنظيم القاعدة، وقد تم تصنيفه كإرهابي للتو. وهو مقتنع أن الإسلاميين سيسيطرون قريباً على بقية المتمرّدين. وسألني: "هل يصدمك أن تعرف أنني سأذهب لأحارب معهم غداً إذا تسنّت لي الفرصة؟".

أردتُ أن ألتقي ناصري لأنه اقترَب أكثر من أي شخص آخر سمعتُ عنه ليكون "الرجل القريب" الذي تحدَّث عنه ضابط وكالة الاستخبارات المركزية السابق؛ أي الجاسوس الذي يمكنه أن يجلس بجانب أسامة بن لادن ويعرف أفكاره وخططه. لقد ألّف كتاباً عنوانه "داخل الجهاد العالمي"، ويتكلّم فيه عن فترة تجسّسه داخل مخيَّمات التدريب التي ارتبطت بتنظيم القاعدة. وقد التقى بعض شخصياته الرئيسة؛ حتى قبل أن يغيِّر التنظيم اسمه إلى تنظيم القاعدة. كان ناصري جاسوساً آخر من الجواسيس الجدد، أي من سلالة العملاء الذين تم تجنيدهم بعد الحرب الباردة ليكونوا بذوراً ضمن الأعداء الجدد الذين برزوا في التسعينيات؛ كالجماعات الإسلامية العصرية مثلاً. ورغم مرور سنوات على عمله كجاسوس، إلا أنه لا يزال يمتلك عادات شخصٍ عمل مع وكالات الاستخبارات. ويسمّيهم "الأجهزة"، مثلما يفعل العالمون ببواطن الأمور. أصرَّ على أن نتكلم ونحن نسير، متنقلاً من مكان إلى آخر، كما لو أنه لا يزال يحاول تفادي المراقبة. كما أصرَّ على ألا أنشر الاسم الذي كان مشغِّله من المديرية العامة للأمن الخارجي يستخدمه؛ رغم أنه كان بالطبع اسماً وهمياً. فقد قَطَع وعداً للرجل؛ حتى إن أصبح يكرهه الآن. "إذا لم تكن صادقاً بكلامك معي، فلن تتسنّى لك فرصة لقاء أي شخص مرة أخرى".

كانت نظرة أجهزة الاستخبارات تجاه ناصري متباينة دائماً. فعمله الظاهريّ كتاجر أسلحة ساعد السلطات الفرنسية والبلجيكية في القبض على خلية إرهابية جزائرية تنشط في بروكسل. ولاحقاً، بعد رحلة إلى جبال هندوكوش، ساعد في كشف ما كان يحصل في مخيّمات التدريب العسكرية السرية في أفغانستان. ثم انتقل إلى لندن وقدَّم تقارير إلى الفرنسيين وMI5 عن المتطرّفين الذين كانوا يقيمون هناك. لكنْ رغم أن ناصري بدا وكأنه عميل ممتاز، إلا أنه تصادَم بشكل متكرر مع قادة شبكات التجسّس الفرنسيين والبريطانيين.

ثم افترق عن أجهزة الاستخبارات أخيراً، بعد انهيار الثقة بينه وبينهم. فقد كان مفكّراً حراً، ويقاوم السيطرة باستمرار. وقد سلّط سلوكه المتعنّت الضوء على مُعضلة أخرى من مُعضلات التجسّس؛ لأنه رغم أن عميلاً عنيداً مثله يشكّل خطراً على الوكالات، إلا أن تصميمه ساعد بشكل مساوٍ أيضاً في دفعه قُدماً، ويشرح لماذا- حتى عندما يكون موضع شُبهات قوية- يمكنه ألا يتزحزح عن موقفه قيد أنملة ويشقّ طريقه عميقاً وسط العصابات الإرهابية. لذا، سيحتاج أي ضابط فريق دائماً إلى مقارنة قيمة شخص مثل ناصري بالخطر الذي يشكّله بفضحه عملياتهم مثلاً. ويقول العالمون ببواطن الأمور إنه لا توجد حقاً حالتان متطابقتان.

من الواضح أن العمل معه كان شاقاً. وقد وصف لي اجتماعاته مع أجهزة الاستخبارات البريطانية بينما كنا نتمشى على ضفة الراين مروراً بشوارع البلدة القديمة غير المترابطة. كانوا يضغطون عليه ليعرفوا إن كان صادقاً بأحد الأشياء.

ويتذكّر أنه سأل ضابطاً في الـــ MI5، "دانيال"، في إحدى تلك المرات: "هل تريد أن تتكلم معي عن الحقيقة؟ أتريد أن تدَّعي أنك لا تكذب عليّ حتى الآن؟ أنت مهنتك الكذب باستمرار. حتى إنك تكذب على زوجتك. هل يمكنك النزول إلى الشارع وقول مَن أنت؟ بالطبع لا. لذا، لماذا تكلّمني عن الحقيقة؟".

وقال إن الضابط البريطاني هزّ كتفَيه ببساطة معبّراً عن خيبة أمله. هذه كانت الصورة التي يتذكّره بها رجال MI5: صعب المراس قليلاً.

بالكاد كان من الممكن اعتبار محاربة الإرهاب شيئاً جديداً بالنسبة إلى وكالات الاستخبارات. أما بالنسبة إلى الجواسيس الجدد، فقد أصبح ذلك مسعى أكثر أهمية. ففي مختلف البلدان، لأجهزة الاستخبارات تاريخ طويل في منع ظهور خلايا إرهابية (ورعايتها في بعض الأماكن كوسيلة خفية لفرض سلطة الدولة). وعندما أعادت الوكالات في الغرب إثبات نفسها بعد الحرب الباردة، وحاولت حماية ميزانياتها، ركّزت المزيد من جهودها ومواردها على تجميع معلومات استخباراتية عن الجماعات الإرهابية وعرقلة نشاطاتها. كان هذا العمل الجديد دعماً للشرطة في أغلب الأحيان. مثلاً، ساعدت وكالات الاستخبارات في تجنيد مُخبري الشوارع، واستهداف المشبوهين في عمليات المراقبة والغارات والاعتقالات. لكنّ هذا يمكنه أن يعني أيضاً اتخاذ تدابير خفية لمحاولة عرقلة خطط الإرهابيين وتشغيل عملاء سريين داخل مجموعاتهم.

ورغم أن لبلدان مثل بريطانيا وفرنسا سنوات من الخبرة في مكافحة الإرهاب، إلا أنها كانت بطيئة كالبلدان الأخرى في التكيّف مع التهديد الجديد.

في البر البريطاني الرئيس، كانت نشاطات الاستخبارات ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي بقيادة الفرع الخاص لسكوتلاند يارد. ولم يتولَّ الجهاز MI5 المسؤولية إلا في العام 1992؛ أي بعد انهيار الشيوعية. وكان MI5 قد أسّس فرعاً لمكافحة الإرهاب من قبل في العام 1984، وقد حقّق بعض النجاح، كاعتراض شحنات أسلحة من ليبيا إلى الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقّت على سبيل المثال. لكن مع خلفيته كوكالة لمكافحة التجسّس والتدقيق، كان MI5 يتمتّع بخبرة أقل بكثير من جهاز الاستخبارات السرية أو حتى الجيش البريطاني في تشغيل العملاء، وكذلك خبرة أقل من ذلك في تشغيلهم داخل عصابة إرهابية عنيفة. كان ذلك أشبه بنقل لاعب شطرنج ليمارس لعبة كرة القدم. ووفقاً لضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية، كان MI5 قبل انتهاء الحرب الباردة مجرد "وكالة جمع". وأضاف قائلاً: "لم يكونوا معتادين على تشغيل العملاء على الإطلاق، بل على مجرد لقاء سكرتيرٍ ما من الحزب الشيوعي في بريطانيا العُظمى في أحد المنتزهات.

أما نحن [جهاز الاستخبارات السرية] فكنا نحصل على كل الشباب الأذكياء. لم يكن بإمكانهم الحصول على أي شخص من الرعيل السريع. لكن الأمور أصبحت مختلفة الآن".

بصرف النظر عن قلة الخبرة العامة، كان MI5 يُجري انتقالاً ناجحاً في أوائل التسعينيات؛ من كونه وكالةً لمكافحة التخريب بشكل رئيس إلى أن يصبح مؤسسة رائدة في مكافحة الإرهاب. لكن تركيزه الشديد على إيرلندا الشمالية أبطأ تقديره لتهديد الإسلاميين الجدد. ومثلما يشير مؤرِّخ MI5 الرسمي، الأستاذ كريستوفر أندرو:

> خلال معظم فترة التسعينيات، اعتقد الجهاز أن التهديد الإرهابي الرئيس لبريطانيا- بصرف النظر عن الجيش الجمهوري الإيرلندي المؤقّت- أتى من الإرهاب الذي ترعاه دول الشرق الأوسط، وبالأخص من نشاطات وزارة الاستخبارات والأمن الوطني (MOIS) في إيران، والتي كان الكاتب البريطاني سلمان رشدي من أهدافها الرئيسة. ومع متابعته التحذير من خطر وزارة الاستخبارات والأمن الوطني الإيراني، أبلغ الجهاز الفروع الخاصة للشرطة في ديسمبر 1995 أن: "التلميحات في الصحافة بوجود شبكة متطرِّفين إسلاميين على نطاق العالم تنوي شنّ هجمات إرهابية ضد الغرب أخبار مُبالغ بها بشكل كبير".[8]

صدر ذلك البيان عن MI5 بينما كان ناصري يُكمِل تدريبه في أفغانستان، قبل وقت قصير من عمله لصالح الوكالة في لندن. فقد استلزم الأمر تصريحاً علنياً من أسامة بن لادن في العام 1998 لكي يبدأ MI5 ومعظم الآخرين الانتباه إلى تنظيم القاعدة.

خلافاً لبريطانيا وفرنسا، لم تكن لدى الولايات المتحدة إمبراطورية لتخسرها، وكانت لديها خبرة صغيرة في مواجهة الإرهاب المحلي. لكنْ مع نشوء وكالة الاستخبارات المركزية، كان فرع نشاطاتها السرية- قسم العالم الثالث- قد اكتسب خبرةً طويلةً في العمل بشكل شبه سري مع الحكومات الأجنبية المختلفة

التي تشبّثت بالسلطة بوجه المتمرّدين بقيادة الشيوعيين الذين لجأوا إلى وسائل إرهابية أحياناً.

عمِل جاك ديفاين، وهو القائم بالأعمال السابق لقسم الخدمة السرية في وكالة الاستخبارات المركزية، في أميركا اللاتينية في السبعينيات. "كانت المنطقة مليئة بالثوريين. والفَرق بين هذا الوقت وذلك الوقت أن الإرهابيين كانوا أكثر تمييزاً. فقد كانوا يستهدفون المسؤولين الحكوميين". قال ديفاين إنه نضج كضابط في الميدان، وشدَّد على أنه "كانت لديه رؤية للبلد الذي كنتُ فيه فقط". وقالَ إن تجنيد العملاء بين الإرهابيين شهد مراحل صعود وهبوط. "كنا ناجحين عالمياً. فكل تلك الجماعات كانت مختَرقة، وكانت لدينا مصادر في كل جماعة". لكن النجاح كان ينقلب سلباً وإيجاباً فجأة. "إذ يكون لدينا مصدر جيد لبعض الوقت ثم يُقتَل، أو لا يعود قادراً على الوصول إلى المعلومات".

وفقاً لديفاين، السر في نجاح التجنيد كان الوصول. فلكي تتمكن من إيجاد أهداف، قد تعمل مع قوات الشرطة المحلية التي يمكنها إحضار مصادر محتملة إلى المخفر. ولمواجهة الحركات الريفية أكثر، قد يتوجب التعاون مع الجيش. "أحياناً، كانت الطريقة الوحيدة التي ستمكّنك من دخول تلك الجماعات هي صعود التلة حاملاً مسدساً. قد تتمكّن من القبض على بعضهم وترك بعضهم [العميل المجنَّد] يهربون؛ لكي يتمكنوا من شقّ طريقهم عائدين إلى داخل الجماعة".[9]

في الثمانينيات، وخلال ولاية الرئيس ريغن، ازدادت نسبة مشاركة الولايات المتحدة ووكالة الاستخبارات المركزية في محاربة الجماعات الإرهابية في الشرق الأوسط بعد سلسلة هجمات استهدفت الأميركيين. وبانتقالها إلى الهجوم، لاحقت وكالة الاستخبارات المركزية جماعات مثل منظمة أبي نضال الفلسطينية، وكانت أقل نجاحاً مع المنظمات ذات الرعاية الإيرانية مثل حزب الله في لبنان الذي شارك في عملية اختطاف الرهائن. وفي العام 1986، أنشأت وكالة الاستخبارات المركزية مركزاً لمكافحة الإرهاب بقيادة ضابط حيوي في قسم النشاطات السرية يدعى

دْوين "دُوي" كلاريدج. اتُهم لاحقاً، ثم نال عفواً عن دوره في فضيحة إيران كونترا التي كانت تقضي بتقديم السلاح مقابل إطلاق سراح الرهائن، فقد كان كلاريدج يحب الحركة في العمل. كانت وصيته هي تركيز وكالة الاستخبارات المركزية على استخدام تدابير تخريبية (كعمليات الاختطاف) لمحاربة الإرهاب.

في قارة أوروبا، واجهت ألمانيا الحملة الإرهابية بادر-ماينهوف، كما واجهت إيطاليا الألوية الحمراء في السبعينيات. لكنْ في نهاية الحرب الباردة، كانت فرنسا أفضل دولة مجهَّزة بين كل البلدان الغربية لمحاربة الإسلاميين الإرهابيين.

خلال انهيار إمبراطوريتها، واجهت فرنسا، مثل بريطانيا، حملات إرهابية طويلة. فقد امتدّت شظايا ثورة التحرير الجزائرية إلى أراضي فرنسا. كما واجَه الفرنسيون بعد ذلك تفجيرات وإطلاق نار من الجماعات الانفصالية في حدودها السلتية، بالأخص على جزيرة كورسيكا وبين الباسكيين (في المنطقة التي تفصل الحدود الجبلية مع إسبانيا). بسبب تدخّلها في أفريقيا الشمالية، وخاصة في الجزائر، قُتل ما مجموعه خمسة ملايين شخص من أصل عربي يعيشون في البلد، وأصبحت فرنسا- وهي لا تُحسَد على ذلك- الملاذ الآمن للمنشقّين الجزائريين، وهدفاً لهم لأنها دَعَمت الحكومة الجزائرية. لهذا السبب، انتبهت فرنسا باكراً لخطر موجة جديدة من المقاتلين الإسلاميين الذين كان نواتهم المقاتلين الذين عادوا من المحاربة ضمن صفوف المجاهدين ضد الجيش السوفياتي في أفغانستان خلال الثمانينيات. وبدأت الوكالات الفرنسية بالتفكير في وسائل لزرع جواسيس بينهم. وفي العام 1995، وبينما كان ناصري في أفغانستان، هاجمت الجماعة الإسلامية المسلّحة مترو باريس، مما أدّى إلى مقتل ثمانية أشخاص وجرح حوالي 200 شخص بجروح خطيرة.[10]

لويس كابريولي هو نائب مدير سابق لمديرية مراقبة البلاد (DST)، وهي فرع في الشرطة الوطنية الفرنسية، وكانت جهاز الاستخبارات المحلية لفرنسا. شرَح أن وكالته، مثل MI5، تأسّست لمكافحة التجسّس الذي كان يجري بخطوات متمهلة

نسبياً. وخلافاً لمكافحة الإرهاب، "يجب أن تكون مستعداً دائماً لشلّ قدرات أي شبكة فوراً، ويندرج عملك ضمن فئة الوقاية؛ ستجد نفسك تعمل بإلحاح دائماً". ولطالما كان التعامل مع الـ KGB أكثر تركيزاً بكثير، حيث تركّز على مجموعة من الأشخاص، بينما قد يستلزم تعقّب جماعةٍ إرهابيةٍ مراقبة مئات الأشخاص المشبوهين.

وقد قال: "عندما كنا نعمل مع أجهزة مثل KGB، كنا نتعامل مع مؤسسات لها بنية". وكانت للجماعات الإرهابية أيضاً هرميةٌ في البداية، مقلّدةً بعض الدول مثل ليبيا وسوريا التي رعتها. وكانت الجماعات الفلسطينية مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وفتح، التي نفّذت عمليات اختطاف الطائرات في السبعينيات، بنيوية جداً أيضاً. وعند ظهور الإسلاميين، كان الفرنسيون قد أصبحوا معتادين على الإرهاب على الأرجح، "لكننا لم نعد نواجه منظمات هرمية". وهذا تطلّب وسائل جديدة.

وفق كابريولي، لطالما كان تشغيل الجواسيس أمراً صعباً دائماً؛ لكنه أصبح أصعب الآن. "فالعميل هو أفضل شيء في العالم، لكنه أيضاً أخطر شخص في العالم بالنسبة إلى المشغِّل. إنه الرجل الذي يستطيع خيانتك في أي لحظة. لذا، إذا خسرت أسلوب تعاملك الحرِج، فيمكن أن تكون لديك علاقة نشأت منذ عشرة أشهر وتذهب في أحد الأيام للقاء عميلك معتقداً أنه صديقٌ لك، فينقلب عليك لأي سبب من الأسباب وتجد نفسك مقتولاً".

رأى الفرنسيون أيضاً الحاجة إلى التوصّل إلى هيكل قانوني للسماح للشرطة بالتصرّف بناءً على المعلومات الاستخباراتية التي يتم تجميعها من المصادر السرية. ويشرح كابريولي عمليةً جرت في العام 1983، عندما جنَّدت مديرية مراقبة البلاد "مصدراً ذا منصب جيد" داخل جماعة إرهابية أرمنية. "وضعناهم تحت المراقبة البشرية، كل شيء. وكنا نعمل على ثمانين شخصاً. كان مقدار العمل هائلاً". لكنْ رغم كل ذلك، لم يمنعوا هجوماً. فعند الساعة 2:07 مساءً من يوم 15 يوليو

1983، انفجرت قنبلة في مكتب الخطوط الجوية التركية في مطار أورلي في باريس. قُتل ثمانية أشخاص وجُرح خمسون شخصاً. كانوا يعرفون مَن المسؤول. وعندما أغاروا على منازل المشبوهين وجَدوا أربعين كيلوغراماً من المتفجرات، وبنادق وقنابل يدوية، بالإضافة إلى خطط لمزيد من الهجمات. "لكننا فشلنا"؛ قال كابريولي. فهم لم يتمكنوا من مَنع زهق الأرواح.

خلال العامين 1995 و1996، تم تغيير القانون الفرنسي للسماح بالاحتجاز الوقائي للمشبوهين الإرهابيين وإصدار إدانات بتهمة "مزاملة" منتهِكي القانون.[11] كانت تلك التدابير قمعية، لكنها بدت نافعة. فمن يوليو إلى أكتوبر 1995، حصلت ثمانية تفجيرات أو محاولات تفجير في باريس، قُتل خلالها ثمانية أشخاص وجُرح حوالي 200 شخص. وفي العام 1996، حصل تفجير واحد فقط أدّى إلى مقتل أربعة أشخاص. تقلّص عدد هجمات الجماعة الإسلامية المسلّحة والانفصاليين الباسكيين والكورسيكيين تماماً مع تزايد عدد الاعتقالات الوقائية.

***

بدأت رحلة عمر ناصري في عالم العنف والقمع هذا مع تعمق أخيه بالدين وشعوره الشخصي بالوحشة وعدم الانتماء. وُلد في المغرب، ولكنه عاش في بلجيكا منذ أن كان في الخامسة وحتى الخامسة عشرة من عمره. وعندما أعادت والدته أفراد العائلة إلى وطنهم الأم، كانت لغته العربية سيئة وأحسّ بالغربة. ثم عندما أوشكت فترة مراهقته على الانتهاء، تعمّق أخوه- الذي بقي في بلجيكا- في الإسلام إلى درجة التطرّف، وشجّع ناصري على الامتثال به.

وكالعديد من المراهقين، تأثّر ناصري بالحرب الأفغانية التي تمكّن فيها مقاتلون إسلاميون ينتعلون صنادل مهلهلة من هزيمة الاتحاد السوفياتي. وكان هذا بالنسبة إلى المتطرّفين أمثال أخيه بمثابة حافز ليقاوموا كل الطغاة. فقد تمكّنوا من هزيمة قوة عظمى، وبدت احتمالات إسقاط أنظمة الحكم الأخرى غير محدودة. وفي حين أن الثورة الإيرانية في العام 1979 بقيادة آية الله الخميني أحدثت تغييراً جذرياً في

الطائفة الشيعية، كانت الحرب الأفغانية خلال الثمانينيات هي التي أحدثت تأثيراً مماثلاً في الطائفة السنية الأكبر عدداً؛ بالأخص بسبب قرار المملكة العربية السعودية- الحليف السني المُحافظ للولايات المتحدة- تشجيع شباب السُّنة وتمويلهم من كل أطراف العالم للمشاركة في الحرب.

وقد قال ناصري: "جعلتني الحرب في أفغانستان أشعر مجدداً أنني مسلم ومغربي".[12] لكنّ ما كان أكثر أهمية بالنسبة إليه من الدين أو السياسة كان على الأرجح حقيقة أن انضمامه إلى أخيه ومجموعته في بلجيكا بدا كطريقة للهروب من المغرب. تعلّم أن يصلّي تماماً مثل أخيه، ودُعي في العام 1993 لكي ينضم إليه في بروكسل.

بعد وصوله إلى بلجيكا، دخل ناصري في شبكة أخيه الاجتماعية، وبدأ يشارك في توزيع أعداد مجلة الأنصار التابعة للجماعة الإسلامية المسلّحة. والأهم من ذلك إظهاره براعةً في اكتساب معارف في عالم الإجرام في بلجيكا؛ حيث تعلّم كيفية شراء الأسلحة ونقلها إلى المقاتلين. وقد أحسّ ببعض تأنيب الضمير. وقد قال لمراسل الـــBBC: "هل تريدني أن أقول إنني كنت أبكي كل ليلة؟ لم أكن أفكّر في ذلك حتى".[13]

يقرّ أنه أصبح جاسوساً لأنه كان طمّاعاً. فقد سرَق بعض المال من الجماعة في أحد الأيام، واكتشف رفاقه أنه اللص، وأخبره أخوه أنهم سيقتلونه إن لم يُرجع المال. كانت تلك حالةً ستصبح نمطاً نموذجياً: شابٌ عند مفترق الطرق بين الإجرام والنضال الإسلامي يتبيَّن أنه جاسوس فعّال لجهاز استخباراتٍ عصريٍّ.

بما أن الخيارات كانت محدودة أمامه، ظنّ ناصري أن المعلومات التي بحوزته عن نشاطات الجماعة الإسلامية المسلّحة تستحق شيئاً. لذا، قَصَد المديرية العامة للأمن الخارجي عبر دخوله القنصلية الفرنسية في بروكسل. كان يعرِف أن المديرية العامة للأمن الخارجي عديمة الرحمة، وأنها تطارد الجماعة الإسلامية المسلّحة. وحالما مَرّ عبر الأبواب، شعَر أنه إنسان مختلف. "كانت لحظة صعبة جداً. شعَرتُ أن جسمي

يرتعش، وكانت نبضات قلبي تتسارع أكثر فأكثر، لكن عقلي كان يقول لي إنه ليس لديّ خيار آخر. هذا هو الحل، وهذا هو الشيء الوحيد الذي عليك القيام به. عرفتُ منذ لحظة دخولي أن حياتي ستتغيَّر إلى الأبد".[14]

تواصل معه ضابط استخبارات يسمّيه ناصري "جيل"، وقد أبلغه أن معلوماته عن الجماعة ذات قيمة محدودة؛ وأن قيمته الحقيقية ستأتي من بقائه داخلها وإرساله معلومات حيّة إلى الفرنسيين. أخبره جيل: "أستطيع حماية عائلتك... لكنْ لا يمكنني أن أعطيك كل شيء تريده. فأنت لم تعطنا مقداراً كافياً من المعلومات بعد. إذا كنت تريد كل تلك الأشياء، فسيتوجب عليك القيام بأكثر من ذلك لنا".[15]

وفقاً لناصري:

> كان [جيل] ديكتاتوريّ الطباع. فقد أراد أن يكون صاحب الكلمة الفصل دائماً. أراد إبلاغي بما عليّ فعله، وما عليّ إبلاغه لأعضاء خلية الجماعة الإسلامية المسلّحة... كان يضغط عليّ باستمرار لأدخل "دائرتهم الضيقة"، وبإبلاغي كيفية فعل ذلك. لكن السلطة كانت بيدي. فأنا أملك المعلومات التي يحتاج إليها، ولم تكن تعجبني طريقة أمره لي. أبلغتُه ذلك مراراً وتكراراً، وعرفتُ أنه كان يترعج من ذلك.[16]

من دون سيطرة ملائمة عليه، كان الفرنسيون في مستنقع خطير. فقد كان ناصري ضالعاً في تجارة الأسلحة، وأراد الفرنسيون تعقّب كل خطواته لمنع حصول كارثة محتملة. لكنه كان يقاوم سلطتهم باستمرار. قال ناصري إن الفرنسيين شجّعوه على أن يغوص أكثر في الجماعة. وقد تُوِّج ذلك بقيادته سيارة مليئة بالمتفجرات والأسلحة والمال من بلجيكا إلى المغرب؛ مروراً عبر فرنسا وإسبانيا. بقيت حرارة السيارة ترتفع لأنها كانت تحمل أكثر من طاقتها: "كل قطعة في هيكلية السيارة لم تعمل... حتى النافذة الكهربائية لم تعمل".[17] وقد قيل له إن متفجرات السيمتكس التي كان ينقلها أُخذَت لاحقاً إلى الجزائر. وبناءً على التوقيت، بدا مستحيلاً أنها لم تُستخدَم في الهجوم على مخفر الشرطة.

ومثلما اكتشف البريطانيون في إيرلندا الشمالية، إن كل عميل سري داخل جماعة إرهابية يواجه مُعضلةً قياسيةً؛ ألا وهي المدى الذي يمكنه أن يصل إليه. ويقولُ كابريولي: "بالطبع، لهذا السبب تشغيل العملاء مسألة صعبة إلى هذا الحد. فعندما يكون العميل في قلب المنظمة ويطلبون منه قتل شخصٍ في أحد الأيام، ماذا نفعل؟". وقال إن الهدف في فرنسا كان "سحب المصدر حالما يُكتشَف جميع أعضاء الشبكة. لذا، إن أحد مبادئنا هو تجنّب السماح للعميل بالذهاب بعيداً جداً؛ لأنه إذا ذهبَ بعيداً جداً، فسيصبح جزءاً من الهجوم".

كَتَب هانك كرامبتون- وهو رئيس سابق لقسم عمليات مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية- في مذكراته أن أول مشكلة تطرأ عند تجنيد العملاء-الإرهابيين كانت الخطر الجسدي الذي يتعرض له ضابط الفريق عند اقترابه من شخصٍ ما وطلبه منه أن يتجسّس لصالح الوكالة. يسمّى هذا في قاموس الاستخبارات "تسديدة" (pitch). "كان هذا يختلف عن توجيه تسديدة نحو ديبلوماسي أجنبي، أو ضابط عسكري، أو مسؤول تجاري". وكان أخطر بكثير. "بإمكان الديبلوماسي الأجنبي تقديم تقرير عن التسديدة؛ مما قد يسبّب فشلاً ديبلوماسياً. وبإمكان الإرهابي الرد بطرائق أخرى، كأن يرمي قنبلةً يدويةً على ضابط الفريق؛ وقد حصل هذا مؤخراً. بالكاد تمكّن ضابطنا من الهرب على السلالم وانفجرت القنبلة اليدوية خلفه".[18]

ثم كانت هناك، مثلما كَتَب كرامبتون، "مُعضلة استخدام أولئك الذين ربما قتلوا أشخاصاً أو دعموا أشخاصاً فعلوا ذلك". يجب أن تكون هناك بعض الحدود على مَن يتم تجنيده. "نحن لم نجنِّد أو ندعم أو نشجِّع أي شخص على قتل أبرياء؛ حتى لو كان نشاط كهذا سيحسِّن مراكزهم وتأثيرهم ضمن الجماعة الإرهابية. فهذه مسألة خاطئة تماماً. لكنْ أين رسمنا الخط؟".[19] يقول إن الجواب كان باستشارة محامين في وزارة العدل. لكنه لم يُخبرني بما نصحوهم به.

قلّة من المطلعين على عمليات مكافحة الإرهاب المماثلة سيقولون إن أسلوباً نظيفاً كلياً وخالياً من الأضرار لتشغيل الجواسيس بين الإرهابيين قد ينجح على الأرجح. لكنْ هناك دائماً قرار لا مفرّ منه: هل من المبرَّر التواطؤ في جريمة أقل شأناً بهدف منع جريمة أكبر؟ يوافق الجميع على أن هناك خطّاً يجب رسمه، ولكنهم اختلفوا بشأن مكان رسمه ومَن يجب عليه فعل ذلك. ويلمّح كابريولي إلى أن القواعد يجب أن تكون مرنة: "فالحالة نفسها تفرض كيفية توليك لها. الواقع على الأرض أكثر من مجرد نظرية. إذ يمكنك وضع نظريات ومبادئ، ولكنك عندما تتعامل مع الواقع فهو الذي يفرض عليك تصرّفاتك". ومع ذلك، كانت المبادئ مهمةً. "يجب أن تكون لديك مبادئ لكي تقول: *حسناً، حان الوقت لكي نتوقف*".

في مارس 1995، قرّر الفرنسيون والبلجيكيون أنه حان الوقت لاعتقال أعضاء خلية ناصري في بروكسل، فاعترَض على هذا القرار. فبرأيه، لا يزال الوقت مُبكراً جداً، وكان يخشى أن تخونه المديرية العامة للأمن الخارجي فتعتقله وتحاكمه هو أيضاً. ورغم تقاضيه مالاً منها، لم يثق بالوكالة الفرنسية قطّ، وقد أظهَرت نشاطاته اللاحقة سبب كونهم محقّين في عدم الثقة به هم أيضاً. وقال ناصري إنه اعترَف لزملائه في الخلية في فورة غضب أنه كان يتجسّس لصالح الفرنسيين. "كشفتُ لهم عن قرار اعتقالهم، وحذّرتهم قبل أربع وعشرين ساعة" من موعد الاعتقال. وهذه حقيقة لم يُطلع المديرية العامة للأمن الخارجي عليها مطلقاً. كان لدى العصابة يوم كامل للتخلّص من الأدلة، ولكن قُبض على أحدهم في أحد شوارع بروكسل بينما كان يحاول نقل مسدسٍ في سيارته.

لم تعرف المديرية العامة للأمن الخارجي عن خيانته، أو على الأقل لم تأتِ على ذكرها. لذا، استُئنفت العلاقة بعد الاعتقالات. لكنْ بعد تفكّك الخلية البلجيكية وتوجّه الشك نحوه، استنتَج ناصري والفرنسيون أن سره قد انكشف في أوروبا، ولم يعد بإمكانه أن يعمل بأمان. الغريب في الأمر هو أن الاعتراف الذي قال ناصري إنه أطلع رفاقه في الجماعة الإسلامية المسلّحة عليه (ويجب أن يكون هناك

بعض الشك بشأن روايته هنا) إما لم يتم تصديقه، أو لأي سبب من الأسباب، لم يتم تداوله بشكل واسع. لكنْ كانت لا تزال هناك تساؤلات في الدوائر المقاتلة عن سبب كونه العضو الوحيد الذي لم يُعتقَل. في غضون ذلك، كان الفرنسيون مسرورين من دفع كل مستحقاته، و"كانوا سيصبحون سعداء لو أنني اختفيتُ". لكن ناصري أراد المزيد. وقد قال: "أنا لم أبدأ بعد". وفي الأشهر التي تلت ذلك، كان في طريقه ليغوص أكثر فأكثر في عالم الجهاد.

كان جيل وناصري يعلمان بوجود همسات في الدوائر المناضلة عن الأشخاص الذين كانوا يختفون. وكان يُقال إنهم ذهبوا ليتدرّبوا في مخيّمات خاصة في أفغانستان. وبعد هزيمة السوفيات، خضعت أفغانستان لسيطرة مجاهدين مختلفين تحوّلوا إلى أمراء حرب. وبعض العرب العديدين الذين كانوا قد انضموا إلى صفوف المجاهدين (وكانوا يسمّونهم "الأفغان العرب") بقوا هناك أيضاً. كانوا يعيدون تجميع صفوفهم ويقيمون معسكرات في المقاطعات القريبة من الحدود مع باكستان حيث عملوا خلال الحرب. وسرت شائعات مفادها أنهم كانوا يدرِّبون مجنَّدين جدداً ليتابعوا جهادهم على الجبهات الجديدة؛ سواء أكانت في البوسنة أو كشمير أو الجزائر أو مصر أو الشيشان. وما كان ينقصهم هو معلومات مباشرة من المعسكرات نفسها، إذ لم يتمكن أي دخيل من اختراق الجماعة.

ناقش ناصري مع ضابط فريقه الفرنسي كيف يمكنه دخول المعسكرات الأفغانية. وبأسلوبه المتهور، اقترح ناصري أن يسافر إلى باكستان مباشرة، ولكنه تذكّر أن الفرنسي رأى هذا الخيار وقحاً جداً. وعوضاً عن ذلك، كان عليه التوجّه إلى تركيا والعثور على مجموعة متطرّفة هناك ستعرّفه إلى الأشخاص الصحيحين. حاوَل ناصري فعل ذلك، ولكن بعد أسابيع من السفر العقيم وبعض الهلع عندما حطَّم سيارته، وافق الفرنسي أخيراً على خطة ناصري.

في ربيع 1995، توجّه ناصري إلى كراتشي وفي جيبه $15,000 من الفرنسي.[20] وما تلى ذلك كان مزيجاً من الحظ والمكر. فقد التقى رجلاً مسلماً يقظاً على

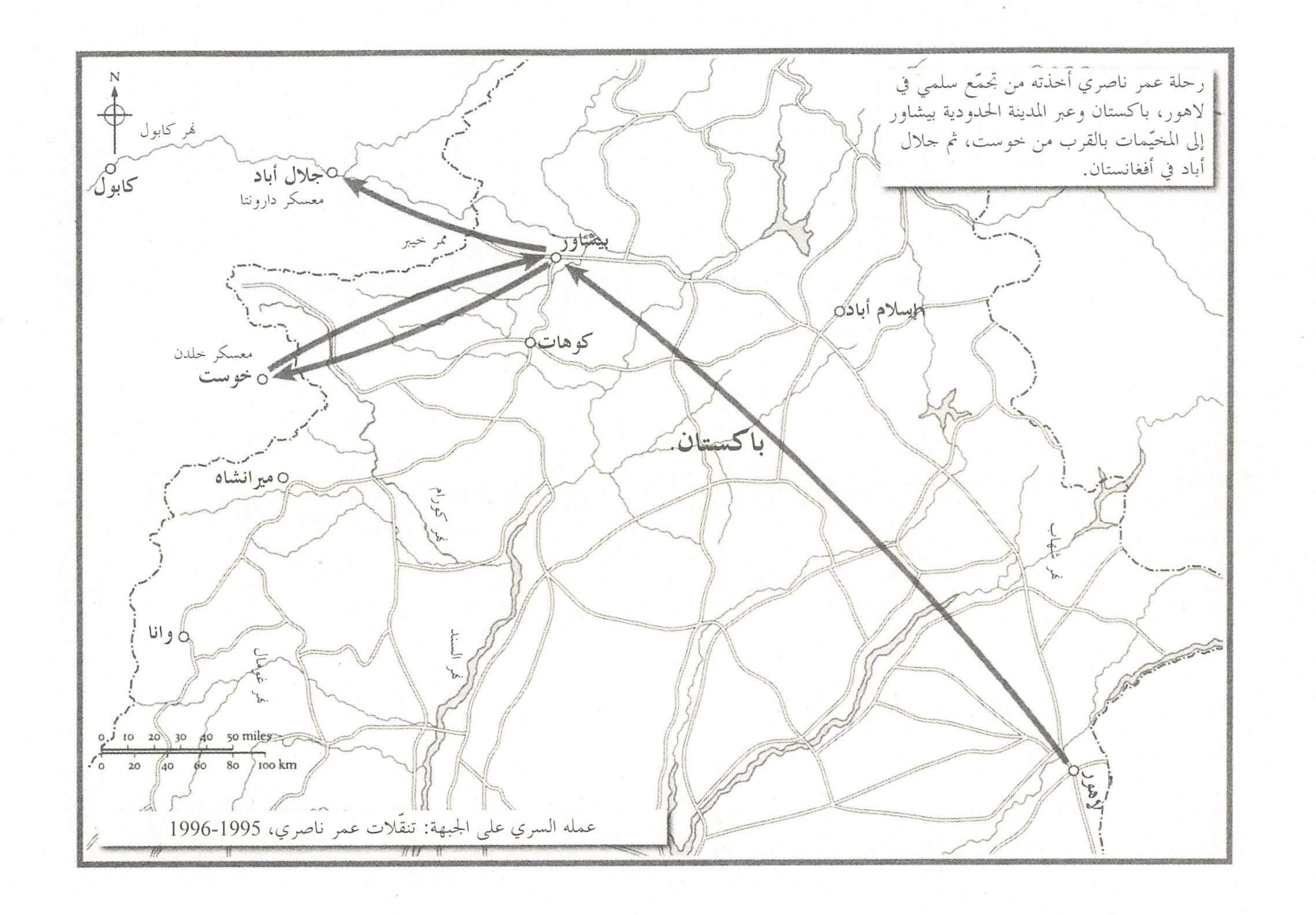
الطائرة أعطاه إرشادات للوصول إلى المركز الرئيس للحركة الإسلامية المُحافظة جماعة التبليغ والدعوة في لاهور، الذين كانوا يرحّبون بالشباب المسلمين من جميع أنحاء العالم، بمن فيهم ناصري. لكنه وجَد أن فلسفتهم قائمة على السلام، وليس الجهاد العنيف. خاب أمل ناصري، فهو لم يكن يبحث عن دعاة السلام.

ما لم يُدركه هو أن جماعة التبليغ والدعوة كانت مخترَقة من قِبل المتطرّفين أيضاً. وعندما قرّر ناصري المغادرة، خائب الأمل من وعظهم المسالم، أوقفه مراقِبٌ كان حاضراً في جماعة التبليغ والدعوة، وأعطاه المعلومات التي يحتاج إليها ليخوض أكثر في شبكة النضال. فتوجَّه إلى المدينة الحدودية بيشاور، عند بداية ممر خيبر إلى أفغانستان. وقال ناصري إنه التقى هناك رجلاً يدعى أبا زبيدة، وهو مقاتل ذكرت الحكومة الأميركية لاحقاً أنه أحد كبار قادة تنظيم القاعدة. كان أبو زبيدة حارس معسكرات المجاهدين العرب، أي الرجل الذي يقرِّر مَن سيُقبَل للتدرّب على الجهاد. وكان بعضهم يُشبِّه أبا زبيدة "بوكيل السفر" بالنسبة إلى تنظيم القاعدة. ويقول ناصري إنه "كان خبيراً في تزوير الأوراق الثبوتية، كما كان متخصصاً في معرفة كيفية إيصال الأشخاص من النقطة أ إلى النقطة ب من دون أن يُقبَض عليهم".[21] بعد هجمات 11 سبتمبر، تم استجوابه وتعذيبه عبر إيهامه بالغرق في السجون السرية لوكالة الاستخبارات المركزية المعروفة بالمواقع السوداء. متذكراً لقاءاته مع الرجل، تساءل ناصري عمّا إذا كان أبو زبيدة يعاني من التوحّد قليلاً. (كان بارعاً في أشياء كثيرة، ولكنهم لم يسلّموه مسؤولية أي تخطيط قطّ). أرسَل أبو زبيدة ناصري عبر الحدود إلى أهم معسكرات الحركة، خلدن، الذي كان المسؤول عنه شخصاً آخر، وهو ابن الشيخ الليبي الذي ستصفه الولايات المتحدة لاحقاً بأنه قائد إرهابي سيئ السمعة. كان شخصاً لطيفاً، ولكنّه ذو شخصية قيادية. "كان رجلاً طويل القامة، وخجولاً جداً جداً. وعندما يمدّ لك يده للسلام، لم تكن لتشعر بها؛ فقد كانت ناعمة جداً، ودافئة جداً. وكان يصافحك بحنان، بشكل لا يُصدَّق. وعندما يكلّمك، ترى الابتسامة تملأ وجهه كله".[22] قُبض على الليبي في نوفمبر 2001، واستجوبته وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً، وكذلك

البوليس السري المصري. نُقل في نهاية المطاف إلى ليبيا معمّر القذافي من خلال عملية تسليم مذهلة، حيث توفّي في السجن. وبينما كان ناصري في معسكر الليبي، سمِع أن التمويل كان يأتي من "شيخ" سري آخر. إنه أسامة بن لادن، الذي كان لا يزال وقتها في السودان.[23]

حصل كل شيء بسرعة لا تُصدَّق. فبعد أقل من شهر من توديعه جيل في تركيا، اختفى ناصري في ما أصبح "مركز الجهاد". كان معسكر خلدن هو المكان الذي يتدرَّب فيه المجنَّدون على المهارات العسكرية الأساسية مع تلقيهم دروساً في الدين وأخلاقيات الجهاد. وهناك مرَّ أو سيمرّ كل المجنَّدين المشهورين تقريباً من تنظيم القاعدة. في العام 1993، في المعسكر نفسه، خطَّط رمزي يوسف والآخرون لأول تفجير لاحقاً تلك السنة على مركز التجارة العالمي في مانهاتن. وقد درس محمد عطى، القائد المصري لخاطفي الطائرات في هجمات 11 سبتمبر، هناك أيضاً.[24] كان ناصري حاضراً هناك في صيف وخريف العام 1995. وكان التدريب ينقسم بنسبة 30 بالمئة على الأسلحة، و70 بالمئة على الأيديولوجيا الدينية. وقد بدا التدريب على الأسلحة كهدية: "بالنسبة إلي، كان أشبه بهدية لولد لطالما توقع شيئاً لعدة سنوات ثم حصل عليه أخيراً".[25] كما كان التدريب يركّز على حرب العصابات الكلاسيكية أكثر بكثير مما يركّز على الهجمات الإرهابية.

رغم دورها الهام في ما أصبح عليه تنظيم القاعدة، فإن تلك المعسكرات قدَّمت تحالفاً أوسع بكثير من الجماعات الجهادية المتحاربة مع حكوماتها، سواء أكانت الشيشانيين الذين يحاربون الجيش الروسي، أو الكشميريين المدعومين من باكستان الذين يحاربون الجيش الهندي، أو الجزائريين. ويقول ناصري إن الليبي كان يُسأل بشكل دوري عن جماعة معيّنة في أحد البلدان. "كان يتوقف ويقول: *لا، لسنا هنا لنفرّق بين هذا وذاك. عدونا هو نفسه: صدّام [حسين الرئيس العراقي] أو [حافظ] الأسد [الرئيس السوري]*. لذا، كانت وظيفة ابن الشيخ تدريب الأشخاص على محاربة الهدف الأول [للإسلاميين المتطرّفين]، ألا وهو حكومة بلادهم لا غير".[26]



عمله السري على الجبهة: تنقّلات عمر ناصري، 1995-1996

خلال حديثه مع السجناء في بكرام أفغانستان، قبل تسليمه إلى ليبيا، سُئل الليبي: "ابن الشيخ، هل أنت من تنظيم القاعدة؟". ويُقال إنه أجاب بالنفي. لكنه قال إنه مسرور لأنه اعتُقل كعضوٍ في الجماعة. "أنا فخور لأن أعدائي الأميركيين قد شملوني كجزء من تنظيم القاعدة".[27]

في جبال أفغانستان، بدأ ناصري ينجذب إلى فكرة الجهاد. وقد كتَب في كتابه: "مع مرور الأسابيع، أصبح من الصعب عليّ أن أفصل نفسي عن إخوتي. وقد بدأتُ أحتاج إلى المزيد والمزيد من الجهد كل ليلة لأتذكّر أنني لستُ واحداً منهم. لقد كنتُ جاسوساً".[28] وقد برَّر ناصري ارتباكه في أفغانستان على الشكل التالي:

> أصبحت مهمتاي- كجاسوس ومُجاهد- هي المهمة نفسها الآن. لقد نسيتُ نفسي كلياً في ذلك الدور. لكن هذا ما يجب أن يفعله أي جاسوس لكي ينجح. لا أحد يستطيع أن يحيا حياةً مزدوجةً لفترة طويلة ويتوقع أن يفلت من عواقب ذلك بالكامل. كان عليّ أن أغوص بالكامل... هل كنتُ جاسوساً جيداً لأنه يمكنني نسيان نفسي بالكامل في دوري كمُجاهِد؟ أو هل كنتُ مُجاهِداً جيداً صَدَف أنه جاسوس؟[29]

تطرح رواية ناصري التساؤل عمّا إذا كان تأثره بالدعاية (والبعض قد يقول السذاجة) للقتال شبكة أمان مهمة. إذ يبدو أن معتقداته الحقيقية كانت في حالة تغيّر مستمر. لكنْ هل يجب أخذ روايته عن المعسكرات والأماكن الأخرى في ظاهرها؟ بشكل عام، معظم ما قاله كان جديراً بالثقة، ويكشف عن معرفة عميقة بطبيعة المعسكرات والأشخاص الضالعين في دوائر المقاتلين. كما أن المصادر الأمنية في الوكالات المختلفة قد أكّدت بعض نواحي روايته، بما في ذلك عمله لاحقاً في بريطانيا وفرنسا. وقد قال مايكل شوْير، الرئيس السابق لوحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية، إن رواية ناصري "تتشابك جيداً مع المعلومات التي كانت لدينا في الوثائق السرية خلال أواخر التسعينيات ومنذ ذلك الوقت".[30] لكن بعض

أجزاء روايته، المشروحة في كتابه "داخل الجهاد العالمي"، لم تترك انطباعاً حقيقياً، وبدت وكأنها كلمات كاتب يؤلف لشخص آخر تم اختياره للجمهور الأميركي.

بناءً على لقائي معه، لفتني أن الفرنسيين أصرّوا دائماً على إبعاد أنفسهم عن ناصري. وبينما كانوا متلهّفين لتشجيع مغامراته والاستماع إلى نتائجها، فقد كانت علاقته مع الاستخبارات الفرنسية شبه منفصلة؛ أكثر مما ظنّ. لقد موّلوا نشاطاته واستنطقوه بشكل مكثّف، ولكن من الواضح أنه كانت لديهم شكوك كبيرة بشأن مميزاته كعميل سري ووفائه. مثلاً، لو أراد منه الفرنسيون حقاً أن يتجسّس داخل المعسكرات الأفغانية، لكانوا قد أخضعوه لبعض التدريب أولاً.

تحدّيتُ ناصري لأعرف ما إذا كان قد عاش حقاً الحياة المزدوجة كجاسوس-جهادي في أفغانستان كما لمّح في كتابه. وأشرتُ إلى أنه ربما أصبح مرتاحاً لفلسفة الجهاد وتوقف حتى عن اعتبار نفسه جاسوساً.

وأقرّ قائلاً: "هذا صحيح. لقد كنتُ صادقاً".

قال ناصري إن الكتاب كان "مفاوضةً" مع الناشرين، حيث اضطر إلى "التغاضي" عن بعض ما كُتب. وقد كافَح بأقصى ما لديه ليجعل الكتاب يبيِّن وجهة نظره المتطرّفة؛ أي أنه رغم أن الجماعة الإسلامية المسلّحة كانت مخطئة في مهاجمة المدنيين، إلا أن تفجير السفارة المصرية في إسلام أباد مثلاً- الذي جرى بينما كان في المعسكرات- كان مبرَّراً. والهجمات على الروس في الشيشان كانت تستحق الثناء. وأقرّ أن هدفه الحقيقي من الذهاب إلى المعسكرات- وقد ساعده الفرنسيون عن غير قصد- كان لكي يُرسَل في مهمة إلى الشيشان. "أردتُ حقاً الذهاب ومقاتلة الروس. ليس المدنيين بل الجنود؛ أي أولئك الذين يقتلون المسلمين". وفقط عندما أصرَّ ابن الشيخ الليبي على أن يعود إلى أوروبا، استفاق النصف الآخر من مهمته، أي أن يتجسّس لصالح الفرنسيين. بتعبير آخر، رغم أنه عاد وقدَّم تقريره، إلا أنه لو كانت الظروف مختلفة فربما ما كان ليعود على الإطلاق.

عندما التقيتُ ناصري، بدا واضحاً أنه تقبَّل بشكل تام، وبطريقة أشبه بالفُصام تقريباً، عقيدة الجهاد والعمل مع بعض أعدائه. وقد قطع شوطاً طويلاً في مسار القتال في المعسكرات. حتى إنه تطوَّع لتعطيل قنبلة مرتجَلة لم تنفجر. وقد سُئلت مجموعته: "مَن يريد أن يصبح شهيداً؟". وكان ناصري هو الشخص الوحيد الذي رفع يده ومشى لتفكيك الجهاز. هذا النوع من التفاني أعطاه المصداقية التي يحتاج إليها كل عميل لكي يصمد. ولكنه قال إنه فعل ذلك "لأنني أؤمن بالإسلام. لقد كنتُ صادقاً ولم أكن أكذب. لم أكن أتصنَّع. وهل تعرف لماذا؟ لأن هذه أفضل وسيلة للوصول إلى أي مكان تريده في الحياة؛ لأنه يمكنهم قطع يدك أو حتى بتر أنفك وستظل تقول الحقيقة فقط لا غير".

يوجد درس هنا عن التجسّس. إذ يُقال إن القائد الناجح لشبكة التجسّس يمتلك القدرة على قراءة أفكار العدو. لكنْ إذا اقتربتَ من ذلك الخط الفاصل بين الصديق والعدو وبدأتَ تفكّر كخصمك، فستعرّض نفسك لخطر الانزلاق. هذا يفسّر إلى حد ما لماذا تشكّل وكالات الاستخبارات نفسها هكذا "تهديد داخلي". فمن كيم فيلبي إلى إدوارد سنودن، جاءت كبرى الخيانات من الوكالات نفسها التي تم تأسيسها لمنع الخيانة، والتي كانت وظيفتها الأساسية حماية الدولة.

ومثلما شرح ناصري، إن محاولة تجنيد جواسيس داخل المنظمات الإسلامية تطلَّبت أسلوباً صادقاً تماماً. فالوسائل الرخيصة- كتقديم المال لهم- ستفشل لا محالة. "لأن أولئك الأشخاص في المعسكرات، أولئك الأشخاص في الجماعات، يعرفون دائماً مَن ينجذب حقاً إلى نوع الحياة التي يحيونها". وقال إن الوسيلة الفعّالة الوحيدة لاختراق الجماعات كتنظيم القاعدة كانت في "تعزيز شاب مسلم، شاب مسلمٍ حقاً، شاب مسلم 100 بالمئة، وإعادة إرساله ليتجسّس على المُسلمين". لكنهُ يزعم أن هناك احتمالاً نسبته 99 بالمئة بأن تأتي العملية بنتائج عكسية، وسيعود العميل ويقتُل. "عندما يعود- هذا إذا عاد- فسيفجّرك". ضحك ناصري عندما قال هذا، رغم أنه أصرَّ على أنه لم يكن يمزح.

رغم أنه ربما أصبح متصلّباً على مر السنوات، إلا أنه كان واضحاً من لقائي إياه أنه لا بدّ أنه كان دوماً جامحاً بشكل لا يُصدَّق. في خلدن، كان أحد الأشخاص القليلين الذين شكّكوا بأوامر "شيخ" المعسكر، الليبي. وربما ساعدت رباطة جأشه تلك في حمايته نفسه من انكشاف أمره والشك به. لكنه أقرّ بأنه كان متصلّباً بشكل مماثل مع مشغِّليه سيئي الحظ في الاستخبارات الغربية. لقد حاوَلوا عبثاً التحكم به وقد اعتبرهم مُخادعين باستمرار.

في شتاء أواخر العام 1995/أوائل العام 1996، انتقَل ناصري، عبر بيشاور مرة أخرى، إلى معسكرٍ ثانٍ متخصصٍ أكثر يدعى دارونتا، ويقع على الطريق من ممر خيبر إلى كابول، بالقرب من المدينة الأفغانية الشرقية جلال أباد. كان المعسكر تحت سيطرة جماعة مجاهدين أفغان تدعى الحزب الإسلامي، لكن جزءاً منه كان مخصصاً لتدريب المقاتلين تحت سلطة الليبي. كان هذا المعسكر أشبه بمعسكر للإرهابيين أكثر مما كان عليه معسكر خلدن في أي وقت من الأوقات. وبدلاً من استخدام المعدات العسكرية الجاهزة، كان يتمّ تدريب المجنَّدين على صنع المتفجرات، ثم تفجيرها بأنفسهم. هذه المرة، كانت قيادة المعسكر هي التي تقرِّر ما سيفعلونه بناصري. فقد كان لا يزال يأمل بالذهاب إلى الشيشان، لكن الليبي أبلغه أن مهمته هي العودة إلى أوروبا وترسيخه نفسه هناك.[31] لم يكن البلد الذي سيذهب إليه مهماً جداً، ولكن كان عليه إعداد خلية خاصة به، ثم تحديد أهداف يستطيع "الإخوة" استخدامها في الهجمات المستقبلية.

عاد ناصري إلى أوروبا في مايو 1996، في الوقت نفسه تقريباً الذي استقلّ فيه أسامة بن لادن طائرة مستأجرة من السودان إلى أفغانستان ليقود حركة الجهاديين.

في وقت هجمات 11 سبتمبر، كان العملاء أمثال ناصري الذين تغلغَلوا في تنظيم القاعدة لا يزالون عملةً نادرةً. و لم يكن افتقار وكالات الاستخبارات الغربية للجهد سببه الأخطار والمصاعب فحسب، بل أيضاً التخفيضات في ميزانيات

الاستخبارات منذ نهاية الحرب الباردة، وكذلك ما أصبح معروفاً "بتبييض" المصادر سيئة السمعة (كأولئك المتهمين بانتهاك حقوق الإنسان). وقد صرَّح الضباط السابقون لوكالة الاستخبارات المركزية وجهاز الاستخبارات السرية- وعن حق- أن جهود الاستخبارات البشرية كانت وقتها في مستوى متدن. وقد خفَّض البريطانيون ميزانيتهم لعمليات الاستخبارات البشرية بالقدر نفسه الذي خفّضها فيه الأميركيون تقريباً؛ حسبما أكَّد عدة ضباط سابقين في جهاز الاستخبارات السرية.

لكن السبب الرئيس لتدنّي محاولات إدخال جواسيس بين صفوف الإسلاميين السنة المتشدِّدين كان فشل معظم مَن في الغرب في فهم حجم التهديد. وإلى أن أدركت الوكالات الحجم الحقيقي للخطر، كان العملاء الذين تصعب السيطرة عليهم أمثال ناصري نادراً ما سيُعتبرون أشخاصاً يستحقون العناء. وكان لدى الفرنسيين- الذين قُتل بعض مواطنيهم في هجمات إرهابية عديدة في باريس خلال التسعينيات- وعيٌ أفضل لحجم الخطر، وكانوا ينتقدون البريطانيين بشدة؛ بسبب عماهم المتعمَّد تقريباً عن الدور التشغيلي للمتطرّفين الذين يعيشون وسطهم ويديرون أعمالاً إرهابية بكل نشاط وحيوية. وسيعترف المسؤولون في MI5 لاحقاً بهذا الفشل.

عندما عاد من أفغانستان، عاود ناصري الاتصال بالفرنسيين من جديد. وقد برَّر لنفسه ما سيفعله. "كنتُ في قمة العالم. لم يأخذني أحدٌ على محمل الجدّ، ولم يعتبر أحدٌ أن لديّ أي شيء لأقدّمه. كانت المديرية العامة للأمن الخارجي جاهزة لرميي في السجن وغسل يديها مني. ثم حاولوا دفع أموال لي لجعلي أختفي. لكنْ ها أنا هنا الآن، عائداً من معسكرات التدريب الأفغانية، وبجعبتي كمية هائلة من المعلومات. لن يحاولوا التخلّص مني هذه المرة؛ فهم بحاجة إلي الآن".[32]

يتذكَّر أن ردّة فعل المديرية العامة للأمن الخارجي حيال اتصاله بها كانت مزيجاً من الفرح لأنه كان حياً، وعدم تصديق ما فعله، والأهم من كل شيء آخر؛ عدم تيقنهم ممّا سيفعلونه به الآن. استجوبوه بشكل مكثّف في فندق في اسطنبول،

ولكنهم بالكاد بدوا مهتمين بمستوى التفاصيل التي يمكنه تزويدهم بها عن أماكن المعسكرات وتقسيماتها، وبرامج التدريب، والشخصيات التي كانت تأتي وتذهب. ورغم أن معظم معلوماته لا يمكن التحقّق منها بشكل مستقل، إلا أن وصفه للمعسكرات تطابَق مع ما سيحدِّده لاحقاً بقية رجال الاستخبارات والزوّار الذين ذهبوا إلى هناك.

انتهى المطاف بناصري في لندن، حيث أعادت الجماعة الإسلامية المسلَّحة تجميع صفوفها، وحيث قرّر الفرنسيون أنه يجب تشغيله بالتعاون مع البريطانيين. لكنه لم ينسجم مع مشغِّله من MI5، "دانيال"، الذي كرِهه في كل النواحي تقريباً. "كرِهتُ طريقة رميه حقيبة ملفاته، وكرِهتُ طريقته في الكلام، وكرِهتُ طريقته في إبلاغي أنه "سيشغِّلني" كما لو أنني كنتُ حيواناً في السيرك".[33]

سواء أعجبهم ذلك أم لا، قدَّم ناصري مُعضلةً أخرى لـــ MI5. فأحد أسباب إرسال الليبي له هو جمع التبرعات؛ مما يعني أنه كان من المتوقع منه تحويل الأموال إلى المعسكر. أحجَم الفرنسيون والبريطانيون في البداية عن إعطائه نقوداً ستموِّل في الأساس تدريبات على الإرهاب، لكنه قال إنهم وافَقوا ثلاث مرات.

بدأ ناصري يسمع عن داعيةٍ في جامعٍ في فور فترز يوث سنتر بالقرب من شارع بايكر في لندن. كان معروفاً بأبي قتادة، وهو فلسطيني-أردني اسمه الحقيقي عمر محمود عثمان. وقد صُنِّف لاحقاً، وعن حق، كسفير لبن لادن في أوروبا. كان أحد رجال الدين الرئيسين الذين وفَّروا تأييداً علمياً وحيوياً لنشاطات بن لادن. اعتبره ناصري أكبر تهديد في المدينة. وقال أيضاً إنه مرَّر رسائل بين أبي قتادة في لندن وأبي زبيدة والليبي في باكستان.

لكنْ وفقاً لناصري، لم تكن الاستخبارات البريطانية تملك قدرةً كبيرةً في ذلك الوقت على تحديد المتطرّفين التشغيليين الحقيقيين أمثال أبي قتادة. بل كانت مهتمة أكثر بالدعاة الأقل مصداقية بكثير أمثال أبي حمزة (وهو مصري اسمه الحقيقي مصطفى كامل مصطفى) في جامع فيتزبري بارك. رغم تدريبه السابق في

أفغانستان، كان أبو حمزة وقتها مجرد مخادعٍ مثير للمشاكل. وكان لديه اتصال بسيط أو عدم اتصال على الإطلاق بشبكة الجهاديين المتشدّدين. كان ناصري يعرف شخصاً تدرَّب معه، وعلِم أن أبا حمزة- خلافاً لما يزعمه في خطبه- لم يفقد ذراعه في المعارك، بل في حادث أثناء تصنيعه بعض المتفجرات. في السنوات التي تلت ذلك، ازداد تأثير أبي حمزة في لندن في صفوف المتطرّفين اليافعين. وسُلِّم إلى الولايات المتحدة في العام 2012 بتُهمة الإرهاب، وحَكم عليه في العام 2014.

لم يكتشف ناصري قطّ السبب الذي دفع جهاز MI5 إلى الطلب منه عدم التركيز على أبي قتادة. (في وقت كتابة هذا الكلام، وبعد معركة قانونية دامت عدة سنوات، رُحِّل أبو قتادة من المملكة المتحدة عائداً إلى الأردن، حيث تمت تبرئته من التُهم الأولية، ولكنه اتُّهم بتُهم جديدة). في غضون ذلك، كان معارف ناصري الفرنسيون- الذين رآهم في لندن أيضاً- لا يزالون يركِّزون على إيجاد المعسكرات التي يتدرَّب فيها الجزائريون، ولا يُبدون اهتماماً كبيراً بالتهديد الأوسع للإسلاميين. كان هناك انعدام جوهري للثقة؛ بناءً على عدم تأكدهم من الجهة التي سيوليها ناصري وفاءه. "أظنّ أنهم كانوا خائفين مني ومما سأفعله. كانوا يلاحقونني في كل مكان". يبدو أن الطلاق أمرٌ محتومٌ.

بعد انهيار علاقته مع MI5، أوضحوا لناصري أنه من الضروري أن يغادر البلد، وبالأخص بعد أن برهَن عن عدم تعاونه بعد هجمات تنظيم القاعدة على السفارة في العام 1998. في ذلك اليوم، وبعد أن طفح كيله من المراقبة، أخرَج البطارية من هاتفه الجوّال وتركه في شقته. "تخلّيت عنهم، وما عادوا يعرفون مكاني بعد ذلك. وقد أصابهم الجنون، واضطروا إلى الاتصال بزوجتي المستقبلية ليقولوا لها: *رجاءً، رجاءً قولي لنا أين هو؟* وكنتُ وقتها في لندن بكل بساطة".

بعد استراحة قصيرة في أفريقيا الشمالية، وافَق ناصري على الانتقال لمساعدة الاستخبارات الألمانية في محاربة الإسلاميين على أرضها. لكنه فَقَد صبره مع الألمان أيضاً. إذ لم يحصل قطّ على الهوية الجديدة والحماية اللتين كان يأمل الحصول

عليهما. وقد قال بذلك الشأن: "أشعر بأنني خاطرتُ بحياتي للا شيء. لا شيء على الإطلاق".[34]

في السنوات التي تلت مهام ناصري في التجسّس، أصبح "الأفغان العرب" بارزين أكثر، وأصبح الاسم الذي اعتمدوه، تنظيم القاعدة، معروفاً للعالم أجمع. وقامت الجماعات المرتبطة بتنظيم القاعدة بمهاجمة المصالح الأميركية في اليمن والصومال وكينيا وتنزانيا. وحصل المزيد من الهجمات، ومحاولات الهجوم، في الولايات المتحدة والأردن خلال فترة احتفالات الألفية.

وفقط مجموعة صغيرة من الأشخاص- داخل أجهزة الاستخبارات أو خارجها- أدركت بالكامل التهديد الذي يشكّله تنظيم القاعدة. وقامت وكالة الاستخبارات المركزية، بالعمل مع الأحزاب المعادية لحركة طالبان، ببعض المحاولات لإطلاق برنامجٍ للتغلغل بين الجهاديين. ومع ذلك، عندما حصلت هجمات 11 سبتمبر 2001، لم تكن الولايات المتحدة وبريطانيا تملكان جاسوساً واحداً داخل تنظيم القاعدة. وكانت هذه نقطة ضعف حرِجة.

مثلما أكّد التحقيق الأميركي الرسمي بهجمات 11 سبتمبر، كان هناك "افتقار إلى مصادر بشرية موثوقة وحسنة الاطلاع داخل تنظيم القاعدة. "فقبل 11 سبتمبر 2001، لم يطوِّر مجتمع الاستخبارات مصادر بشرية ويستخدمها بفعالية لاختراق الدائرة الداخلية لتنظيم القاعدة".[35] ويؤكّد مايكل شوْير- وهو شخص في وكالة الاستخبارات المركزية كان قد أطلق أجراس الإنذار- أن "سبب عدم منعنا هجمات 11 سبتمبر كان بسيطاً: لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية ولا أجهزة استخبارات حلفائها، الغربيين أو المسلمين، جاسوسٌ أو مُخبِرٌ داخل هيكلية قيادة تنظيم القاعدة".

خلال مشاهدته التغطية الإعلامية للهجمات في منزله في ألمانيا، أُصيب ناصري بالغثيان فعلياً، وتساءل عمّا إذا كان بالإمكان منع حصول ذلك لو أنهم أنصتوا له،

ولو أن السلطات راقبت عن كثب أكثر أولئك الذين ذهبوا للتدرب في المعسكرات الأفغانية. "حاولتُ جعلهم يفهمون سبب ذهاب كل أولئك الشباب إلى أفغانستان ليتدرَّبوا ويصبحوا جاهزين للموت من أجل قضية؛ ليس من أجل والداهم أو أولادهم، بل بسبب إذلال الإسلام والمسلمين".[36]

كانت لناصري نقاط ضعف كعميلٍ، وقد بدا وفاؤه غير أكيد إلى حدّ خطير في بعض الأوقات. فمثلما حذّرهم، إن شخصاً قادراً على التفكير كمتطرّف والعيش بين المتطرفين لعدة أشهر قد ينجذب إلى صفوفهم بسهولة. لكن تساؤلات الوفاء تلك موجودة دائماً في عالم الجاسوسية، وبالأخص في حالات التغلغل طويلة الأجل. وما يظهر من روايته ليس أن إيجاد وسيلة لدخول جماعات كهذه كان صعباً جداً، بل أن عدد المحاولات الجدية لتنفيذ ذلك كان ضئيلاً. وقد نتج ذلك عن الفشل بالإنصات، وعدم اكتراث جوهري من قِبل أجهزة الاستخبارات (وصنّاع السياسة الذين يديرونهم) في ذلك الوقت تجاه حركة كانت تتشكّل بعيداً عن حدودهم. وحتى لو أن شخصاً آخر مطواعاً ورزيناً أكثر كان بلا شك سيكون عميلاً أفضل، إلا أن ناصري أظهَر أنه يمكن التغلغل في المعسكرات الأفغانية.

ستكون هناك تحديات هائلة مُقبلة، وستحتاج الوكالات الغربية إلى حرفة جديدة ومتخصصين جدد إذا أرادت النجاح. وقد قال شوْير في مقابلة صحفية بعد اثنتي عشرة سنة من مغامرة ناصري: "لا نزال عالقين في أسلوب الحرب الباردة تجاه هذا. وهذا هدف أصعب بكثير مما كان عليه السوفيات. فأولئك الأشخاص مؤمنون حقيقيون، ويعيشون وفق معتقداهم، وليس في عالم من الرفاهية".[37] بتعبير آخر، الرشوة لن تحرِّضهم لكي يتجسّسوا. لكنْ يمكن التغلب على كل تلك الفروق؛ فقد كانت بدلاً من ذلك سبباً للتكيّف.

لكنْ في حين أبدى البلجيكيون والفرنسيون والبريطانيون قلقهم من الهجمات على أراضيهم، أعاروا اهتماماً طفيفاً للحركة العالمية التي كانت تلتئم. ومثلما شرح

ناصري، ساهمت الحرب السوفياتية في تكوين "أسطورة المجاهدين". وقد ساهم هذا، إلى جانب الغضب العارم للشارع العربي والأفكار المتطرِّفة الجديدة، في تشكّل تحالف بين المتطرّفين سيفرض تهديداً كبيراً. و لم يهتمّ أحدٌ تقريباً في الأجهزة الأمنية الغربية بما أصبحت عليه أفغانستان البعيدة، وأبدى قّلة منهم قلقهم حيال شعور الأطفال في الشرق الأوسط بالوحشة وعدم الانتماء، و لم يعودوا يكترثون بتعلّم العربية؛ حتى إن قلّة أكثر اكترثت بدراسة الأفكار الدينية القوية التي كانت تحوم في الأرجاء. العجيب في الأمر أن أجهزة الاستخبارات لم يكن لديها الكثير لتفعله عندما حلّت الكارثة.[38] ربما لم يملك ناصري كل المميزات الذهنية أو الوفاء الضروري ليشكّل جاسوساً جيداً، وليُقنع الغرب بأخذ المتطرّفين السنة على محمل الجد، لكن قصته توضِّح الحاجة إلى جواسيس في الأماكن البعيدة، وأنه كان من الممكن الحصول عليهم هناك. كانت المشكلة أشبه بأحجية الدجاجة والبيضة؛ إذا لم يكن لديك شخصٌ في المعسكر لتقدير ما كان يحصل هناك والتهديدات التي كانوا يشكّلونها، فلن تكون قادراً على الأرجح على إقناع أحدهم بإرسال جاسوس إلى هناك. لهذا السبب، يسير التجسّس الجيد جنباً إلى جنب مع التحليل الجيد؛ لأن الشخص يحتاج إلى الحكمة لكي يقرِّر أين يجب البحث.

إذاً، التجسّس الناجح تسيِّره الحرفة والموارد ونوعية المجنَّدين ومجموعة التوجيه أيضاً. ويتطلب تركيزاً كبيراً للجهود، حيث إنه لن تتحقّق أي نتائج على الأرجح إلا إذا جُعِل أحد الأشياء أولويةً حقيقيةً. هكذا كان الوضع مع تنظيم القاعدة قبل هجمات 11 سبتمبر.

لكنّ هناك المشكلة العكسية أيضاً. فعندما يصبح أحد الأشخاص أولويةً كبيرةً جداً وتريد الحكومات تحقيق النجاح بسرعة كبيرة، يمكن أن تكون العواقب كارثية بشكل مماثل. ومن دون عناية مركّزة واحترافية كبيرة، يصبح هناك حافز للمبالغة، وحتى للتصنيع، ويمكن أن تفقد لعبة التجسّس سُمعتها الجيدة. هذا ما حصل في الفترة التي سبقت حرب العراق في العام 2003، والتي أظهَرت الطريقة البشرية الشخصية جداً؛ وهي أن التجسّس يمكن أن يتحوَّل إلى كذب.

الفصل 6

الشراء على مسؤولية الشاري

"بذلوا ما بوسعهم. أرادوا إحداث فرق، وتغيير السياسة، وتغيير العالم. وهذا خطأ دائماً"

– ضابط خبير متقاعد، جهاز الاستخبارات السرية

كان خبير استخبارات يقرأ من كتاب عن عميل سري اسمه الرمزي كورفبول. أصبح العميل مشهوراً بسبب إبلاغه العالم أن الرئيس العراقي الراحل صدّام حسين يمتلك مختبرات جوّالة لتصنيع أسلحة بيولوجية (أو أسلحة جرثومية مثلما هي معروفة شعبياً). كان الكتاب مصنّفاً "غير روائي"، وقد فاز بعدة جوائز. لكنه بدأ بتصريح من المؤلف بأنه كان يستخدم اسماً خاطئاً لكورفبول وأنه لم يلتقه قطّ؛ رغم كتابته 280 صفحة عنه.

بينما كان الخبير– وهو شخص دقّق في حالة العميل بشكل عميق– يتصفّح الكتاب، بدأ يدوّن ملاحظات غاضبة على الهوامش، وبدأ الغضب يتملّكه. قال إن الصفحات الأولى كانت محض خيال. فهي تتحدث عن وصول كورفبول إلى ألمانيا في العام 1999، وكيف جنّده جهاز استخبارات البلد، Bundesnachrichtendienst (أو BND، دائرة الاستخبارات الاتحادية).

انتقى فقرةً من الكتاب: "*محدّقاً من النافذة، لم يكن أحمد حسن محمد يستطيع رؤية الكثير من مترله الجديد. فعند وصولهم في الربيع أو الصيف، كان الركاب في مطار ميونخ الدولي يلقون عادة نظرةً خاطفةً على...*".

مّما جعَل الخبير غاضباً. "فهو لم يذهب إلى هناك قطّ! بل وَصَل براً من فرنسا".

"*حلّقت طائرة أحمد من أفريقيا الشمالية...*".

"بل من فرنسا!".

استمع الخبير بينما قرأتُ بصوت عالٍ وصفاً طويلاً من ثلاث صفحات: "*كانت حقائبه دليلاً على ثروة جديدة... أحضَر الرجل معه بلحاً محشواً وليموناً معلّباً، وحلوى الكيف وكعكات اللوز... وهرول عمال المطار بالمعاطف الصفراء اللامعة بالقرب من الطائرة... ومركبات الحقائب المطلية باللون البرتقالي للتحذير... تحرّك الخط الطويل ببطء، لكن المسافر [كورفبول] كان صبوراً...*".

"أول صفحتين ونصف من نسج الخيال! أعتقد أنهم يحتاجون إلى فعل هذا لكي يبيعوا الكتب".

"*ضغط ضابط الحدود زراً على مكتبه، فجاء رجل آخر... ليرافق المسافر عبر القاعة إلى مكتب صغير*".

"لا".

لقد تكلّم مع ضباط جوازات السفر. "*أنا من بغداد، شمالي شرقي بغداد. وأعيش مع والدي ووالدتي*".

"كان والده متوفياً".

"*أدرس في جامعة بغداد...*".

"لا. كانت الجامعة التقنية".

"*نعم، أنا متزوج*".

"مطلّق".

"ممسكاً قصاصات الورق وحقيبته، سار بحزم في المطار الضخم للوصول إلى منصة الحافلة في الخارج".

"لا. لم يذهب إلى المطار قطّ".

الأحداث التي كنت أقرأها كانت من الكتاب الأكثر مبيعاً للصحافي الأميركي بوب دروغن. كان يحكي كذبةً شنيعةً سردها العميل المعروف بكورفبول، والذي كان كبيراً لدرجة أنهم ألقوا اللوم عليه لمساعدته في اندلاع حرب العراق في العام 2003، والتي أدّت إلى وفاة آلاف الأشخاص. كتاب دروغن الذي صدر في العام 2007، وعنوانه *كورفبول*، كان عنوانه الفرعي *الجواسيس، الأكاذيب، والمحتال الذي سبّب حرباً*. وكان الغلاف يُظهر اقتباساً من كاتب القصص المثيرة فريدريك فورسيث الذي يشير إلى الأحداث على أنها "أكبر فشل في تاريخ المعلومات الاستخباراتية السرية". وكانت وجهة نظر وزير الخارجية الألماني في زمن الحرب يوشكا فيشر مماثلةً: "كان السبب كورفبول، لا غير. لقد شُنّت الحرب بناءً على أكاذيب".[1] فمن بين كل الأدلة المجمَّعة عن صدّام حسين، كانت الاتهامات بامتلاك أسلحة جرثومية أقواها وأبرزها. وكان كورفبول مَن زوَّد بذلك الدليل. وقد أشار إليه التحقيق الرسمي في الولايات المتحدة- في ما يتعلق بفشل الاستخبارات بشأن أسلحة الدمار الشامل في العراق (والمعروف بلجنة أسلحة الدمار الشامل)- على أنه المصدر "المحوري" حول الأسلحة البيولوجية. واختتم التحقيق بالقول إن "كل معلومات مجتمع الاستخبارات بشأن الأسلحة البيولوجية الجوّالة المزعومة في العراق تقريباً أتت من مصدر، واسمه الرمزي "كورفبول". كان شخصاً ملفّقاً".[2]

لكنْ من أين جاءت تلك الافتراءات التي اعتمدتها وكالات الاستخبارات الرائدة في العالم؟ وما الذي تكشفه هذه العملية عن مهنة التجسّس وقيمة قادة شبكات التجسّس والاستخبارات البشرية في عصرنا هذا؟ عندما وحّد الرئيس الأميركي المُحافِظ جورج و. بوش ورئيس الوزراء البريطاني الليبرالي طوني بلير

قوائمهما لإطلاق عملية غزو العراق؛ رغم العديد من الاحتجاجات، كانا يتصرفان تماشياً مع روح العصر، مجسِّدَين رغبةً عامةً بالتدخّل قبل حصول المتاعب، ولمنع المجازر وانتهاكات حقوق الإنسان والهجمات المفاجئة كهجمات 11 سبتمبر 2001. لكن هذا الأسلوب من التدخّل الأجنبي يتطلّب استخبارات دقيقة وموثوقة جداً. ويتبيَّن من نظرة مدقّقة في حالة كورفبول أنه بإمكان التجسّس أن يتحوَّل إلى كذب من دون جهد كبير، أو حتى أي خبث؛ حتى عندما تتعلق المسألة بحياة الآلاف. كما تقدِّم هذه الحالة دلالات عن كيفية تجنّب كوارث كهذه في المستقبل.

ألّف دروغن كتابه عن كورفبول قبل أن يعرِف الكثير عن الهوية الزمنية لهذا العميل وظروفه الشخصية. وقد ملأ الفراغات على عادة العديد من الصحافيين. وقد كتَب: "مثل أي مؤلف، أكملتُ التفاصيل من السجلات المدوَّنة وذكريات المشاركين لإضفاء بعض الحيوية على النص".[3] لكنه بفعله هذا، عَكَس دروغن عن غير قصد صورة حياة أسوأ أنواع العملاء السريين؛ وهو شخصٌ ملأ الفراغات في ما كان يعرِفه بروايات مبتذلة لكي "يُضفي بعض الحيوية" إلى تقاريره.

ومع مواصلة الخبير القراءة، أشار إلى أكثر من أربعين خطأ قبل أن يسأم من القراءة. والعديد من تلك الأخطاء كان سخيفاً، لكن بعضها عبَّر عن جوهر هذه القصة؛ أي كيف تمت فبكرة الأكاذيب وقولَبتها وإنضاجها. وقال إن معلومات دروغن الخاطئة شملت تفاصيل عن الرجل الرئيس الذي استجوَب كورفبول:

> وَقَف ضابط الفريق الطويل مستقيم الظهر... كان في أواخر العقد الخامس من عمره، وقد تجسَّس لصالح ألمانيا في كل أفريقيا خلال الثمانينيات... كان فصيحاً جداً في اللغة عديمة الرحمة للتجسّس: استخدَم وسائل مُخادعة- السرقة، الكذب، الابتزاز، وما هو أسوأ من ذلك- للوصول إلى الحقيقة. حتى في الـ BND، كان معظم الأشخاص يعرفون ضابط الفريق المسؤول عن أحمد [كورفبول] من اسمه الرمزي فقط، شومَن... كانت مهارة شومَن الخاصة هي إقناع المُخبِرين بالتكلم.

قال إن كل هذا خطأ. فشومَن غير موجود. لم يكن هناك ضابط فريق مماثل. والجميع يعلمون مَن شغَّل كورفبول، و لم يكن من هذا القبيل.

"كان شومَن ضائعاً. فما معنى كل هذا؟ لم يكن مهندساً ولا عالم جراثيم".

"في الواقع، كان مستجوبه، "الدكتور بيتر" [اليس اسمه الحقيقي]، عالِماً مؤهلاً، يحمل شهادة دكتوراه".

"... لغة إنكليزية مكسَّرة...".

"لا، فكورفبول يُجيد الإنكليزية. لقد كانت المقرّرات التعليمية في الجامعة بالإنكليزية".

"... شغَّلوا آلات تسجيل للصوت والصورة مخبأة...".

"لم يكن الــ BND يمتلك تسجيلات سرية ولا محاضر".

لكن انتقاد بوب دروغن على أخطائه سيجعلك تغفل عن لبّ الموضوع. فمن دون سبقه الصحفي الأصلي، المنشور في لوس أنجلوس تايمز، والذي نبَّه العالم إلى الخدعة، ما كنا لنسمع بكورفبول على الإطلاق. وما يهمّ لم يكن الأساليب الأدبية التي استخدَمها ليروي قصته، بل أكثر- مثلما لَمَّح دروغن نفسه في إحدى المقابلات- إن الحقيقة الكاملة عن الأحداث في عالم الاستخبارات نادراً ما تخرج من الخبر الأول. سألتُ دروغن إن كانت هناك- في التقرير عن إخفاقات الاستخبارات- "سخرية في الأسلوب الأدبي حيث ملأتَ الفراغات". فقال إنه لم ير الأمور على هذا النحو. "لم أتوقع قط أن يكون كتابي صاحب الكلمة الفصل: فهذا أمر لا يُصدَّق". وأشار إلى مثال العميل زيغزاغ، العميل المزدوج البريطاني في زمن الحرب الذي احتاجت قصته إلى خمس وسبعين سنة لكي تُعرَف. وتابع قائلاً إنه كانت هناك أخطاء أيضاً في الكتاب الأكثر مبيعاً "سقوط الصقر الأسود" من تأليف مارك بودن، والذي أغفل دور بن لادن في تدريب الرجال الذين أسقطوا المروحية.

أثناء تحضيره للكتاب، كانت الحرب الأهلية في العراق في أسوأ أحوالها، و لم يكن أي جاسوس قد أقرّ بعد بدوره في الغزو الأميركي الذي أشعل فتيل الصراع. "كنتُ أحاول كشف قصة تشمل كذّاباً بالفطرة، وتشمل وكالات استخبارات تكذب كجزء من مهامها، وسياسيين لا يملكون سبباً ليكونوا صادقين في روايتهم لما حصل، ومستندات ستكون خطأ حتى لو تمكنتُ من وضع يدي عليها".

ووافَق دروغن على أن أكبر ثغرة في تقريره كانت الطريقة "الإجرامية" التي شغَّلت بها الاستخبارات الألمانية كورفبول. لأن النواحي التي ضلّلت فيها أقسامه الخيالية كانت في استحضار فكرة محتالٍ أفشَلَ جهود مستجوبين محترفين يقودهم مشغِّلٌ *"فصيحٌ في اللغة عديمة الرحمة للتجسّس"*. وقد وُلدت الكذبة هنا، في هذا المستوى المتدني، وليس في مكيدةٍ ما من بنات أفكار واشنطن.

لطالما كان الرأي السائد في ما يتعلق بفشل الاستخبارات في العراق أنه كان نتيجة مؤامرة حيكت في واشنطن ولندن لتجميل صورة حربٍ كان الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير مصمِّمَين على خوضها مهما كان الثمن. ووفق هذا الرأي، الحالة العامة بأن صدّام حسين كان يخفي أسلحة دمار شامل كانت من نسج خياليهما، وقد دبّراها عن طريق المبالغة في تقارير العملاء أمثال كورفبول. وتقول كارين كوياتكاوسكي، وهي مقدّم متقاعدة عملت كمحلّلة في البنتاغون خلال حرب العراق: "لم تكن معلومات استخباراتية، بل كانت دعاية. فكانوا يأخذون بعض المعلومات الاستخباراتية، ويغربلونها، ويجعلونها تبدو مشوّقة أكثر بكثير، وذلك بإخراجها من سياقها عادة، وفي أغلب الأحيان بالجمع بين معلومتين لا علاقة تربطهما".[4] ويُقال في الولايات المتحدة إن هذه المؤامرة لترويع مؤسسة الاستخبارات كانت تتم بتوجيهات من نائب الرئيس ديك تشيني الذي وصفته الإيكونومست- قبل أن يتولى منصبه- بأنه "السلطة خلف العرش".[5] ويُقال إن قادة شبكات التجسّس البريطانية المعروفون بحذرهم أُجبروا بدورهم على الخضوع من قِبل الكاردينال ريشيليو الخاص ببلير؛ أي ناطقه الرسمي ألستير كامبل. وقد

اقتبس الصحافي في BBC أندرو غيليغان من مصادر داخلية تقول إن ملف الاستخبارات عن أسلحة الدمار الشامل الذي نشرته بريطانيا للعموم كان "ملفّقاً". وقد نشر غيليغان مقالاً في الصحيفة بعنوان: "سألتُ مصدري الاستخباراتي: لماذا ضلّلنا بلير بشأن أسلحة صدّام للدمار الشامل. فماذا كان جوابه؟ كلمة واحدة... كامبل".[6] (وفي معرض دفاعهما، أنكَرَ تشيني وكامبل تشويههما أي حقائق، ولكنهما دافعا عن حقّيهما وواجبيهما، بصفتهما من كبار المسؤولين، وذلك بطرح أسئلة صعبة على وكالات الاستخبارات ومحاسبتها عند الضرورة).

يقول بعض النقّاد إن مدى التلاعب بالمعلومات الاستخباراتية أصبح واضحاً في "مذكرة داونينغ ستريت" سيئة السمعة والمصنَّفة "لعيون المملكة المتحدة فقط"، والتي صدرت في 23 يوليو 2002 عن ماثيو رايكروفت، السكرتير الخاص لطوني بلير. كانت المذكرة عبارة عن محضر اجتماع برئاسة بلير، وكَتَب فيه رايكروفت: "هذا المحضر حسّاس جداً، ولا يجب صنع أي نُسخ أخرى عنه. يجب أن يطّلع عليه فقط مَن هم بحاجة ماسّة لمعرفة محتوياته". ثم تابع مقتبساً كلمات كومينغ، وهو الاسم الذي كان يُعرَف به السير ريتشارد ديرلوف، رئيس جهاز الاستخبارات السرية: "يشير تقرير كومينغ حول مباحثاته الأخيرة في واشنطن إلى وجود تغيّر ملموس في الموقف. ويُعتبر العمل العسكري أمراً محتوماً الآن. يريد بوش إزاحة صدّام من خلال عمل عسكري مبرَّر بالتزامن بين الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل. لكنْ كان يجري تعديل المعلومات الاستخباراتية والحقائق حول السياسة المطلوبة".

صحَّح ديرلوف محضر رايكروفت لاحقاً في وقت تداول المذكرة، وطلَب من رايكروفت إزالة الجملة عن تعديل المعلومات الاستخباراتية. لكن العديد من الأشخاص اعتبروا أن ديرلوف أكّد الفكرة العامة عن قصد أو عن غير قصد. ومن خلال تجميعهم ما يلائمهم من حقائق وأنصاف حقائق، أصبح قادة جهاز الاستخبارات الأميركي ألعوبة بيد تشيني ورئيسه بوش، مضحّين بنزاهتهم لإقناع عامة الناس السذّج بتقبّل الحرب التي كانوا مصمّمين على شنّها؛ مهما يكن الثمن.

توصّلت لجنة أسلحة الدمار الشامل الرسمية إلى استنتاج ألطف؛ رغم أنه يشكّل إدانةً أيضاً. فقد زعمت أن أجهزة الاستخبارات استهترت بالحقيقة. مثلاً، بشأن الأسلحة البيولوجية، اعتبرت أن وكالة الاستخبارات الدفاعية الأميركية- التي أعطت كورفبول اسمه الرمزي وعالجت معلوماته الاستخباراتية- قد "أغفلت واجبها" بالتدقيق في صحة معلومات مصدرٍ حاسم. في غضون ذلك، شدَّد محلّلو وكالة الاستخبارات المركزية على ما بلّغ عنه كورفبول علاوة على الاستخبارات الأخرى؛ لأن الروايات التي أخبرها "كانت متناغمة مع ما كانوا يصدّقونه مسبقاً". وقد لاموا رؤساء الاستخبارات أيضاً بسبب فشلهم في "إبلاغ صنّاع السياسة عن عيوب كورفبول في الأسابيع التي سبقت الحرب".[7]

ومثلما ورد في الرواية الأولى لدروغن، كانت قيادة وكالة الاستخبارات المركزية متواطئة في السرد الخاطئ؛ لدرجة أنه تم تجاهل التحذيرات المحدَّدة بأن كورفبول دجّالٌ، بما في ذلك القلق الذي أبداه تايلر درامهيلر، رئيس عمليات وكالة الاستخبارات المركزية في أوروبا، والذي كان عمله التواصلَ مع الاستخبارات الألمانية. يتذكّر درامهيلر أنه في الليلة التي سبقت إلقاء كولن باول خطابه في الأمم المتحدة، حذّر مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت عبر الهاتف من أن لدى الألمان هواجس بشأن مصدرهم (أنكرَ تينيت تلقيه تحذيراً كهذا). وأشار درامهيلر إلى غداء في واشنطن مع رئيس الــ BND الذي أبلغه أن كورفبول مجنون على الأرجح، ويزعم أنه أرسل هذا التحذير إلى مديري وكالة الاستخبارات المركزية. كما أنه مرَّر إلى تينيت رسالة تحذيرية عن كورفبول من أوغست هانينغ، رئيس BND وقتها. وفي تقرير مناقض، يقول تينيت إنه لم يرَ الرسالة قط، ولم يعرف أن لدى ألمانيا شكوكاً حول مصدرها إلا بعد مرور سنتين على الحرب؛ "وهذا وقت متأخر جداً للقيام بأي شيء".[8]

يلمِّح النقّاد الذين يذكرون مذكرة داونينغ ستريت أو دليل درامهيلر إلى أن رؤساء الاستخبارات على طرفَي الأطلسي مارسوا السياسة، وتعمّدوا تمرير معلومات استخباراتية كانوا يعرِفون أنها تستند إلى أساسات متزعزعة؛ إن لم نقل

خاطئة بكل ما للكلمة من معنى. كان كل شيء عبارة عن مؤامرة ضد عامة الناس. لكنْ هل كانت الأمور بهذه البساطة؟ كان صحيحاً أنه تم تقديم معلومات استخباراتية إلى العالم من دون أهلية أساسية. ومثلما يشير التقرير البريطاني الرسمي حول الاستخبارات عن العراق، "تم التغاضي عن التحذيرات بشأن المعلومات الاستخباراتية".[9] ولجأ السياسيون ورؤساء التجسّس على حد سواء إلى المبالغة والتنقيح، متجاهلين الشكوك. وقد ساعدت تلك المعلومات الخاطئة على نشوب حرب. لكن الحكم على هذا بأنه مؤامرة مقصود منها التضليل سيكون مماثلاً للخطأ نفسه الذي ارتكبه بلير وبوش؛ أي تجاهل الصورة الكاملة ومحو التحذيرات. كان نقّاد قيادة جهاز الاستخبارات يحاولون رؤية عالم رمادي جداً باللونين الأسود والأبيض (وكان هناك أشخاص عاقلون داخل وكالة الاستخبارات المركزية عارضوا نظرة درامهيلر للأحداث؛ وبعضهم صدَّق بأمانة أقوال كورفبول وبقية أجزاء القضية الاستخباراتية).

لم يكن الشيء المزعج حقاً هو تحوير الأدلة أو المؤامرة المزعومة، بل أن المعلومات الاستخباراتية نفسها كانت خاطئة. بالإضافة إلى ذلك، بينما كان يوجد في بريطانيا وأميركا بعض المنشقّين داخل أجهزة الاستخبارات، إلا أن معظم العالمين ببواطن الأمور صدّقوا تلك المعلومات الاستخباراتية الخاطئة (تماماً مثلما يوجد نقّاد لحرب العراق داخل وكالة الاستخبارات المركزية، والذين يرفضون تقرير درامهيلر ويدافعون عن صدق تينيت، إن لم نقل بصيرته). لقد وجدت الأكاذيب طريقها إلى داخل النظام، وقد تشرّبها بالكامل. وهذا ما جعَل آليات التجسّس تُصدِر رائحة عَفنة. ويتذكّر غوردون كوريرا، المراسل الأمني للـ BBC، أن الموظفين في جهاز الاستخبارات السرية شعَروا أنها تشبه اكتشاف خيانة فيلبي تماماً. وكتَب أن "المصادر [جهاز الاستخبارات السرية] الثمينة كانت تتوارى عن الأنظار الواحد تلو الآخر؛ كالسراب في حرارة الصحراء"، ودبّ الرعب في فوكسهول كروس.[10]

لمعرفة ما يكمن خلف هذه الكارثة، تستحق المسألة أن نعود إلى ذلك المصدر الرئيس؛ أي العميل البشري في ألمانيا، ونشهد ولادة الكذبة. دعنا نحاول أن نروي قصته مرة أخرى.

وُلد رافد أحمد علوان، وهو عراقي من قبيلة الجنابي، في العاصمة بغداد في العام 1967. غادر العراق لأسباب مجهولة في العام 1999؛ ويقول البعض إنه اتُهم بعملية احتيال تافهة. سافَر إلى الأردن ومصر والمغرب ثم فرنسا. ثم عَبَر الحدود الألمانية في سيارته متوجهاً نحو نورنبرغ في بافاريا. كانت وجهته مخيَّم تسيرندورف في ضواحي المدينة المخصّص لطالبي اللجوء السياسي في ألمانيا. وجد أن الثكنات مكانٌ بغيضٌ أشبه بالاعتقال المنزلي، لكن مخيَّم تسيرندورف كان محطةً أولى إلزاميةً.

كان الخبر المنتشر بين نزلاء المعسكر هو أن زيارة مكتب الاستخبارات الألمانية خلف مركز اللاجئين سيسرِّع طلب اللجوء، حيث يُقال إنهم يتصفّحون الطلبات بحثاً عن أشخاص قد يعرفون أشياء مفيدة. كان هذا فرع تسيرندورف للمكتب المركزي للاستجواب، وهو قسم فرعي من BND.[11] في أوائل العام 2000، دَخَل علوان المكتب ليروي قصته. وقد لخّص خلفيته كالتالي: دَرَس الهندسة الكيميائية في جامعة بغداد للتكنولوجيا، ونُقل خلال خدمته العسكرية إلى برنامج صدّام حسين لأبحاث التسلّح؛ هيئة التصنيع الحربي، ثم عمل في مركز الهندسة الكيميائية والتصميم في بغداد على معدات لمعالجة البذور والعوامل البيولوجية.

عندما تم تمرير تلك المعلومات، وجد عناصر الـــ BND أن خلفية علوان مثيرة للفضول. وقد اهتمّ به كثيراً فريقٌ من خبراء الأسلحة في المركز الرئيس لمرحلة ما قبل التوحيد التابع لوكالة التجسّس في بولاخ التي تبعُد ثمانية كيلومترات عن جنوبي ميونخ. فبناءً على قيمته المحتملة، نُقل علوان من تسيرندورف إلى شقة خاصة به، ثم أُخضِع إلى أشهر من الاستجواب من قِبل محلّل متخصص يدعى الدكتور بيتر. أكمل الضابط ما يزيد عن مئة تقرير استجواب، ووصل خمسة وتسعون منها إلى الولايات المتحدة.[12] ولم يُكتَب أي تقرير بعد العام 2001.

صرَّح علوان لاحقاً لصحيفة الغارديان أنه كانت لديه خطة وقتها. فقد أراد استغلال تلك الاجتماعات لتقويض نظام الحكم العراقي، وقرَّر أن يخدع العالم. وحسبما قال: "كانت لديّ مشكلة مع نظام حكم صدّام. أردتُ التخلّص منه، وقد سنحت لي الفرصة حينها".[13] وقد نسج روايةً مثيرةً للاهتمام. فقد أبلَغ المستجوِبين أنه عمِل في مركز الهندسة الكيميائية والتصميم حتى العام 1998، وأنه رأى أثناء تواجده هناك خطةً لإنشاء مختبرات جوّالة تستطيع تصنيع أسلحة جرثومية كالجمرة الخبيثة والجدري. وقال إنه شهد حادثاً هناك أدّى إلى وفاة الكثير من الأشخاص، واضطروا إلى دفن الضحايا في توابيت من الرصاص.

في الحقيقة، من غير الممكن أن يكون علوان قد شهد أي شيء من هذا لأنه طُرد من مركز الهندسة الكيميائية والتصميم قبل أربع سنوات. ومع ذلك، تم تكرار هذه الرواية الخاطئة نفسها بعد ثلاث سنوات، في 5 فبراير 2003، في خطاب ألقاه وزير الخارجية الأميركي البائس كولن باول في الأمم المتحدة. وقتها، كانت قد مرّت عدة أشهر على آخر استجواب لكورفبول. وعندما ألقى باول خطابه، كان علوان- المُلقَّب كورفبول- يشغل وظائف مؤقتة، منها غسل الأطباق في مطعم صيني، وقلي شرائح اللحم في برغر كينغ.

مع جلوس وزير الخارجية الألماني فيشر على كرسيه، قدَّم باول إلى مجلس الأمن ما سمّاه نظرةً خاطفةً على ملف الاستخبارات الأميركية حول العراق، زاعماً أن لديهم "تفاصيل مباشرة عن مَصانع أسلحة بيولوجية موضوعة على سكك حديدية"، وتابع قائلاً:

> تُنقَل الشاحنات وعربات القطار بسهولة، وهي مصممة للتملّص من المفتّشين. ويمكنها في غضون أشهر إنتاج كمية من السم البيولوجي تعادل كامل الكمية التي يزعم العراق أنه أنتجها في السنوات التي سبقت حرب الخليج...
>
> شاهد العيان مصدرُ هذه المعلومات هو مهندس كيميائي عراقي أشرَفَ على أحد تلك المرافق. وكان متواجداً في الواقع خلال عمليات إنتاج العوامل البيولوجية. كما كان في

> الموقع أيضاً عندما وقع حادثٌ في العام 1998 سبَّب وفاة اثني عشر تقنياً بعد تعرّضهم للعوامل البيولوجية.
>
> وقد أبلغنا أنه عندما كانت أونسكوم [لجنة الأمم المتحدة الخاصة بتفتيش العراق من العام 1991 إلى العام 1999] تفتّش في البلد، كانت عملية إنتاج عوامل الأسلحة البيولوجية تبدأ دائماً أيام الخميس عند منتصف الليل؛ لأن العراق ظنّ أن أونسكوم لن تفتّش خلال يوم العطلة لدى المسلمين، أي من ليل الخميس وكل يوم الجمعة. وأضاف أن هذا كان مهماً؛ لأنه لا يمكن تفكيك الوحدات خلال عملية الإنتاج، والتي يجب أن تنتهي مساء الجمعة قبل وصول المفتّشين من جديد.
>
> هذا المنشقّ يختبئ حالياً في بلد آخر، وهو متأكد من أن صدّام حسين سيقتله إذا عثر عليه.[14]

كل هذا جاء من ألمانيا، من مصدر واحد فقط: كورفبول. ومثلما سيعترف المنشقّ بعد ثماني سنوات، كان كل شيء مجرد كذبة اخترعها بنفسه. وقد صرَّح في العام 2011 أنه "تسنّت لي الفرصة لألفّق شيئاً لإسقاط نظام الحكم. أنا وأولادي فخورون بهذا، وفخورون لأننا كنا السبب بإعطاء العراق هامش الديموقراطية".[15] (لم يكن ما قصده بكلمة "هامش" واضحاً بالضبط).

وقد صرِّح بالشيء نفسه للـ BBC. وعندما صارحه المراسِل الصحفي بقوله له: "الحقيقة هي أننا ذهَبنا إلى الحرب في العراق بناءً على كذبة، وتلك الكذبة كانت من نسج خيالك"، أجاب كورفبول بابتسامة متكلّفة: "نعم".[16]

لكن الرواية لا تزال تبدو ساذجة جداً، مثل أي قصة مُلفّقة أخرى. فإذا دقّقنا في التفاصيل مرة أخرى، فسنجد أن علوان وصل في ديسمبر 1999، عندما كان صدّام حسين في قمة سلطته، ولم تكن طبول الحرب تُقرَع بعد. ربما أراد علوان المبالغة في قصته لكي يحصل على جواز سفر ألماني، أو على مجرد تصريح بالإقامة. لكنْ هل كان حقاً ذكياً بما فيه الكفاية لكي يتوصّل إلى خطة مُحكمة كهذه للإطاحة بنظام الحكم؟ وهل كان واثقاً من نفسه كفاية لكي يخترع روايةً يمكنها

الصمود أمام التفحّص الدقيق؟ كان لديه سجل عدلي كمجرمٍ بسيطٍ، ولكنه لم يكن قطّ خصماً سياسياً لنظام الحكم.

هل يمكننا التأكد من أن كل شيء قاله كان خطأ كلياً؟ هل لفّق كل شيء حقاً؟ من السهل جداً الانتقال من أقصى حد إلى أقصى حد آخر.

***

أردتُ استكشاف هذه التناقضات مع رافد علوان نفسه. فقد كُشفت هويته في العقد الأول بعد حرب العراق، وتّمت ملاحقته، وبعد إنكاره أنه كذب في البداية، عاد و"اعترف" بتلفيقاته أخيراً.

عندما سألتُ عن تفاصيل التواصل معه، أبلغني زملائي الصحافيون أنه تقاضى مبالغ كبيرة لكي يُجري مختلف مقابلاته. وكانت سُمعته أن التعامل معه صعب. وبالفعل، عندما وصلتُ لرؤيته في نهاية المطاف، في خريف 2013، كان لديه شيء ليبيعه مرة أخرى، هذه المرة مذكراته كجاسوسٍ. كان يبحث عن كاتب ليؤلف عنه أو يشاركه التأليف.

التقينا، وسط الأجراس التحذيرية الصادرة عن قطارات الشارع، في المدينة الألمانية الجنوبية كارلسروه، بعد أن غيَّر الـــ BND مكان إقامته إلى هناك. كان شخصاً ممتلئ الجسم، ومستدير الوجه، يرتدي سروالاً من الجينز الأزرق، وذا ابتسامة متلألئة ومصافحة ودّية. ومشينا إلى مقهى قريب.

بقيتُ أنتظر حصول اللقاء لبضع ساعات. إذ لم يكن يرد على مكالماتي، ولكنه وصل إلى فندقي ليبحث عني بينما كنتُ أستكشف المنطقة، ونشب شجارٌ بينه وبين موظف استقبال غير متعاون. وقال لي: "كان عنصريّاً".

كان علوان يعلم عن كتابي السابق عن وكالة الاستخبارات المركزية، وقد أعطيتُه نسخةً موقّعةً من الطبعة الألمانية. وأراد الآن معرفة إن كنتُ مهتماً بمساعدته في أن يروي قصته. كانت لديه مسودة بالعربية أرادني أن أقرأها، والكثير من

الوثائق الداعمة التي يمكنني رؤيتها في مكتب محاميه، والتي يقول إنها تكشف الكثير عن طرائق عمل BND، بما في ذلك الشركات الوهمية التي أنشأوها وكيف خدعوه.

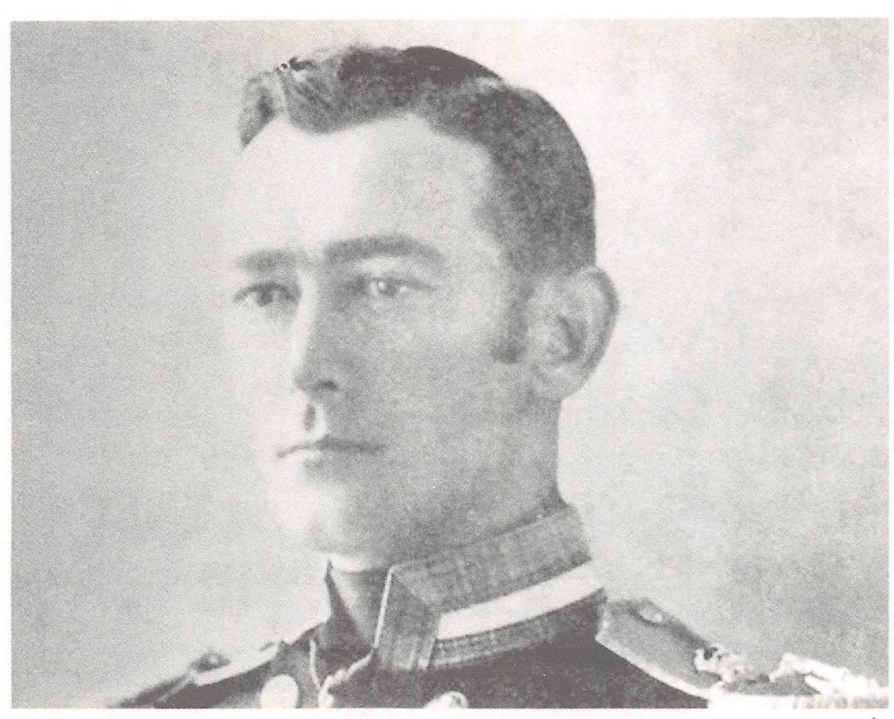
سألتُ علوان عمّا يريده من كتابه. فأجابني بلغة إنكليزية جيدة أنه يريد تصحيح سجله، وأن يتحدى الأكاذيب التي كُتبت عنه. بدا الأمر مثيراً للسخرية قليلاً. فعلوان يقول إنه لم يكذب قطّ ليدعم طلب لجوئه. "حصلتُ على اللجوء قبل أن أبدأ بالكلام. ويمكنني إثبات ذلك". وقال إنه خلافاً للتقارير، كان لديه وعائلته تاريخٌ طويلٌ من العمل ضد صدّام حسين (وذَكَر أحد أحزاب المعارضة). كان لديه دافعٌ ليساعد في إسقاط صدّام. وعندما طلَبتُ منه المزيد من التفاصيل عن هذه المسألة، قال إن عليّ أن أنتظر. لم يرد إعطائي أي شيء لكتابي، فقد كان خائفاً من فقدان أفضل أفكاره.

لقد قطعتُ مسافة طويلة من أجل هذا اللقاء، لكنه كان عبارة عن خيبة أمل كبيرة ولم يدم لوقت طويل. وزَعم أن سبب تأخره هو أن ابنته مرضت فجأة ونُقلت إلى المستشفى، فاضطر إلى الهرع لرؤيتها في العناية الفائقة. اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي.

***

كلنا نعرف أن الجواسيس يؤلّفون قصصاً. ولكنْ ليس كل دليلٍ مختلق خاطئاً بالكامل. ولمجرد أننا نعرف أن كورفبول أخبر بعض الأكاذيب، فإنّ ذلك لا يعني أنه لفّق كل شيء. بالإضافة إلى ذلك، بعض الأكاذيب أو حتى المبالغات غير مقصودة، ومن الممكن أنه صدَّق كل شيء قاله. من الصعب جداً كشف هذا النوع من الأكاذيب.

كان هناك الكثير من الرجال المخادعين في الطريق إلى الحرب. ففي إيطاليا، اخترع مزوِّرٌ "دليلاً" على أن صدّام حاوَل شراء الأورانيوم من النيجر؛ وكان



قُتل النقيب فرانسيس كرومي، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، في السفارة البريطانية في بتروغراد في 31 أغسطس 1918 على يد ميليشيا الثورة بعد اتهام البولشفيين للاستخبارات البريطانية بالتحضير لانقلاب عسكري.



سيدني رايلي، الملقّب "آص الجواسيس"، أرسله جهاز الاستخبارات السرية البريطانية إلى روسيا حيث تآمر على قلب حُكم البلشفيين وفشل في ذلك.



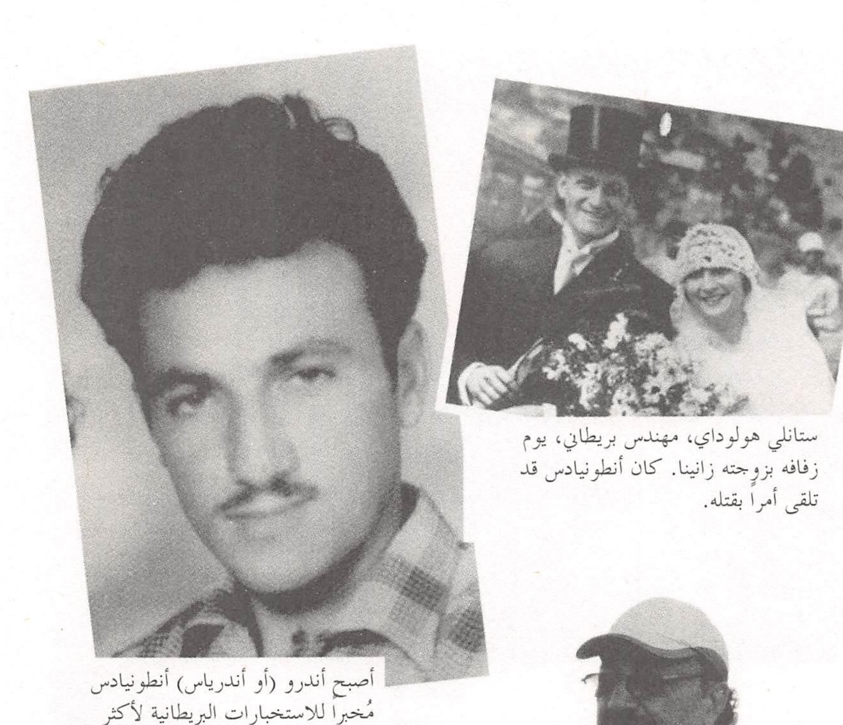
انضم العميل السوفياتي كيم فيلبي إلى جهاز الاستخبارات السرية في العام 1940، وأصبح رئيس قسم مكافحة التجسّس السوفياتي. بقيت خيانته وصمة عار في تاريخ الوكالة.



ميلتون بيردن (الوسط) بجانب الثوار الأفغان الذين يحاربون الجيش السوفياتي. أدار عمليات وكالة الاستخبارات المركزية من باكستان ضد الجيش السوفياتي في أفغانستان. ثم أصبح رئيس قسم العمليات المناهضة للاتحاد السوفياتي في العالم.



فريدي سكابّاتيتشي، المولود في بلفاست لأب إيطالي مهاجر، أشارت له الصحافة بإسم ستيكنايف، واعتبرته أفضل عميل لبريطانيا في صفوف الجناح المؤقت للجيش الجمهوري الإيرلندي.



ستانلي هولوداي، مهندس بريطاني، يوم زفافه بزوجته زانينا. كان أنطونيادس قد تلقى أمراً بقتله.

أصبح أندرو (أو أندرياس) أنطونيادس مُخبراً للاستخبارات البريطانية لأكثر من أربعة عقود بعد انضمامه إلى ثوار إيوكا في قبرص.

أنطونيادس في تونس في العام 2012 أثناء استدعائه للاستجواب من قبل الشرطة البريطانية. كان عمله للجمارك البريطانية قد انتهى الآن.



بعد عودته إلى المملكة المتحدة، سُجن أنطونيادس بتهمة إطلاقه النار أثناء قيادة السيارة على مقهى بيروت في كامدن، شمالي لندن.



كان السير ريتشارد ديرلوف رئيس جهاز الاستخبارات السرية. ويدافع عن دوره في التحضير لعمل استخباراتي لاجتياح العراق.

وزير الخارجية الأميركي كولن باول أثناء خطابه في الأمم المتحدة تبريراً لاجتياح العراق. وقد استند في أجزاء من خطابه على معلومات استخباراتية من كورفبول.

كُشف أن رافد أحمد علوان، عراقي الجنسية، هو العميل ذو الاسم الرمزي كورفبول - وهو الرجل الذي زوّد المعلومات الاستخباراتية الرئيسية عن الأسلحة البيولوجية المستخدمة لتبرير اجتياح العراق في العام 2003.



في الأعلى: ظابط أمان الله خلال الحملة الانتخابية قبل أن يُقتَل في غارة جوية أميركية. وقد قالت الاستخبارات الأميركية أنه قائد سري في حركة طالبان.
على اليمين: نسخة عن جواز سفر أمان الله.

كان أمان الله معروفاً جيداً لدى العديد من الغربيين. وقد كان المسؤول السابق في الأمم المتحدة مايكل سَمبل (أعلاه) من أصدقائه؛ كان رقم هاتفه مخزّناً في هاتفه الشخصي – وهو نفس الرقم الذي تعقّبته الاستخبارات الأميركية لقتله. أثبت سَمبل أن أمان الله لم يكن عميلاً مزدوجاً.



تسلّل عاصم (أعلى اليسار)، وهو عميل باكستاني للاستخبارات الفرنسية، بين المصلين في جامع طارق بن زياد في برشلونة، اسبانيا (أعلى اليمين). وقد ادّعى أنه اكتشف خطة لتفجير مترو المدينة (أدناه) وساهم في سجن 11 شخصاً بتهمة الإرهاب.





أصبح مورتن ستورم، وهو مواطن دانماركي اعتنق الإسلام، عميلا للاستخبارات الدانماركية وCIA وMI5. ساعد الـCIA في تعقّب الداعية اليمني الأميركي أنور العولقي في بريطانيا واليمن واغتياله في العام 2011.

PLOSIVE HAZARD) IED EXPLOSION RPT (PBIED) OGA : 8
KIA 8 CF WIA 1 CIV KIA 1 UE KIA

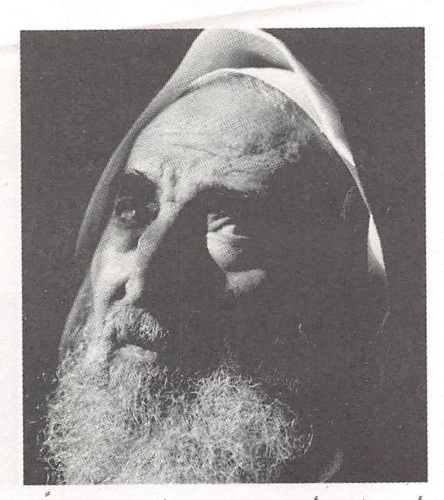
-12-30 06:14:00

IT: 2-377 (TF STEEL)
PE: SUICIDE BOMBER
HO: PRT KHOWST
HERE: FOB CHAPMAN
EPORT: @ 1218Z FOB CHAPMAN REPORTS IDF WITH A MASS CASU ATION

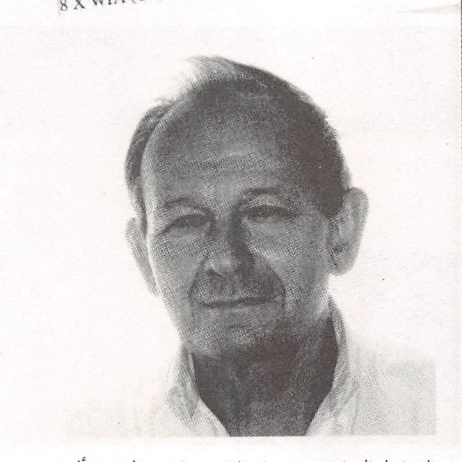
- UNK
A- IDF
L- WC WB 88704 88668
BOMBER, REPORTING MASS C
RGENT WU CHAPM
ALERNO WITH CA
X KIA (US) 1 X K
TO CHAPMAN
TO INVESTIG
X WIA DIED WH
1 X KIA (LN)
8 X WIA (US)

السجل العسكري الذي وصف الهجوم على معسكر تشابمان. كان OGA هو المصطلح العسكري لوكالة الاستخبارات المركزية.

صورتان لهمّام البلوي: واحدة كطبيب فلسطيني (يسار) وأخرى كمجاهد يدعى أبو دجانة الخُرساني (يمين) أثناء تحضيره للعملية ضد وكالة الاستخبارات المركزية.



أجرى الشيخ أحمد ياسين قائد حركة حماس حواراً مع كرُوك قبل أن يغتاله الإسرائيليون.



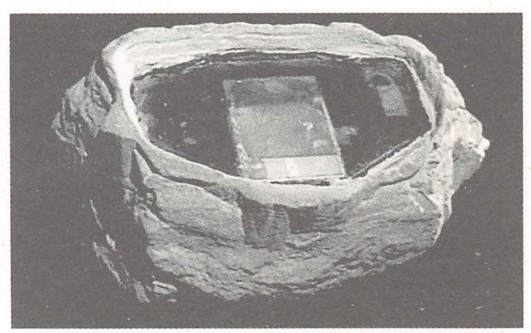
الضابط السابق في جهاز الاستخبارات السرية ألستير كرُوك المتخصص في مباحثات السلام.



وجهان لوكالة الاستخبارات المركزية العصرية. في 2011، تم تجنيد العميل شاكيل أفريدي (يسار) ليزور مجمَّع أسامة بن لادن بذريعة تلقيح الأطفال؛ في موسكو، أوقفت السلطات الروسية ضابط وكالة الاستخبارات المركزية راين كريستوفر فوغلي (يمين) في 2013 وهو في طريقه لتجنيد عميل.



ألقي القبض على فوغلي ومعه أغراض للتجسّس تتضمن شعراً مستعاراً، ونظارات شمسية، وبوصلة، وولاّعة، وأطلساً لمدينة موسكو، ومبلغ $100,000 باليورو، ودرعاً معدنياً لبطاقات الائتمان.



في العام 2006، اتّهم الروس جهاز الاستخبارات السرية البريطاني باستخدام هذه الصخرة الوهمية لإخفاء جهاز إلكتروني للاتصال بعملائه في موسكو.

الدليل عبارة عن سلسلة رسائل صادرة عن السفارة النيجيرية في روما. ورغم أن أجهزة الاستخبارات الفرنسية وغيرها أكّدت أنها مزوّرة، إلا أنها وجدت طريقها إلى خطاب حالة الاتحاد لجورج بوش في العام 2002. لكن قصة كورفبول كانت أكثر تعقيداً من مجرد تزوير بسيط. فإذا كان باستطاعة أشخاص حقيقيين أن يتصرفوا بأمانة ويتمكنوا رغم ذلك من تلفيق أكذوبة من خلال نشاطاتهم، فإن انعكاسات ذلك على عالم التجسّس ستكون مزعجة جداً.

قبل بضعة أسابيع من لقائي علوان، كنتُ في مقهى في ألمانيا أدردش مع جون غوتز، المراسِل الصحفي في ألمانيا الذي بذل جهداً أكثر من أي شخص آخر ليكشف حقيقة هذه القضية. وبعد نشر CBS نيوز للاسم الحقيقي لكورفبول، كان غوتز أول مَن تعقّبه. وعندما صافحه عند عتبة الباب، علِم علوان أن سره قد انكشف. وكنتُ مع غوتز الآن في طريقنا لنتكلم مع بعض الأشخاص الضالعين في الاستخبارات الألمانية.

على مر السنوات، كان غوتز قد تعقّب معظم الشخصيات الرئيسة في القضية. وكانت نظريته أن التلفيق لم يكن من بنات أفكار كورفبول بقدر ما شجّعته عليه الطريقة التي تم تشغيله فيها. ومثلما يقول المثل الألماني: "المطرقة تبحث عن المسامير دائماً". برأيه، يقع اللوم على كورفبول ومشغّله، ضابط BND وعالم البيولوجيا الدكتور بيتر، الذي كان يبحث دائماً عن الأسلحة البيولوجية. وقد قيل لنا إن "الدكتور بيتر كان لفترة طويلة الشخص الوحيد في حياة كورفبول". وسيؤكّد علوان نفسه هذه النقطة لاحقاً، قائلاً: "الشيء المركزي في قصتي هو..." مستخدماً الاسم الحقيقي لعالِم الــ BND.

قال غوتز إن العديدين في الاستخبارات الألمانية ظلوا يصدّقون قصة كورفبول حتى بعد انتهاء حرب العراق: "تكلّمتُ مع جميع الأشخاص الضالعين في هذا الموضوع. إنهم يصدّقونه... حتى بعد سنتين من انتهاء الحرب، وحتى بعد أن بحثوا

في كل أرجاء العراق و لم يعثروا على شيء". لقد سمع غوتز هذا في العام 2005 من الرجال أنفسهم الذين عملوا على قضيته.

يتذكر جلوسه مع أحد خبراء BND وعرضه عليه كل تقارير مجلس الشيوخ ولجنة تقصّي الحقائق التي حدَّدت أن ما قاله كورفبول لا يمكن أن يكون صحيحاً. لكن مصدره كان متردداً. فجماعة BND، "يصدّقونه دائماً... بطريقة أشبه بتحدّي: ضع عينك في عيني، أنا لا أكذب".

تحدَّث غوتز لسنوات كيف أن الأشخاص يصدّقون أشياء غير معقولة في نهاية المطاف؛ رغم كل الحقائق المتناقضة التي أمامهم. كان ذلك أحد الأشياء التي جَعَلتنا يائسين في مهنتنا في تقصّي الحقائق. يمكنك تكديس حقيقةٍ تلو الحقيقة، ولكن الأشخاص لن يستنتجوا الاستنتاجات الواضحة.

تكلّمنا عن مقابلةٍ مع رئيس سابق لإحدى محطات وكالة الاستخبارات المركزية يدعى جيم. كان يناقش خدع التجنيد التي يتم تدريسها في مخيَّم بيري، وهو عبارة عن مدرسة وكالة الاستخبارات المركزية للتدريب في فيرجينيا، ويسمّونها المزرعة. وكان يُطلَب من المتدرِّبين على قيادة شبكات التجسّس أن يحلّلوا "الهدف"، ثم أن يخمّنوا الدافع الذي يمكن استغلاله لإقناع الهدف بأن يصبح عميلاً ويخون بلده أو صاحب عمله. قال جيم: "هذا كله كلام فارغ. فالأمور لا تسير هكذا في الواقع أبداً. الشيء الرئيس هو جعل الشاب يخون، ويجتاز الخط. وسيجد تبريره بنفسه". وتابع قائلاً إن التجنيد المُحتَضن بعناية يرتكز في أغلب الأحيان على فهمٍ غير مُعلَنٍ. فلدى البشر أساليب غير معقولة لاختراع أعذار منطقية لما فعلوه أو سيفعلونه.

ربما كنا نغوص بعيداً جداً في نظريات سيغموند فرويد والتحليل النفسي. لكن جيم كان يقصد أن سبر أغوار الدوافع، ومناقشة تلك الدوافع مع الهدف، لا يمكن أن يؤديا أحياناً إلى نتائج عكسية فحسب، بل سيكونان غير مرتبطين بما يفعله الأشخاص في نهاية المطاف. فالإقناع يأتي من العادة، بقدر ما يأتي من المنطق، والبشر بالفعل مخلوقات سهلة الإقناع بشكل لا يُصدَّق.

عند تطبيق شروحات جيم لوسائل التجنيد على فن الاستجواب والتحليل، كان من الواضح أنه يمكن عكس المنطق، والمساعدة في شرح كيف يستطيع العميل، في الواقع، أن يجنِّد مستجوبه (أو بشكل غير مباشر المحلِّلين الذين يقرأون تقاريره). وتماماً مثلما يستطيع المجنِّد أن يقود عميله المحتمل ببطء نحو ارتكاب جرم الخيانة، يستطيع العميل ترسيخ عامل الثقة رويداً رويداً قبل أن يزرع كذبةً. وبالتالي، تماماً مثلما يستطيع العميل أن يخترع أسباباً لتبرير ارتكابه الخيانة، يستطيع المجنِّد أن يخترع منطقاً لإثبات صحة ما يقوله العميل، سواء أكانت معلومات العميل منطقية حقاً أم لا. يستطيع المجنِّد أن يصبح أداةً للكذبة، فيساعد في تغطية كل تناقض في الأقوال. ويمكن أن يحصل كل هذا عن غير إدراك. فكلما ازداد تعاطف المستجوِب مع العميل، ازداد احتمال أن يخترع بنفسه، وبأمانة كبيرة، مبرِّرات ليفسِّر ما يبدو غير مناسب في تقريره.

استندت نظريتنا عن كورفبول والدكتور بيتر على فكرة الإيحاء بأن كورفبول قد زوَّد بما أوضحَ جهاز الاستخبارات الألماني أنهم يحتاجون إليه. لم يكن ذلك توجيهاً مقصوداً؛ بل مجرد طبيعة علاقة الوكالة به. وأحد الأسباب التي دفعت إلى هذا الاعتقاد كان كمية المعلومات الدقيقة التي زوَّد بها كورفبول. وتكمن المشكلة في قبول الإجماع بأن قصة كورفبول كانت تلفيقاً صرفاً في مقدار دقته بشأن المرافق العراقية وإنتاج الأسلحة البيولوجية. كيف كان بمقدوره معرفة كل تلك التفاصيل؟ فسَّر دروغن ذلك التناقض باقتراحه أن كورفبول جمَّع الحقائق باستخدام الانترنت.

قال غوتز: "هذا خطأ". فقد أظهَرت أبحاثه أن علوان لم يكن لديه اتصال بالانترنت وقتها.

ومع ذلك، كان كورفبول يحصل على معلوماته من مكان ما. ويقول أحد التخمينات إنه كان بكل بساطة يهاتف زملاءه السابقين وأصدقاءه في العراق، فيُدير ما يسمّونه "مصادر فرعية". وقد قال علوان نفسه لاحقاً إنه كان قادراً على تأليف قصته باستخدام الكتب التعليمية والمستندات التي أعطاه إياها الدكتور بيتر.

وأضاف قائلاً: "لم يكن لديّ اتصال بالانترنت، ولكن كان لديّ كمبيوتر. ما زلتُ أحتفظ بكل المستندات التي استخدَمتُها لكتابة مادتي".

لكن كان هناك مصدر محتمل آخر. ماذا لو كان المستجوِب ساذجاً كفاية حيث أنه لم يُدرك مقدار الأفكار والمعلومات التقنية التي كان يمرِّرها إلى كورفبول؟

كان الشيء المدهش أن علوان رأى الدكتور بيتر قبل مغادرته العراق؛ عندما عمِل العالم الألماني كمفتّش أسلحة لصالح الأمم المتحدة، وزار مركز عمل علوان. تذكّر علوان أثناء استجوابه أنه "لزمني بعض الوقت، لكنني تعرَّفتُ عليه بعد فترة. أدركتُ أنه قد جاء ورآنا. كان ذلك في العام 1992 عندما كنت أعمل في هيئة التصنيع الحربي. وعندما رأيتُه في ألمانيا، قدَّم نفسه على أنه الضابط المسؤول عن اللجوء. وأقرّ لاحقاً أنه كان مفتّش أسلحة. وقد قلتُ له: *أنا أعرف مَن تكون*". وقال إن الدكتور بيتر لم يعامله إلا بلطف، ولكنه "لم يكن محترفاً". وعندما سألتُه إن كان قد تلاعَب بالدكتور بيتر، ابتسم لي علوان و لم ينطق بكلمة.

جرشَت عجلات سيارتنا الطريق المغطى بالحصى والمؤدي إلى مترل في الضواحي. كنتُ ذاهباً مع غوتز لرؤية مصدر في الاستخبارات الألمانية كان ضالعاً بقوة في قصة كورفبول الملحمية. وما كشفه، وعدة أشخاص آخرين كانوا ضالعين مباشرة، كان مقدار الطابع الشخصي الذي نشأ بين العميل ومشغِّله. والتفاصيل- التي كشفها غوتز بمفرده إلى حد كبير- لم تُروَ من قبل قط.

كان الدكتور بيتر مَن رَصَد السيرة الذاتية المثيرة للاهتمام لكورفبول، مع ذكرها "مختبرات الكيمياء الحيوية الجوّالة"، بين كومة طلبات اللجوء من تسيرندورف. وكان هو مَن أجرى كل المقابلات (رَفَض الدكتور بيتر أن يُجري أي مقابلة، متذرّعاً بواجبه المهني بالتزام السرية).

لم يكن الدكتور بيتر مدرَّباً على تشغيل العملاء، أو حتى على أن يكون ضابط فريق. بل كان عالم بيولوجيا. نظرياً، كان لدى كورفبول ضابط فريق محترف؛

أحد مشغّلي العملاء من القسم 1 في BND. وقد نُظّمت إقامة كورفبول، وتم نقله إلى الاجتماعات ومنها، ولكن لا أحد أصبح مقرّباً من كورفبول. كان الدكتور بيتر مَن تولّى جلسات الاستجواب ورَفع التقارير. لقد تنازل المحترفون عن أداء عملهم.

ويقول المصدر إن الاهتمام العاطفي للدكتور بيتر كان في الأسلحة البيولوجية. وبصرف النظر عن خدمته كمفتّش دولي في العراق، كان قد راقب اهتمام العراق بالحرب الجرثومية منذ الثمانينيات. ووفقاً للمصدر، قبل أن يكتشف الدكتور بيتر كورفبول، "كان يشك من قبل في أن صدّام لا يزال يعمل على تطوير أسلحة بيولوجية؛ بالأخص الجدري". ثم جاء كورفبول ليؤكّد له تلك الشكوك.

وقد اعتاد الدكتور بيتر على إبلاغ الآخرين أن "كل موضوع كورفبول يدور حول الجدري دائماً. هذا الشاب يملك معلومات حقيقية، وليس ذكياً بما فيه الكفاية لكي يلفّقها بنفسه". وشكا الدكتور بيتر دائماً من أنه عند تلخيص معلومات كورفبول الاستخباراتية للعموم، كانت تتم إزالة الجزء المتعلق بالجدري. وقد أشار خطاب كولن باول- من دون ذكر المصدر- إلى أن صدّام يمتلك فقط "الوسائل لتطوير الجدري". لكنْ إذا كان صدّام يطوِّر الجدري فعلياً فإن هذا أمر مزعج؛ فهو تهديد أخطر بكثير للجنس البشري من برنامجه للجمرة الخبيثة مثلاً. فقد تم استئصال الجدري عالمياً في العام 1980؛ وما بقي من الفيروس كان مخزَّناً فقط في مختبرَين في العالم: مركز الولايات المتحدة لمكافحة الأمراض في أطلنطا، ومعهد بحوث الدولة للتحضيرات الفيروسية في موسكو. لكن الدكتور بيتر اقتنع أن صدّام حسين قد يملك مخزوناً أيضاً.

يتابع مصدرنا ويقول إن الدكتور بيتر بدا مُعجباً بأنه رغم امتلاك علوان معرفة تقنية حقيقية وذاكرة جيدة (فكان يذكر مثلاً الحرارة الدقيقة التي تُحفَظ بها عوامل الجراثيم، ويُعطي أوصافاً دقيقةً للأماكن)، لم يبدُ قط مبالغاً في معرفته (مثلاً، بأن يقول ما كان يُصنَع وأين بالتحديد). "كان كورفبول يتحدّث عن العامل أ والعامل

ب، إلخ... ويصف كيف كانت تتم معالجة تلك العوامل. لكنه لم يقل قط إن هذا كان الجمرة الخبيثة أو الجدري أو أي شيء آخر".

في محادثاته مع زملائه، روى الدكتور بيتر كيف أن علوان كان يُخطئ في الأشياء في المرة الأولى في أغلب الأحيان. لكنه كان يتوصّل إلى التفصيل الصحيح عند إعادة استجوابه. وقد برَّر الدكتور بيتر هذا الخطأ بافتراضه أن علوان- الذي كان لا يزال لاجئاً في المرحلة الخطيرة في سعيه إلى الحصول على حق اللجوء- كانت لديه دوافعه الخاصة لكي لا يكون صادقاً بالكامل فوراً. ووفق منطقه، كان الانتقال إلى المعلومات الحقيقية دليلاً على أن جلسة الاستجواب ناجحة، وليس على وجود تلفيق ما. وباستخدام مجموعة الحقائق نفسها، قال زملاء الدكتور بيتر إنه كان موهوباً بالقدرة على التوصّل إلى استنتاجات مختلفة بالكامل عن بقية الأشخاص. فكانت المسألة إما عبقريةً أو دجلاً.

كان تصميم الدكتور بيتر على التدقيق في معلومات كورفبول الاستخباراتية عن الجدري هو الذي أدّى به إلى ترتيب المواجهة الوحيدة التي جرت بين ضابط أميركي وكورفبول قبل اندلاع حرب العراق. فقد لاحظ الدكتور بيتر وجود الندوب المتميزة على ذراع كورفبول، والتي تشير عادة إلى أنه تم تلقيح الشخص ضد الجدري. وقال كورفبول إنه تم تلقيحه عندما انضم إلى برنامج الحرب الجرثومية. كانت فعالية الأجسام المضادة للجدري تدوم لعشر سنوات فقط بعد التلقيح، لذا بالبحث عنها في دم علوان، كان الدكتور بيتر يأمل أن يحدِّد إن كانت هذه اللقاحات تعود إلى فترة الطفولة (وهذا سيكون أمراً اعتيادياً)، أو إلى فترة أحدث بكثير؛ وبالتالي ستكون دليلاً على مشاركته في برنامج التسلّح البيولوجي. لإجراء الاختبار، أراد الدكتور بيتر الاستعانة بالخبرة الأميركية؛ ليس لدراسة الدم فقط بل لأخذ العيّنة أيضاً. وقد قال شخصٌ ضالعٌ عن كثب إنه "لم يرد أن يكون أي أحد قادراً على تحدي النتائج عند صدورها".

في مايو 2000، استدُعي طبيبٌ تابعٌ لوكالة الاستخبارات المركزية يدعى "لس" من واشنطن، وكان مرتبطاً بوكالة الاستخبارات الدفاعية. فقد أخبر الألمان الأميركيين أن كورفبول يكرههم، لذا تلقّى لس تعليمات صارمة بعدم النطق ولو بكلمة واحدة. فقد حذّرهم BND من أنه إذا تسبّبت لكنته بكشف جنسيته، فسيرفض كورفبول أن يتعاون.[17] لذا بقي لس صامتاً. ولاحقاً، في الليلة التي سبقت خطاب كولن باول في العام 2003، أرسَل رسالة بريد إلكتروني يتوسَّل إليهم فيها أن يشككوا في دليل كورفبول. وزعم أنه عندما التقاه، تصرَّف كورفبول بطريقة غريبة جداً؛ وشَعَر لس أن كورفبول لا بدّ أن يكون قد احتسى الشراب في الليلة السابقة، إذ كان يشعر "بصداع فظيع" في صباح اللقاء. ووفقاً لأحد الزملاء، شَعَر لس أن كورفبول "قد يكون مدمناً على الشراب، وقد أزعجه ذلك كثيراً".[18] (في الواقع، كانت قصة "الصداع" مجرد سوء فهم. ففي ذلك اليوم، كان علوان يعاني من كسر في أحد ضلوعه، وكان يتألم كثيراً. وهذا قد يفسّر مزاجه السيئ. ربما لم يكن أفضل مسلم في العالم، لكنه لا يحتسي الشراب ولا يأكل الأطعمة المحرَّمة).

استنتَج لس أيضاً أن مشغِّل كورفبول، الدكتور بيتر، كان مقرَّباً جداً منه. ومثلما روى في رسالته الإلكترونية لاحقاً، "هذا رأيي الشخصي، وليس لديّ حقاً أي شيء آخر لأستند إليه، لكنْ كان واضحاً لي أن الضابط المسؤول عنه مُعجب جداً به ويعتبر أنه لا يُخطئ. أعني أن القصة بالنسبة إلى [كلمات محجوبة] كانت صحيحة 100 بالمئة".[19]

وتُظهِر الطريقة التي تعامل بها الألمان مع نتائج فحص الدم أنهم صدَّقوا كورفبول. فعندما تم تحليل دم علوان في ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة، أظهَر المختبر الأميركي فقط وجود رواسب طفيفة من الأجسام المضادة. واعتبر الجميع، ما عدا الألمان، أن النتائج غير مُقنعة. لكن الدكتور بيتر أوضَحَ أنه يعتبرها تأكيداً على أنه تمّ تحصين كورفبول ضد الجدري في سن البلوغ، ولذلك كان جزءاً من برنامج محظور لتطوير حرب جرثومية.

في مايو 2001، عَقَد الدكتور بيتر مؤتمراً خاصاً في ألمانيا لدراسة دليل كورفبول وتهديد الأسلحة البيولوجية، حضره ضباطٌ من الاستخبارات الألمانية والأميركية والبريطانية والإسرائيلية. ونتيجة لذلك المؤتمر، سارعت ألمانيا إلى شراء كميات كبيرة من لقاحات الجدري. ويقول مسؤول رسمي ألماني إن "هذا كان التأثير الدائم [للدكتور بيتر] في ألمانيا".

وقال غوتز إن "هذا يُثبت أن الدكتور بيتر والآخرين الذين كانوا يتّكلون على BND قد صدّقوا ما كان كورفبول يقوله. والشيء المثير للاهتمام هو أنهم ظلّوا يصدّقونه؛ حتى لاحقاً".

مع استمرار الاستجوابات، برزت بعض المشاكل الفاضحة في ما قاله كورفبول. فرغم زعمه عدم معرفته بالكثير من الخصوصيات، شَرَح بتفصيل دقيق عن مستودع في جرف النداف، جنوبي بغداد، حيث كانت شاحنات متنقّلة تأتي لكي يُعاد ملؤها. وقال إن الشاحنات كانت تحتوي على معدات لتخمير الجراثيم وتجفيفها. واعتقد خبراء BND أن وجود هذه القدرة على التجفيف يعني أن هدفها الوحيد كان عسكرياً. وكان المكان الذي وصفه كورفبول معروفاً للاستخبارات الغربية ومفتّشي الأمم المتحدة (معظمهم كانوا ضباط استخبارات على سبيل الإعارة)، ويخصّ مركز الهندسة الكيميائية والتصميم حيث عمِل كورفبول. لكنهم يعرفون أنه مبنى صغير وضيق ومُحاط بجدران عالية، وكان عليه أن يشرح كيف تستطيع الشاحنات الدخول والخروج. وعند سؤاله عن هذا، قال كورفبول إن الشاحنات تخرج عبر جدار ذي مفصّلات في زاوية المستودع.

كانت المشكلة هي أن الجدار ذا المفصّلات لم يكن موجوداً. كما أن الشاحنات الكبيرة لا تستطيع حتى التحرّك في الفناء. وتوضّح ذلك من الصور الفوتوغرافية الملتقطة في العام 2001 بواسطة الأقمار الاصطناعية الأميركية التي كشفت وجود جدار إضافي في الطريق. أُبلِغ كورفبول عن الصور، ولكنه لم يأبه لها وتشبَّث بروايته. ولعبت التبريرات دورها مرة أخرى. فقد استنتج الدكتور بيتر والمحلّلون

الأميركيون أن البنية التي تبيّنها الأقمار الاصطناعية لا بدّ أن تكون مؤقتة أو جزءاً من حيلة.

عندما عاد مفتّشو الأمم المتحدة عن الأسلحة في العام 2002، كان أحد أوائل الأشياء التي قاموا بها هو التحقّق مما ورد في خطاب كولن باول. فسافَروا إلى جرف النداف وتأكدوا من أن الجدار لم يكن مؤقتاً قط، وأن زاوية المستودع لم تكن ذات مفصّلات أو قابلة للتحرّك في أي اتجاه.

العيب التالي في رواية كورفبول كشفته الاستخبارات البريطانية. فإحدى قصصه كانت أنه تم إرسال أحد أبناء مديره السابق في مركز الهندسة الكيميائية والتصميم، الدكتور باسيل لطيف، إلى المملكة المتحدة في العام 1995 ليدبِّر قطعاً لبرنامج التسلّح. بالطبع، أراد البريطانيون معرفة المزيد، وكانوا قادرين على استغلال حقيقة أن كورفبول قال إنه يريد الإقامة في بريطانيا في نهاية المطاف. فأُرسل ضابطٌ من جهاز الاستخبارات السرية يدعى "غ-" ليدّعي أنه ضابط هجرة. ولكي يحافظ على تغطيته، كان يجب على غ- أن يسأل كورفبول عمّا يعرفه عن المملكة المتحدة فقط. لذا، لم يكن الاستجواب شاملاً. ومع ذلك، غادر غ- المقابلة وهو أقل اقتناعاً. ووفقاً لزملائه الألمان، أخبرهم غ- أنه "يكذب، ويضيف ما يشاء إلى القصة. هناك شيء غير منطقي فيه".

بعد هجمات 11 سبتمبر والضغط الذي تلاها لشنّ الحرب، كان الدكتور بيتر قد غادر BND. فقد تم تجاوزه في الترقية، ولم يرغب في أن ينتقل مع وحدته إلى المركز الرئيسي الجديد للـــ BND في برلين. لكنْ مع تجدّد الاهتمام بكورفبول، تم استدعاؤه من التقاعد لكي ينضمّ إلى مهمة خاصة مع جهاز الاستخبارات البريطاني. فقد اكتشف جهاز الاستخبارات السرية أن "لطيف" المدير السابق لكورفبول يعيش الآن في سلطنة عُمان.

تم استجواب لطيف من قِبل ضابط جهاز الاستخبارات السرية نفسه، غ-، والدكتور بيتر. لكن الاستجواب كان ناقصاً. فلكي يتجنّبا الإفصاح عن هوية مصدرهما، لم يتمكن الثنائي من طرح أي أسئلة محدَّدة عن علوان. لذا فشل المستجوِبان مثلاً في أن يعرفا من لطيف إن كان علوان قد طُرِد من مركز الهندسة الكيميائية والتصميم في العام 1995 أم لا. ولو أنهما سألاه عن هذه النقطة لتوضيحها، لكان بإمكانهما تنبيه المملكة المتحدة وألمانيا قبل الحرب إلى أن ادعاءات كورفبول بمشاهدته إنتاجاً حديثاً للأسلحة الجرثومية والحادث في العام 1998 كانت وهمية. هذا مثالٌ عن أن السرية في حماية المصدر يمكن أن تكون مُكلفة جداً أحياناً.

ومع ذلك، ما قاله لطيف لـ غ- والدكتور بيتر عن ابنه جَعَل القصة تبدو مريبة. فحسبما قال لطيف، بعد انتهاء الحرب، "لا أعرف ما الذي قاله [علوان]. لكن ابني كان في السادسة عشرة من عمره في العام 1995، وذهب إلى المملكة المتحدة في تلك السنة ليقدِّم لشهادة الثانوية العامة ولا يزال هنا. كيف يمكنه أن يكون ضالعاً في تلك الأشياء؟ لقد سمعتُ أن [كورفبول] ذكر عدة أشياء عن عائلتي وعن ابني. لكنْ من الواضح أنه ليس ذكياً جداً. فإذا كذب الأشخاص، فعليهم أن يلفّقوا الكذبة جيداً! كان عمر ابني ستة عشر عاماً في العام 1995".[20]

بعد هذه الرحلة، قدَّم جهاز الاستخبارات السرية تقريراً في أبريل 2002، وتم فيه تلخيص استنتاجاتهم عن كورفبول والمراهنة عليه من الجانبين بشكل أنيق. وقد ذكرت البرقية السرية التي تم إرسالها إلى وكالة الاستخبارات المركزية أن جهاز الاستخبارات السرية كان "ميّالاً إلى تصديق جزء كبير من روايته" على ضوء أوصافه التقنية المفصَّلة. لكنهم كانوا أيضاً "غير مُقتنعين بأنه مصدر موثوق كلياً"، وقالوا إن "بعض تصرّفاته تُعتبر نموذجيةً من أفراد نقيِّمهم عادة كملفّقين". رغم كل هذا، أشارت وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن جهاز الاستخبارات السرية "بقي يدعم رواية كورفبول رسمياً طوال هذه الفترة".[21]

مهما تكن الشكوك التي برزت، بقي الدكتور بيتر يصدّق كورفبول، حتى لو أنه شدّد- بصفته شخصاً محترفاً- على أنه كان مصدراً واحداً يجب التأكّد من معلوماته. وأحد التبريرات التي توصّل إليها مع زملائه بشأن التناقضات المتزايدة كان أن بعض معلومات كورفبول الاستخباراتية ربما جاءت شفهياً من "مصدر فرعي". فقد عرفوا أنه كان يهاتف بعض الأشخاص في بغداد. وبعد أن طلب الدكتور بيتر من BND التنصّت على هاتف كورفبول، قالوا له إنهم يفتقرون إلى الموارد والسلطة القانونية على حد سواء. فبالنسبة إلى البعض في BND، إذا كانت معلومات كورفبول غير أولية ولكن دقيقة، فهل هذا مهم حقاً؟

لم يكن الألمان فقط مَن وجدوا طريقة لتبرير شكوكهم. فمثلما كشفت لجنة أسلحة الدمار الشامل، تمت الاستعانة بمحلّلين من الوكالات الأميركية ذات الموارد الضخمة لكي يكونوا مشكّكين، لكنهم بدلاً من ذلك تعاملوا مع الاستخبارات مثلما يجري في الأفلام، معلّقين الإنكار باستمرار. وقد أشار أحد محلّلي وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن "المعلومات عن السلاح البيولوجي الجوّال تأتي من [عدة] مصادر، أحدها جدير بالثقة، والآخر ذو وثوقية غير حازمة. لقد رفعنا حالة تجميع المعلومات في مزايدة لإيجاد وحدات الإنتاج تلك، لكن سنوات عقيمة من البحث من قِبل أونسكوم بيّنت أنها كانت مخفية جيداً".[22] ويشير تقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل بشكل لاذع إلى أنه "يبدو أن المحلّلين لم يأخذوا بعين الاعتبار مطلقاً فكرة أن عمليات البحث كانت عقيمة لأن الأسلحة لم تكن موجودة".[23]

في نهاية المطاف، بعد التفتيش في كل زاوية من زوايا العراق وعدم العثور على أي شيء، وحتى بعد أن اعترفَ كورفبول أنه كذب، صدَّق الدكتور بيتر أخيراً- وفقاً لبعض أصدقائه- أن رواية علوان كانت ملفّقة. لكنهم أضافوا أن عالمِ BND المتقاعد بقي حائراً بشأن المصدر الذي جاءت منه المعلومات. ويبدو أنه شَعَر بوجود مؤامرة خبيثة أكثر. وقد أخبر أحد زملائه السابقين أنه "يعتقد أن شخصاً آخر كان يلقّمه". فقد كان كورفبول يملك تفاصيل كثيرة عن أماكن عديدة، ولكنه يملك تفاصيل ضئيلة جداً عن أماكن أخرى. وكان يقول: "فقط بلدانٍ في

العالم يملكان القدرة على فعل ذلك". وكان يقصد إسرائيل والولايات المتحدة. ولم يكن أحد يرغب في أن يلفت نظر الدكتور بيتر إلى أن الرجل الذي كان حقاً يمدّ كورفبول بكل أكاذيبه- وربما عن غير إدراك، ومن دون خبث- كان الدكتور بيتر نفسه.

مثلما تبيَّن، إن كورفبول لم يكن جاسوساً أخذ بمفرده العالم إلى الحرب، ولكنّ روايته توضِّح كيف يستطيع الرجال الصادقون تلفيق الأكاذيب، وتوضِّح أيضاً أن الاستخبارات البشرية الجيدة تحتاج إلى أن تبدأ بعلاقة صحية واحترافية بين العميل ومشغِّله، ويحتاج مستهلكو تلك الاستخبارات إلى التحقق من أنه تم تجميعها بطريقة محترفة.

وفي مستوى أعلى، كشفت رواية كورفبول أيضاً غطرسة أسلوبٍ انتقائي؛ وهو أن الاستخبارات المؤهَّلة كافية لتبرير النشاط السياسي لمجرد أن عدةَ مصادر بدت وكأنها تقترح الشيء نفسه. كان براين جونز، وهو من كبار محلّلي الاستخبارات في الاستخبارات الدفاعية البريطانية، أحد الأشخاص القليلين الذين تَحَدَّوا قضية الاستخبارات قبل الحرب. لكنْ عندما سُئل عن سبب تغاضي جهاز الاستخبارات السرية عن قلقه بأن كورفبول كان "ملفّقاً محتملاً"، قال إن معظم ضباط الاستخبارات في بريطانيا والولايات المتحدة كانوا دائماً "متضايقين" من قصة مختبرات الأسلحة الجوّالة. لكن ذلك تغيَّر عندما ظهرت مصادر جديدة فجأة لتأييد القصة، وكذلك الضغط الجديد لنشر الدليل.

وقال جونز إنه "كان هناك دائماً حذر كبير بشأن كورفبول على جانبَي الأطلسي إلى أن برزت الحاجة إلى بعض المستندات الحاسمة". بمعنى أن الضغط لتقديم مستندات للعموم شجَّع رؤساء الاستخبارات على التخلّي عن حذرهم. "خلاصة القول بشأن الخطأ الذي حصل هي أن القيادة السياسية النشيطة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة لم تترك مجالاً للشك بشأن ما اعتبروا أن التقييم عن العراق يجب أن يقوله".[24] كانت وكالات الاستخبارات في مرحلة انتقالية،

"ولا تزال تتكيَّف مع ثقافة غربية وحمقاء بإرضاء الزبون لضمان استمرار سير الأعمال"، وكان هذا الجهد هو الذي قضى على حكمتهم في اتخاذ القرارات.

أحد المصادر الذي بدا أنه يدعم رواية كورفبول كان جهاز الاستخبارات السرية واسمه الرمزي ريد ريفر (ومعناه النهر الأحمر). ووفقاً للجنة أسلحة الدمار الشامل، زوَّد ذلك المصدر "بتقرير واحد بأن العراق يمتلك وحدات تخمير جوّالة مركَّبة على شاحنات وعربات سكك حديدية". وقد ذُكر اسمه عندما تحدَّث كولن باول عن أن مصدراً "في منصب يتيح له أن يعرف" أبلغهم أن العراق يمتلك أنظمة إنتاج جوّالة مركَّبة على شاحنات وعربات سكك حديدية.[25]

وقد وجّه ملحقٌ سريٌّ لتقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل اتهاماً بأن جهاز الاستخبارات السرية قد ضلّل وكالة الاستخبارات المركزية بشأن ريد ريفر. ورغم زَعمهم أنه "في منصب يتيح له أن يعرف"، إلا أن الوكالات تعاملت مع هذا المصدر بشكل غير أوليّ: كان شخصاً لم يلتقه ضباط جهاز الاستخبارات السرية مباشرة، ولم يدقّقوا بهويته. ووفقاً للجنة، ناقشت المادة المصنَّفة على أنها سرية "اكتشاف وكالة الاستخبارات المركزية (بعد الحرب) أن المصدر الرابع، الذي قال مدير وكالة الاستخبارات المركزية [تينيت] إن تقريره أيَّد رواية كورفبول، لم يكن المصدر المباشر للتقرير الذي تلقاه عن الأسلحة البيولوجية".[26]

وقد نشب خلافٌ بين بعض الضالعين في جهاز الاستخبارات السرية بشأن ذلك الانتقاد. وقد قال أحد الضباط إن ديرلوف وتينيت كانا على تواصل مستمر في ذلك الوقت. كان بينهما "هاتف مشفَّر" ومباشر للمحافظة على قناة شخصية مباشرة. ووفقاً لشخصية ذات مركز عالٍ في جهاز الاستخبارات السرية:

> كان ريد ريفر مصدراً فرعياً بالفعل، ولكن من غير الوارد أننا لم نشارك وكالة الاستخبارات المركزية تحفّظاتنا... لقد كان مصدراً فرعياً صالحاً فرّ من العراق في فترة الاستعداد للحرب؛ بسبب المنصب الحسّاس الذي كان يشغله، واستقرّ في بلد عربي

آخر. لم نشك في مصداقيته حول معلوماته الاستخباراتية عن الأسلحة البيولوجية، وكذلك في مصداقية المصدر الذي كان مصدره الفرعي.[27]

ومثلما جادل ضباطٌ آخرون خبراء جداً، لم يكن القصد أن ريد ريفر كان مصدراً عديم الجدوى، بل تمّت المبالغة بدليله؛ مثلما حصل مع مصادر أخرى في العراق. وكان هذا درساً بأن كلمة العملاء السريين- حتى مجتمعين- نادراً ما يمكن تقديمها كدليلٍ. ونادراً ما كانت الاستخبارات البشرية بطبيعتها، ومثلما يجب أن تكون وكالاتُ التجسّس العصرية قد اكتشفت من جرّاء عقود من الخبرة، قاطعةً. وقد قال أحد كبار قادة شبكات التجسّس البريطانيين إن "أفضل قراء الاستخبارات البشرية هم الفنانون وليسوا العلماء. فالاستخبارات البشرية تتمحور حول التركيبة الإنسانية. لذا، لم نتوقع أن تؤدي تقاريرنا إلى انقلاب كبير في السياسة".

رويداً رويداً، بيَّن اتّضاح قضية الاستخبارات- استعداداً للحرب في العراق- كيف أن نسبةً كبيرةً لا تزال تعتمد على الطبيعة الهشّة للاستخبارات البشرية، رغم كل الوسائل التقنية لتجميع الاستخبارات المتوفرة بين أيدي الغرب. ولم يقدِّم أولئك الجواسيس الجيدون القليلون الذين كانت بريطانيا وأميركا تملكهم في العراق دلالة واضحة على أن صدّام حسين يشكّل التهديد الذي أرادته القيادة السياسية.

ومثلما جادَل بعض الضباط الأميركيين والبريطانيين السابقين، تبيَّن أن المشكلة الحقيقية ليست في نقص عدد العملاء داخل العراق بل في نقص ضباط الاستخبارات المحترفين الذين سيجرؤون- على حد تعبير القول المأثور- على "البوح بالحقيقة للسلطة".

ويقول أحد الزملاء السابقين إن ديرلوف كان يملك ثقة كبيرة بالنفس، وكان "شخصاً مليئاً بالهراء إلى حد يفوق العادة". لكنْ وفقاً لضابط سابق آخر في جهاز الاستخبارات السرية، كانت نقطة ضعفه أنه كان "فاشلاً" في داونينغ ستريت.

"كان متلهّفاً جداً ليُرضي الآخرين، ولم تكن لديه خبرة في إزعاج الأشخاص حقاً". وقد شرح ضابطٌ متقاعدٌ في جهاز الاستخبارات السرية أمام لجنة تشيلكوت التي كانت تحقّق في مشاركة بريطانيا في حرب العراق، "التفكير الرّغبي" لقادة الأجهزة الذين "وعدهم بجرّة من الذهب في نهاية قوس القزح".[28] وفي مكان آخر، قالت شخصية مرموقة سابقة في جهاز الاستخبارات السرية إن النقطة الرئيسة كانت أن قادة الوكالة وقتها "بذلوا ما بوسعهم. فقد أرادوا إحداث فرق؛ تغيير السياسة، وتغيير العالم. وهذا خطأ دائماً".

رفَضَ ديرلوف الاتهامات الشخصية، وأبلَغَ لجنة تشيلكوت: "أنا مُدرك جيداً للانتقادات الموجَّهة لي بأنني كنتُ على علاقة قريبة جداً من رئيس الوزراء وكل ذلك. هذا كله هراء". ولم يكن من الممكن الاتكال على الموظفين التابعين له للحكم على تلك العلاقة. "إذا نظرت إلى الأمور من تحت، لن تتكوّن لديك أي فكرة عن ماهية عمل الرئيس؛ بالأخص عندما يكون العالم في أزمة". ثم أضاف:

> أتحدّى أي شخص أن يُظهر لي أي مستند يبيّن أن ذلك كان غير ملائم بطريقة أو بأخرى. أعني، أنه كان لـــ [ستيوارت] منزيس [رئيس جهاز الاستخبارات السرية زمن الحرب] علاقة قريبة مع [ونستون] تشرشل خلال الحرب العالمية الثانية. خلال أي أزمة، سيضطر رئيس الاستخبارات- بالأخص عندما تكون الأزمة حادة وصعبة جداً- إلى التعامل مع الوزراء كثيراً. لم أكن أحتسي الشاي مع طوني بلير آخر كل مساء، أو أبيت في منزله الريفي في تشيكرز لكي أتناول الفطور معه. كنت أذهب إلى الاجتماعات، بصفتي رئيس جهاز الاستخبارات السرية، لمناقشة علاقة جهاز الاستخبارات السرية بمسألة تطوّر سياسة الأمن القومي.[29]

لكنْ كان هناك منشقّون في جهاز الاستخبارات السرية لم يتّهموا كبار قادته بالمبالغة في الثناء على الاستخبارات حول قضية العراق خارجياً فحسب، بل في الضغط على ضباط الفِرق والمصادر الداخلية لتنفيذ "سياسة الحزب". ويزعم أحد العالمين السابقين ببواطن أمور الاستخبارات البريطانية أنه تم إرسال ضباط الفِرق

مراراً وتكراراً ليعاودوا زيارة عملائهم ويطلبوا منهم مرة أخرى نبش معلومات عن أسلحة الدمار الشامل. "قد تعود مصادرهم في نهاية المطاف وتقول لهم: *حسناً، لو كان يملك أسلحة دمار شامل، لكان قد خبأها هنا* [ويذكرون أحد الأماكن في العراق]، ثم كان يتم تقديم ذلك على أنه معلومات استخباراتية حقيقية". وأضاف الضابط السابق: "كان هناك أشخاص يُرسَلون إلى منازلهم، بصفاقة صريحة، لرَفْضهم المشاركة في هذه التمثيلية".

من الصعب تقييم ادعاءات كهذه بناءً على مقدار السرية حول أعمال جهاز الاستخبارات السرية. وقد قال قائد شبكة تجسّس خبير سابق، ليس صديقاً لديرلوف، إن الصورة مُبالغ بها. لكنه أضاف قائلاً: "كان هناك همّ حقيقي لدى بعض مَن تعامل مع المصادر فعلياً بشأن طريقة اصطيادهم معلوماتهم الاستخباراتية، وبأنها مُبالغ بها". وقد أبلغ ضابط لجنة تشيلكوت أن المشكلة كانت التدخّل الكبير للقيادة في القضايا. "أبعد الخبراء، وحينها ربما تعطّل أيضاً عنصر التحدي الذي أعتقد أنه جزء مهم جداً من الحياة التشغيلية في الجهاز".[30]

باختصار، كان هناك عالمون ببواطن الأمور يعتقدون أنه رغم إمكانية امتلاك صدّام أسلحة دمار شامل في السابق، إلا أنه لم تكن هناك معلومات استخباراتية كافية لصنع قضية منها. وقد دُفع أولئك النقّاد- وهم قليلون- إلى الانسحاب. لكنْ مثلما أظهَرَت حالة كورفبول، كان الفساد يبلغ مستويات أعمق بكثير. فقد كان عدد كبير من الأشخاص مُقتنعين كلياً بالحجّة، ويمكن تفسير تصرّفات معظمهم على أنها حماسة زائدة. كانت حالة من الخداع الذاتي، وقد سلّطت الضوء على أنه رغم غطرسة قادة شبكات التجسّس العصريين، الذين يعيشون في عُزلة عالمهم السري، إلاّ أنهم يمكن أن يكونوا عُرضة للتأثر بالتفكير الجماعي.

ويقول أحد المتمرّسين إن "جهاز الاستخبارات السرية كان متغطرساً بشكل مؤلم قبل العراق. إنها لعبة خطيرة؛ لأنك عندما تتبختر هكذا، لن يهتمّ بك أحدٌ عندما تقع".

عدد قليل من العاملين في جهاز الاستخبارات السرية شَعَر بالفخر من هذه الواقعة. فالدور الذي لعبه ديرلوف في مبناهم بالذات وخَلَفه، جون سكارليت الذي ترأّس لجنة الاستخبارات المشتركة في الفترة ما قبل الحرب، كان مصدر انقسام مؤلماً؛ حتى لو تمكّن سكارليت لاحقاً من إعادة اكتساب ثقة الكثيرين بأسلوبه المتواضع إلى حد بالغ.

في الولايات المتحدة وبريطانيا، سيُجبَر تينيت وديرلوف وغيرهما من رؤساء الاستخبارات المحترفين على العيش إلى الأبد بمهانة؛ نظراً إلى موافقتهم على تقييم استخباراتيٍّ هاوٍ. و لم يكن أكبر عيوبهم أنهم كانوا على خطأ، بل أنهم تغاضوا عن الإشارات التحذيرية؛ أنهم صوَّروا أن القرارات واضحة المعالم، في حين أن المسألة كانت في الواقع رمادية دائماً. لكنْ حتى الآن، سيكون من السذاجة بالمقدار نفسه أيضاً افتراض أن الفشل في إيجاد أسلحة الدمار الشامل يبرهن عن عدم وجودها من الأساس أبداً، مثلما كان من السذاجة قبل الحرب الافتراض بشكل مؤكّد أنها موجودة. قبل الحرب، كانت هناك تحذيرات قليلة مُقلقة بأن مَن في السلطة قرّروا عدم الاكتراث. وبعد الحرب، انقلب الرأي العام رأساً على عقب، إلى درجة أنه تم تجاهل الأجزاء الناقصة؛ كالدلالات على أن صدّام ربما امتلك بعض أسلحة الدمار الشامل فعلياً. ومثلما قال ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية، إن التحقيقات الرسمية "لم تترك حجراً في مجال الاستخبارات إلا وقلبته للكشف عمّا تحته". وقد سأل عما حصل بشأن الأمور التالية:

- استخبارات الإشارة عن شراء الجيش العراقي كميات كبيرة من الأتروبين (الترياق لغاز الأعصاب)؟
- سيل كبير من التقارير الهامة عن إنتاج (في المختبرات وليس صناعياً) في أكس (غاز الأعصاب) وتحويله المحدود إلى أسلحة في صواريخ مدفعيات الميدان؟
- المعلومات الاستخباراتية من جهاز الاستخبارات الأوكراني عن مساعدة الروس في نقل المواد المعرَّضة للشبهة من العراق إلى سوريا قبل البدء بعمليات التفتيش؟

- صور الأقمار الاصطناعية عن مرور المركبات عبر الحدود (من العراق إلى سوريا)؟

يمكن تشبيه هذه الأسئلة بتعلّق الغريق بحبال الهواء. لكن هذا سيجعلنا نحيد عن النقطة الأساسية. فلعبة التجسّس لا تنتهي أبداً. ومهما تكن عملية تجميع الاستخبارات الجيدة صعبة، فإنها تحتاج إلى أشخاص يستمعون إلى الأخبار التي تُحكى همساً في الزوايا ، وإلى عدم التوقف أبداً عن تحدّي الحكمة السائدة؛ مهما تكن.

بينما كنا نحتسي القهوة، قال لي كورفبول إن BND عرضوا عليه إجراء جراحة تجميلية ومترلاً جديداً وهويةً جديدةً في ايطاليا. لكنه رفض، وقال لي: "أريد أن أبقى رافد علوان. فهذا مَن أنا". كما قال إن الأميركيين طلبوا مساعدته في العام 2008 للحصول على معلومات عن سوريا. وقد وعدني أن روايته ستتضمن مقداراً كبيراً من المفاجآت المتفجِّرة. وكان يأمل أن يجني بعض الأرباح المادية. ومن الممكن، بالطبع، أنه سيفعل ذلك بالتحديد. لكن عدداً قليلاً من الأشخاص سيصدِّقه.

القسم الثالث

سرب العصافير
(2013-2008)

الفصل 7
انكشاف التغطية

"في كل أنحاء العالم، يعيش الأشخاص في الجماعات الإرهابية كالأشخاص العاديين"

- عميل سري فرنسي، اسمه الرمزي F1

يوم الأربعاء 16 يناير 2008، ترجَّل رجل باكستاني ذو لحية سوداء مشذَّبة جيداً من القطار، وتوجَّه إلى إحدى المنصات تحت الأرض المُضاءة بالنيون لمحطة فرانسيا، وهي المحطة الرئيسة الثانية الأكثر انشغالاً في برشلونة.[1] لقد سافر عاصم طوال الليل من باريس، وكان مُتعَباً ومبلَّلاً بالعرق، كما كان عصبياً؛ لسبب وجيه. فقد كان في مهمة سرية خطيرة. لكنه تمكّن من تفادي لفت الأنظار بعد سفره لحوالي اثنتي عشرة ساعة عبر أوروبا. كانت إسبانيا وفرنسا داخل الحدود المشتركة لنظام شنغن الخاص بالاتحاد الأوروبي. لذا لم يفحص أحدٌ جواز سفره أو يتأكد من هويته على الحدود في البيرينيه.

استقلّ السُلَّم الكهربائي صعوداً إلى الباحة العريضة والمزدحمة. كان الأشخاص من حوله متنوعين. فقد كان هناك رجال أعمال، وعمّال، وباعة متجوّلون ومتشرّدون، وسيّاح يرتدون ملابس زاهية ويثرثرون، وأشخاص كثيرون أيضاً من الهند وباكستان. اختلط بينهم بكل سهولة. نظر إلى الحَشد باحثاً عن شاب مسلم زميل له.

"السلام عليكم. هل يمكنك أن ترشدني إلى جامع طارق بن زياد؟". سأل أحد المارة.

لاحظ عاصم وجود رجال شرطة في كل مكان. فبعد شهرين من الزمن، ستجري انتخابات عامة في إسبانيا، وكان الجو شديد الانفعال. ويتذكّر أنطونيو باكيرو، المراسل الأمني للصحيفة الإقليمية، أن "الجميع كانوا يتوقعون حصول هجوم آخر". فقبل ثلاثة أيام من الانتخابات الأخيرة، أي منذ أربع سنوات، زرع الإسلاميون قنابل في قطارات الركاب في مدريد؛ مما أدى إلى مقتل 191 شخصاً وجَرح أكثر من 1,500. وقد زَعَم البعض أن التعامل مع ذلك الهجوم قد سبَّب خسارة الحزب المُحافظ الحاكم (حزب الشعب) للانتخابات (فقد اتُّهمت الحكومة في البداية وبشكل خاطئ انفصاليي الباسك بزراعة القنابل). هذه المرة، لم تكن قوات الأمن تريد أن تجازف بأي شيء، وكانت حذرة خوفاً من تكرار الحادثة.

بعد تلقيه الإرشادات، سار عاصم في الشارع إلى أقرب مترو. نَظَر حوله، وتساءل إن كان قد لفت انتباه أي شخص. كان متوجّهاً إلى مقاطعة رافال الخاصة بالطبقة العاملة، على حافة المنطقة المكتظة ذات الشوارع التي ترجع إلى القرون الوسطى المعروفة برامبلاس. كانت هذه المنطقة أحد المعالم السياحية الرئيسة في برشلونة، لكن رافال كانت أكثر فقراً وكآبة بقليل. قفز إلى المترو، ثم غيَّر خطّه، واستقل مترو الخط L3 المتجه إلى محطة ليسو. شاهد في المنصة إعلاناً لسلسلة مطاعم ماكدونالد وصوراً لفتيات غير محتشمات في إعلان لشركة سفريات. كانت هناك حواجز إلكترونية في الطرف البعيد، فيما تقع منطقة رامبلاس بعد السلالم الحجرية. ستمتلئ الجادة العريضة في وقت لاحق من اليوم بالسيّاح والعائلات التي تتمشى على الرصيف المركزي الشهير بأشجاره الطويلة، وأكشاك الصحف، والمقاهي، ومنصات ركن الدراجات الهوائية. رأى لافتة على نافذة تُعلن عن جلسة تدليك كلفتها 30 يورو.

كان الطريق إلى رافال يمرّ عبر شارع جانبي أحادي الاتجاه، كارير دي لوسبيتال، مع رصيف أصبح أضيق تدريجياً. وبدت الأبنية السكنية ذات الطوابق الخمسة على الجانبين ضيقة إلى الداخل، والشرفات ناتئة إلى الخارج. وكانت متاجر بيع القمصان وفنادق الشباب تُفسح المجال أمام محلات بيع الهواتف الجوّالة

وجزّاري اللحوم الحلال. وبعد عبوره الجدران المحصنة لمستشفى كاتالونيا التي تشبه حصون القرون الوسطى، والتي أصبحت مدرسةً ومعرضاً فنياً الآن، وَصَل إلى الباب الخلفي للجامع عند الرقم 91؛ مباشرة قبل مخبز باكستاني.

كان المدخل مُقفلاً، لذا سار عبر زقاق ضيق بين الأبنية السكنية، والغسيل يتأرجح من الشرفات فوقه. استدار يميناً نحو طريق آخر، وشَعَر أن الجو أصبح متوتراً أكثر فجأة. يمكنه رؤية بعض الشباب الحاملين هواتف جوّالة وهم يعقدون بعض صفقات المخدرات، وبعض المتسكّعين الذين يتكئون على الجدران. ثم رأى اللافتة: جامع طارق بن زياد.

كان أكبر جامع في برشلونة. كانت هناك ستة طوابق من غرف الصلاة مخفية خلف المدخل الرث. لكنْ حتى هذه المساحة لم تكن كافية. فما يصل إلى 1,000 شخص كان يجتمعون هنا لأداء صلاة الجمعة، وكانوا يصلون أحياناً إلى الشوارع في الخارج. كان لاسم الجامع صدى رمزي. فقد كان طارق بن زياد حاكم طنجة في القرن الثامن، وهَزَم القوط الغربيين، وغزا إسبانيا (سُمّي جبل طارق على اسمه أيضاً).

لقد وصل عاصم باكراً جداً، فقد كان المدخل الأمامي للجامع مغلقاً أيضاً. وجَد مطعم كباب قريباً من الجامع فانتظر هناك. لكنه عاد عند الظهر وانضم إلى المصلّين. بعد ذلك، قدَّم نفسه لبعض القادة الدينيين، وكان يناديهم "مولانا"، وهو اللقب الذي يُنادى به رجال الدين المسلمون في جنوب آسيا. وتذكّر ذلك: "كنتُ أكلمهم كشخص عادي في ذلك الوقت. لم أكن أعلم أنهم جزء من التنظيم".[2]

كان الأشخاص الذين يديرون شؤون الجامع وجميع مَن التقاهم ظاهرياً من أنصار جماعة تبشير بالإسلام وتدعى جماعة التبليغ والدعوة. كانت هذه الحركة العالمية المُحافِظة هي نفسها التي رحَّبت بناصري في باكستان، والتي انزعج من مواقفها المعتدلة. لكنْ لم يكن مجهولاً أنه يوجد مقاتلون خطيرون بين الملايين من أنصارها. جماعة التبليغ والدعوة محظورة في خمسة بلدان، رغم أن التنظيم ينكر أي

ارتباطات له بأعمال العنف.[3] لاحقاً، سيحكم عليهم القاضي إسماعيل مورينو في برشلونة بتهمة الترويج للعنف "العشوائي" لأهداف سياسية.[4] لكنْ كانت هذه وجهة نظر غير اعتيادية.

مثلما يتذكّر عاصم، كانت الجماعة التي التقاها في برشلونة تحت سلطة تنظيم القاعدة نفسه؛ وتأتي الأوامر من أحد الحلفاء المُبايعين لتنظيم القاعدة مباشرة، حركة طالبان الباكستانية. وزَعَم عاصم أن التعليمات التي وُجِّهَت إليه أتت من قائد حركة طالبان بيت الله محسود.

كان عاصم يعمل سراً لصالح حركة طالبان في أوروبا منذ سنتين.[5] وقد أعطاه محسود شخصياً الاسم الرمزي أحمد. ظاهرياً، عاش عاصم الحياة العادية التي يعيشها أي مهاجر غير قانوني في باريس، وعمِل "في الخفاء"- بتعبير آخر، من دون أن يكون مسجَّلاً رسمياً- لدى شركة كهرباء فرنسية. لكنه قال لاحقاً إن "الأشخاص الذين ينتمون إلى الجماعات الإرهابية في كل أنحاء العالم يعيشون كأشخاص عاديين". خلال المناسبات الرسمية وعطل نهاية الأسبوع، كان يسافر إلى فرنسا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا، مسلّماً النقود للخلايا المقاتلة. كما زَعَم أيضاً أنه أخذ عدة إجازات من العمل ليذهب في مهام تدريبية في وزيرستان؛ وهي أكثر منطقة خارجة عن القانون على حدود باكستان، وفي أفغانستان نفسها. كان يغيب لعدة أشهر متواصلة أحياناً. وصرَّح لاحقاً في المحكمة أنه كان "عضواً في تنظيم القاعدة".[6]

جاء إلى برشلونة تنفيذاً لأوامر جديدة من قادته المباشرين في باريس. "أبلغوني أنني ربما سأبقى في برشلونة، أو ربما سأذهب إلى بلد آخر للمشاركة في عملية تفجير". لم يتم استجوابه حول دوره في الهجوم. وقد قالت له جهات اتصاله في باريس إن قائد الجماعة المتطرّفة المتمركزة في الجامع، والذي كان اسمه الرمزي أشرف، سيشرح له كل شيء.

أثناء انتظار عاصم خروج المصلّين بعد صلاة الظهر، نزل إليه مولانا أحمد معروف، وهو إمام عمره 38 سنة. كان عاصم يبدو متوتّراً، لذا أبلغه معروف أن يسترخي ويتكلّم بحرية. وشرَح له أنه أشرف الذي يبحث عنه، وأنه يمكنه الوثوق بالمجموعة الصغيرة المؤلفة من الأشخاص الثمانية المجتمعين الآن في الرواق. كان معظمهم مهاجِرين جاءوا حديثاً إلى إسبانيا.

تستند الرواية التالية إلى الإفادة اللاحقة التي قدَّمها عاصم. وحصل جدال حول روايته للأحداث مع الآخرين الضالعين، لكن المحكمة الإسبانية اعتبرت أنه يقول الحقيقة.

وفقاً لعاصم، لخَّص معروف في ذلك الاجتماع بعض تفاصيل خطة جريئة لتفجير سكة برشلونة الحديدية الموجودة تحت الأرض. وكان يتكلّم في مزيج من البنجابية والأردية.

وسأل عاصم: "لماذا سنهاجم المترو؟".

"لأننا إذا هاجمنا المترو، لن تتمكن خدمات الطوارئ من الوصول إلى هناك. سيحمل شخصٌ حقيبة ظهر، وسيفجِّر الآخر القنبلة عن بُعد... وإذا لم ينجح [الهجوم] الأول، فسنشنّ هجوماً ثانياً وثالثاً في إسبانيا".[7]

كان عاصم لا يزال ينتظر سماع دوره في الهجوم. وقد غادر مع المجموعة لاحقاً في ذلك اليوم، وأبلغه معروف أن "النوم في الجامع خطير جداً"، فذهَبوا إلى شقة تبعُد حوالي الكيلومتر، وكانت منزل مولانا شهيد إقبال.[8] وحينها بدأ يتّضح لعاصم أن خبرة الأخير هي في صنع القنابل وليس في التعليم الديني. قضى عاصم ليلته هناك.

من نقطة مراقبة خفية في مبنى مقابل، كان فريق مراقبة- يتألف من ضباط من مركز الاستخبارات الوطنية- يراقبهم. والتقطوا صوراً لعاصم والآخرين وهم يدخلون الشقة.

في اليوم التالي، الخميس 17 يناير، عاد عاصم وصانع القنابل، مولانا شهيد، إلى الجامع الرئيس. وتم تعريف عاصم إلى زميلَين باكستانيَين هما محمد شعيب ومحمود خالد. كان الأول قد وصل من ألمانيا في نوفمبر السابق، والثاني من ستوكهولم في أكتوبر السابق. لقد اكتملت الخلية الإرهابية. وأعطاهم قائدها، معروف، تفاصيل أكثر عن الخطة. ستحصل موجتان من الهجمات.

وقال معروف إنه "بعد انفجار القنبلة الأولى، سيأتي المزيد من الأوامر من تنظيم القاعدة، وسيُعلِن عنها بيت الله محسود".

قرابة الساعة الخامسة مساءً في ذلك اليوم، سأل مولانا شهيد "عاصم" إن كان يريد الاتصال بزوجته.[9]

"لا أستطيع. هذا ممنوع".

سلّمه شهيد هاتفاً جوّالاً وقال له: "هيا، اتصل بها. لقد سمح لك مولانا معروف بأن تتكلم مع زوجتك".

وباستخدام بطاقة هاتف مدفوعة سلفاً أعطاه إياها شهيد، اتصل عاصم بزوجته. وبعد انتهاء المكالمة، ذهبا في نزهة سيراً على الأقدام، وزفّ إليه شهيد الخبر.[10]

"كانت تلك آخر محادثة لك مع عائلتك. لن تراها مرة أخرى".

كان من المقدر أن يكون عاصم الانتحاري. ولكنه عندما وافَق على القدوم إلى برشلونة، لم يخطر على باله قط أن هذا سيحصل، كما لم يعتقد أن الهجوم سيكون قريباً جداً.

فسأله: "لماذا لم تُخبرني بهذا من قبل؟".

"قد تصبح عاطفياً جداً لدى حديثك عبر الهاتف".

بدأ عاصم يفكّر بهدوء في سره بأن عليه أن يفعل شيئاً لمنع ذلك.

قرابة الساعة العاشرة مساءً، شاهَدَ فريق المراقبة الإسباني مولانا قدير مالك، وهو أحد القادة الآخرين للجماعة، يغادر الشقة حاملاً كيساً أسود رماه في سلة مهملات في الشارع، وقد بحثوا عنه لاحقاً.[11] كان الكيس يحتوي على قاطعة أسلاك، ومفك براغي، وسكين، وتسعة أزواج من قفازات اللاتكس، وزوج من القفازات المطاطية، وثماني أسطوانات ألعاب نارية كرتونية فارغة، وأربع قطع بلاستيكية تخصّ الألعاب النارية أيضاً، وصندوق معدني فارغ لحُبيبات (خردق) الطلقات النارية، وعلبة فارغة لحُبيبات الطلقات النارية، وحزمتَي بطاريات، وثلاثة أجهزة وصفتها الشرطة بأنها "عدّادات توقيت ميكانيكية"، وثمانية قوابس كهربائية، وقطع أسلاك طول الواحدة منها خمسة عشر سنتيمتراً، وبطاقة تعبئة رصيد هاتف جوّال.[12]

كان اليوم التالي هو الجمعة، يوم الصلاة. بقي عاصم مع الجماعة في الجامع الكبير؛ فقد كان من الصعب الفرار منهم. لكنْ بعد الرابعة مساءً بقليل، قال إن عليه الذهاب إلى المرحاض. ثم تأكّد من أن الأكشاك الخشبية الأخرى الخاصة بمراحيض الرجال كانت فارغة. وأخيراً، حصل على بضع لحظات بمفرده. مدّ يده إلى جيبه وأخرَج هاتفه الجوّال وشغّله. باستخدام بطاقة الاتصال نفسها المدفوعة سلفاً التي نسي شهيد أن يستعيدها منه، اتصل برقمٍ في باريس.

تكلّم عاصم بسرعة. "أنا هنا في برشلونة. أنا في جامع طارق بن زياد. غداً صباحاً في برشلونة، سيحصل شيء سيئ، عملية إرهابية".

استمَع إلى الرد ثم تابَع: "أُقيم مع الجماعة، ولا يمكنني إيقافها... إذا كان هناك أي شيء يمكنك القيام به، فأرجو منك إيقاف العملية".

أطفأ عاصم هاتفه. وقد شرَح خلال محاكمته أنه تكلّم مع رجل يعرِف أنه ضابط شرطة متخفٍّ.

وقد أخبر المحكمة لاحقاً: "لديّ صديق واحد في فرنسا، شخص فرنسي. وهو يجلس أحياناً في المقهى بالقرب من منزلي. أعرف أنه يعمل في الشرطة، لكنني لا أعرف في أي قسم".[13]

كان الضابط في الواقع عضواً في جهاز الاستخبارات الفرنسية (ليس واضحاً إن كان يعمل وقتها لأحد الفرعَين المحليّين للجهاز أو لفرعه الأجنبي، المديرية العامة للأمن الخارجي[14]). كان الضابط الفرنسي على اتصال بعاصم لسنتين تقريباً. وقد نشأ جدال لاحقاً حول ما إذا كان عاصم يعرف مَن كان الضابط حقاً، وعمّا إذا كان يشغّله كعميل، وعمّا إذا كان قد سافر إلى إسبانيا بمعرفة فرنسية مسبقة. لكن "عاصم" أنكر ذلك في المحكمة. وقال: "في كل أوروبا، لا أعرف سوى شرطي واحد كصديق لي. كل ما فعلته هو مجرد استغلال الفرصة للاتصال بهذا الرجل". لكنْ بغض النظر عن التوقيت الفعلي الذي جرى تجنيده فيه، كانت مكالمته الهاتفية مع فرنسا ذروة الجهود الفرنسية. فها هو خُلدٌ داخل تنظيم القاعدة يسلّم أخباراً عن مؤامرة حيّة. ولا يستطيع أي قائد شبكة تجسّس عصري أن يطلب أكثر من ذلك.

بالفعل، كان الأشخاص أمثال عاصم نادرين. ولكنْ كان من النادر أكثر من ذلك أن يُكشَف تغلغلٌ كهذا بشكل فوري تقريباً. فبعد بضع ساعات من مكالمة عاصم الهاتفية، أصبح معظم أعضاء الجماعة داخل السجن، وبدأ الحرس المدني في إسبانيا بمحاولة إقناع عاصم بتقديم إفادة "كشاهد محمي" خاص. وفي غضون أسبوعين، احتلّ خبر وجود جاسوس فرنسي في خلية إرهابية في برشلونة واجهة الأخبار في إسبانيا؛ بفضل وكالة أخبار ذكرت في 2 فبراير أن "جهاز الاستخبارات الفرنسية" حذّر بشكل عاجل من وجود "مؤامرة إرهابية" في برشلونة، وأرسل عميلاً إلى المدينة.[15]

منذ ذلك الوقت فصاعداً، أصبح عاصم يُعرَف للعموم بالعميل المجهول **F1** (رغم أن المتّهمين في برشلونة كانوا يعرفون هويته الحقيقية، وأعطوا المحكمة اسمه،

ونُشر لاحقاً في بعض الأماكن، إلا أن القانون الإسباني كان يمنع نشر اسمه الكامل).

سبَّبت القضية نزاعاً بين فرنسا وإسبانيا. فقد أرادت فرنسا معرفة سبب انكشاف تغطية عاصم بهذه السهولة. فهل كان من الضروري أن تقتحم قوات الأمن بهذه السرعة بعد المكالمة الهاتفية لإحباط العملية؟ مهما تكن نقاط الحق والباطل، إن القضية ستسلّط الضوء على صعوبة التصرّف بناءً على معلومات جاسوسٍ من دون الكشف عن وجوده، وبالتالي إنهاء حياته التشغيلية.

عندما أُحضِر المتآمرون المزعومون لاحقاً إلى المحكمة، أظهَرت القضية أيضاً التصادم بين الطرائق السرية والعدالة الجنائية. فقد اعتمدت قضية الشرطة على ما شرحه عاصم، لكنه كان شاهداً مُعيباً. فقد كان هناك الكثير ممّا لا يمكنه قوله في محاكمة علنية. ولم يكن إدعاؤه أنه اتصل بصديقه الشرطي بدافع وخز الضمير مُقنعاً، وبدا ككذبة لتجنّب الاضطرار إلى إفشاء أنه كان عميلاً طوال الوقت. فإذا اعترَف بأنه كان عميلاً منذ وقت طويل، فربما سيكون قد خان عمليات جارية أو سابقة أخرى. لكنْ كان لحجبه تلك المعلومة عاقبةٌ أخرى. أعني، تقييد الدفاع القانوني للمتآمرين المزعومين الآخرين. فإذا كان عميلاً اعترف من تلقاء نفسه، فباستطاعة محامي الدفاع المطالبة بمعلومات عما عرفته السلطات مسبقاً، والادعاء أنه تم نصب فخ للمدعى عليهم.

فصَّل عاصم لاحقاً ما شرحه له مولانا شهيد عن المؤامرة، فقد أبلغه أن بيت الله محسود نفسه قد اتخذ القرار بترقيته من صانع قنابل إلى انتحاري. ويُفترَض بهذا أن يكون شرفاً له. سيكون هناك أربعة شهداء، حيث سيهاجم الثنائي الأول، عاصم ومحمد عمران شيما، المترو. ولم يكن واضحاً ما إذا كان الثنائي الثاني، محمود خالد ومحمد شعيب، سيستهدفان المترو أو القطارات أو الحافلات.

أحضَر شهيد كيساً من النايلون أبيض إلى مكتبة الجامع مع عاصم ومعروف. وقد وجدوا كيساً أسود خلف بعض الكتب. كان الكيسان يحتويان على مسحوق رمادي.

أخذ شهيد بعضاً من المسحوق، وفركه بين أصابعه وشرح لمعروف: "النوعية ليست جيدة جداً. وأنا غير مسؤول عمّا إذا حصل خطأ ما".

"لا تقلق. أعتقد أن هذا المسحوق مقبول. حتى لو كان سيئاً، يمكننا الذهاب وإحضار أحدث نوعية وأفضلها".

أخبَر معروف الجماعة أن عليهم أخذ المسحوق وبعض الكمبيوترات إلى جامع آخر. أولاً، تجمَّع الجميع في الفناء، حيث صلّوا صلاة خاصة ليبارك الله تضحيتهم الوشيكة. كانت المشاعر جيّاشة، ودعا معروف: "اللهم اقبل تضحيتنا. إننا نقدِّم لك أرواحنا".

وفق رواية عاصم، أمَرَ معروف الجميع- وهم مجموعة من اثني عشر شخصاً- بالخروج من جامع طارق بن زياد والتوجّه إلى الجامع الآخر لجماعة التبليغ والدعوة القريب من محطة مترو خايمي الأول في برشلونة. كان ذلك الجامع يُعرَف بجامع النور، وكان يحتوي على طابقٍ ثانٍ يستطيع فيه الدعاة الذين يزورون جماعة التبليغ والدعوة أن يطبخوا ويأكلوا. حَمَلَ كل واحد من المجموعة حقيبة ظهر، وطلب منهم أن يسيروا في أزواج. وقال معروف: "من الخطر جداً أن يسير كل الأشخاص في جماعة واحدة".

كان الجامع الجديد صغيراً. ووفقاً لعاصم، طلب معروف من الانتحاريين أن يصعدوا إلى الطابق العلوي ويناموا، بينما بقي قادة الخلية- رجال الدين- في الأسفل. قالوا إنهم سيُنجزون بعض الأعمال على كمبيوتراتهم، لكن "عاصم" أحسّ أن نيتهم الحقيقية هي البدء بتجميع القنابل. وعرف أنهم سيشنّون الهجوم عندما تصبح القنابل جاهزة.

"عندما نمنا تلك الليلة، لم أعرف إن كان الهجوم سيتم في صباح أو مساء اليوم التالي. ففقط مولانا معروف يعرف ذلك. كانوا سيبدأون بصنع القنابل، و لم نكن نعرف متى ستصبح جاهزة لكي نذهب إلى المترو".

قبل عشر دقائق من منتصف الليل، أغار أعضاءٌ من وحدة التدخّل الخاصة- وهي فرقة من النخبة في إسبانيا- على الجامع، واعتقلوا أربعة عشر رجلاً، وتم إطلاق سراح اثنين منهم لاحقاً من دون توجيه أي تهمة لهما. وعندما حاوَل ضابطٌ اعتقال أحد الباكستانيين في المجموعة- عبد الحفيظ أحمد الذي اعتبرته الشرطة صانع القنابل الرئيس- قاوَمهم بشدة، ويُقال إنه قال للضابط: "لقد قتلتُ العديد من رجال الشرطة أمثالك في بلدي".[16]

كانت ردّة الفعل في إسبانيا تجاه خبر الاعتقالات مزيجاً من الفرح والذعر. وقد نشرت صحيفة إلبيريوديكو دي كاتالونيا العنوان التالي: "إحباط هجوم إرهابي كبير لتنظيم القاعدة".[17] وصرَّح القاضي بلتزار غارثون- وكان وقتها أشهر قاضٍ لمكافحة الإرهاب في إسبانيا- أن المعتقَلين كانوا "يستعدون للقيام بأعمال إرهابية في إسبانيا". وقد أحدَثَ كشف المؤامرة مفاجأة في نفوس الجميع، لكنه أكّد أن الجهاديين من باكستان كانوا أكبر تهديد صاعد في أوروبا. ووفقاً لغارثون، "باكستان مرتعٌ أيديولوجي لتدريب الجهاديين، ويجري تصديرهم إلى هنا". وفي الولايات المتحدة أيضاً، أُخذت المؤامرة على محمل الجد. وصرَّح مايك ماكّونيل، مدير الاستخبارات الوطنية الأميركية وقتها، أمام لجنة للكونغرس: "ظَهَر عشرون إرهابياً في إسبانيا تم تدريبهم في باكستان ليكونوا انتحاريين، وقد انتشروا في كل أرجاء أوروبا".[18]

لكن الفرنسيين لم يكونوا سعداء. وقد أوردت وكالة الأنباء أسوشيتد برس أن فرق مكافحة الإرهاب في فرنسا عبَّرت عن "دهشتها" من طريقة تعامل السلطات الإسبانية مع القضية. فقد كان الفرنسيون "غاضبين لأن استخدام عميلهم ظهر في وسائل الإعلام الإسبانية، ولأن السلطات قرّرت جعله *شاهداً محمياً*".[19] وفي حين

أن الحالة المحمية أبقت اسم F1 سراً في الوقت الحاضر، إلا أن الكشف عن وجود شاهد كهذا أوضَحَ لأعضاء جماعة إرهابية مزعومة عن وجود عميلٍ، ومن دون تفكير عميق، عن هويته أيضاً. حتى ذلك الوقت، تم التلميح إلى أن المتآمرين اعتقدوا أن F1 كان واحداً منهم. وأوردت نيويورك تايمز نقلاً عن مسؤولين فرنسيين وأوروبيين آخرين أن "التعاطي الإسباني مع المُخبِر الفرنسي أثار حنق المسؤولين في وكالات الاستخبارات الفرنسية، واهتزّت الثقة بين البلدين. لقد تم تدمير قيمة المُخبِر كمصدرٍ للمعلومات عندما جُعِل شاهداً في المحاكمة، وتم تسريب مضمون إفاداته لوسائل الإعلام".[20]

من الصعب في أغلب الأحيان تقرير متى ستتصرف بناءً على المعلومات الاستخباراتية، والأمر أصعب إذا كانت تلك المعلومات الاستخباراتية تحذّر من مؤامرة مميتة. فالتصرّف في وقت مبكر جداً قد يكشف وجود المُخبِر، أو يستبق تجميع أدلة كافية لإدانة المجرمين. لكن التصرّف بعد فوات الأوان يمكن أن يعني موت بعض الأشخاص. ومثلما شرح النائب العام الإسباني غونزاليس موتا: "لا تتيح الهجمات الانتحارية هامشاً كبيراً لاتخاذ القرارات. فالتصرّف بعد وقوع الهجوم سيكون مأساةً".[21] وفي الأنظمة الديموقراطية خاصة، حيث يخاف القادة السياسيون من التعرّض للمساءلة، ستسمح الأجهزة الأمنية بمواصلة تنفيذ بضع مؤامرات يتم اكتشافها لمدة كافية فقط؛ إلاّ إذا كان هناك أي خطر في أن يُقتَل أشخاصٌ بسببها. وقد قال ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية: "في عالم مكافحة الإرهاب، الاستخبارات تخضع للتصرّف". فالنوايا الإجرامية للجماعات الإرهابية تعني أن أي خطة لاستخدام عميلٍ لتجميع الاستخبارات على المدى الطويل يتم دفعها جانباً بشكل دوري.

لكن هل كان متآمرو برشلونة- إذا كانوا هكذا حقاً- قريبين جداً من تسديد ضربتهم؟ فقد اعترفَ وزير الداخلية ألفريدو بيريز روبالكابا بوجود "شكوك" حول مدى قرب أعضاء الخلية من تنفيذ هجومهم.[22] هل تم كشف تغطية جاسوسٍ نادرٍ ونفيسٍ جداً من أجل لا شيء؟

شَرَح موظف رسمي في الاستخبارات البريطانية رحلةً قام بها إلى إسرائيل في أحد الأوقات في القرن الحادي والعشرين، حيث أخبره رئيس الموساد أنه يتلقى الكثير من الشكاوى: "لقد أصبحت حياة الجاسوسية مملة جداً. علينا كلنا أن نعيش كالمسلمين!". فقد كان جيلٌ جديدٌ بالكامل من ضباط الموساد يفعلون ما بوسعهم لكي يتصرّفوا ويتكلموا ويفكّروا مثل عدوهم. ولم يكونوا يتذمّرون فقط من الصلاة خمس مرات في اليوم، ودراسة القرآن الكريم، والامتناع عن تناول الكحول وممارسة الجنس خارج قيود الزواج، بل كان عددٌ من قادة شبكات التجسّس الخبراء يتساءلون عمّا إذا كانت هذه الجهود ستُثمر كثيراً.

منذ هجمات سبتمبر 2001 والقادة السياسيون في أرجاء العالم الغربي كافة يسلّمون شيكات بالمليارات إلى وكالات تجسّسهم، وقد بدأوا الآن يضايقون رؤساء تلك الوكالات لمعرفة إن أصبح لديهم أي شخص داخل تنظيم القاعدة. ومثلما قال الموظف الرسمي في وكالة الاستخبارات المركزية، إن العالمين ببواطن الأمور والدخلاء يتساءلون عمّا إذا كان بإمكان "الرجل القريب" الذي ينبغي أن يكون إلى جانب بن لادن أن يمنع حصول هجمات 11 سبتمبر. لكنْ هل من الممكن تجنيد جاسوس كهذا الآن أو فات الأوان كثيراً على ذلك؟

في لندن في العام 2008، جادل الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات السرية السير ريتشارد ديرلوف في اجتماع للمفكّرين في وايتهول بأن تجنيد الجواسيس أصبح أصعب؛ لأن "الحرب على الإرهاب" غيَّرت طبيعة لعبة التجسّس. مثلاً، في الأزمنة الغابرة، كانت نقطة الانطلاق للحصول على جاسوس داخل أي منظمة هي الحصول على لائحة بأعضائها. وقد قال: "كنا نقدِّر كثيراً دلائل الهاتف الداخلية. فقد كانت مفتاحاً مهماً لفهم بنية المنظمة".

ومثلما شرح لي ضباط استخبارات سابقون، في حين أن الخطوة البدائية المتمثلة بقيام أي عميل بتزويدنا بدليل الهاتف قد تبدو تصرفاً تجسّسياً عادياً، إلا أنها تجعل العميل يجتاز خطاً خفياً للخيانة؛ كانت تسويةً صغيرةً من الصعب العودة منها إلى

الوراء. ومثلما أشار ديرلوف، كان دليل الهاتف ذا أهمية جوهرية، فهو يمكّن وكالة التجسّس من تحديد هرمية خصمها. لكنْ ما كان مرادف دليل الهاتف في تنظيم القاعدة؟ لقد قال ديرلوف إن سخافة السؤال كانت دلالةً على مقدار الاهتزاز الذي تعرَّض له عالم الاستخبارات.

في وقت هجمات 11 سبتمبر، كان تنظيم القاعدة برئاسة مجلس شورى، من وظائفه الموافقة على الهجمات الإرهابية الرئيسة أو رفضها. وتحت حُكم مجلس الشورى هذا، كانت هناك سلسلة من اللجان الفرعية التي تنظّم النشاطات الإعلامية، والموارد المالية، والخطط العسكرية، إلخ...

لكن مع تركيز الوكالات الغربية انتباهها على تنظيم القاعدة، بدا الأمر وكأن التنظيم بدأ يتلاشى من الوجود. فما يسمّى الحرب العالمية على الإرهاب قد عرقَل هرمية تنظيم القاعدة، فجرى استبدال جماعة إرهابية مركزية بحلفٍ منقسمٍ إلى أجزاء مستقلة ولكنها مترابطة مع بعضها. وهذا ما جَعَل اختراق تنظيم القاعدة أصعب من أي وقت مضى.

حتى قبل هجمات 11 سبتمبر، كان تنظيم القاعدة يعمل وفق مبدأ الامتيازات التجارية. فكانت الطرائق والقواعد والأهداف عموميةً في الأغلب، وتستطيع المجموعات التابعة اختيار أهدافها وتوقيت هجماتها بنفسها. وقد شرح ديرلوف المسألة في اجتماع المفكّرين بالقول إن الجماعات الإرهابية كانت أشبه "بسرب من العصافير التي تجتمع معاً وتتشتَّت بطريقة تبدو عفوية"، وبهرمية عشوائية وبلا علاقات دائمة. لذا، كان الأفراد ضمن أي جماعة إرهابية عصرية قابلين للاستغناء عنهم. وهذا يعني أن العميل داخل المنظمة سيتسنّى له وقت قصير جداً فقط لتجميع معلومات مفيدة. ولم تكن هناك هرمية واضحة لاعتلائها واختراقها. ومثلما حصل مع F1، قد يتوقعون من المجنَّد أن يتطوَّع للقيام بمهمة انتحارية.

تدفعنا هذه البنية سريعة الزوال إلى التشكيك في ما إذا كان الاختراق الجدي للحركة ممكناً أو مفيداً حقاً. وهي تعني أيضاً أن المعلومات الاستخباراتية قد تكون

صالحة لبضعة أيام فقط، أو حتى لبضع ساعات. وذلك ليس لأن الأشخاص يتغيّرون باستمرار فحسب وكذلك المؤامرات، بل لأن التفاصيل الدقيقة لأي هجوم أو مؤامرة قد لا تكون مقرَّرة بعد؛ بما أنه لا حاجة ضرورية إلى استشارة الآخرين بشأنها أو إطلاعهم عليها إلى أن يحين وقت المراحل النهائية.

تم استخدام وكالات التجسّس للتفكير طويل الأجل، وهذا من تأثيرات الحرب الباردة. فإذا استلزم تطوير عميل جيد في KGB مثلاً خمس سنوات، فقد يستلزم الأمر خمس سنوات أخرى لقيادة ذلك الخُلد إلى منصب في KGB يتيح له الوصول إلى أسرار مهمة. بشكل مماثل في إيرلندا الشمالية، قد يحتاج مجنَّدٌ في الجيش الجمهوري الإيرلندي يعمل لصالح البريطانيين إلى عدة سنوات ليصبح عضواً موثوقاً في وحدة خدمة نشطة. وطيلة تلك الفترة، ستظل المنظمة تختبر وفاءه. وهذا ما جَعَل الاختراق صعباً، ولكنه مفيد جد أيضاً. فبعد أن يُثبت المجنَّد وفاءه وتتم قيادته إلى منصب مفيد، يمكنه الحصول على معلومات عن الأشخاص والاستراتيجيات والخطط التي قد تكون ذات صلة لعدة سنوات قادمة.

وقد أصبح الحصول على مصدر في ذلك النوع من المناصب نادراً أكثر بكثير الآن. ووفقاً لديرلوف، بدأت الاستخبارات البشرية تصبح فناً مُحتضَراً بسرعة؛ فلم يعد نوع التجسّس الذي مورس وصُقل لعدة قرون ينفع بعد اليوم. وكان "يجري تقويض" الاستخبارات البشرية "بسبب صعوبة تجنيد المصادر". وقال إن علينا بدلاً من ذلك أن نتعلّم كيف نتعايش مع المراقبة الإلكترونية واسعة الانتشار. "ما تحتاج إليه في هذه البيئة الجديدة هو الوصول إلى سيول البيانات"؛ مثل غرف الدردشة على الانترنت مثلاً، ورسائل البريد الإلكتروني، والمكالمات الهاتفية، والنظام المصرفي، وسجلات الهجرة، وحجوزات السفر... ويجب تحليل كل ذلك باستخدام كمبيوتر متطوّر.

كان يلمِّح إلى أنه إذا كان من المستحيل اختراق جماعة إرهابية، ومعرفة مَن كان يشكّل تهديداً حقاً، فيجب عندها على الأرجح مراقبة المجتمع بأكمله بشكل

مكثّف لكي يصبح بالإمكان اكتشاف أنماط السلوك المشبوهة باكراً. ربما علينا أن نتقبّل انتهاكاً أكبر بكثير لخصوصيتنا.

كان هذا تحليلاً مثيراً للاهتمام. لكنْ رغم أنه أعطى شرحاً جيداً لسبب عدم فعالية أسلوب التجسّس القديم ضد هذه الأهداف الجديدة، إلاّ أنه لم يشرح سبب عدم القدرة على تنفيذ التجسّس بشكل مختلف. بل كان بدلاً من ذلك وصفاً للفشل في التكيّف.

البنية سريعة الزوال للمقاتلين الإسلاميين تتطلّب بالطبع شكلاً من التجسّس أكثر رشاقة ومرونة كان قد تم استبعاده من الجهود المُضنية في الأزمنة السابقة. فبعد هجمات 11 سبتمبر، حاولَت أجهزة الاستخبارات البريطانية بقوة التجسّس داخل الجوامع. وبدأ MI5 وقوى الشرطة المحلية كافة تجنيد مُخبِرين لحضور الخطب الدينية، والتحذير من بدء تشكيل أي جماعة متطرّفين داخل أحد الجوامع، أو في أحد أماكن العبادة غير الرسمية أكثر. لكن مثلما توقّع الجاسوس الرئيس، لا يأتي النجاح في أغلب الأحيان من التجسّس، بل من استخدام أساليب مكافحة التجسّس القياسية؛ أي المراقبة والتنصّت على الاتصالات.

لكن هذه لم تكن نهاية القصة. فقد بدأت أجهزة الاستخبارات تعلّم نفسها رويداً رويداً كيفية العمل بطريقة جديدة فعّالة أكثر، كما بدأت تتعلّم نقاط ضعف الخلايا الجهادية وكيفية اختراقها. فإذا لم تتمكن من الوصول إلى أعلى قياداتها أو تشغيل عميل داخلها لفترات طويلة، فستتمكن على الأقل من إيصال العميل إلى مستوى عميق داخلها؛ أي بما يكفي لتجميع بعض المعلومات المفيدة.

أحد الصدوع في الدرع الجهادي كان حاجة تنظيم القاعدة المستمرة إلى المجنَّدين. وأحد الصدوع الأخرى كان استعداده لاستخدام المهتدين إلى الإسلام حديثاً. في العام 2008، أخبَرَ مصدرٌ أمنيٌّ بريطانيٌّ إحدى الصحف عن وجود "ما يصل إلى 1,500 مهتد إلى القضية الأصولية في بريطانيا". وشكّل هذا من جهة صُداعاً للأجهزة الأمنية؛ لأنه "من الواضح أن أولئك الأشخاص يندمجون جيداً، ولا

يتسبّبون بإطلاق أي تحذيرات بالخطر". لكنّه من جهة أخرى أوضَحَ أن الدخلاء بالكامل- سواء أكانوا من أصحاب البشرة السوداء أو البيضاء- يستطيعون إدخال أنفسهم في الدوائر المقاتلة بسرعة. وأحد الأمثلة عن مهتدين فاعلين عسكرياً (وهذه صفة في عالم الجاسوسية تُطلَق على الأشخاص الذين نقلوا إيمانهم الجديد بالجهاد إلى مستوى التنفيذ الفعلي) كان الشخص المسمّى مفجِّر الأحذية، ريتشارد ريد، الذي حاوَل في العام 2001 تفجير طائرة نفّاثة فوق الأطلسي. وفي حالة أخرى في العام 2006، تم اعتقال طالب أبيض في المدرسة الثانوية يبلغ من العمر عشرين سنة من هاي وايكم، باكينغهامشير، واتّهمته النيابة العامة بالاستعداد للمشاركة في تفجير الطائرات النفّاثة بمتفجرات سائلة، لكن هيئة المحلّفين برّأته لاحقاً. كان قد اهتدى إلى الإسلام منذ أربعة أشهر فقط عندما تمّ اعتقاله. لقد كانت هناك قناعة شائعة بشأن المهتدين الجدد في صفوف المقاتلين. فمثلما صرَّح مدير برنامج الهجرة والأمن القومي روبرت لايكن لصحيفة سكوتسمان: "يميل المجنَّدون الدينيون الجدد إلى أن يكونوا أكثر حماسة دائماً من أولئك الذين وُلدوا وترّبوا في أجواء ذلك الدين".

وفقاً للسيد أليكس كارلايل، وهو محامٍ بريطانيّ أصبح مُراجِع الحكومة المستقل لقوانين مكافحة الإرهاب، كان الإسلاميون المتطرّفون يستهدفون المهتدين في السجون. تبيَّن أن المجرمين السابقين يشكّلون مصدراً مهماً للمجنَّدين، سواء أكان ذلك من حيث الانضمام إلى الجهاد أو للعمل كعملاء.[23]

وأحد الأشخاص الذين برهنوا عن إمكانية اختراق الجهاد كان مجرد سجين مهتدٍ. كان سجيناً سابقاً دانمركياً مهيباً ودرّاجاً يدعى مورتن ستورم. وقد اهتدى إلى الإسلام في أواخر التسعينيات هرباً من حياة صاخبة مليئة بالشجار وتعاطي المخدرات واحتساء الشراب. لكنْ رغم اهتدائه للدين، لم يتخلَّ ستورم عن حُبه للعنف. وقد انجذب إلى الدوائر المتطرّفة أكثر فأكثر. عُرِف باسم "مراد ستورم"، وقد التقى المقاتلين المقيمين في بريطانيا العُظمى، وذهب لدراسة العربية والدين الإسلامي في اليمن (كان هناك في سبتمبر 2001)، وكان يتوق إلى المحاربة مع

الإسلاميين المتطرّفين الذين كانت لهم اليد العليا في الصومال. عندما وُلد ابنه في العام 2001، سمّاه أسامة تيمّناً بأسامة بن لادن. لكنْ رغم خوضه في الدوائر المقاتلة، كان هناك شيء يشدّه إلى الوراء. ربما كانت المسألة، حسب قوله، "لم أكن مقتنعاً بالكامل بفكرة أنه يمكنك قتل مدنيين غير مسلّحين". وعندما تم إلغاء رحلة متوقعة إلى اليمن أصبح مُحبَطاً، لدرجة أنه بدأ يشكّك بعقائد الدين الذي آمن به لحوالي عقد من الزمن. "تحطّمت كل أحلامي بالجهاد. كنتُ كمَن يقول لنفسه: *لا يمكن أن يحصل هذا، لماذا؟* شعرتُ بحسرة كبيرة، وكنتُ مترعجاً حقاً... وقد جَعَلني ذلك أبقى مستيقظاً طوال الليل". وكلما فكّر في المسألة أكثر، تبخَّر تطرّفه الإسلامي، وأصبح متحمِّساً لفكرة جديدة... التجسّس ضده.

في أحد الأوقات في العام 2006، اتصَل ستورم بجهاز الاستخبارات الدانمركية أولاً، ولكن بسبب علاقاته التي كان قد بناها مع الدوائر المتطرّفة في بريطانيا، طُلب منه أيضاً أن يساعد MI5 وجهاز الاستخبارات السرية البريطانيَّيْن. لا يمكن التحقّق من صحة رواية ستورم بشأن تشغيله كعميل، لكنه جمَّع كمية هائلة من الأدلة لتوثيق تجسّسه؛ بما في ذلك رسائل بريد إلكتروني، وفيديوهات، وتسجيل لاجتماع مع وكالة الاستخبارات المركزية، وسنتحدث أكثر عن هذا لاحقاً.

ما برهنه ستورم كان أنه يمكن تشغيل عميل بين الجهاديين لفترة طويلة جداً؛ طالما أنه لم يتوغّل بعمق كبير مع أي جماعة منهم. كما أن التشغيل الذكي أظهَر أيضاً أنه يمكن استخدام عمله لاكتشاف مثيري الشغب المحتملين والمؤامرات التي يجري حبكها من دون توريطه في أي قضايا تخضع للملاحقة القانونية.

في الدانمرك، لاحظ ستورم أن شخصاً متطرّفاً يدعى حمّاد خورشيد حلق لحيته، لذا أخبَرَ جهاز الاستخبارات الدانمركية بأنه على الأرجح يستعد لتنفيذ هجوم. استخدمت السلطات كاميرات خفية لتصوير خورشيد ومتطرِّف آخر وهما يُجريان اختبارات على المتفجرات، واعتُقلا في سبتمبر 2007، وحُكم عليهما بالسجن لمدة اثني عشرة سنة، وسبع سنوات على التوالي. وبقي ستورم بعيداً عن قاعة المحكمة.

بشكل مماثل في بريطانيا، في جامع صومالي في برمينغهام، تعرَّف ستورم إلى رجل سوري يدعى عمر- واسمه الحقيقي حسن طبّاخ- أخبره أنه يخطّط لصنع بعض القنابل. اقتحمت الشرطة منزله في ديسمبر 2007، وعثرت على مواد كيميائية وتعليمات حول كيفية صنع القنابل. كان ذلك كافياً لإرسال طبّاخ إلى السجن لسبع سنوات، ومرة أخرى من دون الحاجة إلى أن يقدِّم ستورم أي أدلة.[24]

كان الفَرْق الحاسم بين ستورم وعاصم أنه كان من الضروري وضع عاصم على منصة الشهود. ولم تُروَ القصة الكاملة لما حصل في برشلونة بعد، ولا تزال هناك أسئلة رئيسة حول كيفية تجنيد عاصم ومصداقيته. وقد كشف بحثٌ لاحقٌ أجراه صحافيون إسبانيون المزيد عن خلفيته؛ بما في ذلك حياته السابقة- مثل ستورم- على حافات الإجرام. فقد كشف الصحافيون أن "عاصم" كان لا يزال مطلوباً في باكستان بصفته "مهرِّب أشخاص". كان متّهماً بالاحتيال لسنوات عديدة؛ بأن يبيع الأشخاص هويات مزيّفة لمساعدتهم على دخول البلدان الأوروبية، كما يغشّهم بأخذ المال منهم لقاء وعود كاذبة بتهريبهم إلى أوروبا. ويعتقد شركاؤه السابقون أنه أصبح جاسوساً للاستخبارات الفرنسية كوسيلة للتهرّب من الاتهامات الجنائية في وطنه.

لم يتم ذكر كل هذه التفاصيل عندما أخبَر عاصم قصته في محكمة برشلونة، لكن ذلك لم يقوِّضها بالضرورة. فمن أجل حماية الجواسيس، كانت تُحجَب التفاصيل في أغلب الأحيان عن المحاكمات العلنية. وكان التهديد بتسوية قانونية حيلةً كلاسيكيةً للتجنيد يستخدمها بعض أجهزة الاستخبارات، حتى لو لم تكن مقبولة بالنسبة إلى الجميع. وعلى حدّ قول ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية، "بإمكان تلك الأنواع من طرائق الابتزاز أن تأتي بنتائج عكسية سيئة للغاية". لكنْ وفقاً لمصدر إسباني حسن الاطلاع، كان عاصم فُجائياً بالنسبة غلى الاستخبارات الفرنسية، وليس شخصاً تم استهدافه بقوة. "لقد جاء إليهم منذ حوالي سنتين قبل ذلك". لكن المصدر لم يعرف ما كانت دوافعه.

اعتُقل عاصم عندما اقتحم الحرس المدني جوامع برشلونة، ولكنه أُخضِع بعدها لمعاملة خاصة. وزعم لاحقاً أنه لم يكتشف قط إن كانت معلومته السرية هي سبب اعتقاله. ومقدِّماً أدلةً في المحكمة خلال محاكمة متآمري برشلونة، تساءل عمّا إذا كان الحرس المدني يراقب المجموعة من قبل. لم يتم إبلاغ المحكمة مطلقاً عمّا إذا كانت المجموعة تخضع للمراقبة حقاً.

زوَّد عاصم- الذي انضم إلى برنامج إسباني لحماية الشهود- ببضعة أدلة عن كيفية تواصله مع السلطات الفرنسية. وبالكاد كان القسم الأكبر من قصته جديراً بالثقة. فقد أبلَغ المحكمة أنه التقى صديقه الفرنسي "الشرطي المدني" في مقهى محلي. "تعرّفتُ إليه منذ سنتين ونصف السنة لأنني كنتُ أراه في المقهى كلما ذهبتُ إلى هناك. كنا نجلس هناك كل يوم، فتعرّفنا إلى بعضنا بعضاً. يمكن القول إننا كنا صديقَي مقهى". ورغم أنهما تبادلا أرقام هواتفهما، أنكَر عاصم معرفته أن الشرطي الفرنسي كان يعمل لجهاز الاستخبارات. كما قال إنه لم يُخبِر الشرطي عن ارتباطاته الإرهابية. وعندما ذهَب للتدرّب على حدود أفغانستان، أعطى الفرنسي أسباباً مختلفةً. فقال مرةً إنه ذاهب لزيارة أمه المريضة، وقال مرةً أخرى إنه ذاهب ليساعد ضحايا الزلزال. "اختلقتُ عدة أعذار للعودة إلى باكستان".

أصَرَّ عاصم على أن تجسّسه لصالح الشرطة بدأ وانتهى مع تلك المكالمة الهاتفية الوحيدة. ولكنه اعترفَ أيضاً أنه كان يعلم أن الشرطي لا يأتي إلى المقهى بشكل عفوي، بل لتجميع بعض المعلومات. "اكتشفتُ أنه يعمل للشرطة؛ [كان واضحاً أنهم] يريدون الحصول على معلومات. و لم أقل قط إنه كان من البوليس *السري*".

لكنْ ظهر دليلٌ في العام 2011 على أن "عاصم" قد كذب على المحكمة، وأنه كان عميلاً سرياً منذ فترة طويلة، وليس مُخبِراً في اللحظة الأخيرة فقط. جاء هذا في برقية غير لافتة للانتباه من السفارة الأميركية في مدريد نُشرَت على موقع ويكيليكس، ومصنَّفة "سري" و"NOFORN"؛ بمعنى أنه لا يجب أن يراها أي بلد

أجنبي. كان عنوانها: "إسبانيا: تنصّل النائب العام من أي علاقة لتنظيم القاعدة بمؤامرة مترو برشلونة"، ونصّها ما يلي:

1. (S//NF) خلافاً للشهادة ذاتية الاتهام التي قدّمها الشاهد النجم للحكومة في المحاكمة المنتهية مؤخراً والمتعلقة بمؤامرة مهاجمة مترو برشلونة، أكّد النائب العام للمحكمة الوطنية فيسنتي غونزاليس موتا في 13 يناير بصورة شخصية أمام POLOFF [كلمة معناها مسؤول سياسي في السفارة الأميركية] أنه لم تكن هناك علاقة لتنظيم القاعدة بخلية الإسلاميين المتطرّفين، وأن الشاهد كان في الواقع عميلاً سرياً لبلد ثالث؛ مثلما زَعم الدفاع.

لقد ذكرت البرقية السرية أن موتا كشف هذه النقطة خلال اجتماع لفريق عمل أميركي-إسباني حول الإرهاب والجريمة المنظّمة. وقد شرح أن القانون الإسباني "يسمح لمسؤولي الأجهزة الأمنية بأن يستمروا بالعمل بشكل سري"، وأن يُخفوا- بتعبير آخر، أن يكذبوا بشأن- هوياتهم الحقيقية وانتماءهم "أثناء إدلائهم بشهاداتهم في المحكمة". وقالت البرقية إن التقارير السابقة للسفارة أشارت إلى شهادة F1 "تحت القَسَم" في المحكمة، وإلى أنه كان "عضواً سابقاً في خلية انقلب على زملائه، وأبلَغ السلطات بالمؤامرة"، و"أنه كان عضواً في تنظيم القاعدة منذ العام 2005"، ومشاركاً في شبكة تمويلها المالي. وفي تناقضٍ مع ما قاله عاصم في المحاكمة العلنية، ذكرت البرقية أن "القضاة كانوا يُدركون أن الشاهد عميلٌ سريٌّ وليس عضواً في تنظيم القاعدة".[25]

إذا كانت البرقية حقيقية وعاصم قد كذب، فستكون السلطات في محاولتها حماية المصدر قد منعت أيضاً المتآمرين المزعومين من تجهيز دفاع معقول عن أنفسهم. فمن دون اطلاعهم على خلفية عاصم، كان من الصعب عليهم تحدي وثوقية روايته. كما تم تقديم دليل مُقنِع قليلاً بالإضافة إلى شهادته. وقال الصحافي الإسباني أنطونيو باكيرو: "هناك شكوك حقيقية حول قضيته. لستُ متأكداً من أن أي شخص قد أدّى العمل بشكل جيد هنا". ومثلما أشار الدفاع في المحاكمة، لم

تعثر الشرطة على أي متفجرات؛ ما عدا بضعة أسلاك وبطاريات ومسحوقاً مأخوذاً من الألعاب النارية. وكان أكثر العناصر شبهةً هو ثمانية غرامات من نترات السلولوز، مع جُسَيمات من بيركلورات البوتاسيوم (ويسمّى أيضاً "المسحوق الوامض") التي أخذت من الألعاب النارية، وعدّادات توقيت، و783 حُبيبة من بندقية هوائية (مهما كانت نية القتل موجودة لديهم، بالكاد يمكن اعتبار هذه المواد كافية لشنّ هجوم خطير). وتعتقد الشرطة الإسبانية أنها لم تعثر قط على المخبأ الحقيقي للمتفجرات، ولكنها ارتابت بأمر عاصم أيضاً. ورغم شهادته الجازمة بوجود خطط لشنّ هجوم وشيك، أقرّت النيابة العامة نفسها أنه لا بدّ أن صانعي القنابل كانوا لا يزالون بعيدين جداً عن إكمال عملهم.

خلال المحاكمة، أصرَّ روشان جمال خان، وهو رجل أعمال هندي اعتُقل وأُدين لاحقاً بأنه عضو في الخلية، على أنه جاء إلى إسبانيا لكي يصدّر زيت الزيتون إلى بومباي. ورغم أنه عضو في جماعة التبليغ والدعوة ويصلّي في الجامع، فقد قال إنه بالكاد يعرف بقية المعتقلين، ولا يعرف شيئاً عن مؤامرة التفجير. كما أصرَّ على أن جماعة التبليغ والدعوة جماعة مسالمة. "هذا مضحك جداً. كنا سننشر المحبة بين الناس. ولم يتوقع أحدٌ صنع قنابل وقتل الأشخاص في عملية انتحارية".[26]

قال خان إنه عاش كل حياته في الهند، ولم يسمع قطّ بقائد حركة طالبان الباكستانية بيت الله محسود. وزَعَمت عائلته في بومباي لاحقاً أن "المسألة برمّتها ناجمة عن خيال شخص يحلم بأن يكون جايمس بوند، فزَعم بوجود هجوم إرهابي وشيك على مترو برشلونة. لذا، شاركت الشرطة في التمثيلية لإحباط الهجوم".[27]

اعتُقل رجلان في الغارات ولكن أُطلق سراحهما من دون توجيه أي تهمة لهما؛ وقد أصرّا على براءة الآخرين. ووفقاً لإحدى وكالات الأنباء، فقد اتّهم رفقت علي، وهو عامل بناء عمره 27 سنة، "الشرطة بضربه وحجزه في زنزانة مظلمة لعدة ساعات". وقال الشيخ سعيد أختر، وهو يعمل في متجر وعمره اثنان وخمسون عاماً، "لسنا إرهابيين. لا أحد منا إرهابي. نحن مجرد مهاجِرين من

باكستان، نعمل ونذهب إلى الجامع". وقال أختر إن الشرطة عثرت على أسلاك كهربائية وبطاريات في الجامع "لأنهم يُجرون أعمال بناء هناك. ولسنا مهتمّين قطّ بحركة طالبان تلك".[28]

في ديسمبر 2009، أُدين كل المتآمرين المزعومين الأحد عشر بانتمائهم إلى جماعة إرهابية، وأُدين اثنان منهم (شهيد إقبال وقدير مالك) بامتلاك متفجرات. وحُكم على شهيد وقدير بالسجن لأربع عشرة سنة ونصف السنة، وعلى معروف أحمد ميرزا بالسجن لعشر سنوات ونصف السنة، وعلى الباقين بالسجن لثماني سنوات ونصف السنة. حتى إنه لم يُتَّهم أحد بالتآمر لشنّ هجوم إرهابي أو الشروع في القتل. وفي الاستئناف أمام المحكمة العليا، أُلغيَت تُهم المتفجرات، وخُفِّض الحُكم إلى ثماني سنوات لمعروف وست سنوات للآخرين، نظراً إلى أن المحكمة اعتبرت أن المؤامرة كانت "لا تزال في مراحلها البدائية".[29]

لذا، لا تزال بعض تفاصيل رواية عاصم متناقضة وغامضة. لكنْ سواء أكان عميلاً لفترة طويلة أو قصيرة، وسواء أكان داخل تنظيم القاعدة أو مع جماعة ذات مستوى أدنى من المقاتلين الذين يحلمون بأن يصبحوا جهاديين، كان دليلاً حيّاً على أنه يمكن وضع الجواسيس- مهما يكن ذلك صعباً- داخل جماعة إرهابية، وبين أشخاص لديهم وصول إلى معسكرات التدريب في باكستان، والخلايا الإرهابية السرية في أوروبا. إن أمثال هؤلاء العملاء يستحقون وزنهم بلاتيناً، ويجب استخدام معلوماتهم الاستخباراتية بتحفّظ كبير. فكشف الغطاء عن ذلك الجاسوس بسبب مؤامرة مزعومة تستند إلى بضع ملاعق من غبار الألعاب النارية كان خطأً باهظاً. ومهما يكن المكان الذي جُنِّد فيه عاصم، ومهما تكن فضائل المحاكمة في برشلونة، كانت أمامه القدرة على الغوص أكثر بكثير في الدوائر المقاتلة. وقد شكّل وضعه على منصة الشهود استخداماً غير اعتيادي للغاية لفكرة العميل؛ نظراً إلى كونه غير قادر أبداً- بقصد المحافظة على سلامة طرائق الاستخبارات- على أن يروي قصة صادقةً. لهذا السبب، سيجادل رجال الاستخبارات الخبراء بالقول إنه كان من

الأفضل استخدام مصدر بشري كنقطة انطلاق فقط لتجميع الأدلة؛ أي شخص يستطيع اقتراح الهواتف أو الغرف التي يجب التنصّت عليها. بهذه الطريقة، يمكن بناء القضية من دون الحاجة إلى كشف هوية العميل. كما أن ذلك سيكون وسيلةً للتحقق من رواية العميل وتقييم ما إذا كان قد بالغ بتقاريره أم لا. لكنْ لا يمكن تشغيل العميل لفترة أطول وتعزيز القضية بناءً على سلطة وكالة الاستخبارات أو النائب العام وحده. إذ تحتاج المسألة إلى مساندة من قيادة سياسية لديها الشجاعة لتسمح باستمرار العملية رغم الأخطار الواضحة، والمتمثلة بتمكّن جماعة من الإرهابيين من الإفلات من المراقبة؛ في حال حصلت بعض الأخطاء. لكن تلك الشجاعة لم تكن متوفرة في إسبانيا، قبل الانتخابات مباشرة.

إن تشغيل جاسوسٍ مثل عاصم داخل خلية نشطة من المقاتلين لم يتطلّب جرأة فحسب، بل قراراً حكيماً أيضاً؛ لأنه ينبغي أن يتمتع بالمهارة اللاّزمة لتقييم متى يزداد خطر تحوّل الخلية إلى التنفيذ، وكذلك تحديد- مثلما اضطرت وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن تفعل قريباً- ما إذا بالإمكان حقاً الوثوق بعميلٍ داخل تنظيم القاعدة.

الفصل 8

إرادة الله

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

– القرآن الكريم، سورة الأنفال، الآية 30 [1]

في 20 يناير 2009، وَقَف باراك أوباما المنتخَب حديثاً أمام الكابيتول لكي يقسم اليمين الدستوري كالرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة. وكان قد تجمَّع حوالي مليونَي شخص في ذلك الصباح الجليدي في العاصمة واشنطن، لحضور أحد الأحداث الأكثر مشاهدة في التاريخ. وقد كان شعار حملته "نعم، نستطيع". فبعد سنوات من الحروب المؤلمة والمسبِّبة للخلافات، وأزمة اقتصادية محلية حديثة، جسَّد أوباما تفاؤلاً كبيراً طغى- للحظة فقط- على الصراع المألوف بين الأحزاب السياسية الأميركية.

كان خطابه رافعاً للمعنويات. ومستعيراً جملةً من وعد الرئيس أبراهام لينكولن في خطاب غيتيسبرغ الذي ألقاه في العام 1863 خلال الحرب الأهلية، أمِل أوباما بحدوث "ولادة جديدة للحرية". وقال أوباما إن الأجيال السابقة واجَهت الفاشية والشيوعية "ليس فقط بالصواريخ والدبابات"، بل ثابروا بقيمهم: "لقد فهموا أن قوتنا وحدها لا تستطيع حمايتنا، كما أنها لا تخوِّلنا أن نفعل ما نشاء. لذا، عرفوا أن قوتنا تنمو من خلال استخدامها بتعقّل. وينبثق أمننا من عدل قضيتنا، وقوة القدوة التي نمثّلها، والمميزات الصلبة للتواضع والتحفّظ".

قال أوباما إن البلد في حالة حرب، لكن الحرب على وشك أن تنتهي. "سنبدأ بترك العراق لشعبه بطريقة مسؤولة، وبصياغة سلام اكتسبناه بصعوبة في أفغانستان". وقد وعدَ بأن يعكس العديد من سياسات سلفه؛ الرئيس بوش. كما وعدَ بإغلاق المعتقل في خليج غوانتانامو في كوبا، ووعدَ بإنهاء برنامج وكالة الاستخبارات المركزية للترحيل والتعذيب والاحتجاز السري. ووعدَ هنا، في الكابيتول، بإعادة الجنود إلى حضن وطنهم.[2]

لكن نهاية الحرب كانت بعيدة جداً.

على بُعد عشرة آلاف كيلومتر، كان رجلٌ عمره 31 سنة- وهو سجين حربٍ- يتم استجوابه لليوم الثاني، بينما كان أوباما يلقي خطابه. كان همّام البلوي، وهو طبيب عمل في مخيَّم للاجئين الفلسطينيين، عضواً في خلية سرية. كان مسجوناً في الأردن- وهذا البلد حليف قوي للولايات المتحدة وخالٍ من النفط- في حصن يقع على قمة تلة تُشرف على وادي آشور، ووادي البساتين، في العاصمة عمّان. كان الحصن هو المركز الرئيس لدائرة المخابرات العامة، وكان الطبيب يتجرَّع جرعة الواقع.

منذ أن غزت أميركا جار الأردن، العراقَ، منذ خمس سنوات، وهمّام يخوض معركةً ضد ما اعتبره قوى الشيطان؛ أي الولايات المتحدة وإسرائيل. صحيح أنه كان يتواجد في عمّان في أغلب أوقاته بُحكم عمله، لكن كلماته- التي كانت تحتفي بالمجاهدين في العراق وأفغانستان، وتُلحّ على كل مسلم يافع للانضمام إلى القضية- ألهمَت الآخرين، وبالتالي كان لها تأثير مهم. بفضل السرعة التي تنشر بها المعلومات على الانترنت، أصبح اسمه الحركيّ الإلكتروني معروفاً من واشنطن إلى الرياض. وقد سمّى نفسه أبا دجانة الخُرساني. كان "أبو دجانة" رفيقاً بطولياً للرسول (ص) في ساحات المعارك، و"الخُرساني" تعني شخصاً من خُرسان، وهو اسم قديم للمناطق الشرقية في بلاد فارس، والتي تتضمن أفغانستان العصرية. وقد شكّلت أسطورة "خُرسان الكبرى" ونبوءاتها جزءاً من دعاية تنظيم القاعدة. وكان

المقاتلون ينتظرون حلول اللحظة التي تنبأ بها الرسول (ص) عندما قال إنه سيحتشد جيش إسلامي جديد في خُرسان، حاملاً رايات سوداء، وسينتصر على أعدائه. ويتذكّر بعض التلاميذ قول الرسول (ص): "إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من خراسان فأتوها ولو حبواً على الثلج، فإن فيها خليفة الله المهدي، ولا أحد يستطيع إيقاف ذلك الجيش إلى أن يصل إلى القدس".[3]

جرى اعتقال همّام- وربما عن غير قصد- في لحظة هامة من حياته. إذ كان قد بدأ يشعر أنه وصل إلى مفترق طرق، وعليه أن يتّخذ بعض القرارات. قد يكون كلامه حافلاً بكلمات ذكية، لكنْ هل كان قادراً حقاً على تنفيذ ما كان يعظ به بشدة؟ قبل اعتقاله ببضعة أيام، نَشَر مقالاً على الانترنت يشرح فيه كَرْبه الذهني. كان عنوانه: "متى ستشرب كلماتي من دمي؟".

أشعر كما لو أن كلماتي أصبحت فارغةً ومنتهية الصلاحية، وأنها تُحتضَر بين يدَي كاتبها. أشعر كما لو أنني أصبحت عجوزاً مُسنّاً؛ يمرّ بي الأشخاص ويهمسون: رجل عجوز ماتت ذرّيته. لأن كل يوم أقضيه جالساً يسرق بعضاً من عمري وصحتي وعزيمتي، مما يوسّع الهوة بين ما أحلم به وبين ما أنا عليه في الواقع.

حان وقت العمل. "لأن كلماتي ستموت إذا لم أُنقذها بدمي. وستموت مشاعري إذا لم أُشعلها بموتي... لأنني أخاف أن أموت على سريري مثلما تموت الماشية، وأقسم بالله إنني لا أتحمّل هذا".[4]

كانت لهمّام زوجة تركية مُحبة تدعى ديفني، وابنتان هما ليلى في السابعة من عمرها، ولينا في الخامسة من عمرها. لكنه سأل قراء مقاله عن كيفية شرحه للشهداء في يوم القيامة سبب تجنّبه درب التضحية الذي سلكه الآخرون لكي يبقى في المترل "وأتناول الطعام مع زوجتي وبنيَّ في مترل مسالم". وجاءت شرارة غضبه وإحساسه بالعجز من مشاهدته صور النساء الإسرائيليات على التلفزيون وهنّ يشاهدن غارة جوية على قطاع غزة. وقد ذكر لاحقاً تأثير تلك الأحداث عليه:

> لا يمكنني نسيان المشهد الذي رأيتُه على قناة الجزيرة، حيث كانت بنات صهيون يشاهدن طائرات الـ F-16 وهي تقصف غزة. كنّ يستخدمن مناظير لمشاهدة المسلمين وهم يُقتلون، وكان الأمر كما لو أنهنّ يشاهدن ظاهرةً طبيعيةً أو فيلماً سينمائياً.[5]

نُشرت دعوة همّام لحمل السلاح على الانترنت في التاريخ نفسه، 27 ديسمبر 2008، الذي دخلت فيه الدبابات الإسرائيلية إلى غزة. لم يمرّ المقال من دون أن يلحظه أحدٌ من السلطات الأردنية. لذا، في تمام الساعة 11:30 مساءً، وبعد ست ساعات على الغروب في ليلة ضبابية غير مُقمِرة، وفي نهاية اليوم قبل خطات تنصيب أوباما، توقفت عربات دائرة المخابرات العامة أمام المترل الراقي لوالد همّام، حيث عاش همّام مع زوجته. وقد أُبلِغ أن "الشرطة في الخارج". اعتقَلوه بناءً على مذكرة توقيف بتهمة "امتلاك مواد ممنوعة"، وصادروا كمبيوتراته. لم يتسنَّ له الوقت لمحو محتويات محرّكات أقراص كمبيوتره. وسيكون من الصعب عليه تفسير هوايته في التدوين للبوليس السري.

قيل لاحقاً إن همّام انهار بسرعة، وبدأ يرى الخطأ في وسائله، وسرعان ما بدأ يكشف هوية بعض المقاتلين الذين يعرفهم. وإذا كان يريد بعض الإثارة، فإن دائرة المخابرات العامة كانت تقدِّمها له. فقد أُعطي فرصة لكي يكون مُخبِراً. وقد روى لاحقاً أن "هذه الخطوة بدأت بعرضهم عليّ أن أذهب إلى وزيرستان وأفغانستان لأتجسّس على المسلمين".[6]

في الواقع، لم تكن دائرة المخابرات العامة قد بدأت بهذه الجرأة. ففي الأيام القليلة الأولى، وتماشياً مع المنهجية القياسية في تجنيد الجواسيس، حاولَت الوكالة وضع همّام على سكة التفاهم؛ بجعله يُفشي بضعة أسماء وتفاصيل، لكي يجتاز الخط إلى عالم الخيانة. كما وُجّهت له بعض التهديدات بأنه إذا لم يساعدهم، فإن عائلته ستواجه المتاعب. شعر أنه لم يعد أبا دجانة، أحد جنود الله. بل أصبح الآن همّام البلوي، الإنسان العادي جداً من شارع عروة بن الورد، ابن خليل وزوج ديفني.

كان رجلاً قيد المراقبة، وأي شيء سيفعله منذ تلك اللحظة فصاعداً ستُمعن الدولة في التدقيق فيه.

لذا، وبعد ثلاثة أيام فقط أمضاها داخل السجن، وافَق همّام على خيانة إخوته. فنُزعت عنه الأصفاد، ونُقل بعيداً عن قمة التلة. أوصلته دائرة المخابرات العامة إلى منزله بواسطة شاحنة، وخرَج منها رجلاً جديداً: العميل بانزر.

أو هل كان يتظاهر بالموافقة على العمالة؟ قال لاحقاً إن كل شيء كان حيلةً، وإن فكرة أنه يستطيع تغيير رأيه بهذه السرعة مُضحكة.

> إذاً، يعتقدون أنهم إذا عرضوا مالاً على رجلٍ، فمن الممكن أن يتخلّى عن عقيدته. يا للدهشة! [إن اقتراح أمور كهذه] على رجلٍ كان عنوان مقاله الأخير منذ مدة قصيرة جداً "متى ستشرب كلماتي من دمي؟"؛ رجلٍ يتشوّق ليستشهد... يا لها من سفاهة أن تقول له: "اذهب وتجسّس على المجاهدين"؟! لن تجد أبداً هكذا غباوة ما عدا لدى الاستخبارات الأردنية.[7]

في الواقع، لن يعرف أحدٌ القرار الذي توصّل إليه في تلك النقطة. فالأرجح أنه لم يكن قد اتّخذ قراره بعد بشأن ما سيفعله. أدرك الأردنيون أن العمل عليه لا يزال قيد التنفيذ.

مثلما كان همّام البلوي يُدرك، فإنه على بُعد آلاف الكيلومترات شرقاً من منزله، في ما يسمّى "أرض الجهاد"، كان يتم نوعٌ جديدٌ من الحروب، وكانت المعارك تدور في الجبال الموحشة للحدود الشمالية الغربية لباكستان. ومن ميزات الحرب أنها تخضع للتهديد شبه الثابت بحصول هجمات من السماء.

لسنوات الآن، ومع الإذعان السري لقوات الأمن الباكستانية، كانت وكالة الاستخبارات المركزية تطيِّر طائرات بدون طيّار فوق المنطقة. وبما أن هذه العملية العسكرية سرية وتتم من دون أي إعلانٍ للحرب، فقد وقعت مسؤولية القيام بها

على عاتق وكالة الاستخبارات المركزية وليس سلاح الجو الأميركي. وحتى إن بعض تلك الطائرات *المفترسة* كانت تُقلع من باكستان وتحطّ داخلها، في قاعدة بعيدة تابعة لسلاح الجو الباكستاني. وقد أنشأ الباكستانيون أيضاً ممراً جوياً يسمّى "الجادة"، لكي تتمكن الطائرات الحربية الأميركية من العبور من دون أي عراقيل.[8] كانت الطائرات *المفترسة* تحلّق عالياً لعدة ساعات متواصلة وهي تراقب الجبال على الحدود الأفغانية، ثم تُطلق صاروخ هيلفاير من وقت إلى آخر فتقتل مقاتلاً. وفي أغلب الأحيان، تقتل بعض المتفرِّجين أيضاً. ثم ظهر إصدارٌ محدَّثٌ *للمفترسة* يستطيع إطلاق قذائف بالإضافة إلى الصواريخ.

تكثّفت حرب الطائرات بدون طيّار هذه منذ يوليو 2008. وأصبحت وكالة الاستخبارات المركزية تُصيب أهدافها بدقة أكبر، وازدادت وتيرة إطلاقها للنيران كثيراً. فقد سمح الرئيس بوش لوكالة الاستخبارات المركزية بأن تضرِب قبل تحذير باكستان. كان الأسلوب الجديد يخرق السيادة الباكستانية، لكن الاستخبارات برَّرته بأن أظهَرت أن بعض أعضاء وكالة التجسّس الخارجي والداخلي الباكستبانية المشتركة، والمعروفة بوكالة الاستخبارات الباكستانية (ISI)، كانوا يساعدون المقاتلين. فقد كان أولئك الضباط في وكالة الاستخبارات الباكستانية يساعدون المقاتلين على عبور الحدود لمهاجمة الجنود الأميركيين في أفغانستان. كانت هناك أيضاً أدلة على أن حركة طالبان في باكستان تسعى إلى شنّ هجمات في الخارج؛ بما في ذلك في الولايات المتحدة، أو تشجِّع على القيام بذلك. وأعطى هذا الأمر الولايات المتحدة الأسباب القانونية لتوسيع هجمات الطائرات بدون طيّار؛ ليس ضد تنظيم القاعدة فقط، بل ضد حركة طالبان في باكستان أيضاً. بما أنهما أصبحا الآن يشكّلان تهديداً رسمياً للولايات المتحدة. فإذا كان أي شخص يشكّل خطراً حقيقياً، فإن القانون الأميركي يجيز للرئيس مهاجمته استباقياً، ومن دون حتى إعلان الحرب. وقد أمر بوش القوات الخاصة بأن تشنّ غارات عبر الحدود ضد معسكرات التدريب.

عندما تولّى أوباما منصبه، حصل توقف مؤقت، لكن الرئيس الجديد أثبت بسرعة أنه أكثر حرصاً من بوش بكثير على هجمات الطائرات بدون طيّار. ربما يكون قد عارَض التعذيب والإيهام بالغرق والترحيل، ولكنه لم يعترض على ما كان في الواقع برنامج اغتيالات. وكان هذا واضحاً من الإحصائيات. فمن العام 2004 وحتى العام 2007، جرت فقط عشر غارات علنية بطائرات من دون طيّار في باكستان. ووفقاً لتقديرات مؤسسة أميركا الجديدة- وهي لجنة دراسات في واشنطن- فقد قتلت تلك الهجمات ما بين 95 و107 مدنيين، وما بين 43 و76 مقاتلاً. وفي العام 2008، حصلت ست غارات بحلول شهر يوليو. ثم بعد قرار بوش بالتصعيد، حصلت ثلاثون غارة أخرى بنهاية السنة. وقد قتلت الغارات ما بين 157 و265 مقاتلاً، وما بين 23 و28 مدنياً. وفي العام 2009، حصلت غارتان في أوائل يناير، تلاهما توقف مؤقت إلى أن تم تنصيب أوباما. ثم، في فبراير 2009، أعلن أحد كبار قادة حركة طالبان في الحدود الشمالية الغربية، بيت الله محسود، انطلاق عمل شورى اتحاد المجاهدين، وهو مجلس موحَّد للمقاتلين، لديه ثلاثة أعداء مشتركون: الدولة الباكستانية، والولايات المتحدة، والحكومة الأفغانية. كان محسود القائدَ المزعومَ خلف مؤامرة برشلونة، وقد اتُهم أيضاً باغتيال السياسية الباكستانية بينظير بوتو في ديسمبر 2007. كان محسود يسعى من وراء هذا الحلف إلى إنهاء المشاحنات بين المقاتلين. وكان هذا الحلف بمثابة هدية للولايات المتحدة؛ لأنه زوَّدها بأساس قانوني واضح لمهاجمة شبكته. وفي نهاية السنة، حصل ما مجموعه 52 غارة في باكستان. وكان مجموع عدد القتلى: 241 إلى 508 مقاتلين و66 إلى 80 مدنياً.[9]

بينما كان محسود مشغولاً بعقد التحالفات، كان الضباط الأردنيون من دائرة المخابرات العامة يناقشون مع صلات وصلهم في وكالة الاستخبارات المركزية خطةً لإرسال مُخبِر جديد، العميل بانزر، إلى باكستان. وكانت الفكرة أن همّام

سيتابع حياته كجهاديّ سريّ، بينما يرسل تقارير إلى دائرة المخابرات العامة؛ بتعبير آخر، سيصبح عميلاً مزدوجاً.

لن تكون هذه المهمة سهلةً. فقادة شبكات التجسّس الخبراء يعرفون أن النجاح في تشغيل "عميل مزدوج" كان أحد أصعب الأمور التي يستطيع أي ضابط استخبارات القيام به. فالخيانة سيف ذو حدّين. ومثلما اكتشف KGB عند تشغيل كيم فيلبي، كان من الصعب اكتشاف مَن يكذب على الآخر حقاً. فبعدما يترسّخ الخوف من الخيانة- مثلما جرى عندما كان جايمس أنغلتون رئيس قسم مكافحة التجسّس في وكالة الاستخبارات المركزية من العام 1954 إلى العام 1975- يمكن أن تصبح العمليات مشلولة وعديمة الفائدة. ومثلما نصحت وكالة الاستخبارات المركزية موظفيها في العام 1963، إن "تشغيل عميل مزدوج هو أحد نشاطات مكافحة التجسّس الأكثر تطلّباً وتعقيداً التي يمكن أن يقوم بها أي جهاز استخبارات. حتى إن توجيه عميل مزدوج واحد أمر شائك ومستهلك للوقت، ويجب محاولة القيام به فقط في جهازٍ يملك كفاءةً وتمرّساً عاليين".[10]

لمعالجة عمليات كهذه، اعتمدت وكالة الاستخبارات المركزية سلسلةً من الإجراءات، ليس آخرها إشراف موظفي قسم مكافحة التجسّس فيها على حالة عميل مزدوج. وقد وُضعت قواعد كهذه في العام 1963، عندما واجهَت وكالةِ الاستخبارات المركزية أخطر خصم لها وأكثرهم احترافيةً؛ KGB. وعندما واجهَت تنظيم القاعدة وكل شركائه، تخلّت وكالة الاستخبارات المركزية عن حذرها، وفشلت في تقدير تهديد مكافحة التجسّس الذي يشكّله تنظيم القاعدة.

اتّخذ التطرّف بين السنة أشكالاً عديدةً من بينها تنظيم القاعدة، وكانت لدى جميعها خبرة طويلة في التعاطي مع أجهزة الاستخبارات. وضمن صفوف الناشئين من المقاتلين الإسلاميين- وهم المجنَّدون حديثو العهد المُعدّون لارتداء سترات العمليات الانتحارية مثلاً- ورغم كثرة ارتيابهم من وجود جواسيس بينهم، إلا أن معظمهم كان جاهلاً بأمور التجسّس. وكان العديد منهم "نظيف الكفّ"، بمعنى

أنه لا توجد معلومات استخباراتية عنهم؛ وبالتالي يملكون معرفة مباشرة سطحية جداً عن أجهزة الاستخبارات. لكن المتمرِّسين الخبراء كانوا مختلفين؛ وقد تم تعريف حياتهم النضالية من خلال وقوفهم ضد الوكالات المختلفة لأمن الدولة، والتي تواصلوا معها بشكل مباشر في أحيان كثيرة. ومعظم ما يُنسَب إلى الفلسفة الجهادية تم تصوّره في غرف التعذيب والزنازين تحت الأرض للبوليس السري في الشرق الأوسط. وقد تطوَّرت الأساليب العنيفة للسلفيين من تلك الخبرات. كما جرى تطوير خلايا إرهابية سرية كأسلحة لمقاوَمة سلطة الدولة السرية هذه في المجتمعات حيث كانت المعارضة السياسية العلنية أمراً ممنوعاً. و لم تكن العلاقة مع قائد شبكة التجسّس قمعية فحسب. ففي أوقات مختلفة، كانت الدولة تدعم الجماعات المقاتلة أو تتسامح معها على الأقل. وبسبب الطبيعة العنيفة لتلك الجماعات، كان يجب إبقاء التواصل مع الدولة سرياً، لذا تولاه رجال الاستخبارات دائماً.

ورغم أن أجهزة الاستخبارات قد تجد صعوبة في اختراق شبكات الإسلاميين، إلا أن السبب لم يكن عدم وجود اتصال معها أو عدم إمكانية الوصول إليها. فقبل أن تتوجَّه إلى الجبال، برزت تلك الجماعات المتطرّفة من صراع أوسع كان منذ بداياته تحت رقابة أجهزة الاستخبارات وتشجيعها، وفي أحيان أخرى تحت إلهامها وقمعها. إن قصة مواجهة الغرب لتنظيم القاعدة قصةُ مواجهة متواصلة تقريباً مع الوكالات السرية. وهذا لم يحدث في الشرق الأوسط فقط. فأي مواطن أميركي أو أوروبي عادي قد لا يصادف MI5 أو مكتب التحقيقات الفدرالي أبداً. لكنْ يمكن أن يصادفهما مقاتلٌ إسلاميٌّ عندما يتم توقيفه على الحدود، أو يُدعى إلى السفارة لطرح "بضعة أسئلة" عليه، أو عندما يُطرَق بابه في الصباح الباكر. كل مَن يحارب على الخط الأمامي سيلتقي عدوه في أغلب الأحيان.

لكن إذا كانت لديهم بعض الخبرة مع قادة شبكات التجسّس، فهل كان المقاتلون يملكون مهارة كبيرة في تشغيل الجواسيس بأنفسهم؟ بالتأكيد، إن قلّة كانوا يعرفون كيفية فعل ذلك. فالمتطوِّعون في تنظيم القاعدة كان يُتوقَّع منهم بالطبع أن يتصرفوا قليلاً مثل الجواسيس، على الأقل عندما عملوا في الغرب. وعندما أقسموا على البيعة، أصبحوا جزءاً من جمعية سرية؛ وبالتالي أصبحوا يحتاجون إلى التخفي مثلما يفعل العميل السري. وأثناء التحضير للهجوم، يحتاج الجهادي إلى أن ينسجم مع المجتمع العادي، أو على الأقل أن يدبِّر أموره بما يكفي ليتجنّب لفت الانتباه. ومثلما شرح ابن الشيخ الليبي لناصري في أفغانستان، قد يضطرون أيضاً إلى تجميع معلومات مثلما يفعل الجواسيس:

> يجب أن نحارب الصهاينة بفعالية... نحتاج إلى إخوة يستطيعون العيش بينهم ومراقبتهم. نحتاج إلى خرائط تصميم لنواديهم ومعابدهم ومصارفهم وقنصلياتهم، وإلى صور فوتوغرافية عنها... لا يمكننا أن نرسل أي شخص لتنفيذ هذا العمل... نحتاج إلى أخ يستطيع مقاومة كل الإغراءات، ويبقى نقياً في نفسه بينما يعيش بين الكفّار. نحتاج إلى شخص لديه صبر وعزيمة غير محدودين.[13]

بصرف النظر عن الحاجة إلى الأمن التشغيلي، برهن تنظيم القاعدة باكراً عن إدراكه الحاجة إلى مكافحة جيدة للتجسّس. فمنذ أواخر التسعينيات و"دليل الجهاد" المتداول بشكل واسع يحذِّر من الجواسيس الذين تفضّلهم الولايات المتحدة. ويذكر القسم الأول ما يلي:

> أنواع العملاء الذين تفضّلهم وكالة الاستخبارات الأميركية:
>
> 1. المسؤولون الأجانب المحبطون من سياسات بلدانهم ويتطلّعون نحو الولايات المتحدة لإرشادهم وتوجيههم.
> 2. يُعتبر المنظِّر (الذي يقيم في بلده ولكنه يعارض حكومته) صيداً ثميناً ومرشّحاً جيداً لوكالة الاستخبارات الأميركية.

3. المسؤولون الذين يحيون حياةً مسرِفةً ولا يستطيعون الاستمرار فيها بأجورهم العادية، أو أولئك الذين لديهم ضعف تجاه النساء، أو المدمنون على الشراب. العميل الذي يمكن شراؤه باستخدام الوسائل المذكورة آنفاً يُعدُّ هدفاً سهلاً، لكن العميل الذي يعتبر أن ما يفعله قضيةٌ نبيلةٌ من الصعب أن تجنِّده استخبارات العدو.
4. لهذا السبب، يُعتبر الطلاب والجنود في بلدان العالم الثالث أهدافاً قيّمةً. فالجنود هم العناصر المهيمنة على تلك البلدان والمتحكمة بها.[14]

ويذكر المستند نفسه أهداف تنظيم القاعدة لتجنيد جواسيس خاصين بهم:

1. المهرِّبون
2. الذين يسعون إلى الحصول على لجوء سياسي
3. المُغامِرون
4. العمال في المقاهي والمطاعم والفنادق
5. الأشخاص الذين يكونون في حالة عوز
6. موظفو الحدود والمطارات والموانئ البحرية

لكنه يحذِّر مما يلي: "تجنيد العملاء أخطرُ مهمة يستطيع أخٌ مجنَّدٌ تنفيذها. وبسبب هذه المهمة الخطيرة، قد يُقتَل الأخ أو يُسجَن. لذا، يجب تنفيذ مهمة التجنيد من قِبل أنواع خاصة من الأعضاء".[15]

هناك دراسة رسمية أكثر لتنظيم القاعدة عن الأساليب الاستخباراتية كتبها في أكتوبر 2006 شخصٌ يصفه باحثو مكافحة الإرهاب في الأكاديمية العسكرية الأميركية، وست بوينت، بقائد شبكة تجسّس تنظيم القاعدة.[16] ففي كتيِّبه الممتد على 152 صفحة، "أسطورة الوهم"، يُظهِر محمد خليل الحكايمة بوضوح شراهته لقراءة كل المواد المتاحة للعموم عن نقاط الضعف في الاستخبارات البشرية الأميركية. ويشرح سبب مواجهة مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة

الاستخبارات المركزية صعوبةً في إيجاد عملاء موثوقين؛ أي النقص في عدد المترجِمين ورجال الاستخبارات العرب في الوكالتين، وكيف أن محترفي الاستخبارات الأكبر سناً كانوا يُبعَدون من قبل ضباط أصغر سناً وأكثر أيديولوجيةً، وكيف أن الإفراط في الاعتماد على جهاز كشف الكذب وكذلك التدابير الأمنية المُفرطة قد أعاقت عمليات التجنيد.

لكن الحكايمة فشِل في توقّع الحرب القادمة بالطائرات بدون طيّار. وحذّر من أن أكبر تهديد استخباراتيّ لتنظيم القاعدة كان اختراق الجواسيس لصفوفه، وليس عبر التكنولوجيا. أراد أن يجهِّز تنظيم القاعدة دفاعاته. فوفقاً له، كان الجواسيس الغربيون في الأيام الخوالي يأتون متنكّرين "كرجال أعمال أو صحافيين أو رجال دين" لكن الجواسيس الجدد، بعد كل الدروس المستفادة من هجمات 11 سبتمبر، سوف "يقلّدون بدقة كبيرة إجراءات جماعات الجهاديين الإسلاميين وتدابيرهم". كانت لعبة كبرى (هذه كلماتي) جديدة، يبحث فيها "الضباط اليافعون عن المغامرة والإثارة في حياتهم، فيرتدون الأزياء الإسلامية ويمارسون شعائر الإسلام إذا لزم الأمر لحماية تغطيتهم، عبر الذوبان في المجتمعات العربية والإسلامية".[17]

بعد ثلاث سنوات من كتابة الحكايمة لمقاله، لم تكن هناك أي دلالة على نجاح أي اختراق للعملاء الغربيين. حتى إن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن تقترب من تحقيق ذلك. فقد تملّص بن لادن ونائبه أيمن الظواهري من الوقوع في الأسر، وبقيت جبال باكستان ومعظم أنحاء الصومال وأجزاء من اليمن تشكّل ملاذاً للإسلاميين. ومع ذلك، بدأ تنظيم القاعدة يفقد زخمه. ولم يكن السبب هو القبض على بعض قادته التشغيليين الرئيسين مثل خالد شيخ محمد (المهندس المشتبه به بإعداد هجمات 11 سبتمبر) وسجنهم فحسب، بل لأن التنظيم يُظهِر رعونته السياسية. فقد استترف دعمه الشعبي بسبب ما اعتبره العديد من المسلمين المتطرّفين تركيزاً شديداً على "الهجمات الاستشهادية" التي كان مسلمون آخرون– بالأخص في العراق وباكستان– ضحاياها المعتادين.

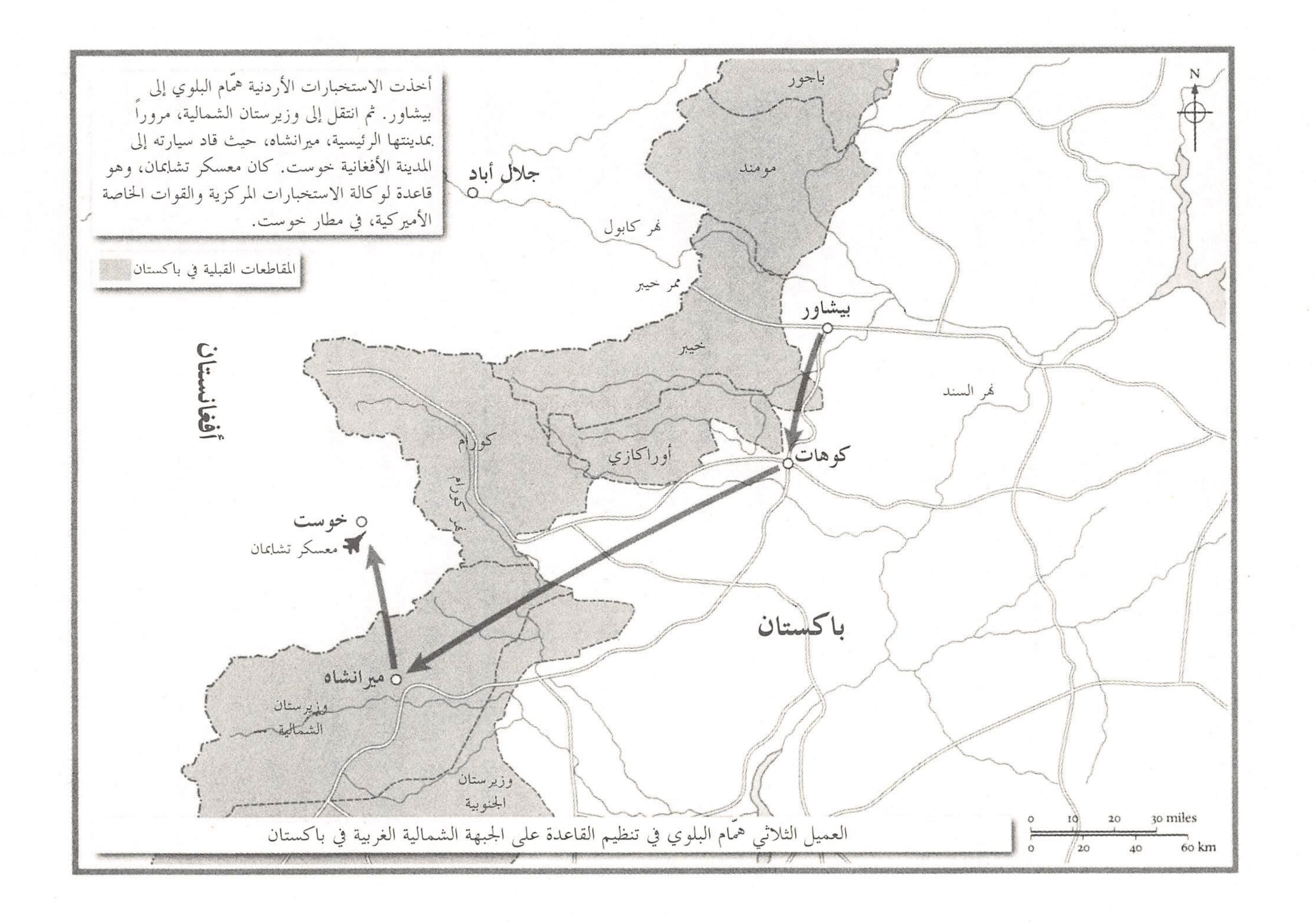
أدرك الحكايمة ما كان يجري، وأن أكبر خطر على تنظيم القاعدة كان التنظيم نفسه. ففي مقال آخر، "نحو استراتيجية جديدة في مقاومة المحتل"، شجَّع على الإصغاء للرأي العام، وانتقَد الهجمات الجماعية التي قتلت مدنيين مسلمين.

لكن سفك الدماء لم يُرعب كل المفكّرين الجهاديين. بل استمتع به بعض الناشطين أمثال همّام. وأحد مُثُله العليا كان زميله الأردني أبا مصعب الزرقاوي، الذي قاد تنظيم القاعدة في العراق في موجة قاتلة من أخذ الرهائن، وتصوير قطع رؤوسهم، وتفجير سيارات مفخخة عشوائياً. في العام 2005، شنّ مؤيدو الزرقاوي هجوماً انتحارياً ثلاثياً على فنادق فاخرة في عمّان أدّى إلى قتل ستين شخصاً. وقد قُتل هو نفسه بعد سنة في غارة للقوات الأميركية استهدَفته شخصياً.

مباشرة قبل اعتقال همّام، كان يحلم بالزرقاوي كثيراً، حيث يراه جالساً في منزله فيسأله: "ألم تستشهد؟"، فيُجيبه الزرقاوي: "لقد قُتلت، لكنني حيّ مثلما ترى". وعلى حدّ قول همّام: "كان وجهه كالبدر، وكان مشغولاً كما لو أنه يُعدّ لعملية. تمنّيتُ لو يمكنني أخذه إلى مكان آمن، ونقله في سيارتي، كما تمنّيتُ لو أننا نُقصَف معاً لكي نستشهد معاً".[18]

الحكايمة، مروّج الدعاية لتنظيم القاعدة، توفي الآن أيضاً. ففي العام 2008، عاد من مخبأ في إيران لينضم إلى إخوته على الجبهة في شمالي غربي باكستان. وكانت الولايات المتحدة تعرض مليون دولار كجائزة لمن يقتله أو يقبض عليه، لكنه قُتل في نوفمبر 2008 في غارة قامت بها طائرة بدون طيّار في شمالي وزيرستان. كانت التكنولوجيا تلحق بالركب.

بعد شهرين من اعتقاله في الأردن، استقلّ همّام طائرةً إلى باكستان، وبدأ مهمته التجسّسية. وقد أخبَر عائلته (ما عدا أخاه الأصغر) أنه مسافر إلى تركيا ليخضع لبعض الامتحانات. يمكنه أن يسترخي خلال الرحلة التي تدوم لثماني ساعات، عبر دبي، ويفكّر بالأحداث الصاخبة التي جرت له في الأسابيع القليلة الماضية.



العميل الثلاثي همّام البلوي في تنظيم القاعدة على الجبهة الشمالية الغربية في باكستان

عندما عاد من الاستجواب، بدا لأفراد عائلته رجلاً هادئاً ومحطماً. وسأله والده: "هل ضربوك؟". فأجابه همّام: "لا، لقد أذلّوني".[19]

في الليل، بدأ همّام يخرج خلسةً ليلتقي شخصاً عرفه باسم أبي زيد، وهو مشغِّله الجديد في دائرة المخابرات العامة. الاسم الحقيقي لأبي زيد هو الشريف علي بن زيد، ولم يكن ضابط استخبارات عادياً. ونظراً إلى كونه متدرِّباً سابقاً لدى السيناتور الأميركي جون كيري ومتخرجاً من جامعة بوسطن، فقد كان بن زيد فصيحاً بالإنكليزية الغربية. كما أصبح صديقاً لضابط في وكالة الاستخبارات المركزية نُقل حديثاً إلى عمّان يدعى دارن لابونتي، والذي كان قد خدم كحارس حدود وعمِل لاحقاً في مكتب التحقيقات الفدرالي. تزوَّج الاثنان في تلك السنة، وأصبحت زوجتاهما- فداء ورايتشل- صديقتين. بالنسبة إلى وكالة الاستخبارات المركزية، بدا بن زيد كأحد أفضل الضباط الأردنيين، وكانوا يطلبون مشورته باستمرار بصفته أحد ضباط الارتباط الموثوقين مع دائرة المخابرات العامة. لكنْ هل كان الرجل المناسب لتشغيل همّام؟

بالنسبة إلى الفلسطيني النحيل والزاهد والمُحافظ، لا بدّ أن ضابط الاستخبارات بدا نقيضاً له. فقد كان بن زيد ثرياً بديناً يقودُ سيارة رُباعية الدفع باهظة الثمن. وخلال الأيام التي تلت إطلاق سراح همّام، أخذه بن زيد إلى مطاعم فاخرة لكي يتسامرا. وكانت قيمة الفاتورة في كل مرة تزيد عن 70 دولاراً؛ وهذا مبلغ كبير في عمّان. أخذ همّام إلى مجمَّع سايفواي الجذاب، واشترى له بقالة وصلت كلفتها إلى 400 دولار. هل أغراه هذا النمط الباذخ من الحياة في حال تعاوَن معهم؟ أم كان همّام يكبت شعوره بالاشمئزاز؟

خلال دردشاتهما، لخّص بن زيد فوائد أن يكون المرء جاسوساً. فإذا ذهب همّام إلى "أرض الجهاد" وساعدهم في القبض على هدف رئيس في تنظيم القاعدة أو قتله، ستكون مكافأته ضخمة. "حاولوا إغرائي بالمال، وعرضوا عليّ مبالغ بملايين

الدولارات حسب قيمة الرجل الذي يجري استهدافه؛ بالأخص قادة قاعدة الجهاد في أرض خُرسان... و لم تكن تلك مجرد وعود فارغة".[20]

رغم أنه من الصعب معرفة ما شَعَر به همّام حقاً، إلا أنه تكلّم باستخفاف لاحقاً عن مشغِّله في دائرة المخابرات العامة، زاعماً أنه "كان أحمق". وقد اقترح عليه بن زيد إرساله في مهمة إلى المكان نفسه الذي لطالما حلم همّام بالذهاب إليه، ولو لدوافع مختلفة. "الأمر المدهش والذي بالكاد أستطيع تصديقه هو أنني كنتُ أحاول أن أجاهد في سبيل الله لكنني لم أنجح في ذلك. ثم أتى ذلك الأبله واقترح إرسالي إلى ميادين الجهاد. الحمد لله على كل شيء... إنه حلم وتحقّق!".[21]

لذا، في أحد أيام مارس، نزل همّام سلالم الطائرة في المدينة الحدودية بيشاور. كان يدخل ما أصبح إحدى أكبر البُقع الساخنة في العالم للمكائد والتجسّس. ونظراً إلى كونه عربياً، سيصبح لافتاً للانتباه. فقد كان البوليس السري المحلي يراقب الأجانب الذين كانوا يصلون بأعداد كبيرة ليتدرَّبوا على الجهاد. وكل شيء كان يفعله أولئك المقاتلون العرب كان يُعتبر سبباً للمتاعب لباكستان (ففي حين أن وكالة الاستخبارات الباكستانية- بحسب رأي وكالة الاستخبارات المركزية- وفَّرت دعماً ملموساً لحركة طالبان الأفغانية، إلا أن المقاتلين الأجانب المرتبطين بتنظيم القاعدة كانوا أعداء لدودين لدولة باكستان). لكنْ بما أنه طبيب مدرَّب، كان همّام يملك عذراً جيداً لتواجده في تلك المناطق. وقد زوَّدته دائرة المخابرات العامة الأردنية بالمال، ودفعت ثمن تذكرته، وساعدته في تزوير المستندات التي احتاج إليها ليحصل على التأشيرة الباكستانية.[22]

الأرجح أن همّام عَبَر البلدة، مثلما يفعل معظم الأشخاص، مستقلاً ريكاشة (مركبة خفيفة يجرّها رجلٌ) ثلاثية العجلات ومزوَّدة بمحرّك. كانت وجهته سوق كابول المزدحمة، حيث تنطلق الحافلات إلى المناطق القَبَلية عند الحدود. كان يُفترَض أن تكون تلك المناطق مُقفلة أمام الأجانب أمثاله، لكنه استقلّ حافلةً إلى كوهات، وهي بلدة تقع عند مدخل المناطق القَبَلية، ثم تابَع رحلته إلى شمالي

وزيرستان، وهي المحمية الرئيسة لحركة طالبان وتنظيم القاعدة، ثم اختفى. هل اعتُقل؟ أو قُتل؟ أو كان خائفاً جداً لينفّذ مهمته؟ لم يعرف مشغّله، علي بن زيد، ودارن لابونتي من وكالة الاستخبارات المركزية، شيئاً عنه من مارس وحتى أغسطس. لن يكون أول عميل يُرسَل إلى المنطقة الحدودية فيختفي من دون أي أثر.

في ذلك الوقت، كان شخص غريب مثل همّام وصل إلى المنطقة القَبَلية في خطر مميت. فقد كان السكان المحليون مهووسين بحمى الجاسوسية. وكانت الطائرات بدون طيّار الأميركية تحلّق في الأجواء طوال الليل والنهار، وتصطاد أهدافاً جديدةً بين المقاتلين. وقد قيل إن الطائرات تصطاد جماعياً، حيث تراقب هدفاً محتملاً من عدة زوايا وتبقى مركّزة عليه من الجو. كان هذا النوع من المراقبة الإجمالية يُسمّى في الجيش الأميركي "العين التي لا ترفّ".[23] كانت الطائرات بدون طيّار غير مرئية عادة، فتختفي في السماء الرمادية. لكنْ يستطيع الأشخاص على الأرض رؤيتها بشكل خاطف أحياناً عندما تُجبرها السُحُب على الطيران على علو منخفض أكثر من المعتاد، ويمكنهم سماع هدير مراوحها في أغلب الأحيان. يمكن أن يكون الصوت مروِّعاً، خاصة للأشخاص الذين يُظَنّ أنهم من المقاتلين.

لا يفهم أحد من السكان المحليين كيف تعثر الطائرات بدون طيّار على أهدافها، فهي دقيقة جداً في ذلك. وخلافاً لما يقوله المسؤولون الأميركيون أحياناً، قتلت تلك الطائرات الكثير من الأبرياء. على العموم، كان أولئك أشخاصاً يقفون على مسافة قريبة من هدف الصاروخ. وكلما أصبحت الطائرات بدون طيّار دقيقة أكثر، أصبح صيد الجواسيس يائساً أكثر. وقد عرضت وكالة الاستخبارات المركزية مكافآت مالية كبيرة لفروات رؤوس أهم المقاتلين الذين بدأ أتباعهم الأمينين يبحثون بدورهم عن مُخبرين مشبوهين، ويعذّبونهم لاستخراج "اعترافات" منهم، ثم يعدمونهم علناً كتحذير (ويسجّلون ذلك أحياناً في فيديوهات شنيعة). كانت تصطاد أيضاً منارات توجيه إلكترونية صغيرة يُعتقَد أن المُخبرين قذفوها فوق جدران مساكن المقاتلين والتي يُفترّض أنها توجّه الطائرات بدون طيّار إلى أهدافها.

كيف حسَّنت وكالة الاستخبارات المركزية استهدافاتها؟ يُقال إنه تم نشر ما يصل إلى 200 ضابط في باكستان، فهل كان ذلك نتيجة تشغيل جواسيس في المنطقة؟ وفقاً لأحد الأشخاص الضالعين في المسألة، كانت وكالة الاستخبارات المركزية تملك بعض العملاء، ولكنها لم تكن تستطيع فعل الكثير في المناطق القَبَلية من دون الاصطدام بوكالة الاستخبارات الباكستانية. ومعظم ما تم تمريره على أنه "استخبارات بشرية" كان مجرد معلومات صغيرة وغير دقيقة ممرّرة من وكالة الاستخبارات الباكستانية. وتقدَّم بعض المُخبرين فعلاً لتقديم معلومات محدَّدة، ولكن بما أنهم كانوا يعملون في مناطق نائية جداً، كان من الصعب التأكد من معلوماتهم من خلال شخص آخر. بالمقابل، كانت الطرائق التقنية التي تستخدمها وكالة الاستخبارات المركزية تصبح أفضل أكثر فأكثر؛ حيث يمكن مثلاً التنصّت على الهواتف الجوّالة وتعقّبها. كان المقاتلون يعرفون هذا، ولكنهم استمروا باستخدامها إيماناً منهم بالقضاء والقدر. كما يمكن مراقبة المركبات والمجمَّعات من فوق، لكن ما كان مهماً حقاً هو التواجد الأميركي فوق الحدود في أفغانستان. فلأن عدداً كبيراً من المقاتلين في ذلك البلد كانوا ينشطون في باكستان أيضاً، كانوا قادرين على التزويد بمعلومات مفصّلة عن المناطق القَبَلية عند القبض عليهم. استلزم ذلك وقتاً طويلاً جداً، لكن وكالة الاستخبارات المركزية تمكّنت تدريجياً من بناء قاعدة بيانات ضخمة عمَّن يتواجد هناك، وعن طبيعة الحياة العادية على الحدود (بشكل مطابق للعمل المضني الذي قام به العملاء السياسيون البريطانيون أيام الإمبراطورية، حين سجَّلوا كل شيء في مجلدات ضخمة). وقد وصلت الأمور إلى درجة أن وكالة الاستخبارات المركزية أصبحت تعرف كل المجمَّعات الرئيسة تقريباً التي يعيش فيها المقاتلون.

وكانت الحرب قد بدأت أيضاً تصبح عديمة الرحمة أكثر؛ مثلما حصل في أبريل، عندما قتلت وكالة الاستخبارات المركزية مقاتلاً في صباح أحد الأيام، ثم استهدفت أولئك الذين حضروا جنازته بعد الظهر. كان الأهداف عبارة عن كبار أتباع بيت الله محسود. وفي أواخر شهر أغسطس، تمكّنت الولايات المتحدة أخيراً

من قتل محسود. فقد كان على سطح مبنى مع زوجته عندما أصابهما صاروخٌ. وتعبيراً عن دقتها، زعمت مصادر في وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً أنها استخدمت نوعاً من الذخائر اختارته بعناية فائقة، حيث أصابت السطح وقتلت "محسود" وزوجته من دون هدم المبنى.[24]

مثلما اختفى همّام فجأة، عاود الظهور فجأة أيضاً. وقال البعض إنه كان يعيش مع بيت الله محسود كطبيبه الشخصي إلى أن توفي القائد. لا أحد يعرف حقاً أين كان طوال ذلك الوقت، لكن ما رآه علي بن زيد في صندوق بريده الإلكتروني في صباح أحد الأيام جعله يشعر بالقشعريرة. فقد تلقى رسالةً مرفَقاً بها مقطع فيديو لا يُظهر أن "همّام" كان حيّاً فحسب، بل أنه بقي وفياً لمهمته أيضاً، وأنه تمكّن من اختراق الدائرة الداخلية لتنظيم القاعدة. كان الفيديو يُظهر شخصاً قريباً من أسامة بن لادن يدعى عطية عبد الرحمن، وهو محارب ليبي قديم شارك في معركة تورا بورا في العام 2001، عندما نجا زعيم تنظيم القاعدة من حصار فرضته القوات الخاصة الأميركية وحلفاؤها المحليون. ووفقاً لمصادر استخباراتية أجرى جوبي واريك– وهو صحافي في واشنطن بوست كَتَب كتاباً عن القضية– مقابلة معها، كان يمكن رؤية عبد الرحمن بجانب همّام.

عميلٌ أو خائنٌ، لم يعد همّام مجرد متدلٍ، بل محاولة بعيدة المنال للحصول على شخص داخل تنظيم القاعدة. لا شك في أنه دخل اللعبة الآن كلاعبٍ حقيقي. شكّل الخبر صدمةً لدائرة المخابرات العامة، فاستيقَظت وكالة الاستخبارات المركزية أيضاً. لقد تمكّن بن زيد وصديقه لابونتي من اصطياد سمكة ضخمة.

يتذكّر همّام قائلاً: "سقط الطُعم في المكان الصحيح، وجعلتهم الإثارة ينقلبون رأساً على عقب".[25] وسيزعم همّام أن اختفاءه الأولي كان مجرد حيلة. "الحقيقة هي أنني بعد التشاور مع المجاهدين، قَطَعتُ ارتباطاتي بالاستخبارات الأردنية لأربعة أشهر لكي تُكوى بنارها معتقدةً أنني هجرتها، حيث إنني إذا عدتُ إليها وقلتُ إن الظروف كانت صعبة، فستُصدِّق روايتي بسرعة. وهذا ما حصل".[26]

في سبتمبر 2009، أجرى همّام مقابلةً مع المجلة الإلكترونية لتنظيم القاعدة "طلائع جيش خُرسان". وقد تم تقديمه على أنه "الأخ أبو دجانة الخُرساني وكالعادة، تكلّم همّام بعاطفة قوية عن الجهاد:

قال شخصٌ ذات مرة: "هناك حبٌ يقتل". وأنا أرى حقيقة هذا فقط في حُبي للجهاد، لكون هذا الحب إما سيقتلك وأنت تشعر بالندم إذا اخترت البقاء بعيداً عن الجهاد، أو ستموت شهيداً في سبيل الله إذا اخترت الذهاب إلى الجهاد؛ والأمر متروك لكل شخص لكي يختار بين هذين المصيرَين.

قال همّام إنه شعَر أنه "مولود حديث" يعيش في الجبال. وكان "سعيداً مثل طفل بريء يلعب مع أصدقائه". لكنْ كان للمقاتلين الذين معه أصدقاء أعزّاء استشهدوا من قبل.

تعلّمتُ منهم أن الصمت أفصح من الكلام. فهذه جماعةٌ نصف أفرادها في الجنة ونصفها الآخر لا يزال على الأرض منتظراً دوره. أتساءل لماذا لا يكون أمامي عندما يذكرون إخوتهم الشهداء؟ إذا كان عليّ أن أذكر اسم شهيد أمامهم؛ أحد الشهداء الذين يعرفونهم، ستجد الدموع وقد تجمّدت في عيونهم مثل رذاذ المطر على زهرة.[28]

بدأ همّام يرسل تقارير دورية إلى الأردن بالبريد الإلكتروني. وكانت رسائله موجزة وغامضة عادة، ولكنها تعطي تفاصيل عن تأثيرات غارات الطائرات بدون طيّار في المنطقة الحدودية. حتى إنه اقترح هدفاً محدَّداً لغارة جوية أخرى. وقال لاحقاً إن كل ذلك كان خدعة: "أعطيتهم بعض الإحداثيات الخاطئة المفبركة لكي يسيل لعابهم أكثر فأكثر، إلى جانب بعض المعلومات عديمة القيمة أو غير الصحيحة. مثلاً، إذا كان لدى المجاهدين بعض الأعمال ليقوموا بها في مكان ما، كنتُ أبلّغ عن تواجدهم في مكان آخر، وبالتالي أوفّر الحماية لهم".[29]

إذا كان همّام وقتها قد انقلب حقاً حيث أصبح يعمل لصالح تنظيم القاعدة وخان دائرة المخابرات العامة، فقد كان يستخدم ما يوصف بحيل مكافحة التجسّس الكلاسيكية: أعني، إفشاء ما قال إنه كان *نتفاً* من "المعلومات الدقيقة التي تبدو مهمة، والتي كنا نعتقد أن العدو يعرفها من قبل على الأرجح".[30] وتذكّرنا خدعته بإرشادات وكالة الاستخبارات المركزية بشأن الأساليب السوفياتية: "لترسيخ الثقة بعميل مزدوج مهم أو تحسين الثقة به، كانوا مستعدين للتضحية ببعض المعلومات القيّمة قليلاً لتضليل جهاز استخبارات العدو من خلالها وتقبّل حسن نواياه".[31]

في أكتوبر، قدَّم همّام بعض الأخبار الخطيرة. فقد كان لديه مريض جديد ليس سوى أيمن الظواهري، نائب زعيم تنظيم القاعدة. ولكي يبرهن عن ذلك، زوَّد دائرة المخابرات العامة ببعض التفاصيل الطبية المحدَّدة التي لم تكن معروفة من قبل قطّ. وفجأة، ارتفعت مكانة همّام عدة مراتب؛ من كونه أردنياً له بعض الأهمية على الأرجح، إلى أحد أفضل العملاء على الأرض. أرادت وكالة الاستخبارات المركزية تولي قضيته. فمثل كورفبول، كان قد بدأ يصبح مصدراً فائق الأهمية تشغّله وكالة أخرى. وإذا كان لوكالة الاستخبارات المركزية أن تحصل على سيطرة مباشرة عليه، فهي ستحتاج إلى لقائه.

في هذه المرحلة، وحتى قبل حصول الاجتماع، تم إبلاغ البيت الأبيض بالمستجدات. كان ذلك دلالةً على مدى نُدرة هذه الحالة وأهميتها، ودلالةً إضافيةً على أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت لا تزال تبحث عن "رجلها القريب". وقال واريك: "في السنوات الثماني منذ بداية الحرب ضد تنظيم القاعدة، لم يتمكن أحدٌ من الوصول إلى هذه المسافة القريبة".[32]

أخبَر ليون بانيتا، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، الرئيس أوباما، أن "هناك دلالات على أننا قد نتمكن من الوصول إلى الظواهري... إذا كان بإمكاننا

الاجتماع به وإعطائه التكنولوجيا الصحيحة، فقد تتسنّى لنا فرصة ملاحقة الظواهري".[33]

شَعَر الأردنيون بالفخر. وقد كَتَب بن زيد لهمّام: "لقد رفعت لنا رؤوسنا! لقد رفعت لنا رؤوسنا أمام الأميركيين".[34]

***

في إرشاداتها للعام 1963، حذّرت وكالة الاستخبارات المركزية من مسألة وراثة عميل مزدوج من أحد الحلفاء:

> أحياناً، يتم تسليم عميل مزدوج من جهاز استخباراتي آخر... عند حصول هذا النوع من عمليات النقل، يجب على الجهاز الوارث أن ينقّب في الأصول الحقيقية للعميل ويحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن تاريخه السابق... وتماشياً مع الأهداف التوقّعية، إن أهم دلالة مضمَّنة في أصول أي عملية هي الانتماء الأصلي أو الرئيس إلى العميل، وما إذا كان قد تم إنشاؤه طوعاً أم لا، وطول مدته، وحدّته.[35]

تقول الإرشادات إن العملاء المزدوجين ينقسمون إلى ثلاث فئات: أولاً، "الفُجائي". ثانياً، "العميل المكتشَف والذي يُحوَّل إلى عميل مزدوج". وثالثاً، "عميل الاستفزاز". ينتمي همّام إلى الفئة الثانية. وتذكر الإرشادات أن "الجهاز الذي يكتشف عميلاً خصماً قد يعرض عليه العمل كعميل مزدوج. لكن موافقته، التي يتم الحصول عليها تحت ضغط علني أو ضمني، من غير المحتمل أن تترافق مع تبديل حقيقي بالولاء". يخاطر عميل كهذا بأن تُكتشَف ازدواجيته، وعندها "سيُعاد تحويله إلى عميل مزدوج" (ويُقال عندها أيضاً إنه أصبح عميلاً ثلاثياً).

في أوائل ديسمبر 2009، سافر علي بن زيد ودارِن لابونتي في ما كانا يأملان أن تكون رحلة قصيرة إلى الحدود الأفغانية للقاء عميلهما النجم. فبسبب أهمية العملية ومصاعب إدارتها، وافَق الأردنيون الآن على أن يتولى الأميركيون زمام الأمور.

كانت الوجهة معسكر تشابمان، وهو قاعدة لوكالة الاستخبارات المركزية والقوات الخاصة الأميركية بالقرب من مطار مدينة خوست، شرقي أفغانستان. كانت خوست مكاناً مثالياً للعمل الجاسوسيّ. فهي تقع مقابل محميات حركة طالبان في "الوكالات" الباكستانية الحدودية لشمالي وزيرستان وجنوبها. ويمكن إرسال العملاء عبر الحدود بسهولة لأن الباشتون المحليين لا يحتاجون إلى جوازات سفر، وبسبب الطبيعة الجغرافية أيضاً؛ فرغم أن خوست كانت في أفغانستان، إلا أن معابر الجبل الكبير تقع إلى الغرب، على الطريق إلى كابول. وكانت الممرات إلى باكستان منخفضة المستوى نسبياً وسهلة الاجتياز. كما كانت خوست أيضاً مكاناً رئيساً يأتي إليه سكان الحدود للتسوّق والتجارة. وهذا يعطي أي شخص في وزيرستان عذراً يمكن تصديقه ليقوم بزيارتها. وكانت العملة المستخدَمة في أسواق خوست هي الروبية الباكستانية وليس الأفغانية.

كان معسكر تشابمان نفسه، في أواخر العام 2009، في وسط عملية تجسّس ضخمة تطل على الحدود. وكان ما لا يقل عن خمس قواعد فرعية مختلفة قريبة تقع تحت سيطرة وكالة الاستخبارات المركزية، والتي كان الجيش يسمّيها OGA (اختصار Other Government Agency، وكالة حكومية أخرى).[36] وكانت القواعد تحتوي على مجموعة من معدات التنصّت لاعتراض سبيل أي نوع من الرسائل الإلكترونية التي قد يرسلها المقاتلون على الحدود. وكانت وظيفة القواعد أيضاً منع عبور المقاتلين أو مراقبة ذلك. لهذا السبب، أنشأت وكالة الاستخبارات المركزية جيشاً خاصاً بها، أسمته قوة حماية خوست، وهو إحدى الميليشيات العديدة في البلد التي لقّبتها فِرق مطاردة الإرهاب. وفقاً للتقارير الإعلامية، لم تحرس فِرق مطاردة الإرهاب الحدود فحسب، بل أرسلت رجالها عبر الحدود لشنّ غارات أيضاً.[37] هذا الأمر مبالغ فيه؛ وفقاً لضابطَين في قوة حماية خوست أجريتُ مقابلة معهما. لكنْ نظراً إلى اتصالاتها مع القبائل التي تنتشر عبر الحدود، كانت قوة حماية خوست بالتأكيد مصدراً هائلاً للشائعات والمعلومات الاستخباراتية الرديئة.

كان معسكر تشابمان تقنياً "محطة فرعية" لوكالة الاستخبارات المركزية، تابعة "لمحطة" كابول الرئيسة. وكان الشخص المسؤول عن كل نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية في المنطقة منذ أبريل في تلك السنة تقريباً أنثى تدعى جنيفر ماثيوز، وهي محلّلة سابقة في وحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية (والتي كانت تُعرَف بمحطة أليك). كانت ماهرة في المهمة الرئيسة؛ ألا وهي استهداف العدو. يُنسَب الفضل لماثيوز في تعقّب أبي زبيدة والقبض عليه؛ وهو قائد الأمور اللوجستية في تنظيم القاعدة الذي التقاه ناصري. ومنذ ذلك الوقت وهي تعمل بشكل مكثّف على مطاردة رجال تنظيم القاعدة، وقد عُيِّنت في لندن كمسؤولة الارتباط الرئيسة في مكافحة الإرهاب مع MI5. لكن ما كانت تفتقر له- مثلما سيكتشف لابونتي وبن زيد- كان الخبرة في ترتيب أو عقد اجتماع مع عميل سري. كانت تملك كل المهارات المطلوبة للعمل، ما عدا هذه النقطة المهمة جداً؛ فهي لم تكن قائدة شبكة تجسّس.

ازدادت نسبة الضغط أثناء التخطيط للاجتماع مع همّام. فقد تكون هذه الفرصة هي الوحيدة لعدة سنوات مقبلة لكي تتمكن وكالة الاستخبارات المركزية من قتل الرجل الثاني في تنظيم القاعدة. وفقاً لواريك، اقترح العميل، ذو الاسم الرمزي الآن وولف، أولاً عقد اجتماع في ميرانشاه، البلدة الرئيسة في شمالي وزيرستان، لكن "معقل حركة طالبان" لم يُعجب ضابط الاستخبارات الأردني. قيل لهمّام إنه من الخطير جداً عقد الاجتماع في ميرانشاه، وطُلب منه إيجاد عذر ليتسلّل عبر الحدود إلى خوست. ربما يمكنه القول إنه ذاهب لشراء تجهيزات طبية للظواهري؟ عادة، أي اجتماع تعقده وكالة الاستخبارات المركزية مع عميل لها يحضره مشغِّلٌ واحد أو مشغِّلان بالحد الأقصى، ويكون المكان سرياً؛ ربما على المقعد الخلفي لسيارة متحرّكة، ولا يطول الاجتماع كثيراً. لكنْ كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية الكثير لتُنجزه مع همّام. فقد احتاجت إلى اكتشاف ما يعرِفه، وما إذا كان يمكن الوثوق به. كما احتاجت إلى تدريبه وتجهيزه بأحدث التكنولوجيا. لهذا السبب، أرادت ماثيوز إحضار همّام إلى القاعدة، وقد جهَّزت

فريقاً أكبر من المعتاد للقائه. لم ترق الخطة للجندي السابق دارِن لابونتي مطلقاً؛ فهي تخالف كل تدريباته. لكن المركز الرئيس وافق عليها.

قال توماس بيكرينغ، السفير الأميركي السابق الذي شارك في ترؤس لجنة تحقيق في هجوم خوست: "لا نعرف ما إذا كان دارِن قد عبَّر عن قلقه بطريقة متماسكة". لكن بيكرينغ قال أيضاً إن الدليل الظرفي يوحي بأن ماثيوز لم تبالِ بتحذيرات مستشاريها الأمنيين بعدم استقبال همّام بهذا العدد الكبير من الأشخاص؛ وهو خرقٌ للعُرف القديم.[38]

كانت هناك تحذيرات أخرى. ففي أوائل ديسمبر، حذّر ضابط استخبارات أردني أحد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية في عمّان من قلقه أن "همّام" عميلٌ مزدوجٌ. لم يكترث الضابط للتحذير، ولم يمرِّره إلى المركز الرئيس أو الفريق.[39]

في الأيام الأخيرة قبل الاجتماع، زَعم همّام أثناء تواصله مع بن زيد أنه خائف من الذهاب، وقال إنه خائف من أن يرصده جواسيس حركة طالبان. فقد كانت قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية معروفة جيداً؛ حتى إن حراس البوابة يمكن أن يكونوا عملاء لحركة طالبان. وَعَد بن زيد "همّام" بأنه سيدخله بسرعة عبر البوابة، حيث لن يراه أحد. وسيُحضَر إلى وكالة الاستخبارات المركزية ومشغِّليه مباشرة؛ سيؤخَذ مباشرة إلى أعدائه.

كانت ذكرى مولد همّام الثانية والثلاثون في 25 ديسمبر. ومثلما يروي كواريك، أخبرت ماثيوز زملاءها أنه "يجب جعله يشعر أنه مرحَّبٌ به" بما أنهم سيطلبون منه فعل شيء خطير جداً. وقد طلبت تحضير قالب حلوى للاحتفال بذكرى مولده. وفي الأسابيع التي تلت، ستُسأل وكالة الاستخبارات المركزية عن سبب مخاطرتها إلى هذا الحد الكبير في القضية؛ علماً أن "همّام" كان شخصاً مجهولاً بالكامل. وقد شرحت وكالة الاستخبارات المركزية أن السبب هو إدراكها الحقيقة؛ لهذا السبب أراد الضباط لقاءه بشدة.

في الليلة التي سبقت وفاته، كان همّام يحاول أن يظهر واثقاً من نفسه، لدرجة أنه سجَّل ساعاتٍ من مقاطع الفيديو، وكَتَب آلاف الكلمات، وشرَح ما يخطِّط له، وكيفية تنفيذه ذلك، ووصف كل أحداث السنة الماضية. سواء أكان ذلك بدافع الدعاية أم لا، إلا أنه تبيَّن أن معظم ما رواه صحيح.

في بياناته، قال همّام إن الخطة الأصلية كانت تقضي بخداع بن زيد لكي يأتي إلى بيشاور، حيث سيُقبَض عليه أو يُقتَل:

> كان الهدف الأولي اعتقال [ابن] زيد أو قتله في بيشاور. وكان قد تم تحديد التاريخ، وجرى التخطيط لعملية اعتقاله؛ لكنه كان سيُقتَل في حال أبدى أي مقاومة تُذكر. لكنْ بسبب بعض الظروف الأمنية، قرَّرنا أن عملية كهذه قد تكون خطيرة جداً في هذا التوقيت بالذات.

لكنّ الأردنيين كانوا لا يزالون متحمسين لعقد الاجتماع، وتمكّن بن زيد من "إقناع فريق كامل لوكالة الاستخبارات المركزية مسؤول عن طائرات التجسّس بدون طيّار بالحضور... خطَّطنا لشيء، لكننا حصلنا على هدية أكبر، هدية من الله".[40]

تغيير الخطة أعطى "همّام"- على حد قوله- "فريسة قيّمة". وقد عنى ذلك أيضاً أن العملية لم تعد عملية اختطاف، بل كان عليه أن يموت. حاوَل أن يتكلم بالإنكليزية في أحد مقاطع الفيديو، لكن أفكاره بدت مشتّتة: "إن شاء الله، سنصل إليكم يا فريق وكالة الاستخبارات المركزية. إن شاء الله، سنقضي عليكم. لا تظنوا أنكم بأمان بمجرد الضغط على أحد الأزرار وقتل المجاهدين. إن شاء الله، سنأتي إليكم بطريقة لا تتوقعونها. انظروا، هذا لكم. هذه ليست ساعة، إنه مفجِّر، لكي أقتل أكبر قدر ممكن منكم، إن شاء الله".[41]

هل كان الأمر بدافع التبجّح؟ هل كان يريد تنفيذ هذه المهمة حقاً؟ وهل خطَّط حقاً ليخون بن زيد منذ البداية؟ هل كان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية

ضحايا عميلٍ "متدل"؛ ضحايا فخ نُصب منذ البداية، وقد وقع فيه الأردنيون ولابونتي؟ أو أن رؤيةً ضحايا غارات الطائرات بدون طيّار- مثلما خمّن البعض- هي التي غيّرت رأي همّام؟

في تمام الساعة 4:30 مساءً، كان يمكن رؤية سحابة من الغبار خلف سيارة تقترب مسرعةً بشكل جنوني من معسكر تشابمان على الطريق بجانب مطار خوست. سيكون أمر كهذا عادة فيه دلالة على وجود خطر. فقد كانت الحواجز منصوبة لإبطاء مركبات مماثلة، لكن الحواجز اليوم كانت تُرفع الواحد تلو الآخر، ولم تكن السيارة تتوقف قطّ. حتى إنه تم إبلاغ الحراس بتفادي النظر إلى المركبة.

كان أرغاوان، وهو أفغاني عمره 30 سنة وتثق به وكالة الاستخبارات المركزية، يقود سيارة همّام بعد أن أخذه من الحدود. لم يكن هناك شخص ثالث في السيارة، ولم يكن أرغاوان يعرف أي شيء عن خطط همّام. مع اقترابهما من المعسكر، بدأ همّام يرى شيئاً لم يتوقّعه قط. لقد كان يلقى ترحيباً مخصصاً للشخصيات المهمة جداً. وبعد عبور محيط القاعدة، شاهد مجموعةً من الأشخاص بانتظاره. كان معظمهم يرتدون سراويل كاكية اللون، وهو زيّ المُغامِرين المعاصرين. كان بإمكانه رؤية مشغِّله، بن زيد، وحوالي عشرة أشخاص آخرين. وعلى بُعد حوالي خمسين متراً، كان هناك رجلان يحملان بندقيتين معلّقتين على كتفيهما. إنهما من حرّاس وكالة الاستخبارات المركزية.

توقفت السيارة بجانب حارسَي الأمن مصدرة صريراً عالياً من الفرامل. وكانت خطة ماثيوز تقضي بتفتيش همّام بلطف. تقدَّم أحدهما ليفتح الباب، فألقى همّام نظرةً عليه، ثم جرّ نفسه إلى الجهة الأخرى للمركبة وخرج من الباب الآخر، حاملاً عكازاً لسبب مجهول. بدأ همّام يتمتم الشهادة: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". فوفقاً لأحد الأحاديث النبوية الشريفة، لقد قال الرسول (ص) إن مَن ينطق بشهادة لا إله إلا الله ككلماته الأخيرة قبل أن يموت سيدخل الجنة.[42]

حينها، علا الصراخ وُرفعت البنادق. كان من الواضح أن هناك خطأ ما. ضغط همّام على المفجِّر. ومثلما شرَح في الوصايا التي ترَكها وراءه، كان الهجوم "انتقاماً لقتل أبي مصعب الزرقاوي، ولقتل طائرات التجسّس بدون طيّار للعديد من إخوتنا في وزيرستان". وقد قال أيضاً: "هذا عصرٌ جديدٌ للمجاهدين، إن شاء الله، حيث سيستخدم المجاهدون وسائل استخباراتية ستنافس أو حتى تتفوّق على وسائل الأجهزة الأمنية التابعة لأقوى الدول، مثل الأردن وأميركا، بإذن الله. لذا، إن هذا كان السبب الأساسي".[43]

كانت الإجراءات التي اتّبعتها وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك اليوم غير منطقية. فقد مررتُ لسنوات عديدة خلال تغطيتي الحروب في العراق وأفغانستان على العشرات من تلك المنشآت العسكرية الأميركية، وخضعتُ لعمليات تفتيش لا تُعد ولا تُحصى، ورأيتُ كل أصناف الحواجز المبنية لحماية كل مَن في الداخل. لذا، بدا من غير المعقول أنه يُسمح لشخص بالدخول من دون إخضاعه حتى لأبسط أشكال التفتيش. كما أظهَر ذلك سوء فهم جوهرياً للثقافة العربية. نعم، قد يكون من قلة الاحترام تفتيش جسد أحد الأشخاص، ولكننا كنا في حالة حرب، وكان همّام حينها على أرض قاعدة أميركية من دون إمكانية للرجوع. وكان بإمكان رجل واحد إجراء تفتيش بسيط محترَم، وربما بن زيد نفسه الذي كان بإمكانه انتظار المركبة على مسافة بعيدة، وتفتيش همّام بشكل سريع وغير مباشر (من خلال عناق وديّ مثلاً، وهو أمر شائع بين الرجال في الشرق الأوسط) ثم السماح له بالمرور ولقاء الآخرين. إن نجاح همّام في عمليته لم يعكس فشلاً تجسّسياً فحسب، بل أيضاً غياباً كاملاً للمنطق السليم. كما أن فكرة قالب الحلوى للاحتفال بذكرى المولد تعبِّر عن سذاجة فجة بالكامل.

لم تبدُ الفكرة مجنونة في ذلك الوقت لجنيفر ماثيوز، رغم قلق البعض. ففي النهاية، متى كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية عميلٌ مفجِّرٌ من قبل؟ مطلقاً.

في الولايات المتحدة، كانت ماثيوز قد تركت زوجها غاري أندرسون يهتمّ بأولادهما الثلاثة. كانوا في السادسة والتاسعة والثانية عشرة من أعمارهم وقت الهجوم. وقد أصبح زوجها ساخطاً من إلقاء اللوم على زوجته الراحلة. وعندما تحدَّث علناً، أبلغ الواشنطن بوست أن "الانتحاري شخص شرير، لكن لم يكن أحد يستطيع رؤية ذلك بوضوح في ذلك الوقت. أعتقد أن الوكالة جهَّزت زوجتي لتكون رئيسة قاعدة خوست، ولكن ليس على أساس التحضير لهذا الشيء. لم يتم تفتيش ذلك الشاب".[44] وأكثر شيء أثار غضبه هو غياب التحضير، إلى جانب التفاؤل المفرط: "عندما تنظر إلى تاريخ ذلك الشاب، ترى أنه انقلب في غضون أيام، وهذا مضحك. لماذا لم يتم تفتيشه عند قدومه إلى القاعدة؟". لقد سمع أنه كان لدى لابونتي بعض القلق من همّام. "لماذا لم يستطع إقناع جنيفر بأنه لا يجب السماح لذلك الشاب بدخول القاعدة من دون تفتيش؟ كان يجب أن تصل هذه الأمور إلى المركز الرئيس، وكان يجب على أحد الأشخاص اتخاذ القرار".[45]

أدّى الهجوم إلى قتل سبعة مواطنين أميركيين: جنيفر ماثيوز، وعمرها خمسة وأربعون عاماً، وهي رئيسة قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية. وإليزابيث هانسون، وعمرها ثلاثون عاماً، مستهدفة لدى وكالة الاستخبارات المركزية. وهارولد براون، وعمره سبعة وثلاثون عاماً، وهو ضابط لوكالة الاستخبارات المركزية في أفغانستان. ودارِن لابونتي، وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وهو ضابط لوكالة الاستخبارات المركزية في محطة عمّان. وسْكوت روبرسون، وعمره تسعة وثلاثون عاماً، وهو ضابط أمن في قاعدة وكالة الاستخبارات المركزية. وجيريمي وايز، وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وداين باريزي، وعمره ستة وأربعون عاماً، حارسا أمن من شركة Xe Services (المعروفة سابقاً ببلاك ووتر[46]). والآخران اللذان قُتلا كانا الشريف علي بن زيد (دائرة المخابرات العامة الأردنية) والسائق الأفغاني أرغاوان.

بعد فترة قصيرة، ظهرت قصيدةٌ على الانترنت، كتبها شخص يدعى أسد الله الشيشاني، وعنوانها "جايمس بوند الخاص بنا"، وهي مُهداة إلى الشهيد أبو دجانة

الخُرساني" على أمل أن يتقبّله الله و"يباركه بالقصور وحور العين في حديقة لا تذبل فيها الزهور أبداً. آمين".

مَن هو جايمس بوند الخاص بنا؟
إنه أبو دجانة!
شعاره: دعوني أموت أو أعيش حراً!

جايمس بوند الخاص بنا، كيف هو؟
أسد يزأر، نحلة لاذعة،
ليس أنثى جبانة.

جايمس بوند الخاص بنا، إلى ماذا سعى؟
ليس وراء السلطة أو المال،
بل العدالة للضعيف.

جايمس بوند الخاص بنا، ماذا حرَّك طموحه؟
حب الله والتوق إلى الجنة
هما اللذان حمّساه على مهمته.[47]

الفصل 9
الثقة بالآلة

"بالنسبة إلى واشنطن، إذا لم تره طائرات الاستطلاع في السماء،
فإن الأمر لم يحصل"

– بوب بير، ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية[1]

في وقت باكر من صباح 2 سبتمبر 2010، كانت أربع سيارات تُسرع في الطريق إلى ولاية تخار في أفغانستان، مخلِّفةً خلفها سُحُباً من الغبار. وداخل السيارة الثالثة، وهي تويوتا كورولا بيضاء، كان هناك رجل بسيط يتكلم بحماسة عبر هاتفه الجوّال. أصدقاؤه يسمّونه مورشا أو النملة، ويقولون إنه لا يتوقف عن الكلام أبداً. لقد جاء في ذلك اليوم بسبب الانتخابات البرلمانية الوطنية. ولكنْ بعد أن عاش بعيداً لعدة سنوات كان الحنين إلى الوطن سبباً آخر لقدومه أيضاً. "كان ذلك اليوم أشبه باحتفال"؛ حسبما قال المدرِّس المحلي إحسان الله الذي كان في المركبة الأخيرة. "كنا ندير حملة الانتخابات. وكنا نكوّن صداقات، وندعوهم ليرافقونا".

كانوا في قرية كَيوان التي تبعُد حوالي كيلومترين، ويتوقعون قدوم النملة. وقد سبقتنا سيارتان أخريان لتنظيم الحَشد. كانت الزهور تُشبَك في سلاسل، والرايات تُرفَع على الطريق. كانوا يأملون أن يرحبّوا بعودة بطلٍ.

شقّت القافلة الصغيرة طريقها بين تعرّجات الجبل المليئة بالغبار، وعَبَرت نَجْداً مرتفعاً، ثم راحت تنزل إلى ولاية الرستاق، متوجّهةً نحو وادٍ متعرّجٍ آخر سيأخذهم إلى القرية. وقال إحسان الله: "لم تكن لدينا أي فكرة عن أنَّهم سيموتون جميعاً".

كان الوقت حوالي 8:15 صباحاً بالتوقيت الأفغاني أو 3:45 صباحاً بتوقيت غرينيتش (والذي يسمّيه الجيش الأميركي توقيت زولو). كانت القافلة تُراقَب من بعيد على شاشات تلفزيون عملاقة مثبّتة على جدار بسيط من خشب الصنوبر. وكان قد تم تركيز منظار بندقية قنص على إحدى المركبات من قبل. وكان هناك عاملٌ يحتسي القهوة من كوب ورقيّ بانتظار اللحظة المناسبة.

كل شيء حتى الآن كان مشهداً عادياً في الحرب المشتعلة منذ فترة طويلة في أفغانستان. لكنْ كان هناك شيء خاطئ بشكل خاص في ذلك اليوم. والأحداث التي أدّت إليه ستسلّط الضوء على نقطة ضعف رئيسة في عالم التجسّس العصري، وبالأخص عندما تُتّخذ القرارات استناداً إلى الاستخبارات التقنية فقط، وفي غياب استخبارات بشرية جيدة. كما أن هذه القصة زوّدت أيضاً بنظرة على طريقة تطوّر الاستخبارات والتكنولوجيا في الحرب العصرية الدائرة خارج البلاد؛ في تركيبة فعّالة ستضاهيها أجهزة فرض القانون التجاري والمحلي. مثلما رأينا، يمكن أن يكون الجواسيس البشريون ضعفاء جداً وغير موثوقين بالكامل. ولكنْ من دون وجود أي عنصر فهم وتحقق من خلال الاستخبارات البشرية، ومن دون وجود منطق سليم أساسي، ستكون الأخطاء الفظيعة أمراً محتوماً.

لقد حان الوقت، وصَدَر الأمر. فرَفَع الطيّار الرئيس في طائرة الـ F-16 غطاء حماية الزر وهيّأ صاروخاً GBUIZ موجَّهاً ليزرياً، ثم وجَّه الليزر وراقب باهتمام عبر كاميرا حجيرة الاستهداف، ثم أطلق الصاروخ وبدأ يعدّ الثواني بانتظار إصابة الهدف.

في القاعدة الجوية السوفياتية السابقة مترامية الأطراف بكرام، التي تبعُد 240 كيلومتراً جنوباً، كان ضابطٌ في وحدة اسمها الرمزي تاسك فورس 535 مسؤولاً عن مهمة القتل. كان يراقب الأحداث من داخل مبنى فائق السرية، ويمكنه- بواسطة الأقمار الاصطناعية- رؤية ما تراه عين القنبلة نفسه لدى اندفاعها نحو الأرض. كان في "مركز انصهار"، حيث تجتمع كل فروع آلية الاستخبارات

السرية الأميركية مع الجيش. كانوا يصدّقون أنهم يخوضون الحرب بوسائل جديدة: تركيبة مميتة من المعلومات والقوة تم اختراعها خلال احتلال العراق. وقد قال ضابطٌ أميركيٌ كبيرٌ ضالعٌ بشكل عميق في المسألة: "ما نفعله استغرق تطويره تسع سنوات"، واصفاً هذا النوع الجديد من الحروب بأنه "قصة عظيمة". لكن النظام يفشل أحياناً، ويُقتَل الأشخاص الخطأ.

ساد الصمت في اللحظات الأولى بعد الانفجار. فألم الصدمة يخدّر، وتصبح أصم لفترة مؤقتة، ويحجب ضباب الدخان والغبار كل شيء، ثم تجد فجأة أنه يمكنك أن ترى مجدداً، ثم بعد برهة يمكنك أن تسمع وتشعر مجدداً أيضاً.

على الطريق إلى كَيوان، انقلبت الكورولا البيضاء رأساً على عقب، وصار ركّابها الأربعة يزحفون إلى الخارج، ويترنّحون للوقوف على أقدامهم. توقفت السيارات الثلاث الأخرى، وبدأ الأشخاص يبحثون عن مخبأ. لم يمت أحد في الضربة الأولى.

في الجيش، يسمّون الأشخاص اليائسين الذين يبحثون عن مخبأ داخل الأبنية المشوّهة أو السيارات المنفجرة "بخّاخات".[2] على الشاشات في بكرام، كان يمكن رؤية أشكال صغيرة تتحرّك بجانب المركبات. طُلِب من الطيّارين أن يقصفوا مرة أخرى.

أطلقت طائرة F-16 صاروخاً آخر أصاب سيارة الكورولا تحديداً هذه المرة. قتلت الضربة الثانية سبعة أشخاص، من بينهم طالب شاب وأخوه الأستاذ. ويتذكّر إحسان الله ما جرى قائلاً: "كانت المركبة تحترق، وارتفعت النيران إلى ثلاثة أمتار في الهواء... وصارت الأرض مغطاة بأشلاء بشرية ودماء".[3] جُرِح النملة، ولكنه كان لا يزال حياً.

في تلك اللحظة، شنّت مروحيتا أباتشي- كانتا حتى ذلك الوقت تحومان بشكل خفي في الأفق- هجوماً. بقيت إحداهما تحلّق دائرياً وتراقب، فيما انقضّت الأخرى على القافلة مطلقةً نيران مدفعها على الناجين. عندها، توفي النملة ورجل آخر،

وجُرح شخص آخر جروحاً مميتةً. وقد قال الجنود إن المسألة كانت وحشيةً، لكنْ إذا لم تتخلّص من المتشرّدين، فمن المحتمل أن تُخطئ الهدف الرئيس.

وصلت الشرطة المحلية إلى مسرح الجريمة بعد وقت قصير، وقد سجّل أحدهم مقطع فيديو. كان يمكن سماع أحد الأشخاص وهو يصرخ قائلاً: "أخرجوهم من هنا. هيا، هيا! ارفعه، ارفعه. ارفعه عن الأرض!". وشخص آخر يصرخ: "لقد أصابوا قافلة انتخابية! يا لهم من مساكين!".[4]

وصلت أخبار الضربة إلى الصحافيين المحليين والمسؤولين الأفغان بسرعة. وقد صرَّح حاكم ولاية تخار، عبد الجبّار تقوى، لإذاعة محلية أن قوى أجنبية قصفت حاشية مرشّح للانتخابات البرلمانية، وأنه تم قتل عشرة عمال في الحملة الانتخابية، وقال: "من دون أي تنسيق ومن دون إبلاغ السلطات المؤقّتة. لقد هاجَموا من تلقاء أنفسهم مدنيين كانوا في قافلة للحملة الانتخابية".[5]

كان المركز الرئيس الرسمي للقوات الأجنبية في أفغانستان وقتها قاعدةً في وسط كابول، ويديره حلف الناتو بقيادة الأميركيين. وبدأت الهواتف ترنّ في المكتب الصحفي ليطلب الصحافيون تعليقاً على الحادث. أبدى الموظفون قلقهم من أنهم كانوا يتولون واقعةً أخرى قضى فيها ضحايا مدنيون. اتصل الضباط الأميركيون بصلة وصلهم في الفريق السري تاسك فورس 535 الذي كان يعمل أيضاً بشكل مستقل عن الناتو. ما الذي يجب التصريح به للصحافة؟ فكان الجواب الصمت. كان يتمّ الإعداد لنشر بيان صحفي.

في الساعات التي تلت الضربة، كان عمّال اللاسلكي في شُعبة الحرب الإلكترونية في الجيش الأميركي، كالعادة، يتنصّتون على شبكة راديوهات حركة طالبان وهواتفها الجوّالة. وفي نهاية المطاف، مرَّروا كلمةً إلى الفريق تاسك فورس. كان أفراد من حركة طالبان يتكلمون مع آخرين، ويحذّرونهم من مقتل أحد كبار القادة. وقال أحدهم: "لقد توفي محمد أمين". وهكذا، يستطيع الضابط الأميركي الذي أمر بتنفيذ العملية إبلاغ رجاله أن المهمة قد أُنجزت. وحينها، سُمح للناتو بأن

يُصدر بياناً يُعلن فيه أن "قوات التحالف" قد شنّت "ضربة جوية دقيقة" على عضو كبير في الحركة الإسلامية لأوزبكستان؛ وهي جماعة متشدّدة تنشط في شمالي البلد وتعتقد الولايات المتحدة أنها على صلة بتنظيم القاعدة وحركة طالبان. كان تقييم ذلك القائد أنه "حاكم الظل لولاية تخار" أيضاً، وهي إشارة إلى شبكة قادة طالبان الموازين للحكام الرسميين الذين تعيّنهم الحكومة الأفغانية. وتابَع البيان: "تعقّبت الاستخبارات المتمرِّدين أثناء انتقالهم في سيارة عبر سلسلة طرقات بعيدة في ولاية الرستاق... وتحدِّد التقديرات الأولية مقتل أو جرح 8 إلى 12 متمرِّداً في الضربة، من بينهم قائد في حركة طالبان. وقد تم التأكّد من أن عدة أشخاص في المركبة كانوا يحملون أسلحة".[6]

في ولاية تخار، تم فوراً الطعن برواية الناتو لمسار الأحداث. فأبرز شخص بين القتلى بالكاد كان يمكن لأي مواطن محلي اعتباره قائداً في حركة طالبان أو الحركة الإسلامية لأوزبكستان. فالرجل الملقّب بالنملة كان شخصية عامة، عمره 45 سنة، ويدعى ظابط أمان الله، وتاريخه معروف جيداً. كان في حركة طالبان في الماضي، ولكنه استسلم بعد هجمات 11 سبتمبر، وسُمح له بالانتقال إلى باكستان. عاد في العام 2008، وعاش علانيةً في كابول منذ ذلك الوقت. والآن، بعد ترشّح ابن أخيه عبد الواحد الخُرساني للانتخابات في تخار، عاد أمان الله إلى الولاية لأول مرة منذ سنوات لكي يدير له حملته الانتخابية. وقد ألحّت حركة طالبان لمقاطعة الانتخابات، ولم يؤيِّد أعضاؤها المرشّحين في الانتخابات أو يدعموهم. لذا، لم يبدُ من المرجح أن أمان الله كان قائداً في حركة طالبان.

في ذلك المساء، صَدَف أن كان وزير الدفاع الأميركي روبرت غايتس موجوداً في أفغانستان، وعقد مؤتمراً صحفياً مع رئيس جمهورية البلد، حامد كرزاي. وعندما ذُكر الهجوم الذي حصل في ذلك اليوم، تكلّم الرئيس بمرارة قائلاً: "يجب تمييز الأشخاص الذين يؤيِّدون الديموقراطية عن أولئك الذين يحاربونها". وأجاب غايتس: "هذه أول مرة أسمع فيها أن هناك مدنيين قد قُتلوا، وسندقّق في الأمر".[7] لكنْ بعد عشرة أيام، أصدر الناتو بياناً جديداً كرّر فيه أنه تمّت إصابة الهدف

الصحيح، رغم أنه "لا يمكن استبعاد" وقوع ضحايا مدنيين.[8] كما أكّد الناتو التقارير الإعلامية بأن اسم الهدف كان "محمد أمين"؛ مما سبَّب إرباكاً جديداً. فهل كان ذلك اسماً رمزياً لظابط أمان الله؟ فإما أن يكون أمين رجلاً آخر في القافلة بين أولئك الذين ماتوا في الضربة الجوية، أو- إذا كان سيتم تصديق الولايات المتحدة- كان النملة قائداً في حركة طالبان ويملك هويتين؛ أي كان عميلاً مزدوجاً.

كما هو الحال في أغلب الأحيان، شدَّدت تعليقات الناتو عن ضربة تخار الجوية على الفرق بين نظرة الأفغان إلى بلدهم ونظرة الأجانب إليه. فالجميع، ومن بينهم المسؤولون الأفغان الذين تعاملوا مع حِلف الناتو ورحَّبوا بتواجده في البلد استنتَجوا في أغلب الأحيان أن آلية التجسّس الأميركية كانت عَفِنة؛ رغم كل تطورّها التقني العالي. فكل يوم، كان عدد الغارات والضربات على العدو يزداد. وكان يحلو للرئيس كرزاي وآخرين أحياناً، ولأسباب دعائية، انتقاد الضربات الجوية الأميركية؛ حتى عندما كانت الحكومة الأفغانية تعلم سراً أن الضحايا كانوا على الأرجح مقاتلين في حركة طالبان. لكنهم كانوا يغضبون في أحيان أخرى، عندما يصبح واضحاً لهم أن الولايات المتحدة كانت تستخدم معلومات استخباراتية سيئة لقتل الأشخاص الخطأ. وقد لخّص موت أمان الله فداحة تلك الأخطاء.

لطالما كانت الاستخبارات عن خطط العدو وعن منطقة القتال أساسيةً بالنسبة إلى الجنود. لكن أهميتها ازدادت كثيراً في الحرب ضد حركة طالبان. وقد بدأ هذا في العام 2001، عندما غزت الولايات المتحدة أفغانستان وأسقطت حُكم حركة طالبان. وبحلول منتصف القرن الحادي والعشرين، كانت حركة طالبان قد أعادت تجميع صفوفها. وفي وقت غارة تخار، كان هناك حوالي 100,000 موظف عسكري أميركي منتشرين في البلد، إلى جانب 40,000 جندي أجنبي آخر بقيادة الناتو (من بينهم 9,000 بريطاني). كان هذا العدد أكبر من عديد الجيش السوفياتي في الثمانينيات.[9] وفي نهاية العام 2010، كان قد قُتل ما يزيد عن 2,200 جندي في التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة.

كان النزاع في أفغانستان أشبه بما يسمّيه الجيش حرباً غير تقليدية، أو غير متماثلة؛ فقد كانت الحكومة الأفغانية وقوات التحالف تحاربان حركة طالبان التي يتصرّف أعضاؤها كمتمرّدين غير نظاميين، لا يرتدون ثياب مقاتلين، ويعيشون سراً بين السكان، ويعتمدون وسائل حرب العصابات؛ كنصب كمائن فجائية، وتجنّب خوض معارك تقليدية. كان هذا يسمّى بلغة العسكر تمرُّداً كلاسيكياً. ورغم أن المتمرّدين تاريخياً يميلون إلى الفوز في نزاعات كهذه، إلا أن الوسيلة الوحيدة المعروفة لهزيمتهم كانت باستخدام استخبارات فائقة الدقة. وكانت الاستراتيجية الناجحة لمكافحة التمرُّد تستند إلى محاولة فصل السكان عن المتمرِّدين، وحمايتهم منهم، وكذلك على محاربتهم أيضاً. ولكي يحصل هذا، هناك حاجة إلى معلومات استخباراتية حول مَن يجب حمايته (أي الأشخاص الأصدقاء أو المحايدين) ومَن يجب استهدافه (أي العدو). وقد كان هذا الأمر صعباً؛ لأن الأجانب كانوا يعتبرون أن الجميع يشبهون بعضهم بعضاً ويعيشون معاً في أغلب الأحيان.

أتت الاستخبارات لحملة الناتو من أخصائيي الاستخبارات الخاصين بالجيش نفسه؛ سواء أكان ذلك من ضباط الاستخبارات الذين يعملون في كتائب الخط الأمامي، أو من الكوادر العسكرية المتخصصة، مثل وكالة الاستخبارات الدفاعية (DIA) أو وكالة الأمن القومي (NSA). وكان يساعدهم الموظفون المنتشرون من أجهزة الاستخبارات المدنية؛ كوكالة الاستخبارات المركزية، أو جهاز الاستخبارات السرية في المقام الأول. وكانت تلك الوكالات تعالج مصادر حسّاسة جداً أو عملاء سياسيين بالتحديد، كما كانت تتعامل مع وكالات التجسّس الأفغانية وتُجري عمليات خفية خاصة بها.

مع ازدياد منسوب العنف، واجَهَ الديبلوماسيون ورجال الاستخبارات العاملون في كابول تهديدات متزايدة على حياتهم، وكانوا يُمنعون من الخروج وإجراء اتصالاتهم في أغلب الأحيان؛ تماشياً مع قواعد الصحة والسلامة الصارمة. وكانت المعلومات الاستخباراتية التي حصلوا عليها من الجواسيس غير أولية في أغلب الأحيان، وهي حصيلة التنسيق مع قوات الأمن المحلية وتوجيهها. وقد شملت تلك

القوات- مثلما هو مشروح سابقاً- مختلف المجموعات شبه العسكرية وشبه الخاصة التي شغّلتها وكالة الاستخبارات المركزية مباشرةً، وكذلك الجهاز الأمني الخاص بأفغانستان، مديرية الأمن الوطني (NDS). وقد قال ضابط استخبارات بريطاني: "حتى لو كان لدينا أشخاص تعلّموا أن يتكلموا مثل السكان المحليين، ما كان بإمكاننا أن نبدو مثلهم أبداً. هناك حدود لما يمكننا فعله بأنفسنا". كانت مديرية الأمن الوطني تعاني من عدة عيوب (مثلاً، كانوا يعذّبون السجناء أحياناً)، "لكنْ كانت لديها شبكة من المصادر في كل أنحاء البلاد. لم يكن بإمكاننا أن ننافسها في ذلك مطلقاً".

كانت مشكلة الوكالات الغربية في أن يكون لديها بضعة جواسيس خاصين بها هي أنها كانت دائماً عُرضة للاستخدام لتهدئة الضغائن المحلية. فقد كان شائعاً مثلاً أن يمرِّر الأفغان معلومات سرية من شخصٍ في إحدى العشائر مفادها أن شخصاً ما في عشيرة أخرى مرتبطٌ بحركة طالبان أو تنظيم القاعدة. وقد تساءل العديد من أصدقاء أمان الله عما إذا كان الأميركيون قد تلقوا معلومات من سياسي محلي معيّن كان منافساً رئيساً تاريخياً لعائلة أمان الله.

كانت وكالات الاستخبارات تُدرك أيضاً وجود شك أفغاني ضمني في الأجانب أو الدخلاء. وقبل أن يبدأ البريطانيون وجنود الناتو الآخرون بالانتشار بأعداد كبيرة في جنوبي أفغانستان في العام 2006، والتورّط في معارك عنيفة، كان رجال جهاز الاستخبارات السرية قد استطلعوا المنطقة بمساعدة القوة الجوية الخاصة (SAS) التي تعتبر من النخبة في بريطانيا. وقد أشار تقرير البعثة إلى أنه لم يكن هناك تمرُّد في ذلك الوقت، ولكن سيحصل واحدٌ إذا شارك الجيش، نظراً إلى بغض السكان للأجانب المسلّحين.

تم تجاهل هذا التحذير بالذات، وكذلك مضامين أن الاستخبارات الأساسية عن ميول الأشخاص العاديين في الريف وولاءاتهم كانت على الأقل مهمة بقدر أهمية الاستخبارات المحدَّدة عمَّن كان مقاتلاً أو قائداً في حركة طالبان وعن مكان

اختبائه (سواء أتم الحصول على ذلك باستخدام جاسوسٍ أو التنصّت على رسالة لاسلكية).

أعاد أحد رؤساء استخبارات الناتو، اللواء مايكل فْلين وقتها، النظر في نقطة الضعف هذه في أوائل العام 2010؛ عندما كَتَبَ أن ضباط الاستخبارات بذلوا جهداً كبيراً جداً في التركيز على جماعات المتمرِّدين، لدرجة أن "جهاز الاستخبارات الكبير غير قادر على الإجابة عن الأسئلة الأساسية حول البيئة التي تعمل فيها الولايات المتحدة وقوات التحالف والأشخاص الذين يسعون إلى إقناعهم". وكان ضباط الاستخبارات الأميركيون ومحلّلوها "جاهلين بالاقتصاد المحلي وملاّك الأراضي، ولا يعلمون مَن هم سماسرة السلطة، وكيف يمكن التأثير عليهم، كما كانوا غير فضوليين بشأن العلاقات المتبادلة بين مختلف مشاريع التطوير ومستويات التعاون بين القرويين، ومنعزلين عن الأشخاص الذين يحتلون أفضل المناصب للعثور على الأجوبة".[10]

الفجوة التي أشار إليها فْلين كانت الاستخبارات البشرية، ولكنها لم تكن من نوع المعلومات الاستخباراتية السرية عالية المستوى التي يمكنها أن تأتي من جاسوس كبير فقط، بل كانت من نوع الفهم الثقافي الذي يمكن أن يكشفه حوار عادي مع أشخاص محليين.

تذمَّر الضباط العسكريون أحياناً من أن زملاءهم في وكالات الاستخبارات المدنية أصبحوا مجهَّزين بشكل سيئ جداً، وبيروقراطيين جداً لكي يعملوا في منطقة حربية. وقد شرح قائدٌ غربيٌ سابقٌ كيف أنه عَرَض على ضابط في جهاز الاستخبارات السرية القيام بجولة في مروحية في اليوم التالي للقاء السكان المحليين في بلدة سيطروا عليها مؤخراً، وأجابه ضابط الاستخبارات: "آسف، لا أظن أنني أستطيع أخذ الموافقة من لندن في الوقت المناسب". بدا أن هذا الجواب يلخّص مشاكل عديدة.

لكنْ مثلما شهدتُ بنفسي أثناء تغطيتي الحرب كصحافيٍّ، وقضائي عدة أيام مع جنود الخط الأمامي وقادته، تحسَّنت الاستخبارات تدريجياً على مر سنوات التدخّل الأفغاني، وكرَّس الجيشان البريطاني والأميركي جهوداً ضخمةً لكي يصبحا أكثر حساسية في ما يتعلق بالبيئة البشرية المحلية. ولكنّ ذلك لم يكن كافياً قط، وقد جرت التحسينات من قاعدة منخفضة جداً. مثلاً، بالكاد كان ثلاثون شخصاً في الجيش البريطاني بأكمله في منتصف القرن الحادي والعشرين يستطيعون تكلّم الباشتو بفصاحة؛ وهي لغة جنوبي أفغانستان. ربما حاوَلوا، ولكن الجيش لم يكن مجهَّزاً لتجميع المعلومات الاستخباراتية التي يحتاج إليها. وقد جاء إدراكهم وجود نواقص لديهم في هذا المجال متأخراً جداً. فبينما سيشطب بعض ضباط الاستخبارات هذا النوع من المعلومات الاستخباراتية الناقصة على أنه "ظواهر منخفضة المستوى" تتخطى حدود مسؤولياتهم، فإن غيابها كان أحد الأسباب التي جعلت الحملة العسكرية سيئة. وقد ارتكب الناتو والولايات المتحدة الكثير من الأخطاء الفادحة في وادٍ أو آخر بالتعاون مع أمراء حرب غير شعبيين أبداً، أو مسؤولين حكوميين فاسدين مرتبطين بقبيلة معيّنة. وأدّى كل ذلك إلى استعداء القبائل الأخرى وتعزيز يد حركة طالبان.

رغم الإهمال الشديد لهذه الصورة الشاملة عن أرض المعركة، في البداية على الأقل، إلا أن وكالات الاستخبارات الأميركية عملت بجهد لمساعدة جيشها في تطوير وسائل مطاردته العدوانية والمُبتكَرة لكبار قادة العدو: أشخاص مثل أمان الله، على حدّ اعتقاد الجيش. وكان هدف ما سمِّي "حملة القتل/الاعتقال" هو ضرب العدو باغتيال قياداته أو اعتقالهم. وكان اختيار الأهداف وتحديد أماكن تواجدها سيتمّان بمساعدة الجواسيس ومصادر بشرية أخرى، وكذلك البيانات من كاميرات المراقبة والتنصّت على الهواتف والبث اللاسلكي. وكما هو مشروح أعلاه، جُمعَت كل المعلومات ذات الصلة في "مركز الانصهار" الذي تم تصميمه لجعل الوكالات المختلفة تعمل بفعالية مع بعضها بعضاً. أُنشئ هذا المركز في بداية الأمر في قاعدة بلد الجوية، شمالي بغداد، وكان يستخدم أبنية مؤقتة موضوعة على شكل أشعة

حول محور مركزي. بدأ بعض العاملين في قاعدة بلد يسمّون المركز "نجمة الموت"، وقد استمر التداول بهذا الاسم مع انتقال نظام العمليات نفسه إلى أفغانستان. وقد أسَّس النظام في العراق الجنرال في القوات الخاصة الأميركية ستانلي ماكريستال، الذي كان وقتها قائد قيادة العمليات الخاصة المشتركة (JSOC) التي كانت تدير نشاطات نخبة القوات الخاصة الأميركية، مغاوير البحر وقوة دلتا، المدعومة من كتيبة الحراس والتي تعمل أيضاً مع القوة الجوية الخاصة البريطانية وقسم زوارقها الخاصة (SBS). وكانت فكرة ماكريستال تقضي بأن يتم تجميع كل أداة استخباراتية ممكن تخيّلها وتكون متوفرة للولايات المتحدة، والتركيز على كسر هدفٍ واحدٍ. وكان أنجح تطبيقاتها هو العثور على زعيم تنظيم القاعدة في العراق، أبي مصعب الزرقاوي، ثم قتله. وكان الفريق تاسك فورس 535 أحدث اسم تغطية لمقر قيادة العمليات الخاصة المشتركة وعملياتها في أفغانستان.

كان كل شيء في أسلوب عمل نجمة الموت يرتكز على الاستخبارات، ولكنه اعتمَد على السرعة أيضاً. وقد قال أحد الأشخاص الرئيسين في المركز: "يتيح لك أسلوب القتل المستهدَف إما هزيمة العدو أو تحديد مصيره... فإذا رفعت الوتيرة إلى درجة عالية بما فيه الكفاية، سيصبح من الصعب عليهم الخروج لتنشّق الهواء. الأمر أشبه بتوجيه ضربات إلى جسد ملاكمٍ؛ لن تكون ضربات قاضية عليه، ولكنك ستمنعه من التنفّس، وستجعله يفقد توازنه".[11]

كانت هذه حرب غارات، وقد تمت المحافظة على وتيرتها. صحيح أنها لم تكن كلها غارات جوية مثل الغارة ضد أمان الله في تخار، ولكنها غارات أرضية تقوم بها القوات الخاصة في الليل بهدف قتل المقاتلين أو أسْرهم كسجناء. فإذا استسلم الهدف سيؤخذ للاستجواب، وحتى لو لم يستسلم فسيتم تفتيش منزله بحثاً عن أصناف المواد كافة. ويمكن استخدام المعلومات الاستخباراتية التي يتم الحصول عليها في إحدى الليالي لشنّ غارة أخرى في الليلة التالية. لم يبحث الجنود عن أشياء كبيرة مثل الكمبيوترات المحمولة فحسب، بل عن "قمامة الجيوب" أيضاً. وهذا يعني الهواتف، وبطاقات SIM، ودفاتر الملاحظات، والقصاصات الورقية، وأي شيء

يعطي دلالات تشير إلى شبكة اتصالات الهدف، أي الأشخاص الذين يتواصل معهم. كان أسلوب ماكريستال يتمحور حول تعقّب الاتصالات، واستخدام كل معلومة متوفرة للانتقال من هدف إلى آخر بسرعة. ووفقاً لأحد الأشخاص الضالعين في هذا المضمار، "كانت لدينا خبرة عقود في المطاردة. كنا في ما مضى نصطاد أفراداً، ولكنّ ما تغيَّر هو أننا بدأنا نستهدف شبكات بأكملها".

أكبر مصدر للاستخبارات البشرية لعمليات المطاردة كان السجناء. فبمساعدة بعض المترجمين، حصلت قيادة العمليات الخاصة المشتركة على إمكانية طرح أسئلة على العدو ليلاً ونهاراً في زنازين السجن القريب من مركزها الرئيس. وقد فرضت الولايات المتحدة حقها بإدارة سجون عسكرية خاصة بها، وتسليم السجناء إلى السلطات الأفغانية بعد استجوابهم فقط. وقد وصف أحد زوار نجمة الموت سماعه أصواتاً حيّة من غرفة استجواب يجري بثها في محطة عمله. وقال إن ذلك "كان أشبه بقراءة ذهن العدو. كان الأمر غير معقول".

المصدر الرئيس الأخير للمعلومات- وهو مفتاح ما حصل في تخار- كان الاستخبارات التقنية، أي التنصّت المتواصل على الهواتف الجوّالة وأجهزة راديو VHF، وبالأهمية نفسها تعقّب أماكن تواجدها، وكذلك مراقبة بصرية للأبنية والمركبات وتجمّعات الأشخاص من خلال أقمار التجسّس، وطائرات المراقبة، والمروحيات، وما أصبح أسطولاً ضخماً من الطائرات بدون طيّار التي تحتوي كل منها على عدة كاميرات.

لكنْ كانت هناك عيوب في هذه العملية. وأحد أكبر تلك العيوب أنه من أجل إقناع الوكالات الخاصة بالتعاون ومشاركة كل ما تعرفه، كان يجب إبقاء المركز الرئيس آمناً جداً وسرياً، ويجب الاستعانة فقط بنخبة الجنود الموافَق عليهم أمنياً، وبأدنى عدد ممكن من الدخلاء.

وأثناء مناقشته ذلك، أشار ضابطٌ في الجيش الأميركي ضالعٌ في قضية أمان الله إلى العالم "الخارجي" عدة مرات. فقد قسَّمت الحربُ الناسَ بين داخليين

وخارجيين يعيشون بشكلٍ متوازٍ. وكان الداخليون مثل ذلك الضابط يعيشون ضمن "فقاعة" القواعد المحصَّنة بالأسلاك الشائكة. وعندما كانوا يخرجون، كانوا يتوجّهون عادة إلى "مكان آمن" آخر، أو بمواكبة رجال مدجّجين بالسلاح. لقد أصبح التفاعل البشري العادي مستحيلاً، وصاروا معزولين عن الأشخاص الحقيقيين.

وفي حين أن هذه النخبة كانت تستخدم أدوات تقنية هائلة تتيح لها مراقبة العالم، إلا أن هذه السرية وهذا العزل أعاقا قدرتها على التدقيق في ما كانت تلتقطه وعلى فهمه أيضاً. وكان من الصعب النظر إلى أي مشكلة بشكل إجماليّ أو فهم أهمية بعض العناصر. وبلغة الاستخبارات، تميل شذرات المعلومات إلى أن تضيع في "البحر" الهائل من البيانات. ولأن كل شيء كان يبقى سرياً بالنسبة إلى العالم الأوسع، لم يتم الطعن مطلقاً ببعض الافتراضات الخاطئة الأساسية، والتي من الواضح أنها خطأ بالنسبة إلى أي رجل في الشارع. كما كان كل هذا التحسّس العلمي خالياً للأنظار أيضاً. فقد أثارت كل تلك الأدوات الجميلة والأساليب الذكية شعوراً بالرهبة وثقةً عارمةً بالنفس. لقد كانت تناقض الحسّ السليم.

وكانت هناك مشكلة كبيرة أخرى، ألا وهي غياب الجواسيس الجيدين. وكان بإمكان وجود بعض العملاء السريين الموثوقين بين صفوف حركة طالبان أن يشكّل فرقاً كبيراً. لكن وتيرة عمليات قيادة العمليات الخاصة المشتركة جَعَلت ذلك صعباً. بالطبع، يمكن تجنيد السجناء الموقوفين في بكرام، ولكن التعقيدات التي تنجم عن تشغيل مثل أولئك العملاء بين المتمرِّدين كانت مسألةً مختلفةً ولا يمكن الاستخفاف بها. ومع ذلك، في غياب معلومات سرية عالية المستوى من مصادر بشرية، يمكن أن يكون من الصعب الطعن بالمعلومات الاستخباراتية المُقنعة الآتية من مصادر تقنية إذا كانت مضلّلة. وقد فَرَض المنطق السليم أن أمان الله بريءٌ. لكنْ إذا كانت عمليات التنصّت السرية قد سجَّلت صوته وهو يقول كلمات بدت مشبوهة، فإن مركز نجمة الموت كان بحاجة إلى مصدر موثوق قريب جداً من دائرته من أجل تبرئته؛ من خلال شرح أن ما قاله كلام بريء. لذا، يمكن

للاستخبارات التقنية التي لا ترافقها تغطية من مصادر بشرية أن تكون مُقنعة بشكل خطير. ولاكتشاف الحقيقة، إن المراقبة التطفّلية تتطلب صورة مطابقة للأصل تقريباً دائماً؛ أي التجسّس التطفّلي.

إن غموض عملية اغتيال ظابط أمان الله في سبتمبر 2010 سبَّب صدمةً للجميع. فقد كان شخصيةً معروفةً جداً في العاصمة الأفغانية، كابول، ومن معارفه بعض الأشخاص المؤثّرين في المجتمع. كان غضبهم من عملية قتله هو الذي حفّز جهودهم لاكتشاف كيفية استهدافه. وقد زوَّد تحقيقهم بنظرة فريدة إلى آلة استخبارات القرن الحادي والعشرين.

أحد الأشخاص الذين عرفوا أمان الله جيداً كان رجلاً إيرلندياً يدعى مايكل سَمبل. وقد كان أحد الأشخاص النادرين الذين أتاحت لهم طبيعة عملهم العيش في العالَمين السري والعادي، وهذا بدوره أعطاه بعض البصيرة الفريدة. جاء إلى المنطقة منذ عشرين سنة ليعمل لدى الأمم المتحدة ثم الاتحاد الأوروبي، ثم أصبح تدريجياً ضالعاً في محاولة تعزيز المصالحة السياسية في أفغانستان. وبسبب تواصله مع المجموعات السياسية والعسكرية والدينية كافة، تعرَّف إلى رجال عالم العنف. وفي العام 2008، طرده الرئيس كرزاي من البلد بتهمة إجرائه تواصلاً غير مرخّص له مع حركة طالبان. لكنّ سَمبل تابع عمله نفسه من باكستان؛ حيث كان معظم قادة حركة طالبان يعيشون. وبصفته مُحاوِراً، كثيراً ما تقاطعت دروب عمله مع الجيش وجهاز الاستخبارات الغربيين.[12]

ما لاحظه سَمبل كان المدى الكبير الذي يُقنِع به العاملون في أجهزة الاستخبارات أنفسهم بالأفكار الخاطئة. وهذا النوع من التفكير الخاطئ بالذات هو الذي أدّى إلى قتل أمان الله. لقد كان سَمبل يعرف الرجل منذ سنوات، و لم يتقبل فكرة أنه كان قائداً سرياً في حركة طالبان. فحتى قبل عدة سنوات، عندما سيطرت حركة طالبان على البلد، يتذكّر سَمبل أن أمان الله ساعد في التدقيق بانتهاكات نظام الحكم لحقوق الإنسان. ثم بعد غزو الولايات المتحدة للبلد

وإسقاطها حُكم حركة طالبان، بقي الرجلان على تواصل. ويتذكّر سَمبل أنه عرَّفه إلى بعثة من النواب البريطانيين في بيشاور في أحد أسابيع العام 2003.

قال إن أمان الله عاش بسلام في كابول منذ العام 2008، "ولم يكن أحد ليعتبره عضواً في حركة طالبان عند النظر إليه هناك". وتابع قائلاً إنه لو كان أمان الله لا يزال منتمياً إلى حركة طالبان، لما كان قد شارك في الحملة الانتخابية في تخار. فذلك كان يعني "السفر من قرية إلى قرية بشكل علني، وإلقاء خطب أمام الناس. كل شخص رأى ذلك. لذا، إن معظم حياة ظابط أمان الله كانت في المجال العام، ولم تكن لديه أي علاقة بالتمرُّد على الإطلاق".

كما أن المراسلة الأجنبية السابقة لمحطة BBC كايت كلارك، التي عاشت في كابول تحت حُكم حركة طالبان وبقيت هناك بعد سقوطها من بين الأشخاص الذين عرفوا أمان الله. وقد تركت عالم الصحافة لكي تنضم إلى مجموعة أكاديمية تدعى شبكة محلّلي أفغانستان، ولكنها لم تفقد حسّها البوليسي. التقت أمان الله لأول مرة قبل وفاته بسنتين؛ في ظروف أقنعتها بأنه لا يمكن أن يكون مقاتلاً نشطاً. وقد شرح لها كيف عذّبته وكالة الاستخبارات الباكستانية بسبب رفضه الانضمام إلى حركة طالبان. حتى لو كانت الولايات المتحدة على حق وكان له دور سري في التمرُّد، فهي تتساءل عن سبب عدم اعتقالها له بكل بساطة في منزله في كابول؟ فهي تعرف أنه استقرّ في كابول، واشترى صيدليةً، وكان يدرس الإنكليزية وبرمجة الكمبيوتر. وقد قامت بعد وفاته بتجميع مستندات تُثبت ذلك. الاستنتاج الذي يمكن التوصّل إليه من الاستخبارات الأميركية كان أن أمان الله يعيش حياةً مزدوجةً، وأنه كان عميلاً مزدوجاً سرياً لحركة طالبان. لكنْ عندها أدركت تفصيلاً آخر تدريجياً: لم تكن الاستخبارات الأميركية على علم بمنزله وحياته في العاصمة الأفغانية.

متابعةً تحقيقاتها بإصرار، استعانت كلارك بالبحث الميداني لكي تبرهن أن أمان الله كان الشخص الوحيد المهم في القافلة التي استهدفتها الغارة، وأنه كان بالتأكيد

الشخص الذي أشار إليه الناتو بأنه "محمد أمين" قائد الحركة الإسلامية لأوزبكستان/حركة طالبان. وباستخدامها اتصالاتها، ضغطت بعد ذلك على قادة الناتو في كابول ليقدّموا تفسيراً لما حصل، وتوصّلت في نهاية المطاف إلى إجراء اتصال مباشر ببعض الضباط في قيادة العمليات الخاصة المشتركة (المُلقَّبة تاسك فورس 535) الذين أداروا العملية.

تستند رواية الأحداث التي يمكن كشفها الآن إلى ما نشرته كلارك نتيجةً لتحقيقاتها، وما كشفه سَمبل، وكذلك إلى مقابلات إضافية أجريتُها مع بعض الأميركيين الضالعين بشكل عميق (اشترط جميعهم ألا أكشف عن هوياتهم). بالإضافة إلى ذلك، كُشفت تفاصيل كثيرة في تقرير عملية الاغتيال- بناءً على مصادر أشخاص من الداخل- وقد كتبه مكتب استخبارات خاص في أفغانستان وباكستان يديره دْوين "دُوي" كلاريدج، وهو رئيس سابق أسطوري ومثير للجدل لقسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية.[13] كلهم زوّدوا بصورة فريدة لطريقة استخدام نخبة الوحدات العسكرية للمعلومات الاستخباراتية، وبعواقب تجاهل "العامل البشري".

بدأت قصة الاستخبارات التي أدّت إلى اغتيال أمان الله في يناير 2010، عندما ألقى جنود أميركيون القبض على رجل في العقد الثاني من عمره يدعى عبد الرحمن، من ولاية تخار. خلال استجوابه في قاعدة بكرام الجوية، ذكر أن أحد أعمامه- وهو محمد أمين- قائد حركة طالبان في تخار. ويروي كلاريدج أن "عبد الرحمن تباهى بأن له عمّاً، محمد أمين، كان مهماً في حركة طالبان والحركة الإسلامية لأوزبكستان، وإذا تكلموا معه بطف، فباستطاعة عبد الرحمن إيصالهم إلى عملية سلام".[14] وأعطى عبد الرحمن مستجوِبيه أرقام الهواتف الجوّالة الخاصة بأمين وبعض معارفه.

بدأت الاستخبارات الأميركية بتعقّب أرقام الهواتف التي زوّدهم بها عبد الرحمن والتنصّت عليها، وكذلك أرقام الهواتف التي اتصل بها أصحاب تلك الأرقام أيضاً.

وقد تم تعقّب أحدها، 5431938 77 93+، من كابول إلى ولاية تخار، وبدأت الاستخبارات الأميركية تصدِّق أن ذلك الهاتف كان هاتف "محمد أمين". يعرِف سَمبل أن هذا الرقم هو رقم أمان الله. فهو لا يزال محفوظاً في هاتفه الجوّال بعد سنوات من الاغتيال.

وفقاً لأحد تقارير كلارك لاحقاً:

عملية الاستخبارات التي أدّت في نهاية المطاف إلى الهجوم في 2 سبتمبر 2010 بدأت- وفقاً لوحدة القوات الخاصة- بسبب معلومات أتت من معتقَل لدى الولايات المتحدة. وقد سمح لهم ذلك في نهاية المطاف بتحديد أن أحد أنسباء المعتقَل هو حاكم الظل لولاية تخار، وهو شخص يدعى محمد أمين، وبأن يكشفوا شبكةً لحركة طالبان والحركة الإسلامية لأوزبكستان من خلال مراقبة الهواتف الخلوية. ويعتقد محلّلو الاستخبارات أن بطاقة SIM لأحد أرقام الهواتف التي كان محمد أمين يتصل بها في كابول قد تم تمريرها إليه.[15]

قال أميركيٌ ضالعٌ في العملية إن المكالمات الهاتفية التي تم التنصّت عليها من هاتف أمان الله أكّدت أن من يستخدمه كان قائداً نشطاً يأمر بشنّ هجمات. وجرى أيضاً حديث عبر الهاتف عن خطة لرشوة قاضٍ. بدأ التنصّت في تخار في مارس 2010، وكذلك في قندوز وكابول وباكستان. وقال إن أمين "عرَّف عن نفسه" في إحدى المرات كظابط أمان الله (الأرجح أن هذه هي طريقة الاستخبارات للقول إن أمان الله يقول اسمه بصوت عالٍ). وتعتقد الولايات المتحدة أن "أمين" كان يستخدم الاسم "أمان الله" كاسم مستعار سري. وقد قيل لكلارك أيضاً إن هناك "بصمة صوتية" تؤكّد أن الرجلين- أمين وأمان الله- هما الشخص نفسه.

وفقاً لكلاريدج، بعدما تم التأكد من أن قائداً في حركة طالبان كان يستخدم هاتف أمان الله، حُسِم مصيره. وعندما سافَر من كابول إلى تخار للانتخابات، تعقّبت قيادة العمليات الخاصة المشتركة مكان هاتفه بالوسائل التقنية، وخطّطت

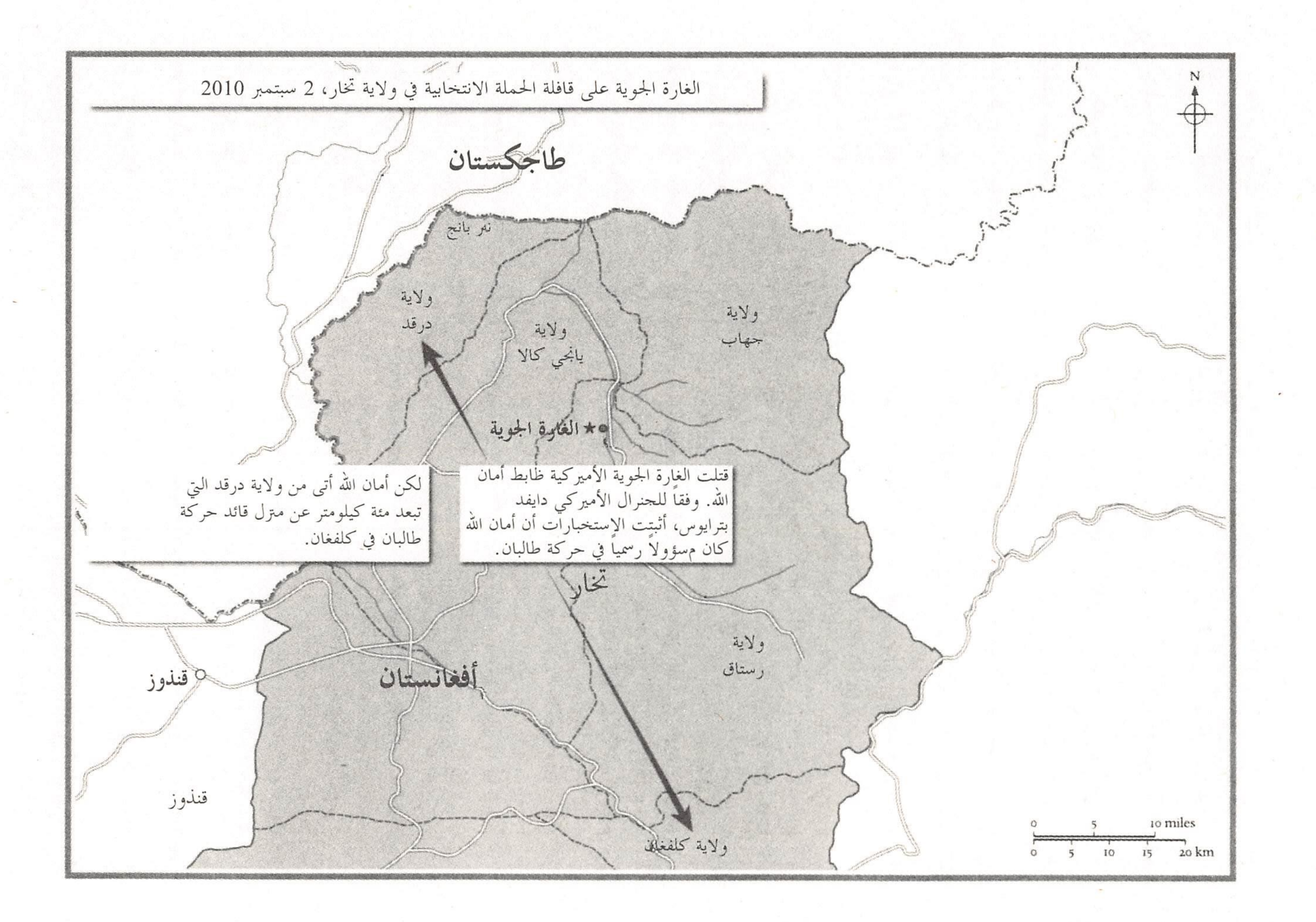
لغارتها من دون أبسط إدراك للأحداث الحقيقية الجارية على الأرض، ومن بينها أنه سيسافر ومعه عمال في الحملة الانتخابية. "كانوا يتعقّبون الهاتف، وسمعوا أن الرجل سيكون في القافلة. لم يكن الرجل من يسعون وراءه؛ بل كان *هاتفه*. وهذا بالنسبة إلي يقول كل شيء عن المشكلة في استخبارات الإشارات". وقد قال كلاريدج إنه كان عليهم أن يتحققوا من المعلومات من "شباب على الأرض"، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.[16]

تحدث الأخطاء كثيراً خلال الحرب، ورغم وحشية النزاعات إلا أن الجيش لا يستطيع أن يضمن عدم استهداف الأبرياء أو تعرّضهم للأذى. ربما كان موت أمان الله مجرد خطأ، وهذا النوع من الأمور يحصل دائماً في فوضى الحرب. يتكلم الجنود عن حالة يسمّونها snafu (أو اضطراب): بمعنى أنها حالة طبيعية تسوء فيها الأمور كثيراً. ولكنهم يتقبّلونها لأنهم يعرفون أن المنتصر ليس معصوماً عن الخطأ، ولكنه مجرد شخص يرتكب أخطاءً مهمةً أقل من خصمه.

ما أعطى هذه القضية كل هذا الصدى- بالإشارة إلى وجود فشل نظامي أكثر في عالم الاستخبارات- لم يكن الخطأ نفسه، بل الحدّة التي دافع بها أولئك الضالعون في العملية عن أعمالهم، وكذلك المفارقة المريرة باستهداف قافلة أشخاص كانوا سيشاركون في حملة انتخابية ديموقراطية أتت الولايات المتحدة إلى البلد للترويج لها. بدا أنه رغم كل صدق نواياهم، إلا أن المسؤولين الأميركيين فقدوا القدرة على الرؤية أبعد من فقاعتهم الأمنية، وعلى التفكير كأشخاصٍ عاديين.

بقي كبار المسؤولين الأميركيين الضالعين متعنّتين، ووفقاً لأحدهم:

> نحن واثقون جداً جداً من أن محمد أمين الذي استهدفته تلك الغارة كان قائداً للمتمرّدين، وعضواً في حكومة الظل في تخار، ومشاركاً نشيطاً في نشاطات المتمرّدين. نحن واثقون جداً من أن الاسم ظابط أمان الله اسمٌ مستعارٌ للشخص الذي نعرفه باسم محمد أمين. الشخص الذي استهدَفناه كان يستخدم الاسم المستعار ظابط أمان الله.



الغارة الجوية على قافلة الحملة الانتخابية في ولاية تخار، 2 سبتمبر 2010
N
طاجكستان
نهر بانج
ولاية درقد
ولاية يانجي كالا
ولاية جهاب
★ الغارة الجوية
قتلت الغارة الجوية الأميركية ظابط أمان الله. وفقاً للجنرال الأميركي دايفد بترايوس، أثبتت الاستخبارات أن أمان الله كان مسؤولاً رسمياً في حركة طالبان.
لكن أمان الله أتى من ولاية درقد التي تبعد مئة كيلومتر عن منزل قائد حركة طالبان في كلفغان.
تخار
ولاية رستاق
قندوز
أفغانستان
قندوز
ولاية كلفغان
0 5 10 miles
0 5 10 15 20 km

بلَغَت تلك الثقة أعلى المراتب وصولاً حتى إلى قائد الجنود الأميركيين وجنود الناتو في أفغانستان في ذلك الوقت، دايفد بترايوس، الذي أصبح بعدها رئيس وكالة الاستخبارات المركزية. بنى بترايوس سُمعته في حملة العراق بطلبه من الجنود أن يتصرّفوا بشكل سليم؛ أي أن يتوقفوا عن إيذاء الأشخاص الذين جاءوا لينقذوهم. لكنْ عندما سألتُه عن تخار وعما جَعَله يظن أن أمان الله كان الهدف الصحيح، أصبحت عيناه قاسيتين كالفولاذ وأجابني: "حسناً، لم نفكّر، وكنا في تلك الحالة- مع احترامي لك- كنا نعرف. كانت لدينا تسجيلات ترجع لأيامٍ وأيامٍ مما يسمّى "العين التي لا ترفّ"، أكّدتها نماذج أخرى من الاستخبارات، وقد بيَّنت لنا أنه لا مجال للشك بشأن هوية ذلك الشخص".

لكنْ كيف يُعقَل أن الرجل الذي قُتل كان يعيش علانيةً في كابول، وقد قال مسؤولون حكوميون أفغان إنه كان بريئاً؟ ما الذي أقنعه؟ "معلومات استخباراتية دقيقة جداً أبلغتنا بما كان يفعله بالضبط عندما كان في كابول، وما كان على وشك فعله بالضبط هناك. لذا مرة أخرى، لا مجال للشك بشأن ذلك الرجل، مع احترامي لك".[17]

كانت الحقيقة، مثلما اكتشف كل شخص خارجي حقّق في المسألة، مختلفةً. فقد ظهر أن المعلومات الاستخباراتية الأميركية لم تكن مريبة فحسب، بل- مع احترامي- خاطئة بالكامل. فقد أظهَرت النملة، ظابط أمان الله، وكأنه عميل مزدوج لحركة طالبان، فيما هو لم يكن كذلك.

عندما تم اعتقال عبد الرحمن، لم يكن لديه حقاً عمٌّ عضوٌ في حركة طالبان وحاكم ظل لولاية تخار (كانت حركة طالبان تعيِّن مسؤولي"ظل" لكل ولاية في أفغانستان). كان اسمه محمد عالم. عمره تسعة وأربعون عاماً، وهو ابن قائد مشهور قُتل في الجهاد ضد السوفيات. اتّخذ عالم، كمعظم المتمرّدين، اسماً حركياً لنفسه في الحرب ضد الناتو وهو "محمد أمين". باختصار، كان الرجل الذي يبحث عنه الأميركيون. وكل سيرته، بما في ذلك أسماء أفراد عائلته وحقيقة أنه يملك منزلاً

بالقرب من بيشاور في باكستان، تطابق السيرة التي زوَّد بها المسؤولون الأميركيون عن هدفهم.[18]

شتّان ما بين أمان الله وعالم (المُلقّب محمد أمين). فقد كانا شخصين مختلفين. كلاهما من العرق الأوزبكي من ولاية تخار، لكنْ في حين أن أمان الله أتى من ولاية درقد، أتى عالم من كلفغان التي تبعد مئة كيلومتر عن هناك. كان الأول يعيش مع زوجته في كابول، بينما الثاني لا يزال يعيش مع زوجته بالقرب من بيشاور. وقد أكّد مُسنّ محلي في كلفغان، الحاج خير محمد، أنه يعرِف عالم وابن أخيه جيداً. وقال إن ابن الأخ كان في السجن، وأضاف بشكل عفوي أن عالم كان "حاكم الظل لولاية تخار".[19] لم يتطابق أي شيء من هذا مع سيرة أمان الله. ورغم ما اعتقدته الولايات المتحدة، لم يكن أمان الله اسماً مستعاراً، بل كان رجلاً مشهوراً؛ بطلاً محلياً. لكن هذه التفاصيل كانت تافهة جداً لكي تكترث لها الاستخبارات الأميركية العظيمة.

إذا نظرنا إلى الوراء، فسنرى أن الذين حقّقوا في مقتل أمان الله استنتجوا أن الأمور اختلطت بينه وبين أمين عن غير قصد. ربما اختلط الأمر على المتنصّتين بسبب اتصالٍ ما تمّ بين محمد أمين الحقيقي وظابط أمان الله، وظنوا أن "أمين" هو الذي أجرى الاتصال، ولم يتلقاه. لا شك في أن الأميركيين سجّلوا محادثات شخص قائد في حركة طالبان يخطّط لشنّ هجومٍ، ولكن من دون الاطلاع على سجلاتهم السرية، لا أحد يستطيع التأكد من هوية الشخص الذي كانوا يتنصّتون عليه، ورقم الهاتف في ذلك الوقت.

بعد مقتل أمان الله ببضعة أشهر، تجوّلتُ ليومين في شمالي أفغانستان مع قائد الشرطة الإقليمية الجنرال محمد داود. لم يكن صديقاً لحركة طالبان، ولكنه كان يعرفهم شخصياً. كانت أيامي معه قد تخلّلتها مكالمات على هاتفه الجوّال في الاتجاهين بينه وبين عدوه. إذا أخذنا تلك المكالمات الهاتفية من دون سياق، ومن دون فهمٍ للفوارق الطفيفة في علاقة هذا الرجل بحركة طالبان، فإن أي شخص

يتتبَّع اتصالات قائد حركة طالبان سيظن عن طريق الخطأ أن داود صديقٌ له. في الواقع، قتلته حركة طالبان بعد فترة قصيرة من آخر مرة رأيته فيها، بواسطة انتحاري في تخار نفسها.[20]

من دون الاطلاع على السجلات السرية لقضية أمان الله، لا أحد يستطيع أن يكون متأكداً كلياً أين حصلت الأخطاء. لكنّ مايكل سَمبل مقتنعٌ بأن "خطأ فادحاً قد ارتُكب هنا بطريقة أو بأخرى. إنها حالة كلاسيكية بأن يُعتبر شخص، لديه سبب شرعي لكي يتصل بشخص مصنَّف كإرهابي، الإرهابيَّ نفسه".[21]

في مارس 2011، غادر سَمبل منزله الذي يقع في مزرعة خارج إسلام أباد وقاد سيارته كالمعتاد إلى المدينة الحدودية بيشاور. رافقه في تلك الرحلة صديقان موثوقان كانا شاهدين على ما جرى بعد ذلك. استقبله رجلٌ في منتصف العمر يضع عمامة سوداء في غرفة في أحد الفنادق. أراه الرجل بطاقة هويته الباكستانية للاجئين، وكان اسمه عليها "محمد أمين". كان هذا اسمه المستعار، لكنه كان يمتلك أيضاً أوراقاً أخرى تؤكّد هويته الحقيقية؛ محمد عالم. وقال لسَمبل إنه كان يُدرك حصول ضربة الناتو في 2 سبتمبر، ولم يتفاجأ من أنه مستهدَف. فعلى حدّ قوله، "هذه هي الحرب!". لكنه أشار- تماماً مثل مارك تواين- إلى المبالغة الكبيرة جداً في تقارير موته.

قال عالم إنه تمت ترقيته منذ الهجوم، ولم يعد نائب الحاكم. كما قال إن حركة طالبان دَرَست الحادث، واستنتَجت أنه ربما كان خطأ ارتكبته استخبارات إشارات الناتو. والأهم من ذلك- حسبما أضاف عالم- أن مُخبراً محلياً حاقداً أخبر الناتو بكل بساطة أنه وأمان الله كانا الشخص نفسه، ثم أعطاهم رقم هاتف أمان الله. وقال: "هذه ليست حالة منعزلة".

أُعجب سَمبل بعالم. فقد رآه "مثالاً كلاسيكياً" لشخص كانت الولايات المتحدة تستهدفه في حملة القتل/الاعتقال. "إنها مأساة؛ وذلك لأن كل ما نستطيع فعله هو قتل شخص كذاك، لأنه أفغاني صالح".

في مايو 2011، وبعد عودتي إلى إنكلترا، رنّ هاتفي. كانت مكالمة من أفغانستان، من شخص شارك في عملية قتل أمان الله. عليّ أن أقرّ لقيادة العمليات الخاصة المشتركة بفضلها. ففي حالات ثلاث، مُنحتُ فرصةً كبيرةً لأطرح أسئلة على مسؤولين أميركيين حول هذه المسألة. كان الأشخاص الضالعون في قيادة العمليات الخاصة المشتركة أذكياء، ويدركون جيداً تعقيدات البيئة الأفغانية، وأين سيتناول العدو الطعام ويشرب الشاي، وينام مع المواطنين أنفسهم الذين ذهبت الولايات المتحدة إلى هناك لحمايتهم.

بدا الموظف الرسمي الذي اتصل بي حينها صريحاً بشأن بعض الثغرات في الاستخبارات الأميركية. وأقرّ قائلاً: "لم نشكّ قطّ في أنها كانت قافلة انتخابية. لكننا لم نعرف ذلك [في ذلك الوقت]". وعندما سألته عن طريقة تنفيذ الضربة الجوية، وافَق أيضاً على احتمال مقتل بعض الأبرياء. "أقبل بوجود احتمال في أن يكون بعض الأشخاص الذين قُتلوا في القافلة ليسوا مقاتلِين. كانت كل مركبة مليئة برجال مسلّحين".

لكن حتى الآن، وبعد سماع ما اكتشفه سَميل، ليس هناك أي أثر للشك في أنهم قتلوا الشخص الصحيح. لقد راجعوا الحادث مراراً وتكراراً، وقد قدَّم محلّلٌ دقّق بالحادث مرة تلو الأخرى تقريراً قال فيه: "لا شك لديّ على الإطلاق في أن محمد أمين هو الشخص نفسه الذي يدعى ظابط أمان الله". إذاً، ماذا بشأن الرجل في باكستان الذي كان حيّاً وقال إنه محمد أمين؟ أجابني الموظف الرسمي: "أياً كان ذلك الشخص في باكستان، فنحن نرحّب به لكي يأتي ويتكلم معنا! إننا نتعامل مع عدو يستطيع اختراع شخصيات بكل سهولة. يمكنهم السفر كما يشاءون ذهاباً وإياباً عبر الحدود بأوراق ثبوتية مزيّفة".

كان الأميركي المتحدث عبر الهاتف عقلانياً جداً ويُدرك كل التناقضات، لكن من الواضح أن لديه ثقة عمياء بآلة الاستخبارات: "أدرك أنني ميّالٌ إلى تصديق المعلومات الاستخباراتية التي كانت بحوزتنا. لكننا حقاً نظرنا لنرى إن كان من الممكن أن نكون قد أخفقنا في هذا الأمر. لا يمكننا أبداً إيجاد أي دليل على أننا قد أخفقنا".

مثلما يجري في العديد من قصص الاستخبارات، كان من المستحيل الجزم هنا. فقيادة العمليات الخاصة المشتركة لم تكشف كل مصادرها قطّ. ومن الممكن أنهم كانوا يملكون بعض الاستخبارات البشرية أيضاً من عميل أعطاهم معلومات أقنعتهم بأنهم وقعوا على الشخص الصحيح. وبالطبع، أصرَّت المصادر الأميركية على أنهم امتلكوا بعض "الاستخبارات البشرية". لكنْ من الواضح أنه كان ينقصهم جاسوس جيد؛ شخصٌ داخل الشبكة التي كانوا يستهدفونها، لكي يقطع الشك باليقين ويُخبرهم مَن كان محمد أمين، وما دوره، وأين يمكن إيجاده. لا يمكن إثبات أن ظابط أمان الله كان يعيش حياة بريئة بالكامل. ومهما تكن الأشياء التي يتذكرها أصدقاؤه، فمن المستحيل منطقياً إثبات براءة سلبية. لكنّ ما يمكن إثباته هو أن ظابط أمان الله ومحمد أمين كانا شخصين مختلفين. ورغم ضمانات الشخصيات الرفيعة في الجيش الأميركي، بما في ذلك قائد كل القوات الأميركية وقوات الناتو في الحرب، وبغض النظر عن نتيجة التفحّص الداخلي، أظهَرت آلة الاستخبارات أنها تعاني من بعض العيوب.

لم يبرهن اغتيال أمان الله عن أن الطرائق التي يستخدمها الجيش في الحروب العصرية- مثلما تمثّل حملة قيادة العمليات الخاصة المشتركة- كانت خاطئة. فقد كانوا يعثرون على الأشخاص الذين يسعون وراءهم بشكل دوري، ويقبضون عليهم أو يقتلونهم. وكان مبدأ تركيز كل شيء على هدف واحد، وطرائق تحليل الشبكة المستندة إلى تعقّب سجلات الهاتف وتحليلها، بالإضافة إلى استجوابات السجناء، متينة عادة. وسيتمكنون في الأشهر المقبلة من إيصال الاستخبارات

الأميركية إلى أعلى أهدافها. لكن تلك الطرائق التقنية العصرية لم تكن تعمل دائماً، فقد كان من السهل خلط البيانات والقيام بالكثير من الافتراضات الخاطئة.

مع نضوج الحملة، أصبح الضباط في القوات الخاصة الذين قادوا الخطوط الأمامية الصعبة للحرب في أفغانستان، وكذلك الجنود في الكتائب الدورية على الأرض أكثرَ حكمةً في هذه اللعبة، وفي إدراك الفوارق الطفيفة للبيئة المحلية. وكان إدراكهم للتنافسات القَبَلية ومقدار التحيّز لدى المُخبرين المحليين يزداد. لكن ذلك جَعَل الاستخبارات البشرية تبدو أقل جاذبية في أغلب الأحيان.

مع بدء العالم "الخارجي" الحقيقي بالظهور أكثر تعقيداً من أي وقت مضى، كان من المغري أكثر من الماضي الاستعانة بالحقائق التي بدا أن المصادر غير البشرية تزوِّد بها. فعندما تعطي وكالة الاستخبارات المركزية أو جهاز الاستخبارات السرية معلومات سرية للجيش؛ كالقرية التي يختبئ فيها أفراد حركة طالبان مثلاً، يروي الأشخاص الضالعون كيف أن الجيش تحقّق بحكمة كبيرة من هذه الاستخبارات البشرية بالوسائل التقنية "قبل إسقاط القنبلة"؛ كأن يتحقق مثلاً مما إذا كانت الهواتف الجوّالة لأفراد حركة طالبان متواجدة في تلك القرية. لكن العكس لم يكن صحيحاً دائماً. إذ لم تكن هناك دائماً تقارير بشرية قوية لدعم اكتشاف تقنيّ. وكانت آلات الحرب الجديدة- تركيبة التكنولوجيا والمراقبة الشاملة- تدفع إلى الشعور بالتفوّق كثيراً، لدرجة أنها بدت وكأنها تُعمي بصيرة العديد من مستخدميها، بمن في ذلك الأشخاص حسنو النية والأذكياء جداً، حيث تمنعهم من رؤية محدودياتها.

لم تكن المشكلة في فشل بعض التكنولوجيات أو الطرائق المحدَّدة. ومن المحتمل أن يكون قد تم اليوم تصحيح الأخطاء التي سبَّبت عدم التعرّف إلى أمان الله. كانت المشكلة في الثقة المُفرطة في فكرة التكنولوجيا بحدّ ذاتها؛ أي في الاعتقاد المُعدي بأن العلم والكمبيوتر يستطيعان بطريقة أو بأخرى التغلّب على مشكلة العمل في بيئة محيِّرة وأجنبية خطيرة.

إن تأثير غياب ما يكفي من الاستخبارات البشرية في حملة عسكرية اعتمَدت على معلومات استخباراتية ممتازة ظَهَر بوضوح في المعركة الأوسع للفوز بالحرب وحماية السكان، وهي حملة تحالَف فيها الناتو مع الأشخاص الخطأ باستمرار. كما ظهرت الثغرة الاستخباراتية نفسها بوضوح أيضاً في الحملة التكتيكية الضيقة، عندما كان الأشخاص الخطأ يُقتلون في أغلب الأحيان؛ رغم الجهود الكبيرة التي تُبذَل لتجنّب ذلك. في الحالتين، كان الجيش يفشل ببساطة في اكتشاف العدو الحقيقي.

إذا كانت هناك ثقة كبيرة في الآلات، فما البديل في الحروب العصرية؟ أهو المزيد من الجواسيس الذين يزوِّدون بمعلومات استخباراتية سرية ملموسة- "رجل قريب" في كل عرين لحركة طالبان- أو فقط المزيد من الانخراط الذي يزوِّد بسياق أعمق عند مواجهة فشل استخباراتي أعرض؟

في الواقع، كان هناك افتقار إلى البديلَين معاً. لكنْ من بين الاثنين، كانت الثغرة الكبرى تكمن في الفهم الاستراتيجي للعدو والسكان. فاستخدام جواسيس للحصول على المزيد من أسرار حركة طالبان لقتل المزيد من قادتها أو القبض عليهم لم يكن ليحل المشكلة. فرغم أن التدخّل الخارجي قد غذّاها، إلا أن الحرب الأفغانية كانت تمرّداً، أي كانت نزاعاً سياسياً وعسكرياً. ومهما هاجم الجيش المتمرّدين، فعليه أن يسأل عما إذا كانت تتم معالجة أسباب التمرّد، وعمّا إذا كان تدخّل الجنود الأجانب عاملاً إيجابياً بحقّ. تتطلّب الإجابة عن هذين السؤالين إدراكاً سياسياً حاداً يتخطى بكثير مسألة التجسّس العادي.

ومع ذلك، كان هناك عملياً خط غامض بين عمل مصادر المعلومات الاستخباراتية السرية، وتجميع بعض المعارف العادية والمعلومات البديهية. إنها حقيقة بديهية (ومن المضحك مشاهدتها في الميدان)؛ وهي أن قادة شبكات التجسّس المحترفين يميلون إلى ادعاء أن معارفهم العاديين "عملاء" لديهم. وبما أن العدو- حركة طالبان- يعيش بين السكان وكان مواطناً مثلهم، فقد كان الكثير

من الأشخاص العاديين يعرفون معلومات سرية محدَّدة؛ كأسماء أعضاء إحدى جماعات حركة طالبان والمكان الذي يختبئون فيه. بالإضافة إلى ذلك، كان العكس صحيحاً أيضاً. فبما أن عدداً قليلاً جداً من الأفغان كان مستعداً حقاً "ليتجنّد" كعملاء أوفياء لجهاز استخبارات خارجي، فإن أفضل العملاء قد يزوِّدون بكمية قليلة جداً من الاستخبارات الملموسة، ولكنهم سيكونون مفيدين فقط في التزويد بنظرة عامة أوسع على النزاع. وقد جادَل البعض قائلين إن أفضل وسيلة لتجميع المعلومات الاستخباراتية عن العدو في تلك الظروف هي في أن يكونوا منفتحين ويقوموا بشيء بسيط كرفع سماعة الهاتف والتحدث إليهم، أو الالتقاء بهم في مكان محايد لاحتساء فنجان من الشاي.

كانت جهود كهذه أشبه بديبلوماسية سرية أكثر من كونها تجسّساً. لكنْ في أفغانستان، وفي أي مكان خطير أو صعب حيث الاتصال بالجماعات العدائية كان أمراً حسّاساً سياسياً، بدأت نشاطات كهذه تصبح جزءاً أساسياً من عمل قائد شبكة التجسّس العصري.

الفصل 10

الجاسوس صانع السلام

"يمتلك ضباط الميدان الناجحون ثلاث مميزات مهمة عادة؛ إذ سيكونون قد كوّنوا شخصياتهم عن جدارة واستحقاق، وسيكونون إنسانيين ولديهم القدرة على عقد صداقات، كما سيكون لديهم حسّ الفكاهة"

- نيكولاس إليوت، ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية، وزميل كيم فيلبي وصديق له[1]

داخل سيارة أجرة صفراء في أحد أيام صيف 2002، نظر رجلٌ يبلغ من العمر 53 سنة، ويرتدي سروال جينز وقميص "تي شيرت"، إلى خارج النافذة من حيث يجلس على المقعد الخلفي، بينما كان السائق يشقّ طريقه في الشوارع الضيقة لبلدة في فلسطين. كان الدرب متلويّاً.

أدار السائق جهاز الراديو. كانت هناك أحداث كثيرة تذاع في نشرة الأخبار. فكل يوم، كان شباب من هذه الأرجاء يعبرون إلى إسرائيل مزنَّرين بأحزمة ناسفة، ويفجِّرون أنفسهم. وكان الجيش الإسرائيلي ينتقم؛ فيقتحم القُرى والبلدات الفلسطينية، ويعتقل المناضلين المشبوهين، ويهدم منازلهم. وكان ياسر عرفات، قائد منظمة فتح الفلسطينية، محاصراً داخل مقرّه في رام الله، ومُحاطاً بالجنود الإسرائيليين.

كان الراكب جاسوساً إلى حد ما؛ فهو أحد ضباط استخبارات جلالتها. لكنه لم يتصرّف مثلما قد تتوقع من رجل كهذا. فرغم الخطر، لم يكن يحمل مسدساً أو

حتى هاتفاً، ولم يكن يرتدي درعاً واقياً للجسد. كما أنه لم يكن موهوباً في أي لغة محلية، ولم تكن مهمته سرقة أسرارٍ أو تدبير خيانةٍ.

توقفت سيارة الأجرة أمام بوابة أحد مخيَّمات اللاجئين، وخرج الرجل منها. كان المكان يدعى بلاطة، على حدود مدينة نابلس. نظر الرجل حوله، فرأى فتىً صغيراً جاء إليه وسأله: "ميستر أليستير؟". أومأ الرجل، فانطلق الفتى ليرشده إلى الطريق.

سارا في شارع داخل متاهة من الأبنية، ودخلا أحد المباني، ثم خرجا من مدخله الخلفي إلى زقاق، ثم عبرا مبنى آخر. سيكون من الصعب تذكّر ذلك لاحقاً. وهذا كان الهدف.

وأخيراً، وصلا إلى شقة صغيرة نصف مُضاءة. أشار الفتى إلى الرجل كي يدخل غرفةً صغيرةً ثم اختفى. كانت هناك مجموعة صغيرة من الرجال بانتظاره في الداخل، معظمهم في العقد الرابع من العمر، يرتدون سراويل جينز وقمصاناً أنيقة. كان كل واحد منهم ممثلاً لحزب مختلف منخرط في الكفاح المسلّح.

قال أحد المناضلين: "حسناً، من أين نبدأ؟".

بالنسبة إلى ضابط جهاز الاستخبارات السرية الجالس أمامهم، ألستير وارن كرُوك، يمكن القول إن القصة بدأت منذ زمن طويل. فقد قضى حياته في جهاز الاستخبارات وهو يتكلم مع رجال مسلّحين. وقد أخذه ذلك إلى مسقط رأسه، إيرلندا، وكذلك إلى أفريقيا الجنوبية وناميبيا وكولومبيا وباكستان وأفغانستان. وأخيراً، في العام 2000، جاء إلى فلسطين المحتلة. تولّى إدارة برنامج محادثات من شخص واحد مع المناضلين الفلسطينيين، في زمنٍ كانت فيه اتصالات كهذه ممنوعة رسمياً.

سيُطرَد كرُوك لاحقاً من جهاز الاستخبارات السرية. فعندما واصل محادثاته مع المناضلين بشكل غير رسمي، وصفه البعض بأنه "أصبح ابن البلد"، وهو تعبير

استهزائي استعماري قديم يُستخدَم ضد شخص أصبح متعاطفاً جداً مع السكان الأصليين. واعتبرته وزارة الخارجية البريطانية لاحقاً شخصية غير مرغوب فيها، كما صوّره معلّقو الجناح اليميني وكأنه شخص "بغيض" وسيئ. وقد وصفه أحدهم بالقول إنه مثل "شركة علاقات عامة للجمهورية الإسلامية مركزها في بيروت" ولديها "تعاطف مع مُطلقي الصواريخ ومُحاربي الدروع البشرية في غزة".[2] حتى إن بعض أصدقائه اعتبروا أنه بدأ يتقرّب كثيراً من المسلّحين الذين كان ينسّق معهم، ويدافع عنهم أيضاً في أغلب الأحيان.

بسبب كل هذا الضجيج وطريقة رحيله، بقيت سيرة كرُوك تشكّل نافذةً إلى أحد التقاليد الثابتة في العمل الاستخباراتي، لكنْ نادراً ما يتم التكلم عنه: القناة السرية للسلام. لا يجب تعظيم قصته الشخصية، وهي قصة تجسّس من دون خيانة، لأن عدداً كبيراً من الأشخاص الآخرين قد قام بعمل مماثل، وبالأخص في العام 2003 عندما قاد فريقٌ من جهاز الاستخبارات السرية برئاسة السير مارك ألِن- وهو صيّاد بالصقور ويدرس طرائق البدو- مفاوضات ناجحة، تشمل أيضاً ستيفن كابس من وكالة الاستخبارات المركزية، ساعدت في تحقيق مصالحة مع العقيد معمر القذافي، وأنهت محاولة ليبيا للحصول على التكنولوجيا النووية. وفي السبعينيات أيضاً، انخرطت وكالة الاستخبارات المركزية في حوار شامل مع الجماعات الفلسطينية المسلّحة. لكنْ لأنه تم نشر معظم سيرة كرُوك على الملأ، فمن الأسهل الحديث عنها من دون قيود. وبينما نستكشف كيف يبدو التجسّس العصري وكيف يجب أن يبدو، ستسلّط قصته الضوء على الخيط الرفيع بين التجسّس والديبلوماسية السرية، وعلى ما إذا كان الحصول على معلومات استخباراتية سرية عن جماعة تهديدية يُعتبر بمثل أهمية فهم طريقة تفكير أعضائها فقط. في معظم حالات الاتصالات السرية المماثلة، لم تُعرَف قط تفاصيل عن الضباط المشاركين فيها أو هوياتهم. وحتى في حالة كرُوك، كانت هناك قيود صارمة حول ما يمكنه كشفه عن نشاطاته الماضية. لكنْ بفضل "نزهته" العلنية جداً كجاسوسٍ في الصحافة الإسرائيلية، يمكن رفع النقاب قليلاً.[3]

إذا قُدِّر لبريطاني أن يولد ليعيش حياة مليئة بالمغامرات في أراضٍ أجنبية، فهو ألستير كرُوك. وقد قال: "حقاً لم أعش في إنكلترا مطلقاً. فقد عشتُ معظمَ أوقاتي ما وراء البحار، في عدة أماكن، وقد تربيتُ في بيئة مختلطة جداً". كان هذا أسلوبه الملطّف بشكل كبير ليصف نمط حياته.

كانت جذور آل كُروك متنوعةً. فقد كان ألستير متحدّراً من السير توماس كرُوك الذي جاء من إنكلترا إلى بلدة بلتيمور في ولاية كورك في العام 1606، وأسَّس مركزاً للتجارة مع القراصنة. ورغم نَهبْ أولئك القراصنة للبلدة لاحقاً في العام 1631، فقد عاشت العائلة في مكان قريب لثمانية أجيال أخرى. وقد وُلد ألستير في إيرلندا في العام 1949.

كانت عائلته أسترالية أيضاً. فجد أبيه الطبيب ويليام كرُوك أبْحَرَ من إيرلندا في العام 1841، وكان في السادسة والعشرين من عمره وقتها، كمستوطِن حر في معسكر الاعتقال في تسمانيا (كانت تسمّى وقتها أرض فان ديمن) مع أخيه الأستاذ. ثم انتقل الاثنان لاحقاً إلى ملبورن. وُلد والد ألستير، فريدريك مونتاغ وارن كرُوك، في العام 1896 في سيدني. وقد ترَك المدرسة العامة في المدينة، نوينغتن كولدج، للتطوّع في قوة التدخل السريع الأسترالية خلال الحرب العالمية الأولى. حارَب معها في المعركة الدموية لاحتلال شاطئ غاليبولي في تركيا، وفي خنادق الجبهة الغربية.[4]

لكنه كان رجلاً إنكليزياً أيضاً. وقد سجَّل أبوه الذي استخدَم اسمه الوسطي "وارن"، جنسيته "كإنكليزي" على وثائق سفره. كان ذلك حتى قبل أن يترك القوات الأسترالية ويتجنَّد في فوج غورخا في الهند. ورغم شعوره بالكآبة من عذاب العيش في الخنادق، رأى وارن الشاب أملاً براع من النوع القديم الأكثر لياقةً في خدمة الإمبراطورية. وقد شرَح انتقاله "كخيار مهنيّ" لكي يصبح جندياً محترفاً. "يجب أن يعجبني أيضاً، كونه نوعاً مثيراً للاهتمام من الحروب هناك، مجرد لهو بالمقارنة مع المذبحة في فرنسا".[5] بصفته ضابطاً وظيفياً في الجيش الهندي، شارَك

فريدريك في آخر الحروب الأفغانية الثلاث لبريطانيا. وفي الحرب العالمية الثانية، كان آمر لواء بريطاني برتبة مقدَّم.

ثم أضافت العائلة جذوراً أفريقيةً. فبعد تقاعد والد كرُوك، اشترى مزرعة تبغ في المستعمرة السابقة روديسيا (حالياً زيمبابوي). قضى كرُوك طفولته هناك، قبل أن يُرسَل إلى كلية آيغلون كولدج التطبيقية في سويسرا، التي يديرها أستاذ يدعى جون ك. كورليت.

كانت آيغلون مدرسةً للمُغامرين، وتقدِّر الاعتماد على الذات أكثر من أي شيء آخر، في نظام يستهدف تحديداً الأبناء المزعجين للأغنياء المدلَّلين؛ وكان العديدون منهم يأتون من عائلات مفكَّكة. ينضج الفتيان من خلال تحديات بدنية، كتسلّق صعب مثلاً، ويقول كرُوك عن ذلك: "عندما تكون أمامك حافة صغيرة عرضها خمسة سنتيمترات، ويكون سطحها جليدياً والطقس ماطراً، وعليك أن تسير عليها من دون حبال، فأنت تعرف أنك قد تنزلق في أي لحظة، وتحتك هوّة عمقها 300 متر، ولا يستطيع البابا والماما فعل أي شيء على الإطلاق لمساعدتك، حينها سيكون لذلك تأثير عميق في جعل الأشخاص ينضجون فجأة".

يتذكّر فلاديمير بوتين، الضابط السابق في KGB والذي أصبح الرئيس الروسي، أنهم أخبروه في جهازه السابق في إحدى المرات: "لا نأخذ الأشخاص الذين يأتون إلينا من تلقاء أنفسهم".[6] وكان جهاز الاستخبارات البريطانية يفكّر بهذه الطريقة أيضاً في السبعينيات. لم تكن هناك إعلانات لوظائف شاغرة، بل كان التجنيد يتم بالدعوة.

لن يؤكّد كرُوك أبداً أنه كان عضواً في جهاز الاستخبارات السرية؛ رغم أن ذلك معروف علناً، وحتى لو كان جاهزاً للتعليق، بصفة مراقِب مهتم، على طبيعة العمل الاستخباراتي وعلى انتشاره في الخارج. وهو لا يزال يميل إلى اعتبار أن قانون الأسرار الرسمية ساري المفعول. لكنْ بناءً على عدة مقابلات مع أشخاص عرفوه وعملوا معه، من الممكن تجميع قطع سيرته المهنية.

تواصل جهاز الاستخبارات السرية مع كرُوك لأول مرة بينما كان في سانت أندروز؛ وهي أقدم جامعة في أسكتلندا. درَس السياسة وعلم الاقتصاد هناك من العام 1968 إلى العام 1972. رفض ذلك في البداية. وبعد ذلك أصبح مهتماً بالنظرية الاقتصادية. ولكن بعد تخرّجه، أقنعه عمله كمصرفي صغير لفترة وجيزة في مدينة لندن بوجهة النظر الضيقة للرأسمالي، فغيَّر اتجاهه، ووافق هذه المرة بعد تكرار جهاز الاستخبارات السرية التواصل معه.

لم تجذبه مهنة الاستخبارات بسبب مغامراتها فقط، بل أيضاً بسبب عدم امتثالها للأعراف السائدة. وشَعَر- بالنظر إلى الوراء- أن تلك الوظيفة لا يُفترَض بها أبداً أن تكون عملاً ينشده المرء أو يبجّله. كانت مهمته تسليم رسائل مزعجة للحكومة، حتى لو "لم تحصل على شكر أو مكافآت لإحضارك الأخبار السيئة". لكنْ كان هناك شيء نبيل في الوظيفة. فقد اعتقد كرُوك أنه يجب أن يكون هناك تفاعل ثابت بين التحليل الاستخباراتيّ ومصادر التجنيد. كان نوعاً من العمل البوليسي. "الاستخبارات هي عندما تقرأ الصحيفة أو تسمع شيئاً ويقف شعر رأسك فجأة وتقول: "هناك قطبة مخفية"". كانت المهنة "ثائرة على المعتقدات المتوارثة"، وهدفها التقاط حالة شاذة واستخدام "الإصرار الدؤوب" لحل السر الذي يقف خلفها "ورؤية إن كان ذلك يُسقط بنية التفكير بأكملها".

من الواضح أن التدريب الأساسي لجهاز الاستخبارات السرية، أياً يكن (رفض أن يُفشي أي معلومات)، لم يدم لفترة طويلة. فحسب كرُوك، كان فن الاستخبارات في أي حال من الأحوال شيئاً إما تملكه أو لا تملكه. "كان واضحاً دائماً من التجنيد أن العمل الاستخباراتي الجيد شيء يشبه الفن، أي يتمحور حول الفوارق الطفيفة".

بحلول العام 1975، أُرسل كرُوك إلى بلد ولادته، إيرلندا. رسمياً، كان الضابط البريطاني البالغ من العمر 26 سنة ديبلوماسياً مبتدئاً يتولى العلاقات مع الصحافة. كانت تلك الأيام عنيفة. ففي فبراير من تلك السنة، دعا الجيش الجمهوري

الإيرلندي إلى وقف إطلاق النار في أولستر. لكن السلام لم يدم طويلاً، وامتدّ العنف جنوباً إلى الجمهورية الإيرلندية. وفي يوليو 1976، اغتيل السفير البريطاني الجديد في إيرلندا، كريستوفر إيوارت-بيغز، بتفجير لغم أرضي. زَعَم الجيش الجمهوري الإيرلندي أنهم أرسلوه إلى دبلن "لينسّق نشاطات الاستخبارات البريطانية".[7]

وحتى عند استئناف الجيش الجمهوري الإيرلندي نشاطاته العنفية، كان جهاز الاستخبارات السرية يستكشف طرائق للتحدّث مع قادته. فجهاز الاستخبارات السرية كان يتعامل عادة مع النزاعات خارج الأراضي البريطانية فقط. وهذا يتضمن إيرلندا؛ ولكن ليس ولاية إيرلندا الشمالية التي كانت من اختصاص جهاز الأمن الداخلي (MI5) المنافس. لكنْ عندما بدأت المتاعب في العام 1968، اعتُبر MI5 قليل الخبرة في تشغيل عملاء داخل الجماعات الإرهابية، لذا أخذ جهاز الاستخبارات السرية دوره القيادي في البداية في الجنوب والشمال على حد سواء.

في العام 1973، وصل ضابطٌ في جهاز الاستخبارات السرية مستقلٌ في تفكيره يدعى مايكل أوتلي إلى إيرلندا الشمالية، وفتح قناة غير مباشرة مع الإرهابيين. ففي أعقاب أحداث الأحد الدموي قبل سنة، حظّرت الحكومة البريطانية أي اتصال بالجيش الجمهوري الإيرلندي. لكنْ بخلاف الأوامر، ومن دون معرفة أي شخص في البداية، دفع أوتلي (وآخرون لم تُذكر أسماؤهم علناً) الباب الذي سيؤدي في نهاية المطاف إلى السلام في إيرلندا الشمالية. كان أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي يعرفونه بالاسم الرمزي ماوتن كلايمبر (متسلّق الجبال).

كان كرُوك المبتدئ مشغولاً أيضاً باستخدام أصوله الإيرلندية بشكل إيجابي. فقد اتصل بالجيش الجمهوري الإيرلندي الرسمي الأكثر يساريةً والأقل طائفيةً: "لأسباب غريبة، رفّعوني وأصبحتُ مقرّباً جداً من أحد القادة الرئيسين". كان الرسميون قد انفصلوا عن الجناح المؤقّت الأكثر عنفاً في الجيش الجمهوري الإيرلندي (بيرا) في العام 1969. وتم تدريجياً إقناع الرسميين بسلوك درب السياسة الدستورية،

حتى لو انشقّ العديد من المقاتلين إلى بيرا. لكن الانتقال لم يكن كاملاً في منتصف السبعينيات.

"اعتدتُ الذهاب إلى حفلات عشائهم في غالواي، وكنتُ أجلس إلى مائدة الطعام، و لم يكن هذا أحد المجتمعات اللطيفة المدنية في وسط الطريق". ذهب أيضاً إلى دروغيدا، على الساحل الشرقي بين دبلن وبلفاست، والتي كانت منطقة خطرة في تلك السنوات بالنسبة إلى موظفي السفارة البريطانية. "آخر بضعة أشخاص بقوا هناك تلقوا رصاصات في ركبهم، وتم رميهم خارجاً". كان الجيش الجمهوري الإيرلندي الرسمي مرتكزاً حول الاتحادات التجارية. كان يذهب إلى اجتماعاتهم، وكانوا بعد ذلك "يستمتعون كثيراً بالقول شون هنا قد فعل هذا أو ذاك. إنه [قائد] وحدة الخدمة النشطة في بلفاست، وقد خرج من المتاهة [السجن] للتو. وستقضي عدة ساعات تناقش فيها التاريخ الإيرلندي معهم. الحمد لله لأنني درستُ التاريخ جيداً".

كان الطرفان يطلقان النار على بعضهما بعضاً، ويُجريان محادثات سرية في الوقت نفسه. كان هذا المسار المزدوج موجوداً داخل عائلة كرُوك نفسها. فأخوه إيان، الذي يكبره بسبع سنوات، كان في الجيش البريطاني ويحارب في إيرلندا الشمالية مع نخبة القوة الجوية الخاصة 22. وقد أصبح لاحقاً آمر وحدة الاحتياط التابعة للفوج، القوة الجوية الخاصة 23، وكان مشهوراً لدوره كضابط عمليات في هجوم العام 1980 على السفارة الإيرانية في لندن.

كانت الحكومة البريطانية تصرّ علناً على أنها ستعامل أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي كمجرمين، وليس كجيش متمرّدين على الإطلاق. لذا، كان السجناء من الجيش الجمهوري الإيرلندي يُحاكمون كمجرمين وليس كسجناء حرب. وقد زَعَمت الحكومة أنها لن تتأثر بالتهديدات، وستعقد حواراً فقط إذا ألقى الإرهابيون أسلحتهم أولاً. لكن كرُوك قال إن هذا الأسلوب كان "محض خيال" دائماً. ففكرة أنك "لن تبدأ العملية [المحادثات] إلا بعد التوصّل إلى اتفاق على تسليم الأسلحة أو

توقف العنف" كانت مُعيبة إلى حد كبير، و لم يصدّقها أحد حقاً. ففي النهاية، كان الأميركيون قد جلسوا مع عدوهم الفييتنامي في باريس؛ حتى خلال استمرار القتل في ساحة المعارك.

لكنْ باستخدام تعبير ونستون تشرشل، من غير السهل أبداً إبقاء "الحرب-الحرب" و"الفك-الفك" يسيران بشكل متوازٍ. ووفقاً لكرُوك، لا بدّ لأحد المسارين أن "ينفجر في وجه المسار الآخر في وقت من الأوقات". فإذا أدرك العدو أن ضابط الاستخبارات قد اتصل- ولو بدافع تجميع المعلومات لقتله- فستتبخّر الثقة، ويمكن أن تصبح الأمور خطيرة. "الشيء الرئيس هو كيف تبني مساراً يمكنه أن يعزل نفسه، ويمكنه- إذا شئت- أن يغطي على الجروح على الجبهة العسكرية".

نشرت الفاينِنشل تايمز لاحقاً نبذةً عن كرُوك شرحت فيها أن هدف محادثات جهاز الاستخبارات السرية مع الجيش الجمهوري الإيرلندي هو محاولة إيجاد معتدلين "يمكننا أن نأمل منهم أن *ينفصلوا* عن المتطرّفين".[8] قيل الشيء نفسه لاحقاً حول جهود جهاز الاستخبارات السرية ووكالة الاستخبارات المركزية للتكلم مع متمرّدي حركة طالبان خلال الحرب في أفغانستان بعد العام 2001. وقد قالت بريطانيا إن الهدف كان إيجاد "القابلين للتصالح" وإقناعهم إما بالتخلي عن كفاحهم أو بتغيير موقفهم كلياً.

لكنْ إذا كان هدف المرء استمالةَ المعتدلين، فسيكون الاتصال بالعدو أمراً عدائياً ومُراوِغاً على حد سواء. لم يكن الهدف هو السعي إلى الحوار، بل إحداث شقاق في ما بينهم. وما لم يقله كرُوك- لكنّ الآخرين شدَّدوا عليه- هو أن استخدام جهاز الاستخبارات السرية ووكالة الاستخبارات المركزية لمثل هذه الوسائل كشف خط الصدع بين الوظيفة اليومية لضابط الاستخبارات التي تقضي بشنّ حرب ضد العدو؛ بمحاولة تجنيد خائنٍ في صفوفه أو إيجاد نقاط ضعف أخرى لديه، وبين دوره كسمسارٍ صادقٍ يحافظ على محادثات سلمية مع ذلك العدو.

قال كرُوك إنه في جميع الأحوال، كان الظن بأن اصطياد المتصالحين ساعد في إنهاء النزاع أمراً "سخيفاً جداً". لماذا؟ لأنه، برأيه، من غير المرجّح أبداً أن يتمكن الجناح الليبرالي أو المعتدل في أي منظمة عنيفة من توفير فرصة للسلام: "كل محاولة لإيجاد الحل الوسطي سيُحكم عليها بالفشل". فبالنسبة إليه، من الخرافة الظن "أنك إذا تكلّمت مع *معتدلين* مثلنا فسيتمكّنون من إيجاد حل بطريقة أو بأخرى".

افترق كرُوك عن الليبراليين هنا. فقد كان مشكّكاً بكل التمثيليات الهاوية لصناعة السلام، وبكل المحاولات حسنة النية ولكن المضلّلة (من قِبل رجال الدين أو مجموعات المتطوّعين مثلاً) لتوحيد "الأشخاص حسني النية". في الحقيقة، يحلّ السلام عندما تتعامَل مع الرجال الأقوياء- الذين يحملون البنادق والقنابل- وتُقنِعهم بأنه من مصلحتهم. "الأشخاص الذين يتوصلون إلى حل في كل الحالات التي رأيتُها تقريباً، وفي كل النزاعات تقريباً، كانوا الأشخاص الذين يقودون ولاء [الجناح] العسكري". لهذا السبب، تم استئصال الجمهوريين الوسطيين من الحزب الاشتراكي العمالي في إيرلندا الشمالية في نهاية المطاف. وكان مارتن ماكغينيس وجيري أدامز- شخصيتان رئيستان في الجناحين العسكري والسياسي، شين فين، للجيش الجمهوري الإيرلندي- هما اللذين توصّلا أخيراً إلى وقف دائم لإطلاق النار وتوقيع اتفاقية السلام.

بإمكان "صناعة السلام" السرية في الحروب الأهلية العصرية أن تصنع العجائب؛ فقط إذا كان الوقت صحيحاً. ففي الأيام الأولى لأي نزاع، عندما يكون الشباب الساخطون معبّئين عادة بغيظ قاتل، لا يوجد أي مقدار من المحادثات يمكنه أن يهدّئ من روعهم. وقد اعتاد كرُوك على القول إنه يجب ترك "المقاتلين يشيخون" قبل أن يسأموا من القتل. وكان ذلك درساً لم تتعلّمه الولايات المتحدة بعد هجمات 11 سبتمبر، عندما ساهمت حملة القتل/الاعتقال التي قامت بها في أفغانستان وباكستان بتجديد نشاط قيادة حركة طالبان باستمرار.

بعد مغادرته إيرلندا في العام 1979، كانت غزوة كرُوك التالية هي التمييز العنصري في أفريقيا الجنوبية. وما فعله هناك بالضبط لا يزال سراً، لكنه تضمَّن التعامل مع منظمة جنوب غرب أفريقيا الشعبية (سوابو)، وهي حركة التحرير المدعومة سوفياتياً في ما أصبحت ناميبيا الآن، لكنها كانت معروفة وقتها بجنوب غرب أفريقيا، وخاضعة لحُكم أفريقيا الجنوبية. وكانت إحدى مهامه الضغط لتنفيذ مطالب الأمم المتحدة؛ أي تجريد منظمة جنوب غرب أفريقيا الشعبية من أسلحتها.

احتجّ كرُوك بالقول إنه كان هناك تسييس واضح لعمل جهاز الاستخبارات السرية والبعثة الديبلوماسية البريطانية خلال تلك السنوات: "كان هذا جزءاً من ثورة السيدة تاتشر: [أصبح] عمل السفير بيع البضائع البريطانية، وتمرير رسالة السياسة البريطانية، وليس بدء إرسال رسائل متناقضة". وقد شعَر أن الفساد قد بدأ- أبعد بكثير من الأحداث في أفريقيا الجنوبية- مع مَيل نحو التفكير السياسي الليبرالي الجديد الذي تجذّر في شيكاغو خلال السبعينيات، والذي أثّر على المفكّرين المُحافظِين في كل أنحاء الغرب. وقال كرُوك إنه وفقاً لوجهة النظر هذه، تستطيع الديموقراطية أن تصمد فقط إذا تم حشد المواطنين ضد الاستبداد؛ وذلك يتطلّب وصف العالم بصورة أحادية، أي أنه منقسم بين رجال صالحين ورجال أشرار.

ولاحَظ هذا في أفريقيا الجنوبية، حيث تصادم الديبلوماسيون البريطانيون مع تاتشر، التي كان دعمها الحاد لحكومة التمييز العنصري يتطلّب التجريح بكل خصومها. "كان السفراء يحذّرون من عواقب هذه السياسة في أفريقيا". وكانوا يرسلون برقيات قوية الحجة إلى لندن، "وقد تلقوا برقية من وكيل وزير الخارجية تقول: توقفوا عن هذا". هذه كانت السياسة، وكان يُفترَض بالديبلوماسيين أن يخرجوا ويفعلوا مثلما يُقال لهم. "هذه هي النقاط التي يمكنكم الحديث عنها. التزموا بها".

حتى لو كره كرُوك بيانات تاتشر، فقد بقي يخدم قضيتها؛ خاصة في أفغانستان. فمنذ الغزو السوفياتي في العام 1979 والرئيس رونالد ريغن، صديق تاتشر العزيز،

يزيد من كمية المساعدات السرية للجماعات الإسلامية التي كانت تحارب السوفيات والحكومة الأفغانية الشيوعية (بدأ ذلك في الواقع قبل الغزو). في العام 1985، أُرسل كرُوك إلى إسلام أباد تحت غطاء ديبلوماسي ليساعد في جهود الحرب بصفته نائب رئيس محطة جهاز الاستخبارات السرية. كانت الحرب تُدار إلى حد كبير مع الحكومة الباكستانية وحاكمها العسكري، الجنرال محمد ضياء الحق. وكان يجب أن تمرّ كل الأموال والأسلحة المخصصة للمتمرّدين عبر جهاز الاستخبارات الباكستانية الذي يدعى وكالة الاستخبارات الباكستانية.

يتذكّر ميلتون بيردن- الذي كان وقتها رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية في إسلام أباد- أن كرُوك "شخص طبيعي على الحدود"، و"عميل بريطاني مأخوذ من اللعبة الكبرى مباشرة".[9] في تلك الأيام، لم يتضمن دور كرُوك إجراء محادثات مع المقاتلين فحسب، بل تزويدهم بعتاد مميت أيضاً. ويتذكّر بيردن أنه في حين كان محظّراً عليه وعلى بقية ضباط وكالة الاستخبارات المركزية أن يعبروا الحدود إلى أفغانستان، كان كرُوك يختفي لعدة أيام متواصلة، ثم يعود إلى إسلام أباد في وقت متأخر من الليل، ويُسرِع إلى مسكن بيردن ليتباهى بأحدث قطعة عتاد تم الاستيلاء عليها.[10]

بعض "الرفاق" الذين كان البريطانيون والأميركيون يحاربونهم كانوا إسلاميين متطرّفين، ومن بينهم المقاتلون العرب السنة من جماعة أسامة بن لادن، الذين صار يُطلَق عليهم اسم تنظيم القاعدة (لن يقول كرُوك أبداً إن كان أسامة بن لادن أحد الأشخاص الذين التقاهم. فخلافاً للشائعات، مثلما أشار بيردن، لم يقدِّم أي جهاز غربي أي مساعدة لأسامة بن لادن؛ فهو بالكاد احتاج إلى ذلك نظراً إلى كونه غنياً. لكنه كان حليفاً في ذلك الوقت). ومع اقتراب نهاية الحرب، قال كرُوك إنه بدأ يحذِّر من التهديد الذي سيشكّله أولئك المقاتلون في المستقبل. لكنْ مثلما قال له سيناتور في واشنطن: "الأشخاص الذين حذّرتنا منهم علّموا الشيوعيين درساً لن ينسوه أبداً!". وهذه كانت المشكلة. فعلى حدّ قول كرُوك: "أشحنا بنظرنا جانباً". لكنْ كلفة تجاهل أولئك المقاتلين من السنة أصبحت جليّة في 11 سبتمبر.

ويقول إنهم تعلّموا أيضاً الدروس الخاطئة بالكامل من هزيمة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان. فقد تمت المبالغة بتأثير التمويل الأميركي للمجاهدين، وفي حين أن مثل هذه الدعاية ساعدت في تبرير المليارات التي أنفقتها وكالة الاستخبارات المركزية، إلا أنها أسَّست أيضاً لأسطورة تنظيم القاعدة وحركة طالبان. أعني، كيف أن مجموعة من الجهاديين بثياب رثّة تستطيع أن تهزم قوة عظمى. قبل سنتين من سقوط جدار برلين، كان كرُوك يرى مسبقاً انهيار الاتحاد السوفياتي، وكان يشهد تفكّك جيشه المهزوم في أفغانستان. لكنه قال إن أحداً لم يرد أن يسمع: "[كنا] غير مستعدين أبداً لانهيار الاتحاد السوفياتي؛ سواء أكان ذلك على الصعيد المؤسساتي أو الأهم من ذلك على الصعيد النفسي". كان هناك موسم قتال غريب عندما رفض الجيش السوفياتي الخروج من ثكناته. "أتذكّر ذلك جيداً لأنني كنتُ في أفغانستان أتكلم مع الناس: نزول الأوزبكيين من طشقند وأماكن أخرى. عرفتُ أن هناك أموراً كثيرة تحصل في تلك الجمهوريات السوفياتية؛ كاغتيالات الجنود الروس بينما كانوا خارج الخدمة. وكلما طرحتُ هذه المسألة، كانوا يصرفون النظر عنها فوراً، ويقولون لي: *بالتأكيد هذه الأمور لا تحصل، وإلا لكنا قد سمعنا عنها*".

وتابع كرُوك قائلاً إن هذا التفكّك السوفياتي هو الذي غيَّر النزاع بشكل حاسم؛ من نقطة كان فيها المجاهدون محبطين ومنهزمين تقريباً، إلى نقطة صار فيها الروس يبحثون عن وسيلة للانسحاب. في ذلك الوقت وما بعده، عَزَت أميركا هذا الانعكاس إلى النشاطات الخفية لوكالة الاستخبارات المركزية، وبالأخص إلى تسليمهم صواريخ الستينغر التي تُطلَق عن الكتف. لكن الحقيقة، وفق كرُوك، كانت أنه بعد نقلها على ظهور الحمير في الممرات الجبلية، لم تكن صواريخ ستينغر فعّالة. "كان معدل نجاحها منخفضاً جداً. والأرقام التي ذكرها الأميركيون كانت محض خيال". يعارض آخرون ضالعون رأيه بشدة، ويصرّون على أنه كان لصواريخ ستينغر تأثير ملحوظ على سلوك طيّاري المروحيات السوفياتية. لكن دراسة أجراها آلان كوبرمان، وهو عالم سياسي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، حول سجلات المكتب السياسي أظهرت أن السوفيات كانوا

يحضِّرون لمغادرة أفغانستان قبل أن تصبح صواريخ الستينغر فعّالة. "لم يُستخدَم السلاح في أفغانستان قبل سبتمبر 1986، أي قبل شهرين فقط من قرار المكتب السياسي تحديد موعد نهائي للانسحاب. وفي الاجتماع الرئيس للمكتب السياسي في نوفمبر 1986، لم يتم ذكر صواريخ ستينغر ولا أي تصعيد أميركي آخر".[11] وقد اعتبر بيردن أن الادعاء "خادع تماماً". وقد قال جاك ديفاين، الذي ترأس فريق العمل الأفغاني، إن حجج كوبرمان "قلبت التاريخ رأساً على عقب".

مع بدء تفكّك الاتحاد السوفياتي، أراد الجميع أن يحتفل ويجني غنائم الانتصار بدلاً من أن يسمع عن التهديد التالي. وقال كرُوك إنه ذهَب لرؤية السفير الأميركي في إسلام أباد بعد انسحاب السوفيات من أفغانستان.

حسبما يتذكّر كرُوك الأحداث، ضرب السفير بقبضته على مكتبه وصرَخ: "قضينا عليهم!".

أجابه كرُوك: "ستندلع حرب أهلية!".

"لا، لا، ستنتهي في غضون ثلاثين دقيقة. لن يصمد نجيب الله [الرئيس الأفغاني المدعوم سوفياتياً] لثلاثين دقيقة".

حصل بينهما جدال عنيف، لكن كرُوك قال إن النقاش كان قد أُغلق. وبشكل واسع أكثر، لم يكن يسمح لأحد في وكالات الاستخبارات الغربية أن يجمِّع معلومات عن أفغانستان. "وإذا كانت لديك معلومات، لم يكن مسموحاً لك أن تنشرها، بل عليك أن تمزِّقها وترميها في سلة المهملات".

كان هذا جنون تسعينيات ما بعد الحرب الباردة، عندما كانت وكالات التجسّس تعيد اختراع نفسها. وقال إن الزمن وقتها كان زمناً قرروا فيه- باستخدام المصطلحات التجارية العصرية- أن "الأولوية للزبون". كانت "المتطلبات" تحكمهم، أي اللائحة الرسمية لأولويات الاستخبارات الموضوعة في المملكة المتحدة والولايات المتحدة مثلاً، في وايتهول ومجلس الأمن الوطني

الأميركي، والموقّعة من قِبل السياسيين. لم تكن المسألة أهم تجاهلوا التحذيرات من الأخطار المستقبلية فحسب، بل وأن أي تحذير غير مرخَّص له- أي التزويد بمعلومات استخباراتية لا يغطيها مطلبٌ محدَّدٌ- كان ممنوعاً في الواقع. سيتم تمزيق المعلومات الاستخباراتية. وقد شَعَر كرُوك أن هذا ما أصبحت عليه أجهزة الاستخبارات البيروقراطية.

وزَعَم أن جهاز الاستخبارات البريطانية ذهب أبعد من وزارة الخارجية في السنوات اللاحقة، وأصبح وسيلةً "لتسليم نتائج للسياسيين". وبحلول التسعينيات، وقبل هجمات 11 سبتمبر وكارثة الاستخبارات حول العراق، توقّف الجهاز عن كونه ذلك الثائر على المعتقدات المتوارثة والحامل للأخبار السيئة الذي كان قد ألهمه. فبمواجهة إما تخفيض جديد في الميزانية أو الانقراض، جَعَل الجهاز نفسه مفيداً كوسيلة أخرى لتحقيق الأهداف السياسية، و"لإضافة قيمة إلى سياسات الحكومة" من خلال التصرّف كدعامة "لرؤية" السياسيين الرسمية بشأن العالم أجمع. وعلى عكس جهاز الاستخبارات السرية، بدأ يُنظَر إلى الديبلوماسيين النظاميين لوزارة الخارجية، الذين كانت مناصبهم آمنةً أكثر، بأهم ثائرون إلى حد كبير. وكان الديبلوماسيون- على العكس- "مثل المحامين الجيدين في الصفوف الخلفية، ويذكّروننا بكل الأشياء المسبّبة للمشاكل التي قد تحدث".

أحد "مطالب" المملكة المتحدة في التسعينيات كان المساعدة في الحرب ضد تجارة المخدرات، وكذلك محاربة أحد منتجاها الجانبية في أميركا الجنوبية؛ أي اختطاف الرهائن. أُرسل كرُوك إلى البرازيل بين العامين 1991 و1993، ومن هناك إلى كولومبيا. اختاروا له مرة أخرى دور سمسار صادق، يتكلم مع المقاتلين، ولو كانوا هذه المرة على هيئة خاطفين للغربيين. لكنه تعلّم هناك دروساً ستفيده في نزاعات أخرى أيضاً. وحتى عندما كانت مطالب العصابات "مضحكة" ويستحيل تنفيذها، كان لا يزال من المهم تسهيل الحوار: "لأنك إذا لم تفتح ثغرة للاتصالات، فستقضي السنة القادمة وأنت تتفاوض على كيفية التفاوض. وهكذا كان التاريخ".

لم يكن افتتاح المحادثات يعني التفاوض. فالأولوية كانت لزيادة الفهم، وذلك بجعل التوقّعات لدى الطرفَين أكثر واقعية بقليل. هذا كان الدرس الذي أخذه كرُوك معه إلى مهمته التالية: فلسطين.

لجائزة نوبل للسلام تاريخٌ متقلّبٌ. ويمكن أن يكون منحها لأحد الأشخاص دلالةً على حرب وشيكة. لكنها في فلسطين كانت على الأقل إشارةً لفترة من الراحة امتدت لست سنوات. ففي العام 1994، مُنحَت الجائزة مُناصفةً بين القائد الفلسطيني ياسر عرفات، وبين السياسيَّين الإسرائيليَّين إسحق رابين وشمعون بيريز. وكانت اتفاقيات أوسلو، الموقَّعة قبل سنة، قد أعادت منظمة التحرير الفلسطينية من المنفى، فعاد أعضاؤها من تونس إلى غزة والضفة الغربية ليُنشئوا حكومة حُكم ذاتي. كانت اتفاقية السلام إشارة إلى نهاية الانتفاضة الأولى التي اندلعت في العام 1987 على يد أطفال وشباب يرمون الحجارة.

لكن العنف عاد في العام 2000 على نطاق واسع. فقد كان منسوب الغضب والاحتقان يتزايد منذ بعض الوقت؛ نتيجة الفشل في حل بعض المسائل المعقّدة (ومنها التوسّع المتواصل للمستوطنات الإسرائيلية في المناطق المحتلّة، وإصرار الطرفَين على أن القدس غير المقسَّمة يجب أن تكون عاصمتهما). وكانت الزيارة الاستفزازية للسياسي الإسرائيلي أرييل شارون إلى المسجد الأقصى في القدس هي الشرارة لانطلاق الانتفاضة الثانية. كان شارون مكروهاً مسبقاً من الفلسطينيين، وهو مَن قاد أيضاً الغزو الإسرائيلي للبنان في العام 1982. وقد اتُهم أيضاً بسماحه للجنود الإسرائيليين بالمشاركة في مجزرة مخيَّمَي اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا في بيروت. وقد صرَّح أن الهدف من ذهابه إلى المسجد الأقصى هو توضيح أنه "بين أيدينا وسيبقى بين أيدينا. إنه أقدس موقع في الديانة اليهودية، ومن حق كل يهودي أن يزور جبل الهيكل".[12]

كان الطرفان يستعدان للعنف. وكانت هذه الانتفاضة أكثر دموية بكثير من الأولى. فمرة أخرى، كان الشباب الفلسطينيون يرمون حجارة على الجنود

الإسرائيليين وكانوا يردون عليهم بطرائق مميتة. لكن هجماتهم على إسرائيل حينها أصبحت أكثر فعالية بكثير؛ لأن الفلسطينيين بدأوا بإرسال استشهاديين تابعين لحركة فتح- وفرعها لواء شهداء الأقصى- ولحركة حماس أيضاً؛ وهي حركة فلسطينية رفضت اتفاقيات أوسلو، وأخذت تنافس نفوذ حركة فتح في الساحة الفلسطينية.

في خضم هذا الوضع المتفجّر، جاء ألستير كرُوك مفوَّضاً من جهاز الاستخبارات السرية لينضم إلى طاقم عمل الإسباني خافيير سولانا، الأمين العام السابق لحلف الناتو، والذي تم تعيينه في أكتوبر 1999 ممثلاً للسياسة والأمن للاتحاد الأوروبي. كانت مهمة كرُوك مساعدة سولانا في لجنة تقصّي الحقائق حول أسباب الانتفاضة الأولى، والتي ترأسها رئيس الأغلبية السابق في مجلس الشيوخ جورج ميتشل. قدَّم ميتشل تقريره في أبريل 2001، لكن مهمة كرُوك كانت قد بدأت للتو. فقد أرادت أوروبا لعب دور جازم أكثر في الترويج للسلام في الشرق الأوسط، وطُلب من كرُوك الانخراط مع كل الأطراف. في البداية، كان طوني بلير داعماً لجهوده بصورة عامة. وبعد هجمات 11 سبتمبر، ألزَم بلير بوش بأن يدعم محادثات متجدّدة بين فلسطين وإسرائيل كتعويض له عن الانضمام إلى تحالفه "للحرب على الإرهاب".

على خلفية سفك كبير للدماء، لم تكن سنة 2002 سنة ميمونة للسلام. وقد بلغ العنف أوجّه مع هجومٍ لحماس في 27 مارس أدّى إلى قتل ثلاثين يهودياً كانوا يحتفلون بالفصح في فندق بارك أوتيل في نتانيا، شمالي تل أبيب. وفي 29 مارس، ردّت إسرائيل بعملية الدرع الواقي، واقتحم الجنود البلدات المكتظة بالسكان التي كانت اتفاقيات أوسلو قد أعادمّا إلى السيطرة الفلسطينية، وطوَّقوا عرفات وسجنوه في مقرّه الرئيس. في 2 أبريل، حاصر الإسرائيليون جنين. وعندما تمكّنوا من التغلّب على المقاومة هناك في نهاية المطاف- بمساعدة الدبابات الجرافة- صرَّح العديد من الصحافيين أنهم ارتكبوا مجزرةً. أرسل الاتحاد الأوروبي كرُوك ليحقّق في الأمر. اجتاز الخطوط الإسرائيلية بمفرده، ورأى أن الجنود الإسرائيليين قد هدَّموا

البلدة بالجرافات، ولكنه زَعم عدم حصول مجزرة. كان يحاول لعب دور شاهد عيان محايد.

في 2 أبريل أيضاً، انتقل الانتباه إلى بيت لحم وكنيسة المهد التي تعود إلى القرن الرابع في ساحة المهد. فقد لجأ إليها حوالي 200 فلسطيني بين مناضل مسلّح ومدني عادي من سكان البلدة، في بداية ما أصبح حصاراً امتد لتسعة وثلاثين يوماً فرضته عليهم القوات الإسرائيلية.

زَعَم الإسرائيليون أنهم يريدون القبض على ثلاثة عشر رجلاً مختبئين داخل الكنيسة كانوا على لائحة المطلوبين لديهم بتهمة تنظيم هجمات استشهادية. ووفقاً لإحدى الروايات، كان من بين الرجال "تسعة من لواء شهداء الأقصى، وبعضهم أفراد من عشيرة عبيّات من بيت لحم، الذين يتّهمهم الإسرائيليون بالقيام بسلسلة هجمات في الأشهر العشرين الماضية. كما كان بينهم أيضاً ثلاثة أعضاء من حركة حماس. والرجل الثالث عشر كان عبد الله داوود، رئيس الاستخبارات الفلسطينية في بيت لحم".[13]

في المواجهة التي طال أمدها، كان الديبلوماسيون البريطانيون والأميركيون يتباحثون مع القيادة الإسرائيلية، وكان كرُوك يتباحث مع الفلسطينيين المحاصرين. كان الوضع متوتّراً بطبيعة الحال. وقال رجال الدين داخل الكنيسة إن الطعام قد نفد. تبادل المسلّحون في الكنيسة والجنود الإسرائيليون في الخارج إطلاق النار، وقُتل فلسطيني في فناء الكنيسة. "كان يحصل وقف لإطلاق النار في أوقات مختلفة، فكنتُ أسير إلى باحة كنيسة المهد من وقت إلى آخر؛ لإخراج الجثث منها، ولكي أستلم أيضاً لائحة بأسماء مَن كانوا هناك". ولكي يتجنّب الخطأ في التعرّف عليه فيظنّ القنّاصون الإسرائيليون أنه مقاتِل، كان يسير عشرة أمتار، ثم يجمد في أرضه، ثم يسير مرة أخرى. استمر بالسير على هذا المنوال "إلى أن أصل إلى باب التواضع، فأمرّ من خلاله".

قام كرُوك برحلات مكوكية ذهاباً وإياباً، إلى أن تم التوصّل إلى صفقة لرفع الحصار. وفي 10 مايو، أبعدَت وكالة الاستخبارات المركزية الفلسطينيين الثلاثة عشر المطلوبين في قافلة من السيارات المصفّحة. أخذوا بصمات أصابعهم، ثم أوصلوهم إلى حظيرة للطائرات، حيث نقلهم سلاح الجو الملكي البريطاني جواً إلى قبرص وإلى المنفى في نهاية المطاف.[14]

خلال الصيف، ومع تواصل الهجمات الاستشهادية واستمرار الاحتلال الإسرائيلي للبلدات الفلسطينية، كان كرُوك يحاول الترويج لوقف لإطلاق النار عن طريق التباحث مع جماعتين رئيستين تتحاربان في ما بينهما؛ حماس وفتح التنظيم. وبما أن الإسرائيليين كانوا يحاولون اغتيال لائحة من المقاتلين، احتاج كرُوك إلى الإثبات لَمن كان يلتقيهم أنه لم يكن يجمّع معلومات عنهم، بل يعرض فقط فرصة للحوار. لذا، وفي حين أن رجال وكالة الاستخبارات المركزية كانوا يتنقلون مع حراس خاصين في سيارات مصفّحة، كان ضابط الاستخبارات حافي القدمين.

وقد قال: "لم تكن لديّ أي حماية على الإطلاق". وكان يذهب بمفرده إلى مخيّمات اللاجئين في نابلس وبلاطة القريبة في سيارات أجرة فلسطينية. ولم يحمل أي هاتف، وحتى إنه قال "كنت أفحص أحذيتي لأتأكد من أن الإسرائيليين لم يضعوا أي شيء فيها". كان فتى صغير ينتظره في طرف المخيّم ويرشده عبر الأزقة. وكان "غير محصّن بالكامل"، وتحت سيطرة مضيفه كلياً. كان يعتمد على حسن الضيافة لدى شرق الأوسطيين؛ فمهما يكن مضيفك مخادعاً، لا يمكنه أن يؤذي ضيوفه.

إحدى الخدع كانت في عدم إظهار أي خوف. فعند عبوره أحياء مضطربة، كان كرُوك يُنزل زجاج النافذة، ويبتسم، وإذا لزم الأمر يترجّل من السيارة لكي يسلّم على الأشخاص "لكي يستطيعوا رؤيتي بالكامل". ورغم أنه لا يُتقن العربية كثيراً، إلاّ أنه لم يكن يأخذ مترجماً معه: "لم آخذ أي شخص معي إلى الاجتماعات مطلقاً". فخلافاً للصحافيين الذين كانوا يأخذون مرشدين ومترجمين في أغلب

الأحيان، كان مقتنعاً بأن الجماعات المناضلة "لن تثق بأولئك الأشخاص أبداً". كانوا قد وفّروا له سترة مضادة للرصاص، ولكنها كانت تبقى في خزانة الفندق.

رغم أنه يُقال إنه كان قائد شبكة تجسّس، إلا أن أهم عامل كان أنه وضّح أنه لم يكن يتجسَّس. كان يتكلم مع الطرفَين، وهذا يعني أن الأمور كانت معقّدة. فقد كان عليه أن يصوغ أسئلته بعناية. "لم أسأل الأشخاص عن أسمائهم، ولم أطلب رؤية هوياتهم، ولم أطرح أي أسئلة ذات طبيعة عسكرية". فما كان يسعى إليه هو أفكارهم وآراؤهم. وقد أصرَّ على أنه "لا يوجد جانب استخباراتي لهذا"، رغم أنه كان مضلّلاً في هذه النقطة. فما عَناه هو أنه لم يكن يجمّع معلومات استخباراتية سرية. لكن ما كان يتعلّمه من خلال هذا التواصل مع المقاتلين- عن شخصياتهم ونواياهم- كان مفيداً جداً، ويتم تمريره إلى الحكومات الأوروبية.

كان مدرَّباً على مكافحة المراقبة، وقد بذل أقصى جهده ليتجنّب أن يتبعه أحد. لكنه أبلَغ الفلسطينيين أن يتخذوا تدابيرهم الوقائية بأنفسهم: "افعلوا ما عليكم فعله وسأوافق عليه. لكنني لن أعطيكم أي ضمانات، ولا مانع لدي بتغيير ملابسي وحتى خلعها كلها". بعد سنوات، كان اجتماعان من الاجتماعات التي عقدها مفصَّلَين في محضرَين يُزعَم أن فتح قد احتفظت بهما، وقد صادرهما الإسرائيليون عندما اجتاحوا قطاع غزة. أشار المحضران إلى لقاءات عقدها مع الشيخ أحمد ياسين، القائد الديني لحماس، في يونيو 2002 في غزة.[15]

ووفقاً للمحضرَين، بدأ كرُوك اجتماعه مع حماس بتأكيد "إننا جميعنا نمرّ حالياً في فترة صعبة، وليس فقط في فلسطين بل في المنطقة كلها. والمشكلة الرئيسة هي الاحتلال الإسرائيلي". تسبَّبت هذه الجملة بالتشكيك بحيادية كرُوك في المحادثات. لكن كرُوك قال إن المحضَر وهمي؛ فالمحضَر ينقل عن ياسين قوله إنه رجل سلام، بينما كرُوك يقول إن "ياسين كان يقول لي في الواقع إنه *رجل حرب*".

قال كرُوك إن ياسين كان مؤثّراً. "كان لديه بريق حقيقي في عينيه. وكان يعاني من شلل سفلي، ويضع سماعة أذن لتساعده على السمع. وكانت السماعة تُصدر

صفيراً حاداً بينما كنت تتكلم معه، فلا تستطيع معرفة ما كان يسمعه بالضبط. لكنه كان شخصاً حيوياً وصلباً. كانت شخصيته آسرة، وكان يفرض حضوره على الآخرين. كان شخصيةً قويةً جداً". قُتل ياسين في تفجير إسرائيلي في جامع في مارس 2004. ويقول كرُوك إن الاغتيال لم يكن نتيجة جهد استخباراتي؛ فالجميع في غزة يعرف أين كان يعيش. "فهو لم يختبئ قط، بل عاش في مترله. وبسبب إصابته بشلل سفلي، كان عليه استخدام مركبة خاصة إذا أراد الذهاب إلى أي مكان".

الجزء الحقيقي من المحضَر كان النقاش عما إذا كان يجب أن تكون المحادثات علنية أم لا. فقد أرادت حماس أن تكون علنية، وإلا فبإمكان أعدائهم تسريب التفاصيل بطريقة مشوَّهة. والواقع أن ذلك حصل فعلاً. لكنْ في ذلك الوقت، أصَرَّ كرُوك على إبقاء محادثاتهم سرية. وشئنا أم أبَينا، كان معظم العالم الغربي لا يزال يعتبر التكلم مع العدو من المحرَّمات؛ بالأخص بعد هجمات 11 سبتمبر.

كان من المحتوم أن يكتشف شخصٌ ما- في مرحلة من المراحل- خلفية كرُوك الاستخباراتية. إذ كان قد أصبح شخصاً مألوفاً في المشهد في القدس، وحاوَل الابتعاد عن الأضواء، وتحاشى الفندق الأنيق أميركان كولوني أوتيل المحبوب بالنسبة إلى الصحافيين. لكن تعامله مع الأحزاب العديدة جعل دوره يصبح علنياً. ليس واضحاً مَن سرَّب المعلومة، ولكن في أغسطس 2002، في نبذة عنه في الصحيفة الإسرائيلية معاريف، وُصف كرُوك لأول مرة في حياته المهنية كموظف في جهاز الاستخبارات السرية؛ وهو حدث نادر بالنسبة إلى ضابط لا يزال في الخدمة أو حتى متقاعد.

كانت النتيجة موجة من الدعاية؛ وهو أمر ليس سيئاً بالكامل. وبدأت الصحف الإسرائيلية تتسلى بالموضوع. فوصفه شخصٌ بأنه "شجاع حتى الجنون". واقتبس آخر كلام ضابط استخبارات إسرائيلي قال عنه: "لا تدع مظهره يخدعك. فأنت

لا تريد أن تلتقيه في زقاق مظلم في منتصف الليل. اسأل المجاهدين في أفغانستان أو تجار المخدرات في كولومبيا".

في البداية، وَقَف الناس إلى جانبه، ومن بينهم- وأهمهم- خافيير سولانا، ودايفد مانينغ؛ مستشار طوني بلير في السياسة الخارجية والأمن. لكنْ كان هناك تغيير في السياسة يطرأ في بريطانيا أكثر إشكاليةً من انكشاف طبيعة منصبه. فوفق كرُوك، بدأ بلير يشعر بالحذر من التكلم مع المقاتلين، وأصبح الآن يريد أسلوباً عدوانياً أكثر، وُصف "بموجة مكافحة التمرُّد. وقد اتفق بلير سراً مع الأميركيين، وربما مع آخرين، على اعتماد سياسة تدمير حماس وتقويض قيادتها".

تجلّى تأثير تصلّب آراء بلير في تركيزه على دعم قضية اجتياح العراق دولياً. وكان كرُوك من بين عدد كبير من موظفي جهاز الاستخبارات السرية ووزارة الخارجية الذين رأوا أن "ديبلوماسية الغزو" هذه هي ذروة التسييس للسلك الديبلوماسي البريطاني. واعتبره كرُوك أيضاً رفضاً حاسماً للتسوية. ومثلما تذكّر لاحقاً:

> أخبرني أحد كبار الرسميين البريطانيين بصراحة أن وسائلي في بناء حلول سياسية من خلال بناء قبول شعبي- بعقد اجتماعات "في دار البلدية" مع كل الأحزاب، والعمل مع حماس، والرحلات المكوكية بين الفلسطينيين على الأرض والرئيس عرفات لضمان مشاركة عريضة وتواصل الزخم- كانت وسائل عفا عليها الزمن. كنا في عصر جديد، ويتطلّب تفكيراً جديداً؛ فقد أصَرَّ الرسميّ على أن "الطريق إلى القدس تمرّ الآن في بغداد".[16]

من المقاربة السابقة متعددة التفاصيل للصراع العربي الإسرائيلي، تصلّبت السياسة أكثر، وبدأت تندرج ضمن لغة مكافحة الإرهاب. وأصبحت حماس الآن "فيروساً"، والنزاع الفلسطيني مجرد نزاع آخر يتطلّب حله "مواجهة المتطرِّفين".

تم التشديد على التفكير الجديد في وثيقة لجهاز الاستخبارات السرية، مؤرَّخة 1 مارس 2003، ولكنها لم تصبح علنية إلا بعد عدة سنوات، وقد وضعت استراتيجية أمنية للسلطة الفلسطينية حول كيفية قمع الجماعات مثل حماس ولواء شهداء الأقصى الذي رفض اتفاقيات أوسلو.[17] لم يعرف كرُوك شيئاً عن الوثيقة، ولخَّصها لاحقاً بأنها خطة "من أجل *الحطّ من قدر* قدرات خصوم السلطة الفلسطينية، وعرقلة اتصالاتهم، واعتقال أعضائهم، وإغلاق مؤسساتهم المدنية والخيرية، وإزالتهم من الهيئات العامة، والاستيلاء على مدّخراتهم وأصولهم".[18] ولم يتم إخبار أحد في الاتحاد الأوروبي عنها أيضاً: "لذا، استمر سولانا بالعمل وفق سياسة محاولة شمل كل تلك الجماعات، في الوقت نفسه الذي كان فيه السيد بلير يقوِّضها". كانت خيانةً، وقد شَعَر بها كرُوك بعد فوات الأوان.

أشار ضباط استخبارات آخرون إلى أنه- لأسباب أمنية أساسية- لم تكن هناك أي فائدة مطلقاً لمشاركة أي خطط بمهاجمة الجماعات مثل حماس مع كرُوك. ومثلما جادل كرُوك نفسه، يجب أن تكون قناة السلام مُقفلة في وجه أي خط عسكري من أجل الحفاظ على سلامتها.

لم يكن الانشقاق بين كرُوك ولندن بسبب فقدان الثقة، بل بسبب الخلاف على الاستراتيجية. فبما أن بريطانيا أصبحت الآن تدعم حملة إسرائيل لسحق المناضلين بالقوة، كانت فرصة كرُوك بتحقيق وقف دائم للعنف تتضاءل. وعندما صاغ وقفاً لإطلاق النار في أغسطس 2002، مُقنعاً حماس وفتح بقبوله وإيقاف هجماتهما، دام ذلك فقط إلى أن ألقت الطائرات الحربية الإسرائيلية قنبلة زنتها طن واغتالت الشيخ صلاح شحادة؛ الرأس العسكري لحماس، بالإضافة إلى تسعة أطفال وخمسة راشدين آخرين.[19] عادت التفجيرات الاستشهادية وكذلك الإجرام الإسرائيلي. وفي الأشهر القادمة، أعاد كرُوك مراراً وتكراراً محاولته لتخفيف حدّة العنف. وكان ينجح في ذلك أحياناً لبضعة أيام؛ منقذاً الكثير من الأرواح، ولكن لم تكن هناك أي دلالة على التوقف التام. استُدعي كرُوك إلى لندن بعد أن أصبح ما يقوم

به يتعارض حينها مع السياسة البريطانية. ومثلما نشرت الغارديان في 24 سبتمبر 2003:

> البارحة، صرَّح ناطق باسم السفارة البريطانية في تل أبيب أن السيد كرُوك سيغادر القدس في غضون أيام "لأسباب أمنية شخصية... فالتدهور في الحالة الأمنية في المناطق المحتلّة جَعَل قيامه بعمله بأمان أمراً مستحيلاً". وقد أقرّت السفارة أن السيد كرُوك كان يغادر رغماً عنه، ولكنه رفض أن يناقش ما قاله زملاؤه حول أن السبب كان خلافاته المتزايدة مع وزارة الخارجية...[20]

وفق التقليد البريطاني (مثلما وصفته الغارديان)، تسلّم وسام شرف من الملكة، ثم طُرد من عمله. جرى ذلك باستدعائه إلى المركز الرئيس لجهاز الاستخبارات السرية في فوكسهول، حيث قابله موظف صغير، قبل أن يُرسَل إلى مترله بشكل دائم. لم يناقش كرُوك الحادث مطلقاً، تماماً مثلما لم يؤكد قط عمله في جهاز الاستخبارات السرية.

جهاز الاستخبارات السرية نفسه لم يعلّق قط على تقاعد كرُوك الإلزامي. لكنْ عند إجرائي مقابلات معهم، جادل العديد من الضباط السابقين بالقول إنه مهما كانت فضائل آرائه، فإن عيبه كان أنه روَّج لسياسته بنشاط وحيوية. وقال أحدهم: "كان ذكياً جداً، لكنه أصبح مؤيِّداً لفكره الخاص". لم يكن ذلك بحد ذاته جريمة، ولكنه سار بالأمر بعيداً جداً، وضَغَط ضد السياسة البريطانية. واشتبه البعض أيضاً بأن كرُوك نسي أنه في النهاية ضابط في جهاز الاستخبارات السرية. وقال عنه زميل سابق آخر إنه "كان يفعل ما يعتبره صواباً، وقد فعل ذلك منذ البداية. لكن لا يمكنك فعل ما يحلو لك ضمن جهاز استخبارات". وفي دليل على تحقيق بريطانيا في حرب العراق قال السير ريتشارد ديرلوف، الذي كان رئيس الجهاز وقتها- ولكن مع تكلّمه بشكل عام- إنه "لا يمكنك حقاً تحمّل وجود منشقّين في جهاز الاستخبارات السرية. فبإمكان الانشقاق [كلمات معدَّلة] أن يسبّب مشاكل كبيرة".[21]

حصل ذلك في العام 2013، أي قبل عقد تقريباً من مغادرة كرُوك عمله في جهاز الاستخبارات البريطاني. فقد استقللتُ الطائرة من قبرص لأسافر في الرحلة التي تستغرق ثلاثين دقيقة لأزوره في العاصمة اللبنانية، بيروت.

لقد جاء كيم فيلبي إلى هنا عندما ترك جهاز الاستخبارات السرية. وبصفته مراسلاً لصحيفة الأوبزرفر، بقي سبع سنوات تقريباً قبل أن ينشقّ إلى الاتحاد السوفياتي في يناير 1963. وفي طريقي للقاء كرُوك، سرتُ على الكورنيش المدمَّر بالقصف إلى مرسى السفن، مروراً بفندق السان جورج، حيث كان فيلبي معتاداً على احتساء الشراب كل يوم بعد الظهر.

كان المكان الذي يتردّد عليه كرُوك هو ألليغرو، وهو فندق أنيق في المنطقة التي تسيطر عليها ميليشيا القوات اللبنانية. لكن خلافاً لفيلبي، كان المشروب الذي يتناوله بعد الظهر عبارة عن ماء ساخن منقوع فيه نعناع طازج في إبريق شاي فضيّ. كان فيلبي يذهب إلى هناك للهروب من ماضيه. لكن كرُوك كان مصرّاً على الالتصاق بمساره، فقد رفَض أن يتقاعد بعد أن أصبح متورّطاً بقضية فلسطين والشرق الأوسط.

بعد تركه جهاز الاستخبارات السرية، أسَّس جمعية غير حكومية تدعى منتدى النزاعات. وقد عقد اجتماعات، وأنشأ قنوات حوار بين المفكّرين وصنّاع السياسة الغربيين المؤثّرين من جهة، وبين قادة الجماعات المناضلة مثل حماس وحزب الله من جهة أخرى؛ حتى لو كان الغرب يصنّفهم كإرهابيين. وقال إنه لم يكن يحاول بدء مفاوضات خاصة، بل المساعدة في بناء فهم وإدارة التوقّعات لدى الطرفَين.

كَتبتُ مقالاً في مجلة عن أحد تلك الاجتماعات التي نظّمها في لبنان وعنوانه "شاي بالنعناع مع الإرهابيين"، وقد تضمَّن بضعة أسطر مبتذَلة تم اقتباسها إلى ما لا نهاية لاحقاً والقول إنها جاءت على لسان كرُوك. "مدعواً إلى العشاء مع المشاركين في محادثات بيروت، وتبادل النكات مع رجال حماس أثناء تناول أطباق الجمبري والأفوكادو والمعكرونة والطماطم الكرزية، تساءلتُ في أعماق نفسي

كيف سيشرح المرء كل هذه المودّة لأم طفل قتلته وحشية المعارك". وقد تفاجأت لأن كرُوك قابلني مرة أخرى. لكنْ مثلما لمّح مقالي، في سعيه إلى تعزيز التقارب مع المقاتلين، جادل بعض المعلّقين والزملاء السابقين قائلين إنه بدا أحياناً وكأنه يقطع الخيط الرفيع بين تشجيع الغرب على فهم حماس وبين الدفاع عنهم.

لكنّ اهتمامي في القدوم إلى بيروت هذه المرة لم يكن لمناقشة فضائل هذا الحوار العلني، بل لمناقشة قيمة الحوار المحظور رسمياً الذي أجراه في يوم من الأيام للحكومة البريطانية والاتحاد الأوروبي. وفي حين أنه بالكاد كان استخدام جهاز الاستخبارات إذا أرادت أي حكومة إجراء محادثات سرية مع جماعة مصنّفة على أنها إرهابية مدهشاً، هل كانت لهذه الديبلوماسية السرية أي علاقة بتجميع المعلومات الاستخباراتية؟ وقد أردتُ أن أعرف: ما صلة ذلك بالتجسّس؟

منذ أوائل القرن العشرين والتجسّس مرادف للخيانة تقريباً، وما عدا في زمن الحروب أو حالات الطوارئ الأليمة، نادراً ما كانت أجهزة الاستخبارات في البلدان القوية تستخدم ضباط استخباراتها كجواسيس، وكانت تفضّل عادة توظيف عملاء. لكن التقليد الذي مثّله كرُوك في فلسطين ومارك ألن في ليبيا كان شكلاً قديماً للتجسّس، مشابهاً أكثر لرحلات المستكشفين، حيث يتكلم ضابط الاستخبارات مع عدوه المؤكّد أو المحتمل مباشرة. وقد جادل كرُوك قائلاً إن التصرّف بنيّة حسنة والانفتاح كانا مُربحَين أكثر في أغلب الأحيان. ورغم أنه لم يقل ذلك، إلا أن الجاسوس في أسلوب كهذا سيكون ضابط الاستخبارات، وسيتجسّس على الأرض بنفسه. لكنه لم يكن يخون أي شخص، كما أنه لم يحاول تجنيد شخص ليخون شخصاً آخر. ووفق كلمات كرُوك، كان الخلط بين الاستخبارات والخيانة "مسبّباً للكثير من المشاكل".

خلال حديثنا أثناء تناول الشاي بالنعناع في أليغرو، تجنّب كرُوك كشف المزيد من التفاصيل عن رأيه بأنه كان مسبّباً للمشاكل. فهو لم يرغب في مناقشة التجسّس. على أي حال، أصرَّ على أن السؤال عمّن كان أو لم يكن جاسوساً

سؤال مبالغ فيه. فالطريقة التي يجمِّع بها جهاز الاستخبارات معلوماته الاستخباراتية لم تكن مهمة جداً. والمسألة الأهم هي نوع المعلومات الاستخباراتية التي يسعى الجهاز وراءها.

حسب طريقته في التفكير، ما كان مهماً قبل هجمات 11 سبتمبر ما إذا كان "الرجل القريب" بجانب بن لادن جاسوساً أو نوعاً من المبعوثين في مهمة خاصة. فما كان ناقصاً في التسعينيات هو الاهتمام أو الانتباه الحقيقي للحركة التي انبثق منها بن لادن. "المسألة هي أن أحداً لم يبذل الجهد المطلوب. ولا أحد حاوَل فهمها أيضاً". كان لدى وكالات الاستخبارات الكثير من الهموم، ولم يكن بالإمكان تحويل أنظار الجميع لمراقبة بن لادن وأمثاله. لكنْ يقول كرُوك إنه لم تكن لدى الوكالات "قدرة مؤسساتية ولو أساسية لفهم الحركة. وما كانوا يملكون أي عنصر حقيقي، لا أحد تكبّد عناء لقاء أحد أولئك الأشخاص وفهمهم".

أثناء تكلّمنا في بيروت، احتدمت الحرب الأهلية في سوريا القريبة، وقال مرة أخرى إن المشكلة لم تكن في عدم العثور على مصادر للمعلومات، بل في عدم إيجاد أي شخص مهتم حقاً في جذور النزاع، أو شخص يتجرأ "في عصر تجنّب المخاطر" على أن يكون منخرطاً في الاستخبارات البشرية؛ سواء أكان ذلك من خلال تجنيد الجواسيس، أو نوع الانخراط المرتكز على الحوار الذي يفضّله.

وقال إنه كان يتم في غضون ذلك تخزين كمية كبيرة من المعلومات بواسطة التجسّس التقني؛ كالتنصّت على الاتصالات مثلاً. "حقاً، لا يمكنني قول أي شيء محدَّد جداً. لكن عدم قدرة الأشخاص المتواجدين في لندن أو واشنطن في أغلب الأحيان على فهم محادثة تشمل شخصاً إسلامياً مثلاً مذهلة". وكانت قلة الفهم الثقافي جزءاً من الخطأ، لكنْ كان هناك أيضاً الجزء المفاهيمي؛ فالإدمان على التنصّت على المكالمات الهاتفية والأدلة المادية "طغت على العامل الأساسي، وهو أن المعلومات الاستخباراتية- المعلومات الاستخباراتية الحقيقية التي تحصل عليها- متناقضة وغير سلسة تقريباً دائماً". بتعبير آخر، زوَّدت المعلومات التقنية بيقين

خاطئ وإحساس بالدقة لم يستطع الجواسيس البشريون توفيره قط؛ لكنّ عدم اليقين كان الشيء الذي ملأ الحياة البشرية الحقيقية.

ماذا بشأن السؤال الذي تجنّبه؟ أي العلاقة بين حواراته السرية والتجسّس؟

عملياً، قال ضباط استخبارات سابقون آخرون إن الديبلوماسية الخفية كانت جزءاً آخر من عمل جهاز الاستخبارات ونموذجاً آخر من الاستخبارات البشرية، لكنها كانت مختلفة عن تشغيل العملاء. وقد قال ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية إن "المسألة ليست معقّدة جداً. فعندما يكون ذلك من المصلحة الوطنية، نُكلَّف بتلك الأنواع من الاتصالات". لم يكن دواءً لجميع الأمراض، وكان مستحيلاً في أحيان كثيرة. كما كانت هناك اختلافات كبيرة جداً- هذا ما قاله ضباط الاستخبارات- بين اوليغ غورديفسكي، وهو جاسوس حقيقي خان KGB وكان سيُقتَل رمياً بالرصاص لو تم اكتشاف اتصالاته بجهاز الاستخبارات السرية، وبين شخص رسمي من حماس التقى وكالة الاستخبارات المركزية- ولو سراً- مع موافقة تنظيمه. أحد تلك الاختلافات كان أن العميل السري موجود هناك للتزويد بمعلومات كانت معاكسة لقضية مجموعته. لكن شخصاً يلعب دور صلة وصلٍ لن يُفشي أبداً تفاصيل مؤامرةٍ سريةٍ عن قصد.

لو حصل المزيد من التواصل مع تنظيم القاعدة في التسعينيات لكان من الممكن كشف جدول أعمال بن لادن، وربما المزيد عن استراتيجية منظمته وقوتها. وكان بإمكان هذا أن يساعد في إعداد استراتيجية مضادة لتقويض جاذبيته. لكنه لم يكن ليزوِّد بنوع المعلومات التكتيكية المطلوبة لكشف مؤامرة 11 سبتمبر بالذات.

كانت هناك بعض الضبابية أحياناً. فمثلما رأينا، تم تجنيد بعض أفضل الجواسيس من خلال صداقات حقيقية مع مجنِّديهم. ممّا يعني أنه يمكن تحويل علاقة ارتباط، مع مرور الوقت، إلى خيانة. وبالعكس، بعض الأشخاص الذين تصنّفهم وكالات الاستخبارات "عملاء سريين" كانوا في الواقع ارتباطاً مع العدو. يمكن أن يكون هذا وسيلةً لاختبار الأرضية بين عدوَين. ففي أفغانستان، سمع الممثل الرسمي السابق

للأمم المتحدة مايكل سَمبل، خلال مناقشاته المتكررة مع كبار قادة حركة طالبان، أن العملاء الذين اعتقدت الوكالات الغربية أنها جنَّدتهم في صفوفها في أغلب الأحيان لا يتكلمون إلا بعد قيامهم باستشارات واسعة في الحركة؛ "وحتى ضمن هرمية القيادة". ورغم أن تلك العلاقات بالكاد تكون من النوع الذي يؤدي إلى كشف أسرار نفيسة، إلا أن سَمبل جادل بالقول إنها كانت فرصاً ضائعةً في أغلب الأحيان. "أعتقد أن الأشخاص ظنّوا أنهم كانوا يقتلون خونة فرديين، لكنّ تعاونهم في الواقع كان أوسع بكثير مما ظنّوا". وكانت حركة طالبان قد وافقت على أعمال تحقيق مختلفة. "لكنهم كانوا يأملون الحصول على شيء منها. ولم تكن تتم استمالتهم". وقد قال إن الوكالات الغربية ورغم جهوزيتها لتجنيد "عملاء" لم تكن تفرض عقوبة سياسية على إجراء اتصالات أوسع مع حركة طالبان. ومع استمرار الحرب، تركها هذا غير قادرة على الفهم، وأمامها خيارات أقل في المستقبل. "لا أعتقد أنه كان هناك استثمار طويل الأجل لضمان وجود أشخاص في الجهة الغربية لديهم علاقات طويلة الأجل مع أشخاص يحتلون مناصب رفيعة داخل حركة طالبان".

سمِّه جاسوساً مستكشفاً أو ديبلوماسياً سرياً، إلا أن نوع ضباط الاستخبارات الذي مَثّله كرُوك، أو الذي لَمَّح سَمبل إلى أنه كان ناقصاً في أفغانستان، كان متمِّماً ولكنه ليس بديلاً لنسيبَيه؛ أي الجاسوس الخائن وضابط فريقه. كان عملاً ذا طبيعة مختلفة، ولكنه مهمٌّ بشكل مماثل.

وسواء أكانت وظيفة موظف سري أم لا، إلا أن سيرة كرُوك وضَّحت طبيعة العمل المطلوب إنجازه؛ ثغرة يجب سدّها بين تجميع معلومات استخباراتية سرية محدَّدة وبين الديبلوماسية العادية للحكومة. وكان ذلك مطلوباً أكثر من أي وقت مضى مع ازدياد عدد التهديدات التي لا يمكن التعامل معها بالوسائل العادية. ففي معظم الأماكن، لا يستطيع السفير أو معاونوه الذهاب بكل بساطة للقاء قادة جماعة متشدّدة من دون التسبّب باستياء كبير لحكومة البلد المضيف، أو من دون أن يبدو الأمر على أنه دعم لتلك الجماعة. لكنْ قد تكون للجماعة أهمية عالمية،

ويجب تفهمها والانخراط معها. لم يكن من الضروري التجسّس على كل مجموعة غير حكومية تبرز في العالم بإعداد عملية سرية لها. لكنْ قد يتوقع قائد شبكة التجسّس العصري أن يُستدعى للتعامل مع مشاكل كهذه أكثر فأكثر.

كان معظم الانخراط الذي وصفه كرُوك وسَمبل يتمحور حول اكتساب فهمٍ أشمل؛ أي معلومات استخباراتية استراتيجية بدلاً من معلومات مفصّلة ومحدَّدة. لكنْ رغم أنها كانت مكوّناً مهماً في الاستخبارات البشرية، إلا أن كرُوك شكّك في ما إذا كانت أجهزة الاستخبارات مهتمةً في هذا. وجادَل أيضاً بالقول إن الاستخبارات أصبحت مهنة ضيقة في أغلب الأحيان تهدف فقط إلى التزويد بتلك المعلومة السرية المحدَّدة- كمكان أحد الأهداف مثلاً- التي تساعد الحكومة في سياستها الضيقة. لقد أصبحت وكالات الاستخبارات وبشكل متزايد الآن عبارة عن "مزوِّد خدمة" تسلّم لوائح بما يريده "الزبون": سواء أكان ذلك إيصال رسالة، أو تأكيد رأي مسبق، أو التخلّص من هدف آخر. "والضغط للعمل بأداء جيد يسبّب ارتكاب الخطأ تلو الخطأ. يحتاج الأشخاص إلى الإحصائيات، ويريدون انتقاء الخيار الذي يحدِّد عدد الإرهابيين الذين قتلوهم".

يقول الزملاء السابقون لكرُوك إنه طُرد لأنه كان مستقلاً إلى حد كبير. وقال البعض إن ذلك كان أمراً محتوماً. فجهاز الاستخبارات الذي يروِّج لسياسة مختلفة عن سياسة حكومته يُعتبر وكالةً ضالةً. وضابط الاستخبارات الذي يضغط علناً للترويج لسياسته الشخصية يُعتبر ضابطاً ضالاً. لكنْ رغم معارضة العديدين للموقف الذي قيل إن كرُوك اتخذه، وأيضاً لبعض نشاطاته منذ تقاعده، إلا أن العديدين أيضاً يشاركونه خيبة أمله في المدى الضيق للاستخبارات البشرية المُعاصرة. وما قاله كرُوك والعديد من العالمين ببواطن الأمور السابقين هو أنه في حين أن القادة السياسيين يجب أن يتوقعوا وفاءً كاملاً من ضباط استخباراتهم، إلا أنهم يحتاجون أيضاً إلى ضباط لديهم حرية التفكير والتحدي. فالغاية من وجود وكالات تجسّس، واستخبارات بشرية بشكل عام، كانت الحصول على أشخاص حقيقيين لديهم معرفة داخلية عميقة بالثقافات والأحداث الجارية في الخارج،

ويستطيعون الرد على مُحدِّثيهم، ويستطيعون تصحيح سوء فهم الرجل السياسيّ للعالم بهدوء.

بقي كرُوك مثيراً للجدل في جهازه السابق. وقد قال ضابطٌ سابقٌ في جهاز الاستخبارات السرية إن آراء كرُوك انحرفت نتيجة طرده، لكن الأهم من ذلك نتيجة التحسينات منذ كارثة العراق. وقال ضابط آخر إنه قبل الفشل بشأن أسلحة الدمار الشامل، كان جهاز الاستخبارات السرية "متغطرساً إلى حد لا يُطاق" ومستعداً للمبالغة كثيراً في المعلومات الاستخباراتية من أجل إرضاء الجهة التي تدفع له رواتبه، لكنه أصبح متواضعاً وموضوعياً في أسلوبه أكثر بكثير منذ ذلك الوقت. ومع تغذية السياسيين لحرائق التمرّد في سوريا في العامين 2011 و2012، أبلَغ جهاز الاستخبارات السرية العديد من صنّاع السياسة- من دون تحقيق أي تأثير يُذكر- أن تلك الاضطرابات يمكن أن تؤدي إلى عقود من الحرب الأهلية. لم يفقد قدرته على التحدي كلياً.

مثلما وضّح الاستثمار الضخم لوكالة الاستخبارات المركزية في حروب الطائرات بدون طيّار، لا يزال عالم الاستخبارات الأميركي يعتبر وبشكل قوي أن التجسّس يتمحور قليلاً حول فهم العالم، وأكثر بكثير حول اصطياد الأشخاص الأشرار. وبغياب الإرادة لفهم طبيعة المقاتلين الجدد، ودخول عقولهم، يمكن تجريد منطق العدو "من صفاته الإنسانية"- على حد تعبير كرُوك- ويمكن قتل الأعداء عن طريق الاغتيال من السماء. وقد قال إن المنطق في ذلك كان أنهم "ليسوا بشريين حقاً. فلماذا علينا أن نحاول فهمهم؟". لكن عاقبة تفكير كهذا كانت ثقةً بالنفس لا مبرِّر لها. ورغم تأكيداتهم على أن تنظيم القاعدة قد قُمع بطريقة أو بأخرى، إلا أن أميركا ستكتشف أن "تنظيم القاعدة" كان مجرد اسم، وأن التهديد نفسه سيولد من جديد بطريقة مختلفة وباسم مختلف، وأن عقيدته كانت "في الواقع تنتشر بشكل أوسع بكثير في كل مكان".

الفصل 11
التلقيح

"من الجيد... أن يُدرك الرجل في الشارع أنه لا توجد قوة على
كوكب الأرض يمكنها حمايته من التعرّض للقصف. ومهما قد يقول له
الأشخاص، ستصل الصواريخ إليه دائماً"

– ستانلي بولدوين، مجلس العموم، 10 نوفمبر 1932 [1]

في أبريل 2011، طَرَق شاكيل أفريدي، وهو طبيب في العقد الرابع من عمره، على الباب الفولاذي الكبير للمجمَّع. كان مكاناً غريباً، وأكبر من المنازل الأخرى في المنطقة بحوالي ثمانية أضعاف، وتحيط به جدران يتراوح ارتفاعها بين أربعة أمتار وستة، ولا يحتوي على هاتف أو اتصال بالانترنت.[2] كان مَعلماً بارزاً في أبوت أباد، وهي بلدة عسكرية شمالي إسلام أباد في باكستان. لا أحد في الجوار كان يعرف مَن يسكن في الداخل، لكن الطبيب خطّط لاستخدام حيلة لكي يعرف.

كان أفريدياً، مثلما يوحي اسمه، وهي القبيلة المُحاربة التي تتحكّم بالممرَّين الجبليَين خيبر وكوهات في أفغانستان. في العام 1878، وخلال الحرب الأفغانية الأولى لبريطانيا، قامت فرقة عسكرية من الأفريديين بقطع ممر خيبر لصدّ "جيش العقاب" التابع لبريطانيا، الذي كان عائداً ليعيد احتلال أفغانستان بعد مجزرة حامية كابول. وفي فترة حديثة أكثر، حارب جَدّ شاكيل أفريدي مع الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، ونال وسام فيكتوريا لشجاعته في الخنادق في إيبري.

اليوم، كان لهذا الأفريدي مظهر جديد، كعميلٍ سريٍّ لوكالة الاستخبارات المركزية. عندما فُتح الباب قليلاً، أعلَن عن أنه في مهمة تلقيح جوّالة على البيوت،

ويريد تلقيح أي أولاد في المترل ضد التهاب الكبد ب. كان يسعى في الواقع إلى الحصول على عيّنة من دمهم، لأن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تأمل أن تُنتج عيّنة الدم تلك تطابقاً مع الحمض النووي لأكثر رجل مطلوب على الكوكب.

أُغلق الباب ورُدَّ أفريدي خائباً. لكنْ رغم فشل مهمته في ذلك اليوم، إلا أنه بطرقه على الباب كان قد لعب دوره في الخاتمة الدراماتيكية لعقد من الحرب. فوكالة الاستخبارات المركزية لم تتمكن قط من الحصول على العميل السري الذي طالما حلمت به، "الرجل القريب" من بن لادن. في الواقع، لم يعد هناك رجل يجلس قريباً من زعيم تنظيم القاعدة. لكن وكالة الاستخبارات المركزية عثرت بدلاً من ذلك على عميل سري يطرق على باب مدخله المعدني.

كانت هذه ذروة المطاردة التي بدأت بعد سقوط البرجَين التوأم. فالصدمة والأذى والإذلال من جرّاء هجمات 11 سبتمبر 2001 تطلّبت وجود عدو كبير وذكي. وكل شخص تكلّم عن الأمن- سواء أكان صحافياً أو سياسياً أو قائد شبكة تجسّس- ساهم عن إدراك أو عن غير إدراك في تكبير شخصية البُعبُع، أسامة بن لادن، وهو اسم كان معروفاً لقلّة في العالم قبل أيام فقط من الهجمات.

أُوكلت إلى الجيش والجواسيس مهمة اصطياده. واحتاج العامة إلى قصة يمكن حبكها في مسعى جدير بالاهتمام. فإذا مات باكراً جداً- مثلاً، عندما حاصروه في جبال تورا بورا في أفغانستان، في ديسمبر 2001- فقد لا يُروى عطش الانتقام. وعندما سألتُ جندياً في العام 2004 عن سبب وجوده في العراق، أجابني: "لقد جئنا للقضاء على بن لادن". لقد ساعدت فكرة المطاردة ذلك الشاب الريفي على فهم سبب مشاركته في الحرب.

لكن العامة احتاجوا أيضاً إلى أن يُقبَض عليه في نهاية المطاف. وقلّة توقعوا أن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً جداً. فقد تم حشد مئات الأشخاص، وأُرسلوا إلى كوبا ومصر، وحتى إلى سوريا. وتراوَح نمط الاستجواب ما بين الأسئلة الباردة ولكن المحترفة لمكتب التحقيقات الفدرالي، واستخدام الأساليب القاسية كالإيهام بالغرق

في سجن بولندي سري لوكالة الاستخبارات المركزية، أو الصعق بالكهرباء من قِبل المخابرات في مصر (الذي استُخدم مثلاً على ابن الشيخ الليبي، الملازم في تنظيم القاعدة). كانت الطرائق المستخدَمة مثيرة للجدل، لدرجة أنه بعد أكثر من عقد على القبض عليه في العام 2003، كان خالد شيخ محمد- المسؤول المزعوم عن هجمات 11 سبتمبر- لم يُقدَّم إلى المحاكمة بعد. ذلك سيكون أمراً فاضحاً ومُحرِجاً جداً. وفي غضون ذلك، كان بن لادن لا يزال حراً طليقاً، وكانت صورة وجهه معروضة في معرض أكثر الأشخاص المطلوبين للعدالة. مع مرور الوقت، كانت مطاردته تضع كل الوسائل الجديدة لتجميع الاستخبارات قيد التجربة.

ثم، في مساء الأحد 1 مايو 2011، أعلن الرئيس أوباما أن القوات الأميركية قتلت أسامة بن لادن. فقد عبرت مروحيات بداخلها مغاوير بحر الحدود في الليل من أفغانستان إلى باكستان. قتلوه، ووضعوا جثته في كيس، ورموه في بحر العرب؛ بعد الصلاة عليه بشكل ملائم.

إذاً، كيف تمكنوا من النيل منه؟ وصف الأميرال ويليام ماكرايفن، رئيس قيادة العمليات الخاصة المشتركة وقائد العملية، المطاردة بأفضل ضربة استخباراتية في القرن. "أعتقد أنه عندما يُكتَب التاريخ في نهاية المطاف عن كيفية تأكّد وكالة الاستخبارات المركزية من وجود بن لادن هناك، ستكون تلك إحدى أهم العمليات الاستخباراتية في تاريخ الأجهزة الاستخباراتية".[3] هل كانت نتيجة معلومة سرية من جاسوسٍ؟ هل وجدوه بفضل التنصّت على المكالمات الهاتفية ونشر كل آلات المراقبة العصرية؟ أم بتركيب أحجية من قطعٍ موجودة؟ لم تكن الأجوبة واضحة المعالم ولا مُقنعة. لكن عواقب الاغتيال والتقارير الرسمية التي نُشرت عنه سلّطت بعض الضوء المذهل على الطبيعة التي أصبح عليها التجسّس هذه الأيام.

قبل إعلان أوباما عن نبأ الاغتيال، كانت هناك رسائل على تويتر توقّعت الخبر من قبل. لكنْ مثلما أبلغ مسؤوليه: "لا، لا، لا خبر أكيد قبل أن أُعلنه بنفسي.

يستطيع الأشخاص تسريب ما يشاءون. لكن الخبر لن يصبح في نشرات الأخبار إلى أن أقول شيئاً".[4] ففي النهاية، لطالما كانت هذه حرب روايات؛ أي تصادماً بين الرواة. وكان هذا صحيحاً حتى النهاية.

وفي غضون سنتين، كُتبت ثلاثة كتب على الأقل كانت الأكثر رواجاً عن مقتل بن لادن. وأُنتج فيلم سينمائي في هوليود عن هذا الموضوع وعنوانه Zero Dark Thirty، وكذلك عدة أفلام وثائقية. اضطر أوباما إلى خوض معركة حملته الرئاسية في العام 2012، وتأكد مستشاروه من تلقي الصحافيين قصةً جيدةً حافظت على سُمعته واسترضت معظم الضالعين فيها.

أُنفقَت مليارات الدولارات من أموال دافعي الضرائب على مطاردة بن لادن. وكان من الملائم استغلال مصيره لتبرير الكلفة. والتفسير الذي خَدَم الهدف كان القول إن العثور عليه لم يكن ومضةً من التألق، بل ثمرة عمل جماعي: كل شيء كان ممكناً بفضل الوقت والمال.

رغم بقاء القصة الحقيقية مخفية، أصبح قتل بن لادن انتصاراً لأي شيء تريده أن يكون: للتعذيب، والتجسّس، والهوس بعالم الكمبيوتر، والخدمة العسكرية، أو حتى لحدس المرأة.

قال البعض إن العملية شملت استخدام نظام كمبيوتر كلفته مليارات الدولارات، فَرَز المعلومات المعقّدة، وأبرَزَ الاتصالات المخفية. ويعود الفضل إلى برنامج كمبيوتر برمجته شركة تموّلها وكالة الاستخبارات المركزية وتدعى بلانتير (Palantir)، وقد أنتجت أحدث تطبيق لمبدأ "الإدراك الجماعي للمعلومات"، حيث تمت برمجة الكمبيوترات (بفضل منح من دافعي الضرائب قيمتها مليارات الدولارات) لمعالجة كميات ضخمة من "البيانات غير البنيوية" (كل أنواع المعلومات من عدة مصادر) و"توصيل النقاط" لإيجاد الروابط والمعاني. في حالة بلانتير، كانت هناك أيضاً جرعة كبيرة من التدخّل البشري في منتَجها، ومبالغة في

قيمته. في روايته عن الغارة، كَتَب مارك بودن: "طوَّرت بلانتير منتَجاً يستحق في الواقع اللقب الشعبي *التطبيق القاتل*".[5]

أُبدي الكثير من الاهتمام بــ "جين"، وهي المحلِّلة الرئيسة في قسم مكافحة الإرهاب (تسمّى هذه الوظيفة الآن "مستهدِف") في فريق أغلبه من النساء. وقد أشارت التقارير إلى أنهم وجدوها وهي تبكي دموع الفرح في قاعدة عسكرية في أفغانستان بعد أن عاد مغاوير البحر إلى هناك ومعهم جثة بن لادن.[6] وقد أعيد تكوين شخصيتها لكي تكون نجمة في الفيلم السينمائي Zero Dark Thirty.

بالتأكيد، إن النيل من بن لادن شكَّل نجاحاً استخباراتياً. لكنْ ما مقدار التعقيد الذي استلزمه هذا الأمر؟ فقد حاولوا القيام بأمور كثيرة، ويمكن القول إنها اشتملت على غزو بلدين هما العراق وأفغانستان. وفي النهاية، يبدو أن الأمر أشبه بما يسمّيه قراصنة الكمبيوتر "هجوم القوة الوحشية"؛ أي محاولة كل تركيبة أرقام ممكنة على خزنة مُقفلة إلى أن تنجح إحداها. صحيح أن العمل البوليسي بدا جيداً، إلا أن كل شيء برز عنه لم يكن جديداً بشكل خاص. فالطرائق المستخدَمة بدت تقليديةً جداً.

إليكم القصة باختصار. بعد هجمات 11 سبتمبر، كلَّف الرئيس جورج و. بوش وكالة الاستخبارات المركزية بالقبض على بن لادن حياً أو ميتاً، والمفضّل أن يكون ميتاً. نقل كوفر بلاك، رئيس قسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية، الرسالة إلى فريق الوكالة الذي ذهب إلى حيث كان بن لادن، أي أفغانستان:

> لا أريد القبض على بن لادن وجماعته، بل أريدهم أمواتاً... يجب قَتْلهم. أريد رؤية صور رؤوسهم معلّقة على الحراب. أريد أن يُشحَن رأس بن لادن في صندوق معبأ بالجليد. أريد أن أكون قادراً على إظهار رأس بن لادن للرئيس؛ فقد وعدتُه بأن أفعل ذلك.[7]

أطاح الأميركيون بحركة طالبان التي حكمت ذلك البلد. لكنّ بن لادن تمكّن من الفرار في معركة تورا بورا في ديسمبر 2001.

بعد إعلان ما سمّي حرباً على الإرهاب وتشكيل حلف من الدول الداعمة لها، اكتشف الجيش الأميركي أنه لم يكن مجهّزاً ليخوض حرب كتلك- فتنظيم القاعدة لم يكن لديه جيش نظامي- لذا انخرط في محاولة تخفيف الأعراض إلى حد كبير. وأصبح الغضب الشعبي المترجَم إلى جوع للحرب أكثر من مُتخَمٍ من جرّاء اجتياح أفغانستان والعراق، مع المحاولات اللاحقة "لبناء الدولة" (إعادة تركيب القطع المحطّمة) ثم قمع الثورات. وفي الوقت نفسه، تستطيع الوحدات العسكرية المتخصصة، كالحراس والمستجوِبين في خليج غوانتانامو، دعم (وأيضاً التنافس مع) محاولة وكالة الاستخبارات المركزية اصطياد العدو الحقيقي: أولئك الذين هاجموا الولايات المتحدة فعلاً.

بعد طرح السؤال البسيط "أين بن لادن؟" بوسائل متنوعة على عدد هائل من الأشخاص، أقرّ المستجوِبون بفشلهم في بحثهم. لذا، عادت وكالة الاستخبارات المركزية إلى الأسلوب التقليدي في تعقّب شخص مفقود؛ ألا وهو الانتباه إلى أي مشاهدات يتم التبليغ عنها، ومراقبة تحرّكات دائرته الداخلية واتصالاتها، أي عائلته ومعاونيه، بما في ذلك مراقبة الموفدين. فطالما أنه على قيد الحياة، سيتمكن بن لادن على الأرجح من مواصلة فرض سلطته، عن طريق إصدار بيانات دورية في الإعلام، عادة على أشرطة فيديو أو تسجيلات صوتية، وكذلك التكلم مع الموظفين التابعين له. وهذا يعني أنه لا بدّ من وجود سُعاة بريد.

كيف يمكن التعرّف إلى أعضاء دائرته الداخلية؟ المكان الواضح للبحث كان في سجلات كل الذين "تم استجوابهم" في مختلف معسكرات الاعتقال. فقد احتفظت وكالة الاستخبارات المركزية (ووكالات أخرى) لوقت طويل بلائحة المساعدين المعروفين لبن لادن. وعندما كانت تُجرى مقابلات جديدة، كان المحلّلون يطلبون

من المستجوِبين الضغط للحصول على المزيد من التفاصيل عن تلك الأهداف. كل شيء واضح جداً حتى الآن.

وفقاً لتقارير رفعتها وكالة الاستخبارات المركزية والبيت الأبيض عن المطاردة- وتم اقتباسها في كتب من تأليف الصحافيَين بيتر بيرغن ومارك بودن، وأكّدها تقرير للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ[8]- وصلت وكالة الاستخبارات المركزية إلى بن لادن أخيراً من خلال اقتفاء آثار ساعي بريد يدعى أبا أحمد الكويتي. لم يشكّل هذا تغييراً في الأسلوب. وقد قال مارتي مارتن، وهو رئيسٌ سابقٌ لوحدة بن لادن، إن "سعاة البريد كانوا على تماس مع كل المعلومات الأخرى التي كنا نتتبّعها، وبقينا نركّز على شبكة سعاة البريد لفترة طويلة، ولم يكن الأمر جديداً".[9] وذكر بيرغن أن محلّلة في وكالة استخبارات مركزية كتبت مذكرةً في العام 2005 عنوانها "الغزوات"، توصّلت فيها إلى "الدعائم" الأربع لما يجب أن تتألف منه حملة مطاردة بن لادن في غياب أي دليل ملموس، وهي: شبكة سعاة بريده، أفراد عائلته، اتصالاته مع كبار القادة الآخرين، وتواصله مع الإعلام.[10]

سمعت وكالة الاستخبارات المركزية عن الكويتي من المواد التي وضعت يدها عليها، ومن إفادات السجناء عند استجوابهم من قِبل الحكومات الأجنبية ووكالة الاستخبارات المركزية. وكان من بين أولئك السجناء خالد شيخ محمد (الذي قُبض عليه في مارس 2003، والذي قلّل من شأن أي ضلوع للكويتي) وحسان غول (ساعي بريد لتنظيم القاعدة، اعتُقل في العام 2004 ونُقل إلى موقع أسود لوكالة الاستخبارات المركزية في أوروبا الشرقية). وفقاً لبيرغن، إن غول "أخبر المحقّقين أن الكويتي كان ساعي بريد بن لادن وسافر معه كثيراً".[11] أصبحت تلك الاستجوابات موضوع جدال علنياً تافهاً في الولايات المتحدة بعد مقتل بن لادن، عمّا إذا كان اسم ساعي البريد هذا قد طُرح من جرّاء التعذيب أم لا.

بدا الأشخاص الذين أشاروا باستمرار منذ هجمات 11 سبتمبر- مثل بودن- إلى حقيقة أن التعذيب يمكن أن يكون فعّالاً، متألمين من الإشارة إلى أن التعذيب

كان جزءاً من عملية الحصول على اسم ساعي البريد. وقد كَتَب بودن: "زَعَمت إدارة أوباما أن التعذيب لم يلعب أي دور في تعقّب بن لادن، لكن ذلك الادعاء ينهار هنا، في أول خطوتين مهمتين على مسار الحقيقة". وأشار إلى أساليب التعذيب الموثّقة المستخدَمة ضد سجينَين.[12]

لكن جون ماكّين، السيناتور الجمهوري الذي نافس أوباما على الرئاسة، أصَرَّ على ما يلي، بناءً على استجواب مفصَّل أجرته وكالة الاستخبارات المركزية:

> أول ذكر لاسم أبي أحمد الكويتي، وكذلك أول وصف له كعضو مهم في تنظيم القاعدة، أتى من معتقَل في بلد آخر. لم تستجوب الولايات المتحدة ذلك المعتقَل، كما أننا لم نسلّمه إلى ذلك البلد بقصد استجوابه. لم نعلم الاسم الحقيقي أو الاسم المستعار لأبي أحمد عن طريق الإيهام بالغرق أو أي "أسلوب استجواب محسَّن" استُخدِم على أي معتقَل موقوف في سجن أميركي.[13]

صادق تقرير مجلس الشيوخ المفصَّل حول برنامج وكالة الاستخبارات المركزية للاستجواب المنشور في ديسمبر 2014 على استنتاج ماكّين. وقد وجَد أن معظم الأدلة التي كشفت الكويتي أتت من سجناء موقوفين في سجن أجنبي، أو- في حالة غول- اعتقلتهم السلطات الكردية قبل أن يتلقوا المعاملة "المحسَّنة" لوكالة الاستخبارات المركزية.[14] ومثلما ذكر التقرير: "سبعة من المعتقَلين الثلاثة عشر الذين ذكرت وكالة الاستخبارات المركزية أنهم أُخضِعوا لأساليب استجوابها المحسَّنة كانوا قد زوَّدوا بمعلومات عن أبي أحمد الكويتي قبل إخضاعهم لأساليب الاستجواب المحسَّنة تلك". لكن الجدال بأكمله كان بلا معنى حقاً. فسواء أكانوا في سجن أجنبي أو سجن تابع لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد أُسيئت معاملة كل السجناء تقريباً. لم تكن هناك عيّنة للمقارنة لسجناء ذوي قيمة عالية لم يتم تعذيبهم. والأهم من ذلك- مثلما توضّح الروايات الرسمية- لم يكشف أي سجين من تنظيم القاعدة موقوف لدى وكالة الاستخبارات المركزية الهوية الفعلية للكويتي. ومثلما صرَّح ماكّين بشكل صحيح: "لم يكشف أي معتقَل من المعتقَلين

الثلاثة الذين تم إيهامهم بالغرق الاسم الحقيقي لأبي أحمد، أو مكان تواجده، أو وصفاً دقيقاً لدوره في تنظيم القاعدة".[15] والاسم الذي ناقشوه حقاً كان مجرد بداية. فالاسم أبو أحمد الكويتي يمكن أن يشير إلى أي شخص من سكان الكويت وابنه يدعى أحمد. كان ذلك أشبه بالقول إن بن لادن يعرف شخصاً في نيويورك يدعى جون. كان ذلك بعيداً كل البُعد عن أن يكون هويةً مفيدةً يمكن تعقّبها.

أتى الجزء الصعب والرائع بعد ذلك، مع اكتشاف الاسم الحقيقي لأبي أحمد ورقم هاتفه. ولا تزال طريقة إنجاز ذلك سراً حتى وقت كتابة هذا الكلام. لكن تقرير مجلس الشيوخ يحدِّد أن الاختراق الكبير يمكن أن يكون قد حصل بإعادة قراءة تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية عمره خمس سنوات، ومؤرَّخ في 23 نوفمبر 2007، وعنوانه "الهوية المحتملة لمُسهِّل بن لادن المشبوه أبي أحمد الكويتي". يصف التقرير كيف أن "مراجعة استجوابات العام 2002 التي أجرتها [حكومة أجنبية] مع معتقَل زَعَم أنه سافر من الكويت إلى أفغانستان في العام 2000" مع شخص يدعى "أحمد الكويتي" زوَّدت بالاختراق الكبير الذي أدّى إلى التعرّف المرجّح على هوية حبيب الرحمن بأنه أبو أحمد.[16] عندها، ساعدت الحكومة الأجنبية في معرفة أنه يعمل من منطقة بيشاور الكبرى. وأشار تلخيصٌ لوكالة الاستخبارات المركزية إلى أن الاسم الذي زوَّد به السجين تبيَّن أنه اسم الأخ المتوفي للكويتي، ولكنه كان كافياً لكي تضع وكالة الاستخبارات المركزية "خريطة لكامل عائلة أبي أحمد، بما في ذلك الاسم الحقيقي لأبي أحمد نفسه".[17]

بعد الحصول على الاسم الحقيقي لساعي البريد، حصلت الوكالة على رقم هاتفه الجوّال أيضاً. وبمساعدة وكالة الأمن القومي، أصبح بإمكانهم البدء بتعقّب مكانه. وخلافاً للأسطورة الشعبية، لا تستطيع وكالة الأمن القومي التنصّت على كل شيء يجري على الكرة الأرضية أو تعقّبه في الوقت نفسه. فهي بحاجة أولاً إلى شيء يلفت انتباهها، شيء تسمّيه الشرطة "طرف الخيط". لكنْ بعدما تصبح لديها نقطة انطلاق، ومن خلال شبكة محطاتها الأرضية والوصول إلى كوكبة من الأقمار الاصطناعية المخصصة لاستخبارات الإشارات، ستكون لديها قدرة غير معقولة

للتنصّت على هواتف جوّالة محدَّدة، وفوق كل شيء على تتبّع أماكن تواجدها. هذه أمور يومية عادية بالنسبة إلى عالم الاستخبارات، ولا تحتاج إلى عبقرية فذّة أو تعليمات خاصة لوضع الأرقام المعروفة لأحد أفراد الدائرة الداخلية لبن لادن على لائحة ما تسمّيه وكالة الأمن القومي "منتخَبين"، وهي لائحة المراقبة ذات الأولوية للهواتف المطلوب تعقّبها.

وفقاً لبودن، لم يتمكنوا من تعقّب هاتف أبي أحمد في البداية. "لكنْ في يونيو 2010، تمكّنت الولايات المتحدة من تحديد مكان تواجد الهاتف عندما كان قيد الاستخدام، أو ربما حتى عندما لم يكن قيد الاستخدام. وقد عنى ذلك أنه يمكنهم إيجاد الكويتي، ومراقبته".[18] أصبحت الأمور مثيرة للاهتمام الآن.

ظهر الهاتف في باكستان، وهو المكان المفترض مسبقاً لمخبأ بن لادن. وقد ساعدت التكنولوجيا المتطوّرة هنا؛ فقد كان بالإمكان استخدام الأقمار الاصطناعية والطائرات بدون طيّار المتخفّية وطائرات المراقبة لرؤية سيارة أبي أحمد. ونُشر عملاء لمراقبة الطرق. تبيَّن أن سيارته سوزوكي جيمني بيضاء عليها غطاء متميز للعجلة الاحتياطية في الخلف. تم تعقّبها من بيشاور إلى منزل مُحاط بجدران عالية في مدينة أبوت أباد، بالقرب من قاعدة عسكرية للجيش الباكستاني.

أصبحت المطاردة تقليديةً مرة أخرى. فعندما تجد الشرطة عرين أحد الأشرار، يكون الخيار إما الإغارة عليه أو مراقبته. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية حتى ذلك الحين تملك دليلاً على أن بن لادن يعيش هناك. لذا، تم نشر المزيد من تكنولوجيا المراقبة، وأرسلت وكالة الاستخبارات المركزية رجالاً لإنشاء منزل آمن في فيلا قريبة من أجل مراقبة المجمَّع وقاطنيه. لكن بسبب الجدران العالية للمجمَّع، كانت المراقبة التي تتم من السماء (بواسطة قمر اصطناعي أو طائرة بدون طيّار) هي التي كشفت عن وجود رجل الأسرة؛ وهو رجل يتجوَّل ويُلقي ظلاً طويلاً، وأُطلق عليه سريعاً لقب "المتهادي".

بدأت وكالة الاستخبارات المركزية تصدِّق الآن أنها حاصرت رجلها، ولاحظ المحلّلون أنه يسير مثل الرجل الذي رآه أسلافهم في أوائل العام 1999 من خلال كاميرات طائرة البريديتر، إذ كان يسير بخطى موزونة في مجمَّع صحراوي في أفغانستان. تم التعرّف عليه لاحقاً بشكل موكّد على أنه بن لادن، ولكن بما أن هويته كانت لا تزال غير مؤكّدة في ذلك الوقت، رفض الرئيس كلينتون شنّ هجوم بسبب الخطر الحقيقي المتمثل بقتل أشخاص أبرياء.[19] كانت هويته الجديدة في باكستان لا تزال حساً باطنياً. وكان كل محلّل يعرف أن كل الأدلة قد تبدو وكأنها تشير إلى الخلاصة نفسها، ولكنها مع ذلك يمكن أن تكون خاطئة. كان اتخاذ القرار بشنّ هجوم في باكستان أمراً صعباً على الرئيس أوباما.

عند هذه النقطة، ظهر شاكيل أفريدي في الصورة. من المعروف عن الأفريديين أنهم مستقلون في آرائهم، ونادراً ما يجري تجنيدهم. لكن الدكتور أفريدي كان يعاني من مشاكل عديدة جَعَلته قابلاً للتجنيد. فخلال عمله في المناطق القَبَلية، اتُّهم بسوء الممارسة الطبية، واختطفه زعيم محلي فاضطر إلى دفع فدية لكي يُطلَق سراحه. زار الولايات المتحدة لاحقاً، حيث أخضعته الاستخبارات الأميركية لتفحّص دقيق على الأرجح. خلُصت الأبحاث التي قامت بها مجلة GQ إلى أن أفريدي حضر جلسة تدريب أقامتها الجمعية الخيرية البريطانية التي كانت تنظّم حملات التلقيح في باكستان. وقد زَعَمت أن أحد مديري الجمعية الخيرية عرَّفه إلى وكالة الاستخبارات المركزية في بيشاور. لكن الجمعية الخيرية أنكرت ذلك.

كانت الاستخبارات البشرية قد لعبت دوراً من قبل في ملاحقة ساعي البريد حتى الآن. وقد كان "أصلٌ" باكستانيٌ هو الذي رَصَد سيارته في بيشاور، وساعد على اللحاق به إلى منزله في أبوت أباد. كان هناك عملاءٌ يراقبون المجمَّع، واكتشفوا أن ساعي البريد وأفراد عائلته كذبوا على بقية أفراد العائلة والأصدقاء عند إبلاغهم عن مكان إقامتهم.[20] لكن الاستعانة بأفريدي كانت أهم استخدام للاستخبارات البشرية برز منذ التقرير المنقّح لعملية بن لادن. كان بعيداً عن القصة بأكملها على الأرجح، لكن العالمين ببواطن الأمور أصرّوا على أنه لم يكن هناك

قطّ أي عميل أو حليف في موضع جيد جمّع أي شيء دقيق عن بن لادن حيث يمكنهم الإشارة إلى خريطة والقول: "هنا يعيش أسامة بن لادن!".

عندما يُطلب منهم شرح كيفية القبض على بن لادن، يتكلّم المحلّلون الضالعون في العملية عن تركيب أحجية صورة مقطّعة تتألف من آلاف القطع. ونُقل عن سيندي ستورر، وهي محلّلة سابقة في وكالة الاستخبارات المركزية، قولها: "تتساقط قطع من السماء، وتُضاف إلى الكومة الموجودة بين يدي المحلّل من قبل... لا توجد صورة [للتقيّد بها]، ولا قطع حافة. ولا تتناسب كل القطع مع الأحجية". وقد كَتَبت ندى باكوس، وهي ضابطة استهداف سابقة في وكالة الاستخبارات المركزية، "لا أستطيع أن أشدّد بما فيه الكفاية على أن الجهد كان جهداً جماعياً. فالمسألة معقّدة أكثر بكثير من وجود بطل واحد يقبض على الأشرار. المسألة متعددة الوجوه، ولا تركّز على فرد واحد، ولا أحد في وكالة الاستخبارات المركزية يملك كُرة سحرية".[21]

ويزعَم العالمون ببواطن الأمور أن التشبيه بأحجية الصورة المقطّعة لم يعبِّر كفاية عن مقدار "نقاط البيانات" الضالعة في التحليل العصري للإرهاب. فعدد الأشخاص والعوامل التي كان يتم تركيبها مع بعضها دفعة واحدة كبيرٌ جداً، حيث إن كمبيوتراً فقط، مدعوماً بفِرق كبيرة من البشر الأذكياء، يستطيع فهم المشكلة.

لم يكن تحديد الروابط بين الأشخاص والأماكن والهواتف والحسابات المصرفية، إلخ... شيئاً جديداً. لكن الجديد كان مقدار المعلومات المتوفرة والتي يجب معالجتها بمساعدة الآلات. ومثلما أظهَرت عملية بن لادن، كانت المعلومات الاستخباراتية تصبح رقمية. وكانت تتكيَّف مع التكنولوجيات الجديدة التي يستخدمها المجتمع، كما كانت تعتمد تكنولوجيات محدَّدة خاصة بها. لا تزال هذه الرقمنة غير مكتملة، فهي عبارة عن مسار تحوّل استغرق، وسيبقى يستغرق، عدة سنوات، ولا تزال النتيجة غير أكيدة.

في العالم المتخصص للعملاء السريين، لطالما كانت التكنولوجيا عاملاً مساعداً وعائقاً على حد سواء. وكان العميل السري في أفلام جايمس بوند التقليدية يُزوَّد قبل شروعه في مهمته بسلسلة من الأدوات المدهشة والمتطورة تكنولوجياً؛ من ولاّعات متفجّرة إلى سيارات مُعدَّة لإطلاق الصواريخ. أما في العالم الحقيقي، فيحاول العملاء والمشغِّلون في الحالات الخطيرة حمل أقل عدد ممكن من الأدوات؛ فهي مُثبِتة للجُرم. وقد قال ضابط فريق سابق في جهاز الاستخبارات السرية: "كل تلك الأدوات؛ كانت مخصصة لأيدي موسكو فقط". (تحت المراقبة المستمرة لجهاز KGB، كان ضباط الاستخبارات الغربيون في الاتحاد السوفياتي يضطرون إلى استخدام أجهزة مُبدِعة ليتواصلوا مع عملائهم).

لكن في القرن الحادي والعشرين، أدرك الجميع- بمن فيهم المتطرفون- أن التكنولوجيا بدأت تلعب دوراً أكبر بكثير في عالم التجسّس؛ بدءاً من عملية التحضير لمحاولة التجنيد. يمكن استخدام التكنولوجيا لتحديد الأهداف المحتملة، وتعريف المصادر، ودراسة حياة الأشخاص الذين قد يتم تجنيدهم. وكَتَب هانك كرامبتون، نائب الرئيس السابق لقسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية، بعد هجمات 11 سبتمبر، "الاستخبارات البشرية تُبلّغ العمليات التقنية وتمكّنها، والعكس صحيح".[22] مثلاً، ساعد العملاء البشريون على الأرض في اقتراح أهداف لتراقبها الطائرات بدون طيّار في أفغانستان، ولتسدّد ضربات جوية عليها. وبدورها، ساعدت البيانات من الطائرات بدون طيّار في التحقق من تقارير الجواسيس.

شرح كرامبتون أيضاً كيف أن الاستخبارات البشرية السيئة أفشلت العمليات التقنية. وقد بذل في إحدى المرات أقصى ما بوسعه لوضع جهاز تنصّت في شقة أحد أهداف الاستخبارات، واضطر إلى إزالته بعد ستة أشهر فقط. فالهدف لم يكشف عن أي شيء، وكان خياراً سيئاً. "لا تستخف بالعامل البشري أبداً؛ فهو أهم جزء في العمليات السرية، حتى إنه أهم من التكنولوجيا".[23]

ومثلما كان الحال في عملية القبض على بن لادن، قال العالمون ببواطن الأمور إن أهم استخدام للتكنولوجيا في محاربة الإرهاب كان في التعقّب والتعقّب والمزيد من التعقّب. وقد جَعَل ذلك ضباط الاستخبارات يشعرون أحياناً بأنهم يعملون في مجال الشرطة أكثر مما يعملون في مجال التجسّس. قال بول بيلار- الذي تقاعد في العام 2005 بعد ثماني وعشرين سنة من الخدمة كمحلّل في وكالة الاستخبارات المركزية، وعمِل مؤخراً كضابط استخبارات وطنية للشرق الأدنى- في مقابلة إن "عملية أخذ معلومات من مصادر بشرية وتقنية وجمعها ببعضها" كانت مشابهة جداً لما تفعله أجهزة فرض القانون المحلية. ومحاولة استخلاص معنى من نشاطات عصابة إجرامية ما كانت "بأغلبها جزءاً من عمل الاستخبارات. كان ذلك قبل هجمات 11 سبتمبر، وبقي هكذا منذ ذلك الوقت".[24]

لكنْ سواء أكانت وظيفته تعقّب رجال العصابات أو الإرهابيين، فقد أصبح علم المراقبة أكثر دقةً بكثير؛ مستعيراً الأساليب الكلاسيكية للقبض على الجواسيس من عالم مكافحة التجسّس، ومضيفاً أحدث المبتكرات من عالم تحديد المواقع الجغرافية والتنصّت، ثم توجيهها ضد المتشدّدين العصريين. وقد قال السير دايفد أوماند، وهو رئيس سابق لمكاتب الاتصالات الحكومية: "تم تطوير أساليب التعرّف على المشبوهين والمراقبة الخفية والتنصّت لمواجهة الجهازَين السوفياتيَّين KGB وGRU". وتابع قائلاً إنه تم تكييف هذه الأمور واستخدامها ضد الأهداف العصرية.[25]

مثلما فعلت قيادة العمليات الخاصة المشتركة في العراق وأفغانستان، بدأت أجهزة الاستخبارات المدنية باعتماد أسلوب "خلية الانصهار"، حيث يجتمع ممثلون عن كل الوكالات السرية المختلفة وفِرق تجميع الاستخبارات البشرية والتقنية. حصل هذا في الولايات المتحدة داخل قسم مكافحة الإرهاب الآخذ في التوسّع في وكالة الاستخبارات المركزية، وتم تشكيل فِرق كهذه في المملكة المتحدة لتنفيذ عمليات مختلفة، سواء أكان ذلك داخل المركز الرئيس لـــ MI5 في ميلبنك، أو داخل جهاز الاستخبارات السرية على الضفة الأخرى للنهر في فوكسهول. حتى إن وكالة التنصّت- "مكاتب الاتصالات الحكومية"- التي بقيت منعزلة تقليدياً في

مركزها في غرب البلاد، أرسلت موظفيها لكي يندمجوا بالكامل. وبمواجهة السوفيات، حيث كان خطر مكافحة التجسّس كبيراً، كان "مبدأ الحاجة إلى المعرفة" متفوّقاً. لكنْ في مهمة مكافحة الإرهاب العصرية هذه، أصبح الشعار (الفجّ بعض الشيء) "الجرأة على المشاركة!". وقد وجد القدامى في جهاز الاستخبارات السرية التغييرَ جديراً بالملاحظة.

السهولة العصرية في السفر والاتصالات جَعَلت عملية تعقّب الأثر عالميةً. ولهذا السبب، يمكن أن تكون أجهزة الاستخبارات هي الأكثر فعالية. فكوكب الأرض لا يملك قوات شرطة خاصة به؛ وقد كافحت قوات الشرطة الوطنية والإقليمية للحصول على إذن للعمل في بلدان أخرى، أو لتلقي مساعدة من أقرانها في قوات الشرطة الأخرى. وكانت البلدان الأجنبية أكثر استعداداً للمساعدة في أغلب الأحيان إذا كانت تلك المساعدة ستبقى سرية. وإذا كانت تلك البلدان لن تساعد، كان لدى أجهزة التجسّس الخيار بالقفز من فوق السور والوصول إلى المعلومات بنفسها.

عندما جَعَل الغرب عملية مكافحة الإرهاب أعلى أولوية لديه، بدأت حملة مطاردة تبدو لا نهائية وتخطّت بأشواط بعيدة مسألة العثور على أشخاص مثل أسامة بن لادن. وآخذة الفرنسيين في التسعينيات كقدوة لها، حاوَلت أجهزة الاستخبارات ملاحقة الجريمة منذ مراحل التخطيط لها؛ أي المؤامرة، وما سمّاه الفيلم السينمائي Minority Report (تقرير الأقلية) للعام 2002 "ما قبل الجريمة". وفي حين أن تحليل الشبكات بحدّ ذاته قد لا يكون شيئاً جديداً، إلا أنه سيُستخدَم الآن لنطاق أهدافٍ أوسع، ولمحاولة توقّع السلوك المستقبلي.

لذا، في حين أنني أرى أن معظم عمليات مكافحة الإرهاب العصرية كانت نشاطاً للشرطة في الأساس- ولو كانت تجري سراً أو عبر الحدود في أحيان كثيرة- إلا أن أوماند يقول إن مساهمة ضباط الاستخبارات في هذا الصراع الملتحم بشكل متزايد كانت عقليتهم الموجَّهة نحو المستقبل. "لأنّ مُجمل تدريب ضباط

الاستخبارات ذو طبيعة تقدميّة. إنه تدريب توقّعي". كانت الحاجة إلى التطلّع إلى الأمام تغيِّر عمل الاستخبارات وعمل الشرطة على حد سواء، فتصهر عملياتهما.

لم يكن الرأي القائل إن عمل الاستخبارات يعني التوقّع مشتركاً بين الجميع. وقد رفض ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية الفكرة بأكملها. "إنها مغالطة حقيقية؛ مغالطة منتشرة على نطاق واسع، بأننا نتوقّع. فالعمل الاستخباراتي يتلخّص في الإجابة عن السؤال: "ماذا يجري حقاً؟". مثلاً، يستطيع العميل أو المتنصِّت إعطاء فكرة عما يجري في الكواليس، وما تجري مناقشته أو التخطيط له. لكنْ لا يمكنه قول ما سيحصل بعد ذلك. هذا الفرق كان مهماً. وفي حين أن جميع العاملين في مكافحة الإرهاب وافَقوا على أن الاستخبارات الجيدة قد تكشف مؤامرة إرهابية أثناء الإعداد لها أو خطة هجوم محدَّدة، إلا أنه كان هناك خلاف حقيقي حول الدرجة التي يمكن بها استخدام التكنولوجيا والمراقبة بعيدة المدى أكثر للتحديق أبعد في المستقبل.

لكنْ سواء أكانت الاستخبارات توقّعيةً أم لا، فإن المكافحة العصرية للإرهاب- مثلما اقترح أوماند وعن حق- كانت تتمحور بالتأكيد حول النظر إلى المستقبل. فهي تتطلّب منطق التحليل الاستباقيّ. وقال إن ملاحقة المجرمين ومحاكمتهم في الماضي كانتا تأتيان عادة بعد وقوع الجريمة. لكن في عصر التفجيرات الانتحارية المدمِّرة، لم تكن العقوبة الجنائية بعد الحادثة تشكّل رادعاً للشهيد. لذا، قال إن المطلوب في هذه الأيام من وكالات الاستخبارات والشرطة- التي تتعاون مع بعضها بعضاً- هو تعريف الإرهابيين المحتملين قبل أن يتمكنوا من ارتكاب نشاطاتهم الإجرامية.

عند نشرها ضد الجواسيس السوفيات أو الجيش الجمهوري الإيرلندي، بقيت أساليب المراقبة والتكنولوجيا المتوفرة سرية بالكامل. لكنّ- حتى قبل ما أفشاه كاشفو الفساد أمثال إدوارد سنودن في العام 2013- نشر أجهزة الاستخبارات في

التسعينيات للمساعدة في محاربة الجريمة المنظّمة، ثم محاكمة المتآمرين الإرهابيين سمح بتسريب بعض تلك الأسرار.

تضمّنت الأساليب المعروضة- مثلما شرح ديرلوف- مراقبة واسعة للهواتف والانترنت وبيانات السفر، والتركيز على الاتصالات التي بدت مشبوهة، وتصيُّد الاتصالات الأجنبية (التي يمكن أن تقوم بها الوكالات البريطانية والأميركية من دون أي تفويض خاص)، ثم تطبيق تدابير تطفّلية أكثر، عند تضييق مجال الشكوك، كالتنصّت على السيارات والمنازل والمكالمات الهاتفية المحلية.

إذاً، ما هو الدور الذي يبقى للجاسوس البشري؟ في كل مستوياته، يستطيع المصدر البشري أن يساعد في تركيز التحقيقات، أو يزوّد بالأساس للحصول على تفويض بالتنصّت. لكنْ من النادر أن يكون العملاء عاملاً مركزياً. ويعود سبب ذلك جزئياً إلى أنهم كانوا يقوفهم عادة، ولأسباب مقصودة، على هامش أي مؤامرة. ومثلما قال أوماند: "يشتمل كل العمل الاستخباراتي على إدارة الخطر الأخلاقي. مثلاً، سيكون من الصعب إيجاد مُخبِرين داخل عصابة إرهابية ليسوا مذنبين بجرائم جنائية وأيديهم غير ملطّخة بالدماء. لذا، هناك دائماً خطر الاتهام بالتواطؤ بأعمال شريرة. وهذا صعب كفاية مع عصابة مخدرات، وأسوأ مع تنظيم إرهابي خطير. وستكون فرص نجاح ضباط سريين في التغلغل في شبكات كهذه قليلة، كما أن تجنيد بعض أفراد الشبكة صعبٌ وخطيرٌ على جميع المشاركين في هذه العملية".[26]

من جهة أخرى، قسم كبير من المعلومات القيّمة التي حصلت عليها السلطات جاء من المجتمعات التي سعى الإرهابيون إلى الاختباء فيها أو التي نبتوا منها. ووفقاً لأوماند، يريد الأشخاص العاديون في أغلب الأحيان فرصةً "ليحسِّنوا أنفسهم، وكي لا يضعهم المجتمع في الفئة نفسها مع المتطرّفين"، وقد حصل زملاؤه على "مقدار كبير من ذلك النوع من الاستخبارات البشرية؛ أكثر بكثير مما حصلوا عليه من العملاء الذين تمكنوا من الاختراق إلى عمق كبير". وبوجود شبكات إرهابيين

فضفاضة أكثر، و"ازدياد خطر الذئاب الوحيدة"، قد لا يكون هناك "الكثير لكي يتم اختراقه عبر وسائل الاستخبارات البشرية التقليدية". بتعبير آخر، حتى الجاسوس الجيد قد لا يتمكن من اكتشاف أي مؤامرة أبداً. لكنْ كان من الممكن أحياناً "الارتقاء في سلم القيادة والوصول إلى المنظّمين والمحرِّضين في الجماعات الإرهابية ما وراء البحار عبر عدة وسائل، من بينها تعقّب اتصالاتهم ومعارفهم وتحرّكاتهم". هذه كانت قيمة تتمة العمليات الاستخباراتية البشرية؛ "عن طريق الحصول على وصولٍ شاملٍ إلى الاتصالات العالمية".

يتّضح استخدام أساليب المراقبة المكثّفة من العملية التي اكتشفت مؤامرة 2006 في لندن لتفجير متفجرات سائلة على متن الطائرات فوق الأطلسي. وكان الأشخاص الضالعون في المؤامرة- أغلبهم شباب بريطانيون من أصل باكستاني- قد أثاروا الشكوك من قبل بسبب صداقتهم مع رشيد رؤوف؛ وهو باكستاني بريطاني يعيش في لاهور ويُعرف بأنه قائد مقاتل. (هنا أصبحت وكالة الأمن القومي ومكاتب الاتصالات الحكومية البريطانية فعّالةً؛ عندما توفّرت لديها نقطة انطلاق تستطيع منها فرز الاتصالات منذ ذلك الوقت فصاعداً. كان من النادر أن يتمكنوا من اكتشاف حالة شاذة في الأثير؛ شيءٍ مشبوهٍ في رسالة بريد إلكتروني تم التنصّت عليها عشوائياً. والسبب الرئيس الذي جعلهم يجدون أن التنصّت السائب مفيدٌ كان أن سعة التخزين الضخمة تمكّنهم من تصفّح كل المعلومات التي كانوا قد حصدوها في السابق، ومن العثور على المكالمات والرسائل الماضية بعدما تم تحديد الأهداف).

رُفع مستوى المراقبة وعدد روابط المتآمرين لكي يشمل مراقبة محتوى المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني؛ وفق تفويض وقّعه وزير الداخلية البريطاني. ومع ازدياد الشكوك، زرع MI5 أجهزة تنصّت في منازل الرجال وسياراتهم. فالمرحلة الأخيرة- أي المراقبة الجسدية للأهداف والاستماع إلى محتوى المكالمات- كانت دائماً الأكثر استهلاكاً للوقت. وهذا يشرح سبب عدم كون مكتب التحقيقات الفدرالي أو MI5 يملكان أبداً الطاقة البشرية المطلوبة لتتبّع طرف كل خيط. ورغم

أن المعالجة الرقمية للأصوات كانت تتحسَّن، إلا أنه لا تزال هناك حاجة إلى الاستماع إلى تسجيلات المشبوهين من قِبل إنسان. وملاحقة شخص واحد سيراً على الأقدام من دون لفت الانتباه، يمكن أن تتطلب عشرين أو ثلاثين شخصاً. لهذا السبب، وعلى حد تعبير أحد مديري MI5، "أن تكون على رادارنا لا يعني بالضرورة أن تكون تحت مجهَرنا".[27]

قد تتطلّب المراقبة استخدام الكثير من الموارد، ولكن عند تركيزها على مجموعة صغيرة- بسبب التقبّل الكبير للتكنولوجيا في المجتمع هذه الأيام- تصبح كمية مذهلة من المعلومات متوفرة. وحقيقة أن عدداً كبيراً من الأشخاص يحملون هواتف جوّالة مزوَّدة بكاميرات قد جعَلت الجميع جواسيس محتملين. لكن الهاتف نفسه المزوَّد بكاميرا، وغيره من التكنولوجيا الشخصية الأخرى، يمكن أن تنقلب ضد الشخص وتُستخدَم للتجسّس عليه. فأهم المزوِّدين بالأدلة كانوا المشبوهين أنفسهم.

حتى من بين الإرهابيين المتطرّفين الذين يظنّ المرء أنهم يقظون، كان من المفاجئ كم واحداً منهم أراد رقمنة حياته، والتواصل عبر الانترنت، وتسجيل أفكاره الدفينة على كمبيوتره. لذا، باستخدام طرائق تقنية مختلفة، كانت وكالة الأمن القومي ومكاتب الاتصالات الحكومية تستطيع اختراق أجهزتهم ونسخ تلك البيانات.

قبل فترة طويلة من كشف سنودن للعديد من الوسائل المستخدَمة، صرَّح عضوٌ في لجنة الاستخبارات والأمن التابعة للبرلمان البريطاني: "من المدهش مقدار المعلومات التي لا يزال أولئك الأشخاص يتبادلونها في الدردشة، والمقدار الذي يمكننا التقاطه منها". إن هذا الأمن التشغيلي السيئ يعكس كيفية تغيير عقيدة أولئك المجنَّدين الجدد في المقام الأول؛ من خلال الدعاية والمنتديات الإلكترونية على الانترنت. كان هذا جيل الإرهابيين القادم من مواقع الويب، وقد كافَحوا لكي يبعدوا أنفسهم عن مأزقهم الرقمي.

بالنسبة إلى الأشخاص الذين علموا أنهم تحت المراقبة، فقد يشعرون أنهم كانوا يعيشون في الواقع المرير الذي توقّعه جورج أورويل في روايته "1984"، حيث يعيش المواطنون "في مراقبة متواصلة من الحزب الحاكم، من خلال استخدام تكنولوجيا عدوانية متطوّرة"، وحيث تستطيع ميكروفونات خفية وتلفزيونات مجهَّزة بكاميرات أن تراقب الجميع بلا توقف. التقيتُ في إحدى المرات مشبوهاً بتمويل تنظيم القاعدة كان يشعر بالذعر لدرجة أنه كان يحملق في كل الاتجاهات باستمرار. وعندما جلسنا في مقهى في لندن، كنا نستطيع حتى رؤية شخص يرفع آلة تصويره ليلتقط صورة لقائنا البسيط. لكنْ خلافاً لوصف أورويل، أو قل الشتازي في ألمانيا الشرقية حيث تم تطبيق نظرة أورويل بأدق تفاصيلها، كانت هذه المراقبة استهدافية للغاية. فإذا لم تختر إحدى الدول تطبيق نموذج ألمانيا الشرقية وتوظيف عشرات آلاف رجال الاستخبارات لمراقبة شعبها، فإن مراقبة الجميع غير عملية مطلقاً، إن لم نقل شيئاً آخر.

كما أن المراقبة الاستهدافية لم تكن شاملة وفعّالة مثلما أظهَر مثلاً الفيلم السينمائي Enemy of the State (عدو الدولة) للعام 1998، من بطولة ويل سميث في دور محامٍ تتعقّبه وكالة الأمن القومي أينما ذهب ومهما فعل. فالمراقبة الإلكترونية والجسدية لها حدود عملانية، وتُنتج عيوباً باستمرار. في يوليو 2004 في بريطانيا، كان MI5 يتعقّب مشبوهاً بالانتماء إلى تنظيم القاعدة، ديرين باروت، الذي أراد من بين أشياء أخرى تفجير قطار مترو بينما يمرّ تحت نهر التمز. لكنْ رغم أنه كان هدفاً أولياً، إلا أن MI5 فَقَد أثره بشكل مُحرِج لخمسة أيام في لندن. وفي العام 2006، حُكم عليه بالسجن لأربعين سنة.[28] وفي الولايات المتحدة، كان مكتب التحقيقات الفدرالي يتعقّب نجيب الله زازي طوال الطريق من كولورادو إلى نيويورك في العام 2009، ولكن بعد توقيف شرطة المرور له- بذريعة ما- على جسر في المدينة، أُصيب زازي بالذعر. وقال محاميه لاحقاً: "رغم أنه ليس أذكى شخص في الوسط الإرهابي، إلا أنه لم ينخدع بالحيلة الجليّة بإقامة نقطة تفتيش *عشوائية*".[29] وكانت النتيجة أن زازي تمكّن من الهرب من المراقبة، وأتلف الصواعق

المتفجِّرة والمواد الأخرى أو أخفاها. وفي نيويورك أيضاً، في السنة التالية، تم التعرّف سريعاً على مواطن أميركي مولود في باكستان يدعى فيصل شهزاد بأنه الرجل الذي فجَّر سيارة مفخَّخة في ساحة تايمز سكوير، لكن لم يكن بالإمكان العثور عليه لثلاثة أيام. وقد عُثر عليه فقط عندما كان على متن طائرة تابعة لطيران الإمارات متوجِّهة إلى دبي في مطار كينيدي في نيويورك.

المشكلة الرئيسة في كل هذا التجسّس عبر المراقبة الرقمية كانت الحمولة الزائدة. فأجهزة الاستخبارات كانت تجمِّع معلومات رقمية عن سكان العالم أسرع بكثير من قدرتها على تطوير الأساليب التحليلية. وكان الوضع أشبه بالمثل القائل "البحث عن إبرة في كومة قش". ورغم أن وكالات الاستخبارات ضاعفت عدد الإبر التي كانت تبحث عنها، لكنها ضاعفت بعدة مرات أكثر عدد كومات القش التي كانت تبحث فيها.

وكانت مكافحة الإرهاب ضحية نجاحها الشخصي. فكلما اعتقلت الوكالات المزيد من الأشخاص، أو قتلت، أو عرقلت عمل أعضاء شبكة إرهابية، تسبَّبت بانقسام المجموعة إلى مجموعات منعزلة. وقد صعَّب هذا التهديد المفتَّت الطرائق البشرية والتقنية على حد سواء. ولم يعد لدى أجهزة المراقبة طرف خيط لتبدأ منه، ولم يكن هناك جاسوس في الداخل لكي يحذّر من المؤامرات.

كثيراً ما يقول قليلو الاطلاع: "فقط لو" تم تجميع معلومات معيَّنة، لكان بالإمكان منع هجمات 11 سبتمبر والعديد غيرها. لكن المشكلة المعتادة مختلفة. ففي أغلب الأحيان، يتم فعلاً التوصل إلى المعلومة الرئيسة، ولكنها تُرمى في دُرج ولا يقرأها أحد. وأكبر مشكلة- أكثر من أي وقت مضى- هي فرز المعلومات ذات الصلة عن المعلومات غير ذات الصلة.

تستطيع المراقبة إعطاء دلالات محدودة فقط عن السلوك البشري المستقبلي؛ للسبب نفسه الذي يجعل من الصعب إعادة إنشاء الاستخبارات البشرية اصطناعياً.

فالعقل البشري يملك خيارات غير محدودة تقريباً. ومن الصعب توقّع ما سيفعله المرء في المستقبل بشكل أكيد؛ رغم سلوكه في الماضي. لهذا السبب، سخر الكثيرون في عالم الاستخبارات من فكرة أن عملهم هو أن يتوقّعوا أي شيء. وبغض النظر عن الأخلاقيات، إذا حاولت الأجهزة الأمنية أن تحقّق "ما قبل وقوع الجريمة"، فمن السهل أن تغرق إما في بحر من الإيجابيات الخاطئة (شخص في الواقع لم يفكّر قط في أن يقوم بشيء سيئ) أو من الأشياء التي لا يمكن إثباتها بالدليل (شخص ربما فكّر في أن يقوم بشيء سيئ ولكنه لم يقم به في الواقع). وكان سبب نجاح التحقيق في مؤامرة قنبلة لندن السائلة أن بريطانيا كانت مستعدة للمخاطرة بأن يتابع المتآمرون عملهم إلى أن ينتقلوا إلى مرحلة التحضير النشط جداً، فيزوّدوا بدليل عن وجود نيّة واضحة لتنفيذ الجرائم التي تحدّثوا عنها.

في الولايات المتحدة، كان مستوى تحمّل المخاطر منخفضاً جداً. لذا، كانت النتيجة قافلة لا نهائية من الأدلة الخاطئة؛ بناءً على تصيُّد تقني ضخم، مما جعَل عمل مكتب التحقيقات الفدرالي مُضجراً للغاية بعد هجمات 11 سبتمبر. "كنا دائماً نقتفي أثر الأشباح"؛ على حدّ تعبير ضابط سابق.

وفي حين أن العديد من الأدلة كان خاطئاً، أصبح النظام مغموراً؛ لدرجة أنهم بدأوا يغفلون عن الأدلة الإيجابية. وفي 25 ديسمبر 2009، حاوَل عمر فاروق عبد المطّلب، وهو شاب نيجيري عمره 23 سنة، تفجير متفجرات مخبأة في ملابسه الداخلية في رحلة طيران من أمستردام إلى ديترويت. اكتُشفَ لاحقاً أنه قبل شهر من الهجوم، ذهب والد عبد المطّلب إلى السفارة الأميركية في أبوجا للتبليغ عن اختلاط ابنه مع أشخاص متطرّفين. رفع مسؤولو القنصلية وموظفو وكالة الاستخبارات المركزية تقريراً دخل في لائحة مراقبة الإرهاب الأميركية (المعروفة بـــ Tide)، ولكن من دون أي إشارة إلى الحاجة إلى إخضاع عبد المطّلب لتفتيش خاص عند محاولته الصعود إلى الطائرة. (أغفلوا أيضاً رسائل بريد إلكتروني، أو مكالمات هاتفية كان قد تم التنصّت عليها. وتشير إحدى الروايات إلى أن عمليات التنصّت في اليمن ذكرت أنه "تجري استمالة نيجيري غير مسمّى لينفّذ مهمة لصالح

تنظيم القاعدة، وتحدّثت اتصالات أخرى عن خطط لتنفيذ هجوم إرهابي خلال فترة العيد").[30]

كان الرد اللا إرادي على الحالات المماثلة لحالة "مفجّر الملابس الداخلية"- مثلما أصبح يسمّى- هو تجميع المزيد من المعلومات وتحليلها. لكن ذلك سبّب تضخّماً في الحمولة الزائدة أكثر فأكثر. ومثلما حذّر أحد الخبراء الفنيين: "كلما جمّعتَ المزيد من البيانات، كافحتَ أكثر لمعالجتها وتفسيرها ونقلها. والخبر السيئ هو أن الانهيار الثلجي يستطيع أن يطمرك حياً".[31] كانت عملية تجميع المعلومات الاستخباراتية تُغمَر من قِبل قدراتها الذاتية، لكن قدرات الرقمنة السريعة نفسها التي تستطيع وكالة الأمن القومي استغلالها بسهولة كانت أيضاً مصدر التعقيد الإضافي، وصولاً إلى حدّ إبطال مفعول الفائدة المكتَسَبة. مثلاً، كانت المعاملات المالية الرقمية تعني أن حركة الأموال أصبح تعقبها أسهل، ولكنها أصبحت أسرع أيضاً. فالعالم نفسه كان يصبح أصعب للقراءة. ومثلما شرح مدير استخبارات الإشارات في وكالة الأمن القومي، مورين باجنسكي، في العام 2001: "يمكنك أن تحدّق إلى الأرض السوفياتية لمدة 25 سنة ولن يواجهك هذا النوع من مشاكل الحجم أبداً. كانوا بطيئين، لذا كان لا بأس في أن نكون بطيئين أيضاً. أما اليوم، فالمسألة هي الحجم؛ المسألة هي السرعة والتنوّع في آن واحد".[32]

إحدى نقاط الضعف الكبرى في المطاردة الرقمية كانت أن الأبرياء هم الأكثر عرضة للتعقّب الرقمي. فليس لديهم أي سبب خاص ليشفّروا رسائل بريدهم الإلكتروني، أو يتّخذوا هويات مزيّفة، أو يجعلوا استخدامهم للانترنت مجهول المصدر. ومثلما اكتشف موظفو وكالة الاستخبارات المركزية عندما عملوا على الأوراق والملفات التي صادروها من مقرّ أسامة بن لادن، كان هذا الأخير قد امتنع عن استخدام الهاتف والانترنت بالكامل. وكان قد أرسل سعاة بريده عشرات الكيلومترات لإرسال رسائل البريد الإلكتروني من كمبيوترات عمومية وعشوائية. وقد أظهرَت أبحاثي في برنامج الترحيل لوكالة الاستخبارات المركزية أن الأشخاص

كانوا يصنّفون إرهابيين بشكل خاطئ في أغلب الأحيان- على الأقل في الأيام الأولى بعد العام 2001- لأن أحد التحاليل البسيطة جداً للروابط صنّف اتصالاً بريئاً بأحد المقاتلين المشبوهين كدليلٍ على أن ذلك الشخص كان مقاتلاً أيضاً. وقد يُظهر تحليل المكالمات الهاتفية للإرهابي اتصاله بأحد الأرقام عدة مرات؛ ربما يتصل بزوجته التي ليست لديها أي فكرة عن جرائمه. لكن المكالمة الرئيسة لأحد زملاء الإرهابي قد تجري في الواقع عبر هاتف آخر؛ هاتف عمومي في الشارع مثلاً. كان هذا "قانون الوصلة الضعيفة": فأضعف حلقة قد تكون الأكثر أهمية في الواقع.

عندما سألتُ ضباط استخبارات متمرّسين عن جودة الاستخبارات التقنية- بالأخص التنصّت- على مر السنوات منذ الحرب العالمية الثانية، أشار معظمهم إلى أنها كانت متذبذبة. فعلى مدى عدة عقود، حصلت وكالة الاستخبارات المركزية على نسخة عن كل برقية أُرسلت من الولايات المتحدة أو إليها. وكان يجري التنصّت على كل خطوط الهاتف ما وراء البحار في وقت من الأوقات. وقد مرّت سنوات كان فيها التنصّت يغطي مساحات ضخمة. ثم عثر الأشخاص على طرائق أخرى للتواصل، وشيفرات مختلفة، كما أن الكونغرس أقرّ قيوداً قانونيةً على هذه الأمور. حتى إن البعض يجادل بالقول إن توسّع العالم الرقمي أدّى إلى إعطاء الزبون المُطلق، أي القائد السياسي ووكالة الأمن، مستوى المعلومات الاستخباراتية السرية نفسه بصورة عامة، وما اختلف الآن هو أنها أصبحت تُجمَّع بكلفة أعلى بكثير. وقد قال رئيس سابق لقسم العمليات السرية في وكالة الاستخبارات المركزية: "من المستحيل التماشي مع الوضع"، رغم أنه لم يُشر إلى عدم محاولته ذلك. لكنْ رغم أن ذلك التشاؤم مبرَّرٌ عند التعامل مع الأهداف الصعبة للاستخبارات- أولئك الذين يحاولون إخفاء أسرارهم- إلا أن الحقيقة هي أن إيجاد المواطن العصري ووضعه تحت المراقبة أصبحا أسهل من أي وقت مضى. وما تغيَّر بالتأكيد أيضاً- بفضل التطوّر في التكنولوجيا- هو قدرة الاستخبارات التقنية على العمل بشكل جيد حقاً بعد فوات الأوان؛ في إعادة بناء الأحداث وتتبّع الأعداء المعروفين. طبعاً

يبقى ذلك، كالعادة، أقل خيراً بكثير من التطلّع إلى الأمام وتوقّع الأهداف الجديدة والتهديدات الجديدة.

مع كل هذا التعقّب والتكنولوجيا، كيف تأقلم الجواسيس الحقيقيون؟

في بريطانيا، ساعدت الدراسة المكثّفة لخطط السفر وشبكات المقاتلين المشبوهين في تسليط الضوء على أهداف لتجنيدهم كعملاء. وأي شخص منهم ذهب إلى أماكن يُقيم فيها المقاتلون معسكرات تدريب (كالمناطق القَبَلية الباكستانية أو الصومال) أو تجري فيها نزاعات حالية- كما في سوريا- كان ذا أهمية خاصة. وعلى حدّ تعبير مايك شيهان، منسّق مكافحة الإرهاب السابق في شرطة نيويورك، "الارتباط بالمعسكرات هو المفتاح ليكون المرء فعّالاً تشغيلياً".[33]

وفقاً لبعض الفتيان الذين تم التقرّب منهم، ومحاميهم، إن إحدى طرائق التجنيد التي استخدمها MI5 كانت اكتشاف مخالفة ما لقوانين الهجرة في عائلة المشبوه، ثم الضغط عليه لجعله يتعاون. وقد استخدم MI5 السلطات الجديدة التي يمنحه إياها قانون الإرهاب الذي صدر في العام 2000 باعتقال الشباب البريطانيين المسلمين واستجوابهم وتفتيشهم عندما يعودون إلى المملكة المتحدة بعد سفرهم إلى الخارج. ورغم أن أولئك الأفراد لم يكونوا مشبوهين، إلا أنهم قالوا إنهم تعرّضوا للضغط ليعملوا كمُخبِرين لـــ MI5. وقال محمد نور، وهو عامل في كامدن، شمالي لندن، عمره 25 سنة، إن ضابطاً في MI5 زاره برفقة شرطي متنكّر بزيّ ساعي بريد. وقد أبلغ صحيفةً أن ضابط MI5 قال له: "يا محمد، إذا لم تعمل معنا، فسنبلّغ أي بلد أجنبي تحاول السفر إليه بأنك إرهابي مشبوه".[34] لم يكن بالإمكان التحقّق من صحة ادعائه، لكن بالطبع، تعرّض العديد من الفتيان في بعض المجتمعات المسلمة للمضايقة. ودار جدال أيضاً حول أنه إذا كان من الممكن الحصول على استخبارات مفيدة بطرائق كهذه، فإن بعض الشعور السيئ كان ثمناً يستحق الدفع.

رَفَض المسؤولون الأمنيون في الوكالات الغربية استخدام الابتزاز عادة، زاعمين أنه سيأتي بنتائج عكسية، وسيُنتِج معلومات غير موثوقة، وسيكون أمراً غير أخلاقي. لكنْ على حدّ تعبير ضابط فريق متمرِّس في وكالة الاستخبارات المركزية، "كل هذا كلام فارغ. فنحن نفعل ما يتعيَّن علينا فعله". وأشار إلى أنه كان هناك تمييزٌ بين الابتزاز الصريح والأخرق، والاستغلال الدقيق أكثر لإحدى نقاط الضعف. مثلاً، قد يدع المجنِّدُ هدفَه يُدرِك أنه يعرف نقطة ضعفه (مثلاً، أنه دخل البلد بشكل غير قانوني) من دون أن ينطق بأي تهديد علني بكشف أمره، أو- حتى أفضل من ذلك- بعدما يتم تحديد نقطة الضعف، يستطيع المجنِّد أن يحاول تقديم نفسه كحل لتلك المشكلة (مثلاً، أن يعرض جعل وضع الهدف قانونياً). لكنه يقول إن ذلك يظل نوعاً من أنواع الابتزاز، ولو كان أقل وحشية.

قيَّم ضابطٌ سابقٌ في الاستخبارات البريطانية الضغط كالتالي: "عندما تواجه عدداً هائلاً من الأدلة المحتملة والمعقّدة، القادمة بشكل رئيس من مصادر تقنية، لن يكون لديك وقت كافٍ لتلجأ إلى أساليب الرعاية طويلة الأجل التي كانت سارية في الأزمنة السابقة. لذا، نعم، يمكن استخدام التهديدات، وبعض الذين يقومون بها سيكونون غير كفوئين. وستقرأ بالطبع عن الأساليب التي فشلت، وليس عن تلك التي نجحت وأبقتنا آمنين حتى الآن". وتستحق إحدى محاولات التجنيد التي قام بها MI5 تفحّصاً دقيقاً. ففي مايو 2013، وبعد قتل الجندي البريطاني لي ريغبي بطريقة وحشية في وضح النهار خارج ثكنات المدفعية الملكية في وولويتش، جنوبي لندن، تبيَّن أن أحد القاتلَين على الأقل، مايكل أديبولاجو، كان معروفاً جيداً للاستخبارات البريطانية. وقد أخبَر أحد أصدقائه محطة BBC أنه عندما عاد أديبولاجو من رحلة إلى كينيا، "تعرَّض للمضايقة من MI5". وقد قال الصديق الذي اعتُقل أيضاً بعد المقابلة: "قال لي بالحرف: *إنهم يتنصّتون عليّ؛ لن يتركوني وشأني*... وأخبرني أنهم أرادوا في البداية أن يسألوه عمّا إذا كان يعرِف بعض الأشخاص أم لا... لكنْ بعد أن أجابهم أنه لا يعرفهم، قال إنهم سألوه إن كان مهتماً بالعمل معهم".[35] وأكّد آخرون أنه تذمَّر سابقاً من تحرّشهم به.

هل ساهم ضغط السلطات البريطانية في تعزيز طبيعة أديبولاجو القاتلة؟ لم تتوفر معلومات علنية كافية للسماح لأي شخص بالحكم على ذلك. لكن أديبولاجو كان جهادياً ملتزماً قبل فترة طويلة من محاولة MI5 تجنيده. أُدين المهاجمان بجريمة قتل ريغبي في المحاكمة في ديسمبر 2013، وحُكم عليهما لاحقاً بالسجن مدى الحياة.[36]

بإدخال عملاء بين صفوف الرجال ذوي الرتبة المتدنية الذين كانوا يتردّدون على معسكرات التدريب، حصلت بعض النجاحات الحقيقية في منع حصول هجمات. وبعمله في بريطانيا والدانمرك على حد سواء، أظهَر مورتن ستورم، الدرّاج الدانمركي السابق، قيمة امتلاك عملاء في دوائر المقاتلين يمكنهم أن يتصرّفوا كمراقبين، فيلاحظون الأشخاص الذين إما يختفون للتدريب أو يبدو أن لديهم رغبة حقيقية في "أن يصبحوا نشطين" ويشنّوا هجوماً. وقد أظهَر حدس ستورم في اكتشاف الأشخاص الذين سيصبحون إرهابيين قيمةَ اللمسة البشرية.

يعمل ستورم الآن لوكالة الاستخبارات المركزية أيضاً، وقد أُعيد إرساله إلى اليمن، حيث دَرَس الإسلام، وتصادَق مع الداعية أنور العولقي، الذي أصبح مروِّجاً ذا نفوذ على الانترنت لفكر تنظيم القاعدة، وقائداً في فرع التنظيم في اليمن؛ تنظيم القاعدة في جزيرة العرب.

في حين أن تشغيل الجواسيس داخل تنظيم القاعدة مُفعَم بالمشاكل، إلا أن حالة ستورم أظهَرت كيف يستطيع التفكير الجانبي التغلّب على بعض المسائل، مع خليط عصري من اللمسة البشرية وسحر التكنولوجيا. وإحدى نقاط الضعف التي استغلتها وكالة الاستخبارات المركزية كانت أن العولقي- بعيداً عن حياته كمقاتل- رجل عادي لديه احتياجات مادية وعاطفية. تمكّن ستورم من التواصل مع العولقي، ولكنه تجنَّب التقرّب منه كثيراً لكي لا ينكشف أمره (أو أمر الوكالات التي تشغّله)، فتصرّف كداعمٍ جديرٍ بالثقة- ولكنْ ليس مُقتنعاً كلياً- مستعدٍ لإرسال مؤن إليه أو إحضارها له. ومثلما هو مسجَّل في مقاطع الفيديو

ورسائل البريد الإلكتروني، لعب ستورم (وبشكل غير مباشر وكالة الاستخبارات المركزية) دور وسيط زواج، فدبَّر زوجة جديدة للعولقي وصلت حاملةً حقيبة سفر مجهَّزة بجهاز تعقّب.

عندما ضلّت تلك الحقيبة طريقها، أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية واحدة أخرى إلى ستورم، ممرّرة المزيد من أجهزة التعقّب في تمويهات مختلفة. ولا يبدو أن كل تلك الأمور قد نفعت، لكن ستورم يظن أن العولقي قُتل أخيراً بضربة من طائرة بدون طيّار بعد أن دلّ وكالة الاستخبارات المركزية إلى ساعي بريد يستخدمه رجل الدين، فسلّموا ساعي البريد قطعة تخزين USB تحتوي على جهاز تعقّب.

خرج ستورم أخيراً إلى الإعلام راوياً قصة عملياته الجاسوسية بعد خلاف مع وكالة الاستخبارات المركزية عمّا إذا كان يجب أن ينال المكافأة المالية التي كانت معروضة على حياة العولقي. كان قد سجَّل اجتماعه الأخير مع الوكالة على هاتفه الآيفون. وقد شرح له ضابط وكالة الاستخبارات المركزية، "مايكل"، أن مهمته كانت واحدة من بين عدة محاولات لقتل العولقي، وقد نجحت مهمة أخرى. ولكن وفقاً لستورم، "الأمر أشبه بمباراة كرة قدم في بطولة كأس العالم، وأنت تركض في الملعب باتجاه مرمى الخصم وتصل إلى مكان مناسب لتسجّل هدفاً، وكان بإمكان الشاب الآخر أن يمرّر لك الكرة لكنه لم يفعل ذلك، بل سدّدها بنفسه وسجَّل الهدف، وانتهى الأمر. هذا ما حصل".[37]

لكن ستورم قال أيضاً إنه فهم سبب رفض وكالة الاستخبارات المركزية الإقرار بأنه أرشدها إلى العولقي. فنظراً إلى كونه دانمركياً، هذا سيعني أن الاستخبارات الدانمركية قد ساعَدت في الاغتيال، وهو شيء ممنوع وفق القانون الدانمركي. وهذه كانت مشكلة كبيرة في عمليات التعاون مع الولايات المتحدة. فرغم أن وكالات التجسّس الغربية كان لديها عدو مشترك، إلا أنها اعتمدت أساليب مختلفة في النهاية. وقد بذل جهاز الاستخبارات السرية جهوداً كبيرةً في السابق ليُقنِع ستورم

بالعمل معهم مع استمرار محاولتهم تجنّب أي صلة بعمليات القتل الاستهدافية، والتي كانت ممنوعة وفق القانون البريطاني. لكن وكالة الاستخبارات المركزية عرضت مالاً أكثر على ستورم.

حالة التجنيد الناجحة والمعروفة الأخرى لجاسوسٍ داخل تنظيم القاعدة في جزيرة العرب كانت عملية بريطانية جرت بمساعدة الاستخبارات السعودية، وتمكّنت من إحباط محاولة أخرى لتفجير طائرة ركاب. فوفقاً لمسؤولين في الاستخبارات، تم اكتشاف المؤامرة من قِبل عميل من أصل سعودي يشغِّله MI5 وتم تجنيده في المملكة المتحدة. أُعطي العميل جواز سفر بريطانياً، وأُرسِل إلى مدرسة لغات في اليمن ليتعقّب درب النيجيري عمر فاروق عبد المطّلب، "مفجِّر الملابس الداخلية". تمكّن هذا العميل المزدوج من الوصول إلى جبال شبوة في اليمن الجنوبية، حيث اخترَق الخلية. أُرسِل أخيراً في مهمة مع مفجِّر ملابس داخلية آخر، حيث سلّمه إلى مشغِّليه. ثم أتبعت الولايات المتحدة ذلك بسلسلة ضربات من طائرات بدون طيّار. كان هذا خبراً جيداً للوكالات المعنية. لكن البريطانيين غضبوا عندما أُشير إلى وجود عميل في مهزلة نموذجية في واشنطن. فقد علمت وكالة الأسوشيتد برس بوجود العميل من أحد مصادرها، واكتُشفَ لاحقاً أنه مقاول متعاقد مع مكتب التحقيقات الفدرالي.[38] تم إقناعهم بتأخير النشر. ولكنْ عندما أعلنوا في 7 مايو 2012 عن أنه تم إحباط عملية تفجيرية، أعلَمَ جون برينن، رئيس قسم مكافحة الإرهاب في عهد أوباما ومدير وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً، عدة خبراء في التلفزيون مسبقاً بأن المؤامرة لم تكن تشكّل أي تهديد كبير قطّ بفضل وجود "سيطرة داخلية". وفُسِّر هذا بشكل صحيح على أنه يشير إلى وجود عميل. ثم صرَّح ريتشارد كلارك، وهو مسؤول سابق في البيت الأبيض، لبرنامج Nightline على قناة ABC أن "الحكومة الأميركية تقول إن العملية لم تشكّل أي خطر قطّ لأن لديها معلومات داخلية، أو سيطرة داخلية؛ وهذا يلمِّح إلى وجود شخص في الداخل لم يكن ليسمح بحصول ذلك".[39] كل هذا أدّى إلى انكشاف أمر وجود العميل. والأرجح أنه تقاعد بسرعة ويعيش الآن تحت الحماية.

على عكس العمليات في اليمن والصومال، إن الحماية التي وفّرتها وكالة الاستخبارات الباكستانية في باكستان للمقاتلين، والإجراءات الأمنية المشدّدة في المناطق القريبة من الحدود مع أفغانستان عَنَت أن نسبة النجاح في تطوير شبكات عملاء أو تشغيل عملاء في المعسكرات كانت أقل. حاولَت وكالة الاستخبارات المركزية إرسال قدر ما يمكنها من الرجال إلى البلد، كما أرسلت ضباط ارتباط إلى قاعدة وكالة الاستخبارات الباكستانية في ميرانشاه، شمالي وزيرستان، رغم أنهم لم يغادروا القاعدة مطلقاً. لكن هذا لا يعني أن أجهزة الاستخبارات لم تملك أي عملاء في المعسكرات. فقد كان لديها عملاء من وقت إلى آخر، ومن بينهم بعض العملاء الذين أرسلهم البريطانيون عبر بيشاور.

رغم أن الاستخبارات الأميركية أصبحت أفضل في العثور على كبار القادة بين المقاتلين الأجانب في المناطق القَبَلية- والذين لا يزالون مصنَّفين عادة كتابعين لتنظيم القاعدة - وضربهم هناك، إلا أنها كانت أقل نجاحاً في العثور على الأعضاء الأفغانيين في حركة طالبان الذين كانوا مختبئين. كما لم تستطع العثور على الجندي الأميركي من الدرجة الأولى بوِي بيرغدال، الذي اختُطف في العام 2009 بعد تجوّله خارج قاعدته وكان معتقلاً لدى فصيل حقّاني في حركة طالبان، المتمركز في شمال وزيرستان في باكستان (أُطلق سراحه في نهاية المطاف بعد مقايضته بسجناء من خليج غوانتانامو).

وفقاً لأحد كبار المسؤولين في الاستخبارات الأميركية، لم تكن هناك علاقة قوية بين نجاح ضربات الطائرات بدون طيّار والجواسيس المتواجدين على الأرض، بل كانت العلاقة أقوى بكثير مع عدد من الطرائق التقنية- أغلبها المراقبة من الجو وتعقّب الهواتف- وكذلك عمليات سرية من تنفيذ قيادة العمليات الخاصة المشتركة للحصول على مساعدة السجناء من حركة طالبان: "كل المعلومات الاستخباراتية تقريباً تأتي منا، ولا نحصل على أي شيء من الباكستانيين تقريباً. نعم، بعض الاستخبارات البشرية المباشرة، لكن السبب حقاً هو مراقبتنا تلك

الأماكن منذ سنوات. وعندما أقول التحديق لسنوات، فأنا أعني حقاً *التحديق لسنوات*. لقد أصبحنا نعرف تلك الأماكن حقاً" (التشديد منه هو).

وقال إنه تم تحسين أساليب الاستجواب منذ أيام الاستجوابات البدائية والفظّة بعد هجمات 11 سبتمبر: "فنحن نُجلسهم؛ وهذا مختلف كلياً عما كان يجري في الماضي". ويبدو أن هذا يجعل 99 بالمئة منهم يتكلمون: "المسألة أشبه بخوض تجربة حياة أو موت. فهم سعداء لأنهم خرجوا من هذه التجربة أحياء ولأنهم آمنون الآن".

يتم تدريب أعضاء حركة طالبان الذين يتعاونون ويمكن استخدامهم لتحديد مواقع معسكرات المقاتلين في باكستان بدقة: "يمكنهم أن يذكروا مَن يتواجد في كل غرفة في مدرسة حقّاني تلك، أو أياً يكن". حتى إنه تم تدريب البعض على تكنولوجيات المراقبة: "نعلّمهم كيفية فهم الصور الملتقطة من الجو. يبدأون بأمور غير ذات صلة، لكي يتعلّموا التقنية فقط. ثم نبيِّن لهم أشياء يجب أن يعرفوا عنها، فيبدأون بالقول: أجل أجل، هذا هو المكان الذي استخدَمناه. ويُخبروننا كل شيء. الطريقة نافعة".

هذه العملية المدهشة بتجنيد أعضاء من حركة طالبان ليساعدوا في تحديد أهداف ضربات الطائرات بدون طيّار، والتي لم تُكتشف من قبل على حدّ علمي، كانت جزءاً من آلات الحرب المتطوّرة بشكل متزايد، والتي أصبحت فعاليتها تدفع إلى الشعور بالتفوّق.[40]

لأن باكستان واليمن كانتا دولتين ذواتَي سيادة وليستا في حالة حرب مع الولايات المتحدة، فإن القانون الأميركي ينصّ على أن وكالة الاستخبارات المركزية هي المسؤولة رسمياً عن برنامج الطائرات بدون طيّار. لكن اختيار الأهداف وتشغيل الطائرات بدون طيّار كانا عملياً عملية مشتركة بين سلاح الجو الأميركي وقيادة العمليات الخاصة المشتركة. وكانت تتم الموافقة على الأهداف عادة من قبل لجنة مشتركة تضم وكالات استخبارات مختلفة، عسكرية ومدنية على حدّ سواء.

وقد قال أحد ضباط قيادة العمليات الخاصة المشتركة الذي شهد على تلك القرارات: "كان الجهد مشتركاً، وكان هناك دائماً مزيج من الاستخبارات. لا يمكنني أن أتذكر أي ضربة استندت إلى الاستخبارات البشرية فقط؛ بل كان هناك دائماً مقدار كبير من الاستخبارات التقنية لكي نتمكن من معرفة مَن كان في المجمَّع". لكنه أضاف أنه كان هناك بعض التريّث قبل تسديد ضربة تستند إلى استخبارات ضعيفة؛ إذا كان الهدف ذا قيمة أعلى.

التعاون في الاغتيالات باستعمال الطائرات بدون طيّار- والدور المركزي الذي بدأت تلعبه في سياسة مكافحة الإرهاب- أقنع عدة متمرِّسين في وكالة الاستخبارات المركزية بأنهم كانوا يشهدون عسكَرَة غير صحية للوكالة. وقال روبرت بيير، الضابط الكبير السابق في وكالة الاستخبارات المركزية: "هذا ليس تجسّساً. فالجلوس ومشاهدة أفلام لاختيار أهداف للطائرات المفترسة شيء اعتاد الجيش على القيام به. وكالة الاستخبارات المركزية تشغِّل مصادر بشرية، ووكالة الأمن القومي تتنصّت، والأشخاص الذين يقومون بالتصوير الجوي يفعلون ذلك، والجيش يشغِّل الأسلحة الفتّاكة. هذا شيء جُرَّت إليه وكالة الاستخبارات المركزية بعد هجمات 11 سبتمبر". وقد تسبَّب العمل مع المفترسات وقتل الأشخاص بها بامتصاص الوكالة بالكامل؛ موهبتها ومواردها على حد سواء.

لم تصبح وكالة الاستخبارات المركزية أكثر عسكريةً فحسب- حوَّلتها الطائرات بدون طيّار وكذلك الاستجوابات الفظّة- بل أصبحت مقيَّدة أيضاً بالتعامل مع التهديد التكتيكي المباشر؛ أي قيام أحدث قائد تشغيلي لتنظيم القاعدة أو جماعة مقاتلين تابعين له بتشكيل الخلية النشطة التالية في الغرب.

ويجادل البعض بالقول إن ما كان ناقصاً هو استخبارات "فوق التلة". أي أن تلقي نظرة على أبعد إلى ما كان مرئياً أمامك مباشرة، فذلك سيسمح لأصحاب القرار بفهم أسباب متابعة دعم المقاتلين الإسلاميين بشكل أفضل، واكتشاف التهديدات الأخرى. كان MI5 معتاداً على تسمية أولئك الأشخاص "مراقبي الأفق".

بعد مرور عقد على هجمات 11 سبتمبر، وبعد مقتل بن لادن وضُعف تنظيم القاعدة كحركة، كان من الصعب المجادلة بأن دافع الجهاديين والتهديد الذي يفرضونه على الغرب قد تناقصا. لم يُفعَل سوى القليل لمعالجة أسباب العنف والشعور بالعداء للغرب. وقد أسَّس المتشدِّدون من الإسلاميين ملاذات آمنة عند الحدود الأفغانية الباكستانية، وفي اليمن، والصومال، وأجزاء من غرب أفريقيا. وفي غضون ذلك، لم يحصل أي تقدّم في حل الصراح العربي الإسرائيلي، والذي كان السبب لويلات كثيرة في الشرق الأوسط. وفي نهاية العام 2011، انسحب الجنود الأميركيون من العراق من دون أن يهزموا مَن بقي يحاربهم لأكثر من ثماني سنوات. وفي سوريا، كانت تلوح بوادر انتفاضة ضد نظام الرئيس بشار الأسد؛ وقد لعب السنة دوراً هاماً في تلك الثورة منذ البداية.

جوهرياً، الفكرة التي جسّدها تنظيم بن لادن كانت تمرُّداً عالمياً، غذّته موجة عارمة من الغضب ضد أنظمة الحكم المكروهة والسياسات الخارجية الغربية التي كانت تُبقيها في السلطة. ومن الممكن تعقّب أحدث المجنَّدين ومحاكمتهم وسجنهم- أو اغتيالهم- في بلد بعيد بواسطة طائرة بدون طيّار. لكنْ سيجد آخرون وسيلةً لتنفيذ خططهم من دون أن يُكتشف أمرهم؛ حتى لو تم تقليص أخطار هذه الأمور. فمعظم أعمال مكافحة الإرهاب دفاعيةً في الأساس، ولم تنقل المعركة إلى سبب المشكلة. فمثلما قال رئيس الوزراء البريطاني ستانلي بولدوين في العام 1932 بشأن التهديد الصاعد للغارات الجوية، مهما تكن الدفاعات الجوية جيدة، "ستتمكن القاذفات من التوغل دائماً".

لتغيير التشبيه، كان الإرهاب أشبه بتلوّث جرثومي. يمكن بالتأكيد مواجهته بعقاقير قوية، مثل المضادات الحيوية، ولكن استخدام هذه العقاقير يشجّع الجراثيم على تطوير مقاوَمة؛ مما يسمح للتلوّث بالتحوّل واتخاذ شكل جديد. ربما كان التلقيح فقط- إنشاء أجسام مضادة فعّالة- على هيئة معارضة الحركات النابعة من داخل المجتمعات التي ظهر منها الإرهاب، يملك أملاً بإنهاء التهديد بشكل دائم.

خلال عودتهم إلى منازلهم بعد تنفيذهم الغارة، ووجود جثة بن لادن في كيس على متن مروحيتهم، لم يترك مغاوير البحر ووكالة الاستخبارات المركزية خلفهم زوجاته فقط بل عميلهم أيضاً، الدكتور أفريدي. اعتقلته السلطات الباكستانية بعد فترة قصيرة وحُكم عليه بالسجن لفترة طويلة. ورغم قيام الكونغرس الأميركي بحملة لإطلاق سراحه، كان لا يزال في السجن حتى وقت كتابة هذا الكلام، وأضرَبَ عن الطعام بشكل متكرر. ورغم أنه اتُهم بالخيانة، إلا أن الحُكم بسجنه لهذه التهمة ارتبط بعضويته المزعومة في جماعة متشدّدة تدعى لشكر الإسلام (أو جيش الإسلام). أُعيدت محاكمته في أغسطس 2013، ولكنه اتُهم أيضاً في نوفمبر من تلك السنة بجريمة قتل مريض قبل ثماني سنوات. فرّ محاميه من البلد بعد ذلك بفترة قصيرة، مشيراً إلى وجود تهديدات لحياته.

كانت هناك عاقبة مدمِّرة أكثر لتجنيده؛ بالأخص بسبب اتهام وكالة الاستخبارات المركزية وعن خطأ بأنها كانت تقدِّم لقاحات ضد شلل الأطفال (كانت في الواقع ضد التهاب الكبد ب). وكان مقرراً في العام 2012 أن يتم تلقيح عشرات آلاف الأطفال عند الحدود الشمالية الغربية لباكستان ضد شلل الأطفال (كانت باكستان إحدى ثلاث دول فقط في العالم لا يزال المرض متفشياً فيها[41])، لكن حركة طالبان حظَّرت الحملة، فرفضت العائلات السماح لأطفالها بالمشاركة فيها. وألقى حاكم ولاية خيبر اللوم على برنامج "اللقاح المزيَّف" التابع لوكالة الاستخبارات المركزية. وفي فبراير 2012، وجَّهت مجموعة من 200 مؤسسة غير حكومية أميركية رسالة إلى وكالة الاستخبارات المركزية تتّهمها فيها "بتقويض جهود المجتمع الدولي الإنساني لإبادة شلل الأطفال"، وتقول فيها إن التقارير حول نشاطات وكالة الاستخبارات المركزية ربما تكون قد ساهمت "في تنامي عنف مستهدَف ضد العمال الإنسانيين".[42]

في 16 أكتوبر 2012، قُتل متطوِّعٌ في برنامج التلقيح بعد تعرّضه لإطلاق نار في كويتا، وكان واحداً من بين عشرات العاملين في برنامج محاربة شلل الأطفال الذين قُتلوا أو جرحوا في السنتين التاليتين. وفي حوادث غير مرتبطة في 13 ديسمبر 2013،

قُتل شرطيان مسؤولان عن حماية العاملين في برنامج محاربة شلل الأطفال، ومعهما أحد أولئك العمّال، في شمالي غربي باكستان.[43]

لم يكن التجسّس مجانياً أو خالياً من المخاطر مطلقاً.

القسم الرابع

إلى أين؟

الفصل 12

الجاسوس الجيد

"إذا كنت تعرف العدو وتعرف نفسك، فلن تضطر إلى
الخوف من نتائج مئة معركة"

– صَن تزو، فن الحرب[1]

في 13 مايو 2013، كان ديبلوماسي أميركي كثيب المظهر جالساً على كرسي خشبي في مكتب مفروش بالسجاد في وزارة روسية في موسكو. وكان خلفه مكتب عليه عدة أغراض عُثر عليها كلها في حقيبة ظهره، وكانت- على حدّ زعم البعض- أدوات الجاسوس العصري.

كان راين كريستوفر فوغلي يضع شعراً مستعاراً أشقر عند اعتقاله، ويحمل معه شعراً مستعاراً آخر أسود. ومن بين الأشياء العديدة التي عُثر عليها معه، كانت هناك ثلاث نظارات شمسية، وأطلس لموسكو، وبوصلة، وسكين، وولاّعة، ومغلفات فيها أوراق نقدية من فئة 500 يورو تصل قيمتها إلى 100,000$، وكذلك ما يسمّيه الروس "معدات تقنية خاصة" اشتملت على درع معدني لبطاقات الائتمان يمنع قراءة بياناتها تلقائياً.[2]

كان يحمل أيضاً رسالة أراد تسليمها إلى ضابط في جهاز الأمن الفدرالي للاتحاد الروسي:

صديقي العزيز،

هذه دفعة أولى من شخص مُعجَب جداً باحترافيتك، وسيقدِّر عالياً تعاونك في المستقبل. أمنك الشخصي يعني لنا الكثير. لهذا السبب، اخترنا هذه الطريقة للتواصل معك. سنتأكد من بقاء مراسلاتنا آمنة وسرية.

نحن جاهزون لنعرض عليك 100,000$ لنناقش تجربتك وخبرتك وتعاونك. قد تكون المكافأة أكبر بكثير إذا كنت مستعداً للإجابة عن بعض الأسئلة المحدَّدة. بالإضافة إلى ذلك، يمكننا أن نعرض ما يصل إلى مليون دولار في السنة مقابل التعاون على المدى الطويل، مع علاوات إضافية إذا تلقينا بعض المعلومات المفيدة.

للتواصل معنا، اذهب رجاءً إلى مقهى انترنت، أو مقهى عادي فيه اتصال لاسلكي، وافتح حساب Gmail جديداً لكي تستخدمه للاتصال بنا حصراً. لا تزوِّد خلال التسجيل بأي معلومات شخصية يمكنها أن تساعد في التعرّف عليك أو على حسابك الجديد. ولا تزوِّد بأي معلومات اتصال حقيقية؛ كرقم هاتفك مثلاً أو عناوين بريد إلكتروني أخرى.

إذا طلب منك Gmail معلومات شخصية، ابدأ عملية التسجيل مرة أخرى، وتجنَّب التزويد ببيانات كتلك. وبعدما تسجِّل هذا الحساب الجديد، استخدمه لإرسال رسالة إلى unbacggdA@gmail.com. وبعد أسبوع واحد بالضبط، افحص صندوق البريد هذا وستجد رداً منا.

(إذا استخدمت شبكةً أو أي جهاز آخر (جهاز لوحيّ مثلاً) لفتح الحساب في أحد المقاهي، فلا تستخدم رجاءً أي جهاز شخصي عليه بيانات شخصية. اشتر جهازاً جديداً إذا أمكن (ادفع ثمنه نقداً) لكي تستخدمه للاتصال بنا. سنعوِّض عليك ثمنه).

شكراً لقراءتك هذه الرسالة. نتطلّع للعمل معك في المستقبل القريب.[3]

حسابات على غُوغل Gmail؟ هل كان هذا هو الوجه الجديد للتجسّس؟ فوغلي، الذي كان معتمَداً كسكرتير ثالث في السفارة الأميركية، دُمغ كشخصية غير مرغوب فيها وطُرد من روسيا.

وقد صرَّحت وزارة خارجية البلد بما يلي: "في وقت أكّد فيه رئيسا الجمهورية لبلدينا استعدادهما لتوسيع علاقاتنا الثنائية، بما في ذلك خدمة خاصة [تعاون خاص]

في الحرب ضد الإرهاب الدولي، فإن نشاطات استفزازية كهذه من عصر "الحرب الباردة" لا تسهِّل تعزيز الثقة المتبادلة".[4]

بالطبع، كانت تلك الكلمات على سبيل المزاح. فروسيا كانت مشغولة بالمقدار نفسه تماماً في محاولة التجسّس على منافسيها.

حاوَلتُ في هذه الرواية عن التجسّس العصري أن أفصِّل أمثلة مفيدة تزوِّد بمادة تساعد في الإجابة عن ثلاثة أسئلة محدَّدة: كيف تغيَّر التجسّس؟ ومتى يكون قيِّماً؟ ومَن هم الجواسيس الذين نحتاج إليهم؟ مثلما يتّضح في كل هذه الأمثلة، إن قسماً من التجسّس بقي ثابتاً- كالتجسّس في روسيا مثلاً- فيما تطوَّر قسم آخر؛ بطرائق متقنة جداً في أغلب الأحيان. لذا، في ضوء تلك الخبرات، كيف يجب أن نُجيب عن هذه الأسئلة؟

كيفية تغيّر التجسّس

شدَّدت حالة فوغلي مرة أخرى على أن الألعاب القديمة لا تزال تُلعَب، ولو كان ذلك يتم بحيوية أقل. وفي حين أننا ركّزنا على ما اختلف في التجسّس العصري، إلا أن بعض الأفكار لا تزال مستمرة. وأهمها كانت أساسيات علم النفس البشري، وجهود الدول الكبرى في التجسّس على بعضها بعضاً. ومثلما قال ميلتون بيردن: "الفرق الوحيد في الكمين الذي نصبه الجهاز الأمني الروسي لفوغلي هو أن السجل الفوتوغرافي لعملية اعتقاله كان بالألوان الرقمية الواضحة، بدلاً من أن يكون بالأسود والأبيض ومنقطاً. كانت مداهمةً نموذجيةً".[5]

ينبع الدافع للتجسّس على دولة أخرى من القلق من نواياها. ومهما أصبحت العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا أقل حدّة بعد الحرب الباردة، لم ينخفض كلياً منسوب الحذر لدى الطرفين. ويصحّ الشيء نفسه على العلاقات بين روسيا وبريطانيا العُظمى؛ وبالأخص بعدما أصبح فلاديمير بوتين- وهو ضابط سابق في

KGB- الرئيس الروسي في العام 2000. ولم تتحسَّن الأمور بعد تسميم الضابط السابق في KGB ألكسندر ليتفيننكو في لندن في العام 2006، والذي كان وفقاً لأفراد عائلته وأصدقائه، عميلاً لجهاز الاستخبارات السرية البريطاني. اتهم البريطانيون الروس بقتله بكوب شاي ملوَّث بالبولونيوم المُشعّ.

رغم الاتهامات، لم ترغب بريطانيا العُظمى أو الولايات المتحدة أو روسيا بأن تشتدّ المواجهة وتصبح خارج السيطرة. وعندما فُتح تحقيقٌ حول مقتل ليتفيننكو، نجحت الحكومة البريطانية في الحصول على أمر قضائي بإبقاء دليل تدخّل روسيا في الجريمة، وكذلك علاقة بريطانيا بليتفيننكو، سراً. وفقط عندما احتلت روسيا منطقة شبه جزيرة القرم في أوكرانيا في العام 2014، أعلنت بريطانيا عن فتح تحقيق رسمي في وفاة ليتفيننكو، للتأكد بالأخص إن كانت روسيا مسؤولة عن ذلك. لكن الأرجح أن الأجزاء الحاسمة من الأدلة ستُسمَع خلف أبواب موصدة.[6]

لذا، بقيت روسيا تشكّل تهديداً، وهي قادرة وجاهزة على تحدي قوة الولايات المتحدة في العالم. وبقيت تحاول تشغيل عملاء سريين في الغرب، وبقي الغرب يحاول تشغيل عملاء سريين في روسيا. لكنْ لا صراع المصالح ولا التهديد وصلا إلى أي مستوى مماثل لما وصلا إليه خلال الحرب الباردة. لذا، فالجهد المبذول لتجسّسهما على بعضهم بعضاً لم يقترب قطّ مما كان عليه في الماضي. ومهما تكن روسيا متوحشة، فقد أصبحت شريكة الآن- بطريقتها الوهمية- في الاقتصاد الرأسمالي العالمي. وأصبحت ثروات النخبة لديها مرتبطة بحسابات مصرفية في جميع أنحاء العالم. لذا، ليست لديها أي مصلحة في اندلاع مواجهة صريحة. وعلى المقلب الآخر، أراد الغرب الحصول على دعم روسيا في مواجهة المسائل غير الحكومية كالإرهاب والجريمة المنظّمة. وعندما تعرَّض ماراثون بوسطن لهجوم من قِبَل مهاجِرَين من القوقاز الشمالي الروسي، وقُتل ثلاثة أشخاص وجُرح 170 شخصاً، طلبت الولايات المتحدة مساعدةً من روسيا لتستعلم عن خلفية الرجلَين.[7] حصل هذا قبل شهر فقط من اعتقال فوغلي. لذا، في حين أن روسيا بقيت قوةً توسّعيةً، إلا أن السياسة الواقعية وضعت حداً للأعمال العدائية. فالتعاون كان أهم. ويصحّ

الشيء نفسه على السياسة مع الصين الشيوعية؛ حيث اختار الغرب تجنّب المواجهة رغم التجسّس الصيني العدواني، وبالأخص في الفضاء السيبري، والقمع المحلي المتزايد.

وأبعد من متابعة تجسّس الدول على بعضها بعضاً، كانت هناك نقطة راسخة أخرى، وهي التوسّع المطّرد لبيروقراطية التجسّس؛ مثلما يوضّح مخططٌ لمستويات التوظيف في MI5. فقد يُصدَم البعض من صغر الأعداد التي تكشف التواضع النسبي لمؤسسة بريطانيا السرية. لكنْ بصرف النظر عما حصل في أوائل التسعينيات، عندما انخفضت أعداد الموظفين، فهي تبيِّن أيضاً الارتفاع المتواصل للوكالة.

في الولايات المتحدة، أصبحت بيروقراطية الاستخبارات مسخاً. وبحلول العام 2013، ومع كشف تسريب "للميزانية السوداء"، تبيَّن أن لوكالة الاستخبارات المركزية ميزانية سنوية قدرها 14.7 مليار دولار؛ أي أكبر من الناتج المحلي الإجمالي لآيسلندا أو لسبعين دولة أصغر. وهي تستخدم 21,459 من أصل 83,500 مدني في مجتمع استخبارات الولايات المتحدة. وتم تخصيص 6.28 مليار دولار من ميزانيتها لثلاث فئات من الاستخبارات البشرية: تمكين الاستخبارات البشرية (2.53 مليار دولار)، وعمليات الاستخبارات البشرية (2.34 مليار دولار)، والأدوات التقنية للاستخبارات البشرية (1.41 مليار دولار). بصورة عامة أكثر، من الواضح أن الاستخبارات التقنية لا تزال تنال حصة الأسد من الإنفاق الاستخباراتي؛ حيث إن الوكالات الثلاث الرئيسة للتجميع التقني تُنفق نصف ميزانية الاستخبارات بأكملها.[8] وقد بَلَغ مجموع "الميزانية السوداء" 52.6 مليار دولار، وهذا مرادف للناتج المحلي الإجمالي لبلد صغير مثل بلغاريا.[9]

مثلما تشير ميزانياتها، أصبحت وكالات الاستخبارات العصرية موطَّدة بإحكام. لكنْ رغم أنها حجزت دوراً دائماً لنفسها، إلاّ أن هذا لا يعني أنها بقيت في المكانة نفسها التي كانت عليها في الماضي. لذا، فالتجنيد مثلاً تغيَّر؛ إذ لم يعد موظفو هذا

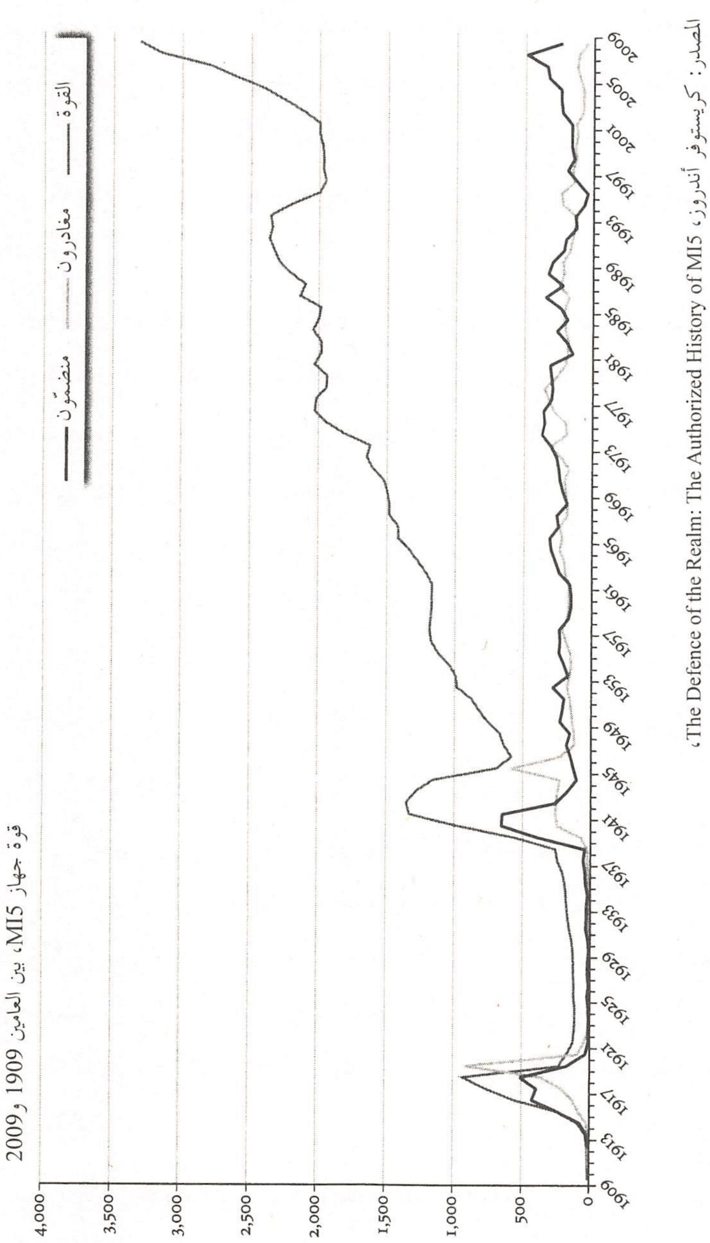
القسم من الذكور بيض البشرة حصراً، كما تبدّلت المواقف والسياسات. فسواء أكان ذلك في وكالة الاستخبارات المركزية، أو جهاز الاستخبارات الخارجية (KGB سابقاً)، أو جهاز الاستخبارات السرية، كان على كبار المسؤولين السابقين من عصر الحرب الباردة أن يتكيّفوا مع الوضع الجديد.

في بريطانيا، قال الضابط السابق في جهاز الاستخبارات السرية ألستير كرُوك إن هناك نخبة في المؤسسة هي التي كانت دائماً تدير أجهزة الاستخبارات، لكن تلك النخبة تغيَّرت. لم تعد المقولة "واحد منا" ما كانت عليه في الماضي. فهناك مجموعة مختلفة أتت من أكسفورد وكامبريدج، وهي التي تشكّل الآن أعضاء مجلس الوزراء والنخبة السياسية... لكن ثمن دخول هذا العالم هو [كما كان من قبل] ألا تنتقد بعض الأشياء".

في الولايات المتحدة أيضاً، توظّف الوكالات أنواعاً جديدةً من الأشخاص، ولكنهم يتشبّثون بنفوذهم. "لقد أصبحوا مثل أي بيروقراطية أخرى في منتصف عمرها؛ فهم يدافعون عن أنفسهم بشراسة"؛ على حدّ قول مسؤول تنفيذي كبير سابق في وكالة الاستخبارات المركزية.

أصبح الجواسيس وقادة شبكات التجسّس سلالةً مختلفةً لأن العالم يتغيَّر. وأكبر تغيير شهده عالم التجسّس منذ العام 1989 كان إعادة تركيز الجهود من أجل استهداف الجماعات غير الحكومية، وبالأخص؛ العصابات الإرهابية. في تقييمي لهذا الهدف الجديد، حذّرتُ من أن الاستخبارات البشرية قد تكون فناً يُحتضَر، وأن "سرب العصافير"- أي النموذج الانتشاري وعالي التكيّف للجماعات التي أصبح عليها تنظيم القاعدة وفروعه بعد هجمات 11 سبتمبر- لن يكون عرضة للاختراق من قبل عملاء بشرين بالمقدار نفسه؛ كالأهداف الشمولية والهرمية من الماضي، كجهاز الاستخبارات السوفياتي مثلاً.

قوة جهاز MI5، بين العامين 1909 و2009



المصدر: كريستوفر أندروز، The Defence of the Realm: The Authorized History of MI5، طبعة محدّثة (لندن، بنغوين، 2010)، الملحق الثاني

في الواقع، رغم عدم وجود دليل على أن أي جهاز استخبارات رئيس كان قادراً على تجنيد عملاء ضمن أعلى مستوى قيادي في جماعات المقاتلين مثل تنظيم القاعدة، إلا أن هدف الحصول على "رجل قريب" كان قد تحقّق جزئياً. فقد أُرسل العديد من العملاء داخل تنظيم القاعدة مثلاً، للتدرب في باكستان أو اليمن، ثم تمكّنوا من العودة ومعهم معلومات عن خطط محدَّدة يجري الإعداد لها أو عن أماكن القادة.

تبيَّن أن تجنيد جواسيس في الجماعات الإرهابية ليس أصعب مشكلة. فمثلما كان يجري في الحرب الباردة، تقدَّم متطوِّعون بأنفسهم، وأثبتت عدة عمليات تجنيد مقصودة نجاحها، وكانت تستند في أغلب الأحيان إلى استغلال فرصة اعتقال مشبوه إرهابي أو إلى جلسة استجواب لدى شرطة مراقبة الحدود. وقد كان التحدي أكبر هو كيفية تشغيل أولئك العملاء: ليس فقط كيفية البقاء على تواصل معهم والتحكّم بنشاطاتهم، بل أيضاً الاضطرار إلى تقرير ما إذا كان يجب إيقاف إحدى العمليات لتجنّب خطر نجاح الهجوم الإرهابي، أو السماح للعميل بمتابعة عمله والدخول بشكل أكثر عمقاً في قيادة الجماعة.

مثلما تشير المقابلات مع ضباط الاستخبارات الضالعين بنشاطات تجنيد كهذه، كان الحل في اعتماد أسلوب وقائي؛ أي إيقاف الخطط الإرهابية عندما يكون هناك أي خطر بأن تنتقل إلى مرحلة تنفيذها فعلياً. وقد عدَّل هذا الأسلوب العمر النموذجي لأي عميل. فبدلاً من تمكّن خُلد داخل الحزب الشيوعي الصيني مثلاً من البقاء في منصبه لسنوات عديدة، قد يتمكن العميل العصري من إكمال مهمة في غضون بضعة أشهر، ولكنه سيجد نفسه عندها غير قادر على الوصول إلى مستوى كبار قادة التنظيم.

لذا، من خلال الجهد المركّز، تم إنجاز بعض تحديات تجنيد مثل أولئك العملاء. وعندما بدأت هرمية الجماعات الإرهابية تتسطّح وتتجزأ، أصبح عندها استخدام الأساليب القديمة طويلة الأجل والمُضنية عديم الفائدة. وبدلاً من ذلك، بدأت

أجهزة الاستخبارات تعكس صورة الجماعات الإرهابية؛ بأن أصبحت أسرع وأكثر رشاقة في موقفها تجاه التجنيد.

يتذكّر ضابط سابق في جهاز الاستخبارات السرية كيف أنه على عكس الجهود الضخمة التي بُذلت، والوقت الكبير الذي صُرف على محاولة إيجاد مجنَّد سوفياتي واحد، فإن الميزة الرئيسة للتجسّس العصري كانت سرعته الهائلة وفعاليته.

ومثلما شرحنا للتو، إن انصهار الطرائق التقنية والبشرية، وكذلك التعاون المحسَّن بين الوكالات، قد ساعدا عملية التجنيد. وباستخدام المراقبة الرقمية التطفّلية والتنصّت مثلاً، يستطيع ضابط الاستخبارات الوصول بسرعة إلى كمية لا نظير لها من المعلومات عن هدف تجنيدٍ قبل محاولة التقرّب منه. ويمكن تسريع التحضير لتوجيه "التسديدة"، وستصبح فرص النجاح أفضل.

رغم أن النقاش حول الطرائق التقنية مقابل الطرائق البشرية للاستخبارات لم ينته بعد، إلا أنه من المستحيل اعتبار استخبارات الإشارات والاستخبارات البشرية مثلاً كنقيضين لبضعهما بعضاً. وسيصرّ مستهلكو الاستخبارات- الجيش مثلاً- على أن يتم تعزيز أحدهما بالآخر. فإذا كان عميلٌ مهمّ جداً مسافراً إلى مكان خطير، فسيكون أمراً لا يصدّقه عقل تقريباً أن أي جهاز استخبارات رئيس لن يستخدم طرائق تقنيةً ليتعقّب تقدّمه ويضمن سلامته، سواء أتم ذلك بالتنصّت وتعقّب هاتفه الجوّال أو بمراقبة تحرّكاته من قمر تجسّس اصطناعي أو طائرة بدون طيّار. وبالعكس، عند الاعتماد على استخبارات الإشارات من دون دعم احتياطي جيد من مصادر بشرية- مثلما حصل مع اغتيال ظابط أمان الله في أفغانستان- يمكن أن تنتج عن ذلك أخطاء فظيعة.

هناك نقطة ضبابية أخرى بين الجواسيس الجدد؛ وهي الحدود بين التجسّس والنشاطات الخفية. فعندما يعمل عميلٌ داخل جماعة تخطّط لارتكاب جرائم قتل، يجب أن تتركّز جهود أجهزة الاستخبارات على القضاء على تلك الخطط أو عرقلتها. هناك حوافز كبيرة للتدخّل؛ سواء أكان ذلك لأن الوكالة قد تكون

مجبورة قانونياً على منع هجوم إرهابي معروف، أو بسبب الضغط السياسي لتجنّب خطر نجاح أي هجوم مهما يكن ضعيفاً. مثالياً، يستطيع العميل تمرير معلومات إلى جهاز استخباراته، والذي يستطيع عندها استخدام وسائل أخرى (عملية اعتقال مثلاً) لإحباط المؤامرة. لكن المسألة قد لا تكون بهذه البساطة. فالعميل قد يكون الشخص الوحيد (يزرع جهاز تعقّب مثلاً) القادر على التدخّل لمنع الهجوم.

إن العائق أمام عمليات مكافحة الإرهاب الناجحة تلك هو أن العديد منها ذات هدف قصير الأجل، وذات مدى تكتيكي، ومصممة دائماً لتخفيف الأخطار. تستطيع أجهزة الاستخبارات التدخّل لعرقلة مؤامرةٍ أو خطة، ولكنها نادراً ما يكون لديها الوقت الكافي، أو عميلٌ اخترق التنظيم منذ فترة طويلة بما فيه الكفاية ليطوِّر فهماً أشمل للهدف. وفي محاربتهم الإرهاب، أصبحوا عبارة عن مكوّن واحد في بوليس سري عالمي مكرَّس للقبض على "الأشرار" أو التخلّص منهم. الخطر هو أنه رغم نجاحهم في إيقاف هجومٍ محتملٍ تلو الآخر، إلا أنهم لا يفعلون شيئاً يُذكر لمنع تكرّر تلك الهجمات.

قيمة التجسّس

يشرح أحد القادة الكبار في الحكومة، وهو مسؤول عن الارتباط مع الوكالات السرية، المسألة كالتالي: "فقط لو يعلم الناس المؤامرات التي تم إحباطها، وما أنجزه التجسّس". إنها وجهة نظر نموذجية نوعاً ما وصادقة لدى العالمين ببواطن الأمور في عالم الاستخبارات. فنظراً إلى السرية المتأصلة في الاستخبارات البشرية الجيدة، من الصعب تقدير القيمة الحقيقية للتجسّس العصري. ولأن نشاطات العملاء تبقى سرية من أجل حماية هوية الأفراد الضالعين وأمنهم الشخصي، لن يتم تقدير التأثير الحقيقي لعملهم إلا بعد مرور فترة طويلة. بالفعل، يمكن أن يجادل المرء بالقول إنك حتى لو كنت تعرف ما حصل حقاً إلاّ أنه لا يمكنك التبليغ عنه، وإذا كنت لا تعرف فلن تكون في وضع يسمح لك بالحكم على الأمور.

لكنّ هذا التفكير انهزامي؛ بالأخص نظراً إلى العدد الكبير من العمليات التي تم كشفها، وكذلك العدد الكبير من العالمين ببواطن عالم الأسرار القادرين على تقديم فكرة واضحة عن الأماكن التي كان فيها التجسّس قيّماً أو ذا نتائج عكسية. ورغم أنه كان من المستحيل عادة تسمية المصادر في هذا التقرير، إلا أنني أستطيع القول بأمان إن مجموع سنوات خدمة المصادر التي أجريتُ مقابلات معها في عالم الاستخبارات البشرية يفوق ألف سنة. لذا، دعوني أحاول تلخيص ما برز من تلك المقابلات ومن المواد المتوفرة للعموم، وأناقش إلى أين يمكن أن يأخذنا ذلك.

محدوديات التجسّس

لا يوجد تقديرٌ منطقيٌ لقيمة التجسّس من دون التفكير بمحدودياته أولاً. فالتجسّس العصري- تماماً مثل التجسّس القديم- لا يقدِّم فوائد غير مشروطة أبداً، بل يمكن أن يسوء بسهولة، كما أنه لا يخلو من مقايضات متميزة ومُكلفة. وتلك المقايضات مهمة؛ لأنه من دون معرفة ما سينجح أو يفشل مسبقاً، يجب أن يعتمد القرار باستخدام جاسوسٍ دائماً على عملية احتساب الأخطار، وعلى مقارنة الفائدة المحتملة للنجاح بالسقوط المحتمل من الفشل. ولا تكفي الإشارة إلى نجاح كبير واحد وتخيّل أن هذا يبرِّر كل شيء يليه.

يمكن تسمية المقايضة الأولى- بالاستعارة من تعابير العلوم- "تأثير المراقِب"، وهو المصطلح الذي يُستخدَم لشرح أن عملية المراقبة تعدِّل الكائن الخاضع للمراقبة. وعند تطبيقها بقسوة على التجسّس البشري، فإنها تعني أن عملية التجسّس لا يمكن أن تكون محايدة. فهي تستلزم القيام ببعض النشاطات في مرحلة من المراحل، وأي نشاط منها يحمل خطر الانكشاف؛ مما قد يدفع إلى ردة فعل عدائية وذات نتائج عكسية. مثلاً، الإغراءات المقدَّمة في التجسّس- كدفع مبالغ مالية كبيرة للعملاء- قد لا تُعتبر فقط دليلاً على وجود نوايا عدائية في حال الانكشاف، بل تحفِّز العملاء أيضاً على التسبّب بأحداث لم تكن لتحصل لولا تدخّلهم، بتعبير آخر سيتصرفون كمحرِّضين.

هناك ميزة رئيسة لاستخبارات الإشارات بالمقارنة مع الاستخبارات البشرية، وهي أن تأثير المراقِب يميل إلى أن يكون أضعف بكثير. فالقمر الاصطناعي الذي يدور في الفضاء على ارتفاع حوالي 35,000 كيلومتر يستطيع التقاط إشارات حتى من الدول الصديقة، مع احتمال يصل إلى صفر بالمئة تقريباً بأن يعرف الشخص الذي يشغّله مَن الذين يتم التنصّت عليهم. لكن هذه المعادلة تتبدَّل. فالتداعيات الديبلوماسية لكشف إدوارد سنودن عن المكالمات الهاتفية التي كانت الولايات المتحدة تتنصّت عليها، ومن بينها المستشارة الألمانية والأمين العام للأمم المتحدة، أظهَرت أن استخبارات الإشارات ليست خالية من النتائج السلبية. فالاستخدام الواسع للتشفير القوي يبدِّل المعادلة أيضاً؛ بما أن وكالات استخبارات الإشارات الهامدة سابقاً قد تحتاج إلى القيام بتدابير نشطة، كالسطو مثلاً، لسرقة كلمات المرور التي يستخدمها أهدافها.

المقايضة الأخرى هي "تأثير النشاط"، وأعني بها أن استخدام المعلومات الاستخباراتية يميل إلى تقويض عملية تجميعها. وهذا لأن العدو سيبدأ بملاحظة- عن إدراك أو عن غير إدراك- متى تُقلب أسراره ضده. ولكي نأخذ مثالاً مبالغاً فيه، إذا مرَّر عميلٌ تفاصيل مؤامرة قاتلة ينوي الإرهابي القيام بها وتم إحباط تلك المؤامرة، فقد يشتبه الإرهابي عندها بخيانة العميل، فيتوقف عن إطلاعه على مزيد من الأسرار أو قد يقتله. ومثلما وضَّح الجيش البريطاني في تشغيله العميل ستيكنايف في الجيش الجمهوري الإيرلندي، هناك عدة وسائل ذكية لتعكير المياه وتضليل الشكوك في مايتعلق بمَن سرَّب المعلومات. لكنْ لا يمكن تنفيذها دائماً. وحتى عندما لا يعرف أحدٌ مَن هو الخائن، فإن الأشخاص الحريصين أمنياً أكثر ولا يسرِّبون أسراراً إلى العميل ستزداد أهميتهم على المدى الطويل على الأرجح. ونتيجة كل هذا هي أن أجهزة الاستخبارات، حتى عندما تملك عملاء جيدين جداً ومعلومات جيدة، تميل إلى أن تكون حذِرة جداً بشأن تشجيع أي شخص على استخدام تلك المعلومات.

يمكن تسمية المقايضة الرئيسة الثالثة "تأثير الضال"، وهو مَيل موظفي الاستخبارات إلى الخروج عن السيطرة. وخطر ذلك هو أن السرية الذاتية للتجسّس تُبعِد أولئك الضالعين فيه عن قواعد المجتمع، فيفتقرون إلى الوسائل الاعتيادية للانضباط الذاتي في الحياة العامة، وبالأخص حُكم العامة عليهم.

من أجل حماية وسائلهم وهويات مصادرهم، يبقى قادة شبكات التجسّس في عُزلة داخل نادٍ خاصٍّ نوعاً ما، وفي بيئة منعزلة يمكنها أن تودي بهم إلى سلوك ضالٍّ إذا لم يتمّ توفير عناية خاصة بهم. وبإمكان الافتراضات الأساسية ضمن هذا النادي أن تبقى من دون تشكيك؛ مثلما هو حال صِدقية تقارير عملائهم. ويبدو أنه إذا بقيت نشاطاتهم سرية، فإن الأشخاص العاديين والمحترمين عادة سيفعلون أشياء غير منطقية وغير لائقة. أو على حد التعبير الفجّ لضابطٍ في الاستخبارات البريطانية: "وكالات الاستخبارات التي تمارس نشاطاتها من دون تدقيق خارجي صارم ستُسيء التصرّف في نهاية المطاف بكل تأكيد".

تجلّى مثالٌ عن هذا السلوك الضال عن قيادة وكالة الاستخبارات المركزية بعد هجمات 11 سبتمبر. فربما حصلوا على موافقة رسمية من الرئيس وعكسوا بالفعل المزاج الانتقامي للرأي العام، ولكنهم في تأييدهم التعذيب المنهجي واعتمادهم عدة أماكن احتجاز سرية، ابتعدوا كثيراً عن قيم مجتمعهم، أو حتى عن القانون. لقد فشلوا في ما يجب تسميته "اختبار الإخفاق"؛ أي، هل سيعتبر العامة أن أحد النشاطات السرية مقبولاً إذا لم يعد سرياً؟ وهناك مثالٌ آخر عن السلوك الضال أقل دراماتيكيةً ولكنه واضح بشكل مماثلٍ، وهو فرقة المظاهرة الخاصة (SDS) في شرطة لندن التي اعتبرت على مرّ أربعة عقود أنه مقبولٌ- بحجّة قمع احتجاجات الناشطين البيئيين مثلاً- أن يقيم عملاؤها علاقات حميمة مع أهداف مراقبتهم، وحتى أن يُنجبوا منهن أطفالاً (ويُقال إنهم هَجَروا بعضهن).

كانت هذه الوحدة ضالةً حقاً. وقد كشف تحقيقٌ أجرته صحيفة الغارديان أنه من أصل تسعة رجال شرطة سريين، "يُعتقَد أن ثمانية منهم أقاموا علاقة حميمة مع

النساء اللواتي كانوا يتجسّسون عليهنّ".[10] لكنْ عندما رفعت عشر نساء دعاوى قضائية على شرطة العاصمة، زاعمات أهنّ تعرّضن للخداع، توصّل القاضي إلى استنتاج أن ما يسمى "التجسّس الجنسي" لم يكن أمراً غير اعتيادي. وقال السيد عدالة توغندهات، وهو قاضٍ في المحكمة العليا، إن أمثلةً تبادرت إلى ذهنه من عالم الخرافات.

جايمس بوند هو أشهر مثال خرافي عن عضو في جهاز استخبارات يقيم علاقات حميمة مع النساء ليحصل على معلومات منهنّ، أو ليصل إلى أشخاص آخرين أو ممتلكات أخرى. وبما أن إيان فليمينغ كان يكتب روايات ترفيهية خفيفة، فإنه لم يُمعن النظر جيداً بالمدى الذي استخدم به بطله الخداع، كما أنه لم ينتبه إلى الأذى النفسي الذي ربما يكون قد سبّبه لأولئك النساء. لكنّ الروايات الخرافية (وهناك روايات أخرى) تعطي مصداقية للرأي القائل إن الاستخبارات والشرطة نشرا لسنوات عديدة ضباطاً من الذكور والإناث لإقامة علاقات حميمة (سواء أكانت ذات طبيعة جنسية أم لا) من أجل الحصول على معلومات.[11]

إلى أي مدى يجب أن يذهب الجاسوس؟ كان هذا سؤالاً مفتوحاً. لكن بالطبع لا يجب أن يذهب بعيداً جداً ليتعامل مع تهديد صغير مماثل. لقد تشكّلت فرقة المظاهرة الخاصة إلى حد كبير من رجال شرطة نظاميين لم يخضعوا للتدريب لكي يصبحوا محققين ولا عملاء سريين، وذلك في تباين شديد مع الوحدة السرية المحترفة لسكوتلاند يارد، والتي بقيت تدعى لفترة طويلة SO_{10}. وقد قال أحد العاملين السابقين: "ليس أمراً عادياً أن تُقيم علاقة حميمة مع الهدف. وإذا اضطررت إلى فعل ذلك، فهذا يعني أنك لست من يسيطر على مجريات الأمور".

إساءة استخدام الجواسيس

إذاً، للتجسّس المحض عدة نقاط ضعف تميل إلى تقويض قيمته. لكنّ أكبر عائق لا يأتي من تجميع المعلومات الاستخباراتية بحدّ ذاتها، بل من الرغبة بالتدخّل وإساءة استخدام تلك المعلومات الاستخباراتية بدون تردّد كبير. لقد طوّر المجتمع العصري

أساليب كثيرة للتطفّل على حياة الآخرين، والتحدي هو في كيفية استخدامنا تلك الأساليب.

لقد واجَه المجتمع تلك المُعضلات من قبل، ولكنها كانت ذات طبيعة مختلفة. فالمسألة خلال الحرب الباردة كانت الحريات المدنية، وكان مقدار كبير من التجسّس يجري من قِبل الشرق والغرب ضد مواطنيهم، وذلك بهدف منع التخريب. لكن الدولة كانت تستخدم تلك المعلومات المجمَّعة سراً لتقوم بتدابير استباقية أيضاً. لذا، كانت مثلاً تتم سراً إعاقة التقدّم المهني للألمان الشرقيين الذين يُكتشَف أن لديهم اتصالات مع الغرب. وفي الغرب، كان الأشخاص الذين يُشتبه بأن لديهم ميولاً شيوعية يُمنعون سراً من شغل وظائف معيّنة، وكانت المؤسسات المتطرّفة تخرَّب سراً إذا اعتُبِرَت جبهات شيوعية. مبدئياً، كان هذا التجسّس مثيراً للاعتراض لأنه كان إهانة للعدالة الطبيعية ولمجتمعٍ مفتوحٍ تُناقش فيه سيئات الشخص أو فضائله علانيةً وبإنصاف.

في القرن الحادي والعشرين، استمر التهديد للحريات المدنية، حتى ولو تعدَّلت طبيعته. فتجميع المعلومات الاستخباراتية- خلافاً لبعض التقارير- ركّز بشكل محكم أكثر بكثير على المشتبه بتشكيلهم تهديداً قوياً للمجتمع، ونادراً ما وُجِّه ضد "المخرِّبين" المحليين. ولكنْ عند اكتشاف تهديدات قوية، يتابع القادة السياسيون البحث عن جواب مريح وسري. فإذا سُمعت مجموعة بريطانيين في باكستان وهم يناقشون تفجير مركز تسوّق في نيويورك، فقد يكون مغرياً الظنّ أن متفجِّرة مناسبة تلقيها طائرة بدون طيّار ستحلّ المشكلة. أو إذا تم استبعاد الاغتيال- كما هو الحال في بريطانيا- ولكن الدليل الوحيد على المؤامرة هو المعلومات الاستخباراتية السرية، فقد يكون من المغري رمي المتآمرين في السجن باستخدام إجراءات قضائية سرية. وكما هو الحال من قبل، يشكّل هذا تهديداً للعدالة الطبيعية. لنفترض أن المعلومات الاستخباراتية خاطئة، هل سيكون هذا التصرّف عادلاً ومتناسباً مع الجُرم؟

لكن القيام بتدابير وقائية بهذه الطريقة يكبِّر دور أجهزة الاستخبارات أيضاً، فينقل الاستخبارات إلى عالم التوقّع غير المريح، والذي نادراً ما يكون دقيقاً. كم مرة يخطط الأشخاص لارتكاب جريمة قد لا تؤتي ثمارها أبداً، أو قد يقرِّرون عدم ارتكابها في النهاية؟ لقد عثرنا على طرائق فعّالة جداً للوصول إلى أفكار الأشخاص. ومُعضلة المجتمع هي معرفة متى يكون من المناسب التدخّل والمعاقبة على تلك النوايا.

الحُكم على فعالية الجواسيس

مثلما قلنا، رغم أن للتجسّس حدوداً هذه الأيام ويمكن أن يُساء استخدامه، إلاّ أن أحد أسباب استمراره هو أنه تم وضع آليات للتعويض عن نقاط الضعف تلك. فالمَيل إلى الضلال مثلاً يُمنَع عبر مساءلة سياسية صارمة.

لقد لخّصت أربع ملاحظات عن فعالية التجسّس سابقاً، مأخوذة من التجارب خلال الحرب الباردة: أن النشاط ليس مماثلاً للإنجاز، وأن الاستخبارات البشرية تقدِّم أقصى ما يمكنها عندما تُعزَّز- أو أفضل حتى- وعندما يتم التحقق من صحتها، وأن التجسّس يُثبت قيمته عندما يكون مركزاً جداً وموجَّهاً سياسياً، وأن التجسّس يجب أن يكون سلاح الملاذ الأخير. تنطبق هذه المبادئ على التجسّس العصري بشكل مماثل.

أولاً، وكما من قبل، إن مجرد وجود جاسوس في معسكر العدو لا يكفي ليكون قيّماً. فالتكنولوجيا والأساليب العصرية تستطيع جعل التجسّس فعّالاً أكثر ممّا كان عليه من قبل. وقد كانت بعض مهام التجسّس ناجحة حقاً، وقد أحدثت فرقاً حقيقياً في تغيير سياسة الحكومة، أو في تفادي وقوع أزمة أو جريمة؛ مثلما حصل مثلاً عندما مَنَع عميل المملكة المتحدة في اليمن تنفيذ هجوم على شركة طيران في العام 2012. لكن تلك النجاحات نادرة؛ حتى لو بدا مجدياً أن تستمر، نظراً إلى مستوى التهديدات الأمنية المحتملة.

ثانياً، يبقى صحيحاً أيضاً أن العديد من محدوديات التجسّس- نقطة الضعف المحتملة للمعلومات التي يزوّد بها خائنٌ متسلسلٌ، وخطر انكشاف المصدر، وتأثيرات التصرّف بناءً على المعلومات الاستخباراتية- ستكون مُقلقة أقل عندما يمكن تعزيز تلك المعلومات الاستخباراتية. وقد شرح ضابط استخبارات سابق كيف أن الجيش في أفغانستان مثلاً تجاهَل- وعن حكمة- تقارير العملاء السريين التي أوردت أن مجموعةً من حركة طالبان كانت موجودة في هذه القرية أو تلك، ولكن عندما عزَّزت استخبارات الإشارة تلك التقارير- مثلاً، بتحديد أماكن الهواتف الجوّالة لمقاتِلين معروفين من حركة طالبان في تلك القرية- كانوا مستعدين لإرسال قوات لمهاجمة المجموعة. لا يمكن الوثوق بالاستخبارات البشرية وحدها، ولكنها ساعَدت في تضييق هدف المراقبة، وبالتالي أدّت في نهاية المطاف إلى العثور على العدو بنسبة معقولة من اليقين.

ثالثاً، يبقى التوجيه السياسي والتركيز المشدود عاملين أساسيين لنجاح الاستخبارات البشرية. وبما أن التطرّف الديني وبرنامج التسلّح العراقي لم يكونا نقطة تركيز في أوائل إلى منتصف التسعينيات، فقد دفع صنّاع السياسة الثمن لاحقاً عندما وجَدوا أنهم لا يملكون جواسيس في المكان الذي يحتاجون إليهم فيه. وكانت لدى الولايات المتحدة مشكلة خاصة مع تركيز كهذا بسبب هدفها أن تبقى قوة عظمى وذات تأثير عالمي. حاولت تجميع معلومات استخباراتية من عدد كبير من الأماكن، إلا أنها بقيت تميل إلى الأداء بشكل أقل مما هو متوقع منها، رغم مواردها الضخمة. لكنْ مع توجيه سياسي قوي، وتركيز موارد التجسّس على التهديدات الرئيسة، سنحت الفرصة للوكالات لكي تُجري التجنيدات التي تحتاج إليها.

التوجيه السياسي يعني المساءلة السياسية أيضاً. فللاحتماء من المَيل إلى الضلال في معظم الديموقراطيات، تتطلب أجهزة الاستخبارات موافقةً سياسيةً على عملياتها. في الولايات المتحدة، يوقّع البيت الأبيض- إن لم نقل الرئيس نفسه- على معظم النشاطات الخفية. وفي بريطانيا، كل النشاطات غير العادية التي يقوم بها جهاز الاستخبارات السرية، وأي شيء يمكن أن تكون له ارتدادات، يوقّع عليها

وزير الخارجية. وهذا النظام يعمل حقاً؛ حتى لو أظهرت الفضائح المتوالية أن تلك الآليات لا تزال ضعيفة جداً.

أخيراً، يبقى التجسّس مفيداً وناجحاً عند استخدامه كملاذ أخير. فهو تصرّف عدائي: لا يُقدّر بثمن خلال الحرب دائماً، ولكن غالباً ما تكون نتائجه عكسية، ويُستخدَم بشكل نادر دائماً في زمن السلم.

يُعتبر التجسّس على العدو أمراً حاسماً للاستراتيجية العسكرية في ساحة القتال منذ العصور القديمة، حيث تُستخدَم المعلومات الاستخباراتية الناتجة عنه لمفاجأة العدو والاحتيال عليه. وقد كَتَب صَن تزو في العام 400 قبل الميلاد، "كل الحروب تستند إلى الخداع. ولا يوجد مكان لا يُستخدَم فيه التجسّس".[12] لكن الاستخبارات قيّمة أكثر في الحروب العصرية، وبالأخص كوسيلة لاستبدال حرب الاستنزاف- مثلما رأينا في خنادق الحرب العالمية الأولى- وحيث يستند الانتصار إلى تركيز القوة الساحقة على نقاط ضعف العدو. يعتمد مثل هذا الأسلوب على الحركة وتوفّر معلومات جيدة عن العدو وخططه.

وسواء أكانت حرباً في الصين القديمة أو ضد تنظيم القاعدة، فإن تشغيل جواسيس من البشر مجرد وسيلة واحدة لملء الصورة الكبيرة للاستخبارات. لكن الحرب تغيِّر عملية احتساب مخاطر التجسّس في جوهرها. ففي الحرب العالمية الثانية، أي عميل يهبط بالمظلة خلف خطوط العدو سيواجه احتمالاً كبيراً جداً بأن يقع في قبضة العدو أو يموت، أو كليهما. لكنْ عندما تكون الاستخبارات الجيدة قادرة على حفظ مئات الأرواح، مثلما حصل مثلاً في عمليات إنزال النورماندي، فإن الأخطار لإنقاذ العميل تستحق العناء.

لأن الحرب الباردة كانت "باردة"، كان خطر الموت ضئيلاً عادة. صحيح أن الاتحاد السوفياتي كان يُعدم الخونة، وبالتالي كان العملاء المجنَّدون للغرب يخاطرون بحياتهم دائماً، لكن ضباط الاستخبارات الذين يشغّلون أولئك العملاء كانوا أكثر

أماناً بكثير. وبناءً على اتفاق ضمني، لم تحاول القوى العظمى *اغتيال* بعضها بعضاً أو الانتقام من بعضها بعضاً قط. لكن ضمانات السلامة تلك لم تكن ذات قيمة عندما تورّط الغرب في نزاعات "ساخنة" في العالم النامي. فالحرب في فييتنام في الستينيات والسبعينيات جلبت خطر الموت لرجال الاستخبارات الميدانيين الأميركيين، مثلما فعلت الحرب الأهلية في لبنان خلال الثمانينيات. ففي كل نزاع، كان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية وعملاؤهم يُقتلون. وقد تسبَّب تفجير السفارة الأميركية في بيروت في العام 1983 بأكبر خسارة في الأرواح لوكالة الاستخبارات المركزية حتى يومنا هذا، حيث قُتل ثمانية ضباط. وفي السنوات الأخيرة، جلبت الحرب على الإرهاب والنزاعات في العراق وأفغانستان أخطاراً جديدةً.

لطالما عمِل جهاز الاستخبارات السرية البريطاني بحذر كبير. ولم يفقد ضباط بريطانيون حياتهم أثناء تأديتهم عملهم منذ الحرب العالمية الثانية. لكنْ وفقاً لبعض العالمين ببواطن الأمور، فَقَد عددٌ من عملاء بريطانيا حياتهم أثناء تغلغلهم في صفوف الجماعات الإسلامية المقاتلة. لكن التجسّس على تنظيم القاعدة كان– في المبدأ– يستحق تلك التضحية.

في زمن السلم، كان للتجسّس سجلٌ متفاوتٌ جداً. ففي الحرب ضد الجريمة أو التطرّف المحلي، كان يتعايش بشكل سيئ مع نظام العدالة الجنائية الذي يضمن محاكمةً عادلةً وعلنيةً، ومن الصعب إيقاف العملاء الذين يحرّضون على الجريمة. إذاً، يجب استخدامه، ولكن بشكل نادر وبخبرة كبيرة فقط. مثلاً، قد يكون أساسياً كوسيلة لتتبّع اليد الخفية لرجال العصابات الأقوياء الذين يحرِّضون على الجرائم الخطيرة ويستفيدون منها.

التجسّس بين الدول المسالمة مريبٌ تلقائياً. وإن اكتشاف خائنٍ، أو أي محاولة لتجنيد جاسوسٍ يعمل على زرع العداوة بينها. وقد بقيت الوكالات السرية على قيد الحياة ونضجت في زمن السلم؛ لأن الخوف من الحرب حاضرٌ دائماً.

وبالأخص منذ أن فجَّرت الولايات المتحدة القنبلة الذرية فوق اليابان في العام 1945، والخوف من الصراع النووي جَعَل من الصعب الاختلاف على وجودها، وخاصة في الدول التي تمتلك أسلحة نووية. قد يكون التجسّس مكلفاً وغير فعّال في أغلب الأحيان، ولكن ليس دائماً. فهو يشكّل كل الفرق عند الموازنة بينه وبين توقّعات اندلاع حرب نووية. لكن الكثير من السياسيين قد يسخرون من الأنباء السارة التي يوفّرها جواسيسهم، ولا أحد منهم يستطيع أن يخاطر بعدم امتلاك جهاز استخبارات.

من نظرتنا إلى الحرب الباردة، من الواضح- ولو تأخرنا في إدراك ذلك- أن التجسّس يستطيع رفع مستوى التوتّر في بعض الأوقات، ولكنه يستطيع تخفيضه أيضاً، ويساعد في التعامل مع الشك والارتياب بشأن نوايا الطرف الآخر. وإذا كانت هناك بطاقة لتسجيل النقاط، فعليها أن تسجِّل أن وكالة الاستخبارات المركزية و KGB برهنتا عن قدرتهما على سرقة الأسرار العسكرية وتطوير أنظمة رائعة للإنذار المُبكر. وقد جعل التجسّس العسكري السباق متوازناً؛ حيث ساعد الإنذار المُبكر على تهدئة الأعصاب. كما عملت كلتا الوكالتين، بأسلوبهما الصغير والمكلف جداً، على الحفاظ على السلام. ولم تحقّق كلتاهما نجاحاً كبيراً في التجسّس السياسي لدى الطرف الآخر. فالغرب لم يلاحظ قط أن الشرق كان ينهار، والشرق لم يدرك قط أنه كان يضعف. وقد استمرت قصة التألق التكتيكي وقصر النظر الاستراتيجي هذه نفسها، وصولاً إلى نقطة معيّنة.

في العالم الجديد للتجسّس، ورغم الشكوك الأولية بعد سقوط جدار برلين، فازت أجهزة الاستخبارات بمهلة مؤقّتة عن طريق تحويلها قضية التجسّس إلى صراع ضد التهديدات غير الحكومية الأخرى. لم تكن التهديدات إبادةً نوويةً بل قنابل قذرة، وليست غزواً من جنود حِلف وارسو بل مجزرةً قضت على الأبرياء، سواء أحصلت بين قبائل متحاربة أو بتفجير قنبلة في مركز تسوّق. ورغم أنها أقل من تهديدٍ للدولة، إلا أن الضرر الذي يمكنها التسبّب به كان حقيقياً وملموساً

للعموم، وبالتالي يمكن القول إنه لا يمكن المجادلة في الحاجة إلى الاستخبارات والجواسيس. وفي إعلان الحرب على المخدرات ثم الحرب على الإرهاب، كان السياسيون الأميركيون يبدأون نزاعات قد لا تنتهي أبداً.

وسواء أكانت محاربة الإرهاب "حرباً" حقاً أم لا، إلا أنها لا تزال تتطلّب رداً مناسباً، لكن ردّاً يبقى فيه التجسّس سلاحاً فعّالاً يُستخدَم كملاذ أخير. ومثلما كَتَب ضابط العمليات الكبير والرصين السابق في وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكغافن، "يجب استخدام التجميع السري للاستخبارات البشرية للحصول فقط على معلومات أساسية حقاً لأهم مهام الأمن القومي المدني والعسكري، وفقط عندما لا يمكن الحصول على تلك المعلومات بأي طريقة أخرى. وعندما يكون أحد هذين الشرطَين ناقصاً، فإن النتيجة ستكون معاناة، تقريباً دائماً".[13]

تُظهر نتائج التجسّس ضعفاً في البداية، ثم تنهار عندما يُعتمد عليها بشكل كبير جداً، وتصبح الوسيلة الوحيدة لدعم النشاطات الحاسمة. مثلاً، إن استخدام الطرائق العسكرية والاستخباراتية للقبض على سجناء تنظيم القاعدة وإرسالهم إلى خليج غوانتانامو بعد هجمات 11 سبتمبر ربما بدا منطقياً في ذلك الوقت. لكنه أتى بنتائج عكسية على المدى الطويل. فالأدلة المجمَّعة ضد أولئك الرجال كانت عادة معلومات استخباراتية سرية، وبالتالي لم تكن مفيدة في المحكمة. وقد صعَّب ذلك كثيراً على الولايات المتحدة أن تقرِّر ما عليها فعله بهم، وأن تبرِّر مواصلة احتجازهم إلى ما لا نهاية.

فوضوي ولكنه مفيد

مثلما كان الحال في القرن العشرين، كان مغرياً للسياسيين أن يعتبروا الاستخبارات البشرية النهايةَ الفوضويةَ للتجسّس؛ حيث تأتي العوائق إلى الصدارة، بالمقارنة مع الأساليب الرقمية. لكنْ مثلما رأينا، لا تستطيع أجزاء المحادثات التي يتم التنصّت عليها- كرسائل البريد الإلكتروني التي يتم اعتراض سبيلها، أو الملفات الرقمية المسروقة- أخذك أبعد من ذلك. وستكون بلا معنى عادة من دون أي

سياق. فإذا سُمع بوتين وهو يقول: "دعونا نغزو أوكرانيا" أو "دعونا نقتل أوباما"، فهل يقصد ذلك حقاً؟ وعندما يتصل أمير حرب أفغاني مسنّ بأحد أعضاء حركة طالبان بشكل متكرر ويتكلّم معه بكل احترام، فهل هذا يعني أنه داعمٌ لحركة طالبان أيضاً؟ يوضّح قتل ظابط أمان الله كيف يمكن لسوء فهم الأدلة التقنية أن يؤدي إلى نتائج كارثية. يستطيع البشر التزويد بالسياق الثقافي الذي يتيح لك أن تحكم بما إذا كان يجب أخذ ما يقوله شخصٌ ما جدياً، إلى جانب امتلاك معرفة خلفية عن طموحاته وأصدقائه وأعدائه.

معظم تلك المعرفة الخلفية ليست معلومات استخباراتية سرية، ويمكن تجميعها من انخراط بشري عادي، سواء أكان عبارة عن منحة تعليمية، أو صحافة، أو ديبلوماسية، أو ترفيه شعبي. لكنّ بعض الخصوم الأكثر تهديداً- سواء أكانوا رؤساء دول أو قادة إرهابيين- أفراد عاديون بعيدون، ونادراً ما يكشفون عن نواياهم، ويكذبون في الأغلب؛ حتى لو تكلّموا علناً. في تلك الحالات، فقط مصدرٌ من ضمن دائرة القائد- جاسوسٌ- سيكون قادراً على تمرير نواياه وتفسيرها.

مثلما كشف إدوارد سنودن؛ كاشف الفساد من وكالة الأمن القومي، إن أجهزة تنصّت الدولة مثل وكالة الأمن القومي ومكاتب الاتصالات الحكومية البريطانية تنظر إلى العالم من خلال ما يُسمّى "منتخَبين"، وهم أهداف تمت الموافقة على التنصّت عليهم. وفي حين أنه يوجد على الأرجح الآلاف من أولئك المنتخَبين، إلا أنه يمكن فقط مراقبة جزء منهم عن كثب. إذ لا يمكن التنصّت على كل هاتف، ولا يمكن إعادة كل محادثة ودرسها بعمق. لكنّ وكالات التحسّس تخزِّن كميات هائلة من المعلومات عن المكالمات ورسائل البريد الإلكتروني والمراسلات. ووفقاً لصحيفة الغارديان، "قدّر تقريرٌ لوكالة الأمن القومي من العام 2007 أنه يوجد حوالي 850 مليار *مكالمة* مجمّعة ومخزَّنة في قواعد بيانات وكالة الأمن القومي، وحوالي 150 مليار سجل انترنت. ويقول المستند إن 1 إلى 2 مليار سجل تُضاف كل يوم".[14] لكن النقطة التي يُغفَل عنها في المناظرة في أغلب الأحيان هي أن معظم هذه الأمور كانت قيّمة فقط بعد فوات الأوان؛ أي فقط بعد تحديد الهدف، يمكن

استخدام المعلومات للتحقّق من تاريخه. لذا، إن أصعب مشكلة تواجهها الاستخبارات هي تحديد الهدف قبل أن تستهدف ما هو مهم في خضم كل تلك الإشارات.

لذا، كيف يجب اختيار أحد "المنتخَبين"؟ هذا قرار سياسي في نهاية المطاف، ويرتكز على فهم واسع للتهديدات والمصادر المحتملة للمعلومات القيّمة. فهناك مصادر عديدة للمعلومات المفتوحة يمكن استخدامها لتحديد مَن يجب وضعه تحت المراقبة. لكنْ مرة أخرى، فقط الجاسوس قد يكون في موضع مناسب لتحديد بعض الأشخاص السريين المهمين والأماكن السرية المهمة. مثلاً، خلافاً للهاتف الجوّال أو الكاميرا على متن الطائرة بدون طيّار، الجاسوس يُجيب عن الأسئلة أيضاً. فتشغيل الجواسيس عمليةٌ ثنائية الاتجاه، ويستطيع العميل تحدي حكمة الأسئلة التي تُطرح عليه، أو اتجاه تجميع المعلومات الاستخباراتية. وقد قال مجنِّد سابق: "إذا كنتَ تتنصّت على الشخص الخطأ، وكنتَ تركّز على الهدف الخطأ، فبإمكانهم إبلاغك بذلك". كما قال ضابط استخبارات آخر: "في حين أن صنّاع السياسة يبلغونك بالمكان الذي يريدون منك أن تتجسّس فيه، فإن ذلك لا يعني أننا نبلغهم بما يريدون سماعه". هذا يفوق كل قيمة "العامل البشري": فالجاسوس ليس مجرد "أذن" أخرى إلى الطاولة وسارق أسرار، بل هو كائن حي يعبِّر عن فهمه للأمور.

الجواسيس الذين نحتاج إليهم

لذا، يمكن أن يكون الجواسيس مفيدين حقاً إذا نُشروا بعناية كملاذ أخير ضد تهديد خطير، وتعتمد طبيعة الجواسيس الذين نحتاج إليهم على طبيعة ذلك التهديد، وبالتالي على الأسرار التي تستحق أن تُسرَق حقاً. ويُعتبر الحُكم على الحالة المستقبلية للكوكب، وكل المسائل التي ستواجه المجتمع، موضوعاً بحدّ ذاته، لكنّ هناك بعض التوجّهات التي تستحق الذكر وتشير إلى الدور الذي يستطيع التجسّس أن يلعبه ويجب عليه أن يلعبه.

المَيل الأكثر لفتاً للنظر والذي يؤثر على الأمن هو العولمة: الطريقة التي أصبحت بها الجماعات القوية، سواء أكانت حركات سياسية أو شركات تجارية قادرةً على التمدّد خارج الحدود الوطنية بشكل متزايد، ومستغلةً الاتصالات الرخيصة والسهلة (من خلال الرسائل المباشرة، والمكالمات الهاتفية بين الأفراد، أو بنشر الدعاية على الانترنت)، والسفر السهل (بسبب تراجع القيود أكثر من أي وقت مضى على حرية التنقّل الدولية، وانخفاض أسعار تذاكر السفر في الطائرات)، وحرية حركة رؤوس الأموال (المدفوعة بالقوانين الدولية المسهِّلة، وكذلك حركة الأموال الرقمية السريعة)، وانهيار الاختلافات الثقافية (مع الهيمنة المتزايدة للغات الرئيسة وانتشار الترفيه الدولي، سواء أكان عبر أفلام هوليود أو المسلسلات المصرية والسورية والتركية). كل هذه العوامل تحرِّك الشبكات العالمية، وتتحدى أفكارنا الوطنية المسبقة ومؤسسات الدولة. وقد تكون تلك الميول متنوّعة؛ كدعاية تنظيم القاعدة، أو الشعبية العالمية غير المعقولة لإحدى ألعاب الكمبيوتر، أو سلطة صندوق تحوط (أو محفظة وقائية) يعمل عالمياً وفق قواعد بسيطة. ينتشر المال والأفكار والأشخاص دولياً دائماً. ولكنّ ما اختلف في القرن الحادي والعشرين هو السرعة التي يمكن أن يحصل بها ذلك.

من الواضح أن التهديدات التي تفرضها الشبكات الدولية لا تأتي من المتطرّفين العنيفين فقط، بل أيضاً من الجماعات الأخرى التي يمكن أن تكون لنشاطاتها عواقب وخيمة. ولا يجب أن يكون المتطرّفون من الإسلاميين فقط أحد الأهداف المهمة للاستخبارات، بل الشركات متعددة الجنسيات أيضاً؛ وبالأخص عالم الأثرياء المتنفّذين والمموِّلين الدوليين الذين تعتمد وظائف ملايين الأشخاص وأرزاقهم على نشاطاتهم. في وقت كتابة هذا الكلام، كانت أكبر 307 شركات أميركية تُبقي 1.95 تريليون دولار من أرباحها المتراكمة خارج البلاد لتجنّب دفع الضريبة المتوجبة عليها. وقراراتها بشأن المكان الذي ستنتقل إليه تلك الكتلة النقدية ومراكز إنتاجها ستحدِّد مصير الدول.[15]

هناك عاقبتان رئيستان للسلطة المتزايدة للجماعات غير الحكومية المُعَولَمة على التجسّس. فهي أولاً تسبّب عجزاً في الاستخبارات؛ بأن تتطلّب مراقبة الأحداث وفهمها، وكذلك الأشخاص الذين يتواجدون على بُعد آلاف الكيلومترات في أغلب الأحيان، والذين قد يكون لهم تأثير محلي عبر الشبكات العالمية. ثانياً، تسبّب "نشاطاً إلزامياً" أكثر خطورة، بأن تحفّز التدخّل عبر الحدود للتأثير على تلك الأحداث الأجنبية التي لها تأثير محلي متزايد. وينطبق هذا النشاط الإلزامي على المواطنين- مثلاً، على أولئك العاملين من جانب واحد عبر الحدود من خلال مجموعة غير حكومية مثل غرينبيس- بالمقدار نفسه الذي ينطبق فيه على صنّاع السياسة الذين يوجّهون نشاطات ديبلوماسييهم أو أجهزة استخباراتهم. وفي حين أن الحلول الدائمة ستخرج فقط من التعاون المفتوح عبر الحدود، إلا أنه عندما يتدهور ذلك التعاون أو يزول، سيكون مغرياً دائماً أن يتخذ أحد أشكال النشاط الخفي. قد يكون ذلك التعاون سرياً، كإذعان باكستان وقبولها حصولَ غارات الطائرات بدون طيّار على الجماعات المسلّحة ضمن حدودها، أو نشاطاً من طرف واحد؛ مثل الغارة على مجمّع بن لادن. ولكليهما تأثيرات جانبية ضارة تقوّض المؤسسات الشرعية في البلد الأجنبي، وتخاطر بحصول ردّة فعل عنيفة إذا اكتُشف النشاط الخفي. وأثناء تحوّلها مثل الجواميس في أنحاء العالم، متعقّبةً أو حتى مهاجمةً أحدث جماعات المتطرّفين الذين يهدّدون بتفجير الكمبيوترات أو قرصنتها في نيويورك أو لندن، يمكن أن يكون سهلاً جداً على أجهزة الاستخبارات إسقاط الأسوار. وهي قد تحتاج إلى فعل ذلك في الحالات القصوى. لكن كل هذا العمل السري مجرد حل مؤقت لا يحل محل التعاون العالمي الفعّال.

يجب إبقاء تهديد الجماعات غير الحكومية متوازناً بشكل صحيح. وقد سأل القائد السوفياتي جوزيف ستالين في إحدى المرات: "ما عدد الكتائب التي يملكها رجال الدين؟".[16] من الواضح أنه عندما تتعلق المسألة بالسلطة العسكرية بشكل صرف، فإن أخطر الأسلحة في العالم لا تزال في أيدي الدول الكبرى، والتي يجب أن تبقى هدفاً رئيساً للاستخبارات. وفي حين أنه تم تخفيض الترسانات النووية

لروسيا والولايات المتحدة، إلا أنها لا تزال موجودة. ولا تزال تكنولوجيا القنابل تنتشر ببطء (مع وجود برامج في باكستان والهند وكوريا الشمالية وإيران وإسرائيل). ومع امتلاك الولايات المتحدة وروسيا 1,800 رأسٍ حربيٍّ نووي في حالة تأهب قصوى (بمعنى أنها قادرة على إطلاقها في غضون خمس عشرة دقيقة)، لا تزال الاستخبارات الجيدة عن القدرات والنوايا النووية أهم من التعامل مع أي تهديد آخر؛ بما في ذلك الإرهاب بالتأكيد.[17]

ثغرة الاستخبارات

عندما تكون الاستخبارات غائبة، يكون التجسّس والجواسيس آخر شيء تحتاج إليه دائماً؛ إلا إذا كانت القطعة الناقصة من الأحجية شيئاً فائق السرية. ويعود معظم ما يُسمّى "أخطاء استخباراتية" إلى فشل في التحليل، وليس إلى فشل في تجميع المعلومات الاستخباراتية. كان هذا صحيحاً بشأن تصاعد التطرّف لدى بعض السنة في التسعينيات (والذي أدّى إلى نشوء تنظيم القاعدة)، مثلما كان مع عواقب تشجيع التمرّد في سوريا بعد العام 2010 (والذي أدّى إلى بروز الدولة الإسلامية في العراق والشام). ويمكن إلقاء اللوم في ما يتعلق بتلك الأخطاء على الصحافيين والديبلوماسيين والسياسيين والأكاديميين بمقدار إلقائه على مسؤولي الاستخبارات نفسه. فالعنصر الناقص لم يكن سراً؛ إذ كان المتطرّفون صريحين بالكامل بشأن أهدافهم ووسائلهم العنيفة. وكان الفشل الكبير في عدم إدراك التهديد المحتمل، وعدم أخذه على محمل الجد باكراً بما فيه الكفاية.

إن وجود جاسوس في تنظيم القاعدة كان بإمكانه التزويد بمعلومات استخباراتية حيوية، كتفاصيل محدَّدة عن خطط الهجوم؛ مثل هجمات 11 سبتمبر، وكان سيشكّل فرقاً كبيراً. لكنْ مثلما سيتّضح الآن، يجب استهداف الاستخبارات البشرية. وللحصول على عملاء مماثلين، يجب أن يأتي تحليل التهديد وتقدير نسبة خطورته في المرتبة الأولى.

ما يجعل العالم مكاناً أخطر هو أنه فقط عندما أصبحت الأحداث المحلية في البلدان الغربية مدفوعةً أكثر بالأحداث الأخرى التي تجري بعيداً جداً، رأينا تدهوراً في الاطلاع على الشؤون الدولية. وقد ترافقت العولمة بشكل مميت مع تقاعُس متزايد في الغرب عن استكشاف الثقافات والأفكار الأجنبية أو التعلّم عنها. فقد أدّى انتشار أفلام هوليود وبرامج التلفزيون الأميركي إلى تشجيع العالم على فهم الغرب، وإلى إثباط همّة الغرب عن فهم العالم. وتزايد تعلّم اللغة ببطء (في الولايات المتحدة، بالأخص منذ العام 2001)، لكنّ عدد الأشخاص الذين يتكلّمون لغات أجنبية لا يزال قليلاً على نحو يُرثى له. وتعرّضت الصحف ومحطات التلفزيون لتخفيضات كبيرة في عدد الموظفين، وأصبح المراسلون الأجانب للصحف نادرين. فالبيانات تنتقل في كل مكان عبر الانترنت، لكنها نادراً ما تحمل تفسيراً. ويسافر الأشخاص باستمرار، ولكنهم عندما يزورون أماكن غريبة، فهم يذهبون غير مهيّئين عادة، ويُصدمون بما يجدونه، وقد يغادرون حاملين أحكاماً مسبقة ومُجحفة بدلاً من فهمٍ للثقافة الجديدة. فخلافاً للاعتقاد السائد، السفر يضيِّق العقل في أغلب الأحيان.

في غضون ذلك، تم تقليص الديبلوماسية. وأصبح السفراء سجناء ردود فعل فورية، ويُخفون حتى أدق التفاصيل عن عواصمهم. فهم قد أُرسلوا لكي "يعبّروا" عن سياسة حكومتهم، وليس لكي ينقلوا الانطباعات التي تتولّد لديهم.

لا يوجد نقص في عدد الأشخاص الذين يظنون أنهم يفهمون العالم، لكن العديدين منهم يُسقطون أفكارهم على الآخرين، أو يستبدلون التحليل المتحفّظ بالتفكير الرّغبي. وأحد الأمثلة هو الموجة الكارثية لأيديولوجيا المحافظين الجدد التي سيطرت خلال ولاية الرئيس جورج و. بوش. فقد ظنّت نخبة صغيرة في واشنطن أنه بإمكانها تغيير خريطة الشرق الأوسط وفرض الديموقراطية، بدءاً بغزو العراق. لقد حوَّل أولئك الرجال الديبلوماسية إلى عملية أحادية الاتجاه؛ محاولين فرض القيم الغربية، والإصغاء فقط إلى المعلومات الاستخباراتية التي تتماشى مع آرائهم.

باختصار، ما فعلناه هو أننا أنشأنا عالماً من العواقب العالمية من دون معرفة عالمية، والتجسّس ليس علاجاً لهذه المشكلة. و لم نخسر حروب أوائل القرن الحادي والعشرين- سواء أكان ذلك في أفغانستان أو العراق أو سوريا- أو تلوّثت سُمعة القضية بسبب الفشل في تجميع معلومات استخباراتية معيّنة، بل كان الإخفاق ذا طبيعة أوسع بكثير؛ أي عدم قدرتنا على فهم العالم بأسره.

لكنْ رغم أن الجواسيس الجيدين أيضاً لا يستطيعون منع الجهل الاستراتيجي، إلا أن الجهل الاستراتيجي يستطيع منع التجسّس الجيد. وهذا لأنه يجب تركيز التجسّس الفعّال على ما يهمّ حقاً. فعند النظر إليه من أي زاوية، نجد أن التجسّس الجيد يعتمد على نشر موارد هائلة؛ ليس الكثير من المال مقابل الجهد المركّز، ونشر وسائل تمت إجادتها جيداً، واستخدام الموهبة الكبيرة والنادرة. يصحّ هذا على أولئك الضالعين في التشغيل البارع للعملاء المتطوِّعين، بمقدار صحّته على أولئك الذين تم استهدافهم للتجنيد. في العمل الجاسوسيّ التقليدي أكثر، مثل ذلك الذي تم استخدامه ضد الجيش الجمهوري الإيرلندي والسوفيات والصينيين مثلاً، كان التجنيد المباشر فناً يتطلّب الصبر والوقت. وقد أحضَر القرن الحادي والعشرون المفعم بالحيوية بعض الأساليب الجديدة لتسريع العملية، ولكن فقط على حساب عدة إخفاقات، وبإنشاء "فِرق انصهار" رائعة لتطوير الأهداف بسرعة، وتنظيم محاولات التجنيد، ثم مراقبة تقدّم العميل المحتمل.

تخيَّل التجسّس كتلسكوب قوي جداً يراقب كائناً على كوكب بعيد جداً عن الأرض. ستحتاج إلى مهارات كبيرة لتحريك التلسكوب لكي يشير إلى الهدف المُختار، ولجعله يعرض صورةً واضحةً ومكبَّرةً. ولكنّ كل تلك الجهود ستكون غير جديرة بالاهتمام إذا لم يتم توجيه التلسكوب نحو الكائن الصحيح. لذا، ما هو الاتجاه الذي يجب توجيه ذلك التلسكوب إليه؟

تحاول وكالات الاستخبارات بسط مواردها في أغلب الأحيان، وبشكل خاص وكالة الاستخبارات المركزية. فهي تراقب أكثر من شيء واحد في الوقت نفسه،

ولكن بنجاح محدود. وقد رأينا كيف أن محاولة توجيه التجسّس البشري نحو الإرهاب- لإيجاد ذلك "الرجل القريب" المراوغ داخل تنظيم القاعدة بشكل خاص- كانت مليئة بالتحديات. ولا توجد دلالة على أنه تم العثور على جاسوس كهذا حتى الآن. لكنّ وسائل التجسّس تكيَّفت، وأُصيب أعضاء تنظيم القاعدة بخيبة أمل. الوقت أفضل صديق لقائد شبكة التجسّس. وبدأت وكالات التجسّس بإيجاد وسائل للحصول على عملاء في صفوف المقاتلين.

في وقت كتابة هذا الكلام، كان تنظيم القاعدة قد تجزأ، ولكن بدأت جماعات قوية جديدة مثل الدولة الإسلامية في العراق والشام تلوح في الأفق. وبعد الصدمة الاستخباراتية الكبيرة التالية، وبعد نجاح الهجوم التالي، سيكون الجاسوس الذي تمنّينا لو أننا كنا نملكه- الجيل القادم من "الرجل القريب"، الجالس بجانب عدو آخر لم نحدّده بعد- غائباً؛ ليس بسبب أخطاء تكتيكية فادحة ارتكبها قادة شبكات التجسّس، بل المرجّح أكثر أن السبب هو قصر نظرنا الكبير عن مكان نمو المتاعب في عالمنا.

الأسرار والفهم

إن ثغرة الاستخبارات الموجودة بشأن عالمنا المتغيِّر بسرعة يجب سدّها بعدة طرائق. وسيكون بذل جهد أكبر لتوسيع انخراطنا مع الدول والثقافات الأخرى أهم من الاستيلاء على بعض المعلومات السرية. وقبل أن نحاول التجسّس، يجب أن نمدّ أيدينا أولاً إلى كل شخص جاهز تقريباً- على حدّ قول الجيش- لكي "يخطو خارج الأسلاك"، ولكي يترك الراحة التي يتمتع بها في محيطه ويذهب إلى مناطق غير مألوفة. قد نجد هكذا مستكشفين بين الأكاديميين، أو الصحافيين، أو الرحّالة، أو المبشِّرين، أو الديبلوماسيين، أو باعة الهواتف الجوّالة، أو متسلّقي الجبال، أو الجنود. ونحتاج منهم أن يفهموا الثقافات الأجنبية بشكل عميق وأن يشرحوها لنا.

لكنْ تستطيع أجهزة الاستخبارات أن تلعب دوراً مهماً أيضاً في نواحٍ قد تكون فيها مهاراتها الخاصة مفيدةً، وعندما يكون هناك سر مهم حقاً لا يمكن استخلاصه

بطرائق مكشوفة. قد يكون الديبلوماسي أو الصحافي قادراً على التكلم مع كاشف فساد عادي، ولكنْ إذا كانت وظيفة الفرد حسّاسةً لدرجة أن حياته ستكون في خطر إذا تكلم، أو إذا كانت أكبر قيمة له ستأتي من بقائه في وظيفته بينما يُفشي الأسرار، فعندها ستكون وكالة استخباراتٍ فقط هي القادرة أحياناً على تشغيل مصدر كهذا.

في بعض الأوقات، يكون الانخراط المفتوح والمباشر مع أحد الأشخاص أو إحدى الجماعات مستحيلاً. وتحتاج إلى أن تتنكّر أحياناً، وأن تكذب وتغشّ لكي تتقرّب من الشخص. وقد تحتاج إلى استخدام كل خدعة معروفة لتستكشف ما يجري في الداخل. ويجب إرسال الخادم السري ليجابه المُعضلة العسيرة حقاً. يجب أن يكون متكلماً موهوباً يتسلّل إلى حيث يجرؤ عددٌ قليلٌ من الناس على الذهاب- وعددٌ أقل من الناس قادر على القيام بذلك- ثم يستخدم براعته ليكسب ثقة العدو الخائف، ويجعله يفتح له قلبه ويكشف له أسراره. قد يستلزم هذا "تجنيداً"، وقد يتطلب دفع بعض النقود، وسينطوي على الأرجح على بعض الأكاذيب، وبعض الضغط. ولكنْ ليس دائماً.

إذا كان التجسّس هو الوسيلة الوحيدة لاكتشاف سرٍ ما، فما هي الأسرار التي تستحق السرقة حقاً؟ ففي حين أن كبار السياسيين يسعون وراءها دائماً ويتشوّقون إلى قراءتها، إلا أنها تميل إلى أن تكون مبالغاً فيها. وقد كَتَب جون أبدايك في إحدى المرات، "منذ طفولتنا ونحن كلنا جواسيس. وليس هذا هو الأمر المؤسف، بل أن الأسرار المطلوب اكتشافها تافهة جداً وقليلة".[18] لم يكن مخطئاً كثيراً.

من وجهة النظر العسكرية، يمكن أن يكون الهوس باكتشاف الأسرار ذا نتائج عكسية. ومثلما ذكر جون روب، وهو عامل سابق في القوات الخاصة ومستثمر في قطاع التكنولوجيا، إن معظم النزاعات الحالية والمستقبلية منخفضة الحدّة- الهجمات الإرهابية، أو التمرّدات الأقل من حرب شاملة- ستتميّز بشكل متزايد بأنها "حرب مفتوحة المصدر"، حيث تتم مناقشة كل الخُطط والأوامر والدروس

المستفادة علناً تقريباً. وتميل المؤسسات السرية أكثر مما ينبغي- مثل معظم الجيوش العصرية- إلى تخزين المعلومات، وبالتالي تعدِّل خططها بشكل بطيء جداً. ومن جهة أخرى، يمكن أن يكون المقاتلون مفتوحو المصدر مرنين إلى حدود لا تُصدَّق، وميّالين إلى التطوّر بسرعة. وليس مطلوباً من الجواسيس أن يكتشفوا خططهم.[19]

تكمن تلك الأسرار العصرية المهمة في أماكن غير متوقعة في أغلب الأحيان. ومثلما ناقشت دراسةٌ حديثةٌ حول مكافحة التجسّس أجراها المكتب الأميركي لمدير الاستخبارات الوطنية، إن الأسرار الأكثر قيمة للدولة لا تتواجد لدى الحكومات في المقام الأول، بل في أيدي الشركات الخاصة؛ سواء أكانت شيفرات برمجية أو معادلات طبية مثلاً. وقد تكون سرقة الأسرار المملة لبيروقراطية بلد آخر مجرد مضيعة للوقت والجهد.

ما نحتاج إليه هو رؤى للقوى المحرِّضة، ونوايا الأشخاص والجماعات الفعّالين والمؤثّرين، سواء أكانوا داخل الحكومة أو خارجها. ففي النهاية، يكذب السياسيون وكبار قادة الأعمال إلى ما لا نهاية بشأن نواياهم. وقد لا يكون مطلوباً من الجاسوس أن يكتشف ذلك، ولكنه قد يفعل ذلك أحياناً؛ وتحديداً إذا كان ذلك القائد كتوماً جداً، وكذلك قوياً أو خطيراً.

قد يزوِّد الجواسيس برؤى تكتيكية فقط (على عكس الرؤى الاستراتيجية) أحياناً، بمعنى أنها ستكون قيّمة فقط في سياق معركة قصيرة الأجل. مثلاً، يستطيع الجاسوس إبلاغ مشغِّله بالمكان الذي ينوي الرئيس الروسي إرسال مدرّعاته إليه، أو قد يكشف مكان معسكر تدريب إرهابيين، أو مؤامرة تفجير محدَّدة في مدينة غربية، أو خطة أقلية تشيكية للمضاربة بمليارات الدولارات ضد الجنيه الإسترليني. قد تكون معلومات كهذه مفيدة، وقد تُنقذ أرواحاً على أحد طرفَي نزاعٍ (وأيضاً- لا تنسَ هذا- تكلّف أرواحاً على الطرف الآخر)، أو قد تحمي أرزاق الملايين عندما تتعلق المسألة بكشف أسرار اقتصادية.

لكنْ كثيراً ما تتم المبالغة بالطابع التكتيكي للأمور. فبعد تفحّص دقيق على مدار الساعة من قِبل وسائل الإعلام، أُصيب القادة السياسيون للقرن الحادي والعشرين بنوع من جنون العظمة، حيث أغوتهم الاتصالات الفعّالة، والقدرة على استعراض قوتهم على مسافات بعيدة- من خلال الصواريخ أو الطائرات بدون طيّار أو القوات الخاصة مثلاً- وأصبح بإمكانهم المغالاة في تقدير قدرتهم في التأثير على مجريات الأحداث في أماكن بعيدة. وبشكل مشابه للنظر إلى منطقة جغرافية واسعة من خلال قشة شرب، يستطيع الرئيس الأميركي متابعة الأحداث في مجمَّع أسامة بن لادن في باكستان من حيث يجلس في غرفته، لكن ذلك يتم على حساب تجاهل كل شيء آخر يجري على نطاق أوسع.

لذا، إن أكبر وأهم سر يستحق جهود الجاسوس قد لا يكون الخطة أو التفاصيل المحدَّدة، بل هو نظرة أوسع تعبِّر عن الفهم. ومثلما لخَّص أحد رجال الاستخبارات البريطانية الأكثر خبرةً المسألة قائلاً: "الفهم الذي يغلّف النية هو كل شيء". ويروي الذين تعاملوا مع أشهر جاسوس لبريطانيا ضد الروس، اوليغ غوردييفسكي، أن أكبر قيمة له كانت في مساعدة مارغريت تاتشر على فهم النوايا المسالمة لآخر قائد سوفياتي ميخائيل غورباتشوف. وكانت خيانة غورديفسكي- لو اكتُشفَت- ستؤدي إلى إعدامه بكل تأكيد. لكن نشاطاته ساعَدت قائد بلده في نهاية المطاف.

وفقاً للذين تعاملوا مع بعض أهم العملاء السريين مباشرةً، إن الحدود بين التجسّس- علاقة سرية وغدّارة مع العدو- والنشاط المباشر والصادق يمكن أن تكون ضبابيةً جداً في أحيان كثيرة. فبتصرّفهم مثل كاشفي الفساد، حيث يسرِّبون المعلومات ويخالفون قوانين مؤسساتهم- ويخاطرون بتلقي عقوبات خطيرة تصل إلى حدّ الموت- لم يكن العديد من أفضل المصادر الاستخباراتية ليسمّوا أنفسهم "عملاء سريين" قطّ، ولجادلوا بالقول إنهم بدلاً من أن يكونوا تحت سيطرة قوة أجنبية ما، كانوا يخدمون مصالح بلدهم. كان بعض المصادر الرئيسة في الجيش الجمهوري الإيرلندي على هذا المنوال بالضبط؛ على سبيل المثال، رجل الأعمال

الإيرلندي بريندان دَدي الذي خدم كوسيط مع جهاز الاستخبارات السرية. وكذلك الأمر مع العديد من مصادر الارتباط داخل أجهزة استخبارات البلدان الأخرى. وقد قال ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية: "أفضل عميل وأكثرهم ثقة هو الشخص القادر على الوصول إلى معلومات استخباراتية قيّمة إلى حد مذهل، ويريد تمريرها حقاً إلى الوكالة أو الحكومة التي يمثّلها مشغّله، والتعاون معها".

حينما يكون ذلك ضرورياً، يمكن أن تكون قيمة الجاسوس داخل معسكر العدو تكتيكيةً، ويزوِّد برؤى أكثر عمقاً. لكنّ وكالات الاستخبارات البشرية في العراق وأفغانستان بذلت مجهوداً كبيراً جداً أحياناً لمحاولة تجنيد عملاء أوفياء يتقاضون رواتبهم بالكامل، في حين أنه كان من الأفضل ربما بذل تلك الجهود للحصول على مصدر معلومات استخباراتية ذي مستوى أعلى يستطيع التزويد برؤى أكثر؛ ولو كان غير راغب في أن يجتاز الخط ويخون قضيته.

قال مسؤولٌ استخباراتيٌّ عن أفغانستان: "لم تكن مهمتنا فهم العدو، بل التغلّب عليه". وقد كان محقاً في ذلك. لكنْ على حدّ تعبير ديبلوماسي آخر على قدم المساواة من حيث أهمية المنصب، ربما أعطى السياسيون قادة شبكات التجسّس المهمة الخطأ. ففي حرب تُخاض بين السكان، ومن دون "أشخاص أخيار" واضحين، يصبح اكتشافُ العدو أمراً مهماً بشكل مماثل. وأضاف الديبلوماسي قائلاً: "وماذا لو لم يكن بإمكاننا الفوز؟ ماذا لو لم يكن بإمكاننا أن نهزم العدو؟ عندها سيصبح من المهم جداً امتلاك فهم حقيقي له، وامتلاك اتصالات في قلب قيادته".

ومع بروز تلك النزاعات، كلما كان ضباط الاستخبارات مجرد ملحقين بآلة الحرب يزوِّدون بأهداف للغارات الجوية وغارات الطائرات بدون طيّار مثلاً، أصبح الأشخاص الموضوعون في أماكن جيدة في معسكر العدو مُمانعين أكثر للانخراط معهم ومساعدتهم على فهم النزاع.

لا شيء من هذا كان أمراً عادياً. فبالنسبة إلى قائد في حركة طالبان، إن أي اتصال غير مرخَّص له مع الأجانب يمكن أن يؤدي إلى إعدام فوري؛ سواء أكان قد مرَّر بعض الأسرار أم لا. وعلى الجهة الغربية، كانت اتصالات كهذه تحتاج إلى موافقة سياسية، وتجازف بأن تنكشف للعموم. لكنّ امتلاك اتصالات سرية مع العدو أمر شائع بالنسبة إلى قادة شبكات التجسّس. وقد أظهرت التجارب السابقة أنه بإمكان السفراء السريين لجهاز الاستخبارات السرية أمثال مارك ألن في ليبيا ومايكل أوتلي في إيرلندا الشمالية أن ينخرطوا في وسائل ستكون صعبة على الديبلوماسيين العاديين.

يعترض البعض على هذا الدور، ويسخرون من تصوير قائد شبكة التجسّس كما لو أنه شبه سفير "لوزارة خارجية سرية". وقد قال موظف متمرِّس في وكالة الاستخبارات المركزية: "اسمع، نحن وكالة تجسّس. هل يريدون أن يكونوا مجرد جهاز استخبارات؟ إذا كان الحال هكذا، فبإمكانهم توفير الكثير من المال، والاشتراك بوكالة رويترز للأنباء".

لكنْ كالعادة، يجب أن يكون جهاز الاستخبارات السلاح الأخير. ففي حين أن تنظيم محادثات مع العدو شيء يجب أن يكون الديبلوماسيون مجهَّزين للقيام به، سيكون تعقّل ضابط الاستخبارات ومهاراته الشخصية في بعض الأوقات فقط ما يولّد ثقةً كافيةً لجعل الاتصال غير المحتمل محتملاً. وإذا ساعدت اتصالات سرية كهذه في التزويد باستخبارات أوسع، فستتمكن من المساهمة في حل النزاع وحماية الأمن، أكثر بكثير مما تستطيع العادة الرخيصة الأخرى المتمثلة "بسرقة الأسرار" فعله.

يُعتبر جهاز استخبارات القرن الحادي والعشرين أكثر بكثير من مجرد جهاز تجسّس. وهو يؤدّي عدة أدوار في الميدان، مثلما رأيتُ عملياً عند عملي كمراسل صحفي أثناء تغطيتي الحرب في أفغانستان في العام 2008. كان واضحاً أن أفراد جهاز الاستخبارات السرية والمحطة الهائلة لوكالة الاستخبارات المركزية يؤدّون

وظائف عديدة. فقد كانوا أعضاء في "مجلس حرب" يرأسه الرئيس كرزاي لإدارة الحرب، وكانوا يراقبون وكالة الاستخبارات المحلية؛ "مديرية الأمن الوطني"، وكرزاي نفسه، وكانوا ينفّذون مهام سرية لإجراء محادثات مع حركة طالبان وأمراء حرب آخرين، كما كانوا يحاولون المساعدة في قتل بعض أعضاء حركة طالبان وتنظيم القاعدة. بالإجمال، كانت الأمور مختلطة يميناً ويساراً.

تعتمد الوكالات أساليب مختلفة جداً أيضاً. ففي حين أن المملكة المتحدة تركّز على تجميع المعلومات الاستخباراتية، كان عمل وكالة الاستخبارات المركزية يتمحور دائماً حول النشاطات الخفية، أي فن التدخّل السري. فقد كان من الصعب على بلد قوي أن يقاوم اللهفة لتغيير العالم بطرائق سرية. ورغم أن محاولة تحقيق ذلك تعطي نتائج عكسية في أغلب الأحيان، إلا أنها بلا شك إحدى وظائف أي وكالة سرية، وهي وظيفة قد تتصادم مع الرصد النقي قدر الإمكان.

دارت مناقشات عديدة حول البنية التنظيمية، وحول مَن يفعل ماذا. وقد جرى تنظيم وكالات الاستخبارات البريطانية والأميركية بشكل مختلف جداً. مثلاً، يركّز جهاز الاستخبارات السرية على الاستخبارات البشرية السرية بشكل كلي تقريباً، ولا يملك حتى القدرة على التحليل. بينما تتضمن وكالة الاستخبارات المركزية قسماً للنشاطات السرية يتألف من مشغِّلي جواسيس ومُحاربي نشاطات خفية، وهو مجرد قسم واحد ضمن وكالة أشمل تستقي معلوماتها من جميع أنواع المصادر. وهناك دائماً دعوات لتغيير هذه الهيكلية. لكن الدور الذي تلعبه المؤسسة مهم أكثر من بنية البيروقراطية.

تحتاج أجهزة الاستخبارات إلى تحكم بمفتاحٍ مزدوجٍ، كما هو الحال مع الصواريخ النووية. ويجب أن تكون نشاطاتها منسجمة بدقة وإخلاص مع أوامر قيادة بلدها المنتخَبة وقيم مجتمعها. كما عليها أن تكون وسيلةً للتزويد بحقائق غير مريحة للأشخاص الجالسين في مراكز السلطة. ومع تقيّدها بالتعليمات بشأن

الأهداف التي يجب التجسّس عليها، يجب أن تملك الشجاعة لتلفت الانتباه عندما يكون قد تم اختيار الهدف والعدو بشكل سيئ.

لا يستطيع الجواسيس وقادة شبكات التجسّس الذين نحتاج إليهم أن يكونوا مستقلين، بل يجب أن يكونوا مصدر ثقة للتأكد من أنهم لن يضلّوا الطريق ويحرجوا شعبهم أو حكومتهم. لكنْ يجب أن يكونوا غير ممتثلين للأعراف السائدة، وثائرين على المعتقدات المتوارثة. يجب أن يكونوا وطنيين، ولكن يجب أن تكون تلك الوطنية متجذّرة في خدمة مجتمعهم والقيم الإنسانية؛ أي أن يكونوا عملاء يخدمون هدفاً أفضل من مجرد التزويد ببيانات عن الأهداف، وأن يكافحون بدلاً من ذلك للحصول على رؤى عن أفكار الأشخاص الموجودين في الخارج والذين يعيدون صياغة عالمنا حقاً ونواياهم، سواء أكان أولئك الأشخاص داخل الحكومة أو خارجها.

باختصار، ما نحن بأمسّ الحاجة إليه هو استقلالية تامة في التفكير، مترافقة مع تحمّل مسؤولية النشاطات.

خيانة عصرية

قد يُسأل المرء عن الفضائل في كل هذا. فقد تكلمنا عن المعلومات القيّمة التي نحصل عليها من الجواسيس، ولكنْ هل يبرِّر ذلك حقاً خيانة الجاسوس لأصدقائه أو زملائه أو بلده؟

يشير بعض الأشخاص إلى أن التجسّس مهنة غير أخلاقية في الأساس. ويعتقد الروائي جون لوكاريه أن البريطانيين يشكّلون جواسيس عظماء بسبب الازدواجية في ثقافة بلدهم الطبقية. وقد صرَّح في مقابلة في إحدى الصحف أن عمل ضباط الاستخبارات هو "تحويل الاستعداد للازدواجية إلى شكل من أشكال الفن". وفي بريطانيا يوجد دائماً مجنَّدون ملائمون. "لم نفتقر قطّ في هذا البلد إلى أشخاص يملكون غريزة اللصوصية وأخلاقاً حسنة".[20] وتابع ماركوس وولف، المدير السابق

للاستخبارات الخارجية لألمانيا الشرقية قائلاً: "سيكون كل مدير جهاز استخبارات- بمن في ذلك أولئك الموجودون في الغرب- على خطأ إذا قال: يجب *أن أكون كثير الشكوك بشأن هذا. هل هذا يتماشى مع سلوكي الأخلاقي؟* فالطرائق الاستخباراتية ليست أشياء أخلاقية".[21]

لكن وصف لوكاريه لوسائل عديمة الرحمة من أجل خدمة الصالح العام- مهما يكن ذلك الهدف مريباً أحياناً- ليس مماثلاً لإشارة وولف إلى أن أي شيء مبدئياً مقبول في التجسّس، وإلى أنه يوجد بطريقة أو بأخرى تكافؤ أخلاقي لكل طرف في حرب الجواسيس؛ كما لو أن الحاجة إلى وسائل فظّة في الحرب تجعل الجميع على القدر نفسه من السوء. هذا ليس صحيحاً. ربما كان وولف خبيراً في التكتيك الحربي، ولكنه أيضاً كان خادماً عديم الشفقة لنظام حكم قمعي مُفلِس.

على حدّ تعبير اوليغ غوردييفسكي في تبريره خيانته: "السؤال عن الخيانة عديم الفائدة، لأنه [الاتحاد السوفياتي] كان دولةً إجرامية. وأكثر عنصر إجرامي في الدولة الإجرامية كان KGB. كان عصابة من قطّاع الطرق. وأن تخون قطّاع طرق... أمر جيد جداً للنفس".[22]

إن ابتكار قضية أسمى هو ما يساعد الجواسيس على تقبّل واقعهم بعد أن يكونوا قد خانوا أصدقاءهم (حتى لو كان دافع آخر- كالمال مثلاً- هو الذي دفعهم إلى الخيانة حقاً). لكنّ التناقض الحقيقي لا ينشأ بين الهدف الأخلاقي والوسيلة الدنيئة (فالحرب أمر فوضوي)، ولكن بين هذا الهدف الأسمى والمصلحة الأكثر ضيقاً بكثير لجهاز استخبارات الدولة العصرية.

ولتبرير ما يفعلونه بين شعوبهم، يكون العاملون في أجهزة الاستخبارات وطنيين بشراسة، ولكنهم في الوقت نفسه يواصلون الطلب من الأجانب أن يخونوا بلادهم. وبكلامه المنمّق، يطلب قائد شبكة التجسّس من عميلٍ محتملٍ أن يفكّر في خيانة جماعته أو بلده أو إخوته في الدين "من أجل إنقاذ الأرواح"، أو "من أجل تحقيق السلام". قد يصدّق المجنّد هذا حقاً. لكن مناشدة وكالة الاستخبارات للحفاظ

على القيم العالمية مسألة مخادعة. فعندما تنعكس الحالة، أي عندما يكشف موظفٌ من داخل جهاز الاستخبارات أو الجيش عن فساد ما (شخص مثل برادلي مانينغ، الجندي الذي ذهب إلى ويكيليكس، أو إدوارد سنودن المتعاقد مع وكالة الأمن القومي) بشأن ما يعتبرونه مبادئ سامية بشكل مماثل، لا يُعامل كبطل بل كخائن بغيض.

ويُقرّ الأشخاص الذين ينتمون إلى النادي الحصري جداً لضباط الاستخبارات الذين نجحوا في تجنيد جاسوسٍ مهمٍّ بشعورهم المباشر بتناقضٍ آخر شخصيٍ أكثر مع أهداف الدولة. فالخيانة- مثلما يقولون- ليست شيئاً عادياً، ولا تحصل نتيجة محادثة قصيرة حدثت بالصدفة، بل يجب رعايتها وتشجيعها عادة، وهذا يتطلّب تواصلاً مطوَّلاً مع العميل السري المحتمل. ويتكلم الأشخاص الضالعون في التجنيد عن الدهاء والفطنة في أغلب الأحيان؛ أي الحاجة إلى إنشاء صداقة حقيقية، وإلى إنشاء روابط عاطفية حقيقية. وقد كانوا في أغلب الأحيان أوفياء جداً لعملائهم؛ حتى بعد فترة طويلة من إرسالهم إلى "مشغِّل" آخر. فالأمر أشبه بالزواج، أو- وفقاً لضابط متقاعد- "بالتضحية بابنك". ففي النهاية، على حدّ قول مجنِّد أسطوري في وكالة الاستخبارات المركزية، ستحتاج إلى إحساس بليد: "يجب أن تكون قادراً على التعامل مع الالتباس، ومع حياة الأشخاص". وقد ضحّوا بأبنائهم حقاً؛ فالصداقة كانت وسيلةً؛ حيلةً عاطفيةً استخُدمت لخدمة قضيةٍ، أو بلدٍ عزيزٍ على قلوبهم.

لا يتطلب تجنيد كل جاسوس قضيةً جيدةً. فالكثير من الأشخاص سيخونون الأسرار التي بين أيديهم لقاء المال، حتى لألدّ أعداء بلدهم. والكثيرون انخرطوا في هذه اللعبة أيضاً لمجرد حبّهم لها. لكنْ من أجل جذب الأشخاص الذين سيخونون، وسيبوحون بأسرارهم لك، يجب أن تكون القضية مهمةً. وفي عالمٍ من التهديدات المُعَولَمة والمصالح المشتركة التي تتخطى كل الحدود الجغرافية، وحيث تخضع نشاطات أجهزة الاستخبارات لتفحّص دقيق أكثر من أي وقت مضى، قد يبدأ

التناقض بين الصالح العام- وهو الأمر الذي تناصره أجهزة الاستخبارات- وبين المصالح الضيقة للدولة القومية يصبح بشكل متزايد حجّةً لا يمكن الدفاع عنها.

على سبيل المثال، ما هي القضية العظيمة التي يمكنها التحريض على التجسّس وتبريره بين الدول المترادفة أخلاقياً؛ مثلاً لجماعة عرقية واحدة ضد أخرى، أو لفرنسا ضد ألمانيا؟ أو لنتحدّث عن التجسّس الاقتصادي، عندما تتخلى الشركات متعددة الجنسيات مثلاً عن كل وفائها للدول الفردية (وتكون مستعدة جداً لنقل الوظائف والثروات النقدية والالتزامات الضريبية منها)، فما الذي سيشكّل أساساً أخلاقياً لكي تساعدها دولةٌ قوميةٌ في الفوز بالمناقصات؟ بالمقابل، عندما تلوّث شركةٌ دوليةٌ البحار في كل أرجاء الكرة الأرضية، عندها ستبدو خيانتها والبوح بأسرارها أمراً مبرَّراً تماماً.

عندما تكون التهديدات الأمنية للمواطنين الأحرار في كل أنحاء العالم متشابهة بصورة عامة- سواء أكانت انتشاراً للعنف بدافعٍ ديني، أو كفاحاً ضد ديكتاتورية، أو تركّزاً للسلطة الاقتصادية بأيدي الأقلية، أو تدفّقاً غير منظّم لرؤوس الأموال- عندها قد تبدأ خدمة إحدى الدول تبدو أمراً تافهاً. في تلك الظروف، قد تعتمد قدرة الدولة على تأمين أصدقاء لها في بلدان أخرى- سواء أكانوا جواسيس أو حلفاء فقط- على وضوح تطابق سياستها الخارجية مع التزاماتها الصريحة كمواطنٍ عالمي.

عندما كُشفَت عمليات الترحيل المذهلة التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية، وسجونها السرية، وتعذيبها القاسي خاصةً للسجناء العرب بشكل رئيس، أي مواطن عربي سيرغب حقاً في أن يخون أسرار بلده لصالح مؤسسة كهذه؟ ومثلما أشار السير ريتشارد ديرلوف، الرئيس السابق لوكالة التجسّس البريطانية، في خطاب له ألقاه في يوليو 2006، إن أحد الأسباب التي جعلت الأجهزة الاستخباراتية تجذب عملاء لها من بلدان أخرى، هو "أن الغرب كان في نهاية الحرب الباردة يمثّل صورة الأخلاقيات العالية بشكل لا لبس فيه". وتابَع قائلاً: "لسنا بهذه الصورة في الوقت الحاضر".[23]

يجب أن يبقى التجسّس والنشاط الاستخباراتي أمرين يجري التحكّم بهما وطنياً. ولا يمكن الاتكال على أي وكالة تجسّس دولية أو غير حكومية لحماية الأسرار الحيوية والحفاظ على أرواح العملاء الأكثر حساسية. وهذا ما تبرع فيه أفضل وكالات الاستخبارات؛ استناداً إلى قرن كامل من الخبرة. ومع ذلك، نادراً ما تستطيع وكالات الاستخبارات أن تعمل بشكل مستقل عندما تواجه تهديدات عالمية. وسيُتوقّع منها في المستقبل أن تعمل مع أجهزة أخرى باستمرار، وأن تساعد في خدمة مصالح أوسع. وسيعتمد نجاحها، وقدرتها على تجنيد الجواسيس الذين نحتاج إليهم لحماية أنفسنا جميعاً من التهديد الكبير التالي، على القيم التي تعيش وفقاً لها، وعلى المدى الذي تشارك فيه تلك القيم ليس فقط مع أعضاء حكوماتها، بل مع كل الأشخاص المشابهين في التفكير أيضاً.

ملاحظات

مقدمة: الجاسوس المفجِّر

1 ميلان كونديرا، The Unbearable Lightness of Being (لندن/بوسطن، فابر أند فابر، 1985)، ص. 250.

2 جورج فريدمان وسْكوت ستيوارت، The Khost Attack and the Intelligence War Challenge، نشر ستراتفور، وهي شركة استخبارات خاصة، في مجلتها الأسبوعية Geopolitical Weekly، 11 يناير 2010.

3 راجع مؤسسة النصب التذكاري لضباط وكالة الاستخبارات المركزية، واشنطن بوست وwww.cia.gov.

4 مقابلة سرية للمؤلف مع ضابط كبير متقاعد في جهاز الاستخبارات السرية.

5 إدوارد لوتْواك، Thousands of Spooks, No One to Spy On، صنداي تايمز، 20 أبريل 2014.

6 جايمس أدامز، New Spies: Exploring the Frontiers of Espionage (لندن، بيمليكو، 1995)، ص. 149.

7 ستانسفيلد تيرنر، Intelligence for a New World Order، مجلة فورين أفيرز، المجلد 70، العدد 4، خريف 1991.

8 مارتن بنغلي ووكالات، Merkel Doubts Whether US Will Stop Spying on Germany، الغارديان، 12 يوليو 2014.

9 مكتب كبير الأطباء الشرعيين لمدينة نيويورك، مستودع مركز التجارة العالمي، المستند World Trade Center Operational Statistics، المحدَّث لآخر مرة

في 20 يونيو 2011: والمتوفر على العنوان http://www.nyc.gov/html/ocme/downloads/PDF/public_affairs_ocme_pr_WTC_Operational_Statistics.pdf.

10 غوردون كوريرا، مقابلة مع السير كولن ماك كول لصالح MI6: A Century in the Shadows، القناة الرابعة لإذاعة BBC، يوليو-أغسطس 2009.

11 سجل الكونغرس، نقاش مجلس النواب حول قانون الأمن القومي للعام 1992، 5 فبراير 1992، ص. H382، بموافقة fas.org على العنوان التالي: fas.org/irp/congress/1992_cr/h920205-reform.htm

12 ويليام بفافّ، We Need Intelligence, Not Spies، إنترناشيونال هيرالد تريبيون، 21 يوليو 1994.

13 كريستوفر أندرو، The Defence of the Realm: The Authorized History of MI5، الطبعة المحدَّثة (لندن، بنغْوين، 2010)، ص. 787.

14 المرجع السابق نفسه.

15 مايكل سميث، New Cloak, Old Dagger: How Britain's Spies Came in from the Cold (لندن، فيكتور غولانتز، 1996)، ص. 13.

16 طوني بلير، Doctrine of the International Community، خطاب أمام نادي شيكاغو الاقتصادي، 24 أبريل 1999.

17 والتر بينكوس، White House Labors to Redefine Role of Intelligence Community، واشنطن بوست، 13 يونيو 1994.

18 America's Intelligence Services: Time for a Rethink، الإيكونومست، 18 أبريل 2002.

19 ت. ج. ووترز، Class 11: My Story Inside the CIA's First Post-9/11 Spy Class (نيويورك، داتّون، 2006)، الغلاف.

20 السير ريتشارد ديرلوف، Ten Years After 9/11: What Are the Priorities for the Intelligence Service in 21st Century Britain?، محاضرة أمام منتدى الاستراتيجية العالمية، 5 يوليو 2011.

21 ووترز، Class 11، الصفحتان 63 و64.
22 ستيفن غراي، Ghost Plane: The True Story of the CIA Torture Program (نيويورك، دار سانت مارتن، 2006).
23 جوش غيرستين، Tenet: Aggressive Interrogations Brought U. S. Valuable Information، نيويورك صَن، 26 أبريل 2007.
24 توماس جوسلين، Cheney on the Value of Interrogations and Human Intelligence، ويكلي ستاندرد، 16 ديسمبر 2008.
25 مقابلة المؤلف مع تايلر درامهيلر لصالح Extraordinary Rendition، فرونتلاين، PBS، 4 نوفمبر 2007.
26 السير دايفد أوماند، مقابلة المؤلف ومراسلاته، 2008 و2014.
27 نيك هوبكنز وجوليان بورجر، Exclusive: NSA Pays £100m in Secret Funding for GCHQ، الغارديان، 1 أغسطس 2013.

الفصل 1: العميل السري

1 جورج أ. هيل، Go Spy the Land (لندن، كاسيل، 1932)، ص. 3.
2 في ذلك الوقت، كان وسام الخدمة المتميزة يُمنَح لصغار الضباط لخدمتهم المتميزة، أو لعمل بطولي قاموا به ضد العدو. وقد ناله كرومي تقديراً "لخدمته في قيادة الغواصات البريطانية في بحر البلطيق": راجع ملحق لندن غازيتّ، 31 مايو 1916.
3 Report from Major Scale، ستوكهولم، 19 نوفمبر 1918، مع شهادة هـــ. ت. هول، الذي كان حاضراً مع كرومي، الأرشيفات الوطنية الملف ADM 223/637، المستند 83.
4 تفاصيل عن حادثة كرومي من إفادة شاهد عيان ناتالي باكنول، الأرشيفات الوطنية الملف FO 337/87؛ ماري بريتنييفا، One Woman's Story (لندن، باركر، 1934)؛ وروي باينتون، Honoured by Strangers: The Life of

(لندن، Captain Francis Cromie CB DSO RN, 1882-1918 أمين الشرطة، 2002).

5 فيليب نايتلي، The Second Oldest Profession: Spies and Spying in the Twentieth Century (لندن، بيمليكو، 2003)، ص. 3.

6 راجع، مثلاً، مايكل دوراي، William Wickham, the Christ Church Connection and the Rise and Fall of the Security Service in Britain, 1793-1801، إنغليش هيستوريكل ريفيو، المجلد 121، العدد 492، يونيو 2006، الصفحات 714–745.

7 توماس أرسكين ماي، Constitutional History of England: Vol. II, 1760-1860 (لندن، لونغمان، غرين، لونغمان، روبرتس وغرين، 1863)، موضع كيندل 5539.

8 من تاريخ British Military Intelligence in France during the latter part of the war تأليف العقيد ريجينالد درايك، والمقتبس في كيث جيفري، MI6: The History of the Secret Intelligence Service 1909-1949 (لندن، بلومزبري، 2010)، ص. 73.

9 المرجع السابق نفسه، ص. 87.

10 تشيكا (1917–1929) أصبح NKVD (1934–1946)، ثم MGB (1946–1953) وKGB (1954–1991). ومنذ العام 1991، انقسم KGB القديم إلى FSB (جهاز الاستخبارات الداخلية) وSVR (جهاز الاستخبارات الخارجية).

11 سبنسر تاكر، The Great War, 1914-1918 (نيويورك، راوتلدج، 1997)، ص. 157.

12 برقية كرومي إلى ديوان البحرية، 24 يونيو 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3286.

13 Report from Major Scale، 19 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف ADM 223/637، المستند 83.

14 الأرقام مأخوذة من www.westernfrontassociation.com ومن معرض الجبهة الغربية لمتحف الجيش الوطني على الانترنت على www.nam.ac.uk

15 مراسل التايمز اللندنية في بتروغراد، جورج دوبسون، المقتبس عنه في Imprisoned in Russia. Barbarous Treatment. Englishman's Experiences، نيوزيلندا هيرالد، المجلد LV، العدد 17061، 17 يناير 1919، ص. 8.

16 Report from Major Scale، 19 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف ADM 223/637، المستند 83.

17 مراسل التايمز اللندنية في بتروغراد، جورج دوبسون، المقتبس عنه في Imprisoned in Russia. Barbarous Treatment. Englishman's Experiences، نيوزيلندا هيرالد، المجلد LV، العدد 17061، 17 يناير 1919، ص. 8.

18 جوناثن د. سميلي، The Russian Revolution and Civil War 1917-1921: An Annotated Bibliography (لندن/نيويورك: كونتينيووم، 2006)، ص. 276.

19 جيفري، MI6، الصفحات 134-138.

20 أندرو كوك، Ace of Spies: The True Story of Sidney Reilly (ستراود، ذو هيستوري برس، 2011)، مواضع كيندل 1718-1719.

21 مقابلة هاتفية للمؤلف مع أندرو كوك، 2013.

22 كوك، Ace of Spies، موضع كيندل 2302.

23 المرجع السابق نفسه، موضع كيندل 2329.

24 الأرشيفات الوطنية الملف KV2 827. مشيراً إلى "تحقيق أصلي من كومينغ"، يقول الجواب الذي تلقاه MI5 من "مقر القيادة الإيرلندية" في 2 أبريل 1918 ما يلي: "لا يوجد سجل عن ولادة رايلي، ت. سيدني في سجلات كلونميل".

25 كوك، Ace of Spies، موضع كيندل 2363.

26 المرجع السابق نفسه، موضع كيندل 2418، نقلاً عن البرقية CX 027753 تاريخ 16 أبريل 1918 في ملف رايلي لدى جهاز الاستخبارات السرية CX 2616.

27 تروي برقية رايلي إلى لندن عن اجتماعاته مع بونش-بروفتش، في مايو ويونيو 1918، الأرشيفات الوطنية الملف WO 32/5669.

28 تقرير لوكهارت إلى وزير الخارجية آرثر بلفور، المؤرَّخ 5 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3348.

29 ر. هـ. بروس لوكهارت، Memoirs of a British Agent (لندن، بوتنام، 1932)، ص. 316.

30 كوك، Ace of Spies، موضع كيندل 3817.

31 تقرير لوكهارت إلى وزير الخارجية آرثر بلفور، المؤرَّخ 5 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3348.

32 تقرير النقيب هيل إلى مدير الاستخبارات العسكرية، المؤرَّخ 26 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3350.

33 تقرير لوكهارت إلى وزير الخارجية آرثر بلفور، المؤرَّخ 5 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3348.

34 تقرير النقيب هيل إلى مدير الاستخبارات العسكرية، المؤرَّخ 26 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3350.

35 المرجع السابق نفسه.

36 راجع الكرّاسة الممسوحة على http://chroniclingamerica.loc.gov/lccn/sn83030214/1919-04-20/ed-1/seq-85.pdf

37 تقرير لوكهارت إلى وزير الخارجية آرثر بلفور، المؤرَّخ 5 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3348.

38 لا توجد أرقام دقيقة، لكن التقديرات المذكورة في necrometrics.com تشير إلى إعدام ما بين 50,000 و200,000. المصدر هو نورمان لوي، Mastering Twentieth Century Russian History (لندن، بالغرايف ماكميلن، 2002)،

رغم أن أكثر من عشرات الآلاف، وربما مئات الآلاف، ربما يكونون قد ماتوا في الثورات ومعسكرات الاعتقال.

39 ونستون تشرشل، The World Crisis: The Aftermath (لندن، ماكميلن، 1929)، ص. 235.

40 كوك، Ace of Spies، موضع كيندل 3296، نقلاً عن ملف رايلي لدى جهاز الاستخبارات السرية CX 2616.

41 المرجع السابق نفسه، الملف رقم 302330، المجلد 37، ص. 241، الأرشيفات المركزية للجهاز الأمني الفدرالي في موسكو.

42 تقرير النقيب هيل إلى مدير الاستخبارات العسكرية، المؤرَّخ 26 نوفمبر 1918، الأرشيفات الوطنية الملف FO 371/3350.

43 هيل، Go Spy the Land، ص. 3.

44 التفاصيل عن تأسيس مكتب مراقبة جوازات السفر وأرباحه مذكورة في جيفري، MI6، في الصفحتين 153-154. وقد برز عدم وجود الحصانة في تغطية كهذه في النقاش العلني لحالة فرانك فولي، رئيس محطة جهاز الاستخبارات السرية في العشرينيات والثلاثينيات، الذي أصدر العديد من التأشيرات لليهود ليذهبوا إلى بريطانيا.

45 المرحوم جون هارت، ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، في إفادته أمام لجنة تقصّي حقائق الاغتيالات في مجلس النواب الأميركي، 15 سبتمبر 1978.

46 هاورد هارت في حديث أعطاه لمركز ميلر للشؤون العامة، جامعة فيرجينيا، في 3 ديسمبر 2004. كان هارت رئيس محطة إسلام أباد خلال جهود وكالة الاستخبارات المركزية لتسليح المجاهدين في أفغانستان ودعمهم.

47 قسم الأسئلة الأكثر تكراراً لوكالة الاستخبارات المركزية على العنوان www.cia.gov.

48 إيان فليمينغ المقتبس عنه في كتاب بن ماكنتاير، Was Ian Fleming the Real 007?، التايمز، 5 أبريل 2008.

49 ذكريات ليونارد موزلي عن محادثته مع إيان فليمينغ الواردة على غلاف كتاب إدوارد فان در روور Master Spy: A True Story of Allied Espionage in Bolshevik Russia (نيويورك، سكرينر، 1981).

50 كوك، Ace of Spies، مواضع كيندل 136-139.

51 "ملاحظات نائب مدير العمليات جايمس ل. بافيت في جمعية السياسة الخارجية"، 21 يونيو 2004: المتوفرة على cia.gov (المقتطف من كيم، الفصل 9).

الفصل 2: أفضل الكذّابين على الإطلاق

1 مقابلة المؤلف مع ميلتون بيردن، 2009.

2 بيكهام سويت-إسكوت، Baker Street Irregular (لندن، مِثوين وشركائه المحدودة، 1965)، ص. 19. مثلما شرح سويت-إسكوت، وهو نفسه مجنَّدٌ في القسم D، سيأخذ الرئيس المجنَّد الجديد إلى الطابق الرابع لفندق سانت إرمين ويقول للضابط الذي يحرس المدخل: "هذا فلان. انظر إليه جيداً لأنه سيصبح واحداً منا الآن".

3 كريستوفر أندرو، The Defence of the Realm: The Authorized History of MI5، الطبعة المحدَّثة (لندن، بنغْوين، 2010)، ص. 168. تم تجنيد فيلبي في يونيو 1934.

4 جيفري ت. ريتشلسون، A Century of Spies: Intelligence in the Twentieth Century (نيويورك/أكسفورد، أكسفورد يونيفرسيتي برس، 1997)، ص. 136.

5 أندرو، The Defence of the Realm، ص. 420.

6 رغم عملها تحت عدة أسماء مختلفة، إلا أن مقرّ أجهزة الاستخبارات السوفياتية والروسية كان في لوبيانكا من العام 1920 وحتى يومنا هذا.

7 عمِلت في قسم المعلومات التابع لمديرية الاستخبارات في المديرية الرئيسة لأمن الدولة (GUGB)، والتي كانت جزءاً من بنية NKVD.

8 أندرو، The Defence of the Realm، ص. 272.

9 جينريخ بوروفيك، The Philby Files: The Secret Life of the Master Spy - KGB Archives Revealed (لندن، تايم وارنر بايبرباكس، 1995)، ص. xiv.

10 المرجع السابق نفسه، ص. 212.

11 أندرو، The Defence of the Realm، ص. 272.

12 بوروفيك، The Philby Files، المقدمة بقلم فيليب نايتلي، ص. xiv.

13 المرجع السابق نفسه، ص. 216.

14 المرجع السابق نفسه، ص. 217.

15 أندرو، The Defence of the Realm، ص. 342.

16 برقية من سورج إلى GRU، كما هو مفصّل في روبرت وايمانت، Stalin's Spy: Richard Sorge and the Tokyo Espionage Ring (لندن، آي بي توريس، 2006)، ص. 167.

17 نُيال فيرغسون، The War of the World: History's Age of Hatred (لندن، بنغوين، 2009)، الصفحتان 432-433.

18 الاقتباسان من وايمانت، Stalin's Spy، ص. 184.

19 جون لوكاريه، The Spy to End Spies: On Richard Sorge، إنكاونتر، نوفمبر 1966.

20 بوروفيك، The Philby Files، الصفحتان x-xi.

21 طلَبَ ضابط وكالة الاستخبارات المركزية عدم ذكر اسمه.

22 فيليب نايتلي، The Second Oldest Profession: Spies and Spying in the Twentieth Century (لندن، بيمليكو، 2003)، ص. 433.

23 المرجع السابق نفسه، ص. 431، وجون برادوس، Lost Crusader: The Secret Wars of CIA Director William Colby (أكسفورد يونيفرسيتي برس، 2003)، ص. 270: "بما أن كولبي كان يعتقد أن المهمة الرئيسة لمكافحة التجسّس هي وضع جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية داخل

جهاز الاستخبارات الروسي، فقد سأل أنغلتون عما فعله موظفوه لتحقيق هذا الهدف. وقد علم أن وكالة الاستخبارات المركزية لا تملك هكذا عملاء".

24 أندرو، The Defence of the Realm، ص. 364.

25 المرجع السابق نفسه، ص. 385.

26 هانس بيتْه إلى الصحافي والمؤلف والمؤرِّخ ريتشارد رودس، المقتبس عنه في Race for the Superbomb، PBS، يناير 1999.

27 نيل تويدي، Kim Philby: Father, Husband, Traitor, Spy، التلغراف، 23 يناير 2013.

28 بن ماكنتاير، A Spy Among Friends: Kim Philby and the Great Betrayal (لندن، بلومزبري، 2014)، موضع كيندل 2302. راجع أيضاً يوري مودين، My Five Cambridge Friends (نيويورك، فارّار، شتراوس وجيرو، 1994)، ص. 201.

29 ألبرت لولوشي، "مقابلة مع إذاعة صوت أميركا عن العملية Valuable Fiend"، 14 يونيو 2014: تتوفر على www.albertlulushi.com.

30 ملاحظات نائب مدير العمليات جايمس ل. بافيت في جمعية السياسة الخارجية، 21 يونيو 2004: تتوفر على www.cia.gov.

31 مقابلة مع ساندي غرايمز، الحلقة 21، 'Spies', Cold War، أرشيف الأمن القومي لجامعة جورج واشنطن، 30 يناير 1998: تتوفر على العنوان www2.gwu.edu/~nsarchiv/

32 إحدى الضربات الموفّقة كانت حصول وكالة الاستخبارات المركزية في السبعينيات على طائرة ميغ 23 سليمة مع وثائقها من مصر. ووفقاً لشخص مطّلع، تمكّن البنتاغون من توفير 8 مليارات دولار كان قد ادّخرها لإجراء أبحاث على قدراتها. فقد أصبح بإمكان سلاح الجو الأميركي الآن قيادة الطائرة فعلياً لاكتشاف مميزاتها وعيوبها.

33 مصادر مختلفة، من بينها ماركوس وولف (مع آن ماكلفوي)، Man Without a Face: The Autobiography of Communism's Greatest

Spymaster (نيويورك، بابليك أفيرز، 1997) وكريستوفر أندرو وفاسيلي ميتروخين، The Sword and the Shield: The Mitrokhin Archive and the Secret History of the KGB (نيويورك، بايزك بوكس، 2000).

34 "رغم أنهم كانوا قد وضعوا السيد غيّوم قيد التحقيق، إلا أنهم لم يحذّروا السيد برانت من أخذه في ذلك الصيف، كمعاونه الوحيد، في رحلة إجازة إلى النروج. قال السيد غيّوم لاحقاً إنه ملأ حقيبة ملفات كاملة بمستندات سرية، من بينها رسائل من الرئيس ريتشارد م. نيكسون إلى المستشار عن الاستراتيجية النووية لحلف الناتو": كريغ ر. ويتني، Gunter Guillaume, 68, is Dead: Spy Caused Willy Brandt's Fall، نيويورك تايمز، 12 أبريل 1995.

35 وولف، Man Without a Face، ص. xii.

36 كلاوس فيغريفي، Ostpolitik: How East Germany Tried to Undermine Willy Brandt، شبيغل أونلاين إنترناشيونال، 8 يوليو 2010. أُدين غونتر وكريستل غيّوم بتهمة التجسّس، وحُكم عليهما بالسجن لثلاث عشرة سنة، وثماني سنوات على التوالي. أُخلي سبيلهما في نهاية المطاف في عملية "مقايضة جواسيس" وعادا كبطلَين.

37 إيمري كاراكس، US Keeps Its Stasi Secrets Locked Up، إندبندنت، 6 مارس 1999.

38 جايمس أدامز، New Spies: Exploring the Frontiers of Espionage (لندن، بيمليكو، 1995)، ص. vii.

39 باري ج. رويدن، Tolkachev, a Worthy Successor to Penkovsky، *Studies in Intelligence* (دراسات في الاستخبارات)، المجلد 47، العدد 3، 2003: يتوفر على www.cia.gov.

40 مذكور بشكل واسع، مع مرجع محدَّد إلى دايفد وايز، Nightmover: How Aldrich Ames Sold the CIA to the KGB for $4.6 Million (نيويورك، هاربر كوليتز، 1995). وكذلك رُبرت كورنْوَل، Jeanne Vertefeuille:

CIA Officer Who Unmasked the Spy Aldrich Ames، إندبندنت، 16 يناير 2013.

41 لجنة مجلس الشيوخ لتقصّي حقائق الاستخبارات، An Assessment of the Aldrich H. Ames Espionage Case and Its Implications for U.S. Intelligence، 1 نوفمبر 1994: تتوفر على /www.fas.org/irp/congress 1994_rpt/ssci_ames.htm

42 بيان وكالة الاستخبارات المركزية عن Legacy of Ashes، 6 أغسطس 2007: يتوفر على www.cia.gov

43 طوني رينَل، September 26th, 1983: The Day the World Almost Died، دايلي مايل، 29 ديسمبر 2007.

الفصل 3: الصداقة

1 IRA Questions Bemade McGuinness، آيريش تايمز، 29 سبتمبر 2011.

2 ماتّ بورن، What is the Truth behind the Story of Stakeknife، دايلي تلغراف، 16 مايو 2003؛ Alleged Agent Statements in Full، موقع ويب BBC نيوز، 14 مايو 2003.

3 نقاش في مؤتمر رويترز للأمن، 2011.

4 أوين باوكوت، Gerry Adams Reveals Family's Abuse by His Father، الغارديان، 20 ديسمبر 2009.

5 هنري ماكدونالد، Gerry Adams Faces Investigation for Failing to Report Sexual Abuse by Brother، الغارديان، 7 أكتوبر 2013.

6 ستيفن غراي وجون غوتز، Target Britain، صنداي تايمز، 26 نوفمبر 2000.

7 من مصادر فْرُو، زائد هنري ماكدونالد، Spy Says McGuinness Did Not Fire on Bloody Sunday، الأوبزرفر، 6 مايو 2001.

8 مارتن إنغرام وغريغ هاركن، Stakeknife: Britain's Secret Agents in Ireland (ماديسون، يونيفرسيتي أوف ويسكنسن برس، 2005)، ص. 59.

9 نيل ماكاي، Exclusive: Confessions of a Secret Agent Turned Terrorist، صنداي هيرالد، 23 يونيو 2002.

10 المرجع السابق نفسه.

11 "تقرير عن محكمة التحقيق في التلميحات إلى أن أفراداً من الشرطة الإيرلندية أو موظفين آخرين في الدولة تواطأوا في إطلاق النار المميت على المراقب العام لشرطة أولستر الملكية هاري برين ومدير شرطة أولستر الملكية روبرت بيوكانان في 20 مارس 1989"، بقلم القاضي بيتر سميثويك، 21 نوفمبر 2013، ص. 278، الفقرات 15.11.10.

12 مارتن ماكغارتلاند، Fifty Dead Men Walking (لندن، جون بلايك، 2009)، الصفحتان 164–165.

13 المرجع السابق نفسه، الصفحتان 251–252.

14 تحقيق ستيفنز الثالث، نظرة عامة وتوصيات، 17 أبريل 2003، ص. 16، الجزء 4.9.

15 تقرير تحقيق كوري عن المؤامرة: باتريك فينوكين، 1 أبريل 2004، ص. 62، الجزء 1.178.

16 بيان رئيس الوزراء دايفد كاميرون عن باتريك فينوكين، 12 ديسمبر 2012: يتوفر على www.gov.uk.

17 هانسارد، نقاش مجلس العموم حول مرافق المجلس، 18 ديسمبر 2001، المجلد 377، التصنيف 151–262: يتوفر على العنوان http://hansard.millbanksystems.com

18 ويليام سكولز، Informer "Murdered on Orders of SF Man"، آيريش نيوز، 27 مايو 1986.

19 IRA Questions Bemuse McGuinness، آيريش تايمز، 29 سبتمبر 2011.

20 كل الاقتباسات من الشريط، وردّ سكاپّاتيتشي من البرنامج Insight على تلفزيون أولستر، الذي بُثّ في 15 مارس 2004.

21 نص برنامج تلفزيون أولستر.

22 نص الشهادة الشفهية التي أدلى بها اللورد ستيفتر من كيركْولبنغتون وأندي هايمن، مجلس العموم، اللجنة المشتركة عن مشروع احتجاز المتّهمين بالإرهاب (الملحق المؤقت) بيلز، 3 مايو 2011، ص. 13.

23 ليام كلارك، Dark World of Agents is Not Black and White، بلفاست تلغراف، 23 ديسمبر 2011.

24 ر. جايمس وولسي، في إفادته أمام لجنة مجلس الشيوخ الأميركي لتقصّي حقائق الاستخبارات، 2 فبراير 1993، مقتبس عنه، في جملة أمورٍ، في كتاب دوغلاس ف. غارثوف، Directors of Central Intelligence as Leaders of the U.S. Intelligence Community 1946-2005 (العاصمة واشنطن، بوتوماك بووكس، 2007)، ص. 221.

الفصل 4: ثاندربولت

1 مقتبس عنه في كتاب ستيفن دوريل، MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service (نيويورك، تاتشستون، 2000)، ص. 774.

2 مأخوذ من دفتر يوميات زانينا هولوداي، بموافقة زوجة ابنها.

3 دفتر يوميات هولوداي.

4 مقابلات المؤلف مع أنطونيادس، 2011–2014، وقائده السابق، رينوس كيرياكيدس، 2013.

5 قانون أجهزة الاستخبارات 1994، s 1.2c.

6 دفتر يوميات هولوداي.

7 نعي ليونيل سايفري، دايلي تلغراف، 10 أبريل 2012.

8 Officer's Tribute to Accused Men، التايمز، 5 نوفمبر 1959.

9 دُمِجَت دائرة الجمارك والضرائب لحكومة جلالتها مع قسم الإيرادات الداخلية في العام 2005، وأصبحت دائرة الإيرادات والجمارك لحكومة جلالتها.

10 دينيس لافوا، James "Whitey" Bulger's Capture Could Cause Trouble inside the FBI، واشنطن بوست، 25 يونيو 2011.

11 مقابلة المؤلف مع كوليتر في البرنامج الإذاعي The Heroin Connection على محطة BBC، 6 مارس 2007.

12 Thai Drug Trafficking Suspect Loses Diplomatic Immunity، بانكوك بوست، 26 أغسطس 1991.

13 شرَح المحامي المتخصص سايمون ماكّاي في رسالة: "لا يوجد أساس تشريعي يسمح بالمشاركة في الإجرام. هناك قدرة على السماح باستخدام مُخبرين وضباط سريين (لا يوجد تمييز بين وكالات الاستخبارات والشرطة). وحيثما يكون من المحتمل أن ينخرطوا في أعمال إجرامية، يمكن "الموافقة" على ذلك مسبقاً. هذا لا يعني ترخيص الإجرام بمعناه الدقيق، بل تأثيره هو أنه من غير المحتمل أن يستتبع ذلك محاكمةً بافتراض أن يتطابق مستوى الإجرام مع المستوى الذي تمت الموافقة عليه بالطبع".

14 توفي في 7 يونيو 1967 في كاشكايش، البرتغال.

الفصل 5: الجهاد

1 مايكل شوْير، Inside Out، أتلانتيك، 1 أبريل 2005.
2 مقابلة أجراها غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.
3 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.
4 المقابلة مع غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.
5 المرجع السابق نفسه.
6 عمر ناصري، Inside the Global Jihad: How I Infiltrated Al Qaeda and Was Aban doned by Western Intelligence (لندن، هورست وشركاؤه، 2006)، ص. 59.
7 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.
8 The Rise of the Islamist Terrorist Threat، www.mi5.gov.uk
9 مقابلة المؤلف مع جاك ديفاين، 2009.
10 Menaces Terroristes، www.risques.gouv.fr
11 البند 421-2-1 من القانون الجزائي، المضاف في 22 يوليو 1996: "المشاركة في أي جماعة مُنشأة أو جمعية مؤسَّسة بهدف التحضير لأي فعل من الأفعال الإرهابية المنصوص عنها في البنود السابقة ستُعتبر عملاً إرهابياً أيضاً".
12 مقابلة أجراها غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.
13 المرجع السابق نفسه.
14 المرجع السابق نفسه.
15 ناصري، Inside the Global Jihad، ص. 48.
16 المرجع السابق نفسه، ص. 52.
17 مقابلة أجراها غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.

18 هنري أ. كرامبتون، The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service (نيويورك، بنغْوين، 2012)، ص. 133.
19 المرجع السابق نفسه، ص. 134.
20 ناصري، Inside the Global Jihad، ص. 99.
21 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.
22 المرجع السابق نفسه.
23 انتقل بن لادن من المملكة العربية السعودية إلى السودان بعد غزو الكويت.
24 أندرو ستانيفورث وفريزر سامبسون (محرّران)، The Routledge Companion to UK Counter-Terrorism (أكسفورد، راوتلدج، 2012)، ص. 136.
25 مقابلة أجراها غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.
26 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.
27 سمعه سجين سابق، أجرى المؤلف مقابلة معه في اليمن، كان في الزنزانة المجاورة لزنزانة الليبي في أفغانستان.
28 ناصري، Inside the Global Jihad، ص. 152.
29 المرجع السابق نفسه، ص. 165.
30 طوني جونز في حديث مع محلّل وكالة الاستخبارات المركزية السابق، شركة البث الأسترالية، 17 نوفمبر 2006. أخبَر شوْير النيويورك تايمز أيضاً: "لم أر قطّ أي شيء من تلك الفترة بدا حقيقياً إلى هذا الحد": مارك لاندلر، Jihadist Double Agent Writes of Derring-Do، 16 نوفمبر 2006.
31 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.
32 ناصري، Inside the Global Jihad، ص. 250.
33 المرجع السابق نفسه، ص. 252.
34 مقابلة المؤلف مع ناصري، مايو 2013.

35 من النسخة التي رُفعت عنها السرية "تحقيق مشترك في نشاطات مجتمع الاستخبارات قبل هجمات 11 سبتمبر 2001 الإرهابية وبعدها"، ديسمبر 2002، النتائج رقم 11، ص. 90.

36 مقابلة أجراها غوردون كوريرا، نيوزنايت، محطة BBC Two، 16 نوفمبر 2006.

37 كريغ ويتلوك، After a Decade at War with West, al-Qaeda Still Impervious to Spies، واشنطن بوست، 20 مارس 2008.

38 مايكل شوْير، Why It's So Hard to Infiltrate al-Qaeda، أتلانتيك، 1 أبريل 2005.

الفصل 6: الشراء على مسؤولية الشاري

1 بيتر تايلور، The Spies Who Fooled the World، بانوراما، محطة BBC Two، 31 مايو 2013.

2 لجنة قدرات الاستخبارات الأميركية بشأن أسلحة الدمار الشامل، التقرير إلى الرئيس، 31 مارس 2005، الطبعة الرسمية، الصفحتان 11 و48 (سأشير إليه من الآن وصاعداً بتقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل).

3 بوب دروغن، Curveball: Spies, Lies and the Con Man Who Caused a War (نيويورك، راندوم هاوس، 2007)، ملاحظات المؤلف، ص. xi.

4 روبرت درايفوس وجايسن فَست، The Lie Factory، ماذر جونز، يناير- فبراير 2004.

5 Lexington وThe Power behind the Throne، الإيكونومست، 21 ديسمبر 2000.

6 أندرو غيليغان، I Asked My Intelligence Source Why Blair Misled Us ...، مايل أون صنداي، 1 يونيو 2003.

7 تقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل، ص. 48.

8 جورج ج. تينيت، إفادته على موقعه على الويب:
www.georgejtenet.com/curveball.html

9 تقرير باتلر، النقطة 330، ص. 80.

10 غوردون كوريرا، MI6: Life and Death in the British Secret Service (لندن، فينيكس بايرباكس الكتاب الإلكتروني، 2012)، موضع كيندل 7388.

11 Hauptstelle für Befragungswesen (أو HBW).

12 الحواشي السفلية لتقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل: "أكّدت الاستخبارات البشرية الدفاعية أنها نشرت 95 تقريراً من كورفبول. وكالة الاستخبارات الدفاعية، Memorandum from Director, DIA Re: Curveball Background (14 يناير 2005)".

13 مارتن تشولوف وهيلين بيدّ، Defector Admits to WMD Lies That Triggered Iraq War، الغارديان، 15 فبراير 2011.

14 ملاحظات وزير الخارجية كولن باول إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة، 5 فبراير 2003: تتوفر النسخة على http://2001-2009.state.gov/secretary/former/powell/remarks/2003/17300.htm

15 مارتن تشولوف وهيلين بيدّ، Defector Admits to WMD Lies That Triggered Iraq War، الغارديان، 15 فبراير 2011.

16 بيتر تايلور، The Spies Who Fooled the World، بانوراما، محطة BBC Two، 31 مايو 2013.

17 تقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل، الملاحظة 274 من الفصل 1، ص. 217.

18 لجنة مجلس الشيوخ الأميركي لتقصّي حقائق الاستخبارات، Report on the U.S. Intelligence Community's Prewar Intelligence Assessments on Iraq، 7 يوليو 2004، ص. 154.

19 بريد لس الإلكتروني مذكور في المرجع السابق نفسه، الصفحتان 155-156.

20 تقرير ستيفن غراي، Iraq War Intelligence Probed، نيوزنايت، محطة BBC Two، 30 مارس 2008.

21 تقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل، الصفحتان 91-92، والملاحظتان 292 و 293، الفصل 1.
22 المرجع السابق نفسه، ص. 93.
23 المرجع السابق نفسه.
24 مقابلات هاتفية ومراسلات بالبريد الإلكتروني مع المؤلف.
25 تقرير لجنة أسلحة الدمار الشامل، ص. 85، مع تفاصيل إضافية في الملاحظة 258، الفصل 1.
26 المرجع السابق نفسه، الملاحظة 242.
27 ملاحظات زوّد بها ضابط كبير متقاعد من جهاز الاستخبارات السرية.
28 شهادة تشيلكوت من SIS1، ص. 18.
29 شهادة السير ريتشارد ديرلوف أمام لجنة تشيلكوت في 16 يونيو 2010، الصفحات 87-89.
30 شهادة تشيلكوت من SIS3، ص. 17.

الفصل 7: انكشاف التغطية

1 خوسيه ماريا إيرُوجو، " Si atacamos el metro de Barcelona los servicios de urgencia no pueden llegar" ["إذا هاجمنا مترو برشلونة، فستكون خدمات الطوارئ غير قادرة على النزول إلى هناك"]، الباييس، 26 يناير 2008. أُخذت تفاصيل رحلة عاصم إلى برشلونة وتحرّكاته هناك من وثائق الشرطة، وشهادة F1 في المحكمة، وتتبّع المؤلف لخطوة F1 في 2013.
2 شهادة F1 في المحكمة، تم تزويد المؤلف بتسجيل صوتيّ.
3 جماعة التبليغ والدعوة محظورة في إيران وروسيا وطاجكستان وتركمانستان وأوزبكستان. المصدر: إيغور روتار، The Tablighi Jamaat: A Soft Islamization from the Ferghana Valley to Russia's Turkic Regions?، أوراسيا دايلي مونيتور، المجلد 10، العدد 12، 23 يناير 2013.

4 غراهام كيلي وبول هايفن، Spain, France at Odds over Terror Probe، موقع ويب USA توداي، 8 فبراير 2008.

5 منذ نهاية 2005؛ شهادة F1 في المحكمة، الملاحظات ص. 21.

6 شهادة F1 في المحكمة، الملاحظات ص. 30.

7 خوسيه ماريا إيرُوجو، "Si atacamos el metro de Barcelona los servicios de urgencia no pueden llegar" ["إذا هاجمنا مترو برشلونة، فستكون خدمات الطوارئ غير قادرة على النزول إلى هناك"]، البايس، 26 يناير 2008.

8 تطبيق الحرس المدني لأذونات التفتيش، 18 يناير 2008، بموافقة راستروس دي ديكسان: http://rastrosdedixan.wordpress.com

9 حُكم المحكمة رقم 1.140/2010، الاستئناف رقم 10256/2010، المحكمة العليا الإسبانية، مدريد، 29 ديسمبر 2010 (سأشير إليه من الآن وصاعداً بوثيقة الاستئناف)، ص. 5.

10 وثيقة الاستئناف، ص. 5.

11 المرجع السابق نفسه، ص. 32.

12 المرجع السابق نفسه، الصفحتان 6 و32.

13 شهادة F1 في المحكمة.

14 راجع المعجم.

15 يوروبا برس، "El servicio secreto francés convocó de urgencia al CNI en Navidad para informarle de la trama terrorista" ["استدعى جهاز الاستخبارات الفرنسية مركز الاستخبارات الوطنية بشكل عاجل في 25 ديسمبر لإبلاغهم بوجود مؤامرة إرهابية"]، 2 فبراير 2008. وقد انكشف وجود مُخبر محمي عندما ظهر المشبوهون في المحكمة في 23 يناير ونُشر ذلك في صحيفتَي ألموندو و20مينوتس، بعد أن أمر القاضي بأن يبقوا في السجن في 23 يناير. نشرت البايس الخبر أيضاً في 24 يناير.

16 أول تقرير رسمي للحرس المدني، 23 يناير 2008، ص. 4.

17 أنطونيو باكيرو وجوردي كوراشان، "Abortado en BCN un gran atentado de Al Qaeda" ["إحباط هجوم كبير لتنظيم القاعدة في برشلونة"]، إلبيريوديكو دي كاتالونيا، 20 يناير 2008.

18 اقتُبس كلام غارثون وماكّونيل في كتاب إيلين سكيولينو، Terror Threat from Pakistan Said to Expand، نيويورك تايمز، 10 فبراير 2008.

19 غراهام كيلي وبول هايفن، Spain, France at Odds over Terror Probe، موقع ويب USA توداي، 8 فبراير 2008.

20 إيلين سكيولينو، Terror Threat from Pakistan Said to Expand، نيويورك تايمز، 10 فبراير 2008.

21 كريغ ويتلوك، After a Decade at War with West, al-Qaeda Still Impervious to Spies، واشنطن بوست، 20 مارس 2008.

22 غراهام كيلي وبول هايفن، Spain, France at Odds over Terror Probe، موقع ويب USA توداي، 8 فبراير 2008.

23 Al-Qaeda's White Army of Terror، صحيفة سكوتسمان، 12 يناير 2008.

24 مورتن ستورم، مع تيم ليستر وبول كرويكشانك، Agent Storm: My Life Inside al-Qaeda (لندن، فايكنغ، 2014).

25 ويكيليكس: هوية البرقية 10MADRID78، الهوية #245306، مؤرَّخة 25 يناير 2010.

26 روشان جمال خان، إفادته خلال محاكمته.

27 المدوَّنة بإدارة أخ روشان جمال خان وعائلته: roshan-jamal-khan.blogspot.co.uk/2009/12/motive-for-association.html

28 غراهام كيلي وبول هايفن، Spain, France at Odds over Terror Probe، موقع ويب USA توداي، 8 فبراير 2008.

29 وثيقة الاستئناف، الصفحات 116 و121-122.

الفصل 8: إرادة الله

1 القرآن الكريم، سورة الأنفال: يتوفر على http://quran.com/8/30
2 خطاب تنصيب الرئيس أوباما: يتوفر على www.whitehouse.gov/the_press_office/President_Barack_Obamas_Inaugural_Address
3 The Appearance of the Mahdi، سُنن ابن ماجه، المجلد 1، الكتاب 36، الحديث 4084.
4 "متى ستشرب كلماتي من دمي؟": تتوفر على www.ummah.com ونُشرت لأول مرة على مواقع ويب المقاتلين في 27 ديسمبر 2008.
5 مؤسسة السحاب للإعلام الإسلامي مقابلة مع همّام البلوي نُشرَت في 27 سبتمبر 2009 (سأشير إليها من الآن وصاعداً بمقابلة السحاب).
6 مقابلة السحاب.
7 المرجع السابق نفسه.
8 ويكيليكس: هوية البرقية 07ISLAMABAD5283، "باكستان: محاولة التنصّت من طائرات التحالف"، مؤرَّخة 14 ديسمبر 2007.
9 مؤسسة أميركا الجديدة: تتوفر على http://counterterrorism.newamerica.net/drones
10 ف. م. بيغُوم، Observations on the Double Agent، دراسات في مجلة الاستخبارات، 1962؛ رُفعت عنها السرية ونُشرت في 18 سبتمبر 1995: تتوفر على www.cia.gov
11 ستيف كول، Ghost Wars (لندن، بنغْوين، 2005)، ص. 87.
12 المرجع السابق نفسه.
13 عمر ناصري، Inside the Global Jihad: How I Infiltrated Al Qaeda and Was Abandoned by Western Intelligence (لندن، هورست وشركاؤه، 2006)، ص. 234.

14 The al-Qaeda Manual, Part 19، تم استخراجه في 1 نوفمبر 2013 من www.usborderpatrol.com/Border_Patrol1803_19.htm

15 المرجع السابق نفسه.

16 براين فيشمان، Al-Qaeda's Spymaster Analyzes the U.S. Intelligence Community، 6 نوفمبر 2006: يتوفر على www.ctc.usma.edu

17 The Myth of Delusion: يتوفر من مجموعة مصادر، من بينها http://counterterrorismblog.org/site-resources/images/Myth-of-Delusion

18 مقابلة السحاب.

19 جوبي واريك، The Triple Agent: The al-Qaeda Mole Who Infiltrated the CIA (نيويورك، دابلداي، 2011)، مواضع كيندل 813–820.

20 مقابلة السحاب.

21 المرجع السابق نفسه.

22 المرجع السابق نفسه.

23 Difference Engine: Unblinking Eye in the Sky، الإيكونومست، 13 يناير 2012.

24 واريك، The Triple Agent، موضع كيندل 1409. قُتل محسود ليلة 5–6 أغسطس وظهر همّام في أواخر أغسطس.

25 مقابلة السحاب.

26 المرجع السابق نفسه.

27 "مقابلة مع الأخ أبي دجانة الخُرساني، وهو مدوّن مشهور في المنتديات الجهادية، وقادم جديد إلى أرض خُرسان"، نُشرَت مترجمة إلى الإنكليزية في Vanguards of Khorasan، العدد 15، 26 سبتمبر 2009.

28 المرجع السابق نفسه.

29 مقابلة السحاب.

30 المرجع السابق نفسه.

31 ف. م. بيغُوم، Observations on the Double Agent، دراسات في مجلة الاستخبارات، 1962؛ رُفعت عنها السرية ونُشرت في 18 سبتمبر 1995: تتوفر على www.cia.gov

32 واريك، The Triple Agent، موضع كيندل 1840. كان بانيتا مدير وكالة الاستخبارات المركزية من العام 2009 إلى العام 2011.

33 المرجع السابق نفسه، موضع كيندل 1999.

34 مقابلة السحاب.

35 ف. م. بيغُوم، Observations on the Double Agent، دراسات في مجلة الاستخبارات، 1962؛ رُفعت عنها السرية ونُشرت في 18 سبتمبر 1995: تتوفر على www.cia.gov

36 مثلما كشفت سجلات الجيش التي نشرها موقع ويكيليكس. راجع، مثلاً، www.theguardian.com/world/datablog/2010/jul/25/wikileaks-afghanistan-warlogs-glossary

37 ذُكر لأول مرة في كتاب بوب وودوارد، Obama's Wars (نيويورك، سايمون أند شوستر، 2010) والمقالات المتعلقة بالكتاب. راجع، في جملة أمور، ستيف لوكسنبرغ، Bob Woodward Book Details Obama Battles with Advisers over Exit Plan for Afghan War، واشنطن بوست، 22 سبتمبر 2010.

38 إيان شابيرا، For CIA Family, a Deadly Suicide Bombing Leads to Painful Divisions، واشنطن بوست، 28 يناير 2012.

39 جوبي واريك، CIA: Systemic Failures Led to Suicide Attack، واشنطن بوست، 20 أكتوبر 2010.

40 مقابلة السحاب.

41 بث فيديوي في برنامج بيتر تايلور الإذاعي، The Secret War on Terror، محطة BBC Two، 14 مارس 2011.

42 Prompting the Dying Person، سُنن أبي داود، الكتاب 20، الحديث 3110.

43 مقابلة السحاب.

44 لان شابيرا، For CIA Family, a Deadly Suicide Bombing Leads to Painful Divisions، واشنطن بوست، 28 يناير 2012.

45 المرجع السابق نفسه.

46 كان بلاك ووتر اسم شركة أمن خاص وتدريب تعمل في مختلف مناطق الحرب، بما في ذلك العراق وأفغانستان. في العام 2009، تم تغيير اسم بلاك ووتر إلى Xe Services، ثم مرة أخرى في العام 2011 إلى اسم جديد آخر هو Academi (أكاديمي).

47 بموافقة الدكتور جارت براخمان، الخبير في التفكير المتطرّف والتشدّد. نُشرت القصيدة على المنتدى الفرعي الإنكليزي لمنتدى الفلوجة في أوائل يناير 2010.

الفصل 9: الثقة بالآلة

1 روبرت بيير، See No Evil (لندن، أرو بووكس، 2002)، ص. 310.

2 جاين ماير، The Predator War، نيويوركر، 26 أكتوبر 2009.

3 أُجريت مقابلة معه لصالح Kill/Capture، فرونتلاين، PBS، كتابة وإنتاج دان أدج وستيفن غراي، 10 مايو 2011.

4 تم الحصول على الفيديو من Kill/Capture، فرونتلاين، PBS.

5 "Afghan Election Campaign Workers "Killed in Air Strike، موقع ويب BBC نيوز، 2 سبتمبر 2010.

6 النشرة الصحفية لقوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن (ISAF) التابعة للناتو العدد 2010-09-CA-027، Coalition Forces Conduct Precision Strike against Senior IMU Member in Takhar Province، 2 سبتمبر 2010.

7 "Afghan Election Campaign Workers "Killed in Air Strike، موقع ويب BBC نيوز، 2 سبتمبر 2010.

8 النشرة الصحفية لقوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن (ISAF) التابعة للناتو العدد 2010-08-CA-134، Assessment of Civilian Casualties in Takhar Complete، 12 سبتمبر 2010.

9 إيان س. ليفينغستون ومايكل أوهنلون، Afghanistan Index، مؤسسة بروكينغز، 10 يناير 2014.

10 اللواء مايكل ت. فلين، النقيب ماتّ بوتينغر وبول د. باتشيلر، Fixing Intel: A Blueprint for Making Intelligence Relevant in Afghanistan، الصوت من منشورات فيلد، يناير 2010، مركز الأمن الأميركي الجديد.

11 مقابلة المؤلف مع جون ناجل لصالح PBS فرونتلاين.

12 قصة حوار سَمبل مع حركة طالبان في هلمند وطرده من أفغانستان مشروحة في كتاب ستيفن غراي، Operation Snakebite (لندن، فايكنغ، 2009).

13 Will the Real Mohammad Amin Please Stand Up: A Case Study in the Practical Difficulties of Using Network Analysis as a Tool for Targeting، اكليبس غروب. زوّد بها مخرجها، دْوين كلاريدج، المؤلفَ ونُشرَت لأول مرة على موقع اكليبس في مارس 2011 (سأشير إليها من الآن وصاعداً بتقرير اكليبس).

14 تقرير اكليبس.

15 كايت كلارك، The Takhar Attack, Targeted Killings and the Parallel Worlds of US Intelligence and Afghanistan، تقرير لشبكة محلّلي أفغانستان، مايو 2011، ص. 12.

16 مقابلة المؤلف مع دْوين كلاريدج، نوفمبر 2013.

17 مقابلة المؤلف مع الجنرال دايفد بترايوس لصالح PBS فرونتلاين.

18 أخبرني مسؤول أميركي أنه "تم تحديد محمد أمين كهدفنا. إنه عمّ عبد الرحمن ووالد جميل وفدى". لم تكن عائلته الحقيقية في كابول بل في باكستان. "يملك منزلاً مع زوجته في شامساتو، في وكالة بيشاور".

19 مقابلة أجراها المُنتِج شعيب شريفي لصالح PBS فرونتلاين. أكّد المُسنّ أيضاً أن "عالم"، الذي أسماه "المولوي عالم"، يملك منزلاً في باكستان وأن والده كان مُجاهداً قتله الروس. قال بشكل صحيح إن ابن أخيه كان في وصاية مديرية الأمن الوطني، وهو الجهاز الأمني الوطني الأفغاني.

20 Afghanistan: Suicide Blast Kills Top Police Commander، موقع ويب BBC نيوز، 29 مايو 2011.

21 مقابلة المؤلف مع مايكل سَمبل لصالح PBS فرونتلاين.

الفصل 10: الجاسوس صانع السلام

1 Obituary: Nicholas Elliott، الإندبندنت، 18 أبريل 1994.

2 مايكل فايس، Useful Idiots، نيو كرايتريون، 12 أغسطس 2010.

3 المعلومات التي تلي عن ألستير كرُوك تأتي من مقابلات المؤلف في بيروت، مارس 2013.

4 فريدريك مونتاغ وارن كرُوك كان ابن روبرت وارن كرُوك، المولود في العام 1860 (طبيب وجرّاح).

5 رسالة من وارن كرُوك، مؤرَّخة 7 فبراير 1918، مشار إليها في كتاب نايثن وايز، Playing Soldiers: Sydney Private School Cadet Corps and the Great War، مجلة المجتمع التاريخي الأسترالي الملكي، المجلد 96، العدد 2، ديسمبر 2010، ص. 197. في 31 ديسمبر 1919، أشارت سيدني مورنينغ هيرالد إلى عودة وارن القصيرة إلى المنزل: "الملازم وارن كرُوك، من فوج بنادق غورخا، الهند، فقط ابن الدكتور وارن كرُوك، من كوردو، عاد إلى أستراليا. كان قد غادر كرقيب في العام 1915، وحارب في مصر وغاليبولي وفرنسا، ونال الميدالية العسكرية وجائزتها. أصبح ضابطاً في الجيش الهندي الآن، وهو في إجازة مدتها ثمانية أشهر".

6 فلاديمير بوتين، First Person: An Astonishingly Frank Self-Portrait by Russia's President (نيويورك، بابليك أفيرز، 2000)، ص. 23.

7 دايفد ماكيتريك (المحرّر)، Lost Lives: The Stories of the Men, Women and Children Who Died as a Result of the Northern Ireland Troubles (إدنبرة،ماينستريم بابليشينغ، 2008)، ص. 663.

8 جايمس هاركن، Middleman in the Middle East، الفاينننشل تايمز، 2 يناير 2009.

9 مقابلة المؤلف مع ميلتون بيردن لصالح Mint Tea with the Terrorists (شاي بالنعناع مع الإرهابيين)، نيو ستايتسمان، 11 أبريل 2005.

10 ستيفن غراي، Let's Talk: ex-MI6 Man Plans Terror Summit، صنداي تايمز، 12 ديسمبر 2004.

11 آلان ج. كوبرمان، The Stinger Missile and U.S. Intervention in Afghanistan، بوليتيكل ساينس كورترلي، المجلد 114، العدد 2، صيف 1999. تم اقتباس دراسته في كتاب بيتر دالي سْكوت، Drugs, Oil, and War: The United States in Afghanistan, Colombia, and Indochina (ميريلاند، روومن وليتلفيلد، 2004)، ص. 5.

12 سوزان غولدنبرغ، Rioting as Sharon Visits Islam Holy Site، الغارديان، 29 سبتمبر 2000.

13 بيتر بومونت، How a British Coup Ended Siege، الأوبزرفر، 12 مايو 2002.

14 تفاصيل عديدة من بومونت، كما من قبل.

15 "تمت مصادرة المستند في (نوفمبر 2002) في مجمّع الأمن الوقائي للسلطة الفلسطينية في غزة"، نشره في 2 سبتمبر 2005، مركز مائير عاميت للاستخبارات ومعلومات الإرهاب، إسرائيل: يتوفر على www.terrorism-info.org.il/en/article/19270

16 ألستير كرُوك، Permanent Temporariness، لندن ريفيو أوف بووكس، المجلد 3، العدد 5، 3 مارس 2011 (سأشير إليه من الآن وصاعداً بمقال كرُوك للندن ريفيو أوف بووكس).

17 المستندات المسرَّبة إلى قناة الجزيرة، والتي سمّوها "وثائق المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية".
18 مقال كرُوك للندن ريفيو أوف بووكس.
19 إنيغو غيلمور، Ex-MI6 Officer Acts as Broker in Hamas Talks، دايلي تلغراف، 1 سبتمبر 2002.
20 كريس ماكغريل، UK Recalls MI6 Link to Palestinian Militants، الغارديان، 24 سبتمبر 2003.
21 السير ريتشارد ديرلوف، إفادته أمام لجنة تشيلكوت، 13 يوليو 2010، ص. 55.

الفصل 11: التلقيح

1 هانسارد، نقاش مجلس العموم حول الشؤون الدولية، 10 نوفمبر 1932، المجلد 270، التصنيف 641-525: يتوفر على hansard.millbanksystems.com
2 تفاصيل المجمّع ورسومه البيانية زوّدت بها وزارة الدفاع الأميركية: تتوفر على www.pbs.org/wnet/need-to-know/security/seen-from-the-skywhere-bin-laden-was-killed/9013
3 مقابلة مع الأميرال ويليام ماكرايفن، برنامج The Situation Room على محطة CNN، 28 يوليو 2012.
4 بيتر ل. بيرغن، Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden - From 9/11 to Abbottabad (نيويورك، كراون بابليشرز، 2012)، ص. 230.
5 مارك بودن، The Finish: The Killing of Osama bin Laden (غروف برس المملكة المتحدة، 2012)، موضع كيندل 1511.
6 قيل هذا لأول مرة في الرواية غير المرخّص لها للغارة على لسان جندي البحرية مارك أوين، No Easy Day (نيويورك، بنغوين، 2012)، لكن ظهر المشهد أيضاً في الفيلم السينمائي Zero Dark Thirty.

7 مثلما شرح غاري شروين، قائد أحد فرِق jawbreaker لوكالة الاستخبارات المركزية التي أُرسلت إلى أفغانستان، في كتابه الأول في (نيويورك، بريسيديو برس، 2005)، ص. 38.

8 لجنة مجلس الشيوخ لتقصّي حقائق الاستخبارات، "دراسة اللجنة لبرنامج وكالة الاستخبارات المركزية للاحتجاز والاستجواب" (سأشير إليها من الآن وصاعداً بتقرير مجلس الشيوخ عن التعذيب)، رُفعت عنها السرية بتاريخ 3 ديسمبر 2013، الصفحات 378-400.

9 اقتبست عن لسانه ندى باكوس، وهي محلّلة سابقة لدى وكالة الاستخبارات المركزية، في ZDT" Gets the CIA Wrong"، صالون، 18 يناير 2013.

10 بيرغن، Manhunt، ص. 90.

11 المرجع السابق نفسه، ص. 100.

12 بودن، The Finish، موضع كيندل 1680.

13 السيناتور جون ماكّين، سجل الكونغرس (مجلس الشيوخ)، 12 مايو 2011: يتوفر على www.fas.org/irp/congress/2011_cr/torture.html

14 تقرير مجلس الشيوخ عن التعذيب، ص. 384.

15 السيناتور جون ماكّين، سجل الكونغرس (مجلس الشيوخ)، 12 مايو 2011: يتوفر على www.fas.org/irp/congress/2011_cr/torture.html

16 تقرير مجلس الشيوخ عن التعذيب، ص. 399.

16 بودن، The Killing، موضع كيندل 1794.

17 المرجع السابق نفسه، ص. 382.

19 مثلما فصّل الضابطان السابقان في قسم مكافحة الإرهاب في وكالة الاستخبارات المركزية غاري شروين وهانك كرامبتون في مقابلتين منفصلتين. أُجريت المقابلة مع شروين في البرنامج التلفزيون The Dark Side لمحطة PBS فرونتلاين، يونيو 2006. وأُجريت المقابلة مع كرامبتون في البرنامج التلفزيوني 60 Minutes لمحطة CBS، 13 مايو 2012.

20 بيرغن، Manhunt، ص. 131.

21 الاقتباسان من ندى باكوس، "ZDT" Gets CIAWrong، صالون، 18 يناير 2013.

22 هنري أ. كرامبتون، The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service (نيويورك، بنغوين، 2012)، ص. 71.

23 المرجع السابق نفسه، ص. 70.

24 مقابلة المؤلف مع بول بيلار، نوفمبر 2013.

25 مقابلة المؤلف ومراسلات البريد الإلكتروني مع السير دايفد أوماند، 2010 و 2014.

26 المرجع السابق نفسه.

27 موقع ويب BBC نيوز، 19 ديسمبر 2013: يتوفر على www.bbc.co.uk/news/uk-25450555

28 جايسن بينيتو، British Terrorist Plotted Wave of Attacks to Emulate 11 September، الإندبندنت، 7 نوفمبر 2006.

29 باتريشيا هورتادو، Afzali, Alleged Terror Ally, Says He's "Perjury Trap" Victim، Bloomberg.com، 12 ديسمبر 2009.

30 كارين دي يونغ، Obama to Get Report on Intelligence Failures in Abdulmutallab Case، واشنطن بوست، 31 ديسمبر 2009.

31 ويليام إ. بورروز، مؤلف Deep Black: Space Espionage and National Security، الذي اقتبس عنه جيفري ت. ريتشلسون، The Spies in Space، مجلة Air and Space، أعيدت طباعتها في سجل الكونغرس، 26 نوفمبر 1991.

32 فيرنون لوب، Test of Strength، واشنطن بوست، 29 يوليو 2001.

33 ملاحظات المؤلف حول خطاب مايكل شيهان في مؤتمر، Intelligence in the Age of National Security، 1 فبراير 2008، من تنظيم مركز القانون والأمن في جامعة نيويورك.

34 روبرت فيركيك، How MI5 Blackmails British Muslims، الإندبندنت، 21 مايو 2009.

35 مقابلة ريتشارد واطسون مع أبي نسيبة، نيوزنايت، محطة BBC Two، 24 مايو 2013.

36 حُكم على مايكل أديبولاجو بالسجن لمدى الحياة؛ وحُكم على مايكل أديبوالي بالسجن لمدى الحياة أيضاً مع حد أدنى قدره 45 سنة.

37 مورتن ستورم، مع تيم ليستر وبول كرويكشانك، Agent Storm: My Life Inside al-Qaeda (لندن، فايكنغ، 2014)، ص. 268.

38 تشارلي سافاج، Former F.B.I. Agent to Plead Guilty in Press Leak، نيويورك تايمز، 23 سبتمبر 2013.

39 مارك هوزنبول، Did White House "Spin" Tip a Covert Op?، رويترز، 18 مايو 2012.

40 هذه العملية التابعة لقيادة العمليات الخاصة المشتركة من أجل دعم غارات الطائرات بدون طيّار في باكستان برزت من تقارير البرنامج التلفزيوني Kill/Capture، فرونتلاين، PBS، كتابة وإنتاج دان أدج وستيفن غراي، مايو 2011. كان المؤلف قد نشر بعض التفاصيل لأول مرة في مقابلة أجراها مع موقع PBS على العنوان: http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/afghanistan-pakistan/secret-war/jsoc-using-captured-militants-toanalyze-intel/

41 "في العام 2013، فقط ثلاثة بلدان (أفغانستان ونيجيريا وباكستان) بقيت تعاني من انتشار فيروس شلل الأطفال، وقد انخفض ذلك العدد في أكثر من 125 بلداً في العام 1988": ورقة حقائق منظمة الصحة العالمية العدد 114، شلل الأطفال، أبريل 2013.

42 رسالة تفاعل، 21 فبراير 2012: تتوفر على s3.documentcloud.org/documents/322222/interaction-afridi-letter.pdf

43 ذو الفقار علي ومارك مانييه، Polio Worker, 2 Police Officers Slain in Pakistan، لوس أنجلوس تايمز، 13 ديسمبر 2013.

الفصل 12: الجاسوس الجيد

1 صَن تزو، فن الحرب، الفصل الثالث، المقطع 18، ترجمة ليونيل جيلز: يتوفر على http://classics.mit.edu/Tzu/artwar.html

2 Cloak, Dagger and a Blond Wig? FSB Says CIA Agent Nabbed in Moscow، RT.com، 14 مايو 2013.

3 المرجع السابق نفسه.

4 المرجع السابق نفسه.

5 ميلتون بيردن، The Moscow Rules Still Rule، فورين بوليسي، 17 مايو 2013.

6 Alexander Litvinenko Death: UK Announces Public Inquiry، موقع BBC نيوز، 22 يوليو 2014.

7 إريك شميت، مايكل س. شميدت وإيلين باري، Bombing Inquiry Turns to Motive and Russian Trip، نيويورك تايمز، 20 أبريل 2013.

8 الميزانيات المجتمعة لمكتب الاستطلاع الوطني ووكالة الأمن القومي ووكالة الاستخبارات الجيوفضائية الوطنية تساوي 26 مليار دولار.

9 ويلسون أندروز وتود ليندمان، $52.6 Billion: The Black Budget، واشنطن بوست، نشر 29 أغسطس 2013: يتوفر على العنوان www.washingtonpost.com/wp-srv/special/national/black-budget/

10 بول لويس وروب إيفانز، Police Spies Court Case Suggests Sexual Relations with Activists Were Routine، الغارديان، 17 يناير 2013.

11 حُكم محكمة العدل العليا في إنكلترا 32 [لعام 2013] (QB)، القضية رقم HQ11X03952، 17 يناير 2013: يتوفر على www.bailii.org/ew/cases/EWHC/QB/2013/32.html

12 صَن تزو، فن الحرب، الفصل 1، "وضع الخطط"، النقطة 18، والفصل 13، "استخدام الجواسيس"، النقطة 18.

13 جنيفر إ. سيمز وبورتن ل. جربر (محرّران)، Transforming U.S. Intelligence (العاصمة واشنطن، جورج تاون يونيفرسيتي برس، 2005)، ص. 86.

14 راجع http://www.theguardian.com/world/2013/jul/31/nsa-top-secret-programonline-data

15 ريتشارد رُوبن، Cash Abroad Rises $206 Billion as Apple to IBM Avoid Tax، بلومبرغ نيوز، 12 مارس 2014.

16 ونستون تشرشل، The Second World War: Vol. 1, The Gathering Storm (لندن، كاسيل وشركاؤه، 1948)، ص. 105.

17 حالة القوى النووية في العالم 2013، اتحاد العلماء الأميركيين: يتوفر على www.fas.org/programs/ssp/nukes/nuclearweapons/nukestatus.html

18 جون أبدايك، The Complete Henry Bech (لندن، بنغوين، 2006)، موضع كيندل 148.

19 شَرَح تلك الأفكار في كتاب جون روب، Brave New War: The Next Stage of Terrorism and the End of Globalization. How They Organize and Operate in Iraq and Beyond (نيوجرسي، وايلي وأولاده، 2007).

20 جايك كيريدج، Hay Festival 2013: John le Carré on His New Novel, A Delicate Truth، دايلي تلغراف، 25 مايو 2013.

21 ماركوس وولف في مقابلة من العام 1998 للبرنامج Cold War على محطة CNN Special: يتوفر على http://archive.is/LI9N8

22 مقابلة غوردون كوريرا مع اوليغ غورديفسكي، والمقتبس عنها في كتاب غوردون كوريرا، MI6: Life and Death in the British Secret Service (لندن، الكتاب الإلكتروني لفينيكس بايبرباكس)، موضع كيندل 5473.

23 السير ريتشارد ديرلوف، عند إجراء مقابلة معه كجزء من النقاش The Global Threat of Terror في مهرجان آسبن للأفكار 2006: يتوفر على www.aspenideas.org/session/global-threat-terror

لائحة المراجع

أجي، فيليب، Inside the Company: CIA Diary (هارموندسورث، بنغوين، 1975)

أحمد، نافذ مصدق، The London Bombings: An Independent Inquiry (لندن، جيرالد داكوورث وشركاؤه، 2006)

أدامز، جايمس، New Spies: Exploring the Frontiers of Espionage (لندن، بيمليكو، 1995)

ألدريتش، ريتشارد ج.، GCHQ: The Uncensored Story of Britain's Most Secret Intelligence Agency (لندن، هاربر برس، 2011)

أندرو، كريستوفر، The Defence of the Realm: The Authorized History of MI5، الطبعة المحدَّثة (لندن، بنغوين، 2010)

أندرو، كريستوفر، وغوردييفسكي، اوليغ، Instructions from the Centre: Top Secret Files on KGB Global Operations 1975-1985 (لندن، هودّر وستراوتن، 1993)

أندرو، كريستوفر، وميتروخين، فاسيلي، The Mitrokhin Archive: The KGB in Europe and the West (لندن، بنغوين، 2000)

أندرو، كريستوفر، وميتروخين، فاسيلي، The Sword and the Shield: The Mitrokhin Archive and the Secret History of the KGB (نيويورك، بايزك بوكس، 2000)

إنغرام، مارتن، وهاركن، غريغ، Stakeknife: Britain's Secret Agents in Ireland (ماديسون، يونيفرسيتي أوف ويسكنسن برس، 2005)

أوربن، مارك، UK Eyes Alpha: The Inside Story of British Intelligence (لندن، فابر أند فابر، 1996)

أولسن، جايمس م.، Fair Play: The Moral Dilemmas of Spying (نبراسكا، بوتوماك بووكس، 2006)

إيغناتيوس، دايفد، Agents of Innocence (نيويورك، و. و. نورتون، 1987)

بامفورد، جايمس، Body of Secrets: How America's NSA and Britain's GCHQ Eavesdrop on the World (لندن، أرو بووكس، 2002)

بامفورد، جايمس، The Shadow Factory: The Ultra-Secret NSA from 9/11 to the Eavesdropping on America (نيويورك، أنكور بووكس، 2009)

بايج، بروس، ليتش، دايفد، نايتلي، فيليب، ولوكاريه، جون، Philby: The Spy Who Betrayed a Generation (لندن، سْفير، 1978)

باينتون، روي، Honoured by Strangers: The Life of Captain Francis Cromie CB, DSO, RN, 1882-1918 (شروزبري، أرلايف، 2002)

برادوس، جون، Lost Crusader: The Secret Wars of CIA Director William Colby (أكسفورد، أكسفورد يونيفرسيتي برس، 2003)

بريتنييفا، ماري، One Woman's Story (لندن، باركر، 1934)

بلايك، جورج، No Other Choice (لندن، جوناثن كايب، 1990)

بنيامين، دانيال، وسايمون، ستيفن، The Age of Sacred Terror: Radical Islam's War Against America (نيويورك، راندوم هاوس، 2003)

بودن، مارك، The Finish: The Killing of Osama bin Laden، طبعة كيندل (لندن، غروف برس المملكة المتحدة، 2012)

بوروفيك، جينريخ، The Philby Files: The Secret Life of the Master Spy - KGB Archives Revealed (لندن، تايم وارنر بايبرباكس، 1995)

بوست، جيرولد م.، The Mind of the Terrorist: The Psychology of Terrorism from the IRA to al-Qaeda (نيويورك، بالغرايف ماكميلن، 2007)

بيردن، ميلتون، وريزن، جايمس، The Main Enemy: The CIA's Battle with the Soviet Union, Told by the Mastermind Behind It (لندن، سنتوري، 2003)

بيرسون، جون، The Life of Ian Fleming, Creator of James Bond (لندن، كورونت بووكس، 1989)

بيرغن، بيتر ل.، Manhunt: The Ten-Year Search for Bin Laden - From 9/11 to Abbottabad (نيويورك، كراون، 2012)

بيرنتسن، غاري، وبيزولّو، رالف، Jawbreaker: The Attack on Bin Laden and al-Qaeda - A Personal Account by the CIA's Field Commander (نيويورك، كراون، 2005)

بيري، كولن، The Deniable Agent: Undercover in Afghanistan (إدنبرة، ماينستريم بابليشينغ، 2006)

بيلينغسلي، روجر (محرّر)، Covert Human Intelligence Sources: The 'Unlovely' Face of Police Work (هُوك، هامبشاير، ووترسايد برس، 2009)

بيير، روبرت، See No Evil (لندن، أرو بووكس، 2002)

تاكر، سبنسر، The Great War, 1914-1918 (نيويورك، راوتلدج، 1997)

تزو، صَن، فن الحرب (بوسطن، شامبالا، 1991)

تشايلدرز، أرسكين، The Riddle of the Sands: A Record of Secret Service Recently Achieved (لندن، CRW بابليشينغ، 2008)

تشايلدز، دايفد، وبوبلولّ، ريتشارد، The Stasi: The East German Intelligence and Security Service (لندن، ماكميلن، 1999)

تشرشل، ونستون، The World Crisis: The Aftermath (لندن، ماكميلن، 1929)

تينيت، جورج، مع بيل هارلو، At the Center of the Storm: My Years at the CIA (نيويورك، هاربرلوكس، 2007)

جود، آلان، The Quest for 'C': Mansfield Cumming and the Making of the British Secret Service (لندن، هاربر كوليتز، 1999)

جيفري، كيث، MI6: The History of the Secret Intelligence Service 1909-1949 (لندن، بلومزبري، 2010)

دايفيس، فيليب هـ. ج.، MI6 and the Machinery of Spying (لندن، فرانك كاس، 2004)

درامهيلر، تايلر، مع إيلين موناغان، On the Brink: An Insider's Account of How the White House Compromised American Intelligence (نيويورك، كارولّ & غراف، 2006)

دروغن، بوب، Curveball: Spies, Lies, and the Con Man Who Caused a War (نيويورك، راندوم هاوس، 2007)

دوريل، ستيفن، MI6: Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service (نيويورك، تاتشستون، 2000)

ديسماريت، جيرار، Le Renseignement Humain (باريس، شيرون، 2004)

ديفاين، جاك، مع فيرنون لوب، Good Hunting: An American Spymaster's Story (نيويورك، فارّار، شتراوس أند جيرو، 2014)

ديفلن، لاري، Chief of Station, Congo: A Memoir of 1960-67 (نيويورك، بابليك أفيرز، 2007)

رايت، بيتر، مع بول غرينغراس، Spycatcher: The Candid Autobiography of a Senior Intelligence Officer (نيويورك، فايكنغ، 1987)

رايت، لورنس، The Looming Tower: al-Qaeda and the Road to 9/11 (نيويورك، ألفرد أ. كنوبف، 2006)

رايلي، سيدني جورج، وبوباديلا، بيبيتا، Britain's Master Spy: The Adventures of Sidney Reilly, An Autobiography (نيويورك، كارول & غراف بابليشورز، 1986)

ريتشلسون، جيفري ت.، A Century of Spies: Intelligence in the Twentieth Century (نيويورك/أكسفورد، أكسفورد يونيفرسيتي برس، 1997)

ريتشلسون، جيفري ت.، The U.S. Intelligence Community (بولدر، كولورادو، وستفيو برس، 1999)

ريمنغتون، ستيلا، Open Secret: The Autobiography of the Former Director-General of MI5 (لندن، أرو بووكس، 2002)

زيغارت، آيمي ص.، Spying Blind: The CIA, the FBI, and the Origins of 9/11 (برينستون/أكسفورد، برينستون يونيفرسيتي برس، 2007)

ستانيفورث، أندرو، وسامبسون، فريزر (محرّران)، The Routledge Companion to UK Counter-Terrorism (أكسفورد، راوتلدج، 2012)

ستورم، مورتن، مع تيم ليستر وبول كرويكشانك، Agent Storm: My Life Inside al-Qaeda (لندن، فايكنغ، 2014)

سميث، مايكل، New Cloak, Old Dagger: How Britain's Spies Came in from the Cold (لندن، فيكتور غولانتز، 1996)

سميلي، جوناثن د.، The Russian Revolution and Civil War 1917-1921: An Annotated Bibliography (لندن/نيويورك، كونتينيووم، 2006)

سويت-إسكوت، بيكهام، Baker Street Irregular (لندن، مثوين وشركاؤه، 1965)

سيمز، جنيفر إ.، وجربر، بورتن (محرّران)، Transforming U.S. Intelligence (العاصمة واشنطن، جورج تاون يونيفرسيتي برس، 2005)

سيرز، مايكل، وكان، ألبرت إ.، The Great Conspiracy Against Russia (لندن، كولّيت هولدينغز ليميتد، 1946)

شروين، غاري ك.، First In: An Insider's Account of How the CIA Spearheaded the War on Terror in Afghanistan (نيويورك، بريسيديو برس، 2005)

شيركاشين، فيكتور، وفرايفر، غريغوري، Spy Handler: The True Story of the Man Who Recruited Robert Hanssen and Aldrich Ames (نيويورك، بايزك بوكس، 2005)

غارتشتاين-روسّ، دايفيد، My Year Inside Radical Islam: A Memoir (لندن، بنغوين، 2007)

غراي، ستيفن، Ghost Plane: The True Story of the CIA Torture Program (نيويورك، سانت مارتن برس، 2006)

غروز، بيتر، Gentleman Spy: The Life of Allen Dulles (بوسطن، هوتون ميفلين، 1996)

غليس، أنطوني، The Stasi Files: East Germany's Secret Operations Against Britain (لندن، سايمون & شوستر، 2003)

غورديفسكي، اوليغ، Next Stop Execution: The Autobiography of Oleg Gordievsky (لندن، ماكميلن، 1995)

فان در روور، إدوارد، Master Spy: A True Story of Allied Espionage in Bolshevik Russia (نيويورك، سكريبنر، 1981)

فنسنت، دايفد، The Culture of Secrecy: Britain, 1832-1998 (أكسفورد، أكسفورد يونيفرسيتي برس، 1999)

فيرغسون، نْيال، The War of the World: History's Age of Hatred (لندن، بنغْوين، 2009)

فيلبي، كيم، My Silent War: The Autobiography of a Spy (لندن، هاربر كوليتز، 1999، وكورنرستون بابليشينغ، 2010)

كالوجين، اوليغ، مع فن مونتاين، The First Directorate: My 32 Years in Intelligence and Counterintelligence Against the West (نيويورك، سانت مارتن برس، 1994)

كرامبتون، هنري أ.، The Art of Intelligence: Lessons from a Life in the CIA's Clandestine Service (نيويورك، بنغوين، 2012)

كراودي، تيري، The Enemy Within: A History of Spies, Spymasters, and Espionage (أكسفورد، أوسبري بابليشينغ، 2006)

كلاريدج، دْوين ر.، A Spy for All Seasons (نيويورك، سكريبنر، 1997)

كوريرا، غوردون، MI6: Life and Death in the British Secret Service (لندن، فينيكس بايبرباكس الكتاب الإلكتروني، 2012)

كوريرا، غوردون، Shopping for Bombs: Nuclear Proliferation, Global Insecurity and the Rise and Fall of the A. Q. Khan Network (لندن، هورست وشركاؤه، 2006)

كوك، أندرو، Ace of Spies: The True Story of Sidney Reilly، طبعة كيندل (ستراود، ذو هيستوري برس، 2011)

كول، ستيف، Ghost Wars (لندن، بنغوين، 2005)

كوليتز، كاثرين، وفرانتز، دوغلاس، Fallout: The True Story of the CIA's Secret War on Nuclear Trafficking (نيويورك، فري برس، 2011)

كيفي، باتريك رادّن، Chatter: Dispatches from the Secret World of Global Eavesdropping (نيويورك، راندوم هاوس، 2005)

لايست، أندرو، Ian Fleming (لندن، وايدنفيلد & نيكلسون، 1995)

لوكهارت، ر. هـ. بروس، Memoirs of a British Agent (لندن، بوتنام، 1932)

لوي، نورمان، Mastering Twentieth Century Russian History (لندن، بالغرايف ماكميلن، 2002)

مادلين، فيليب، Dans le Secret des Services (باريس، إيديسيون دو نويل، 2007)

ماكغارتلاند، مارتن، Fifty Dead Men Walking (لندن، جون بلايك، 2009)

ماكلين، فيتزروي، Eastern Approaches (لندن، بنغوين، 1991)

ماكنتاير، بن، A Spy Among Friends: Kim Philby and the Great Betrayal (لندن، بلومزبري، 2014)

مالي دو بان، جاك، Considerations on the Nature of the French Revolution: And on the Causes Which Prolong Its Duration (لندن، ج. أوين، 1793)

ماي، توماس أرسكين، Constitutional History of England: Vol. II, 1760-1860 (لندن، لونغمان، غرين، لونغمان، روبرتس وغرين، 1863)

مودين، يوري، My Five Cambridge Friends (نيويورك، فارّار، شتراوس وجيرو، 1994)

موران، كريستوفر، Classified: Secrecy and the State in Modern Britain (كامبريدج، كامبريدج يونيفرسيتي برس، 2012)

موران، ليندسي، Blowing My Cover: My Life as a CIA Spy (نيويورك، بيركلي بووكس، 2005)

ميلمان، يوسي، ورافيف، دان، Spies Against Armageddon: Inside Israel's Secret Wars (بيروت، ليفانت بووكس، 2012)

ميلي، تيم، Kim Philby: The Unknown Story of the KGB's Master Spy (لندن، بايتباك بابليشينغ، 2014)

ناصري، عمر، Inside the Global Jihad: How I Infiltrated Al Qaeda and Was Abandoned by Western Intelligence (لندن، هورست وشركاؤه، 2006)

نايت، آيمي، Spies Without Cloaks: The KGB's Successors (برينستون، برينستون يونيفرسيتي برس، 1996)

نايتلي، فيليب، The Second Oldest Profession: Spies and Spying in the Twentieth Century (لندن، بيمليكو، 2003)

هاريس، شاين، The Watchers: The Rise of America's Surveillance State (نيويورك، بنغوين، 2010)

هاليفي، افرايم، Man in the Shadows: Inside the Middle East Crisis with a Man Who Led the Mossad (نيويورك، سانت مارتن برس، 2006)

هلم، سارة، A Life in Secrets: The Story of Vera Atkins and the Lost Agents of SOE (لندن، ليتل، براون، 2005)

هلمز، ريتشارد، مع ويليام هود، A Look Over My Shoulder: A Life in the Central Intelligence Agency (نيويورك، راندوم هاوس، 2003)

هوبكيرك، بيتر، Quest for Kim: In Search of Kipling's Great Game (أكسفورد، أكسفورد يونيفرسيتي برس، 1996)

هولينغزوورث، مارك، وفيلدينغ، نيك، Defending the Realm: Inside MI5 and the War on Terrorism (لندن، أندري دويتش، 2003)

هويت، ستيف، Snitch! A History of the Modern Intelligence Informer (لندن، بلومزبري، 2010)

هيتز، فريدريك ص.، The Great Game: The Myths and Realities of Espionage (نيويورك، فينتدج، 2005)

هيل، جورج أ.، Go Spy the Land (لندن، كاسيل، 1932)

هينيسي، بيتر، وهيرمان، مايكل، Intelligence Services in the Information Age: Theory and Practice (لندن، فرانك كاس، 2001)

واريك، جوبي، The Triple Agent: The al-Qaeda Mole Who Infiltrated the CIA، طبعة كيندل (نيويورك، دابلداي، 2011)

وايز، دايفد، Nightmover: How Aldrich Ames Sold the CIA to the KGB for $4.6 Million (نيويورك، هاربر كوليتز، 1995)

وايمانت، روبرت، Stalin's Spy: Richard Sorge and the Tokyo Espionage Ring (لندن، آي بي توريس، 2006)
واينر، تيم، Legacy of Ashes: The History of the CIA (لندن، بنغوين/ألن لاين، 2007)
ووترز، ت. ج.، Class 11: My Story Inside the CIA's First Post-9/11 Spy Class (نيويورك، داتّون، 2006)
وودوارد، بوب، Obama's Wars (نيويورك، سايمون أند شوستر، 2010)
وولف، ماركوس، مع آن ماكلفوي، Man Without a Face: The Autobiography of Communism's Greatest Spymaster (نيويورك، بابليك أفيرز، 1997)

ما هي القاعدة الأولى للاستخبارات؟ انسَ كل شيء تعرفه.

أصبح عالم التجسّس القديم الذي شدَّد على العامل البشري - صناديق البريد الميت، كاميرا تصوير المايكروفيلم، وعدو يرسل تقارير إلى مركز موسكو - شيئاً من التاريخ. أو هل حصل هذا حقاً؟ في الآونة الأخيرة، تغيَّر أسلوب التجسّس مع تغيّر العدو الذي كثيراً ما يأتي من ثقافة بعيدة جداً عن الوعي الغربي، وهو جزء من جماعات غير منظَّمة جداً. العدو الجديد يتطوَّر باستمرار، وهو مستعد لقتل الأبرياء دائماً.

في مواجهة هذا التهديد الجديد، استبعد أسياد الجاسوسية الجدد العامل البشري كوسيلة رئيسة لتجميع المعلومات السرية، واستبدلوه بهوس يركّز على الطرائق التقنية للتجسّس التي تتراوح ما بين استخدام أقمار اصطناعية للتصوير عالي الوضوح والتنصّت العالمي على المراسلات. لكن هذا الهوس بالتكنولوجيا فشل فشلاً ذريعاً، بالأخص أمام هجمات 11 سبتمبر.

في هذا التاريخ العصري للتجسّس، يأخذنا ستيفن غراي من أساطير وكالة الاستخبارات المركزية خلال الحرب الباردة إلى العملاء الذين خانوا الجيش الجمهوري الإيرلندي، مروراً بالجواسيس داخل تنظيم القاعدة وداعش. لقد تطوَّرت التقنيات والأساليب، ولكن الدوافع القديمة للخيانة - الوطنية، الجشع، الانتقام - لا تزال قائمة.

بناءً على سنوات من الأبحاث والمقابلات مع مئات المصادر السرية، يعرض هذا الكتاب فضائح هذا العالم السري. ويبيِّن كيف أنه أُعيد الاعتبار للعامل البشري في عالم التجسّس العصري لمواجهة أخطر أعداء العالم.

«دليل إلى عالم التجسّس العصري. وداعاً جورج سمايلي. الأهداف جديدة، والطرائق مختلفة، والتكنولوجيا متطوِّرة جداً. فقط الغاية تبقى: الإنذار المسبق».

- فريديريك فورسيث، مؤلف The Day of the Jackal

«مليء بالمعلومات السرية. هناك كتب عديدة عن الجواسيس والتجسّس، لكنّ قلّة منها دقيقة ومميزة كهذا الكتاب. قراءته ممتعة جداً... ويجب أن يكون في مكتبة أي شخص مهتم بالعالم الذي نعيش فيه، والتهديدات التي نواجهها، والجهات الموكلة إليها حمايتنا على الدوام».

- جايسون بورك، مؤلف The 9/11 Wars و Al-Qaeda

«أحثّ كل الجواسيس الجدد والقدامى - لكن بالأخص الأشخاص الذين يريدون فهم دور التجسّس - على قراءة هذا الكتاب الرائع برواياته الدقيقة والمفصّلة عن انتقال وكالة الاستخبارات المركزية من الحرب الباردة إلى الحرب ضد داعش، ومن الهجوم النووي إلى هجوم القراصنة الإلكترونيين. إنه يشرح بالتفصيل الأعمال الجارية. لا يزال الخصوم التقليديون يهدِّدوننا، ويتطلّب الخصوم الجدد نشاطات سرية لاختراق صفوفهم والتغلّب عليهم».

- جون ماكغافن الثالث، نائب المدير السابق لقسم العمليات السرية في وكالة الاستخبارات المركزية



ستيفن غراي كاتب بريطاني ومذيع ومراسل تحقيقات استقصائية، لديه خبرة أكثر من عقدين من الزمن في مواضيع الاستخبارات. وقد اشتهر لكشفه برنامج وكالة الاستخبارات المركزية «للترحيل الاستثنائي»، وكذلك بسبب تقاريره من العراق وأفغانستان. وهو مراسل أجنبي سابق ومحرِّر التحقيقات في الصنداي تايمز، وقد عمل في النيويورك تايمز والغارديان ومحطة BBC ومحطة القناة الرابعة، ويعمل حالياً كمراسل خاص لوكالة رويترز. غراي هو مؤلف كتاب Ghost Plane (الطائرة الشبح).




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com




الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com


ISBN 978-614-01-1755-6
9 786140 117556

